رسائل إخوان الصفاء وخِلَّان الوفاء

(الجزء الرابع)

إخوان الصفا

رسائل إخوان الصفاء وخِلَّان الوفاء (الجزء الرابع)

تأليف
إخوان الصفا

مراجعة
خير الدين الزركلي

هنــداوي

رسائل إخوان الصفاء وخِلَّان الوفاء (الجزء الرابع)

إخوان الصفا

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٢ ١٥٧٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق الخاصة بالإخراج الفني للكتاب وبصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Artistic Direction, Cover Artwork and Design Copyright © 2018 Hindawi Foundation C.I.C.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

العلوم الناموسية الإلهية والشرعية ٧
الرسالة الأولى ٩
الرسالة الثانية ١٠٩
الرسالة الثالثة ١١٧
الرسالة الرابعة ١٣٧
الرسالة الخامسة ١٥٣
الرسالة السادسة ١٩٩
الرسالة السابعة ٢١٧
الرسالة الثامنة ٢٥٧
الرسالة التاسعة ٢٩٥
الرسالة العاشرة ٣١٣
الرسالة الحادية عشرة ٣٢١
كلمة الختام ٤٥٣

العلوم الناموسية الإلهية والشرعية

الرسالة الأولى

في الآراء والديانات في العلوم الناموسية الإلهية والشرعية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ أنَّا قد فرغنا من رسالة الحدود والرسوم التي هي آخر رسائل النفسانيات العقليات، حسبما وعدنا في فهرست صدر كتابنا هذا، فنريد الآن أن نذكر في هذا القسم الرابع الكلام في الإلهيات، وهو الغرض الأقصى والغاية القصوى، فنبدأ أولًا بالرسالة الأولى منها في الآراء والديانات، فنقول: اعلم أن الناس مختلفون في آرائهم ومذاهبهم كما هم مختلفون في صور أبدانهم وأخلاق نفوسهم وأعمالهم وصنائعهم.

واعلم أن سبب اختلاف أخلاقهم هو من أربع جهات: إحداها من جهة اختلاف تركيب أبدانهم ومزاج أخلاطها، والأخرى من جهة اختلاف ترب بلادهم وتغيرات أهويتها والأزمان التي تنشأ فيها، والأخرى من جهة نشوئهم على عادات آبائهم في سنن دياناتهم، وعلى عادات من يربيهم ويؤدبهم، والأخرى من جهة أشكال الفلك ومواضع الكواكب في أصول مواليدهم ومساقط نطفهم، وقد بيَّنا طرفًا من هذا العلم في رسالة الأخلاق، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة طرفًا من فنون اختلافات العلماء الذين هم أصَّلوا الآراء والمذاهب وفرَّعوا منها أنواع المقالات والأحكام، وكم هي تلك الآراء والمذاهب، وما هي تلك الأسباب التي أدت بالعلماء إلى الاختلاف، وكم هي. ولكن قبل ذلك نحتاج أن نذكر أجناس الأشياء التي اختلفوا فيها: كم هي، وما هي، فنقول: إن الأشياء المختلف فيها ثلاثة أنواع: أولها في الترتيب هي الأمور المحسوسة، وبعدها الأمور المعقولة، وبعدها الأمور الإلهية المبرهنة.

أما الأمور المحسوسة فهي صور في الهيولى تدركها الحواس المباشرة لها وتنفعل عنها كما بيَّنا في رسالة الحاس والمحسوس.

وأما الأمور المعقولة فهي رسوم تلك المحسوسات التي أدتها الحواس إلى القوة المتخيلة إذا بقيت مصورة في الأوهام بعد غيبة المحسوسات عن مباشرة الحواس لها، كما بيَّنا في رسالة العقل والمعقولات.

وأما الأمور الإلهية المبرهنة فهي أشياء لا تدركها الحواس ولا تتصورها الأوهام، ولكن الدليل والبراهين الصادقة باعثة للعقول إلى الإقرار بها والقبول لها، كما نبين ذلك في كتب الهندسة وبيان المنطقية جميعًا.

مثال ذلك أنه قد قام البرهان في كتاب إقليدس على أن كل مقدار ذي نهاية أي مقدار كان جسمًا كان أو سطحًا أو خطًّا، فإنه يمكن أن يوجد منه ظل دائمًا أبدًا لا يفنى، وهذه الحكمة مما لا تدركها الحواس ولا تتصورها الأوهام البتة، وأمثال هذه الحكمة كثيرة في هذه الكتب وفي غيرها من كتب الهندسة، وهكذا أيضًا قد قام البرهان بطريق المنطق الحكمي الفلسفي على أن خارج العالم لا خلاء ولا ملاء، وهذه الحكمة أيضًا مما لا تدركها الحواس ولا تتصورها الأوهام، وأمثال هذه الأشياء كثيرة معروفة عند العلماء بخاصة إقرار الموحدين لله والعارفين به بأن الله تعالى حي قادر عالم حكيم خالق، لا يوصف بالقيام ولا بالقعود، ولا الدخول ولا الخروج، ولا الحركة ولا السكون، وما شاكل ذلك من الأوصاف مما يوصف بها النفس والعقل الفعال والصور المجردة من الهيولى وما شاكلها من الجواهر البسيطة المسمين الملائكة والروحانيين، وذلك أن الحواس لا تدركها ولا تتصورها الأوهام بوجه من الوجوه ولا سبب من الأسباب.

فأما أوصاف الجاهلين بالله فهي أنهم يصفون الله تعالى بصفات المخلوقين بعد أن نزه الله تعالى نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، فقد تَبيَّن إذَنْ مما ذكرنا أن الأمور المبرهنة التي لا تدركها الحواس ولا تصورها الأوهام، ولكن البرهان الضروري والحجة القاطعة يضطران العقول إلى الإقرار بها مقررة.

ثم اعلم أن البراهين هي ميزان العقول، كما أن الكيل والذرع والشاهين موازين الحواس، وكما أن الناس إذا اختلفوا في حزر شيء وتخمينه من الأشياء المحسوسة، رجعوا إلى حكم الكيل والذرع ورضوا بها وارتفع الخلف من بينهم، فهكذا العقلاء الذين يعرفون البراهين الضرورية إذا اختلفوا في حكم شيء من الأشياء التي لا تدرك بالحواس ولا تُتصوَّر بالأوهام، رجعوا عند ذلك إلى دليل وبرهان وما ينتج من المقدمات الضرورية وأقروا بها

وقبلوها، وإن كانت لا تدركها الحواس ولا تتصورها الأوهام لأنهم يرون الإقرار بالحق أولى من التمادي في الباطل، وقد تبين مما ذكرنا أن الأمور المختلفة فيها ثلاثة أجناس حسب، التي هي المحسوسة أو المعقولة أو المبرهنة، ونريد أن نذكر الآن كمية أسباب اختلاف الناس في إدراكهم من كم وجه يكون.

(١) فصل في بيان اختلاف كمية إدراك المعلومات

فنقول: اعلم أن أسباب اختلاف الناس في إدراك هذه الأمور الثلاثة التي تُعلم وتُعرف من ثلاث جهات: إحداها دقة المعاني ولطافتها وخفاها، والثانية فنون الطرق المؤدية إليها الأسباب المُعِينة على إدراكها، والثالثة تفاوت قوى نفوسهم الدراكة لها في الجودة والرداءة، وهي الأصل والسبب في اختلافهم في الآراء والمذاهب وسائرها فروع عليها ونحتاج أن نشرح هذا الباب، فنقول:

لما كان الإنسان إنما هو جملة مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية، صار يقوي نفسه الروحانية بدرك المعقولات، كما أن بأعضاء جسده الجسماني يعمل الصنائع؛ لأن كلية العلوم موضوعة بإزاء قوى نفوس جميع الناس، كما أن كلية الصناعات البشرية موضوعة بإزاء قوى أجساد جميع الناس؛ وذلك لأنه لا يتهيأ لإنسان واحد بقوته الجزئية الاستنباطُ بجميع العلوم والاحتمال لسائر الصنائع، وذلك أن لنفسه قوًى كثيرة، وله بكل قوة منها أفعال عجيبة، كما أن لجسده مفاصل كثيرة وأعضاءً طريفة، وله بكل عضو من جسده حركات مختلفة، كما بيَّنا طرفًا من هذا الفن في رسالة تركيب الجسد.

ولكن نريد أن نذكر هنا ثمانية أنواع منها: وهي القوة الدراكة للمعلومات، ونبدأ أولًا بذكر القوى الحساسة الخمسة؛ إذ كانت هي أول قوى النفس التي ينال بها الإنسان العلوم والمعارف، ثم نذكر القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ، ثم القوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ، ثم القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ.

ثم اعلم أن الناس متفاوتون في الدرجات في هذه القوى بين الجودة والرداءة في إدراكهم المعلومات تفاوتًا بعيدًا، وهي أحد أسباب اختلافهم في الآراء والمذاهب، وذلك أن من الناس من يكون حاد البصر يرى الأشياء الصغيرة البعيدة، ومنهم من يكون دون ذلك، ومنهم من لا يبصر شيئًا البتة.

وهكذا تجد حالهم في القوة السامعة، وذلك أن منهم من يكون جيد السمع يسمع الأصوات الخفية ويميز بين النغمات الموزونة والمنزحفة، ومنهم من يحتاج في ذلك إلى مفاعيل العروض، ومنهم من لا يحس بشيء من ذلك.

وعلى هذا القياس يكون حكمهم في سائر قوى حواسهم من الذوق واللمس والشم، وهكذا حكمهم في ذكاء نفوسهم وجودة قرائحهم وصفاء أذهانهم؛ وذلك أنك تجد كثيرًا من الناس من يكون جيد التخيل دقيق التمييز سريع التصور ذَكورًا حفوظًا، ومنهم من يكون بليدًا بطيء الذهن أعمى القلب ساهي النفس، فهذا أيضًا أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب؛ لأنه إذا اختلفت إدراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك.

(٢) فصل في بيان علة اختلاف إدراك القوى العلامة

فنقول: اعلم أن هذه التفاوتات التي ذكرنا من هذه القوى الداركة العلامة ليست هي من أجل أنها مختلفة في ذواتها بين الجودة والرداءة، ولكن من أجل اختلاف أحوالها في إدراكها صور المعلومات، وأن علة اختلاف أفعالها هو من أجل اختلاف أدواتها واختلاف آلاتها في الجودة والرداءة؛ وذلك أنه لما كان كل عضو من الجسد هو آلة وأداة لقوة من قوى النفس، وكانت أعضاء الجسد مختلفة الهيئات المتفاوتة في الجودة والرداءة في بعض الناس أو في بعض الأحايين؛ اختلفت أفعال هذه القوى بحسب تلك الاختلافات، مثال ذلك الحدقتان فإنهما عضوان من الجسد، وهما أداتان للقوة الباصرة، فإذا كانتا سليمتين من الآفات العارضة صحيحتين صافيتين مجليتين، تراءت فيهما صور المرئيات المقابلات لهما كما يتراءى في المرايا صور الأشياء المقابلة لها، فأدركت هذه القوة تلك المبصرات على حقائقها. فأما إذا كانتا على غير ما ذكرنا لعارض من الآفات، عاقت القوة الباصرة عن إدراكها محسوساتها.

وهكذا أيضًا القوة السامعة، وذلك أنه متى كانت أدواتها التي هي صماخَا الأذنين مفتوحتين نقيتين من الأوساخ سليمتين من الآفات العارضة، طنت فيهما الأصوات بهيئتها، فأدركتها القوة السامعة بحقائقها، وإذا كانت على غير ما ذكرنا لعارض من الآفات عاقت عن إدراكها المسموعات. وهكذا أيضًا القوة الشامَّة، متى كانت خياشيم المنخرين مفتوحة نقية من البخارات الغليظة سليمة من الآفات العارضة، أدركت القوة الشامَّة الروائح وميزت بينها وعرفتها، أو متى عرض هناك بخار أو زكام أو آفة عوقت عن إدراكها وتمييزها. وهكذا أيضًا القوة الذائقة، متى كانت الرطوبة المستبطنة التي في جرم اللسان معتدلة سليمة من الآفات العارضة، أدركت طعوم الأشياء المذوقة بحقائقها، وعرفت التمييز بينها، ومتى غلب على تلك الرطوبة خلط أو مزاج خارج عن الاعتدال، عوقت عن إدراكها الطعوم

والتمييز على حقائقها. وهكذا أيضًا القوة اللامسة فإنه متى عرضت آفة للأعصاب المنتسجة بين خلل اللحم والجلد، عوقت عن إدراكها الملموسات. وهكذا أيضًا حالات القوة المتخيلة، فإنه متى كان مقدم الدماغ معتدلًا سالمًا من الآفات، تخيلت فيه رسوم المحسوسات التي أدتها إليها القوة الحساسة بحقائقها وقبلتها بهيآتها، ومتى عرضت آفة كما يعرض في الأمراض الحادثة المفرطة — كما ذكر في كتب الطب — عوقتها عن فعلها وتخيلها رسوم المحسوسات كما يعترض للمبرسمين[١] وصاحب الماليخوليا.

وهكذا أيضًا حكم القوة المفكرة المستبطنة وسط الدماغ متى كان معتدلًا على الأمر الطبيعي سالمًا من الآفات العارضة، كان فكر الإنسان ورؤيته وتمييزه وفهمه على ما ينبغي، ومتى عرضت هناك آفة لعارض من الأعراض أو خروج عن الاعتدال، عوقت النفس عن أشراف أحوالها وأفعالها، التي هي الفكر والتمييز والروية والتحصيل وما شاكلها؛ لأن هذا العضو من أشرف الأعضاء بعد القلب. وهكذا أيضًا حكم القوة الحافظة المستبطنة مؤخر الدماغ في التذكار والنسيان، وإنما ذكرنا في هذا الفصل هذه الأشياء لأن من هذه القوى تكون معارف الحيوان كلها، ومن تعاون أدوات هذه القوى بالمعاونات اللائقة تزيد في قواها، ومن تفاوتها يكون اختلاف معارفها في الجودة والذكاء أكثر وأقل، وهي الأصل في جميع العلوم والمعارف، ومن تفاوت أفعال هذه القوى يكون أكثر اختلاف الناس في معلوماتهم ومنازعات العلماء في آرائهم ومذاهبهم، وخصلة أخرى أيضًا أن كثيرًا من العلماء ممن ينظر في علوم النفس ويتكلم في أحوالها، يظن أن لها قوًى وأفعالًا وأخلاقًا مختلفة تفعل بها اختلافات مختلفة ولا يدرون اختلاف أحوالها وأخلاقها إنما هو من جهة اختلاف أدواتها في الهيئة والجودة والرداءة، التي كل واحد منها عضو من الجسد — كما بيَّنا ذكرها — وخصلة أخرى أن كثيرًا من العلماء الطبيعيين والمنطقيين لما اعتبروا هذا الرأي الذي ذكرنا من أن النفس إنما هي مزاج البدن لما رأوا أن تغيير أفعال الحيوان وأخلاقها عند تغيير مزاج الأعضاء واختلاف هيئاتها، وخاصة تغيير أفعال الإنسان وأخلاقه عند الأمراض وعند تغيير مزاج هذه الأعضاء واحدًا واحدًا.

فأما الإلهيون فَيَرَون خلاف ذلك، وقد ذكرنا أقاويلهم في خلال رسائلنا الإحدى والخمسين، وذكرنا البراهين عليها في الرسالة الجامعة، فهذا الذي ذَكَرنا في هذا الباب هو أحد أسباب اختلاف الناس في معارفهم ومعلوماتهم المؤدية بهم إلى اختلاف الآراء والمذاهب.

---

[١] يقال: برسمه أحدث فيه البرسام، وهو التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب، والمريض بهذا مبرسم.

وأما السبب الثاني الذي هو من جهة دقة المعاني ولطافتها وجلائها وظهورها، فهو مثل التفاوت الذي بين الأمور الجسمانية الظاهرة المدركة بالحواس، وبين الأمور الروحانية الخفية عن إدراك الحواس، التي لا تعلم إلا بدلائل العقول ونتائج البراهين، كما تقدم ذكرها. وهذا الباب هو أكثر أسباب اختلاف العلماء في آرائهم ومذاهبهم.

وأما الوجه الثالث من الأسباب المؤدية للناس إلى اختلافهم في معلوماتهم فهو استعمالهم القياسات المختلفة وطرقات استدلالاتهم المتفاوتة، وهذا الباب هو أكثرها تفرعًا وتشعبًا، وهو اكتساب منهم، وعليه يجازون من الذم والمدح والثواب والعقاب.

وأما الوجهان الأوَّلان فليس باختيار منهم ولا اكتساب لهم فيه.

(٣) فصل في بيان كمية القوى العلامة

وإذ قد تَبَيَّن مما ذكرنا أسبابُ اختلاف الناس في مدركاتهم من الأمور المختلفة فيها من كمْ وجه يكون، وكان أحد الوجوه تفاوُت القوى الداركة العلامة التي هي أربعة أنواع: الحساسة والمتخيلة والمفكرة والحافظة. وقد تَقدَّم شرح تفاوتها في الجودة والرداءة قبل هذا، فنريد أن نذكر في هذا الفصل الأسباب المُعِينة لها على إدراكها مدركاتها والمعوقة لها عن ذلك، ونبدأ أولًا بذكر القوى الحساسة، ثم نذكر القوى المتخيلة، ثم المفكرة، ثم الحافظة.

فأما بيان ما تحتاج كل حساسة من الشرائط في إدراكها محسوساتها حسبما نبين ها هنا، فنقول: إن كل حاسَّة من الحواس الخمس تحتاج في إدراكها محسوساتها إلى شرائط معدودة، لا زايدة ولا ناقصة، فمتى عدم واحدة من تلك الشرائط أو بعض، أو زاد أو نقص على المقدار الذي ينبغي، عوقها عن إدراك محسوساتها على حقائقها.

مثال ذلك القوة الباصرة، فإنها تحتاج في إدراكها المبصرات إلى ضوءٍ ما، وإلى بعدٍ ما، وإلى محاذاتٍ ما، وإلى وضعٍ ما؛ فمتى عدم شيء منها، عاقها ذلك عن إدراك المبصرات بحقائقها؛ وذلك أنه لا يمكنها إدراك الضياء المفرط والنور الباهر، كما لا يمكنها إدراك المبصرات في الظلمة الظلماء؛ وذلك أن الإنسان لا يمكنه النظر إلى عين الشمس نصف النهار في يوم صائف، كما لا يمكنه رؤية الأشياء الصغار في الظلمة الظلماء ولا رؤيتها في البعد الأبعد، ولا في القرب الأقرب إذا وضعت يده مثلًا قرب الجفن، ولا رؤيتها من غير محاذاة ولا رؤية الأشياء المتحركة الشديدة الحركة كالنبل المار متى رُمي عن قوس شديدة.

وعلى هذا القياس حكْم سائر الحواس، فإنها تحتاج في إدراكها محسوساتها إلى شرائط معدودة، فمتى عدمت واحدة منها، أو نقصت عن المقدار أو زادت عليه، عوقها عن إدراك محسوساتها.

(٤) فصل في بيان ما لكل حاسَّة من المحسوسات بالذات

فاعلم أن لكل حاسَّة محسوسات مختصة لها بالذات ومحسوسات بالعرض، وهي لا تخطئ في المدركات التي هي لها بالذات، ولكن في التي لها بالعرض.

مثالُ ذلك البصرُ، فإن المبصرات لها بالذات هي الأنوار والضياء والظلم.

وأما الألوان فإن ذلك لها بتوسط النور والضياء.

وأما سائر الأجسام وسطوح أشكالها وأوضاعها وأبعادها وحركاتها فهو بتوسط اللون، وذلك أن كل جسم لا لون له لا يرى ولا يدركه البصر.

ثم اعلم أن البصر هو أشرف الحواس وأشدها تحقيقًا لمدركاته، كما يقال: ليس الخبر كالمعاينة، وبين الحق والباطل أربع أصابع؛ يعني بين العين والأذن. ولكن مع شرفه وتحقيقه لمدركاته عظيم الخطأ كثير الزلل؛ وذلك أن الإنسان ربما يرى الشيء الصغير كبيرًا أو الكبير صغيرًا، أو القريب بعيدًا أو البعيد قريبًا، كما يرى الدرهم في قعر بركة صافي الماء قريبًا كبيرًا.

وهكذا يرى فيما وراء البخار الرطب يرى الشيء أعظم مما هو، فكذلك ربما يرى الإنسان الشيء المتحرك ساكنًا والساكن متحركًا، كما يرى من يكون في الزورق إذا نظر إلى الشطوط فإنه يرى الأشخاص الساكنة متحركة ويرى نفسه ومَن معه ساكنًا.

وهكذا ربما يرى الشيء المستقيم معوجًّا والمنتصب منكوسًا، كما يرى العود المنتصب في الماء. وربما يرى الشيء المرتفع منخفضًا والمنخفض مرتفعًا، كما يرى سقف الرواق وأرضه في البعد متقاربين وما شاكل هذه الفنون، كما ذكر عللها في كتاب المناظر بشرح طويل، وإذا كان الخطأ والزلل الذي يدخل على الإنسان العاقل المميز من جهة مدركات البصر، الذي هو أشرف الحواس وأجلُّ القوى الداركة، هذا القدر فما ظنك يا أخي بما دونها من سائر الحواس والقوى الداركة على هذا المثال.

(٥) فصل في بيان الحواس التي لا تخطئ في إدراكاتها المدركات التي هي لها بالذات

فنقول: اعلم أن لكل حاسَّة مدركات بالذات ومدركات بالعرض، وهي لا تخطئ في مدركاتها التي لها بالذات، وإنما يدخل عليها الخطأ والزلل في المدركات التي لها بالعرض.

مثال ذلك البصرُ، فإن الذي له من المدركات بالذات هي الأنوار والظلمة، وهي التي لا تخطئ في إدراكها في جميع الأوقات البتة.

فأما إدراكها الألوان والأشكال والأوضاع والأبعاد والحركات وما شاكلها، فهي تدركها بتوسط النور والضياء على الشرائط التي ذكرناها، وقد يدخل عليها الخطأ والزلل في ذلك إذا نقصت الشرائط التي تحتاج إليها.

وعلى هذا القياس يجري حكم سائر الحواس ومحسوساتها، فتَعَقَّلْ يا أخي في هذا الباب، فإن الذين دفعوا حقائق الأشياء وكيفياتها والنظر فيها وأنكروها، من هذا الباب أتوا.

أما القوة السامعة التي لها بالذات هي بالأصوات والنغمات حسْب، والتي للذائقة هي الطعوم حسب، والتي للشامة هي الروائح حسب، والتي للَّامسة فهي عدة أشياء، قد ذكرناها في رسالة الحاس والمحسوس، فاعرفها من هناك.

ثم اعلم أ، لكل قوة من هذه الحواس الخمس خاصية ليست للأخرى، ولكن الخاصية التي تعمها هي أنها لا تخطئ في مدركاتها إذا تمت شرائطها ولم يعرض لها عائق، وخاصة أخرى أنها لا يدرك كل واحد منها محسوسات أخواتها التي لها بالذات.

مثال ذلك البصرُ، فإنه لا يدرك الأصوات ولا الروائح ولا الطعوم! وهكذا أخواتها، ولكن بما تشترك في المحسوسات اللاتي لهن بطريق العرض؛ مثل الحركة، فإنها تدرك وتعلم بالبصر واللمس بالسمع جميعًا.

(٦) فصل في بيان زيادة القوى التي في حواس الإنسان

فنقول: اعلم أن الله تعالى خلق في حواس الإنسان زيادة قوة وجودة تمييز ما لم يجعل في حواس سائر الحيوانات، وبخاصة في القوة اللامسة فضله عليها وكرمه بها، كما جعل في قوة يديه من الصنائع العجيبة، وفي قوة لسانه من اللغات المختلفة ما لم يجعل في أيديها ولا في ألسنتها، كما هو بيِّن ظاهر جلي لا يخفى على أحد من العقلاء. وقد يظن كثير من

الناس العقلاء أن بعض الحيوانات يفهم معاني الكلام ويمتثل الأمر والنهي، ولكن لا يقدر على الكلام كمثل الفيل والفرس الجواد والجمل والغنم والبقر والكلب والسنور والقردة والببغاء، وأمثالها من الحيوانات المسخرة للإنسان المستأنسة به المنقادة لخدمته.

ولَعمري أنها تفهم معاني بعض الكلام كالزجر والأمر والنداء وما شاكلها التي هي بعض أقسام الكلام.

فأما أن تفهم معاني الخبر والسؤال والجواب والاستفهام فلا، وقد بيَّنا علة ذلك في رسالة الحيوانات.

ثم اعلم أن الإنسان مع استماعه الأصوات وتمييزه بالنغمات يفهم معاني اللغات والأقاويل والكلمات، كما أنه عند نظره إلى الخطوط والكتاب يفهم ما تتضمنه من معاني الكلام والعبارات ما لا يفهم عليها غيره من الحيوانات.

ثم اعلم أن من هاتين الطريقتين أكثر معلومات الإنسان التي ينفرد بها دون سائر الحيوانات.

واعلم أن بني الإنسان في هاتين القوتين متفاوتو الدرجات تفاوتًا بعيدًا جدًّا؛ وذلك أن من الناس من لا يفهم إلا لغة واحدة ولا يعرف أيضًا من معاني تلك اللغة من الأشياء والألفاظ والأقاويل إلا شيئًا قليلًا، ومن الناس من يفهم عدة لغات ويُحْسن أن يقرأ عدة كتابات، ويفهم من كل لغة أسماءً وألفاظًا وأقاويلَ كثيرةً، ويفهم معاني دقيقة ما لا يفهم غيره من الناس، وهذه أحد أسباب اختلاف الناس في المعارف واختلاف العلماء في الآراء والمذاهب.

فأما بيان كمية معلومات الإنسان حسبما نذكره ها هنا فنقول: إنه لما كان جميع معلومات الإنسان من جهة الزمان ثلاثة أنواع فحسب، فمنها ما قد كان مع الزمان الماضي، ومنها ما سيكون في المستقبل، ومنها ما هو كائن في الوقت والزمان والحاضر.

ولما كان أحد الطرق التي تعلم الإنسان الأمور الماضية مع الزمان استماع الأخبار، وكان رب مخبر كذاب ورب مستمع له مصدق، وهكذا أيضًا مخبر صدوق ورب مستمع له مكذب.

وعلى هذا القياس أيضًا حكم الأخبار عن الكائنات قبل كونها وعن الأشياء الموجودة في الزمان الغائبة بالمكان، فهذا أيضًا أحد أسباب اختلاف الناس في المعلومات واختلاف العلماء في الآراء والمذاهب.

(٧) فصل في بيان ما يخص الإنسان من المعلومات

فنقول: إن الله لما خلق الإنسان الذي هو آدم أبو البشر، عليه السلام، وفضله على كثير ممن خلق قبله تفضيلًا، جعل أحد فضائله كثرة العلوم وغرائب المعارف وجعل له إليها عدة طرقات؛ فمنها طرق الحواس الخمس التي بها يدرك الأمور الحاضرة في المكان والزمان، كما بيَّنا في رسالة الحاس والمحسوس، ومنها طريق استماع الأخبار التي ينفرد بها الإنسان دون سائر الحيوانات، يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعًا، كما ذكر الله تعالى ومنَّ به عليه، فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، ومنها طريق الكتابة والقراءة يفهم بها الإنسان معاني الكلام واللغات والأقاويل بالنظر فيهما عمن لم يَرَه من أبناء جنسه مع الزمان أو مَن هو غائب عنه بالمكان، كما قال الله ومنَّ به على الإنسان، فقال لنبيه محمد عليه السلام: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وبهذه الفضيلة شارك الإنسانُ الملائكةَ الكرام كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

واعلم أن فهم القراءة والكتابة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والأقاويل، كما أن فهم الكلام والأقاويل معرفتها إنما هي متأخرة عن فهم المحسوسات كما هو بيِّن ظاهر لا يخفى على العقلاء؛ وذلك أن الطفل إذا خرج من الرحم فإنه في الوقت والساعة تدرِك حواسه محسوساتها، فيحس بالقوة اللامسة الخشونة واللين، وبالقوة الباصرة النور والضياء، وبالقوة الذائقة طعم اللبن، وبالقوة الشامَّة الروايح، وبالقوة السامعة الأصوات، ولكنه لا يعلم معاني الكلام والأصوات إلا بعد حين؛ فأول شيء يحس باللمس فيتألم؛ لأن حساسة اللمس أعم الحواس، ثم يحس بالطعم فيميز لبن أمه من غيره، ثم يميز بين الروائح فيعرف الشم، ثم يميز بين الصوت الشديد الجهير، وبين الصوت الضعيف الخفيف، ثم يفرق بين الصور، ثم يميز على ممر الأوقات بين نغمة الأم ونغمة الأب والإخوة والأخوات والأقرباء وغيره. ثم شيئًا بعد شيء على التدريج، وعلى هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواس ومحسوساتها إلى أن تتم سن التربية ويغلق باب الرضاع ويفتح الكلام والنطق. ثم بعد ذلك تجيء أيام الكتابة والقراءة والآداب والصنايع والرياضيات وإسماع الأخبار والروايات، والفقه في الدين، والنظر في العلوم والمعارف، وطلب حقائق الموجودات، والبحث عن الكائنات، والاستدلال بالحاضرات على الغائبات، والمحسوسات على المعقولات، وبالجسمانيات على الروحانيات، وبالرياضيات على الطبيعيات، وبالطبيعيات على الإلهيات،

التي هي الغاية القصوى في العلوم والمعارف والسعادة الأبدية والدوام السرمدية، بلغك الله وإيانا إلى هذه الغاية، وشرح صدرك، وفتح قلبك، ونوَّر فهمك، وصفَّى نفسك، وحسَّن أخلاقك، وأصلح شأنك، وزكَّى أعمالك، وأنعم بالك، وأكرمك مما أنعم به على أوليائه وأنبيائه بما علمهم من البيان والكتاب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

(٨) فصل في بيان القوة المتخيلة

فنقول: إنا قد ذكرنا طرفًا من أحوال القوة الحاسَّة وكيفية التفاوتات التي بينها في إدراكها محسوساتها، وما الأسباب المُعِينة لها على ذلك والمعرفة لها عنها فيما تقدم، فنريد أن نذكر طرفًا في هذا الفصل من أحوال القوة المتخيلة التي مسكنها الدماغ؛ إذ كانت التالية للقوى الحساسة في تناولها رسوم المحسوسات منها، ونذكر أيضًا بعض الأسباب المعينة على أفعالها والمعوقة عن ذلك، ونذكر تفاوت درجات الناس في هذه القوة؛ إذ كان ذلك أحد أسباب اختلافهم في العلوم والمعارف والآراء والمذاهب، ولكن من أجل أن هذه القوة أكثر القوى الحساسة متخيلات وأعجبها أفعالًا، احتجنا أن نذكر علة ذلك، فنقول: إن لهذه القوى خواصَّ عجيبة وأفعالًا ظريفة، فمنها تناولها رسوم سائر المحسوسات جميعًا وتخيلها بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها، ومنها أيضًا أنها تتخيل وتتوهم ما له حقيقة وما لا حقيقة له بعد أن عرف بسائطها بالحس؛ إذ له من القوة ما يَقْدر أن يوافي الصور التي أداها الحس إلى النفس في هيولاه كيف شاء؛ لأنه كان يجدها مجردة عن الهيولى التي هي ماسكة للصور ومختفية بعضها دون بعض، فإذا أخذها مجردة لا إمساك لها ولا ربط، أمكنه أن يؤلف بينها كما شاء ويركِّبها ويصل بعضَها ببعض ما لم تكن متصلة بالهيولى، مثال ذلك أن الإنسان يمكنه أن يتخيل بهذه القوة جَملًا على رأس نخلة، أو نخلة ثابتة على ظهر جمل، أو طائرًا له أربع قوائم، أو فرسًا له جناحان، أو حمارًا له رأس إنسان، وما شاكل هذه مما يعمله المصورون والنقاشون من الصور المنسوبة إلى الجن والشياطين وعجائب البحر، مما له حقيقة ومما لا حقيقة له. وإنما يستوي للإنسان بهذه القوة المتخيلات والتصور لها لعلتين اثنتين: إحداهما من أجل أن هذه المتخيلات يجتمع عندها مواد كثيرة من رسوم المحسوسات مع اختلاف أجناسها وفنون أنواعها وسائر أشخاصها، فهي يمكنها بهذا السبب أن تركِّب منها ضروب التراكيب مما له حقيقة في الهيولى ومما لا حقيقة له.

والعلة الأخرى من أجل شرف جوهر النفس ولطافتها وشدة روحانيتها وسهولة قبولها رسوم المعلومات في ذاتها وتصورها لها؛ وذلك أن كل هيولى تكون ألطف جوهرًا وأشد روحانية فإنه يكون لقبول الصور أسرع انفعالًا وأسهل قبولًا؛ مثال ذلك الماءُ العذب، فإنه لما كان ألطف جوهرًا من التراب، صار لقبول الطعوم والأصباغ أسرع انفعالًا وأسهل قبولًا، لنظافته وعذوبته وسيلانه. وهكذا لما كان الهواء ألطف جوهرًا من الماء وأشد سيلانًا، صار قبوله للأصوات والروائح أسرع انفعالًا وأسرع قبولًا. وهكذا لما كان الضياء والنور ألطف من الهواء، صار قبولهما للألوان والأشكال أسرع وأشد روحانية. فكيف لطافة النفس وروحانيتها! ولعل هذا الباب يخفى على كثير ممن ينظر في دقائق العلوم من المحسوسات، فكيف بالنظر في الأمور الروحانية! وذلك أن جوهر النفس ألطف وأشد روحانية بكثير من جوهر النور والضياء، والدليل على ذلك قبولها رسوم سائر المحسوسات والمعقولات جميعًا، فلهاتين العلتين صار الإنسان بالقوة المتخيلة يقدر على أن يتخيل ويتوهم ما لا يقدر عليه بالقوى الحساسة؛ لأن هذه روحانية وتلك جسمانية، ولأنها تدرك محسوساتها في الجواهر الجسمانية من خارج.

وأما القوة المتخيلة فهي تتخيلها وتتصور في ذاتها، والدليل على صحة ما قلنا أفعال الصناع البشريين؛ وذلك أن كل صانع يبتدئ أولًا يتفكر ويتخيل ويتصور في وهمه صورة مصنوعة بلا حاجة إلى شيء من خارج، ثم يقصد بعد ذلك إلى هيولى ما، في مكانٍ ما في زمانٍ ما، فيصور فيها ما هو مصور في فكره بأدواتٍ ما وبحركاتٍ ما، كما بيَّنا في رسالة الصنائع العملية.

ومن خاصة هذه القوة أنها تعجز عن تخيل شيء لم تؤدِّ إليه حاسَّة من الحواس؛ وذلك أن كل حيوان لا بصر له فهو لا يتخيل الألوان، وما لا سمع له فلا يتخيل الأصوات، ولا يتوهمها؛ لأن التخيل أبدًا في تصوره للأشياء تبع للإدراك الحسي، والعقل في استنباطها تبع الدليل النفسي، فأما الإنسان فإنه لما كان يفهم الكلام أمكنه أن يتخيل المعاني إذا وصفت له.

(٩) فصل في عجائب هذه القوة المتخيلة وتفاوت الناس فيها

فنقول: اعلم أن الناس في هذه القوة متفاوتو الدرجات تفاوتًا بعيدًا جدًّا، والدليل عليه أنك تجد كثيرًا من الصبيان يكون أسرع تصورًا لِمَا يسمعون وأجود تخيلًا لما يصف لهم كثير من المشايخ والبالغين؛ وذلك أن كثيرًا من العلماء والعقلاء والمرتاضين في العلوم والآداب تعجز نفوسهم عن تصور أشياء كثيرة قد قامت الحجة والبراهين على صحتها.

ثم اعلم أن العلة في تفاوت درجات الناس في هذه القوة ليست من اختلاف جواهر نفوسهم، ولكن من أجل اختلاف تركيب أدمغتهم واعتدال أمزجتها أو فسادها وسوء مزاجها، كما ذكر ذلك في كتب الطب. ومن عجائب أفعال هذه القوة أيضًا، وما يتأتى للإنسان أن يعمل بها أعمالًا عجيبة، ما يحكى عن قوم من الكهنة من أهل الهند أنهم يؤثِّرون في غيرهم بأوهامهم أشياء عجيبة ينكرها أكثر الناس، فأما حكماء بلاد اليونان وفلاسفتها فيرون ذلك يمكن ويتأتى للإنسان في نفسه، فأما في غيره فبعيد جدًّا، ونحن قد بيَّنا ذلك في رسالة الزجر.

ومن عجائب أفعال هذه القوة أيضًا أنها تركب القياسات وتحكم بها على حقائق الأشياء بلا روية ولا اعتبار، مثل ما يفعل الصبيان والجهال وكثير من العقلاء أيضًا، مثال ذلك أن الصبي الطفل إذا نشأ ورأى والديه وتأملهما وميز بينهما، ثم رأى صبيًّا آخر مثله حَكَمَ بتوهمه بأن لذلك الصبي والدين أيضًا قياسًا على نفسه، وإن يكن له أيضًا أخ أو أخت يظن ويتوهم بأن لذلك الصبي مثل ما له قياسًا على نفسه من غير فكرة ولا روية ولا تأمل.

وأنت يا أخي ما تقول في هذا، هل هذا قياس صحيح أو خطأ؟ حتى إنه ربما رأى في دار والديه دابة أو متاعًا أو أصابه حر أو برد أو جوع أو عطش أو وجع أو غم، ظن وتوهم أن سائر الصبيان قد أصابهم مثل ذلك، قياسًا على أحوال نفسه من غير فكر ولا روية في صوابه وخطائه، حتى إذا كبر وتفكر وميز تبين له صوابه من خطائه في قياسه.

ثم اعلم أنك تجد كثيرًا من الناس العقلاء ومن يتعاطى العلم هذا حكمهم في قياساتهم؛ وذلك أن كثيرًا من الناس مَن إذا رأى في بلده ليلًا أو نهارًا، أو شتاءً أو صيفًا، أو حرًّا أو بردًا، أو ريحًا أو مطرًا؛ ظن وتوهم بأن سائر البلاد مثله في ذلك الوقت، قياسًا على ما وجد في بلده، فإذا نظر في علم الرياضيات من الهندسيات والطبيعيات تَبيَّن له أن قياسه كان خطأً أو صوابًا. وهكذا تجد كثيرًا من المرتاضين بهذه العلوم يتوهمون ويظنون بأن خارج العالم فضاءً بلا نهاية، قياسًا على ما يجدون خارج بلدانهم من بلادهم من سعة الأرض، ومن ورائها سعة الهواء، ومن ورائها سعة الأفلاك.

وهكذا أيضًا إذا فكروا في كيفية حدوث العالم وخلق السموات والأرض، ظنوا وتوهموا أن ذلك كان في زمان ومكان، قياسًا على أفعال البشريين، وإذا سمعوا من أهل البصائر قولهم بأن العالم لا في مكان لا يتصورون كيفية ذلك، فإذا قيل لا في زمان ظنوا وتوهموا أنه قديم بلا حجة ولا برهان.

(١٠) فصل في بيان فضيلة هذه القوة

فنقول: اعلم أنَّا قد ذكرنا أن لهذه القوة المتخيلة عجائب كثيرة، ووصفنا خواص أحوالها من أجل أنها من أعجب القوى الداركة، وأن أكثر العلماء تائهون في بحر هذه القوة وعجائب متخيلاتها؛ وذلك أن الإنسان يمكنه بهذه القوة في ساعة واحدة أن يجول في المشرق والمغرب والبر والبحر والسهل والجبل وفضاء الأفلاك وسعة السموات، وينظر إلى خارج العالم، ويتخيل هناك فضاءً بلا نهاية، وربما يتخيل من الزمان الماضي وبدء كون العالم، ويتخيل فناء العالم ويرفع من الوجود أصلًا، وما شاكل هذه الأشياء مما له حقيقة ومما لا حقيقة له.

وهذا الباب أحد الأسباب من جهة اختلاف العلماء في آرائهم ومذاهبهم في المعلومات؛ وذلك أنك تجد كثيرًا من العقلاء إذا تفكروا وتخيلوا بهذه القوة شيئًا ما، ظنوا أن ذلك حق وحكموا عليه حكمًا حقًّا بلا حجة ولا برهان.

وأيضًا أن كثيرًا منهم إذا سمع شيئًا من العلوم فلم يتصوره — لعجز هذه القوة ونقصان فعلها فيه — أنكر وجحد ولم ينظر إلى الدليل والبرهان البتة.

فأما العقلاء المنصفون في الحكومة، الطالبون للحق، غير المعجبين بأنفسهم؛ إذا سمعوا بالأخبار عن شيء متوهم وتخيلوا شيئًا، غالبًا لم يحكموا على صحته وعلى بطلانه إلا بعد الحجة والبرهان على تحقيقه أو بطلانه كما يفعل المهندسون والمنطقيون.

وإذ قد ذكرنا طرفًا من خواص هذه القوة المتخيلة وعجيب أفعالها نريد أن نذكر طرفًا من خواص القوة المفكرة التالية في تناولها رسوم المحسوسات المتخيلات منها، التي هي أشرف أفعالًا وأكثرها عجائب.

(١١) فصل في بيان أفعال القوة المفكرة

فنقول: اعلم أن للقوة المفكرة خواصَّ كثيرة وأفعالًا عجيبة تستغرق فيها أفعال هذه القوة المتخيلة وأفعال سائر القوى الحساسة الدراكة؛ وذلك أن أفعال هذه القوة نوعان: فمنها ما يخصها بمجردها، ومنها ما تشترك هي مع قوة أخرى من قوى النفس، فمن ذلك الصنائعُ فإن أكثرها أفعال مشتركة بين هذه القوة المفكرة التي آلتُها وسط الدماغ، وبين القوة الصناعية التي آلتها اليدان، ومنها الكلام والأقاويل واللغات أجمع فإنها أفعال مشتركة بين هذه القوة وبين القوة الناطقة التي آلتها اللسان، ومنها تناول رسوم المحسوسات المتخيلات فإنها أفعال مشتركة بين هذه وبين المتخيلة التي آلتها مقدم الدماغ، ومنها تناول رسوم المعلومات المحفوظة فإنها المشتركة بين هذه وبين القوة الحافظة التي آلتها مؤخر الدماغ.

وأما الأفعال التي تخصها بمجردها فهي الفكر والروية والتمييز والتصور والاعتبار والتركيب والتحليل والجمع والقياس البرهاني، ولها أيضًا الفراسة والزجر والتكهين والخواطر والإلهام والوحي ورؤية المنامات وتأويلها.

أما بيان ذلك فنقول: إن الإنسان بالتفكر يستخرج غوامض العلوم بالروية، ويمكن له تدبير الملك والسياسة، وبالاعتبار يعرف الأمور الماضية مع الزمان، وبالتصور يدرك حقائق الأشياء، وبالتركيب يستخرج الصنائع، وبالتحليل يعرف الجواهر البسيطة والمركبة، وبالجمع يعرف الأنواع والأجناس، وبالقياس يدرك الأمور الغامضة الغائبة بالزمان والمكان، وبالفراسة يعرف ما في الطبائع، وبالزجر يعرف الحوادث وتصاريف الأحوال، وبالتكهين يعرف الكائنات بموجبات الأحكام الفلكيات، وبالمنامات وتأويلها يعرف الكائنات والبشارات والإنذارات، وبقبول الوحي والإلهام يعرف الوضع للنواميس الإلهية وتدوين الكتب المنزلة.

فأما فضائل هذه القوة وقضاياها على ما بين ها هنا وذلك أن هذه القوة المفكرة من بين سائر القوى الحساسة والمتخيلة ومدركاتها كالقاضي بين الخصماء ودعاويهم؛ وذلك أن من سنَّة القاضي ألا يحكم بين الخصوم إلا على سبيل معرفة شرعية وضعية معروفة بينهم، أو مقاييس عقلية متفق عليها بين الخصمين، ولا يقبل الدعاوى إلا بالشهود والصكوك وموازين ومكاييل معلومة معروفة بين الخصماء.

فهكذا حكومة هذه القوة المفكرة اتي مسكنها وسط الدماغ وقضاياها بين مدركات الحواس ومتخيلات الأوهام فيما يدعي العقلاء بينهم من المنازعات والخصومات في الآراء والديانات والمذاهب، فهي لا تحكم لأحد بين الخصمين بالصواب ولا بالخطأ إلا بعدما شهد شاهدان من الحواس الخمس أو نتائج مقدمات جزئية من أوائل العقول.

مثال ذلك في رجلين اختلفا في الحكومة في لون الشراب؛ يحكم أحدهما بأن ذلك لون الماء والآخر أبى، ثم تحاكما إلى القوة المفكرة، فلم تحكم هي لأحدهما بالصواب ولا بالخطأ إلا بعد شهادة شاهدين من الحواس؛ وهما القوة الذائقة والباصرة.

وهكذا لو أنهما اختلفا في رؤية الماورد أو خل مصاعد[٢] أو نفط أبيض أو ما شاكلها من الأجسام التي يشبه لونها لون الماء ولمسها لمس الماء، فإن القوة المفكرة لا تحكم لأحدهما إلا بعدما تشهد القوة الذائقة والشامَّة بماهيتها.

---

[٢] الصواب أن يقول «خل يصعد»؛ لأن المصعد من الأشربة ما عولج بالنار حتى تحول عما هو عليه طعمًا ولونًا، وإلا كان ما في الأصل تحريفًا، وكان الأنسب أن يقال: أو خل فصاعدًا، والله أعلم … فتنبَّهْ.

وعلى هذا المثال والقياس ينبغي أن يكون سائر قضايا القوة المفكرة بين الناس فيما يختلفون فيه من الحكومة على المحسوسات والمتخيلات في الحكومات والقضايا جميعًا.

فتفقَّدْ يا أخي هذا الباب واعتبِرْ؛ فإنه أول طريق العلوم وأول الاختلافات التي وقعت بين الناس في المدركات من المحسوسات والمتخيلات.

وإذ قد ذكرنا طرفًا من أسباب الاختلافات التي وقعت بين الناس في المدركات من المحسوسات والمتخيلات أجمع، فنريد أن نذكر طرفًا من أسباب الاختلافات التي وقعت بين العقلاء في الأشياء التي تعلم بأوائل العقول؛ إذ كان هذا الباب تالي المحسوسات في النظام والترتيب؛ وذلك أن المعقولات التي هي في أوائل العقول ليست شيئًا سوى رسوم المحسوسات الجزئيات الملتقطة بطريق الحواس من الأشخاص المجتمعة في فكر النفس المسمى أنواعًا وأجناسًا، كما بيَّنا في رسالة القاطيغورياس.

ثم اعلم أن العقلاء متفاوتو الدرجات في معرفتهم هذه الأشياء التي تعلم بأوائل العقول تفاوتًا بعيدًا جدًّا، والدليل على ذلك بما قلنا أنك تجد كل إنسان يكون أكثر تأملًا من المحسوسات وأجود اعتبارًا للمتخيلات، فإن الأشياء التي تعلم بأوائل العقول تكون في نفسه أكثر عددًا وأشد تحقيقًا من غيره من الناس مثل المشايخ والمجربين للأمور المحسوسة.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وقال: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾، وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

(١٢) فصل في بيان ما يعلم بأوائل العقول

فنقول: اعلم أن الأشياء التي تعلم بأوائل العقول، بعضها ظاهر جلي لكل العقلاء، وبعضها غامض خفي يحتاج إلى تأمل قليل، وبعضها يحتاج إلى تدقيق النظر وتأمل شديد؛ مثال ذلك قولهم: الكل أكثر من الجزء، إن هذا عند الحكماء ظاهر في أوائل العقول السليمة.

وأما قولهم إن الأشياء المختلفة إذا زيدت عليها أشياء متساوية كانت كلها في جميع أوائل العقول السليمة مختلفة يحتاج فيها إلى تأمل قليل.

وأما قولهم إذا كانت أربعة مقادير على نسبة واحدة، فإن في الأول من أضعاف الثاني مثل ما في الثالث من أضعاف الرابع، فهذا أيضًا من الأشياء التي تعلمها بأوائل المعقول،

ولكن يحتاج إلى بحث أشد ونظر أدق، وعلى هذا المثال يكون تفاوت المعقولات والأشياء التي تعلم بالعقول الثاقبة.

ثم اعلم أن كثيرًا من العقلاء يظنون أن الأشياء التي تعلم بأوائل العقول مركوزة، فنسبتها لما تعلقت بالجسم، فهي تحتاج إلى التذكار، ويسمون العلم تذكرًا ويحتجون بقول أفلاطون: «التعليم تذكر»، وليس الأمر كما ظنوا، وإنما اراد أفلاطون بقوله «العلم تذكر» أن النفس علامة بالقوة فتحتاج إلى التعليم حتى تصير علامة بالفعل، فسمي العلم تذكرًا، ثم إن أول طريق التعاليم هي الحواس ثم العقل ثم البرهان، فلو لم يكن للإنسان الحواس لما أمكنه أن يعلم شيئًا؛ لا المبرهنات ولا المعقولات ولا المحسوسات البتة.

والدليل على صحة ما قلنا أن كل ما لا يدركه الحواس بوجه من الوجوه لا تتخيله الأوهام، وما لا تتخيله الأوهام لا تتصوره العقول.

وإذا لم يكن شيء معقول، فلا يمكن البرهان عليه؛ لأن البرهان لا يكون إلا من نتائج مقدمات ضرورية مأخوذة من أوائل العقول، والأشياء التي هي في أوائل العقول إنما هي كليات أنواع وأجناس ملتقطة من أشخاص جزئية بطريق الحواس.

والدليل على ذلك الصبي لولا أنه قَدَّر أن عشر جوزات أكثر من خمس، أو خشبة طولها عشرة أذرع أطول من أخرى لها ستة أذرع، فمن أين كان يمكنه أن يعلم أن الكل أكثر من الجزء؟

وعلى هذا القياس حكْم سائر المعقولات، فإنها مأخوذة أوائلها من الحواس، والدليل على ذلك أيضًا أنك تجد من كان أكثر محسوسات ولها أكثر تأملًا وللمتخيلات أجود اعتبارًا، فإن الأشياء المعقولة عنده أكثر عددًا، ونفسه لها أكثر تحققًا، فقد تَبَيَّن بما ذكرنا أن الأشياء المعقولة ليست بشيء سوى رسوم المحسوسات الجزئيات الملتقطة بطريق الحواس من الأشخاص مجموعة في فكر النفس المسمى أنواعًا وأجناسًا، وأن العقل للإنسان — إذا تبين — ليس هو شيئًا سوى النفس الناطقة، إذا تصورت رسوم المحسوسات في ذاتها، ميزت بفكرها بين أجناسها وأنواعها وأشخاصها، وعرفت جواهرها وأعراضها، وجربت أمور الدنيا واعتبرت تصاريف الأيام بين أهلها.

ثم اعلم أن كلَّ مَن كان أكثر تأملًا للمحسوسات، وأدق نظرًا في أمور الموجودات، وأجود بحثًا عن الخفيات، وأكثر تجارب للأمور الدنياوية، وأحسن اعتبارًا لأهلها؛ كان أرجح عقلًا من أبناء جنسه وأكثر علمًا من أهل طبقته.

ثم اعلم أن العقلاء متفاوتو الدرجات في عقولهم تفاوتًا بعيدًا جدًّا، لا يقدر قدره إلا الله تعالى، الذي خلقهم وفضل بعضهم على بعض كما اقتضت حكمته وسبق علمه في خلقه.

ثم اعلم أن لتفاوت الناس في درجات عقولهم عللًا شتى وأسبابًا عدة، فمن إحدى تلك العلل كثرة فضائل العقول ومناقب العقلاء التي لا يحصي عددها إلا الله تعالى، ولا يمكن أن تجتمع تلك الفضائل في شخص واحد موفرة، كما بيَّنا، من امتناع ارتياض النفس الواحدة بجميع أصناف العلوم مع قِصَر العمر واعتراض العوائق؛ ولأن كلية العلوم موضوعة بإزاء قوى جميع الناس، كما أن كلية الصناعات موضوعة بإزاء قوى جميع الصناع.

ولكن يجب للإنسان أن يختار الأَولى والأشرف والأفضل؛ وذلك أن العقلاء هم أفاضل الناس، والإنسان أفضل من الحيوانات، والحيوان أشرف من النبات، والنبات الأركان ومخ طبائعها، والإنسان صورة مختصرة من جميع صور الحيوان، وهو المجموع فيه أمزجة قوى النبات وخواص المعادن وطبائع الأركان والمولدات الكائنات منها أجمع.

وهذه كلها لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد، فتفرقت في جميع الأشخاص هذه الصور، فمكثر ومقل، حتى عمرت الدنيا بهم، فهذا أحد أسباب اختلاف طبائعهم، واختلاف طبائعهم أحد أسباب اختلاف تفاوت عقولهم.

والعلة الثانية في تفاوت الناس في درجاتهم في عقولهم هي خواص جواهر نفوسهم التابعة في إظهار أفعالهم لأمزجة أبدانهم. والثالثة هي كثرة غرائب علومهم ومعارفهم التي لا يمكن أن يحويها كلها إنسان واحد. الرابعة عجائب أفعالهم وفنون أعمالهم واختلاف صنائعهم وتصاريفهم في طلب معاشهم، وأحكام تدبيرهم في سياستهم كثيرة لا تحصى، ولا يمكن أن ينهض بها كلها إنسان واحد. والخامسة اختلاف أخلاقهم المتضادة في الحسن والقبح ومجاري عاداتهم بين الجودة والرداءة مما لا يمكن أن تجتمع كلها في إنسان واحد. والسادسة نشوءهم على اختلاف سنن دياناتهم وتبايُن مذاهب آبائهم وآراء أستاذيهم ومعلميهم.

ثم اعلم أن هذه الخصال والمناقب كلها لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد، فمن أجل هذا فُرِّقَت في جميع أشخاص الإنسان كلها، مع كثرتها، ولا تخرج من صور الإنسان البتة التي هي إحدى الصور التي تحت فلك القمر، وهي صورة الصور، فلأجل ذلك تراه في غاية الاعتدال في حال الفطرة، ثم تخرجه عن ذلك عاداته الحسنة والرديئة فتصير كالطبع له، والعادة توأم الطبيعة، وقيل طبيعة منتزعة، وقيل صعب عادة منتزعة، كما قيل صعب طلب ما ليس في الطبع.

ثم اعلم أن هذه الصورة هي خليفة الله في أرضه متحكمة فيها مع كثرتها على حيواناتها ونباتاتها ومعادنها حكم الأرباب على خولها إذ سجدوا لها بجملتها، وهي صورة

واحدة، وإن كانت أشخاصها كثيرة فإن حكم جميع الأشخاص في هذه الصورة كحكم جميع أعضاء بدن الإنسان الواحد لصورة نفسه، وهي المتحكمة في جميع البدن، على عضو عضو ومفصل مفصل وحاسَّة حاسَّة، من يوم الولادة إلى يوم الفراق — كما بيَّنا في رسالة تركيب الجسد — فهكذا حكم هذه الصورة في جميع أشخاص البشر الأولين والآخرين من يوم خلق الله تعالى السموات والأرض. وآدم أبو البشر الترابي له الحكم في هذه الأرض والربوبية على جميع ما فيها إلى يوم القيامة الكبرى ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، كما بيَّنا في رسالة البعث والقيامة. وإذ قد تبين مما ذكرنا طرفٌ من علل تفاوت العقلاء في درجات عقولهم، نريد أن نذكر أيضًا كيف تبين فيهم رجحان العقول والمعقول، وكيف يعرف ذلك فيهم.

(١٣) فصل في بيان رجحان العقول للعقلاء

فنقول: إن ذلك يتبين فيهم ويعرف منهم بحسب طبقاتهم في أمور الدنيا ومراتبهم في أمر الدين، وهي كثيرة لا يحصي عددها إلا الله تعالى، ولكن نجمعها كلها في هذه التسعة الأقسام للتقرب من الفهم ونحصرها للحفظ، فنقول: إن منهم أهل الدين والشرائع والنبوات وأصحاب النواميس ومَن دونهم من الموسومين بحفظ أحكامها ومراعاة سننها والمعروفين بالتعبد فيها، ومنهم أهل العلم والحكماء والأدباء وأصحاب الرياضات الموسومين بالتعاليم والتأديب والرياضات والمعارف، ومنهم الملوك والسلاطين والأمراء والرؤساء وأرباب السياسات والمتعلقين بخدمتهم من الجنود والأعوان والكتَّاب والعمال والخزَّان والوكلاء ومَن شاكلهم، ومنهم البناء والزارعون والأكرة والرعاة للشاة وساسة الدواب ورعاة الحيوان أجمع، ومنهم الصناع وأصحاب الحرف والمصلحون للأمتعة والحوائج جميعًا، ومنهم التجار والباعة والمسافرون والجلَّابون للأمتعة والحوائج من الآفاق، ومنهم المتعيشون الذين يعيشون في خدمة غيرهم وقضاء حوائجهم يومًا بيوم، ومنهم الضعفاء والسُّؤَّال والمكديون ومن شاكلهم من الفقراء والمساكين.

ثم اعلم أن كل إنسان من أهل هذه الطبقات — كائنًا من كان — لا يخلو من أن يكون فيها رئيسًا سائسًا لغيره، أو يكون مرءوسًا مَسُوسًا فيها بغيره. ورجحان عقل كل رئيس سائس يتبين فيها ويعرف منه في حسن سياسته وتدبير رياسته وحسن عشرته مع أبناء جنسه، ما لم يَخرج من سنة شريعته وحكم الناموس. ورجحان عقل كل مرءوس مسوس يتبين فيه ويعرف منه في حسن طاعته لرئيسه، وسهولة انقياده لأمر سائسه،

وحسن عشرته مع أبناء جنسه، ما لم يكن ذلك قدحًا في دينه أو نقصًا لاعتقاده. ورجحان عقل كل متدين يتبين فيه ويعرف منه في حسن قيامه بواجبه عليه في أحكام شريعته وسنة دينه، وحسن عشرته مع أبناء جنسه، ما لم يكن تاركًا للأفضل، ولا غاليًا في دينه، ولا متقلبًا في مذهبه. ورجحان عقل كل عالم أو أديب أو حكيم يتبين فيه ويعرف منه في حسن كلامه وتحصيل أقاويله وجودة تأديبه وحسن عشرته مع أبناء جنسه، ما لم يدع ما لا يحسنه أو ينكر فضل غيره. ورجحان عقل كل صانع وصاحب حرفة يتبين فيه ويعرف منه في محكمات صنعته وحسن عشرته مع أبناء جنسه، ما لم يتعاطَ ما لا يحسنه أو يتكلف ما ليس في صناعته. ورجحان عقل كل تاجر بائع مشترٍ يتبين فيه ويعرف منه في صحة معاملته وحسن عشرته مع أبناء جنسه، ما لم يَكذب في بيعه وشرائه. ورجحان عقل كل فقير مسكين أو ضعيف أو مبتلًى يتبين فيه ويعرف منه في حسن عشرته وقلة جزعه وإجماله في الطلب وحسن عشرته مع أبناء جنسه، ما لم يُلِحَّ في السؤال ويتسخَّط عند الحرمان.

(١٤) فصل في بيان فضل الفقراء والمساكين وأهل البلوى

فنقول: اعلم أن هذه الطائفة هي رحمة للأغنياء وموعظة للمترفين ولمن كان معافًى ولأرباب النعم؛ ليكون كل عاقل معافًى، إذا فكَّر بهم واعتبر بأحوالهم، عَلِمَ بأن الذي أعطاه وعافاه هو الذي منعهم وابتلاهم، ويعلم إن لم يكن للغني المعافى عند الله يد وإحسان جازاه بها ولا لواحد عند الله إساءة كافأه عليها، فإذا فكروا في هذه الأحوال واعتبروا أحوال الفقراء وأهل البلوى، عرفوا حُسن موقع النعم عندهم، فيزدادون لله شكرًا يستوجبون به المزيد، كما قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، فبهذا الوجه والاعتبار صاروا هم رحمة للأغنياء وموعظة لمن كان معافًى. وخصلة أخرى أيضًا أن أهل الدين ومن يؤمن بالآخرة إذا نظروا إلى هؤلاء واعتبروا أحوالهم يزدادون يقينًا من الآخرة، ويعلم كل عاقل أن مِن بعد هذه الحياة الدنيا دارًا أخرى يجازى بها هؤلاء المبتلَون بما صبروا على مصائبهم من أمور الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ثم اعلم أن لهذه الطائفة — أعني الفقراء وأهل البلوى — فضائل كثيرة، ولله تعالى في إيجادهم حكمة جليلة تخفى على كثير من العقلاء والمترفهين من أبناء الدنيا؛ فمنها أنهم أشد الناس يقينًا بالآخرة من غيرهم من المترفين، وأنهم أسرع الناس إجابة لدعوة الأنبياء، عليهم السلام، من غيرهم من المترفين من أرباب النعم والأغنياء، وأنهم أقل من غيرهم

من الأغنياء، وأنهم أخف مؤنة وأقل حوائج وأقنع باليسير وأرضى بالقليل من غيرهم من الناس، وأنهم أكثر ذكرًا لله تعالى في السر والعلانية، وأرق قلوبًا في الفكرة والتذكر، وأخلص في الدعاء لله في السراء والضراء، وخصال أخر كثيرة لو عددناها لطال الكلام ويخرج بنا عما نحن فيه. وإنما ذكرنا طرفًا من فضائلهم لأن كثيرًا من العقلاء المترفين إذا نظروا إليهم يظنون بالله ظن السوء؛ فمنهم من يرى أن الذي نالهم من ذلك من سوء اختيارهم وشؤمهم وخذلانهم، ومنهم من يرى أن الصواب لو أنهم لم يخلقوا لكان ذلك خيرًا لهم، ومنهم من يرى أنهم معاقَبون بما سلف منهم في الأدوار الماضية من الذنوب، وهذا رأي أصحاب التناسخ، ومنهم من يرى أن الله تعالى ليس يفكر بهم ولا يهمه أمرهم، وإلا كان قادرًا على أن يغنيهم أو يميتهم ويريحهم مما هم فيه من الجهد والبلوى، ومنهم من يرى أن هذا ليس يجري بعلم عالم أو حكم حكيم، بل هو بحسب سوء اتفاق رديء، ومنهم من يرى أن هذه موجبات أحكام الفلك من غير قصد قاصد ولا صنع صانع، ومنهم من يرى أن هذا إنما يفعل بهم ليجازوا به ويثابوا عليه، ومنهم من يرى أن هذه الحال أصلح لهم وأنفع من غيرها، ومنهم من يرى أن هذا كان في سابق العلم والقدر المحتوم لم يكن بد من كونه، ومنهم من يرى أنه إظهار القدرة وتحكم في المُلك وإنفاذ المشيئة، ومنهم من يرى أن هذه موعظة ووعيد وتهديد وتخويف لغيرهم، ومنهم من يرى أن هذا هو الأحكم والأتقن، وإن كان لا يدري ما وجه الحكمة في ذلك، فليس إلا الإيمان والتسليم والصبر والرضا بما يجري به القضاء والمقادير، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾.

وإنما ذكرنا في شرح هذا الباب لأن هذا البحث والنظر من إحدى أمهات الخلاف بين العلماء المتفرع منها فنون الآراء والمذاهب، وهي محنة لعقول ذوي الألباب، ورجحان عقل كل صاحب مذهب يتبين فيه ويعرف منه في نصرته لدينه بحجج متقنة ومساعدة لأهل مذهبه مما يتعلق به وحسن عشرته مع أبناء جنسه، ما لم يكن معتقدًا للرأيين المتناقضين، فإنه عند ذلك يكون مخالفًا لنفسه في مذهبه ومناقضًا لمذهبه باعتقاده، وهذا من أكبر العيوب عند العقلاء ومن أشنع اعتقادهم عند العلماء.

ثم اعلم أنه ليس على العقلاء كثير عيب في مخالفة بعضهم بعضًا؛ لأن ذلك من أجل تفاوت درجاتهم كما ذكرنا قبل.

وأما مخالفة الإنسان الواحد في نفسه في رأيه ومذهبه، فإنها تدل على قلة التحصيل ورداءة التمييز وسخف الرأي، التي بأضدادها يفتخر العقلاء بعضهم على بعض، وخصلة

أخرى في عذر العقلاء فيما يختلفون في الفروع؛ وذلك أنه عسر جدًّا اجتماع العقلاء على رأي واحد كلهم في شيء واحد، وإنما يتفقون في الأصول ويختلفون في الفروع، فأما إنسان واحد فليس يعسر أن يعتقد في شيء رأيًا واحدًا، وألا يعتقد رأيين متناقضين. وإذ قد تبين مما ذكرنا طرفٌ من كيفية رجحان عقول العقلاء في تصرفاتهم في أمور الدين والدنيا، وكيف يعرف ذلك منهم، فنريد أن نذكر طرفًا من أحوال العلماء الذين هم أفضل العقلاء، ونبين مراتبهم في العلوم والصنائع والمعارف، وكيفية معلوماتهم التي في أوائل العقول المتفق عليها بين أهل كل صناعة وعلم ومذهب فيما يخصهم وما يتميزون به عن غيرهم.

(١٥) فصل في الفرق بين أصول الصنائع والعلوم وفروعها

فنقول: اعلم أن لكل علم وأدب وصناعة ومذهب أهلًا، ولأهلها فيه أصولًا، فهم فيها متفقون كلها في أوائل عقولهم ولا يختلفون فيها، وإن كانت عند غيرهم بخلاف ذلك، وإن لتلك الأصول أيضًا فروعًا وهم فيها يختلفون، ولهم في كل أصل قياسات عليها يتفرعون، وموازين بها يتحاكمون فيما يختلفون، وهي كثيرة لا يحصي عددها إلا الله الواحد القهار، ولكن نذكر منها طرفًا ليكون إرشادًا لمن يريد النظر فيها والباحثين عنها، فنبدأ أولًا بصناعة العدد التي هي أول الرياضيات، فنقول:

إن الأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم لماهية العدد وكيفية نشوئه من الواحد الذي قبل الاثنين، وعلمهم بأن العدد ليس هو شيئًا سوى كثرة الآحاد، يتصورها الإنسان في نفسه من تكرار الواحد في التزايد بلا نهاية، وعلمهم بأن تلك الكثرة كم بلغت لا تخلو من أن تكون أزواجًا وأفرادًا؛ آحادها وعشراتها ومئاتها وألوفها بالغًا ما بلغ.

وهذا هو الأصل المتفق عليه بين أهل صناعة الأرثماطيقي الذين لا يختلفون فيه.

وأما كمية أنواعها وخواص تلك الأنواع فهُم في معرفتها متفاوتو الدرجات، كل ذلك بحسب تفاوتهم في قوى نفوسهم وجودة بحثهم ودقة نظرهم وحسن تأملهم وكثرة اعتبارهم.

وهكذا أيضًا صناعة الهندسة فإن الأصل المتفق عليه بين أهلها ومعرفتهم بالمقادير الثلاثة، التي هي الخط والسطح والجسم، والأبعاد الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق وما يعرض فيها من الزوايا والأشكال والأوضاع وما شاكلها، فإن هذه الأشياء كلها كانت في أوائل عقولهم، وإن كانت عند غيرهم بخلاف ذلك.

فأما أنواع هذه الأصول وخواص تلك الأنواع وما يعرض فيها من المناسبات العجيبة وما ينتج عنها من المباحث الدقيقة، فهم فيها متفاوتو الدرجات بحسب تفاوت قوى نفوسهم فيها وجودة بحثهم عنها ودقة نظرهم فيها وشدة تأملهم لها.

وهكذا أيضًا حكم صناعة التنجيم، الذي يسمى علم الهيئة، فإن الأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بأن السماء كُرِيَّة الشكل، وأن الأرض كُرِيَّة أيضًا موضوعة في وسط السماء، وأن المركز واحد مشترك بها، وأن الأرض ثابتة، والسماء متحركة حولها على استدارةٍ كدورة الدولاب في كل يوم وليلة دورةً تامة.

وتركيب الأفلاك التسعة وتخطيط الدوائر العظام وقسمة البروج الاثني عشر، والكواكب السبعة السيارة والثابتة الباقية، وكيف تكون الأرض في مركز العالم؛ فإن هذه الأشياء كلها كأنها في أوائل عقولهم؛ إما تسليمًا أو استبصارًا أو برهانًا، وإن كان عند غيرهم بخلاف ذلك.

فإن هذه الأشياء أوائل في هذه الصنعة لتقررها واتفاق أهلها عليها، سواء كانوا في اعتقاد صحتها مقلدين لغيرهم مسلمين لهم، أو مستبصرين في ذلك يعلمونه ببراهين، وإن كان عند غيرهم بخلاف ذلك.

وأما معرفتهم بكيفية تركيب أفلاك التداوير والأفلاك الخارجة المراكز والأوج والحضيض والجيب والميل والعرض والطول، وما توصف به البروج من الأوصاف المختلفة، وما توصف به الأقاليم السبعة وأحوالها في الطول والعرض واختلاف الليل والنهار فيها، وما شاكل هذه المباحث؛ فإنهم في معرفتها متفاوتو الدرجات، كل ذلك بحسب تفاوت قوى نفوسهم وجودة بحثهم عنها ودقة معرفتهم فيها وشدة تأملهم لها.

وأيضًا حكم صناعة التأليف الذي يسمى الموسيقى، فإن الأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بالنسب التي هي العددية والهندسية والتأليفية؛ وذلك أن كل مصنوع مركَّب من أشياء مختلفة؛ لأنه لا يخلو تركيب أجزائه وتأليف بنيته من إحدى هذه الثلاث، فما كان منها تأليفه على النسبة الأفضل فإنه يكون أحكم إتقانًا وأجود هندامًا وأحسن نظامًا، وما كان على النسبة الأدون فهي بخلاف ذلك، وما كان بينهما فهو متوسط.

والناظرون في هذا العلم والصناعة هم في معرفته متفاوتو الدرجات بحسب تفاوت قوى نفوسهم وجودة قرائحهم، وصفاء أذهانهم وكثرة رياضاتهم، وطول دربتهم ونظرهم وبحثهم عنها وتأملهم لها.

وهكذا أيضًا حكم علم الطبيعيات؛ يعني بها الأجسام وما يعرض فيها من الأعراض المتفننة، وما يوصف بها من الصفات المختلفة، وهي كثيرة الفنون، ولكل فن منها أصول

ولها فروع، ولكن الأصل الأول فيها كلها المتفق عليه بين أهلها هو معرفة خمسة أشياء؛ وهي: الهيولى والصورة والمكان والزمان والحركة؛ لأن هذه الأشياء الخمسة محتوية على كل جسم، فلكيًّا كان ذلك الجسم أو ما دونه من الأركان.

فأما الذي يتفرع من هذا الأصل فنوعان: أحدهما عالم السموات والأفلاك، والآخر عالم الكون والفساد الذي هو تحت فلك القمر. والأصل المتفق عليه بين أهل هذا العلم هو معرفتهم بأن حكم العالم بجميع أفلاكه وطبقات سمواته والقوى السارية فيها تجري مجرى جسم إنسان واحد وحيوان واحد، يتحرك عن محرك واحد بحركة واحدة.

وأما كيفية تركيبها وفنون حركاتها وما يختص كل واحد منها، فهم في معرفتها متفاوتو الدرجات بحسب قوى نفوسهم وشدة بحثهم عنها وجودة نظرهم فيها وشدة تأملهم لها.

وهكذا حكم الكون والفساد، فإن الأصل المتفق عليه بين أهلها فيها هو معرفتهم بالطبائع الأربع، التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، وكيفية استحالة بعضها إلى بعض في بعض الأزمان وبعض المكان.

وأما فنون الكائنات منها في تلك الأماكن وفي تلك الأزمان وفي تلك الأجناس، فإنهم في معرفتها متفاوتو الدرجات بحسب قوى نفوسهم وجودة بحثهم ونظرهم وتأملهم.

واعلم يا أخي أن الكائنات التي هي من استحالة هذه الأركان أربعةُ أنواع: فمنها حوادث الجو وتغيرات الهواء، ومنها الكائنات التي في باطن الأرض المسماة المعادن، ومنها الكائنات على وجه الأرض التي تسمى النبات، ومنها الكائنات التي تسمى الحيوان، وكل جنس من هذه الأربعة فإن النظر فيه هو صناعة قائمة بنفسها.

فأما الأصل المتفق عليه في حوادث الجو بين أهل هذه الصناعة، فهو معرفتهم بطبيعة كرة النسيم وكرة الزمهرير وكرة الأثير والبخارين الصاعدين: الرطب واليابس من البحار والبراري.

فأما كيفية حوادث الكائنات منها والرياح والأمطار والبروق والرعود والبرود والثلوج والهالات والشهب وذوات الأذناب في هذه الأكروبين سطوحها المشتركة، فإنهم في معرفتها متفاوتو الدرجات، كل ذلك بحسب تفاوت قوى نفوسهم وجودة بحثهم ونظرهم وتأملهم.

وهكذا الأصل المتفق عليه في كون المعادن، وهو معرفتهم بالزئبق والكباريت اللذين هما عنصران ولباب جواهر المعدنية كلها.

وأما علة اختلاف بقاع الأرض والمواضع المخصوصة لها وفنون أنواعها، مثل: الذهب والفضة والنحاس والرصاص والأسرب والحديد والكحل والزرنيخ والشبوب والزاجات والأملاح والنفط والقار والإسفيذاج، وما شاكلها، وخواصها وتصاريفها؛ فهُم في معرفتها وعلمها متفاوتو الدرجات بحسب قوى نفوسهم وجودة تأملهم لها.

وهكذا أيضًا حكم النبات؛ فإن منه ما لَه حب أو بذر يزرع، ومنه ما هو أشجار تغرس، ومنه ما هو حشائش تنبت. وكذلك حكم الحيوان؛ فإن منها ما يتولد في الأرحام، ومنها ما يخرج من البيض، ومنها ما يكون من العفونات، فهذا هو الأصل المتفق عليه بين أهلها.

وأما معرفتهم بعلة اختلاف أنواعها وخواصها واختلافها وأفعالها ومتصرفاتها ومنافعها ومضارها، فإن أهلها فيها متفاوتو الدرجات، كل ذلك بحسب قوى نفوسهم فيها وجودة بحثهم عنها ودقة نظرهم وتأملهم فيها.

وأما علوم المنطق فهي نوعان: لغوي وفلسفي؛ فاللغوي مثل صناعة النحو، والأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بالأسماء والأفعال والحروف وإعرابها من الرفع والنصب والخفض، ومثل صناعة الخطب التي الأصل فيها هو معرفة السجع والفصاحة وضرب الأمثال والتشبيهات، ومثل صناعة الشعر التي الأصل فيها معرفة المفاعيل والأسباب والأوتاد والحروف المتحركات والسواكن.

فأما النظر في فروعها ومعرفة المنزحفات منها والعويص وعللها، فهُم فيها متفاوتو الدرجات بحسب نفوسهم وطول دربتهم ودوام رياضتهم.

وهكذا أيضًا المنطق الحكمي هو فنون شتى؛ منه صناعة البرهان، ومنه صناعة الجدل، ومنه صناعة السفسطائي، يعني المغالطين.

فأما صناعة البرهان، فإن الأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بمعاني الستة الألفاظ التي في إيساغوجي، والعشرة التي في كتاب قاطيغورياس والعشرين كلمة التي في باريميناس، والسبعة التي في أنولوطيقا.

فأما ما يتفرع من فنون المعاني وما يعرض فيها من غرائب المباحث، فبَحْر عميق قد تاه فيه أفهام كثير من الناظرين فيها، وتحيرت عقول كثير من المباحثين عنها، لدقة المعاني لهذه الصناعة وعجيب أصولها وكثرة فروعها وبُعد مرامي أهلها؛ لأن من هذه الصناعة تُعرف آداب الفلسفة وأدب الحكم وميزان العقل ومقاييس الحقائق التي تسمى البرهان.

فقد تبين مما ذكرنا أن لكل علم وصناعة أصولًا متفق عليها بين أهلها، وكأنها في أوائل عقولهم ظاهرة بينة، وإن كان غيرهم بخلاف ذلك، مثال ذلك قول المهندسين: إن كل

ضلعين من أضلاع المثلث مجموعين هما أطول من الباقي؛ أي من الضلع الثالث، فإن هذه الحكومة عندهم كأنها في أولية عقولهم ظاهرة بينة، وأما قولهم «إن الضلع الأطول من كل مثلث يوتر الزاوية العظمى فهو أدق وأخفى قليلًا» فيحتاج فيه إلى تأمل، وأما قولهم «إن الزوايا الثلاث من كل مثلث مساوية لزاويتين قائمتين» فيحتاج فيه إلى برهان ومقدمات.

وهكذا أيضًا صناعة المنطق، فإن فيها أشياء كأنها في أوائل عقولهم ظاهرة بينة، وهو قولهم: الضدان لا يجتمعان في شيء واحد في زمان واحد، فإن هذه الحكومة بينة ظاهرة.

وأما التي هي أدق من هذا ويُحتاج فيها إلى البرهان، فهي مثل قولهم: كون كل شيء فساد لشيء آخر.

وعلى هذا المثال يكون حالهم في المقولات عند أهل كل صناعة وعلم وأدب ومذهب، يوجد أشياء كأنها في أوائل عقولهم وأشياء أخر مثل ثوانٍ وثوالث وروابع بالغًا ما بلغ، مثال ذلك أن الحكومات التي في كتاب المجسطي على هيئة الأفلاك في تركيبها هي بعد النظر في علم المناظر ومعرفة الأبعاد والأجرام، وعلم المناظر بعد علم الهندسة والنظر في كتاب إقليدس، وعلى هذا المثال أوائل كل صنعة مأخوذ من صناعة أخرى قبلها، وأن علم البرهان بعد المعقولات والمحسوسات.

واعلم أن كل صناعة مأخوذة من صناعة أخرى كما تقدم ذكره، وأن أهل كل صناعة أو علم أو مذهب هم بصناعتهم وأصولها وفروعها أعلم وأعرف من غيرهم؛ وإنما ذلك لتعلمهم لها ودربتهم فيها وطول تجاربهم إياها.

فأما سبب اختلافهم في فروعها فهو من أجل تفاضلهم فيها، وأن المتعلم المبتدي بها لا يمكنه أن يسأل الفاضل الكامل فيها ويعارضه ويطالبه بالدليل والحجة، ويناقضه من غير بصيرة ولا بيان، وهذه البلية العظمة في الصنايع والعلوم والمحنة على أهلها الفاضلين فيها، ولكن من أشد بلية على الصناعة وأعظم محنة على أهلها، هو أن يتكلم عليها مَن ليس من أهلها ويحكم في فروعها ولا يعرف أصلها؛ فيسمع منه قوله، ويقبل منه حكمه، وهذا الباب من أجلِّ أسباب الخلاف الذي وقع بين الناس في آرائهم ومذاهبهم؛ وذلك أن قومًا من القصاص وأهل الجدل يتصدرون في المجالس، ويتكلمون في الآراء والمذاهب، ويناقضون بعضها بعضًا، وهم غير عالمين بماهيتها، فضلًا عن معرفتهم بحقائقها وأحكامها وحدودها، فيَسمع قولَهم العوامُّ، ويحكمون بأحكامهم، فيَضلون ويُضلون وهم لا يشعرون.

واعلم أن الجدل هو أيضًا صناعة من الصنائع، ولكن الغرض منها ليس هو إلا غلبة الخصم والظفر به كيف كان؛ ولذلك يقال: الجدل فتل الخصم عما هو عليه؛ إما بحجة أو

شبهة أو شعبة، وهو الثقافة في الحرب، والحرب — كما قيل — خدعة، وهو يشبه الحرب والمعركة؛ إذ الحرب خدعة.

فصل

ثم اعلم أن الأصل في هذه الصناعة المتفق عليها بين أهلها هو معرفة الدعاوى والسؤالات والجوابات والدليل.

فأما كيفية السؤالات وأجوبتها والاستدلالات بالشاهد على الغائب، وبالظاهر على الباطن، وبالمحسوسات على المعقولات، والحكم على الكل باستقراء الأجزاء في أي شيء يجوز، وفي أي شيء لا يجوز، وكيف اطراد العلة في معلولاتها، وكيفية قياس الفروع على الأصول ومعارضة الدعوى بالدعوى، والدليل بالدليل، وقلب المسألة على الأصل، ومناقضة أصلها لفروعها، ومقايسة الأصل بالأصل والفرع بالفرع، ولوازم الشناعات وما يعرض فيها وفي معرفتها لأهلها من الانقطاع والشكوك والحيرة؛ فهُم فيها متفاوتو الدرجات كل ذلك بحسب قوى نفوسهم وجودة ذكائهم ودقة نظرهم وبحثهم ومكابرتهم ووقاحتهم وشغبهم.

ثم اعلم أنه ليس من صناعة ولا علم ولا أدب يعرض لأهله فيها من الحيرة والدهشة والشكوك والظنون والخطأ والعدوان والبغضاء بينهم، ما يعرض لأهل صناعة الجدل فيما يعتقدون فيها ويجادلون عنها؛ والعلة في ذلك أسباب شتى: منها أن جميع الصنايع والعلوم والمذاهب والآراء موضوعة لهم، يتكلمون عليها، ويعارضون فيها، ويجادلون عنها قبل النظر والبحث عنها والعلم فيها. وعلة أخرى أنه يمكن أن يداخلهم في صناعتهم مَن ليس منهم بالسؤال لهم والمعارضة في دعاويهم والمناقضة لأجوبتهم؛ لأن السؤال أسهل من الجواب، والمعارضة دعوى تحاذي دعوى، والمناقضة أسهل من إثبات الحجة؛ لأنها إفساد، والإفساد أسهل من الإصلاح في أكثر الأشياء. وخصلة أخرى أنهم ربما يكونون مقلدين في أصول ما يجادلون فيه من المذاهب، فيبصرون الفروع، ومن يكون في الأصل على التقليد كيف يمكنه أن يبصر الفروع على تبصرة. وخصلة أخرى، أن أكثرهم ربما جادل فيصرُّ الرأي والمذاهب، لا على سبيل الورع والتدين وطلب الحق، لكن على سبيل التعصب والحمية، والتعصب والحمية يعميان عن الحق ويضلان عن الصواب.

ثم اعلم أنه ليست من طائفة تتعاطى العلم والأدب والكلام أشر على العلماء، ولا أضر على الأنبياء، ولا أشد عداوة لأهل الدين، وأفسد للعقول السليمة من كلام هذه الطائفة

المجادلة الظلمة، وخصوماتهم في الآراء والخصومات والمذاهب؛ وذلك أنهم أن كانوا في أزمان الأنبياء عليهم السلام وعند مبعثهم، فهم الذين يطالبونهم بالمعجزات ويعارضونهم بالخصومات، مثل ما قالوا للنبي عليه السلام: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾، وقالوا لنوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ وهم الذين إذا مروا بالمؤمنين يتغامزون، وقال تعالى في ذمهم: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، فهذه حال من كانوا يعارضون أهل الدين في أزمان الأنبياء عليهم السلام.

فأما إذا كانوا في غير أزمان الأنبياء فهم الذين يعارضون أهل الدين والورع بالشبهات، وينبذون كتب الأنبياء عليهم السلام وراء ظهورهم، يفرعون الآراء والمذاهب بعقولهم الناقصة وآرائهم الفاسدة، ويضعون لمذهبهم قياسات مناقضة واحتجاجات مموهة، ويعارضون بها العقلاء من الأحداث والعامة، فيضلونهم عن سنن دياناتهم النبوية، ويعدلون بهم عن موضوعات الشرائع الناموسية.

ثم اعلم أنه ليس من صناعة بين أهلها من التفاوت ما بين أهل هذه الصناعة؛ وذلك أنك تجد فيهم من يكون له جودة عبارة وفصاحة كلام وسحر بيان، يقدر معه على أن يصور بوصفه البليغِ الحقَّ في صورة الباطلِ والباطلَ في صورة الحقِّ، وهو مع ذلك جاهل القلب عن حقائق الأشياء، بعيد الذهن عن المعارف.

وروي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أخوف ما أخاف على أمتي رجل منافق، عليم اللسان غير حكيم القلب، يغيرهم بفصاحته وبيانه، ويضلهم بجهله وقلة معرفته.»

وتجد فيهم أيضًا من يجادل ويحتجُّ ويناظر، كلامه ينقض بعضه بعضًا ولا يدري بذلك، فإذا نبه عليه لم يشعر به، وتجد فيهم أيضًا الرجل العاقل الذكي المحصل في أشياء كثيرة من أمور الدنيا، فإذا فتشتَ اعتقاده في أشياء بينة ظاهرة في العقول السليمة من الآراء الفاسدة، وجدتَ رأيه واعتقاده في تلك الأشياء أسخف وأقبح مِن رأي كثير من الجهال والصبيان.

والعلة في ذلك أسباب شتى: منها شدة تعصبه فيما يعتقده بقلبه من غير بصيرة؛ وأخرى إعجابه بنفسه في اعتقاده؛ وأخرى اعتقاده الأصول، خفيٌّ فيها خطؤه، بيِّنٌ ظاهر الشناعة في فروعها، فهذا يلزم ذلك الشناعات في الفروع مخافة أن تنتقض عليه الأصول، ويطلب لها وجوه المراوغة عن إلزام الحجة عليه، تارة يشغب، وتارة يموه، وتارة يروغ في الجواب والإقرار بالحق، ويأنف أن يقول: «لا أدري، والله ورسوله أعلم!» كما كان في زمان

النبي ﷺ إذا سئلوا عما لا يدرون قالوا: «الله ورسوله أعلم» اقتداءً بأمر الله كما قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾، وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.

ولكن كثيرًا من المجادِلة يعتقد أن لا رجوع له إلى الله على الحقيقة، ولا يرجو لقاءه، ولا يجوز رؤيته؛ لَمَّا نظر بعقله الناقص أَدَّاهُ اجتهاده إلى هذا الرأي، فترك ما ذَكَرَ الله في كتابه في عدة مواضع، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، وقوله: إلى الله مَرجِعُكم جميعًا ثم يحكم بينكم يومَ القيامة، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾، وقال المسيح عليه السلام: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وآيات كثيرة في هذا المعنى.

ولكن من هؤلاء من يحتجُّ ويقول معنى الرجوع إلى الله أي إلى ثوابه، ولو أنهم اعتبروا سنن الديانات النبوية والموضوعات الناموسية الإلهية؛ كيف فرض فيها واضعوها في كل سبعة أيام يومًا لِترك الأعمال والاشتغال لأمور الدنيا، والفراغ للعبادة والاجتماعات في بيوت العبادات من المساجد والبِيَع والكنائس والهيكل، بالصوم والصلاة والقرابين في الأعياد، والبروز إلى الصحراء والمنابر والخطب، والسكوت والاستماع للمواعظ والتذكار للأمر المعاد بأن هذه كلها إشارات ومرامي أحوال القيامة، التي في سبعة آلاف سنة تعرض للنفوس الجزئية المتجسدة لدى النفس الكلية، لفصل القضاء ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، فلو تركوا جدالهم واشتغلوا بما ينفعهم من أعمالهم الصالحة، والتخلق بالأخلاق الجميلة، وطلبوا الآداب المحمودة؛ لكان خيرًا لهم من الجدال والخصومات والغضب والتعصب والعداوات.

ولكن لاستيلاء المريخ عليهم في مواليدهم يحثهم على ذلك، وقوة المرارة تنمي إلى أمزجتهم فيقيمهم على مثلها، فتطول صحبتهم مع أستاذيهم ورسائلهم معودون ذلك ودوامهم فيما يتدربون به، فيصير عادة لهم لا يصبرون عنها!

فلا تطمع يا أخي في صلاحهم، وإنما أكثرنا ذِكر هذه الطائفة المجادِلة لأن كثيرًا من أسباب الخلاف في الآراء والمذاهب من قِبلهم يقع، وهم السبب فيه لأنهم يتكلمون الكلام والجدال والحجاج في دقائق العلوم، ويتركون تعلم أشياء واجب عليهم تعلمها وهي بينة ظاهرة جلية وهم يجهلونها جملة.

(١٦) فصل في بيان آداب الجدال

فنقول: اعلم أن كل مسألةٍ تَنازَع فيها اثنان أو جماعة فلا يخلو من أن يكونوا من أهل تلك الصناعة التي المسألةُ منها أو يكونوا من غير أهلها؛ فإن كانوا من غير أهلها فكلامهم فيها على غير أصل مقرر منهم، وكل كلام ومنازعة في شيء على غير أصل مقرر منهم فلا تحصيل لكلامهم فيه ولا حجة لدعاويهم؛ وإن كان أحدهما من غير أهلها فإن منازعته لصاحبه تَعدٍّ منه وظلم، وكلام صاحبه معه أيضًا تخلُّف منه؛ إذ كان يجادل مع من ليس من أهل صناعته. وإن كان من أهل تلك الصناعة فلا يخلو من أن يكونا متساويَي الدرجة فيها أو متفاوتين؛ فإن كانا متفاوتين فحكمهما مثل ما تقدم ذكرهما من ذِكر حكم الأولين؛ وإن كانا متساويي الدرجة في تلك الصناعة، فسبيلهما أن يؤاخذا فيما اختلفا فيه إلى قوانين تلك الصناعة وأصولها، ويقيسا عليها تلك المسألة وإن كانت من فروعها.

وإن لم يكن في قوة نفوسهم استخراجها، فسبيلهما أن يتحاكما إلى من هو أعلى درجة منهما في تلك الصناعة ليحكم بينهما.

وإن لم يجدا مَن يحكم بينهما فيرضيان بحكمه ولا في قوة نفوسهم استخراجها من الأصول، فليس لهما إلا الترك لتلك المسألة والسكوت عنها. فإن لم يفعلا ما وصفنا في الجدال والخصومة، فسيكون ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما، كلما ازدادوا إلحاحًا ازدادوا خلافًا على خلاف، وعداوة على عداوة، وبغضًا إلى يوم القيامة، وتكون تلك حالهم، وهذا من أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب.

فأما بيان فنون القياسات، فاعلم حسب ما نبين ها هنا؛ وذلك أن الأمور التي يعلمها الإنسان ثلاثة أنواع: ماض ومستقبل وحاضر، فعلمه بما هو حاضر في الوقت موجود في طريقة إحدى الحواس، والحواس قد تخطئ وتصيب في إدراكاتها محسوساتها لعلل شتى، قد بيَّنا طرفًا فيما قد تقدم ذكره.

وعلمه بما كان من الأمور ومضى مع الزمان، وانقضى مع الأيام أو غاب عنه بالمكان، فهو بطريق السمع والإخبار، والمخبر قد يكون صدوقًا وقد يكون كذوبًا، وهكذا أيضًا رُب مستمع مكذب بالصدق، ورُب مستمع مصدق بالكذب. فأما علمه بما سيكون أو غائب عنه بالمكان، فقد يكون بعضًا بالقياس، والقياس قد يكون صحيحًا وقد يكون سقيمًا.

وهكذا المستعمل للقياس قد يكون جاهلًا باستعماله كما بيَّنا في قياس الصبيان والجهال والعوام وكثير من الخواص، وهذا أيضًا أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب.

ثم اعلم أنك إذا اعتبرت ودققت النظر تَبيَّن أن أكثر علم الإنسان إنما هو بطريق القياس، والقياسات مختلفة الأنواع، كثيرة الفنون، كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها.

مثال ذلك أن قياسات الفقهاء لا تشبه قياسات الأطباء، ولا قياس المنجمين يشبه قياس النحويين ولا المتكلمين، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين، وهكذا قياسات المنطقيين في الرياضات لا تشبه قياسات الجدليين ولا تشبه قياساتهم في الطبيعيات ولا في القياسات والإلهيات.

وهكذا الحكم في سائر الصنائع والعلوم، وسنذكر طرفًا من ذلك في موضعه، ولكن نقول أولًا: ما القياس؟ وذلك أن القياس هو الحكم على الأمور الكليات الغائبات بصفات قد أدركت جميعها في بعض جزئياتها.

مثال ذلك: لما أدرك الإنسان أن النيران الجزئية حارة، حَكَمَ بأن كل نار حارة أيضًا الغائبة قياسًا على ما أدرك حسًّا، وهكذا حكم على رطوبة الماء من جزئياتها على كلياتها بالحسن جزئية والعقل كليًّا.

واعلم أن هذا الحكم وهذا القياس لا يطَّرد في كل شيء ولا في كل مكان؛ وذلك أن يكون في كثير من البلدان أناس عقلاء لا يجدون من الماء إلا عذبًا، فإذا حكموا بما أدركوا على أن كل ماء في الأرض عذب، فقد أخطئوا وهم لا يشعرون، وعلى هذا المثال يكون الخطأ والصواب في القياس الذي يطَّرد في كل شيء.

وإذا تأملتَ يا أخي، وجدتَ أكثر اختلاف العلماء وخطئهم إنما في استعمال القياس من هذا الفن، يكون ويخفى وهم لا يشعرون، وإن علموا أيضًا لا يحسنون كيف يميزون من الأشياء التي يطَّرد فيها.

والقدماء الحكماء قد تعبوا في استخراج هذا حتى عرفوه ووضعوه في كتبهم بخطب طويل، لا يصبر على طلب معرفته كل أحد من الناس إلا المحبون للحكمة الطالبون للحقائق، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في رسائلنا المنطقية، ولكن نذكر منها طرفًا في هذا الفصل مثالًا واحدًا.

اعلم يا أخي أن القياس الذي يطَّرد الحكم فيه بالجزء على الكل، إنما هو في الصفات الذاتية للشيء لا في الصفات العرضية، والصفات الذاتية هي التي إذا بطلت بطل الموصوف، وإذا ثبتت ثبت الموصوف؛ وهي الصورة المقومة، والصفة العرضية هي التي إذا بطلت لم يبطل الموصوف.

والمثال في ذلك رطوبة الماء وعذوبته، فإن الرطوبة إذا بطلت لا يكون الماء موجودًا.

فأما العذوبة فليس من الضروري إذا بطلت بطل الماء، فالرطوبة هي الصورة المقومة للماء، والعذوبة هي الصورة المتممة له.

فعلى هذا المثال ينبغي أن يعتبر الحكم في القياس لا يصيب ولا يخطئ.

واعلم أن الحكماء الأولين لما أثبتوا الذي ذكرنا، وعلموا أن أكثر علمهم إنما هو بطريق القياس، وقد يدخل الخطأ والزلل في القياس — كما بيَّنا — طلبوا لذلك حيلة يأمنون بها الخطأ والزلل في القياس، وسموها البرهان وميزان العقل من أجل طلب الحقائق وإصابة الصواب وتجنُّب الزور والغرور بما لا حقيقة له، لكنَّ منهم مصيبًا ومنهم مخطئًا ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ثم اعلم أن كثيرًا من أهل الجدل يظنون ويحكمون بحكمهم، وظنونهم أن الله سبحانه وتعالى كلف عباده طلب الحقائق وإصابتها جميعًا، وجعل لهم وعيدًا إن أخطئوا أو لم يصيبوا، وليس الأمر كما ظنوا؛ لأنه قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ والوسع دون الجهد والطاقة، وإصابة الحق ليس في وسع الطاقة، فكيف؟! ولا في وسعها، وإنما كلف الله العباد طلب الحقائق والجهد في الطلب.

فأما إصابتها فالله يهدي من يشاء إليها، كما وعد جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وإنما شرط بقوله فينا لأن من الناس من لا يكون جهده في الطلب لوجه الله، ولكن لأسباب أخر يطول شرحها، فمن أجل ذلك لا يستحق الهداية ولا يستأهل الإصابة.

ثم اعلم أن هذه المسألة من إحدى مسائل أمهات الخلاف؛ وذلك أن كثيرًا من الناس من يقول أو يظن أنه مستغنٍ عن العلوم في طلب الحقائق بما رزقه الله تعالى من الفهم والتمييز والذكاء والاستطاعة، فيتَّكل على حوله وقوته وينسى ربه والاستعانة به والسؤال له والتوفيق، فيخذل ويحرم التوفيق كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾.

(١٧) فصل في بيان أنواع القياسات

فنقول: اعلم أن الموازين التي وضعها الحكماء ليعرف بها الخطأ والزلل في القياس مختلفة الفنون، وذلك بحسب الصنائع والعلوم والقوانين كما هو موجود في اختلاف موازين أهل البلدان النائية، ومكاييلهم معروفة بينهم بحسب موازين أهل البلدان في موضوعاتهم، ولكن مع اختلافها كلها فالغرض المطلوب منها هو إصابة الحق والعدل والإنصاف فيما يتعاملون بينهم في الأخذ والإعطاء، فهكذا أيضًا غرض الحكماء في استخراج البرهان الذي

يسمى ميزان العقل، وهو طلب الحقائق وإصابة الصواب وتجنب الزور والخطأ باستعمال القياسات، ولكن منهم من يصيب ومنهم من يخطئ أيضًا في استعمال هذه الموازين، وذلك من إحدى ثلاث خصال: إما بجهله بحقيقة هذه الموازين وكيفية استعمال هذا الميزان، أو لغرض من الأغراض في موازين الناس ومكاييلهم المعروفة بينهم والمستعملين لها كيف يدخل الخطأ والزلل عليهم، وإما بجهلهم بصحة الميزان وبكيفية استعمالهم له أو لغرض من الأغراض، فأما واضعوها فما قصدوا في وضعها إلا لطلب الحق والصواب والعدل والإنصاف.

واعلم أن الموازين التي وضعها الحكماء في طلب حقائق الأشياء في العلوم والصنائع كثيرة لا يحصي عددها إلا الله الواحد القهار، ولكن كلها لا تخرج عن ثلاثة أنواع: إما أن يستعمل بالأيدي أو باللسان أو بالضمير، والتي تستعمل بالأيدي كالقبان والشاهين والمكاييل والموازين والأذرع وما شاكلها، وبالجملة كل مقياس يستعمله الناس في معاملاتهم في الأخذ والإعطاء في طلب العدل والإنصاف بينهم.

ومنها ما يستعمله المنجمون وأصحاب الرصد وقسام المياه، كالبركار والإصطرلاب وآلات الرصد، كل ذلك في طلب معرفة أجزاء الزمان ومقادير الأوقات.

ومنها ما يستعمله المساح والقسام والمهندسون في طلب معرفة الأجرام والأبعاد كالذراع والباب والأشل وذوات الشفتين وما شاكلها.

ومنها ما يستعمله الصناع في صنائعهم كالبركار والمسطرة والكونيا والشاقول والزاوية وما شاكلها، كل ذلك لمعرفة الاستواء والاعوجاج.

ومنها ما يستعمله أهل كل صناعة على حدتها، فأما الذي يستعمله باللسان فمثل العروض التي يستعملها الشعراء والخطباء والنحويون والموسيقيون، فأما التي تستعمل بالضمير فهي مثل ما يستعمله الفقهاء الحكماء عند تفكرهم في المعلومات المحسوسات والمشاهدات، واستخراجهم بها الخفيات المعقولات وصحة القياسات في إدراك المبرهنات.

ثم اعلم أن هذه المقاييس كلها طرقات إلى المعلومات، وهذه الموازين حكام وعدول، نصبها الباري تعالى بين خلقه ليتحاكموا إليها في طلب العدل والإنصاف والحقائق والاستواء، ويجتنبون الزور والخطأ والظلم والجور، ويرفعون بها الخلاف والمنازعة من بينهم بحرز الظنون وتخمين الرأي.

ثم اعلم أنه قد يقع الخلاف والمنازعة بين المستعملين للقياس والموازين أيضًا من جهات أربعة: إما بقصد من المستعملين لها دغلًا وغشًّا لأغراض لهم، وإما بسهوٍ منهم،

وإما بجهلهم بكيفية استعمال الميزان، وإما أن يكون القياس والميزان معوجًّا غير مستوٍ. أجل هذه الوجوه يقع الخلاف والمنازعة بين أهلها، فهذه أيضًا أحد أسباب الخلاف بين العلماء في آرائهم ومذاهبهم.

ثم اعلم أن هذه الموازين والمقاييس التي تَقدَّم ذكرها كلها دلالات ومثالات وإشارات إلى الموازين التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾.

ثم اعلم أن هذا الميزان هو آخر الموازين كلها، فمن رجحت حسناته في هذا الميزان فقد أفلح وربح سعادة أبدية وفاز فوزًا عظيمًا، ومن خفت موازينه فقد خاب وخسر خسرانًا مبينًا.

فانظر لنفسك يا أخي وبادِرْ واعمل عملًا صالحًا، وتزود فإن خير زادك التقوى، وحاسِب اليوم نفسك قبل أن تُحاسَب، فهو أيسر لحسابك، وكُن وَصِيَّها تَأمَنْ تفريط وصيِّك بعدك، وَزِنْ أعمالك اليوم ولا تغفل قبل أن تُحاسَب بموازين الغد، فهو أثقل لوزن حسناتك، إن كنت تحسن هذا الوزن وهذا الحساب كيف يكون، وإن كنت لا تدري ولا تحسن فهلمَّ إلى مجلس إخوان لك نصحاء أصدقاء كرام فضلاء ليعرفوك كيفية محاسبة نفسك ووزن حسناتك، فإنهم أهل هذه الصناعة وقد قيل: «استعينوا في كل صنعة بأهلها.»

وقد وضعنا هذا الحساب وهذا الميزان في رسالة البعث والقيامة، فاعرفها من هناك، إذا وقفت على جبل الأعراف مع أهل المعارف الذين ذكرهم الله تعالى ووصفهم بقوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، ثم وصفهم بقوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾.

فلا تغتر يا أخي بقول من يقول ويظن بأن هذا يعرف بعد الموت هيهات هيهات أولئك ينادون من مكان بعيد كيف يعرف بعد الموت والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

نبهك الله أيها الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وأحيا قلبك بنور المعارف وجعلك من الذين ذكرهم بقوله: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، وظلمات الجهالات المتراكمات بعضها فوق بعض على قلوب الغافلين، كما ذكر في كتب النبوات من المعارف الشريفة والأسرار المكنونة التي لا يمسها إلا المطهرون من أدناس الشهوات الطبيعية والغرور باللذات الجرمانية الذين ذمهم الله بقوله: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾، وقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾،

وقال: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾، وقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، وآيات كثيرة في القرآن في ذم المريدين للدنيا ومدح المريدين للآخرة، وفقك الله لإفادة الدار الآخرة وجعلك من أهلها وجميع إخواننا.

وإذ قد تبين بما ذكرنا طرفًا من مقاييس أهل الصنائع والعلوم وموازين الحكماء فيها، نريد أن نذكر طرفًا من مذاهبهم وآرائهم، وبخاصة ما كان في أمر الدين؛ إذ كان هذا الفن من المباحث والمطالب ومن أشرف الصنائع البشرية، وألطف العلوم الإنسانية، وأعجب المعارف وأعرف الإدراكات، وأهلها أعقل الناس، ومدركاتهم أكثر من المعلومات؛ وذلك أن هذه الدرجة أحق درجة يبلغ إليها العقلاء في طلبهم العلوم والمعارف، وهذا البحر من العلم أوسع أقطارًا، وقعره ولجُّه أعمق إغمارًا، وجواهره أنفس أقدارًا، وسالكوه أبعد مرامًا، وربحهم أكثر تزايدًا وأحزانهم أعظم مصيبة من سائر ما تقدم ذكره؛ لأن من أرشد في هذا الطريق فسيرته سيرة الملائكة، ومن ضل عنه سلك به مسلك الشياطين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وسنبين صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا عند ذكرنا الآراء الحكمية والمذاهب البدعية الفرقية والديانات النبوية والمنهاجات السنية والسير الملكية والمقاصد الربانية.

(١٨) فصل في أجناس الآراء والمذاهب

فنقول: اعلم أن الآراء الفاسدة واختلاف العلماء فيها منها ما هو من أمر الدين والشريعة وسننها وما يتعلق بها من العلوم والأحكام، ومنها ما هو في الآداب والرياضيات والعلوم والصنايع مما ليس له تعلق بأمر الدين، مثل الحساب والهندسة والنجوم والنحو والطب وما شاكلها.

فأما التي لها تعلق بأمر الدين فهي كثيرة لا يحصي عددها إلا الله، ولكن يجمعها كلها نوعان: حكمية ونبوية. ونريد أن نذكر أصول هذه الآراء والمذاهب وبعض فروعها مختصرًا أوجز مما يمكن، وإذ كان الشرح والاستقصاء يطول فنبدأ أولًا في بيان الآراء الحكمية ومذاهبها، إذ كنا قد بيَّنا طرفًا من الآراء النبوية في رسالة النواميس الإلهية والمذاهب الربانية، ولكن نريد أن نذكر من ذلك ما لا بُدَّ في هذا الفصل جملا قبل ذكرنا الآراء الحكمية والمذاهب البدعية؛ ليكون الناظر فيها يحفظها ويعتقدها، ويتعلق بقلبه قبل نظره في الآراء الحكمية والمذاهب البدعية والبحث عنها والاحتجاجات عن أهلها المفسدة للعقول السليمة الغير المرتاضة.

فأما بيان ماهية الخصال المانعة للإنسان عن الشرور حسبما نبين ها هنا، وذلك أن الناس مختلفون في طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم وعاداتهم وعلومهم وصنائعهم، ذوو فنون شتى لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، ولكنْ منهم خير وشرير، فنقول: أشر الناس من لا دين له ولا يؤمن بيوم الحساب.

والعلة في ذلك أن الإنسان لما خلق مستطيعًا لعمل الخير ممكنًا به، وهو بتلك الاستطاعة بعينها يقدر أن يعمل الشر لأسباب شتى ويمنعه عنه علل عدة، وقد بيناها في رسالة الأخلاق، ولكنَّ أمنعَ الخصال للإنسان عن الشر وأقمعها عنه الدينُ وتوابعه من الورع والتقى والحياة والمروءة والرحمة والخوف، وما شاكلها من خصال الدين والإيمان؛ فمَن لا يؤمن بيوم الحساب ولا يرجو الثواب ولا يخاف العقاب، فهو لا يمتنع عن الشر جهده وطاقته، سيما إذا دعته إليه الأسباب وأمكنه تجنبها في الظاهر مخافة للناس، فهو لا يتجنبها في السر.

واعلم أن الدين هو شيئان اثنان: أحدهما هو الأصل وملاك الأمر، وهو الاعتقاد في الضمير والسر؛ والآخر هو الفرع المبني عليه القول والعمل في الجهر والإعلان، ونحتاج أن نشرحهما جميعًا حسب ما جرت عادة إخواننا الكرام الفضلاء، فنبدأ أولًا بذكر الاعتقادات؛ إذ كانت هي الأصول والقوانين فيما هو غرضنا ومقصودنا في هذا المقام، كما قيل: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى.»

(١٩) فصل في بيان ماهية أجود الآراء وخير الاعتقادات

فنقول: اعلم أن اعتقادات الناس كثيرة لا يحصي عددها إلا الله تعالى، ولكن لا تخرج كلها من ثلاثة أنواع: فمنها ما يصلح للخاص دون العام، ومنها ما للعام دون الخاص، ومنها ما بين الخاص والعام.

ونريد أن نذكر في هذا الفصل ما يصلح للخاص والعام جميعًا أن يعتقدوه؛ إذ كان القسمان الآخران كثيرَي الأنواع والفروع التي يطول شرحها، فنقول:

اعلم أن من أجود الآراء وأنفع الاعتقادات وما يصلح لجميع الناس من الخاص والعام أن يعتقدوه ويقروا به؛ القول بحدوث العالم، وأنه مصنوع، وأنه له بارئ حكيم، وصانع قديم، وخالق رءوف رحيم، وأنه قد أحكم أمر عالمه وأتقن أمر خلقه على أحسن النظام والترتيب، ولم يترك فيه خللًا واعوجاجًا البتة، فإنه لا يجري في عالمه أمر، ولا يحدث حدث صغير ولا كبير، دقيق ولا جليل؛ إلا هو يعلمه قبل كونه، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب

عنه مثقال ذرة، وأن له ملائكة هم خالص عباده وصفوة بريته، نصبهم لحفظ عالمه، ووكلهم بتدبير خلائقه، لا يعصونه طرفة عين مما نهاهم عنه ويفعلون ما يؤمرون، وأن له خواصَّ من بني آدم اصطفاهم وقربهم، وجعلهم وسائط بين الملائكة وبين خلقه من الجن والإنس وسفراء له، وأنه أمر عباده بأشياء إذا فعلوها فهو خير لهم وأنفع للجميع، ونهاهم عن أشياء إن لم ينتهوا عنها صرفهم عن الأنفع وفاتهم الأفضل، وأنه لم يأمرهم شيئًا لا يطيقونه ولا يفعلون شيئًا مما هو لا يعلمه، وأنهم قاصدون نحوه متوجهون إليه، منذ يوم خلقهم ينقلهم حالًا بعد حال من الأنقص إلى الأتم، والأدون إلى الأكمل، ومن الأدنى إلى الأفضل، إلى يوم يلقونه ويشاهدونه فيوفيهم حسابهم.

ثم اعلم أنه ليس إلى معرفة هذا الرأي سبيل، وإلى هذا الذي ذكرنا وحقيقة ما وصفنا طريق إلا شيئان اثنان؛ أحدهما الاستبصار والمشاهدة بعين البصيرة، واليقين بالقلب الصافي من الشوائب للنفس الزكية النقية من الذنب، بعد تأمل شديد للمحسوسات، ودقة نظر في المعقولات، ودراية بالرياضيات، وبحث عن القياسات، كما فعلت القدماء الحكماء الموحدون الربانيون، وإقرار باللسان وإيمان بالقلب وتسليم بالقول، كإقرار الملائكة بها إلهامًا وتأييدًا، وكإقرار الأنبياء للملائكة وحيًا وأنباءً، أو كإقرار المؤمنين للأنبياء إيمانًا وتسليمًا، وكإقرار العامة والأتباع للخواص والعلماء تقليدًا وقولًا، أو كإقرار الصبيان للآباء والمعلمين تعليمًا وتلقينًا.

فهذا الذي ذكرناه هو أحد أركان الدين، وهو الاعتقاد الصحيح، وأما الركن الآخر الذي هو الطاعة، فهو الانقياد من المأمورين والمرءوسين للآمرين الناهين.

ثم اعلم أن الأوامر والنواهي تختلف بحسب مراتب الآمرين والمأمورين في أحوالهم، فمن ذلك طاعة الأولاد للآباء والأمهات فيما يأمرونهم به مما فيه صلاحهم، وينهونهم عنه مما فيه فسادهم وهلاكهم ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ومنه طاعة الصبيان للمعلمين في قبول التأديب فيما هو صلاح لهم، ومنها طاعة التلامذة للأستاذين في قبولهم تعليم الصنائع لهم، ومنها طاعة الأزواج لبعولتهن فيما يأمرونهن من لزوم المنزل والتصون الذي فيه صلاحهن.

ومنها طاعة المرضى للأطباء في الحمية وشرب الأدوية مما فيه صلاحهم وبُرءهم، ومنها طاعة الجهال للعلماء فيما يأمرونهم بالتمسك بأمر الدين واجتناب المحارم بما هو صلاح لهم، ومنها طاعة الرعية للسلطان العادل فيما يأمرهم به من المعروف وينهاهم عن المنكر ومنعهم من ظلم بعضهم بعضًا مما فيه صلاحهم، ومنها طاعة السلاطين والأمراء والملوك لخلفاء الأنبياء عليهم السلام فيما يولونهم من البلدان وجباية الخراج ومحاربة

الخوارج والأعداء، وحفظ الثغور وتحصين البيضة فيما فيه صلاح لهم وصلاح الرعية منهم.

ومنها طاعة الخلفاء للأنبياء عليهم السلام فيما رسموا لهم من حفظ الشريعة على الأمة وإقامة السنة على أهل الملة.

ومنها طاعة الأنبياء عليهم السلام للملائكة فيما تلقي إليهم من الوحي والأنباء في تدوين الكتب المنزلة، ووضع الشريعة، وإيضاح السنة، وجمع شمل الأمة، وتأليف قلوب الجماعة بإبلاغ الوصية وبإظهار الدعوة فيما فيه صلاح الكل ونفع الجميع؛ ومنها طاعة الملائكة لرب العالمين فيما قضت من عبادته، ووكلت به من تدبير بريته وحفظ خليقته، مما فيه صلاح للجميع ونفع للعموم وبقاء للعالم ودوام الخليقة والبلوغ بها إلى أقصى مدى غاياتها التي هي السعادة العظمى.

فهذا هو الدين النبوي الحنيفي والمنهاج السني والسيرة الملكية، وهو أن يكون كل مرءوس ينقاد لطاعة رئيسه، ولا يعصيه فيما يأمره به وينهاه عنه فيما فيه صلاح للجميع.

وإذ قد تبين مما ذكرنا ما الدين الحنيفي والمذهب الرباني، والاعتقاد الجيد والرأي الصواب، والطريقة المختارة التي تصلح أن يتدين بها كل الناس ويعتقدها كل أحد من الخاص والعام جميعًا، نريد أن نذكر طرفًا من المذاهب المختلفة والآراء الذائعة، وما الأسباب الداعية لأهلها إليها، ومن أين انحرفوا عن الطريقة المستقيمة وضلوا عن الصواب ووقعوا في الأباطيل، ونبدأ أولًا بذكر الآراء الحكمية والمذاهب البدعية، ثم نذكر علل اختلاف أهل الديانات والنواميس الإلهية في فروعها من السنن والأحكام.

(٢٠) فصل في بيان الآراء الحكمية؛ وهي نوعان: دهرية أزلية ومحدثة معللة

فنقول: اعلم أن من هذين تفرعت سائر الآراء الحكمية ومذاهبها، فلنبدأ أولًا بذكر الدهرية، ثم نقول هؤلاء كانوا أقوامًا قد كان لهم من الفهم والتمييز قدرًا ما، فنظروا إلى الموجودات الجزئية المدركة بالحواس، وتأملوا واعتبروا لها أحوالها، فوجدوا لكل مصنوع أربع علل: علة هيولانية، وعلة صورية، وعلة فاعلية، وعلة تمامية.

فلما فكروا في حدوث العالم وصنعته طلبوا لها هذه الأربع العلل وبحثوا عنها، وهي هذه، ترى مَن عمله؟ ومن أي شيء عمله؟ وكيف عمله؟ ولِمَ عمله؟ وأيضًا متى عمله؟ فلَم يبلغ فهمهم إلى ذلك، ولم يتصوروه لقصور نفوسهم عن فهم دقة معانيها؛ لأن الباحث

عنها يحتاج إلى نفس زكية فاضلة في العلم والعمل، ويحتاج إلى ذهن صافٍ خَلْوٍ عن الغش أو الدغل، ونظر دقيق وبحث شديد ليدرك هذه العلل ومعانيها وحقائقها، كما بيَّنا في رسالة المعارف.

ولما نظروا في هذه المباحث ولم يعرفوها، دعاهم جهلهم وإعجابهم بآرائهم إلى القول بقدم العالم وأزليته، وأنكروا العلة الفاعلية لما جهلوا الثلاث الباقية ولم يعرفوها.

ثم اعلم أن كل ناظر في مصنوع متأمل له يَطلب بتأمله وفكره أربع علل: مَن عمل؟ ومتى عمل؟ وكيف عمل؟ ولم عمل؟ فإنما يطلب هذه المباحث لأنه يرى ويعاين بأول نظرة في ذلك المصنوع أشياء ثلاثة ظاهرة جلية من أثر الصنعة لا تخفى على كل عاقل سليم العقل من الآفات العارضة للعقول؛ وهي الثلاثة المخصوصة، والشكل والنقش، والتصاوير والأصباغ وما شاكلها. فلولا أن هؤلاء الذين زعموا وقالوا بقدم العالم قد رأوا هذه الأشياء بنظرهم إلى هذا العالم، وبتأملهم بنيته وشكله وما فيه من أنواع التصاوير والنقوش والأصباغ، لَمَا طلبوا الفاعل له، ولا بحثوا عنه كيف عمل، ومتى عمل، ومِن أي شيء عمل، ولِمَ عمل. وأيضًا لو أنهم حين لم يعرفوا هذه العلل ولم يفهموا، رجعوا إلى قولِ مَن هو أعلم منهم وأعرف بماهياتها وحقائقها، وأقروا على أنفسهم بالعجز؛ لَمَا قالوا هذا القول ولا اعتقدوا هذا الاعتقاد، ولكنهم لإعجابهم بأنفسهم واتكالهم على بحثهم ودقة نظرهم دعاهم إلى القول بقدم العالم.

وذلك أنهم تكلفوا ما لم يطيقوا، وتعاطوا ما لم يكن من صناعتهم، فوقعوا فيها وتحيروا فيه، وأصابوا ما أصاب القرد من النجار.

فهذا الباب من اختلاف الناس، وأعظمها بلية أن يتعاطى الصناعة مَن ليس من أهلها.

(٢١) فصل في بيان مناقب العقلاء والآفات العارضة للعقول

فنقول: اعلم أن هؤلاء القوم لم يرتابوا ولم يضلوا من قلة العقل ولا رداءة التمييز ولا من ترك النظر، ولكن من الآفات العارضة للعقول؛ وذلك أن العقل وإن كانت له مناقب كثيرة فإن له أيضًا آفات كثيرة تعرض لها، وقد ذكرنا طرفًا منها في رسالة الأخلاق، ولكن لا بُدَّ أن نذكر في هذا الفصل طرفًا منها، فنقول: أولًا ما العقل الإنساني؟ وذلك أن العقل الإنساني ليس هو شيئًا سوى النفس الناطقة إذا هو كبر وشاخ بعد أيام الصبا؛ وذلك أن النفس يوم ربطت بالجسد، أعني الجنين في الرحم، كانت ساذجة لا علم لها من العلوم، ولا خلق

من الأخلاق، ولا رأي ولا مذهب ولا تدبير ولا سياسة ولا رياضة في أدب، كما ذكر الله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وإنما كانت جوهرة روحانية حية بالذات، علامة بالقوة، فعالة بالطبع؛ فإذا حصلت فيها رسوم المحسوسات التي تسمى أنواعًا وأجناسًا مصورة بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها، فميزتها وتأملتها ونظرت فيها، وعرفت أعيانها ومنافعها ومضارها وجربتها واعتبرتها، سميت عند ذلك عاقلة علامة بالفعل، كما بيَّنا في رسالة الحاس والمحسوس.

فأما مناقب العقل وأفعاله فكثيرة لا يحصي عددها إلا الله الواحد القهار، وقد ذكرنا طرفًا في رسالة العقليات وشرحًا، ولكن نريد أن نشير إليها في هذا الفصل إشارة، فنقول: إن جميع الأفعال البشرية المحكمة وجميع الآراء والمذاهب المختلفة العقلية والوضعية؛ من أفعال العقل الإنساني، لكن له مع هذه الفضائل والمناقب كلها آفات عارضة كثيرة؛ فمن تلك الآفات الهوى الغالب نحو شيءٍ ما، والعُجْب المفرط من المرء برأي نفسه، والكبر المانع عن قبول الحق، والحسد الدائم للأقران وأبناء الجنس، والحرص الشديد على طلب الشهوات، والعجلة وقلة التثبت في الأمور، والبغض والعداوة عند الحكومة والخصومات، والميل والتعصب لمن يهوى، والحمية الجاهلية عند الافتخار، والأنفة من الانقياد للطاعة، وحب الرياسة من غير استحقاق، وما شاكل هذه الآفات العارضة للعقلاء، المضلة لهم عن سنن الهدى، المانعة عن الانتفاع بفضائل العقل ومنافعه.

ثم اعلم أنه ليس من مرتبة في الدنيا أرفع ولا فضيلة أحسن من الرياسة في العقلاء لذوي السياسات والتدبير، ولا نعمة ألذ ولا رتبة أحسن من انقياد العقلاء للرئيس وطاعتهم له، ولا محنة أعظم ولا بلية أشد من عصيان العقلاء للرئيس الفاضل وعدواتهم له، وهذه الخصال من إحدى أمهات الخلاف والمعاصي؛ وهي كبرُ إبليسَ، وحرصُ آدمَ عليه السلام وعجلته حين بادر، وحسدُ قابيلَ.

فأما الكبر فهي الخصلة التي سنها إبليس، فرعون آدم كفراعنة الأنبياء الذين هم جنوده، يوم أُمر بالسجود لآدم والطاعة والانقياد لأمره.

والخصلة الأخرى التي هي أيضًا إحدى أمهات المعاصي حرص آدم وعجلته حين بادر وطلب ما ليس له تناوله قبل حينه واستحقاقه، فلما ذاقها بدت له عورته وسقطت مرتبته، وانحطت درجته وانكشفت عورته وشمتت به أعداؤه!

فلولا أنه كانت سبقت كلمة من ربه تفضلًا منه عليه ورحمة منه، لَكان لزامًا له العقوبة وكل من عصى من ذريته كأن يتعاجل بالعقوبة من ساعته، ولكن أمهل إلى

وقتٍ ما، فلما تاب وندم استحق الغفران والعفو ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فأما إبليس فإنه لما أنكر السجود والانقياد للطاعة واستكبر وتمرد ولم يندم ولم يرجع، أيس من الرحمة، ولكن أُنْظِرَ أيضًا وأُمْهِلَ وأُخِّرَتِ العقوبة والعذاب إلى يوم الوقت المعلوم ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

وهذه سنة الفراعنة وحالهم في الدنيا والدين، الذين هم جنود إبليس أجمعون، الذين يأنفون من الدخول تحت أمر الأنبياء والطاعة لهم ويؤخرون ويمهلون إلى يوم يموتون، فإذا ماتوا قامت قيامتهم وأخسئوا بالعذاب فلا يزال ذلك دأبهم إلى يوم يبعثون، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

فقد تبين بما ذكرنا أن القائلين بقدم العالم لم يرتابوا ولم يضلوا عن الصراط من قلة العقل والبلاهة أو ترك النظر والبحث، ولكن من الآفات العارضة والأخلاق الرديئة للنفوس والأسباب المختلفة والأمور المشكلة والقصور عن التمام، وتركهم ما كان أخذه عليهم أوجب، وفعله بهم أولى، وتعاطيهم ما لم يكن من صناعتهم وتكلفهم ما لم يكن من قوة نفوسهم.

فصل

وأما الآخر من الخطأ الذي يطرأ عليهم

وذلك أنهم أرادوا أن يعرفوا العلة الفاعلة قبل معرفتهم المعلول، وإنما يعرف الصانع المحتجب الغائب عن إدراك الحواس إذا عرف المصنوع المكشوف الظاهر، وإنما يعرف المصنوع بالنظر إلى الهيولى واعتبار أحوالها؛ لأن في معرفة حقيقة الهيولى ومعرفة أحوالها معرفة المصنوع، وفي معرفة المصنوع معرفة الصانع.

وقد بيَّنا في رسالة سمع الكيان ماهية الهيولى وحقيقتها وأحوالها، ولكن تذكر ها هنا من أمرها ما لا بُدَّ منه.

ثم اعلم أن الهيولى وحقيقتها هو جوهر ساذج لا كيفية له ولا النقش ولا الصورة ولا الأشكال ولا الأصباغ ولا الأعراض، بل هو متهيئ لقبولها ولا يقبلها إلا بقصد قاصد وجعل جاعل.

مثال ذلك الخشب، فإنه متهيئ لقبول صورة الألواح والسرير والكرسي والباب وغيرها، ولكن بقصد من النجار وعناية منه.

وهكذا قطعة من حديد، فإنها لا تقبل الصورة إلا بعد قصد قاصد من الحداد، وكذلك سائر الهيوليات الموضوعة في سائر الصنائع البشرية.

وهكذا أيضًا الهيولى الطبيعية التي هي الأركان الأربعة التي لا تجمع ولا يكون منها المعدن والنبات والحيوان إلا بقسر قاسر أو صنع صانع.

والعلة الفاعلة لها هي قوة من قوى النفس الكلية الفلكية بإذن الله تعالى.

وهكذا الجسم المطلق الذي هو جوهر طويل عريض عميق حسب، لا يصبر على الأشكال كريات مدورات بعضها ببعض، وبعضها كواكب صغار وكبار، وبعضها أركان مختلفة الطبائع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وخفيف وثقيل ولطيف وغليظ، وبعضها متحرك وبعضها ساكن، وبعضها أسرع حركة وبعضها أبطأ حركة، وما شاكل هذه الحالات التي هي موجودة عليها إلا بقصد قاصد وجعل جاعل، وهو الله العزيز الغفار الواحد القهار تعالى وتقدس.

وكفى بهذا دليلًا وبيانًا وحجة للعقول الغريزية على أن العالم مصنوع، والمصنوع يقتضي الصانع، وهذه قضية موجبة في أوائل العقول، بينة ظاهرة جلية لا تخفى على كل عاقل متأمل سليم القلب والعقل من الآفات العارضة، وإن لم يعلم مَن عمله، ومتى عمله، وكيف عمله، ولِمَ عمله.

فأما النظر في أمر الهيولى والدليل والحجة على حدوثه، فيحتاج إلى نظر أدق من هذا، وبحث أشد، وتأمل أجود، وتمييز ألطف، كما بيَّنا في رسالة المبادئ العقلية.

وإذ قد تبين بما ذكرنا بطلانُ قول القائلين بقدم العالم، نريد أن نذكر طرفًا من أقاويل القائلين بحدوثه، وفنون مذاهبهم، واختلاف طبقاتهم، والأسباب المؤدية لهم إليها، وفي ماذا أصابوا وفي ماذا أخطئوا.

(٢٢) فصل في بيان العلة الداعية إلى القول بحدوث العالم عن علة واحدة

فنقول: اعلم أن القائلين بحدوث العالم طائفتان: إحداهما تعتقد أن العالم محدث مصنوع وله علة واحدة مبدعة مخترعة وهو حي قادر حكيم، وهذا رأي الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم وبعض القدماء الموحدين والحكماء منهم؛ والأخرى ترى وتعتقد أن العالم محدث مصنوع، ولكن ترى وتعتقد أن له علتين اثنتين قديمتين أزليتين، وهذا الخلاف من إحدى

أمهات الآراء والمذاهب المتفرعة بها، ونحتاج أن نذكر الاعتبار والقياس الذي أداهم إلى هذا الرأي والاعتقاد كيف كان، فنقول:

اعلم أن السبب في ذلك هو نظرهم إلى الشرور التي تجري في عالم الكون والفساد الذي هو دون فلك القمر؛ وذلك أنهم رأوا من القبيح الشنيع أن يكون صانع العالم واحدًا ثم يترك عالمه مملوءًا من الشرور والفساد ولا يمنع من ذلك ولا بغيره، وإن كان لا يقدر عليه فقد وجب علة أخرى لأن الشرور أفعال، والفعل لا يكون إلا من فاعل ومنفعل.

هذا كان نظرهم، وإلى ها هنا كان مبلغهم من العلم، وإلى هذا أداهم اجتهادهم في البحث والتمييز والقياس.

وهذه المسألة، أعني طلب علة كون الشرور في العالم، هي من إحدى أمهات أسباب الخلاف من العلماء في الآراء والمذاهب؛ وذلك أنه منذ كان الناس في الدنيا والعلماء مختلفون في علة كون الشرور في هذا العالم، لمن هو؟ ومَن الفاعل لها بالحقيقة؟ ومِن أين كان أصلها؟ وسنذكر بعد هذا الفصل ما قالوه وتكلموا فيه.

(٢٣) فصل في بيان أسباب العلة الداعية للقائلين بالأصلين

فنقول: اعلم — وفقك الله — أن القائلين بالأصلين طائفتان: إحداهما ترى وتعتقد أن لهما فاعلَين من إحداهما نور خير، والآخر ظلمة شرير، وهذا رأي زرادشت وماني وأتباعهما وبعض الفلاسفة؛ والطائفة الأخرى ترى وتعتقد أن إحدى العلتين فاعل والأخرى منفعل، يعنون به الهيولى، وهذا رأي بعض الحكماء اليونانية، والذي دعاهم إلى هذا الرأي هو نظرهم إلى الشرور التي تجري بين كل اثنين متنازعين من الناس والحيوان من القتل والحروب والخصومات والعداوات، وما يحدث بينهما من الأسباب والأحوال، فبهذا الاعتبار قالوا، وبهذا القياس حكموا بأن حدوث العالم كان سببه من فاعلين اثنين متنازعين، لكن أحدهما خير والآخر شرير، فهذا كان قياسهم، وإلى هذا الموضع كان مبلغهم من العلم، وإلى ها هنا أداهم اجتهادهم، ولهم أيضًا في كيفية حدوث العالم كلام وأقاويل يطول شرحها، إلا أنها مذكورة في كتبهم؛ فلذلك تركناها إذ لا فائدة في بيان ذلك.

فأما القائلون بأن أحد الأصلين فاعل والآخر منفعل، فإنما دعاهم إلى هذا الرأي ما رأوا أنه يلزم القائلين بالفاعلَين من الشنعة والقبح، وما يوجب لهما من العجز والنقص من فعالهما وتناقضهما، وما يقتضي دون ذلك من قلة النظام في تركيب العالم وخلق السموات، وما يعرض من الفساد العام والبوار الكلي.

وقد يوجد الأمر بخلاف ما يلزم من هذه الحكومة؛ وذلك أنهم قد تبينوا نظام العالم وعرفوا إتقان خلق السموات مع سعتها وكبر أجزائها وكثرة خلائقها التي هناك، وليس فيها شيء من الفساد والشرور البتة، وأنها كلها على أحسن النظام وأجود الترتيب والهندام، وأن الشرور لا توجد إلا في عالم الكون والفساد التي تحت فلك القمر، ولا توجد الشرور أيضًا في عالم الكون والفساد إلا في النبات والحيوان دون سائر الموجودات، ولا في كل وقت أيضًا، ولكن في وقت دون وقت وأسباب عارضة لا بالقصد الأول من الفاعل، بل من جهة نقص الهيولى وعجز فيه عن قبول الخير في كل وقت أو على كل حال.

وقياسهم في ذلك أعني كون الشرور من قبل الهيولى واعتبارهم الموجودات في الشاهد؛ وذلك أنهم قالوا إنا نجد في ود كل صانع أن تكون مصنوعاته على أتقن ما يمكن، ولكن ربما لا يتأتى في ذلك المادة والهيولى الموضوع في صناعته إلا على قدرٍ ما، فهو يفعل فيها بحسب ما يتأتى فيها، ويعمل عليها ما يجيء عنها، وليس العجز منه بل هو من الهيولى الناقص العسر القبول.

ومثال ذلك أن الحكيم منا في الشاهد في وده أن يعلم كل علم وكل حكمة يحسنها لأولاده وتلامذته، وأن يجعلهم حكماء فضلاء مثله في أسرع ما يكون، ولكنهم لا يقبلون ذلك إلا على التدريج وفي ممر الأيام والأوقات شيئًا بعد شيء، لنقص فيهم لا لعجز في الحكيم، والنقص في الكمال يسمى شرًّا، وليس الشر سوى عدم الخير والتمام والكمال، فهذا كان مبلغ علمهم وإلى ها هنا أدى اجتهادهم.

فأما القائلون بالعلة الواحدة وأنها واحدة قديمة، فإنهم نظروا أدق من نظر أولئك، وبحثوا أجود من بحثهم، وتأملوا غير تأملهم، فرأوا من القبيح الشنيع أن يكون محدث العالم قديمين، واعتبارهم وقياسهم كان في ذلك هكذا:

قالوا لا يخلوا الأصلان القديمان من أن يكونا متفقين في كل شيء من المعاني، أو مختلفين في جميع المعاني، أو متفقين في شيء ومختلفين في شيء؛ فإن كانا متفقين في جميع المعاني فواحد لا اثنين، وإن كانا مختلفين في المعاني فأحدهما عدم، وإن كانا متفقين في شيء ومختلفين في شيء فالشيء الثالث، وقد بطلت المثنوية فيجب أن يكون أصل العالم ثلاثة، والقائلون بالثلاثة أو أكثر لازمة لهم هذه الحكومة والشنيعة أيضًا، فأما العلة الواحدة فمتفق عليها بأن من يقول بالاثنين وأكثر فقد قال بالواحد، ثم ادَّعى إلى مادة الزيادة.

(٢٤) فصل في بيان البحث عن حدوث الهيولى

فنقول: أما المُقِرُّون بحدوث الهيولى من الحكماء القدماء، فإنهم لما أرادوا البحث عن ذلك ابتدءوا أولًا بالنظر في العلوم الرياضية فأحْكَموها، ثم بحثوا عن الأمور الطبيعية فعرفوها معرفةً صحيحةً، ثم تفكَّروا عند ذلك في الأمور الإلهية وبحثوا عنها بحثًا شديدًا، بنفوس صافية وأفهام زكية وعقول وافية، فأدركوا ما طلبوا وتصوَّروا ما بحثوا عنها عن قوة معرفة صحيحة، وسكنت صدورهم إلى ذلك.

وقد بيَّنَّا في رسائلنا الإلهية طرفًا من ذلك، ولكن نذكر أيضًا في هذا الفصل مثلًا واحدًا؛ ليكون دليلًا على صحة ما قلنا، وذلك أنهم لما أرادوا النظر في حدوث العالم كيف كان بعد أن لم يكن، وما ذلك الصانع الذي صنعه، نظروا أولًا إلى المصنوعات فتأمَّلوها فوجدوها أربعة أنواع: فمنها مصنوعات بشرية نحو ما يعمله الصُّنَّاع في أسواق المدن، ومنها مصنوعات طبيعية مكونة من الأركان الأربعة مثل أشخاص الحيوانات والنباتات والمعادن، ومنها مصنوعات نفسانية كالأفلاك والكواكب والأركان، ومنها مصنوعات إلهية كالعقل الفعَّال والنفس الكلية والهيولى الأولى والصورة المجردة.

ثم نظروا إلى المصنوعات البشرية فوجدوا كل صانع من البشر محتاجًا في صناعته إلى ستة أشياء ليُتِمَّ بها صنعته وهي: الهيولى والمكان والزمان والحركة والأدوات والآلة. وكلُّ صانعٍ طبيعيٍّ محتاج إلى أربعة منها وهي: الهيولى والمكان والزمان والحركة. ووجدوا كلَّ صانع نفساني محتاجًا إلى اثنين منها، وهي الهيولى والحركة، فعند ذلك تبيَّن لهم أن الباري تعالى غير محتاج إلى شيء منها؛ لأن فعله وصنعته إنما هي اختراع وإبداع بلا حركة ولا زمان ولا مكان ولا أدوات؛ وذلك أن الله تعالى أول شخص اخترعه وأوجده — جوهرًا شريفًا بسيطًا روحانيًّا — يُسمَّى العقل الفعَّال، ثم أبدع بتوسُّط هذا الجوهر جوهرًا آخر دونه في الشرف يقال له النفس الكلية.

ثم ابتدأ النفس الكلية بتوسط العقل الفعال فحرَّكت الهيولى الأولى طولًا وعرضًا وعمقًا، وكان منها الجسم المُطْلَق، ثم رُكِّب من الجسم عالم الأفلاك والكواكب والأركان الأربعة جميعًا، ثم أدار الأفلاك حول الأركان واختلطت بعضها ببعض، وكان منها المولدات الكائنات من المعادن والنبات والحيوانات، فتبارك الله رب العالمين، فقد تبين بهذا الاعتبار وبهذا القياس العلة الفاعلة والعلة الهيولانية والعلة الصورية.

فأما الدليل على صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا فلا يُتَبَيَّن إلا بعد معرفة النفس ذاته؛ فإنه أشرف جوهرًا من الجسم، وقد بيَّنَّا طرفًا من ذلك في رسائلنا: الرياضيات والطبيعيات والإلهيات بما فيه كفاية، ولكن نذكر في هذا الفصل طرفًا منها بعون الله.

(٢٥) فصل في أوصاف الجسم

فنقول أولًا: إن الجسم جوهر طويل عريض عميق إيجاب غير حي ولا متحرِّك ولا حساس، سُلِّمَ هذا بإجماع من العلماء.

فأما النفس فإنها جوهر ليست بجسم، وهي حية بذاتها علامة بالقوة فعَّالة بالطبع، والدليل على ذلك ما قد بان من تأثيراتها في الأجسام؛ وذلك أنها هي المحرِّكة للجسم المدبِّرة المكسبة له الحياة والقدرة، وهي المصوِّرة فيه الأشكال والنقوش المتحكِّمة عليه المتصرفة بحسب ما يتأتَّى في شخص واحد من الأجسام الكليات والجزئيات أجمع، وكفى بهذا دليلًا على وجود النفس وشرف جوهرها.

وأما الدليل على أن العقل أشرف من جوهر النفس فهو بيِّنٌ ظاهرٌ لكل عاقل؛ وذلك أن الإنسان لما كان أفضل من سائر الحيوانات التي تحت فلك القمر وكان فضله إنما هو من قِبَل عقله لا من جهة النفس؛ لأن سائر الحيوانات لها نفوس أيضًا فكفى بهذا دليلًا على أن العقل أشرف من النفس.

ولما تبيَّن أن العقل أشرف الموجودات وأفضلها — بعد الباري تعالى — وكان العقل هو المُقِرُّ على نفسه وعلى ما دونه من الموجودات بأن كلها مبدَعَات محدَثات مكوَّنات، وأنه عبد لربه، وأن ربَّه علة لها، وهو الذي أبدع الهيولى واخترعها بعد أن لم تكن، فوجب الرجوع إلى حكم العقل وقضيته، فإنْ قال قائل: إن الذين قالوا بقِدَم الهيولى وأزليته فبقضية العقل حكموا، فلِمَ لا يجب النزول على قضيتهم والرضى بحكمهم؟ فنقول: إن عقل الإنسان نوعان: غريزي ومكتَسَب، فأما الغريزي فيحصل للإنسان بعد تأمُّله للمحسوسات، وأما الغرض المكتسب فكل مَنْ كان أكثر تأمُّلًا للمحسوسات وأصفى نفسًا كان أعقل.

وبهذا العقل يُعْلَم أن العالم مصنوع مركَّب من هيولى وصورة إذا تأمَّل جزئياته من الأفلاك والأركان والمولدات والمصنوعات؛ وذلك أن في كل مصنوع آثار الصنعة باقية فيه يضطر العقل الغريزي إلى الإقرار به، وإن لم يعلم متى عمل؟ وكيف عمل؟ ولِمَ عمل؟ ومَنْ عمل؟

وأما حدوث الهيولى فليس يُعْلَم بهذا العقل الغريزي ولكن بالعقل المكتسب، والعقلاء متفاوتو الدرجات في هذا العقل كتفاوتهم في العقل الغريزي. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وذلك أن كلَّ مَنْ كان أكثر تأملًا وأكثر رياضات للمعقولات الغريزية المأخوذة أوائلها من المحسوسات وأصفى نفسًا؛ كان أعقل وأعلى درجةً في المعارف.

وإذا تأملت يا أخي وجدت أكثر اختلاف العلماء في أحكام هذا العقل المكتسب: إما من أجل تفاوتهم في درجات عقولهم، وإما من أجل اختلافات قياساتهم وفنون استعمالهم لها.

وذلك أن منهم مَنْ يستعمل في البحث عن دقائق العلوم القياس الجدلي، ومنهم مَنْ يستعمل القياس الخطابي أو البرهان الهندسي أو المنطقي أو العددي، فتختلف نتائجها بحسب اختلافها، وتختلف أحكام العقول بتفاوتها اختلافًا كثيرًا لا يُحْصِي عددها إلا الله الواحد القهار، وقد ذُكِر في كتب المنطق طرَف من ذلك بشرحٍ طويلٍ، ولكن نذكر لذلك مثالًا واحدًا ليكون دليلًا على ما وصفنا فنقول:

اعلم أن العقلاء إنما وضعوا القياسات العقلية ليستخرجوا بها المجهولات بالمعلومات فيما اختلفوا فيه بتحرُّز العقول، كما وضعوا الموازين والمكاييل والأزرع؛ ليستخرجوا بها مقادير الأشياء المجهولة بالأشياء المعلومة؛ لما اختلفوا فيه بالحذر والتخمين فيما يتعاملون، كما أن هذه الموازين مختلفة بحسب بلدانهم وسنن شرائعهم، كذلك قياسهم العقلي يختلف بحسب مراتبهم في درجات العقول المكتسبة.

والذين قالوا بقِدَم الهيولى أدَّاهم إلى هذا الحكم طريق القياس الذي استعملوه؛ وذلك أنهم نظروا في هذه الهيولى كنظرهم في هيولى الصناعة وهيولى الطبيعة وهيولى الكل فقاسوا بها، ومن ها هنا انحرفوا عن الصواب وأخطئوا القياس، وما مثلهم في ذلك إلا كمثل أولئك الصبيان الأغبياء الذين ذكرناهم في رسالة المعارف؛ وذلك أن هيولى الصناعة مصنوع الطبيعة فهي شيء موجود، وهيولى النفس هو مصنوع الباري تعالى مبدَع مخترَع لا من شيء آخر، فلو أنهم سلكوا في البحث عن حدوث العالم مسلك الفلاسفة الربانيين لما اختلفوا؛ وذلك أن هؤلاء الحكماء الربانيين لما أرادوا البحث عن حدوث العالم والهيولى الأولى ابتدءوا أولًا بالفكر في الأمور الرياضية فأحكموها، ثم بحثوا عن الأمور الطبيعية فعرفوها معرفةً صحيحةً، ثم تفكروا في الأمور الإلهية وبحثوا عن حدوث العالم وحدوث الهيولى كيف كان فأدركوا ما طلبوا، وفهموا ما أدركوا، وتصوَّروا ما بحثوا عنه، وبحثوا عما تصور لهم وسكنت نفوسهم إلى ذلك، ونحن قد بيَّنَّا طرفًا من ذلك في رسالة المبادئ العقلية.

(٢٦) فصل في بيان أقاويل العلماء في ماهية الهيولى

فنقول: اعلم أن القائلين في ماهية الهيولى وحدوثها مختلفون في ماهيتها وكيفية حدوث الأجسام منها، وهذا الخلاف هو من إحدى أمهات الآراء والمذاهب المفرَّعة عنها.

وذلك أن منهم مَنْ يرى ويعتقد أنها أجزاء صغار لا تتجزَّأ، فإن أُلِّفت ضربًا من التأليف كانت منها الأجسام المختلفة الأشكال، كما ذكرنا في رسالة الهندسية الحسية؛ فإنها مختلفة الكيفيات؛ يعنون أن منها أجزاء نارية وأجزاء ترابية وأجزاء هوائية، فإذا اختلطت ضروبًا من الاختلاط كانت منها المولدات الكائنات من المعادن والنبات والحيوان وسائر الأفلاك والكواكب، والذي أدَّاهم إلى هذا الرأي اعتقادهم للأمور وقياسهم هيولى الصناعة، وذلك أن منهم لما رأوا هيولى الصنائع مختلفة الكيفيات، فإذا أُلِّفت كانت منها جزئيات من المصنوعات المختلفة كالسرير والباب المؤلَّف من الخشب، وهكذا حروف الكتابة ونغمات الألحان وأصوات الموسيقار وعقاقير الأطباء وأصباغ المصورين وحوائج الطبَّاخين والحلاويين وما شاكلها؛ فإنها كلها مختلفة الكيفيات، إذا اجتمعت وأُلِّفت ورُكِّبت كانت منها ضروب المصنوعات كما بيَّنَّا في رسالة نسب الموسيقى؛ فبهذا الاعتبار والقياس حكموا على تلك الأجزاء التي زعموا أنها لا تتجزأ بكيفيات مختلفة الصور، وإلى هذا الموضع كان علمهم وإليه أدَّاهم اجتهادهم.

ومنهم مَنْ كان أدق نظرًا من هؤلاء وأشد تمييزًا وبحثًا، فزعموا أن تلك الأجزاء كلها متماثلة فيسد بعضها مسدَّ بعض وينوب منابه.

فإذا أُلِّفت ضروبًا من التأليف وشُكِّلت ضروبًا من الأشكال واختلطت ضروبًا من الاختلاط حدثت منها أعراض ثم كيفيات وهيئات وصفات وألوان وطعوم وروائح وما شاكلها. والذي أدَّاهم إلى هذا الرأي والاعتقاد اعتبارهم هيولات الصنائع؛ فإنها متماثلة الأجزاء، فإذا صُوِّرت ضروبًا من الأشكال اختلفت أسماؤها وأفعالها كما بيَّنَّا طرفًا في رسالة الهيولى والصورة.

مثال ذلك: قطعتان من حديد صُوِّرت إحداهما بشكل تسمَّى سكينًا والأخرى منشارًا، وفعل السكين خلاف فعل المنشار والحديد واحد؛ لأن الذي عُمل من هذه كان جائزًا أن يُعْمَل من تلك الأجزاء متماثلة، والمؤلَّف المركَّب مختلف، وإلى هذا الموضع كان مبلغ علمهم ودقة نظرهم.

ومنهم مَنْ كان أدق نظرًا وأشد بحثًا وألطف، وقالوا: إن الهيولى إنما هي جوهر بسيط روحاني معرًّى من جميع الكيفيات قابل لها على النظام والترتيب الأول فالأول، كما بيَّنَّا في رسالة المبادئ العقلية.

فقد تبيَّن بما ذكرنا وشرحنا أن العالم مصنوع يُعْلَم ذلك بالعقل الغريزي إذا اعتُبر هذا الاعتبار، ويُعْلَم أن الهيولى مبدع مخترع بالعقل المكتسب إذا اعتُبر هذا الاعتبار، ويُعْلَم أن الهيولى على ما ذكرنا.

ولما تبيَّن لهؤلاء الحكماء ما العلة الفاعلة وما العلة الهيولانية وما العلة الصورية؛ بحثوا عن العلة التمامية التي هي الغرض الأقصى الذي من أجله يفعل الفاعل فعله، وهذه المسألة أيضًا من إحدى أمهات المباحث التي منها تتفرَّع سائر الآراء والمذاهب.

والذي أدَّاهم إلى هذا البحث هو نظرهم إلى الصنائع البشرية؛ وذلك أنهم وجدوا لكل صانع بشري في فعله غرضًا، والغرض هو الغاية التي يسبق إليها فهْم الفاعل أولًا، وهو من أجله يفعل الفاعل فعله، فإذا فعله وبلغ إليه قطع ذلك الفعل. وهما طائفتان: فمنهم مَنْ يرى ويعتقد أن الباري تعالى خلق العالم لعلة ما، والأخرى تعتقد وترى أنه لا لعلة.

والذي أدَّاهم إلى الرأي هو نظرهم وبحثهم واعتبارهم على هذا الوجه الذي نقرِّره نحن: وهو أنهم قالوا: لا تخلو تلك العلة من أن تكون هي الله تعالى أو غيره، فإن كانت غيره وجب القول بالمثنوية، وقد قام البرهان على فساد هذا الرأي، وإن كانت ليس غيره فهذا الذي قلنا، وإلى هذا كان علمهم وإلى ها هنا كان اجتهادهم.

والذين قالوا بالعلة التمامية طائفتان: إحداهما ترى وتعتقد أن تلك العلة هي إرادة الباري تعالى ومشيئته، ومنهم مَنْ يرى ويعتقد أنها علمه السابق؛ والقائلون بالإرادة طائفتان: فمنهم مَنْ يرى ويعتقد أنها علمه السابق، وأن إرادة الله صفة من صفاته، ومنهم مَنْ يرى ويعتقد أنه فعل من أفعاله؛ والذين قالوا إنه صفة من صفاته طائفتان: فمنهم مَنْ يرى ويعتقد أنها صفة ذاتية، ومنهم مَنْ يرى أنها صفة عَرَضية؛ والذين يرون أنها صفة عرضية: فمنهم مَنْ يرى أنها قائمة به، ومنهم مَنْ يرى أنها قائمة بغيره، ومنهم مَنْ يرى أنها قائمة بنفسها.

وبين هؤلاء منازعات ومناقضات يطول شرحها مذكورة في كتب جدالهم وخصوماتهم.

والذين قالوا إن تلك العلة هي علمه السابق طائفتان: فمنهم مَنْ يرى ويحتج بأنه خلق العالم؛ لأنه كان عالمًا بأنه سيُخْلَق، فلو لم يُخْلَق لكان مخالفًا للعلم والمخالف للعلم جاهل، وهو تعالى منزَّه عن أمثال الخلق.

ومنهم مَنْ يرى أنه سيخلق لأن خلقه للعالم حكمة، وفعل الحكمة عند الحكيم واجب، فإذا لم يفعل الحكيم الحكمة يكون سفيهًا، فلو لم يخلق إذن العالم لكان تاركًا للحكمة، وتارك الحكمة سفيه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وهذا أرجح الأقاويل وأحق الصواب.

(٢٧) فصل في بيان قول القائلين: إن أسباب الشرور في العالم بالعرض لا بالقصد

وأما القائلون بأن الشرور هي عارض في العالم من قِبَل الهيولى الذي هو جوهر منفعل ناقص القبول للفضائل فطائفتان: إحداهما ترى وتعتقد قدمها فيما مضى دهرًا طويلًا وهي عادمة للصورة والأشكال والكيفيات أجمع.

ثم إن الباري تعالى قصد وصوَّر في تلك الهيولى عالم الأجسام ذا الثلاثة الأبعاد وجعلها على أشكال كريَّات مستديرات محيطات بعضها ببعض كما ذُكِر في كتاب المجسطي وكتاب بانياس الحكيم في تركيب الأفلاك وأطباق السموات، وجعلها مسكنًا لعبيده ومأوى لجنوده، وهي النفوس السارية في العالم من أعلى الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض، وهي أجناس الملائكة وقبائل الجن وأحزاب الشياطين وأرواح بني آدم والحيوانات أجمع، وهم سكان سمواته وقاطنو أرضه العامرون عالمه، المديرون أفلاكه المسيِّرون كواكبه المُعيِّشون حيوانات أرضه المربُّون نباتها والمكوِّنون معادنها، كل ذلك بإذن الله تعالى وتقدَّس، ولله جنودُ السموات والأرض ولكنَّ أكثرَهم لا يَعْلَمون.

ومن أجلهم خلق السموات ومن أجلهم بسط الأرض، وبهم تدبير العالم، كل ذلك ليبلغهم أقصى درجات غاياتهم التي هي البعث والخلود في النعيم أبد الآبدين، وقالوا: هذا كله حكمة وجود وفضل ونِعَم وإحسان وخيرات، والله تعالى خالقها وجاعلها وعلتها ومبقيها ومتممها.

فأما الشرور فهي عدم هذه الخيرات عن الهيولى ونقصانها عنه؛ وذلك أنها لو خُلِّيت بطبيعتها لرجعت إلى حالتها الأولى وخلعت الصورة عن ذاتها، وبطل نظام العالم واضمحلَّ وجود الخلائق، وكان من ذلك بوار الكل والفساد وهو الشر المحض، ولكن من حكمة الله لا يُقتضى تركها؛ لأن تصويره الهيولى إيجاد وتركيب العالم منه حكمة، والنشوء وجود منه وتفضُّل عليهم ورحمة لهم، والعدم بعد الوجود شر، ونقض الحكمة سفه، واسترجاع الفضل لؤم، وترك الرحمة قساوة. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ثم اعلم يا أخي أن ليس مما حكى هؤلاء من أحوال الهيولى، ووصفوا من أسباب الشرور ونسبوها إلى الهيولى بمنكَر عند خصمائهم غير قولهم بقِدمها، وإن كانوا أرادوا بقولهم: قدم الهيولى الأولى، أنها أقدم من الشيء الموضوع المصنوع منها؛ فهذا قول صحيح، وإن أرادوا أنها ليست مبدعة ولا مخترعة فالمنازعة في هذه الحكومة وقعت، فقد بيَّنَّا في رسالة المبادئ حقيقتها وكيف هي مبدَعَة ومخترعة.

ثم اعلم أن كثيرًا من أهل العلم ومَنْ تكلَّم في حقائق الأشياء لا يعرفون الفرق بين الشيء المخلوق والمصنوع، وبين المختَرَع والمُبْدَع، وهذا أحد أسباب الخلاف بين العلماء في آرائهم ومذاهبهم في قِدَم العالم وحدوثه.

ثم اعلم أن الخلق هو تقدير كل شيء من شيء آخر، والمصنوع ليس هو بشيء غير كون الصورة في الهيولى.

وأما الإبداع والاختراع فهو إيجاد شيء من لا شيء، وهذه المعرفة. وتصوُّر هذه الحكومة يبعد عن كثير من المرتاضين بالرياضات الحكمية فكيف على غيرهم؟!

ثم اعلم أن الذين قالوا بقِدَم الهيولى إنما دعاهم إلى هذا النظر والرأي، نظرهم إلى الموجودات الجزئيات التي دون فلك القمر، واعتبارهم هذه الكائنات الفاسدات من المعادن والنبات والحيوان؛ وذلك أنهم وجدوا كل مصنوع بشري وطبيعي مركَّبًا من هيولى ساذج لا شكل فيه قبل تصوير الصانع له بذلك الشكل، وإذا خلا ذلك المصنوع زمانًا طويلًا اندرس واضمحلَّ وانخلعت الصورة عنها ورجعت إلى حالتها الأولى ترابًا.

مثال ذلك: البنايات المتخَذة في المدن والقرى؛ وذلك أنهم رأوا صُنَّاعها جمعوا التراب والخشب وبنوها، ثم يحفظونها بالمرمَّات لتدوم زمانًا، فإذا خلَت زمانًا طويلًا تهدَّمت واندرست واضمحلَّت وصارت ترابًا وحجارة كما كانت بَدِيًّا، وهكذا حكم النبات والحيوان والمعادن التي هي مصنوعات طبيعية فإنها تصير كلها يومًا ترابًا وإن طال الزمان.

فعلى هذا القياس والاعتبار حكموا على الهيولى الأولى، وصنعة الباري فيها العالم، وحفظه على ما هو عليه الآن من النقش والتصاوير والأشكال والهيئات المختصة بفلك فلك، وكوكب كوكب، وركن ركن، وأجناس الحيوانات أجمع، والنبات والمعادن واحدًا واحدًا.

وأما الهيولى التي لا كيفية فيها فليست هي محتاجة في وجودها إلى صانع وفاعل، بزعمهم، فهذا كان اعتبارهم، وإلى هذا الموضع كان مبلغ اجتهادهم، فأما الذين قالوا بحدوث الهيولى فإنهم نظروا أدق نظر من أولئك، وتأمَّلوا أجود من تأمُّلهم، وبحثوا أشد بحثًا منهم، كما بيَّنَّا فيما تقدَّم ذكر ذلك فاطلبه من هناك.

(٢٨) فصل في بيان كمية أنواع الخيرات والشرور في هذا العالم

فنقول: اعلم أن الخير والشر على أربعة أنواع: فمنها ما يُنْسَب إلى سعود الفلك ونحوسه، ومنها ما يُنْسَب إلى الأمور الطبيعية من الكون والفساد وما يلحق الحيوانات من الآلام والأوجاع، ومنها ما يُنْسَب إلى ما في جبلَّة الحيوانات من التآلف والتنافر والمودة والتباغض وما في طباعها من التنازع والتغالب، ومنها ما يُنْسَب إلى ما يلحق النفوس التي تحت الأمر والنهي في أحكام النفوس من السعادة والمنحسة في الدنيا والآخرة جميعًا.

ثم اعلم أن لهذه الأنواع من الخيرات والشرور التي ذكرناها أسبابًا وعللًا يطول شرحها، وقد ذكرنا طرفًا في رسالة العلل والمعلولات، ولكن نذكر في هذا الفصل منها ما لا بد منه فنقول: إن الخيرات التي تُنْسَب إلى سعود الفلك هي بعناية من الله تعالى وقصد منه لا شك فيه، وأما الشرور التي تُنْسَب إلى نحوس الفلك فهو عارض لا بالقصد.

مثال ذلك: إشراق الشمس وطلوعها على بعض البقاع تارةً وتسخينها الماء مدة، ومغيبها عنها تارةً أخرى كيما تبرد تلك البقاع مدة ما؛ فهو بعناية من الله تعالى وواجب حكمته لما فيه من الصلاح والنفع للعموم كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وقال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وإنما ذكر الله تعالى إنعامه على عباده وإحسانه إليهم وأفضاله عليهم.

فأما التي تعرض لبعض الحيوانات ولبعض النبات من الحر المفرط والبرد المتلف في بعض الأوقات وفي بعض الأحايين وفي بعض البقاع فليس ذلك بالقصد الأول.

وهكذا أيضًا حكم الأمطار؛ فإنما يرسلها لكيما يُحيي بها البلاد ويُصلح بها شأن العباد، فإن عرض من ذلك أذية لبعض الحيوانات أو تلف النبات أو تحزَّنت به العجائز فليس ذلك بالقصد الأول.

وعلى هذا القياس حكم جميع ما يُنْسَب إلى نحوس الفلك من الأمور العارضة للحيوان والنبات والمعادن ومواليد الناس، وما يحكم في تحاويل من السنين وأحكام القرانات وما شاكَل ذلك، وما يُنْسَب إلى نحوس الفلك من الشرور والفساد جميعًا عارضًا بالقصد الأول.

وأما الخيرات التي تُنْسَب إلى الأمور الطبيعية فهي كون الحيوان والنبات والمعادن والأسباب المعينة لها على النشوء المبلغة إلى أتمِّ حالاتها وأكمل نهاياتها؛ فهي كلها بقصد من الله تعالى وعناية من تفضُّله وإنعامه.

وأما الشرور التي هي الفساد والبلى الذي يلحقها بعد الكون والفساد والأسباب التي تعوقها عن البلوغ إلى التمام والكمال فهي عارض لا بالقصد الأول ولكن بالقصد الثاني؛ وذلك أن هذه الكائنات التي هي دون فلك القمر لما لم يكن أن تبقى أشخاصها في الهيولى دائمًا في هذا العالم تلطَّفت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن يكون بقاؤها بصورها وإن كانت الأشخاص في الذوبان والسيلان دائمًا.

والمثال في ذلك صورة الإنسانية التي هي خليفة الله في أرضه؛ فإنها باقية منذ خلق الله تعالى آدم أبا البشر إلى يوم القيامة، وإن كانت الأشخاص في الذهاب والمجيء فهكذا حكم سائر الحيوانات والنبات والمعادن وأنواعها باقية بصورها وإن كانت الأشخاص في السيلان والذوبان.

وإنما كان ذلك بواجب الحكمة؛ لأن في القوة فضائل وخيرات بلا نهاية لا يمكن خروجها من القوة إلى الفعل والظهور دفعة واحدة في وقت واحد؛ لأن الهيولى لا تتسع لقبولها الأشياء شيئًا بعد شيء على التدرُّج وممر الأوقات والزمان دائمًا أبدًا.

والمثال في ذلك: أنه لو خلق الله بني آدم كلهم — مَنْ مضى منهم ومَنْ هو موجود الآن ومَنْ يحيا من بعد إلى يوم القيامة — في وقت واحد لم تكن تسعهم الأرض برحبها، فكيف حيوانهم ونبات غذائهم وأمتعتهم وما يحتاجون إليه في أيام حياتهم، فمن أجل هذا خلقهم قرنًا بعد قرن وأمة بعد أمة؛ لأن الأرض لا تسعهم، والهيولى لا تحملهم دفعة واحدة، فقد تبيَّن مما ذكرنا أن النقصان ليس من قِبَل الله تعالى، وعلة أخرى أيضًا لأسباب الشرور.

وذلك أنه لما كانت هذه الكائنات يبتدئ كونها من أنقص الوجود وأضعف القوى مترقِّية إلى أتمِّ الحالات وأكمل الغايات بأسباب معينة لها على النشوء والنمو ومبلِّغة إلى أكمل غاياتها بعناية من الله تعالى سُمِّيت تلك الأمهات خيرات، وكذلك كل سبب عارض بلوغها عن ذلك يُسمَّى شرًّا وهي عارضة لا بالقصد الأول، والمثال في ذلك ما تقدَّم ذكره من أمر الشمس والمطر.

(٢٩) فصل في بيان الفرق بين القصد الأول والقصد الثاني على قول الحكماء

فنقول: أما الخيرات التي تُنْسَب إلى جبلَّة الحيوانات وما في طباعها وأخلاقها وأفعالها بقصد منها وإرادة فهي بالقصد الثاني لا بالقصد الأول.

ثم اعلم أن معنى قول الحكماء: القصد الأول والقصد الثاني أن الفرق بينهما هو أن ما كان من قِبَل الباري تعالى من الإبداع والإيجاد والاختراع والبقاء والتمام والكمال والبلوغ وما شاكَل ذلك من الأوصاف يُسمَّى القصد الأول، والقصد الثاني هو كل ما كان من قِبَل نقص الهيولى، إنه لم يجئ منها إلا هذا ولم يقبل إلا هذا وما شاكل ذلك من الأوصاف.

وأما بيان أنواع الشرور والمنسوب إلى بعض الحيوانات وإلى الجبلَّة المركوزة فيها فنقول: إن الشرور التي تُنْسَب إلى جبلَّة الحيوانات وما في طباعها هي ثلاثة أنواع: فمنها الآلام التي تعرض لها دون سائر الموجودات، ومنها العداوة التي في جبلَّتها، ومنها أفعالها التي بقصد منها وإرادة.

فأما آلامها فتكون من ثلاثة أوجه: أحدها ألم الجوع والعطش عند حاجة أجسادها إلى المادة والغذاء، والثاني ألم الضرب والصدم والكسر المضرُّ بأجسادها المتلف لهياكلها، والثالث ألم الأمراض والأسقام المفسدة لمزاج أجسادها وأخلاط أبدانها.

فأما الآلام التي تعرض لنفوسنا عند الجوع والعطش فإن ذلك بالقصد الثاني؛ وذلك أنه لما كانت هذه الأشخاص كل واحد منها مركَّب من جسد جسماني ونفس روحاني، وكانت الأجسام مركَّبة من الأخلاط المركَّبة المتضادة وهي دائمة في الذوبان والسيلان ومحتاجة في بقائها إلى المادة والغذاء جُعلت لنفوسها آلام عند حاجتها إلى الغذاء والمادة؛ لتكون تلك الآلام باعثة لنفوسها لتنهض بأجسادها في طلب الغذاء، فلو لم تكن تعرض لها تلك الآلام لتهاونت بها وتركتها بلا غذاء، وكانت تذوب وتضمحل كلها وتبطل لأقرب مدة وأهون سعي، وكانت تبقى تلك النفوس إما بأجساد أو بلا أجساد ناقصة غير تامة ولا كاملة، وكانت تعوقها المآرب التي هي مقصودة بها كما بيَّنَّا في رسالة البعث والقيامة، وجعل لها أيضًا عند تناول الغذاء لذة وشهوة.

أما الشهوة فلأن لا تتناول من الغذاء ما لا يصلح لها، وأما اللذة فلأن تأكل وتشرب ما دامت الطبيعة محتاجة لها، وإذا اكتنفت زالت اللذة؛ فهذه كلها بقصد من الله الواحد القهار، ومن أجل النقص الذي في الهيولى كيما تتم النفوس وتكمل، وأما الضرب والكسر والصدم والجرح والحر والبرد والأمراض والأسقام، وبالجملة كل أمر مُضِر بالجسد مُفْسِد فإنما جعل للنفوس ألمًا لكيما تحثها تلك الآلام على حفظ أجسادها وصيانة هياكلها؛ إذ كانت الأجساد لا حيلة لها في جرِّ منفعة ولا دفع مضرة عنها.

ومن الدليل على صحة ما قالوه ما تبيَّن منها أنها كيف تنتبه من حال النوم؟ وكيف تتيقَّظ من حالة الغفلة؟ وكيف تحس وتشعر بالأشياء المؤذية المفسدة من الجسد؟ وكيف

تدفع تلك الأشياء عن جسدها إما بالفرار والانقباض عنها وإما بالقوة والجلادة والمجاهدة وإما بالحيلة والمداراة؟ ولو لم تفعل ذلك لهلكت الأجساد في أقرب مدة وأهون سعي قبل التمام والكمال، فإذا جاءتها المقادير والوقت المعلوم والأسباب الغالبة القاهرة فانظر كيف تسلِّمها إليها؟ وكيف تفارقها على غير اختيار منها؟

فأما ما دام له طمع في دفع تلك الآلام الموارِدة المؤذيات فهي في العلاج والجهاد رجاء للصلاح وحرصًا على البقاء ومحبة على الوجود على أتمِّ ما يمكن؛ إذ كان هذا هو الخير وكراهية منها للفناء على هذا النقص؛ إذ كان هو الشر لأن العدم المطلق ليس للأجسام ولا للنفوس ما دام العالم موجودًا، فقد تبيَّن من ذلك أن الآلام أيضًا بقصد وعناية واقتضاء الحكمة.

(٣٠) فصل في بيان أن الشرور التي في جبلَّة الحيوانات المختلفة الصور والأشكال هي بالقصد الثاني

فنقول: أما الخيرات التي في جبلَّة الحيوانات وأخلاقها التي هي الإلف والمحبة والشرور التي هي العداوة والغلبة والقهر فهي أيضًا بالقصد الثاني؛ وذلك أنه لما كانت الحيوانات مختلفة الصور والأشكال والطباع والعادات والأخلاق والأفعال لأسباب يطول شرحها — وقد بيَّنَّا طرفًا في رسالة العلل والمعلولات — جعل بين بعضها وبعضٍ أُلفةً ومحبة ومودة؛ لكيما يكون ذلك سببًا لاجتماعها واتفاقها؛ لما في ذلك من صلاح الكل والنفع على العموم، وجعل أيضًا بين بعضها وبين بعض نفورًا وعداوة؛ ليكون سببًا لتباعدها وتفرُّقها؛ لما في ذلك أيضًا صلاح الكل والنفع على العموم.

مثال ذلك: إلْف بعض الحيوانات للإنسان وانقيادها للطاعة كالبقر والغنم والخيل والبغال والحمير والجمل والفَرَس؛ لما في ذلك صلاح ونفع للناس المعروف المشهور، ولا حاجة إلى تفصيل كيفية ذلك، ولما لها أيضًا من النفع في مراعاة الناس بالعلف والسقي والسكن من الحر والبرد ومنع السباع عنها، ومداواتها من الآفات العارضة وما شاكَل ذلك، ومثال نفور بعض الحيوانات من الإنسان وتباعدها عن طاعته مثل السباع والحيات وجملة الحيوانات القليلة النفع الكثيرة الضر؛ لما فيه من صلاح الكل والنفع للعموم.

وعلى هذا القياس حال سائر الحيوانات بعضها مع بعض فيما بينها من الإلْف والمحبة والبغض والعداوة؛ لما فيها من النفع والصلاح.

وأما الشرور التي تُنْسَب إلى بعض أفعال الحيوانات بالقصد منها والإرادة فمنها أيضًا عارضة من أجل الهيولى التي هي مادة لأجسادها وقوام لهياكلها؛ وذلك أن المنافع لما كانت مشتركة بين الجميع وكان في جبلَّتها طلب المنافع ودفع المضار بالقصد الأول من الله تعالى، كما تقدَّم ذكرها، وقعت بينها هذه المنازعة في طلب تلك المنافع ودفع تلك المضار بالعرض لا بالقصد.

وأما علة كون الحيوانات بعضًا آكلة وبعضها مأكولة فقد بيَّنَّا طرفًا منها في رسالة الحيوانات.

(٣١) فصل في بيان أنواع الشرور التي تُنْسَب إلى الأنفس الإنسانية من جهة أحكام الناموس

فنقول: اعلم أن الخيرات والشرور التي تُنْسَب إلى الأنفس الإنسانية الجزئية من جهة أحكام الناموس هي نوعان: فمنها ما هي أعمال لها واكتساب منها، ومنها ما هي جزاء لأعمالها ومكافأة لها.

فأما التي هي الاكتساب فهي خمسة أنواع: منها ما هي علوم ومعارف، ومنها ما هي أخلاق وسجايا، ومنها ما هي آراء واعتقادات، ومنها ما هي كلام وأقاويل، ومنها ما هي أعمال وحركات، وهذه الخصال الخمس تسمى خيرات وشرور من وجهين: إما عقلية وإما وضعية. والوضعية منها هو كل شيء أمر به الناموس أو حثَّ عليه أو مدحه، فيُسمَّى ذلك خيرًا، وكل شيء نهى عنه أو زجر عنه، يُسمَّى ذلك شرًّا.

أما العقلية من هذه الخصال فهي كل شيء إذا فعل منه ما ينبغي على الشرائط التي تنبغي في المكان الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي من أجل ما ينبغي، يُسمَّى ذلك خيرًا، ومتى نقص من هذه الشرائط واحد يُسمَّى ذلك الأمر شرًّا. ومعرفة هذه الشرائط ليس في وُسْعِ كل إنسان في أول مرتبته إلا بعدما تتهذَّب نفسه وتترقَّى في العلوم والآداب.

ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلِّم ومؤدِّب أو أستاذ في تعلُّمه وتخلُّقه وأقاويله واعتقاده وأعماله وصنائعه.

ثم اعلم أن أصحاب الناموس هم المعلمون والمؤدِّبون والأستاذون للبشر كلهم ومعلِّمو أصحاب النواميس هم الملائكة، ومعلم الملائكة هو النفس الكلية ومعلمها العقل الفعَّال، والله تعالى معلم الكل.

وإنما طولنا الخطاب في الكشف عن الخيرات والشرور؛ لأن هذه المسألة من إحدى مسائل أمهات الخلاف بين العلماء المتشعبة منهم الآراء والمذاهب الكثيرة، كل ذلك لقلة معرفة مَنْ يتكلَّم منها وهو لا يدري ما الخير، على الحقيقة؟ وما الشر؟ وما السبب العارض؟

وإذ قد تبين مما ذكرنا علل اختلاف العلماء في الآراء والحكمة وحدوث العالم وقِدَمه نريد أن نذكر أيضًا طرفًا من عبادة الأصنام التي هي أقدم الديانات وأغلبها من الكل.

(٣٢) فصل في بيان طباع الناس في الرغبة في الدنيا والآخرة

فنقول: اعلم يا أخي أن الناس — وإن كان أكثرهم مطبوعين على الرغبة في الحياة الدنيا والحرص على طلب شهواتها والميل إلى التمتع بلذاتها — غافلون عن أمر الآخرة ونعيمها وسرور أهلها ودوام لذاتها، وإن كثيرًا من الناس أيضًا كلهم مجبولون على التدين والورع والخير والزهد في الدنيا وترك شهواتها، والرغبة في الآخرة وطلب نعيمها، وكثرة التفكر في أمر المعاد بعد الموت، والرغبة في معرفته وحقيقة الحال في المنقلب، وهم في دائم الأوقات يسألون الله الرحمة والمغفرة، ويطلبون منه حُسْنَ التوفيق وخير الآخرة، ويتقربون إليه بالصلاة والصوم والتسبيح والقرآن والدعاء وفنون العبادات، كل ذلك بحسب ما يمكنهم ويؤدي إليه اجتهادهم ويحسن في عقولهم ويتحقق في نفوسهم.

ثم اعلم أن الله تعالى ما بعث الرسل والأنبياء عليهم السلام إلى الناس إلا بالتأكيد لما في نفوسهم من أمر الدين بطلب الآخرة؛ إرشادًا لهم إلى ما هو أصلح مما اختاروه بعقولهم، وأقرب مسلكًا وأفضل سيرةً وأحسن طريقةً فيما أداهم إليه اجتهادهم وتحقق في نفوسهم بآرائهم، والدليل على صحة ما قلنا قوله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾؛ وذلك أن القوم الذين بُعِثَ إليهم النبي، عليه الصلاة والسلام والتحية والرضوان، كانوا يتديَّنون بعبادة الأصنام، وكانوا يتقرَّبون إلى الله تعالى بالتعظيم لها والسجود والاستسلام والبخورات، وكانوا يعتقدون أن ذلك يكون قربةً لهم إلى الله وزلفى. والأصنام هي أجسام خرس لا نطق لها ولا تمييز ولا حس ولا صورة ولا حركة، فأرسلهم الله ودلَّهم على ما هو أهدى وأقْوَم وأولى مما كانوا فيه؛ وذلك أن الأنبياء عليهم السلام وإن كانوا بشرًا فهم أحياء ناطقون مميزون علماء مشاكلون للملائكة بنفوسهم الزكية، يعرفون الله حق معرفته، والتقرب إلى الله تعالى بهم أولى وأهدى وأحق من التوسل بالأصنام الخرس التي لا تسمع ولا تبصر ولا تُغْنِي عنك شيئًا.

ثم اعلم أنَّا نبيِّن ها هنا بدء عبادة الأصنام فنقول بأن بدء عبادة الأمم للأصنام أولًا كان عبادة الكواكب، وبدء عبادة الكواكب كان عبادة الملائكة، وسبب عبادة الملائكة كان التوسل بهم إلى الله تعالى وطلب القربة إليه؛ وذلك أن الحكماء الأولين لما عرفوا بذكاء نفوسهم وصفاء أذهانهم أن للعالم صانعًا حكيمًا؛ وذلك لتأملهم عجائب مصنوعاته وتفكُّرهم في غرائب مخلوقاته واعتبارهم تصاريف أحوال مخترعاته، ولَمَّا تحققت في نفوسهم هويته، أقرُّوا له عند ذلك بالوحدانية ووصفوه بالربوبية، وعلموا أن له ملائكة هم صفوته من خلقه وخالص عباده من بريَّته، طلبوا عند ذلك إلى الله القربة، وتوسلوا إليه بهم وطلبوا الزلفى لديه بالتعظيم لهم كما يفعل أبناء الدنيا ويطلبون القربة إلى ملوكهم بالتوسل إليهم بأقرب المختصين بهم، وكان من الناس مَنْ يتوسل إلى الملك بأقاربه ونُدَمائه ووزرائه وكُتَّابه وخواصه وقواده وبمَنْ يمكنه بحسب ما يتأتَّى له — الأقرب فالأقرب والأدنى فالأدنى — كل ذلك طلبًا للقربة إليه والزلفى لديه.

فهكذا وعلى هذا المثال فعلت الحكماء وأهل الديانات ومَنْ عرف الله وآمن به وأقر به، فإنهم طلبوا القربة إليه والزلفى عنده، كل واحد بحسب ما أمكنه وتأتَّى له وأدى إليه اجتهاده وتحقق في نفسه.

فلما مضى أولئك الحكماء والربانيون العارفون بالله حق معرفته وانقرضوا خَلَفَهُم قوم آخرون لم يكونوا مثلهم في المعرفة والعلم، ولم يعرفوا مغزاهم في دياناتهم، فأرادوا الاقتداء بهم في سيرتهم، واتخذوا أصنامًا على مثل صورتهم، وصوَّروا تماثيل على مثل ما فعلت النصارى في بيعهم من التماثيل والصور مثل أشباه المسيح عليه السلام، ومثل روح القدس وجبرائيل ومريم، عليها السلام، وكذلك أحوال المسيح في متصرفاته؛ ليكون ذلك تذكارًا لهم بأحواله كيف ما يمحو تلك التصاوير والتماثيل.

(٣٣) فصل في بيان من يتقرب إلى الله بأنبيائه ورسله

ثم اعلم يا أخي أن من الناس مَنْ يتقرَّب إلى الله بأنبيائه ورسله وبأئمتهم وأوصيائهم أو بأولياء الله وعباده الصالحين، أو بملائكة الله المقرَّبين والتعظيم لهم ومساجدهم ومشاهدهم والاقتداء بهم وبأفعالهم، والعمل بوصاياهم وسننهم؛ على ذلك بحسب ما يمكنهم ويتأتَّى لهم ويتحقق في نفوسهم ويؤدي إليه اجتهادهم.

فأما مَنْ يعرف الله حق معرفته فهو لا يتوسل إليه بأحد غيره، وهذه مرتبة أهل المعارف الذين هم أولياء الله.

وأما مَنْ قصر فهمه ومعرفته وحقيقته فليس له طريق إلى الله تعالى إلا بأنبيائه، ومَنْ قصر فهمه ومعرفته بهم فليس له طريق إلى الله تعالى إلا بالأئمة من خلفائهم وأوصيائهم وعباده الصالحين، فإن قصر فهمه ومعرفته بهم فليس له طريق إلا اتباع آثارهم والعمل بوصاياهم والتعلق بسننهم والذهاب إلى مساجدهم ومشاهدهم، والدعاء والصلاة والصيام والاستغفار وطلب الغفران والرحمة عند قبورهم وعند التماثيل المصوَّرة على أشكالهم؛ لتذكار آياتهم وتعرُّف أحوالهم من الأصنام والأوثان وما يشاكل ذلك طلبًا للقربة إلى الله والزلفى لديه.

ثم اعلم أنه على كل حال مَنْ يعبد شيئًا من الأشياء ويتقرب إلى الله تعالى بأحد فهو أصلح حالًا ممن لا يدين شيئًا ولا يتقرب إلى الله البتة؛ وذلك أن قومًا قد رُزِقوا من الفهم والتمييز قدرًا فخرجوا بذلك من جملة العامة، ولم يحصلوا في جملة الخاصة، فهم لا يعرفون الله حق معرفته ولا يتحققونه بصفات وحدانيته، ولا يعرفون الآخرة علمًا واستبصارًا، ولا يرضون الدين تقليدًا وإيمانًا، فهم مذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فاحذر أنت يا أخي أن تكون من جملتهم فإنهم جنود إبليس وإخوان الشياطين ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ يعيبون الديانات ويُزرون على أهلها ويُهْلِكون أنفسهم ولا يشعرون.

ثم اعلم أنهم أسوأ حالًا من عابدي الأصنام على كل حال؛ لأن عابدي الأصنام يدينون بشيء ويتقرَّبون إلى الله ويخافونه ويرجونه، فأما هؤلاء فلا دين لهم ولا يعتقدون شيئًا ولا يعبدون ولا يخافون ولا يرجون شيئًا.

ثم اعلم أن علة تركهم الدين أصلًا من أجل أنهم لما تأملوا بعقولهم اختلاف أهل الديانات وجدوا دين كل قوم معيوبًا عند قوم آخرين، فلم يجدوا مذهبًا ولا دينًا بلا عيب، تركوا الدين جملةً من أجل هذا، ولم يتأملوا ولا فكَّروا بأن كون العاقل بلا دين أعيب وأقبح من كل عيب.

ثم اعلم أن في ذكر أهل الديانات عيوب بعضهم بعضًا حكمة جليلة قد بيَّنَّاها في رسالة العلل والمعلولات، وليس ذلك بأن الدين معيوب، ولكن كانت مفروضات واضعي الشريعة وسننهم مختلفة لأغراض شتى، والأغراض يطول شرحها، وتكون تلك السنن عند قوم محمودة صالحة؛ لسبب نشوئهم عليها ودُرْبَتهم في طول الزمان وجريان عاداتهم عليها، ويكون الدين معيوبًا ومنكرًا عند قوم آخرين؛ لأنهم نشئوا على غيره واعتادوا سواه وأَلِفوا خلافه، لا بأن الدين معيوب وسنن الديانات قبيحة.

ثم اعلم أنه لما كانت طباع الناس مختلفة وأخلاقها متغايرة وإراداتها مفننة، والنفوس يعرض لها أمراض مختلفة بحسب الزمان والأمكنة والطباع والأمزجة والعادات، وكان واضعو النواميس هم أطباء النفوس ومنجِّموها كقول النبي ﷺ: «إنَّ مثل أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم.» وغرض كلهم اكتساب الصحة وحفظ السلامة عليها من الآفات العارضة.

فمن أجل هذا اختلفت مفروضاتهم وتغايرت سننهم حسب ما يليق بأمة أمة، وطائفة طائفة من الناس والأمم، من المداواة لنفوسهم، والحمية لها من المحرمات عليهم كما يفعل أطباء الأجسام في العلاجات المختلفة بالبلدان المختلفة لأجل الأمراض المختلفة في الأزمان المختلفة، من تغيير الأشربة وتبديل الأدوية وتقليل الأوزان وتكثيرها بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة، ولا سيما بحسب اختلاف أمزجة الإنسان ومراعاة العادات؛ وذلك أن غرضهم حفظ الصحة الحاصلة واسترداد الصحة المفقودة.

فهكذا أفعال الأطباء من النواميس واختلاف سننهم وترتيب أوضاعهم وأمرهم وإجازتهم في شيء ونهيهم وتحريمهم عن شيء تشبه بعينها أفعال أطباء الأجسام ومداواتهم قطعًا.

ولا يخفى عليك أيها الأخ مداواة المسيح لأقوام شتَّى وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص حتى نَجَت نفوس قوم ضالين من أمراض الجهالة المزمنة العسرة الزوال بشربات الأسرار والحكم ومعاجين التوحيد والتمجيد ومسهلات الحلم والاستغفار، وحسن تحمية ترك الشهوات وبرحلة الشتاء والصيف من غليان نار الغضب وبرد البلادة.

وكذلك إبراء الأكمه بالمداواة اللائقة بالعين؛ إذ العمى عمى القلب لا عمى العين، كما أن الغنى غنى القلب لا غنى المال.

وكيف داوى الأكمه، فيا عجبًا كل العجب إنه أبرأ الأكمه باكتحال الجواهر الروحانية وبتأليف الأسرار الربانية وبذر البذورات المفردات الهيولانية، وبسائط الأركان الناموسية، والمائعات التي أُنْزِلت من السماء فسالت أودية بقدرها، فلا جَرَم أنه يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بهذه المداواة بإذن الله وتوفيق الله!

فانتبه يا أخي من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، ولا تظن بالله ظن السوء، واطلب أولياء الله الكرام ومجالسة واضعي النواميس لتنجو بشفاعتهم وتنال ببركاتهم سرورًا ونعيمًا في دار القرار.

(٣٤) فصل في بيان علة الاختلافات التي بين أهل الديانات النبوية بعضها في الأصول وبعضها في الفروع

وذلك لأسباب شتَّى نحتاج إلى أن نذكرها، ولكن من أجل أن كثيرًا ممن ينظر في الآراء ويتكلم في المذاهب لا يعرف الفرق بين ذلك، لكنا نذكر ها هنا طرفًا فنقول:

إن معنى الدين في لغة العرب هو الطاعة من جماعة لرئيس واحد، ولما كانت الطاعة لا تُتَبَّين إلا بالأوامر والنواهي، والأمر والنهي لا يُعْرَفان إلا بالأحكام والحدود والشرائط في المعلومات سُمِّيت هذه كلها شريعة الدين وسنن أحكامه.

فلما كان الإنسان هو جملة مركبة من جسد جسماني ظاهر جلي، ومن نفس روحانية باطنة خفيَّة، صارت أحكام الدين والإسلام وحدود الشريعة على وجهين: ظاهر وباطن. والظاهر هو أعمال الجوارح، والباطن هو اعتقادات الأسرار في الضمائر، وهو الأصل كما قال عليه السلام: «الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.»[٣]

ثم اعلم أن الأنبياء عليهم السلام لا يختلفون فيما يعتقدون من الدين سرًّا وعلانيةً ولا في شيء منه البتة كما قال تعالى: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، وقد بيَّنَّا أنها اثنتا عشرة خصلة يعتقدها الأنبياء وأصحاب النواميس الإلهية أجمعين لا يختلفون فيها، كما بيَّنَّا في رسالة النواميس.

وأما الشرائع التي هي أوامر ونواهي وأحكام وحدود وسنن، فهم فيها مختلفون كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وقال: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾.

ثم اعلم أن اختلاف الشرائع ليس بضار؛ إذ كان الدين واحدًا؛ لأن الدين هو طاعة وانقياد للرئيس الآمر فيما يأمر وينهى المرءوسين بحسب ما يليق بواحد واحد، وما يرى أنه يصلح له ويصلح فيه؛ لأن أوامر أصحاب النواميس ونواهيهم مماثِلة لأمر الطبيب الرفيق الشفيق فيما أمر العليل من الحِمْيَة في الصيف من تناول الأشياء الحارة بالطبع، وإجازته شرب المبردات في البلدان الحارة وفيما يرى ويأمر له.

[٣] المعروف أن الحديث يبدأ لفظه بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات» … إلخ، راجع كتب الحديث كالأربعين النووية وغيرها.

فمن أجل هذا اختلفت شرائع الأنبياء عليهم السلام. وكذلك إن اختلفت سنن الدين وقواعد النواميس؛ لأنهم أطباء النفوس ومنجموها؛ وذلك أن في الأدوار والقرانات والألوف قد تعرض للنفوس من أهل كل زمان أمراض وأعلال مختلفة من الأخلاق الرديئة والعادات الجائرة والآراء الفاسدة من الجهالات المتراكمة، كما يعرض للأجساد من الأمراض والأعلال من تغييرات الزمان والأهوية والأغذية، فبحسب ذلك يجب أن يكون اختلاف علاجات الأطباء ومداواتهم.

فهكذا شرائع الأنبياء واختلاف سننهم بحسب أهل كل زمان وما يليق بهم أمة أمة وقرنًا قرنًا مثل شريعة نوح عليه السلام، في زمانه، وشريعة إبراهيم عليه السلام، بعده في زمان آخر وقوم آخرين، وشريعة موسى عليه السلام، في زمان آخر وقوم آخرين، وشريعة المسيح بعده في زمان آخر وقوم آخرين، وشريعة سيد الأنبياء محمد، عليه الصلاة والسلام والتحية والرضوان، في زمان آخر وقوم آخرين، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فهؤلاء كلهم دينهم واحد وإن كانت شرائعهم مختلفة، وإنما ذكرنا في هذا الفصل من هذه الأشياء؛ لأن الذين أنكروا نسخ الشرائع من هذا الباب لم يعرفوا الفرق بين الدين والشريعة.

وأما الاختلافات التي وقعت بين شريعة واحدة بعضهم مع بعض كالذي بين طوائف اليهود فيما بينهم وبين طوائف النصارى، وكما بين طوائف المسلمين كذلك فهي خمسة أنواع: منها اختلاف في ألفاظ التنزيل كالذي بين القراء، ومنها اختلاف المعاني كالذي بين المفسرين، ومنها اختلاف في أسرار الدين وحقائق معانيه الخفيَّة كالذي بين المقلِّدين والمستبصرين، ومنها اختلاف في الأئمة الذين هم خلفاء الأنبياء كالذي بين الشيعة، ومنها اختلاف في أحكام الشريعة وسنن الدين كالذي بين الفقهاء.

فعلَّةُ اختلاف القراء هي من أجل الألفاظ المشتركة المعاني والمترادفة والمتباينة والمتواطئة والمشتقة، كما بيَّنَّا معاني هذه الخمسة الأنواع في رسالة المنطق، وإنما يستعمل صاحب النواميس هذه الألفاظ في تنزيله وخُطَبه؛ لأن كلامه على العموم للناس الخاص والعام، وفي المخاطبين نساء وصبيان وعلماء وجهال وعقلاء وأغبياء، ما بين ذلك إلا لكي يعقل ويكمل كل إنسان منهم معاني ألفاظه بحسب فهمه وذكائه وصفاء جوهره، فلا يخلو أحد منهم من فائدة إذا سمعوا قراءة التنزيل، وهذا هو من أجلِّ المعجزات في كتب

الأنبياء وخاصة القرآن منها، ومن أجل هذا قال النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «نزل القرآن على سبعة أحرف[٤] كلها شافٍ كافٍ، كل آية لها ظاهر وباطن.»

أما سبب اختلاف المفسرين المقرئين في معاني ألفاظ التنزيل فهو من جهتين: إحداهما احتمال الألفاظ لتلك المعاني، والأخرى من جهة مراتبهم في المعارف وصفاء جوهر نفوسهم وذكاء أفهامهم فيسنح لكل واحد شيء خلاف ما يسنح للآخر إذا نظر في معاني كتب الأنبياء عليهم السلام، بحسب اجتهاده وفهمه ودقة نظره ومبلغ علمه، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وهكذا حكم اختلاف العلماء والفقهاء الذين أصَّلوا الآراء والمذاهب في فقه الدين والأحكام والحدود، فمنها معانٍ أخذوها من ظاهر ألفاظ التنزيل، ومنها معانٍ أخذوها من أقاويل المفسرين، ومنها قياسات واجتهادات، ومنها أخبار وروايات أخذوها من طريق السمع، واجتهاد كل واحد منهم بحسب قوة نفسه وصفاء جوهره واجتهاده وبحثه، سنح له شيء خلاف ما سنح لصاحبه، فتعلَّقوا واجتهدوا واحتجُّوا على صحتها.

وهذا الذي كلَّف عباده معنى الاجتهاد في الطلب كما قيل: لكل مجتهد نصيب؛ يعني في اجتهاده، وكما قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وأما سبب اختلافهم في الأئمة الذين هم خلفاء الأنبياء عليهم السلام في أممهم بعدهم، فمن أجل أن صاحب الناموس يحتاج في وضعه للناموس وتتميمه وتكميله إلى نيِّف وأربعين خصلة من الفضائل البشرية والملكية جميعًا، كما بيَّنَّا في رسالة لنا، فإذا أحكم صاحب الناموس أمر الشريعة وسنن الدين ومنهاجه وبيَّن المنهاج وأوضح الطريق ومضى لسبيله بقيت الخصال وراثة في أصحابه وأنصاره الفضلاء من أمته، ولكن لا تكاد تجتمع كلها أجمع وراثة في واحد منهم، ولا يخلو أحد من شيء منها.

فإذا اجتمعت تلك الأمة بعد وفاة نبيها وتعاونت وتعاضدت وتناصرت مع ائتلاف القلوب كما أمرها صاحبها وأوصى بها بقوا هادين راشدين منصورين على أعدائهم سعداء في الدنيا والآخرة جميعًا.

---

[٤] المعروف أن لفظ الحديث هو: «نزل القرآن على سبعة أحرف.» وأما شافٍ كافٍ فزيادة لعلها وردت في رواية أخرى. راجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، فقد ذكر — أو بعبارة أوضح روى — لهذا الحديث واحدًا وأربعين تفسيرًا ليس من بينها ما ذهب إليه إخوان الصفا.

ثم إذا مضى أولئك على منهاج الذين تقدَّموهم خَلَفهم من بعدهم قوم آخرون من ذرياتهم وتلامذتهم متمسِّكين بسننهم في أي بلد كانوا وأي منازل نزلوا هادين راشدين، كما قال، عليه السلام: «إن مثَل أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم.» فإذا ما تنازعوا وتخاصموا وتقاطعوا وتركوا وصية نبيهم وتفرَّد كلٌّ واحد برأيه معجبًا بنفسه، شتت شمل أُلفتهم وتفرَّقت جماعتهم وضعفت قوتهم، فأفسد عليهم أمر دينهم، وشمَّت بهم حُسَّادهم، وظفر بهم عدوهم إذا تفرَّقوا في البلدان النائية، وشرع كل واحد لنفسه مذهبًا واعتقد رأيًا وتفرَّد به، وربما دعا الناس إليه، فبهذا السبب تصير الأمة بعد نبيها فرقًا وأعداء وخوارج. ولكن من أجل أن هذه المذاهب إنما هي فروع على الدين تفرَّعها أصحاب الناموس على أصله تكون تلك الملة واحدة بذلك السبب والمذاهب مختلفة، وإلى هذا أشار تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾.

ثم اعلم أن في اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب فوائد كثيرة تخفى على كثير من العقلاء، فمن أجل ذلك تجد إلى العقول بتفاوتها اختلافات كثيرة لا يُحْصِي عددها إلا الله الواحد القهار. وقد ذكرنا — في كتب المنطق طرفًا من ذلك بشرح طويل — ولكن نذكر لذلك مثالًا واحدًا ليكون دليلًا على ما وصفنا.

فنقول: اعلم أن العقلاء كما وضعوا القياسات إلى كلِّ من أحدث مذهبًا واعتقد رأيًا من الآراء فإن ذلك يصير داعيًا إلى طلب الحجة عند خصمائه وعذرًا عند العقلاء، ويكون سببًا لغوص النفوس في طلب المعاني الدقيقة والنظر إلى الأسرار الخفيَّة، ووضع القياسات واستخراج النتائج واتساعًا في المعارف، وتكون سببًا ليقظة النفوس من نوم الجهالة، وانتباهًا لها من السهو والغفلة وخصلة أخرى من الفوائد في اختلاف العلماء.

وذلك أنه لما كان الإنسان لا يخلو من محاسن وفضائل ولا ينفك عن مساوئ ورذائل أيضًا في أخلاقه وسيرته ومذهبه وأفعاله، وكان أكثر الناس تجدهم يتزيَّنون بمحاسنهم ويفتخرون بفضائلهم ويغفلون عن رذائلهم، وينسون عيوبهم ومساوئهم، صار يدعوهم اختلافهم في الآراء والمذاهب إلى كشف عيوب بعضهم وذكر مساوئ بعضهم لبعض، ويكون ذلك تنبيهًا للجميع على ترك الرذائل وحثًّا لهم على اكتساب الفضائل، ويكون في ذلك صلاح الكل إذا فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما يعابون عليه.

ومن أجل هذا قيل: اختلاف العلماء رحمة، وخصلة أخرى من فوائد العلماء في الاختلاف في أحكام الدين وشرائعها وفنون المذاهب، وهو ألَّا يكون أمر الدين ضيقًا حرجًا

لا رخصة فيه ولا تأويل كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وقال عليه السلام: «ادرءوا الحدود بالشبهات.» فبهذا الوجه أيضًا اختلاف العلماء رحمة واختلاف أهل الديانات في أمر الدين وسنن أحكامه حكمة جليَّة لا يعرفها إلا المحقِّقون المستبصرون.

(٣٥) فصل في بيان أنه لا يمكن وصول الأنفس الجزئية إلى الآخرة إلا بعد الورود إلى الدنيا

فنقول: اعلم، أيَّدك الله، أن الله تعالى لما خلق الإنسان وجعل أقصى غرضه بلوغه إلى دار الآخرة، وكان لا يمكن أن يصل إلى هناك إلا بعد أن يمكث في الدنيا زمانًا كما لا يمكن أن يمكث في الدنيا على أتمِّ الحالات إلا بعد أن يمكث في الرحم زمانًا.

ولما كان الغرض من المُكْث في الرحم هو تتميم بِنْيَة الجسد وتكميل الصورة حتى إذا خرج إلى الدنيا من الرحِم كاملًا تامًّا انتفع في الحياة الدنيا والتمتع بلذاتها ونعيمها؛ فلهذا كان الغرض من الكون في الدنيا والمكث فيها زمانًا ما هو إلا لتتميم صورة النفس وتكميل فضائلها، ولم تكن تتم فضائلها إلا بهذا الجسد المملوء من آثار حكمة الله كما بيَّنا في رسالة تركيب الجسد ورسالة الإنسان عالم صغير.

ثم اعلم أن النفس إن لم تتم صورتها ما دامت مع الجسد ولم تكمل فضائلها مع الجسد ما دامت في الدنيا لم تنتفع في الدار الآخرة بعد الموت على التمام والكمال، كما أنه إن لم تتم بِنْيَة الجسد في الرحم ولم تكمل هناك صورته؛ لم ينتفع الإنسان في الحياة الدنيا.

واعلم أن الله تعالى جعل الدين طريقًا من الدنيا إلى الآخرة، وجعل في قوام الدين صلاحًا للدنيا والآخرة جميعًا؛ وذلك أن الدين له ظاهر وباطن، وقوامه بهما جميعًا، فمن الناس مَنْ لا يريد بتمسكه بالدين إلا صلاح الدنيا ومنافعها، فيحرص في أحكام الدين وشريعته من الصلاة والصوم وما شاكلها ويرائي الناس، وبذلك يطلب منافع الدنيا فيكون في حفظه ظاهر أحكام الدين قوام له، كما قيل: «إن الله ينصر هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم.» ومن الناس مَنْ يريد الدنيا لطلب الآخرة وصلاح المعاد، فهم يزهدون في الدنيا ويتركون الشرور ويؤدون الأمانات سرًّا وإعلانًا، ويعاملون الناس بالصدق والورع من غير غش ولا دغل، وفي ذلك صلاح أمر الدنيا والآخرة جميعًا.

ثم اعلم أن كل مَنْ أحدث في شريعة أصحاب النواميس حدثًا من تغيير في أحكامها وتبديل في حدودها، وطلب بذلك عَرَضَ الدنيا فإن صاحب الناموس هو خصمه يوم القيامة،

ومَنْ فعل شيئًا من ذلك وأراد به صلاح ذات البين — ولكن دخلت عليه شبهة من غير عناد ونفي أو طلب في سبب عرض الدنيا — فإن ذلك يُغْفَر له ولا يؤاخَذ به.

(٣٦) فصل في بيان سبب اختلاف العلماء في الإمامة

فنقول: اعلم أن مسألة الإمامة هي أيضًا من إحدى أمهات مسائل الخلاف بين العلماء، قد تاه فيها الخائضون إلى حجاج شتَّى وأكثروا فيها القيل والقال، وبَدَتْ بين الخائضين فيها العداوة والبغضاء، وجَرَتْ بين طالبيها الحروب والقتال، وأُبِيحت بسببها الأموال والدماء وهي باقية إلى يومنا هذا لم تنفصل، بل كل يوم يزداد الخائضون المختلفون فيها خلافًا على خلاف، وتتشعَّب فيها ومنها آراء ومذاهب حتى لا يكاد يحصي عددها إلا الله، فنحتاج أن نذكر أولًا ما الأصل المتفق عليه بين أهلها، ثم نذكر أسباب الخلاف في فروعها فنقول:

اعلم أن الأمة كلها تقول: إنه لا بد من إمام يكون خليفة لنبيها في أمته بعد وفاته، وذلك لأسباب شتَّى وخصال عدة: أحدها هو أن يحفظ الإمام الشريعة على الأمة ويحيي السنة في الملة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكون الأمة تصدر عن رأيه.

وقوم آخرون يكونون خلفاءه في سائر البلدان للمسلمين بالنيابة عنه في جباية الخراج وأَخْذِ الأعشار والجزية وتفريقها على الجند والحاشية؛ ليحفظ بهم ثغور المسلمين ويحصِّن بهم البيضة، ويقهر الأعداء ويحفظ الطرقات من اللصوص والقُطَّاع، فيمنع الظالم ويردع القوي عن الضعيف المظلوم، وينصف ويعدل بين الناس فيما يتعاملون به، وما شاكَل هذه الخصال التي لا بد للمسلمين من قيِّم بها في ظاهر أمور دنياهم، وخصلة أخرى هي أن يرجع فقهاء المسلمين وعلماؤهم عند مشكلاتهم في أمر الدين إله، وعند مسائل الخلاف فيحكم هو بينهم فيما هم فيه يختلفون من الحكومة في الفقه والأحكام والحدود والقصاص والصلوات والجمعات والأعياد والحج والغزو وتولية القضاة والعدول وفتوى الفقهاء، ويصدرون كلهم عن رأيه وتدبيره وأمره ونهيه؛ فهذا هو الأصل المتفق بينهم في حاجاتهم إلى الإمام.

وأما ما ينبغي أن يكون الإمام ومَنْ هو؟ فهم فيه مختلفون على رأيين ومذهبين: فمنهم مَنْ يرى ويعتقد أنه لا ينبغي إلا أن يكون أفضلهم كلهم بعد نبيها وأقربهم إليه نسبةً ويكون قد نص عليه، ومنهم مَنْ يرى بخلاف ذلك.

ولهم في هذين الرأيين منازعات وخصومات يطول شرحها مذكورة في كتبهم، ولكن نحتاج إلى أن نذكر علة اختلافاتهم من أين كان بدؤها؟ ومن أين أشكل الأمر عليهم فيه؟

واعلم أن الإمامة إنما هي خلافة، والخلافة نوعان: خلافة النبوة، وخلافة المُلْك. والكلام في خصال الإمامة وتعديد شرائطها قبل معرفة خصال النبوة وتحصيل شرائطها، وقبل معرفة خصال الملك وشرائطه والفرق بينهما، كلام على غير أصله، وكل كلام على غير أصل هذيان لا تحقيق له، ونحتاج إلى أن نذكر أولًا خصال النبوة قبل خصال الملك فنقول:

إن أول خصال النبوة الوحي، والأنبياء من الملائكة، ثم إظهار الدعوة في الأمة، ثم تدوين الكتاب المنزَّل بالألفاظ الوجيزة وتبيين قراءته في الفصاحة، ثم إيضاح تفسير معانيه وبلوغ تأويله، ثم وضْع السنن المركَّبة ومداواة النفوس المريضة من المذاهب الفاسدة والآراء السخيفة والعادات الرديئة والأعمال السيئة والأفعال القبيحة.

ثم نقلها من تلك العادات وتلك الآراء ومحوها عن ضمائرها بذكر عيوبها ومداواتها من أسقام تلك العادات بالحمية لها من العود إليها وإشفائها بالرأي الرصين والعادات الجميلة والأعمال الزكية والأخلاق الحميدة بالمدح والترغيب في جزيل الثواب ليوم المآب.

وأيضًا من خصال النبوة معرفة كيفية سياسة النفوس الشريرة عن قصد سبيل الرشاد، وردها عن سلوكها في وعور طريقة البغي بالتمادي ومعرفة كيفية سياسة النفوس الساهية والأرواح اللاهية من طول الرقاد ونسيانها ذكر المعاد بالتذكار لها يوم المعاد؛ لئلَّا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير ولا كتاب.

ومن خصال النبوة أيضًا إجراء السنة في الشريعة، وإيضاح المنهاج في الملة، وتبيين الحلال والحرام، وتفصيل الحدود والأحكام في أمور الدنيا جميعًا، ثم التزهيد في الدنيا وذم الراغبين فيها وتفصيل أحكام الخاص والعام وما بينهما من سائر طبقات الناس، وما شاكَل هذه الخصال المعروفة بين أهل العلم الموجود وضعها في الكتب المنزَّلة من التوراة والإنجيل والقرآن وصحف الأنبياء عليهم السلام.

فأما خصال الملك فأولها أخذ البيعة على الأتباع المستجيبين، وترتيب الخاص والعام مراتبهم، وجباية الخراج والعُشْر والجزية من الملة، وتفريق الأرزاق على الجند والحاشية، وحفظ الثغور وتحصين البيضة وقبول الصلح والمهادنة من الملوك والرؤساء من الأمور المستحبة، والهدايا لتأليف القلوب وشمل الألفة وما شاكَل هذه الخصال المعروفة بين الرؤساء والملوك.

ثم اعلم أنه ربما تجتمع هذه الخصال في شخص واحد منه البشر في وقت من الزمان، فيكون هو النبي المبعوث وهو الملك، وربما تكون في شخصين اثنين: أحدهما النبي المبعوث إلى تلك الأمة والآخر المسلَّط عليهم.

واعلم أنه لا قوام لأحدهم إلا بالآخر، كما قال ملك الفُرْس أزدشير في وصيته: إن الملك والدين أَخَوان توأمان لا قوام لأحدهما إلا بالآخر؛ وذلك أن الدين أُسُّ الملك والملك حارسه، فما لا أسَّ له مهدوم، وما لا حافظ له ضائع، ولا بد للملك من أسٍّ ولا بد للدين من حارس.

ثم اعلم أن الله تعالى قد جمع لنبيه محمد، عليه الصلاة والسلام والتحية، خصال المُلْك والنبوة جميعًا، كما جمعها لداود وسليمان، عليهما السلام، وكذلك جمع ليوسف الصدِّيق عليه السلام؛ وذلك أن النبي ﷺ أقام بمكة في أول مبعثه نحوًا من اثنتي عشرة سنة يدعو الناس ويعلِّمهم معالم الدين حتى استوفى خصال النبوة وأحكمها، ثم هاجَر بعد ذلك إلى المدينة وأقام بها نحوًا من عشر سنين في ترتيب أمر الأمة وتحذير الأعداء وجباية الخراج والعُشْر ومصالحة الأعداء والمهادنة وقبول الهدايا وحملها والتزويج منهم وإليهم حتى أحكم أمر المُلْك.

ثم اعلم أن الله تعالى لما أضاف إلى نبوته الملك لم يُضِفْها لرغبته في الدنيا وحرصه عليها، ولكن أراد الله تعالى أن يجمع لأمَّته الدين والدنيا جميعًا، وكان القصد الأول هو الدين، والمُلْك عارض لأسباب شتَّى: أحدها أنه لو كان المُلْك في غير أمته لم يكن يؤمن أن يردَّهم عن دينهم أو يسومهم سوء العذاب مَنْ كان مسلَّطًا عليهم مثل ما كان يفعل فرعون ببني إسرائيل.

والخصلة الأخرى ما قال أزدشير: إن «المُلْك والدين أَخَوان توأمان». وخصلة أخرى هي أن الناس في طباعهم وجبلَّتهم لا يرغبون إلا في دين الملوك ولا يرهبون إلا منهم، وبهذه الخصال — وخصال أخرى يطول شرحها — جمع الله المُلْك والنبوة لنبيه محمد، عليه الصلاة والسلام والتحية والرضوان، ولما أشكلت هذه المسألة على اليهود والنصارى ارتدُّوا وشكُّوا في نبوته لما رأوا أن المُلْك والنبوة لمحمد عليه السلام. فلما أنزل الله عز وجل قصة داود وسليمان ليحاجَّ بها اليهود والنصارى؛ إذ كانوا مقرِّين بنبوتهما، وقد جمع الله لهما من المُلْك والنبوة ولم يكن المُلْك قادحًا في نبوتهما، فهكذا كان حكم محمد عليه السلام، فإن المُلْك لم يكن قادحًا في نبوته.

واعلم يا أخي أن الله تعالى قد جمع لمحمد عليه السلام، المُلْك والنبوة وأيَّده بروح منه، حتى إنه قام بواجب حقهما لما خصَّه الله به من الجبلَّة القوية والقوة المتينة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقلَّ مَنْ يكون كذلك؛ لأن النبوة تتمُّ بنيف وأربعين خصلة من فضائل البشرية، والمُلْك يحتاج إلى شرائط أُخَر غيرها.

(٣٧) فصل في أن بعض أخلاق الملوك مضادة لخصال النبوة

فاعلم أن في بعض أخلاق الملوك مضادة لخصال النبوة؛ وذلك أن المُلْك أمر دنيوي والنبوة أمر أخروي والدنيا والآخرة كأنهما ضدَّان، وأكثر الملوك يكونون راغبين في الدنيا حريصين عليها تاركين لذكر الآخرة ناسين لها. والأنبياء عليهم السلام من خصالهم التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، يأمرون بها ويحثُّون عليها. فعلى هذه الدرجة يكون بعض حال الملوك مضادًّا لحال النبوة، ولكن الأنبياء عليهم السلام الذين جمع الله لهم المُلْك والنبوة لم يكونوا شديدي الرغبة في الدنيا ولا حريصين على شهواتها، كما حكى الله تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام، حين قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ... الآية؛ فهذا يدل على أنه كان من الزاهدين في الدنيا، فهكذا كان داود عليه السلام، وسليمان عليه السلام.

ولقد ذكر الله تعالى في قصة داود عليه السلام، أنه كان أوَّابًا حليمًا، وفي قصة سليمان ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ وهكذا كان النبي عليه السلام، زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة، وقد رُوِيَ في الخبر أن جبريل عليه السلام، عرض عليه مفاتيح خزائن الأرض فقال: خذها ولا ينقصك ما عند الله شيئًا، فقال عليه السلام: «لا حاجة لي في شيء من ذلك؛ حلالها حساب وحرامها عذاب.» وإنما جعل ذلك إشفاقًا على أمته؛ لئلَّا يرغبوا فيها ويحتجوا إليها بقول الله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

(٣٨) فصل في مسألة الجبْر

فنقول: اعلم أن مسألة الجبر هي أيضًا من إحدى مسائل الخلاف بين الناس المنبثَّة منها الآراء والمذاهب؛ وذلك أنه منذ كان العلماء وأهل الجدل هم فيها مختلفون فيما مضى من الأزمان والدهور، وهم طائفتان: الجبرية والقدرية، فأما الجبرية فإن الذي أدَّاهم إلى ما يعتقدون في هذه المسألة هو نظرهم واعتبارهم إلى عواقب الأمور وخواتيمها؛ وذلك أنهم لما تبيَّن لهم أن الأمور كلها التي تخرج إلى الكون والفساد والوجود والعدم فعلى ما في مقدور الله وسابق علمه لا يكون خلاف ذلك شيء، وزعموا عند ذلك وظنوا أنهم لا يقدرون على شيء من الأفعال التي تظهر على أيديهم، ولا يستطيعون الامتناع عن شيء من ذلك ولا الترك لها بالحقيقة، ونسبوها كلها إلى القضاء والقدر.

وأما خصماؤهم ومخالفوهم فكان نظرهم واعتبارهم في هذه المسألة الأوامر والنواهي والمدح والذم والوعد والوعيد المتوجِّهة على الإنسان العاقل المستطيع، ورأوا أنه محجوج بها مزاح العلة فيها، وليس له أن يحتج على أحد لا عند الله ولا عند الناس بالقضاء والقدر! وعلم الله السابق في الكائنات؛ لأنه لا يدري أحد في مبدأ أمره وأول أفعاله قضاء الله وقدره وعلمه السابق، وإنما تبيَّن له ذلك بعد فراغه مما قد فعل أو ترك ما أمر الله به، وهذا النظر نظر أولئك واعتبارهم، فلا جَرَم أن المسألة قائمة بحالها والخلاف باقٍ والحكومة لم تنفصل إلى يومنا هذا، بل كلما ازدادوا فيها نظرًا واعتبارًا وبحثًا وجدالًا ازدادوا خلافًا على خلاف إلى يوم القيامة، إِنَّ رَبَّكَ هو يَفصِلُ بَيْنَهم يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يَختلِفون.

ثم اعلم أن ليس أحد من المخلوقين بقادر على شيء من الأشياء ولا عمل من الأعمال إلا ما أقدره الله تعالى عليه وقوَّاه ويسَّره له.

واعلم أن إقدار الله القادرين وتقويته الأقوياء وتيسير الأمور ليس بمجبِر لأحد منهم على فعل من الأفعال ولا عمل من الأعمال ولا تركه.

واعلم أن كل قدرة في أحد من القادرين أو قوة في أحد من الأقوياء على فعل من الأفعال وعمل من الأعمال فهو بتلك القدرة وتلك القوة بعينها التي يقدر بها على الفعل ويقدر أيضًا على ترك الفعل بعينه.

مثال ذلك القوة التي جُعلت في لسان المتكلم على الكلام؛ فهو بتلك القوة بعينها يقدر على السكوت، وبالقوة التي في الرِّجْلين كذلك، وفي العينين على فتحهما كذلك؛ فإنه بتركه ذلك الفعل أيضًا قادر.

وعلى هذا القياس حكم سائر القوى التي يقدر على الأفعال بها، ولكن رُبَّ فعل تركه أسهل من أخذه، ورُبَّ فعل أخذه أسهل من تركه، ويوجد ذلك بحسب الأسباب الداعية إلى الأمور المسيرة بها.

مثال ذلك اللص وسرقته بالليل، فإن النوم على الفرش الوطيئة على كل حال أسهل من الذهاب في ظُلَم الليالي إلى المواضع البعيدة الشاقة ونقْب الدور وتسلُّق الحيطان العالية مع الخوف والوجل، ولكن الحرص والرغبة وشدة الحاجة وطول الأمل وشهوات النفوس وترك النظر في العواقب والغرور بالأمانيِّ ووساوس الشيطان وما شاكَل هذه من الأسباب، تدعوهم إلى فعل ما هو أصعب وعمل ما هو أشق وترك ما هو أيسر وأسهل.

وعلى هذا المثال حكم سائر الأعمال الصعبة والأفعال الشاقة التي يفعلها الفاعلون، فإن تركها أسهل من أخذها، ولكن قيل: «كلٌّ ميسَّر لما خُلِق له.» فمن الناس مَنْ تيسَّر له أخذ الفعل ومنهم مَنْ تيسَّر له تركه.

فلا تظن يا أخي أنه قد يقع من أحد فعل ولا ييسر له عمل ولا ترك شيء مما هو مندوب إليه إلا ما قد سبق له في علم الله الذي يُسمَّى القضاء المبرَم والقدر المحتوم، اللذان هما موجبات أحكام النجوم وتأثيرات الإشكال الفلكي، كما بيَّنا في رسالة الإيمان فليُعْرَف من هناك.

(٣٩) فصل في أن أحكام النجوم هي من إحدى أمهات الخلاف

ثم اعلم أن أحكام النجوم هي أيضًا من إحدى أمهات الخلاف بين الناس مذ كانوا، والعلماء في حكمها على ثلاثة أقاويل: فمنهم مَنْ يرى ويعتقد أن للأشخاص الفلكية دلالة على الكائنات قبل كونها في هذه الأشخاص السُّفْلية، ولها أيضًا فيها أفعال وتأثيرات، ومنهم مَنْ يرى ويعتقد أن لها دلالات ولكن ليس لها فعل ولا تأثيرات، ومنهم مَنْ يرى ويعتقد أنه لا تأثير لها ولا دلالة البتَّة، ولكن حكمها حكم الجمادات والأحجار المطروحة في البراري والقفار، وإنما قالوا هذا وأنكروا دلالتها وأفعالها؛ لتركهم النظر في علم أحكام النجوم وإغفالهم عن تعليمها وإعراضهم عن البحث عنها.

وأما الذين قالوا بأن لها دلالات فإنما عرفوا ذلك وتبيَّن لهم صحته لطول التجارب وكثرة الاعتبار في مرور الأيام والشهور والسنين الكثيرة أمة بعد أمة وقرنًا بعد قرن، كما تبيَّن ذلك في كتب الأحكام.

وأما الذين قالوا: إن لها دلالات وأفعال وتأثيرات، وإنهم أحياء ناطقون، وهم ملائكة الله وملوك أفلاكه وسكان سمواته، فإن ذلك عرفوه بعد النظر في العلوم الإلهية وأحكامها، والعلوم الإلهية عرفوها بعد النظر في العلوم الطبيعية وأحكامها، والعلوم الطبيعية عرفوها بعد النظر في علوم الرياضة وأحكامها، وعلوم الرياضة عرفوها بعد التعلُّم لها والتدرُّب بطول الزمان من الدهور والأيام، فسمَّوا المؤثرات روحانيات الكواكب في الكائنات.

ثم اعلم أن العلماء لا يشكُّون في علم وأدب قد تعلَّموه وفكَّروه بقول المنكرين له والجاهلين به، وهكذا العقلاء مجبولون على ألَّا يترك أحدهم دينًا ومذهبًا قد نشأ عليه وأنس به، وقد اعتاد التعبُّد بطول الزمان على سنته وأخذه عن آبائه وشيوخه وأستاذيه من غير أن يتبيَّن له بطلانه وينكشف له عواره، وهكذا لا يرغب أحد منهم في الدخول في دين أو مذهب لم تتبيَّن له صحته ولم تصح له حقيقته ولا قامت عنده حجته، فلا تلُم الناس على تمسُّكهم بدين آبائهم ومذاهب أسلافهم.

فاعلم أن الحق في كل دين موجود وعلى كل لسان جارٍ، وأن الشبهة دخولها على كل إنسان جائز ممكن، فاجتهد يا أخي أن تبيِّن الحق لكل صاحب دين ومذهب مما هو في يده أو مما هو متمسك به، وتكشف عنه الشبهة التي دخلت عليه إن كنت تُحْسِن هذه الصناعة، وإلا فلا تتعاطاها ولا تدعها إن كنت لا تُحْسِنها ولا تمسك بما أنت عليه من دينك ومذهبك واطلب خيرًا منه، فإن وجدت فلا يسعك الوقوف على الأدون، ولكن واجب عليك الأخذ بالأخير الأفضل والانتقال إليه، ولا تشتغلنَّ بذكر عيوب مذاهب الناس ولكن انظر هل لك مذهب بلا عيب؟

واعلم أن الإنسان العاقل قد تخفى عليه عيوب مذهبه كما تخفى عليه مساوئ أخلاقه وقبائح أفعاله وسيئات أعماله، وتسنح له عيوب غيره ومساوئ أخلاقه وقبيح أفعاله، كما قيل في المثل: «يا ابن آدم لك محلَّان: أحدهما فيه عيوب نفسك، وفي الآخر عيوب غيرك، وأنت قد جعلت التي فيها عيوب غيرك قُدَّام وجهك ولا تزال تطَّلع عليها، والتي فيها عيوب نفسك تجعلها خلف ظهرك فلا تلتفت إليها.» قال حكيم اليونانيين: «الإنسان يعمى ويصم عن عيوب نفسه؛ لأن نفسه أحب الأشياء، وحب الشيء يُعْمِي ويصم.»

ثم اعلم أن العلوم أجناس كثيرة، ولكل جنس أنواع متفننة، وكل نوع منها يحرز آخر، وأهل كل علم متفاوتو الدرجات، فيها مبتدئ متعلم وعالم راسخ وما بينهما من الطبقات، ولأهل كل علم ومذهب أدلة قد نَصَبَها لهم الباري تعالى، فهم يصيبون ويخطئون في أحكامهم والاستدلال بها فمقلٌّ ومُكْثِر.

كل ذلك بحسب قوى نفوسهم وطول دُرْبَتهم ودقة نظرهم فيها، ولا يظن أن الصناعة تبطل أو تكون الأدلة غير صحيحة من أجل خطاياهم وزلَّتهم في الاستدلالات! فعلم النجوم وأدلتها صحيحة وحق، وهي الأشخاص الفلكية التي نَصَبَها الباري تعالى وأجراها مجاريها، وإن كان المنجِّمون يخطئون في بعض استدلالاتهم أو في أكثرها فلا تبطل صناعة علم النجوم من أجل ذلك، وهو علم جعله الله تعالى معجزة لإدريس النبي، آمن به ملك زمانه، وله قصة يطول شرحها، كذلك الطب صناعة، فإن دلالته صحيحة، وقد يصيب الأطباء ويخطئون في قضاياهم باستدلالاتهم التي نصبوها في أكثرها، فلا تبطل صناعة الطب من أجل ذلك، والأدلة التي نصبها الباري سبحانه وتعالى هي اختلاف حركات النبض وأصباغ البول وتغير أحوال المريض للعلل، وهكذا أيضًا الفقهاء والحكام والمُفتون في أحكام الدين من الحلال والحرام قد يصيبون ويخطئون في قضاياهم واستدلالاتهم التي نصبها لهم الباري من آيات كتبه المنزَّلة وسنن أحكام الشريعة ومفروضات النواميس

الإلهية، فخطؤهم وزللهم لا يبطل العلم والصناعة والأدلة المنصوبة، ولكن التقصير والعجز موكولان بالإنسان لنقصه عن التمام.

ثم اعلم أن مسألة الوعيد هي أيضًا إحدى أمهات مسائل الخلاف بين العلماء؛ وذلك أن منهم مَنْ يرى ويعتقد أنه واجب في حكم الله وعدله أن يفي بوعيده كما وفى بوعده؛ لأنه إن لم يفعل كان كاذبًا، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ومنهم مَنْ يرى ويعتقد أنه لا يكون كاذبًا؛ لأن الكذب هو الخبر بأنه قد فعل ولم يكن فعل، أو يقول: ما فعلت وقد كان فعل، فأما إذا قال: سأفعل، ثم لم يفعل فيكون مخالفًا، والمخالف في الوعد يكون مذمومًا غير وفي، فأما في الوعيد فربما كان الخلاف عفوًا وصفحًا ورحمةً وتحنُّنًا وإشفاقًا وكرمًا وسماحةً وإنعامًا، وكذلك هذه الخصال ممدوحة محمودة تليق بفضل الله ورحمته وكرمه وإحسانه، ومنه قول بعض العرب:

وإنـي إذا أوعـدتـه أو وعـدتـه لمخلف إبعادي ومنجز موعدي

فإن إخلاف الوعيد مكرمة افتخر بها؛ وذلك أن وعيد الله تعالى لعبيده مماثل لوعيد الأب الشفيق الطيب العالم للولد الجاهل العليل يقول: لا تأكل ولا تشرب كيت وكيت وافعل كيت وكيت؛ فإنك إن لم تفعل ولم تقبل نصيحتي ضربتك وحبستك وعاقبتك. فإن لم يفعل الولد ولم يقبل نصيحة والده ولم يأتمر له ولم ينتهِ عما نهاه عنه، وأكل شرب ما نهاه عنه وترك ما كان مأمورًا به؛ بقي عليلًا سقيمًا وفاتته الصحة والأنفع والأصلح، وبقي متألمًا وجيعًا، فإن الأب الشفيق يشفق عليه أن يفي بوعيده فيضربه ويزيده ألمًا وعذابًا، فهكذا يكون حكم عذاب الله ووعيده لعباده، وهذا أليق به وبرحمته وجوده وكرمه وإحسانه.

وأما وقت وفاء الوعد لثواب المحسنين متى يكون وكيف يكون؟ فإن هذه المسائل هي من غوامض العلوم ودقائق الأسرار، وقد أكثر العلماء فيها القال والقيل، وتحيَّرت فيها عقول كثير من الناس أولي الألباب.

فمنهم مَنْ يرى ويعتقد أنها في الدنيا قبل الممات، ومنهم مَنْ يرى أنها تكون في الآخرة بعد الممات، وأما كثير من الناس فينكرون أمر الآخرة فلا يعرفونها ولا يقرُّون بها، وأما المُقرُّون بها فمختلفون أيضًا فيها وفي ماهيتها وكيفيتها وأبنيتها على مذاهب شتَّى: فمنهم مَنْ يرى ويعتقد أن الآخرة ودار الجزاء إنما تكون بعد خراب السماء وفناء الخلق أجمعين، ثم إن الله تعالى يعيدهم مرة ثانيةً خلقًا جديدًا فيثيبهم ويجازيهم ما

كانوا يعملون في الدنيا من خير أو شر أو عرف أو نُكْر، وهذا جيد للعامة ولمن لا يعرف من الأمور شيئًا ويرضى الدين تقليدًا وإيمانًا، وأما الخاص ومَنْ قد نظر في بعض العلوم الرياضية والطبيعية، فإن هذا الرأي لا يصلح لهم؛ وذلك أن كثيرًا من العقلاء الحكماء ينكرون خراب السموات ويأبون ذلك إباءً شديدًا، والجيد لهم إذن أن يعتقدوا أمر الآخرة أن لها وجودًا متأخرًا عن الكون في الدنيا، كما كان في الدنيا موجودًا متأخرًا عن الكون في الرحِم، وكما كانت أيام الشيخوخة متأخرة عن أيام الشباب، وأيام العقل والتمييز والحكمة والكمال كانت متأخرة عن أحوال الجهل، وهي أحوال تطرأ على النفس بعد مفارقتها الجسد إذا هي انتبهت من نوم غفلتها في الدنيا واستيقظت من رقدة جهالتها قبل الممات، ونظرت إلى الدنيا واعتبرت أحوالها وتصاريف أمورها؛ ليكون ذلك دلالة على معرفة الآخرة، فإذا لم تفعل وماتت ميتة جاهلية بعمائها فتكون بعدُ بأمر الآخرة أعمى وأضل سبيلًا، وقد بيَّنَّا في رسالة الآلام واللذات طرفًا في كيفية ثواب المحسنين وجزاء المسيئين بعد الممات، وطرفًا آخر منها بيَّنَّاها في رسالة البعث والقيامة، ونريد أن نذكر ها هنا طرفًا آخر.

(٤٠) فصل في جزاء المحسنين

فنقول: اعلم يا أخي أن جزاء المحسنين يتفاضل في الآخرة بحسب درجاتهم في المعارف واجتهادهم في الأعمال الصالحة، والناس متفاوتو الدرجات في أعمالهم كلٌّ على شاكلته، وأجود أحوال العامة والجُهَّال كثرة الصوم والصدقة والصلاة والقراءة والتسبيح، وما شاكَل ذلك من العبادات المفروضة والمسنونة في الشرائع، المشغلة لهم عن فضول وبطالة وما لا ينبغي لهم كيلا يقعوا في الآفات.

وأفضل أعمال الخواص التفكُّر والاعتبار بتصاريف أمور المحسوسات والمعقولات وبخاصة ما يتعلق بالدين، وقد قيل: أفضل أعمال الخير خصلة واحدة وهي التفكر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

ثم اعلم أن الإنسان إذا عقل الأمور المحسوسة وعرفها وتفكَّر في الأمور العقلية وبحث عنها وعن عللها استقبلته عند ذلك طريقتان: إحداهما ذات اليمين تؤديه إلى الهداية والرشاد، والأخرى ذات الشمال تؤدي إلى الغي والضلال؛ وذلك أن أمور العالم نوعان: كليات وجزئيات لا غير، فإذا أخذ الإنسان يفكر في كلياتها ويعتبر أحوالها وتصاريفها

ويبحث عن الحكمة فيها بانت له، وأمكنه أن يعرفها بحقائقها وأرشد إليها، فكلما تقدَّم فيه زاد هداية ويقينًا ونورًا واستبصارًا وتحققًا، وازداد من الله قربًا وكرامةً.

وإذا أخذ يتفكر في جزئياتها والبحث عنها وعن عللها خفيت وانغقلت مناحيها، وكلما ازداد تفكرًا ازداد تحيُّرًا وشكوكًا ومن الله بُعْدًا، وكان قلبه من أجل ذلك في عذاب أليم.

مثال ذلك أنه إذا ابتدأ الإنسان أولًا وتفكَّر في نفسه ونظر إلى بِنْيَة هيكله ونفسه وكيفية تركيب جسده وكيف كان أولًا في صلب أبيه ماءً مهينًا؟ ثم كيف صار نطفة في قرار مكين؟ ثم كيف صار مضغة؟ ثم كيف كسا العظام لحمًا؟ ثم كيف صار جنينًا بعد أطوار متعاقبة؟ ثم كيف قبلت فتيلة جسده نور شعاع فيض روح القدس الإلهي؟ ثم كيف أُخْرِج من الرحِم الذي هو عالم كونه إلى الدنيا التي هي عالم آخرته؟ ثم كيف صار طفلًا حساسًا؟ ثم كيف تربَّى وهو طفل صبي جاهل؟ ثم كيف نشأ وصار شابًّا عالمًا أو جاهلًا؟ ثم كيف صار رجلًا عالمًا فيلسوفًا حكيمًا مدبِّرًا متملِّكًا على ما ملك؟ ثم كيف صار زاهدًا عابدًا؟ ثم إنْ طال عمره كيف يرجع كما كان بديًّا ضعيفًا ذاهب القوة؟ ثم كيف ظهر بعد الشبابة والقوة والضعف والشيبة؟ ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

فإذا فكر الإنسان في هذه الحالات التي ينقل فيها من أدونها إلى أتمِّها ومن أفضلها إلى أكملها؛ فيعلم بالضرورة ويشهد له عقله أن له صانعًا حكيمًا هو الذي اخترعه وأنشأه وأنماه، فإذا تحقق عنده ما وصفنا من هذه الحالات جعل نفسه عند ذلك مقياسًا على سائر أبناء جنسه، فعلم علمًا يقينًا أنه قد فعل بهم مثل ما فعل به، وهكذا سائر الحيوانات، وكلما ازداد تفكرًا في هذا الباب ازداد بربه يقينًا وبأوصافه معرفة.

واعلم أن الله تعالى حي عالم قادر عليم حكيم محسن جواد كريم مشفق رحيم، ولو نظر في التشريح أو في كتاب منافع الأعضاء أو كتاب الحيوان أو كتاب النبات أو كتاب المعادن أو كتاب الآثار العلوية أو كتاب تركيب الأفلاك وما شاكلها من الكتب والعلوم والمعارف من وصف مصنوعاته وعجائب مخترعاته؛ فإنه كلما ازداد فيها نظرًا ازداد بالله علمًا وبأوصافه اللائقة به معرفةً واستبصارًا وإليه قربة وإلى لقاء الله اشتياقًا؛ فهذا هو الطريق ذات اليمين المؤدي سالكه إلى الله تعالى وإلى نعيم جنانه.

وأما الطريق الآخر ذات الشمال المؤدي إلى الشكوك والحيرة والضلالة والعمى؛ فهو أن يبتدئ الإنسان قبل النظر في العلوم والآداب والرياضيات، وقبل أن يُحسِّن أخلاقه ويهذِّب

نفسه بالكشف عن الأمور الجزئية الخفيَّة المشكلة على الحُذَّاق من العلماء والفلاسفة فضلًا عن غيرهم نحو معرفة ألم الأطفال، وطلب معرفة مصائب الأخيار، والبحث عن الأنباء وتيسير أمور الأشرار، ولِمَ زيدٌ الحازم فقير؟ وعمَرُ العاجز غني؟ ولِمَ جعفر الغبي أمير؟ وعبد الله الحكيم حقير؟ ولِمَ هذا الرجل ضعيف والآخر قوي صحيح؟ ولِمَ هذه الدودة صغيرة وهذا الجمل كبير؟ ولِمَ الفيل مع كِبَر جثته له أربع قوائم والبق مع صِغَر جثته له ست أرجل وجناحان؟ ولماذا يصلح البق والذباب والقردان والبراغيث؟ وأي فائدة في خلق الخنازير والوزغ؟ وأي حكمة في خلق العقارب والحيات وما شاكَل ذلك من المسائل التي لا يُحْصِي عددها إلا الله ولا يعلم سواه عللها، فأما الإنسان فإنه لا يعرف الحكمة في عللها إلا بعد النظر في العلوم الإلهية، وهو لا يعرف إلا بعد النظر والتفكُّر في الأمور الطبيعية، وهو لا يعرف إلا بعد النظر في الأمور المعقولة، وهو لا يعرف إلا بعد النظر والتفكر في الأمور المحسوسة، فمَنْ لم يكن مرتاضًا بهذه العلوم والمعارف ولا متأدِّبًا بها ولا صافي النفس ولا صالح الأخلاق فيبتدئ أولًا بطلب الأمور المشكلة التي تقدَّم ذكرها، فلا يدركها ولا يعقلها، فيرجع عند ذلك خاسرًا متفكرًا متحيرًا غافلًا بنفسه وسواسًا في قلبه، فينظر عند ذلك إلى أمر العالم مهملًا والكائنات باتفاق لا بعناية حكيم ولا صنع صانع عليم، أو نظر إلى أن رب العالمين غافل عن أمر عالمه حتى يجري فيه ما لا يليق بالحكمة، أو يظن أنه لا يعلم ما يجري فيه، أو أنه لا يفكِّر في هذه الأمور الجزئية ولا يهمه، أو يظن أنه قاسٍ قليل الرحمة والنظر لضعفاء الخلق، أو أنه جائر في قضائه وأحكامه مُتعِب لخلقه مفرط في تقديره غير عدل ولا حكيم في كثير من أفعاله، لا يرحم الضعيف، وما شاكَل هذه من الظنون والشكوك والحيرة والضلال الذي قد تاهت في طلب معرفته عقول كثير من العقلاء المتقدمين المرتاضين بالعلوم الحكمية، فكيف غيرهم ممن ليست له رياضة ولا معرفة بحقائق الأسرار المعروفة! وقيل: إن حكيم الفُرْس بزرجمهر لما تفكَّر في هذه الأمور المشكلة ولم يعرف عللها قال عند ذلك احتجاجًا لنفسه؛ إذ قد تبيَّن له بأن الله حكيم عدل «إن مصائب العباد إذن لعلل لا يعرفها» إقرارًا على نفسه بالعجز عن معرفة هذه الأمور المشكلة.

ويقال: إن نبيًّا اجتاز مرة عينًا من الماء في سفح جبل فتوضَّأ منها ثم ارتقى إلى جبل ليصلي، فبينما هو كذلك إذ نظر إلى فارس قد أقبل على تلك العين فشرب منها الماء وسقى فرسه، ثم ركب فمضى ونسي عند العين صُرَّة فيها دراهم، ثم جاء من بعده راعي

الغنم ورأى الكيس فأخذه ومضى، ثم جاء بعده شيخ حطَّاب عليه أثر البؤس والمسكنة على ظهره حزمة من الحطب ثقيلة حملها، فحطَّ هناك حزمته واستلقى يستريح مما به من شدة الضعف والتعب والريق والانهيار، ففكَّر النبي وقال في نفسه: لو أن هذا الكيس مكانه لكان هذا الشيخ الضعيف أولى بأخذه من ذلك الراعي الشاب الغني القوي! فما كان إلا قليلًا حتى إن الفارس قد رجع إلى مكانه الذي شرب الماء منه وطلب الكيس فلم يجده، فطالب الشيخ فأبى الشيخ وقال: ما عندي خبر هذا فضربه وعذَّبه حتى قتله ومضى الفارس.

فقال عند ذلك: يا رب، ما وجه الحكمة في هذه القضية؟ وأين هذا من العدل؟ فأوحى الله تعالى إليه أن أبا الشيخ قتل في الزمان الماضي أبا الفارس، وكان على أبي الفارس دَيْنٌ لأبي الراعي بمقدار ما في الكيس فأخذت القود ورددت الدَّيْن وأنا حكيم عادل.

وكذلك يُحْكَى أن نبيًّا من أنبياء الله تعالى اجتاز نهرًا فيه صبيان يلعبون وبينهم صبي مكفوف وهم يغوصونه في الماء ويولعون به وهو يطالبهم ولا يظفر بهم، ففكَّر النبي في أمره ودعا ربه أن يردَّ بصره ويساوي بينه وبين الصبيان، فلما ردَّ الله بصره فتح عينيه فقرب إلى واحد من أولئك الصبيان فتعلق به وغوَّصه في الماء ولم يفارقه حتى قتله، وطلب آخر كذلك وهرب الباقون، فدعا النبي حين ذلك ربه أن يكفيهم شره فأوحى الله تعالى إليه وقال: إني قد فعلت، ولكن لم ترضَ بحكمي وتعرضت في تدبيري لخلقي، فتبيَّن للنبي أن كل ما يجري في العالم من أمثال هذه الأمور فلله تعالى فيه سر وتدبير وحكمة لا يعلمها إلا هو.

وقد أخبر الله تعالى في القرآن من حديث نبيَّين وما جرى بينهما من الخطاب في هذا المعنى: أحدهما موسى عليه السلام، وهو صاحب شريعةٍ وأمرٍ ونهيٍ وحدودٍ ورسومٍ وأحكامٍ، والآخر الخضر عليه السلام، وهو صاحب سرٍّ وغيبٍ وكتمانٍ، وكيف تعرَّض له موسى، عليه السلام، فيما يفعله بواجب حكمة؟ وكيف اعتذاره إليه لما لم يستطع معه صبرًا؟ وإنما ذكرنا هذه الحكايات في هذا الفصل؛ لأن أكثر الآراء والمذاهب تتشعَّب في هذه الأمور المشكلة التي فكَّر فيها العلماء وطلبوا عللها، فلما لم تبلغ أفهامهم كيفية معرفتها تفرَّقت بهم الآراء والمذاهب عند ذلك إلا مَنْ عصمه الله وهدى قلبه وعرَّفه، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ وقالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

(٤١) فصل في أن الأمور المشكلة كثيرة

ثم اعلم أن الأمور المشكلة كثيرة لا يُحْصِي عددها إلا الله تعالى، ولكن يجمعها كلها ثلاثة أنواع: فمنها ما هي أمور جسمانية طبيعية محسوسة، ومنها ما هي أمور روحانية معقولة، ومنها ما هي أمور رياضية متوسطة بين الجسمانية والروحانية. فأما الأمور الجسمانية فثلاثة أنواع: منها ما هي ظاهرة جليَّة، ومنها ما هي لطيفة دقيقة، ومنها ما هي بين ذلك. وقد ذكرنا طرفًا من هذه الأمور في رسائلنا الطبيعية وتكلَّمنا عليها في كل رسالة حسب ما يليق به ويقتصر غرضها.

وأما الأمور الروحانية فهي تنقسم ثلاثة أنواع: فمنها ما هي قريبة من الأوهام، ومنها ما هي بعيدة لا يمكن الأفكار تصوُّرها والأوهام تخيُّلها، ومنها ما بين ذلك، وقد ذكرنا طرفًا من الأمور الرياضية والإلهية في رسائلنا العقليات.

وهكذا حكم الأمور الرياضية فإنها ثلاثة أنواع: فمنها ما هي قريبة من الأوهام يكفي أدنى تأمُّل فيها، ومنها ما هي بعيدة جدًّا تحتاج إلى تأمُّل شديد وبحث دقيق في تصورها، ومنها ما هي بين ذلك، وقد ذكرنا طرفًا منها في رسائلنا الرياضيات.

فهذه تسعة أنواع لا يخرج عنها شيء من الأمور المشكلة المختلفة فيما بين العلماء، فأما فروعها فكثيرة لا يُحْصِي عددها إلا الله تعالى.

ثم اعلم أن الله تعالى خلق لكل نوع من هذه العلوم والآداب أُمَّةً من الناس، وجعل في جبلَّة نفوسهم محبةَ معرفتها ومكَّنهم من طلبها وتعلُّمها والبحث عنها والنظر فيها؛ لتكون العلوم والآداب محفوظة عليهم لا تنقرض، كما خلق لكل صناعة وتجارة أمة من الناس وجعلها سبب معاشهم طول حياتهم في دنياهم؛ لتكون كلها محفوظة باقية لحاجة الإنسان إليها في الدين والدنيا جميعًا.

ثم اعلم أن العلوم والآداب تتفاضل، كما أن الصنائع والتجارات والأعمال تتفاضل، وأن أهلها يتفاضلون فيها، وأفضل كل أهل علم هم الراسخون في العلم العارفون بأصوله وفروعه، كما أن أفضل أهل الصناعة والتجارة هم الحُذَّاق بها الأستاذون فيها.

ثم اعلم أنه ليس كل علم وأدب يليق بكل إنسان أن يتعلمه ويتعاطاه، ولكن أولى العلوم بكل إنسان أن يتعلمه ما لا يسعه جهله وواجب عليه طلبه.

فانظر يا أخي أولًا بعقلك وميِّز ببصرك، واختر من العلوم والآداب ما لا بد لك منه، كما تختار من الأعمال والصنائع والتجارات ما لا بد لك منها.

ثم اعلم أن الناس على طبقات كثيرة في أحوالهم من الصنائع والأعمال والأخلاق والآراء والمذاهب والعلوم والمعارف لا يُحْصَى عددها، ولكن يحصرهم كلهم ثلاث طبقات: فمنهم العامة من النساء والصبيان والجهال، ومنهم الخاصة من العلماء والحكماء البالغين فيها الراسخين، ومنهم متوسطون بين ذلك.

ولكل طائفة من هؤلاء علم هو أولى بهم وأليق، فالتي تصلح للخاصة لا تصلح للعامة، والتي تصلح للعامة لا تصلح للخاصة، ولكن الذي يصلح للخاص والعام وما بينهما من سائر الطبقات جميعًا من العلوم والمعارف والآداب هو علم الدين وآدابه وما يتعلق به من الأعمال.

(٤٢) فصل في أن علم الدين وآدابه وما يتعلق به نوعان

ثم اعلم، أيَّدك الله، أن علم الدين وآدابه وما يتعلق به نوعان: فمنها ظاهر جليٌّ ومنها ما هو خفيٌّ، ومنها ما هو بيْن ذلك.

وأولى ما يصلح للعامة من حكم الدين وآدابه ما كان ظاهرًا جليًّا مكشوفًا مثل علم الصلاة والصوم والزكاة والصدقات والقراءة والتسبيح والتهليل وعلم العبادات، ومثل علم الأخبار والروايات والقصص وما شاكلها تعليمًا وتسليمًا وإيمانًا، وأولى علوم الدين بالمتوسطين بين الخاصة والعامة هو التفقُّه في أحكامها والبحث عن السيرة العادلة، والنظر في معاني الألفاظ مثل التفسير والتنزيل والتأويل والنظر في المُحْكَمات والمتشابهات، وطلب الحجة والبرهان، وأن لا يرضى من الدين تقليدًا إذا كان يمكنه الاجتهاد ودقة النظر.

والذي يصلح للخواص البالغين في الحكمة الراسخين في العلوم من علم الدين أن يطلبوه ويليق بهم أن ينظروا فيه ويبحثوا عنه، هو النظر في أسرار الدين وبواطن الأمور الخفية وأسرارها المكنونة التي لا يمسها إلا المطهَّرون من أدناس الشهوات وأرجاس الكبر والرياء، وهي البحث عن مرامي أصحاب النواميس في رموزهم وإشاراتهم اللطيفة المأخوذة معانيها عن الملائكة وما تأويلها وحقيقة معانيها الموجودة في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف الأنبياء عليهم السلام من الأخبار عن بدء كون العالم وخلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وخلق آدم الأول الترابي، وأخذ الميثاق عليه وعلى ذريته، وعتاب الملائكة لربها ومراجعتها إياه في الخطاب، وسجودهم لآدم، عليه السلام، وعصيان إبليس واستكباره عن السجود، وما شجرة الخلد والمُلْك الذي لا يبلى، وما شاكَل هذه الإشارات والمرامي عن أمور قد مضت مع الزمان وانقضت مع

الأيام، وما يُنْتَظر في المستقبل كالمُكْث في البرزخ والبعث والقيامة والحشر والنشر والميزان والوقوف على الأعراف والجواز على الصراط، ودخول الجنة وما نعيمها وكيفية لذاتها، وماهية دركات النيران وعذاب أهلها، وما شاكَل هذه الأمور المذكورة في كتب الأنبياء عليهم السلام.

وأما حقائق معانيها فقد بيَّنَّا طرفًا من هذه العلوم والمعارف في رسائلنا الناموسية الإلهية.

ثم اعلم أن رجال هذه الطبقات الثلاث المقدَّم ذكرها متفاوتو الدرجات في علومهم ومعارفهم، فإن استوى أن تكون في أعلى المراتب وأعلى الدرجات فلا ترضَ لنفسك بالدون، واجتهد في الطلب؛ فإن الذين هم فوقك قد كانوا وليست هذه مراتبهم، ثم اجتهدوا في الطلب وبلَّغهم الله كما وعد فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

(٤٣) فصل في أن أشرف العلوم وأجلَّ المعارف هي معرفة الله

ثم اعلم أن أشرف العلوم وأجلَّ المعارف هي معرفة الله وصفاته اللائقة به، وأن العلماء قد تكلَّموا في ماهية ذاته وأكثروا القيل والقال في حقيقته وصفاته، وتاهَ أكثرهم في العجاج عن المنهاج والفلح، والعلة في ذلك هو من أجل أن هذا المطلب من أبعد المرامي إشارةً، وهو أقرب المذاهب وجدانًا كما قال تعالى وضرب لهذه المعاني مثلًا فقال: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ الآية.

ثم اعلم أنه لم يفُت مَنْ فاته وجدانه من أجل خفاء ذاته ودقَّة صفاته وكتمانها، ولكن من شدة ظهوره وجلالة نوره، وإنما ذهب على مَنْ ذهب معرفة ذاته وحقيقة صفاته من أجل أنهم طلبوه كطلبهم سائر الأشياء الجزئية المحسوسة، وبحثوا كبحثهم عن سائر الموجودات الكليات المبدَعات المختَرَعات المصنوعات الكائنات من الجواهر والأعراض والصفات الموصوفات، المحتوية عليها الأماكن والأزمان والأكوان من الأشخاص والأنواع والأجناس.

وذلك أن كل واحد من هذه الموجودات يطلب فيه ويبحث عنه بتسعة مباحث وهي: هل هو؟ وما هو؟ وكم هو؟ وكيف هو؟ وأي هو؟ وأين هو؟ ومتى هو؟ ولِمَ هو؟ ومَنْ هو؟

ثم اعلم أن مبدع الهويات وممهي الماهيات وموجد الكميات ومكيِّف الكيفيات ومميِّز الأينيات ومرتب الأنينات وعلة اللميات لا يقال له ما هو؟ ولا يُسْأل عنه كيف هو؟ وكم

هو؟ وأي هو؟ وأين هو؟ ومتى هو؟ ولِمَ كان؟ وإنما يجوز ويسوغ فيه وعنه من هذه المباحث وسؤالان اثنان حسبُ وهما: هل هو؟ ومَنْ هو؟ كما يقال: هو الذي فعل كيت وكيت، هو الذي وضع كيت وكيت، ومن أجل هذا أجاب موسى عليه السلام، فرعون إذ سأله: ما رب العالمين؟ فلم يُجِبْه موسى عن جواب «ما»، بل أجاب عن جواب «مَنْ» الذي يليق به وبربوبيته، فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، فلم يُرْضِ فرعون الجواب، فقال لمن حوله من الناس المتكلمين: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أسأله «ما هو؟» ويُجيبني «مَنْ هو؟» وكذا سأل مشركو قريش ومجادلوهم النبي عليه السلام، فقالوا: نعبد أصنامنا وآلهتنا ونحن نراها ونشاهدها ونعرفها، فأخبِرْنا عن إلهك الذي تعبده ما هو؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ فقالوا: لا يُفهم ولا يُعرف، يريدون ماهية ذاته، أجوهرٌ هو أم عَرَض؟ أنور هو أم ظلمة؟ أجسمٌ هو أم روح؟ أداخلٌ هو أم خارج؟ أقائمٌ هو أم قاعد؟ أفارغٌ هو أم مشغول؟ وما شاكَل هذه المباحث والمطالب التي لا تليق بربوبيته، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

(٤٤) فصل في أن مسألة الخلاف في الذات والصفات هي أيضًا من إحدى المسائل الخلافية

ثم اعلم أن مسألة الخلاف للذات والصفات هي أيضًا من إحدى المسائل الخلافية بين العلماء في الآراء والمذاهب؛ وذلك أن كثرة الظنون والتخيلات العارضة للأفهام إذا تفكرت النفوس في ماهية الله وكيفية صفاته اللائقة فلا تهتدي الظنون ولا تقر الأفهام عن الجولان، ولا تسكن النفوس إليه ولا تطمئن القلوب له حتى يعتقد الإنسان رأيًا من الآراء وتسكن نفسه إليه ويطمئن قلبه به.

فمن الناس مَنْ يرى ويعتقد أن الله تعالى شخص من الأشخاص الفاضلة ذو صفات كثيرة ممدوحة وأفعال كثيرة متغايرة لا يشبه أحدًا من خلقه ولا يماثله سواه من بريَّته، وهو منفرد من جميع خلقه في مكان دون مكان، وهذا رأي الجمهور من العامة وكثير من الخواص.

ومنهم مَنْ يرى ويعتقد أنه في السماء فوق رءوس الخلائق جميعًا.

ومنهم مَنْ يرى أنه فوق العرش في السموات وهو مطَّلع على أهل السموات والأرض وينظر إليهم ويسمع كلامهم ويعلم ما في ضمائرهم، لا يخفى عليه خافية من أمرهم.

واعلم أن هذا الرأي والاعتقاد جيد للعامة من النساء والصبيان والجُهَّال ومَنْ لا يعلم شيئًا من العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية والإلهية؛ لأنهم إذا اعتقدوا فيه هذا الرأي تيقَّنوا عند ذلك وجوده وتحققوا وعلموا وصاياه التي جاءت بها الأنبياء، عليهم السلام، من الأوامر والنواهي، وعلموا علمها وعملوا بها خوفًا ورجاءً من الوعد والوعيد، وتجنَّبوا الزور والشرور وعملوا الخير والمعروف، وكان في ذلك صلاح لهم ولمن يعاملهم ويعاشرهم من الخاص والعام، وليس يضر الله شيئًا مما اعتقدوه.

ومن الناس طائفة أخرى فوق هؤلاء في العلوم والمعارف ترى بأن هذا الرأي باطل ولا ينبغي أن يعتقدوا في الله تعالى أنه شخص يحويه مكان، بل هو صورة روحانية سارية في جميع الموجودات حيث ما كان لا يحويه مكان ولا زمان، ولا يناله حس ولا تغيير ولا حدثان، وهو لا يخفى عليه من أمر خلقه ذرة في الأرضين والسموات، يعلمها ويراها ويشاهدها في حال وجودها، وكان يعلمها قبل كونها وبعد فنائها.

ومن الناس طائفة أخرى فوق هؤلاء في العلوم والمعارف والعقل ترى وتعتقد أنه ليس بذي صورة؛ لأن الصورة لا تقوم إلا في الهيولى، بل ترى أنه نور بسيط من الأنوار الروحانية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾.

ومن الناس ممن فوق هؤلاء في العلوم والمعارف والنظر والمَشَاهِد يرى ويعتقد أنه ليس بشخص ولا صورة بل هوية وحدانية، ذو قوة واحدة وأفعال كثيرة وصنائع عجيبة، لا يعلم أحد من خلقه ما هو؟ وأين هو، وكيف هو، وهو الفائض منه وجود الموجودات، وهو المُظْهِر صور الكائنات في الهيولى، المُبْدِع جميع الكيفيات بلا زمان ولا مكان، بل قال كن فكان، وهو موجود في كل شيء من غير المخالطة، ومع كل شيء من غير الممازجة كوجود الواحد في كل عدد كما وصفنا في رسالة المبادئ.

ثم اعلم أن الله تعالى جعل بواجب حكمته في جبلَّة النفوس معرفة هويته طبعًا من غير تعلُّم ولا اكتساب؛ لتكون تلك المعرفة داعية لها ومؤدية إلى طلب ماهيته ومعرفة آنيته؛ وليكون طلبتها في هذه المعارف داعية لها ومؤدية إلى أحكام جميع العلوم والمعارف الإلهية والطبيعية والرياضية والعقلية والحسية، حتى إذا أُحْكِمَت هذه العلوم والمعارف عرفه عند ذلك حق معرفته، وسكنت إليه واطمأنت وثبتت معه ونالت السعادة القصوى التي هي سعادة الآخرة.

ثم اعلم أن السعادة نوعان: دنيوية وأخروية، والسعادة الدنيوية هي أن يبقى كل شخص في هذا العالم أطول ما يمكن على أحسن حالاته وأكمل غاياته، والسعادة الأخروية أن تبقى كل نفس بعد مفارقتها الجسد إلى أبد الآبدين على أتمِّ حالاتها وأكمل غاياتها.

ثم اعلم أن أحسن حالات النفوس أن تكون عالمة بالأمور الإلهية عارفة بالمعارف الربانية ملتذَّة بها مسرورة فرحانة منعمة أبد الآبدين خالدة سرمدية، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقال عليه السلام: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.»

(٤٥) فصل في أن مسألة الصفات هي أيضًا من إحدى مسائل الخلاف

ثم اعلم أن مسألة الصفات هي أيضًا من إحدى مسائل الخلاف بين العلماء، ولكن من المسائل ما هي فروع مبنية على أصل، فمن ذلك قول القائلين بخلق القرآن، فإن هذا الحكم مبني على أن الكلام إنما هو حروف وأصوات يُحْدِثها المتكلم في الهواء، فعلى هذا الأصل يجب أن يكون القرآن مخلوقًا، وأما على أصل مَنْ يرى أن الحروف والأصوات إنما هي سمات وآلات والكلام إنما هو تلك المعاني التي في أفكار النفوس، فعلى هذا الأصل يجب ألَّا يكون القرآن مخلوقًا؛ لأن الله تعالى لم يزل عالمًا بتلك المعاني التي هي في علمه، وتلك المعاني لم تزل معلومة له، ومنهم مَنْ يرى أن كلام كل متكلم هو إفهامه غيره معنًى من المعاني بأي لغة وأي عبارة وأي إشارة كانت، فكلام الله لجبريل عليه السلام، هو إفهامه تلك المعاني، وكذلك جبريل عليه السلام، لمحمد، وكذلك محمد لأمته، وأمته بعضهم لبعض وكلها مخلوقة.

فأما إفهام الله لجبريل عليه السلام، فليس مخلوقًا؛ لأن إفهام الله إبداع منه، والإبداع غير المبدع، كما أن العلم غير العالم وغير المعلم، وكثير من هؤلاء المجادلة لا يعرفون الفرق بين المخلوق وبين المبدع ولا بين الخالق والإبداع.

ثم اعلم أن الخلق هو إيجاد الشيء من شيء آخر كما قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾.

وأما الإبداع فهو إيجاد الشيء من لا شيء، وكلام الله هو إبداع أبدع به المُبْدَعات كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أيْ أبدعناه ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

والمكونات إنما تتكون بقوله: كن، فكن بأي شيء يتكون إن كان مخلوقًا على زعم هؤلاء المخالفين.

ثم اعلم أن اختلاف العلماء في معلومات الله لم تزل أيضًا من إحدى أمهات المسائل للخلاف.

وذلك أن منهم مَنْ يرى ويعتقد أن معلومات الله لم تزل هي أشياء في القِدَم جواهر أو أعراض؛ لأن الشيء عندهم هو الذي يُخبر عنه ويُعلَم، فقد علم الله الأشياء قبل أن أخرجها من العدم إلى الوجود واخترعها، وهذا رأي بعض القدماء وبعض متكلمي أهل هذا الزمان.

ومن العلماء مَنْ يرى أن الله لم يزل عالمًا بأنه لا شيء سواه، وكان عالمًا بأنه سيخلق الأشياء ويجعلها جواهر أو أعراضًا، ويؤلِّفها على ما هي عليه الآن، ثم فعل كما علم.

وأما مسألة المشيئة والإرادة فهي أيضًا من إحدى مسائل الخلاف وأمهاتها بين العلماء؛ وذلك أن منهم مَنْ يرى أن في علم الله تعالى أشياء لا يريدها هو ولا يشاؤها البتة وهي الشرور والعصيان والمنكر.

ومنهم مَنْ يرى ويعتقد بأنه لا يجوز أن يكون في علم الباري أشياء لا يريدها هو مع قدرته على تغييرها وعلمه بكونها شرًّا كان أو خيرًا.

ومنهم مَنْ يرى أن الله تعالى لا يوصف بالإرادة والمشيئة إلا على سبيل المجاز، وإنما يوصف الباري تعالى بالعلم، وما علمه بأنه سيكون فلا بد من كونه، كونه هو أو كونه غيره.

وما علم بأنه لا يكون فلا يكونه هو وعباده، فالإرادة لا يحتاج إليها ولا معنى لها؛ لأن الإرادة يوصف بها مَنْ لا يدري هل يكون الشيء أم لا، فإن اختار أراد أن يكون، وإن لم يخْتَر فلا يريد أن يكون.

فعلى هذا الأصل كلتا الطائفتين الخائضتين في إرادة الله ومشيئته على غير تحقيق، بل على سبيل المجاز.

وأما احتجاج مَنْ يزعم ويقول: إذا كان لا يقع من العباد ما أُمِروا به ونُهُوا عنه إلا بما قد سبق العلم به أن يكون أو لا يكون، فالأمر والنهي والوعد والوعيد والمدح والذم لماذا؟ وما وجه الحكمة فيها؟ فليعلم قائل هذا القول بأن اللوم والذم ليس يلزم العبد من أجل وقوع المعلوم منه، بل من أجل تركه الاجتهاد بما أُمر به أو نُهي عنه.

فإذا اجتهد العبد ووقع المعلوم منه فهو ممدوح مستوجِب للوعد والثناء عليه، وإذا اجتهد العبد ولم يقع المأمور به أو وقع المنهي عنه فهو معذور يستحق العفو والغفران من أجل اجتهاده.

ثم اعلم أن الله تعالى أمر أيضًا بالتوبة والندامة والاستغفار، وهي أيضًا طاعة الله والدين، ويستحق العبد الثواب والجزاء، والتوبة والندم والاستغفار لا يكون إلا بعد الذنب.

وقد رُوِي عنه عليه السلام، أنه قال: «لولا أن بني آدم إذا أذنبوا تابوا فيغفر لهم الله لَخَلَقَ الله تعالى خلقًا جديدًا أذنبوا وتابوا فيغفر لهم.»

ثم اعلم أن الله تعالى إنما يمنُّ ويتفضَّل على عبيده بالعفو والمغفرة إذا أذنبوا، كما مَنَّ عليهم بالعصمة والتوفيق واللطف في الطاعة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾[٥] وقال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

ثم اعلم أن من أفقه الفقهاء وأحكم الحكماء مَنْ كان يحسن أن يعظ الناس ويدعوهم إلى الله ويهديهم إليه ويزهدهم في الدنيا ويرغِّبهم في الآخرة ويخوِّفهم سخط الله، فلا يؤيسهم من روحه ويحذِّرهم الله، ولا يقنطنَّهم من رحمة الله، ويحسن أن يصف لهم فضل الله وإحسانه ورحمته، ولا يرخص لهم معصيته ولا ترك طاعته؛ لأن ذلك يكون استجراءً على الله لا اتكالًا على رحمته، بل يقيمهم بين الرجاء والخوف وبين الرغبة والرهبة إلى يوم يلقونه، فيفعل بهم ما يشاء ويحكم فيهم ما يريد لا رادَّ لحكمه ولا معقِّب لقضائه فعَّال لما يريد.

واعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن من الآراء والمذاهب والاعتقادات ما هي مؤلمة لنفوس معتقديها معذِّبة لقلوبهم، وهي الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة، ومنها ما هي ملذَّة لنفوس معتقديها مفرِحة لقلوبهم وهي الآراء الصالحة والاعتقادات الجيدة.

ثم اعلم أن الآراء الفاسدة كثيرة لا يُحْصَى عددها، ولكن نذكر منها طرفًا ليُعرف القياس ويُحذر منها ومن أمثالها.

فمن ذلك رأي مَنْ رأى واعتقد أن العالم قديم لا صانع ولا مدبِّر له، وأن هذا الرأي مؤلم لنفوس معتقديه معذِّب لقلوبهم؛ وذلك أنه لا يخلو من أن يكون صاحب هذا الرأي سعيد أهل الدنيا أو من أشقيائهم، فإن كان من سعدائهم فإنه لا يدري من أين له هذا وما هو فيه؟ ولا يدري مَنْ أعطاه ذلك ليشكر له ويطلب منه المزيد ويرجو منه خيرًا مما أُعْطِي إما من الدنيا وإما في الآخرة؟

وقد عَلِم يقينًا أن الذي هو فيه من النعمة ورغد العيش لا يدوم له، وأنه مفارقه على رغمه مع شدة محبته للبقاء فيما هو فيه من النعمة ورغد العيش، ومع شدة شهواته

---

[٥] تتمة الآية: ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

لدوام تلك النعمة عليه، كلما ذكر الموت والفناء نغص عليه شهواته، ويُمِرُّ الموت عليه لذاته فيعيش طول عمره خائفًا من الموت وجِلًا من الفناء مشفقًا من الهلاك، ثم يموت على رغمٍ وحسرة وندامة لا يرجو بعد الموت خيرًا، ولا يؤمِّل بعد الفراق معادًا، ولا ثواب عمل ولا جزاء إحسان.

فهذه حاله في الدنيا، فأما في الآخرة فالحسرة والندامة والويل الطويل والخسران المبين، وتمني الرجعة وقد حيل بينه وبين ما يشتهي.

وإن كان من أشقيائها فهو أسوأ حالًا وأمرُّ عيشًا وأشرُّ سيرةً من غيره؛ وذلك أنه يُفْنِي عمره كله بجهل وعناء وتعب وشقاء في طلب ما لم يُقدَّر له، وهو لا يدري أن طلبه لا يزيد في رزقه شيئًا، أو لا يدري أن الذي أعطاه ما أعطاه ومنعه ما منعه مَنْ هو؟ فيطلب منه فيسأله ويرجوه ويؤمل منه خيرًا عوضًا عما فاته في وقت آخر؛ فهو بجهله بربه يعيش طول عمره مغتمًّا حزينًا ضجرًا لما رأى أنه فاته ما وجد غيره، ثم يموت بحسرة وغُصَّة وندامة لا يرجو بعد الموت خيرًا ولا بعد الفراق ثواب عمل ولا جزاء إحسان ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

ومن الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة المؤلمة لنفوس معتقديها المعذِّبة لهم رأي مَنْ رأى واعتقد أن للعالم صانعين: أحدهما خيِّر فاضل، والآخر شرير رذل، وهما متجاوران مختلطان أو متباينان متنازعان كل واحد مخالف للآخر في شيء أو أشياء، طول الدهر كل واحد في جهد وعناء وبلاء من صاحبه يريد غلبته والخلاص منه، فمَنْ يعتقد مثل هذا الرأي فهو لا يدري أين ذلك الخيِّر الفاضل فيطلبه ويأوي إليه ويصيره في خيره؟ وأين ذلك الشرير فيعرفه ويهرب من عذابه ويتخلص من شره وينجو من جوره؟ فهو يعيش طول عمره حيران متبلبلًا مؤتلمة نفسه معذبًا قلبه وجِلًا خائفًا لا يدري كيف وجه الخلاص مما هو فيه؟ ولا كيف وجه النجاة من المُنْقَلَب؟

ومن الآراء الفاسدة الرديئة المؤلمة لنفوس معتقديها رأي مَنْ يرى ويعتقد أن العالم مُحْدَث مصنوع وله صانع واحد حكيم، ولكن لا يرى البعث والنشور والقيامة ولا الحشر والحساب ولا لقاء ربه! فمَنْ يعتقد هذا الشأن فهو يرجو الوصول إلى الآخرة، ولا يؤمل ثواب العمل ولا جزاء الإحسان، فيكون حال مَنْ يعتقد هذا الرأي وحكَّم نفسه في آلامها وعذابها وعذاب قلبه كحكم مَنْ يعتقد بأن العالم قديم ولا صانع له، كما تقدَّم ذكره، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ردًّا عليهم قولهم.

ثم اعلم أن أسوأ الناس حالًا ورأيًا وأشرهم اعتقادًا مَنْ لا يؤمن بيوم الحساب ولا يرجو الآخرة ولا يخاف العاقبة؛ وذلك أنه يُفْنِي عمره كله في طلب الدنيا وإصلاح أمر

المعاش؛ لجرِّ منفعة إلى جسده أو دفع مضرَّة عنه أو نيل شهوته أو الوصول إلى لذة متمنِّيًا للخلود في الدنيا مع علمه ويقينه أنه لا يُدرَك فيها ولا يبقى هو له، وأنه لا بد من الموت ثم لا يرجع، ولا يرجو بعد الموت ثواب عمل ولا جزاء إحسان، بل يموت بحسرة وندامة آيسًا مما يرجوه المؤمنون قَنُوطًا مما يؤمله العارفون من الخيرات والنعيم واللذات.

ثم اعلم أن الله تعالى — بواجب حكمته — جعل في طبع النفوس محبة الوجود والبقاء أبدًا سرمدًا، وجعل في جبلَّتها كراهية العدم وبغض الفناء، ثم منعها ذلك في الدنيا لكي تركن إليها وتسكن فيها وتطمئن بها، لا لكون النفوس في هذه الدنيا حال نقص دون التمام، وكونها في الآخرة حال تمام وكمال، والبقاء على حال التمام والكمال أفضل وألذ وأشرف، كما أن حال الأجساد في الأرحام حال نقص من التمام، وحالها بعد الولادة حال تمام وكمال، لا يخفى هذا على العقلاء.

ثم اعلم أنه لا يمكن الوصول إلى حال التمام والكمال في الدنيا إلا بعد تقدُّم حال النقص في الرحِم والجواز عليه، فهكذا حال النفوس في الدنيا يشبه حال الأجساد في الأرحام، وحال النفوس بعد مفارقتها الأجساد يشبه حال الأجساد بعد مفارقتها الأرحام؛ لأن الموت ليس شيئًا سوى مفارقة النفس الجسد، كما أن الولادة ليست شيئًا سوى مفارقة الجسد الرحِم، كما بيَّنَّا في رسالة حكمة الموت.

(٤٦) فصل في أن العلماء إذا قالت قولًا على حكومة ...

ثم اعلم أن العلماء إذا قالت قولًا على حكومة ما فهي مقدمة لها نتيجة، فقولهم: إن الطبيعة لم تفعل شيئًا باطلًا، يعنون بهذا القول أنه ليس شيء من الأشياء الموجودة في العالم إلا بحكمةٍ ما، عُرِفَتْ أو لم تُعْرَف؛ فشهوة النفوس البقاء أبدًا، وكراهيتها الفناء ليست إلا بحكمة ما، فلو لم يكن للنفوس بقاء بعد مفارقة الأجساد لكان وجود هذه الشهوة في جبلَّتها وكراهية الفناء في طباعها باطلًا؛ لأن البقاء في الدنيا أبدًا ليس بموجود لشخص من الأشخاص الحيوانية البتَّة، فإذن البقاء بعد الفناء.

ثم اعلم أن ذكرنا هذه الحكومة في هذا الفصل هو من أجل أنه ليس من علم بعد معرفة الباري تعالى أشرف وأجلُّ وأنفع للنفوس من معرفة حقيقة أمر المعاد والنشأة الآخرة، فليس للنفوس طريق أفضل وأجود إلى معرفة أمر المعاد من معرفتها ذاتها وعلمها بجوهرها وصفاتها اللائقة بها، وهو أن تعلم كل نفس بأنها جوهرة روحانية حية بذاتها علَّامة بالقوة فعَّالة بالطبع، وأنها باقية بعد مفارقة الجسد، إما ملتذَّة مسرورة فرحانة،

وإما مغتمَّة خاسرة كما بيَّنَّا في رسائلنا، وكما ذكر الله تعالى في نحو من تسعمائة آية في القرآن.

(٤٧) فصل في الآراء الفاسدة

وأيضًا من الآراء الفاسدة والاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقديها رأي مَنْ يرى أن بارئه وإلهه روح القدس الذي قتلته اليهود وصلبت ناسوته وذهب لاهوته لما رأى ما نزل بناسوته من العذاب فتركه مخذولًا.

ثم اعلم أن هذا الرأي والاعتقاد يُكْسِبُ صاحبه غيظًا على القاتل وحَنَقًا وعلى المقتول حزنًا وغمًّا، ثم يبقى طول عمره متألمة نفسه معذبًا قلبه مشتهيًا للانتقام من عدوه، ثم لا يظفر بشهوته ويموت بحسرته وغصته، وهكذا أيضًا حكم مَنْ يرى ويعتقد أن الإمام الفاضل المنتظر الهادي مختفٍ لا يظهر من خوف المخالفين.

واعلم أن صاحب هذا الرأي يبقى طول عمره منتظرًا لخروج إمامه متمنِّيًا لمجيئه مستعجلًا لظهوره، ثم يفنى عمره ويموت بحسرة وغصة لا يرى إمامه ولا يعرف شخصه مَنْ هو كما ذكر الشاعر:

ألم ترَ أني مذ ثلاثين حجَّةً ‏ ‏ ‏ ‏ أروح وأغدو دائم الحسرات

ثم اعلم أن أمثال هذه الآراء الفاسدة والمذاهب والاعتقادات كثيرة لا يُحْصِي عددها إلا الله، وإنما ذكرنا منها طرفًا ليعلم أنها كلها مؤلمة لنفوس معتقديها وهو جزاء لها وعقوبة لاشتغالهم بغير الله وتركهم لذكر الله، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني تركوا ذكر الله وتركوا طاعته، واشتغلوا بذكر غيره وطاعة مَنْ سواه فتركهم معهم معذَّبة قلوبهم ومؤتلمة نفوسهم كما ذكر الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.

ثم اعلم أن هذه الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة في الله تعالى وصفاته وأحكامه وآدابه نيران ملتهبة في نفوس معتقديها وحرقات مشتعلة في قلوبهم مؤلمة لها إلى وقت معلوم، ومعذِّبة لها إلى أجل معدود، كما قال: ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾.

ثم اعلم أنه لا يصل إلى معرفة الله تعالى أحد من الناس إلا بعد جوازه على الآراء الفاسدة: إما في أيام صباه أو بعد ذلك، ثم الله يهدي مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم من نفي الشرك، وينجيه منها كما وعد فقال: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

واعلم أن أهل الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة طائفتان: إحداهما شياطين الإنس، فشياطين الإنس هم أهل الآراء الفاسدة الظاهرة التي أَلِفُوها وأَنِسوا بها، وشياطين الجن هم أهل الآراء الفاسدة الباطنة التي أسرُّوها واستجنُّوا بها وإخوانهم وأتباعهم وتلامذتهم وشيعتهم الذين يقتفون آراءهم ويسلكون مناهجهم.

واعلم أنه كلما مضت طائفة منها وانقرضت وبليَت أجسادهم ألحقت نفوسها بنفوس مَنْ مضى قبلها من رؤسائها ومعلِّميها وأستاذيهم من القرون الماضية، ثم خلفتها أخرى على سننها ومنهاجها، وهكذا دأبهم إلى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يسألهم ملك الموت وأعوانه: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ واخسئوا بالعذاب، وعلموا أنهم كانوا ظالمين.

فعند ذلك قالت أُخْراهم لأولاهم؛ يعني أتباعهم وتلامذتهم المتأخرين، لأولاهم؛ يعني لرؤسائهم المتقدمين: ربنا هؤلاء أضلُّونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار وآيات كثيرة في حق هؤلاء وخطاب بعضهم بعضًا كيف يكون في جهنم وهي طبقات النيران ودركاتهم.

ثم اعلم أن في النفوس لمعتقدي الآراء الفاسدة وعذاب قلوبهم حكمة جليلة وخصال عدَّة، فمنها أن تكون تلك الآلام والعذاب كفَّارة لذنوبهم وتمحيصًا لسيئاتهم، وأخرى أن تكون رياضة لنفوسهم وترقية لها من الحالات الأدون إلى الأتمِّ والأكمل؛ لأن الدنيا دار رياضة وبلوى ومحنة وتجربة واعتبار، والأخرى أن يتبين لهم فضل الله ونعمته ورحمته وإحسانه إذ نجَّاهم منها وهداهم إلى صراط مستقيم، كما فرض على أهل الدين — دين الإسلام — في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة أن يقولوا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخره، وكما حُكِي عنهم قولهم لما اهتدوا: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾.

ثم انظر وتأمَّل كيف نسبوا هم الهداية إليه، ونسب هو الخير والثواب والجزاء إلى أعمالهم.

(٤٨) فصل في أن الله جعل في جبلَّة الإنسان وطبيعته ...

واعلم أن الله جعل في جبلَّة الإنسان وطبيعته ألا يأتمر أحد من العقلاء لغيره ولا يطيعه إلا رغبةً أو رهبة.

واعلم أن المرغوب والمرهوب نوعان: عاجل حاضر وآجل غائب، والعاجل الحاضر هو ما تشاهده الحواس، والآجل الغائب هو الذي لا تشاهده الحواس، ولكن قد تُصوِّره الأوهام بالوصف والنعت.

واعلم أن الغائب الآجل لا تقع الرغبة والرهبة إليه ومنه إلا بالوعد والوعيد الصادق من العالم القادر، وكلما كان المرغوب أشد عند الراغب وأقرب تحقيقًا كانت الرغبة إليه أوكد وأشد، وهكذا حكم المرهوب منه، وقد رغَّب الله تعالى خلقه من الجن والإنس في نعيم الجنان، وجعل الوعد للمؤمنين، ورهَّبهم أيضًا من عذاب النيران، وجعل الوعيد أيضًا للكافرين والأشرار، وجعل ميعادهم يوم يلقونه: إما في الدنيا قبل الممات، وإما في الآخرة بعد الممات والفراق، وبعث إليهم الرسل والشهداء والأنبياء الصادقين، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وذكر فيه الوعد والوعيد، وضمن وأقسم وحلف كما قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وقال: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾، ثم أقسم تعالى وحلف على تحقيق وعده فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ ثم قرب فقال: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

ولكن من أجل أن موعده غائب عن إدراك الحواس صار أكثر الناس له منكرين وفيه شاكِّين، وفي ماهيته وآنيَّته ومتى وقته متحيرين، كما أخبر عنهم بقوله: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾.

وأما المؤمنون فهم مقرُّون بمواعيده منتظرون لها، ولكن من الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة ربما ترد على قلوب المُقِرِّين شكوك وحيرة وإنكار، من ذلك مَنْ يرى ويعتقد أنه لا يجازى ولا يكافأ على إحسانه وسيئاته إلا في الآخرة بعد الموت، أو يرى ويعتقد أنه لا تكون الآخرة إلا بعد خراب الأرضين والسموات.

وهذا الرأي والاعتقاد يُبْعِد عن صاحبه طريق الآخرة، ويقلِّل رغبته في ثواب أعماله وجزاء إحسانه، ويقلِّل رهبته وخوفه من عقوبات سيئاته، وإليه أشار بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ وبقوله: ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾. وهكذا رأي مَنْ يعتقد أن الجنة التي وُعِدَ المتقون ليست بموجودة، وكذلك النار التي حذَّر الله عباده منها ليست بموجودة، ومثل هذه الآراء والاعتقادات وأمثالها تشكِّك معتقديها في الوعد وتقلِّل رغبتهم

فيه، وهكذا حكمهم في الوعيد والرهبة منه، وهكذا أيضًا رأي مَنْ يرى ويعتقد أن أولياءه وأُمناءه ورسله وأهل جنته لا يرونه ولا يدرون رتبته، وما هو أن هذا الرأي يؤيس من روح الله، وهكذا رأي مَنْ يعتقد أن الله لا يغفر الذنوب ولا يعفو عن السيئات والخطأ، وهذا يقنط من رحمة الله تعالى، وهذا أيضًا وما شاكَل هذه الآراء المقللة للرغبة والرهبة في نعم الجنان وعذاب النيران.

ومن الآراء الفاسدة أيضًا رأي مَنْ يعتقد الترخيص في الشبهات والإباحة في المحظورات والمحرَّمات، فإن صاحب هذا الرأي يُكسبه اعتقاده جرأةً على الله وتعدِّيًا لحدوده وارتكابًا لمحارمه، ويكون صاحبه في السر مخالفًا لأبناء جنسه ومنافقًا مرائيًا لا يصدق في معاملته ولا يفي بعهده ولا ينصح في أمانته، وفي مثل هذه الخصال فساد الدين والدنيا جميعًا.

ومن الآراء الفاسدة أيضًا: رأي مَنْ يرى ويعتقد أن الله الرحيم الرءوف الحنَّان يعذِّب الكفار والعصاة في خندق في النار غيظًا عليهم وحنقًا، وكلما احترقت أجسادهم وصارت فحمًا ورمادًا عادت فيها الرطوبة والدم لتُحْرَق مرةً ثانية.

واعلم يا أخي أن هذا الرأي يسيء ظن صاحبه بربه، ويعتقد فيه قلة الرحمة وشدة القساوة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ومن الآراء الفاسدة أيضًا أنه يرى بأن أهل الجنة أجسادهم لحمية وأجسامهم طبيعية مثل أجساد أبناء الدنيا قابلة للتغيير والاستحالة متعرضة للآفات، فإذا تأمل ما وصف الله تعالى في صفات أهل الجنة لا يمسهم فيها نَصَب ولا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، وأنهم خالدون، وما شاكل هذه الأوصاف المذكورة في القرآن التي لا تليق بالأجساد اللحمية والأجسام الطبيعية.

واعلم أنه لا يليق بالعقلاء أن يعتقدوها فضلًا عن عقول الحكماء، بل النساء والجهال والصبيان جيد لهم، فإن هذا الرأي يليق بأفهامهم ويصلح لهم ويقرب من عقولهم ما وُعِدوا به ويوعدون من نعيم الجنان، ورهبتهم من عذاب النيران، ويزيدهم خوفًا من سوء أفعالهم فيتركونها ويقوى رجاؤهم لثواب أعمالهم، و«عليكم بدين العجائز» لائق في هذا المقام لا في مقام آخر.

وأما مَنْ رزقه الله قليلًا من التمييز والعقل والفهم ونظر في علوم الحكمة فإن هذا الرأي لا يصلح له ولا يليق به؛ لأنه إذا عرضه على عقله أنكره عليه فيقع عند ذلك في شك وحيرة وسوء ظن وتخيلات فاسدة.

ثم اعلم أن أسوأ الناس مذهبًا وأشنعهم رأيًا مَنْ يعتقد أمرًا ويكون عقله منكرًا عليه ونفسه مرتابة وظنه سيئًا بربه كما قال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الآية.

ومن الآراء الفاسدة مَنْ يعتقد أن الله خلق خلقًا وربَّاه وأنماه وأنشأه وسلَّطه وقوَّاه على عباده متمكِّنًا في بلاده، ثم ناصبه بالعداوة والبغضاء، وهو إبليس وجنوده من الشياطين وهم يفعلون ما يريدون على رغم منه، وهو الجاعل لهم المشيئة والإرادة والعداوة والاستطاعة وطول العمر والمهلة وسعة الرزق والنعمة.

فإن صاحب هذا الرأي إذا فكَّر في أمر إبليس وجنوده وما نُسِبَ إليه من السرور وما يعتقده من مخالفتهم لله وعداوتهم؛ فإنه امتلأ منهم غيظًا وحقدًا عليهم وناصبهم العداوة والبغضاء حتى إنه لو أمكنه قتلهم كلهم أو قدر على قطع أرزاقهم فعل من شدة غيظه عليهم، وإذا لم يقدر على ذلك بقي طول عمره مغتاظًا مغتمًّا متألِّمًا نفسه معذبًا قلبه، حتى إنه ربما فكَّر في خلق الله لهم وتربيته إياهم وسعة رزقه عليهم وتمكينه لهم فيما يفعلون وإمهاله لهم، عاتب ربه في الضمير وخاصمه في السر ويقول: لِمَ خلقهم؟ ولِمَ ربَّاهم ورزقهم؟ ولِمَ مكَّنهم وسلَّطهم؟ ولماذا؟ ولِمَ؟ وكيف؟ وما شاكل هذه الوساوس والظنون الموبقة المؤلمة لنفوس المعترضين على الله في تدبير خلقه وإنفاذ مشيئته وإجرائه المعلوم على ما كان في سابق علمه.

(٤٩) فصل في سبب ذكرنا لهذه الآراء الفاسدة

واعلم أن ذكرنا لهذه الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة المؤلمة لنفوس معتقديها؛ لتُعْرَفَ وتكون دليلًا على أن ها هنا رأيًا ملذًّا لنفوس معتقديه مفرحًا لقلوبهم مبشِّرًا لأرواحهم وهو رأي أولياء الله، واعتقاد الخواص من عباد الله الصالحين ومذهب الربانيين الذين أسلموا لربهم ولم يشركوا معه غيره لا سرًّا ولا علانية، وهم الذين صَفَتْ قلوبهم عن دَرَنِ الشهوات الجسمانية، وطهرت أخلاقهم من العادات الرديئة، واضمحلَّت عن ضمائرهم الآراء الفاسدة، وصانوا جوارحهم عن الأعمال السيئة، وألسنتهم عن الفحشاء والمنكر، وأخلصوا سرائرهم مع الله ولم يعترضوا عليه في شيء من تدبير خلقه سرًّا وعلانية، فأصلح الله قلوبهم وزكَّى نفوسهم وطهَّر أخلاقهم، فهم لا يضمرون لأحد من خلق الله سوءًا

ولا يرون لهم على أحد فضلًا، صالحوا الخلق سرًّا وجهرًا كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الآية. فهم يمشون على الأرض بأجسادهم ونفوسهم متعلقة بالمحل الأعلى.

ذلك أنهم لما عرفوه تركوا كل شيء سواه واشتغلوا به وبذكره، وأحسنوا إن الله لمع المحسنين ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾، وسُئل النبي عليه السلام: ما هذا الإحسان؟ فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.» كيف لا يراه أولياء الله ولا يشاهده أصفياؤه وهم معتقدون متحققون بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ الآية، وبقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾.

(٥٠) فصل في أنه ليس من لذة النفوس ولا سرور الأرواح …

ثم اعلم أنه ليس من لذة النفوس ولا سرور الأرواح ولا فرح القلوب ألذ وأروح من روح نور ترد اليقين في قلوب أولياء الله بما وعدهم من يوم يلقونه من نعيم الجنان، وما يرجونه من نيل الثواب وجزيل العطاء من الآخرة، وما يجدونه في نفوسهم من شدة الشوق إلى رؤيته لشدة محبتهم إياه وكثرة ذكرهم إحسانه، كما قيل: جُبِلَت القلوب على حب مَنْ أحسن إليها وبُغْض مَنْ أساء إليها. وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وقد وبَّخ الله مَنْ يحب غيره وذمَّهم بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

ثم اعلم أن هذه اللذة التي وصفنا أن قلوب أولياء الله تجدها في دار الدنيا إنما هي ثمرة بعض سعيهم، ومقدمة بعض ثواب أعمالهم عُجِّلت لهم في الدنيا؛ لأنهم لما عرفوه حق معرفته تركوا كل شيء سواه، واشتغلوا به وبذكره سرًّا وإعلانًا ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فعند ذلك اضمحلَّت الآراء الفاسدة عن ضمائرهم، وانحلَّت الاعتقادات الرديئة عن أفكار نفوسهم، فوجدوا روحًا وراحةً وريحانًا ولذةً يقصر الوصف عنه.

وإذ قد تبيَّن في المباحث الحكمية أن بعض اللذات إنما هو خروج من الآلام، فاعلم أن الله تعالى جعل هذه اللذة والسرور بشرى لأوليائه في الحياة الدنيا، فأما التي في الآخرة فهي عند الله خير وأبقى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية لا يشاركهم فيها غيرهم.

واعلم أن علة انحلال الآراء الفاسدة واضمحلالها عن قلوب أولياء الله عند معرفتهم بربهم هو من أجل أنهم اعتقدوها في طلب معرفته، فلما تبيَّن لهم الحق وعرفوا الله حق معرفته انحلَّت واضمحلَّ ما كان منها فاسدًا أو زورًا أو بهتانًا، كما حُكِي عن إبراهيم، عليه السلام، في أول مبدئه في طلب معرفة الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهكذا كان بدء معرفة الأنبياء عليهم السلام بربهم في أول نظرهم وعلومهم بصفاته اللائقة من الأولين والآخرين من ذرية آدم ونوح وإبراهيم وممن هداه الله واجتباه كما قال تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وقال: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ وقال لنبيه عليه السلام: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ وقال له: ﴿قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وقال: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي﴾ الآية وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية وقال: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ الآية وقال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني العلماء، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وآيات كثيرة في مدح العلماء وحسن الثناء عليهم وذم الجهال.

ثم اعلم أن نفوس الجهال كلها موتى بالقياس إلى نفوس العلماء؛ وذلك أن قلوب العلماء مفتوحة وصدورهم منشرحة متسعة ممتلئة من نور الهدى وروح المعارف وزهرة العلوم، وقلوب الجُهَّال حرجة منغلقة وصدورهم من الوسواس والخيالات ضيقة مظلمة، وأوهامهم هائمة وأفكارهم تائهة في ظلمات الجهالات المتراكمة ونفوسهم ممتلئة من الوساوس والخيالات كما قال الله تعالى في عدة آيات من القرآن مثل قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ومثل قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إلى آخر الآية ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

واعلم أن حياة النفوس ويقظتها هي المعارف والعلوم، كما أن حياة الأجساد ويقظتها بالحس والحركة، وأن لكل جنس من الحيوانات ضروبًا من المأكولات هي غذاء لأجسادها من نبات الأرض وثمار الشجر وأوراقها تشتهيها بطباعها وتلتذ بها بنفوسها، كل ذلك بحسب امتزاجها وتركيب أجسادها وعاداتها في تناولها.

وهكذا أيضًا حكم شهوات النفوس ولذاتها في مأكولاتها ومشروباتها واختلاف ألوانها وفنون طعومها تشتهي هذا وتلتذ هذا بما لا يلتذ به هذا، وتشتهي وتلتذ في وقت ولا تشتهي في وقت آخر بل تكرهه وينفر طبعها منه ويتأذى.

وهكذا حُكْم لذاتها وشهواتها في المعارف والعلوم والصنائع والتجارات والأعمال والحِرَف وتصاريفهم في الأمور؛ وذلك أن من الناس مَنْ تكون نفسه مطبوعة على محبة الصنائع والحِرَف في تعليمها مشتهيًا لها مستلذًّا بها.

ومنهم مَنْ يكون مطبوعًا على محبة التجارات والبيع والشراء مشتهيًا لذلك ملتذة به نفسه، ومنهم مَنْ تكون شهواته وعشقه في جمع المال والأثاث والأمتعة والادخار لها، ومنهم مَنْ تكون شهوته ولذته في إنفاق المال واتخاذ المنازل وإنشاء العقار وبنائه وعمارته الأرض والحرث والنسل وربط الدواب وتربيتها والاستكثار منها.

ومنهم مَنْ تكون شهوته ولذته في الأكل والشرب وعشق النساء والغلمان واللهو واللعب والغناء ولعب النرد والقمار والافتخار بها والمباهاة والعصبية والخصومات وما شاكل ذلك من المبارزة في الحرب والقتال والغارات والنهب والفتن والشرور والعداوة.

ومنهم مَنْ تكون محبته للصوم والصلاة والصدقات والقراءة والتسبيح والخشوع والبر والتقوى والعبادة وما شاكل هذه من أعمال الخيرات، وتكون نفسه مشتهية لها ملتذَّة بها.

ومنهم مَنْ تكون محبته في لقاء أهل العلم واستماع كلام العلماء وطلب العلوم والأدب ومعرفة الأخبار والروايات والآثار.

ومنهم مَنْ تشتهي نفسه علم النحو والشعر والخُطَب والفصاحة والأقاويل والكلام وما شاكل هذه ويلتذ بها.

ومنهم مَنْ يشتهي علم الحساب والهندسة والنجوم والطب والمنطق والرياضيات الحكمية وما شاكلها ويكذِّبها، ومنهم مَنْ تشتهي نفسه علم العزائم والرُّقَى والسحر والكيمياء والحيل وما شاكلها وتلتذ بها.

ومنهم مَنْ يشتهي النظر في علوم الطبيعيات والإلهيات والبحث عنها وعن حقائق الموجودات الكائنات الفاسدات والباقيات المخلَّدات، كل ذلك على ما توجبه أحكام النجوم في أصول مواليدهم وعاداتهم عند نشوئهم على سنن آبائهم وأستاذيهم ومعلميهم ومَنْ يصحبونه في الطلب طول أعمارهم من إخوانهم وأصدقائهم.

فانظر يا أخي بعقلك وميِّز ببصيرتك واختر لنفسك من هذه المشتهيات ما يليق بها وترضى لها به.

واعلم أن من الأمور ما هي جبلَّة مركوزة في النفس ومنها ما هو عادة جارية وألفة معتادة إذا دام عليها الإنسان صارت جبلَّة وطبيعة ثانية.

(٥١) فصل في أن حسن الخلق والسيرة العادلة ...

واعلم يا أخي أن حسن الخلق والسيرة العادلة هما من أخلاق الملائكة، ولكن بعضها في جبلَّة النفوس مركوزة فيها وبعضها عادة جارية معتادة، وهكذا أيضًا حكم الخلق السوء والسيرة الجائرة هما من أخلاق الشياطين: بعضها جبلَّة مركوزة في النفس، وبعضها عادة جارية، وهي التي نشأ عليها الصبيان من الصغر يتربون من الصبي عليها أو يأخذها الناس ممن يصحبه ويتربى معه من الآباء والأمهات والإخوة والأخوات والجيران والمعلمين والأستاذين.

واعلم أنه ربما لا يتفق للإنسان هذه الأمور المحمودة من الصِّغَر على حسب ما ينبغي، ولكن يجب على العاقل أن يتفقَّد أحواله وأخلاقه وسيرته وعاداته واعتقاداته، ويستبصر فيترك ما كان فاسدًا رديئًا ولا يتكل على العادات الجارية، ولا يحتج بالطبع المركوز، بل يجتهد وينظر ويميز ويبحث، فإن الله تعالى ما بعث الحكماء والرسل والأنبياء إلا لإصلاح الأمور الفاسدة النابتة مع الطبائع الرديئة والعادة الجارية.

وقد ذكر العلماء والحكماء في كتب السياسات أنه ينبغي لكل إنسان أولًا أن يبتدئ بإصلاح أخلاق نفسه وعاداته، فإذا عدَّلها واستوت فعند ذلك رام أن يصلح غيره. وقال عليه السلام: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته.» وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.

ثم اعلم أن أكثر الناس قد تركوا وصية ربهم ونصيحة نبيهم فيما أمرهم به من إصلاح ذات بينِهم وما فيه نجاة نفوسهم من العذاب الأليم بما رسمه لهم من التعاون والتعاضُد والتناصُر والتحاب والتودُّد والأُلْفة فيما بينهم، واشتغلوا بما نُهُوا عنه من ذكر عيوب بعضهم بعضًا وشنعة بعضهم على بعض، وصاروا فرقًا ومذاهب وشيعًا، وتوقَّدت بينهم نيران العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة؛ وذلك أنهم يعيب بعضهم بعضًا بحرقة قلوبهم وألم نفوسهم وهم في العذاب مشتركون، أولهم مع آخرهم كما ذكر الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي خالفتها، وقالوا: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾، وقالوا: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ يعني مَنْ كان موافقًا لهم، وقيل لهم: ذوقوا عذاب النار بما

كنتم تكسبون لما تركتم وصية ربكم ونصيحة نبيكم، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فكانوا هم الظالمين بتركهم الوصية.

(٥٢) فصل في أن الآراء الفاسدة كثيرة

واعلم أن الآراء الفاسدة كثيرة، وفيما حكينا كفاية للمعتبر المتفكِّر، وإن أهلها جمٌّ غفير لا يُعرفون ولا يطاقون ولا يؤمَن من غوائلهم، وهم جنود إبليس أجمعون، وهم الأشرار والكفار والفساق والمنافقون وأهل البدع والضلالات، ولكن أشرَّهم على أهل الدين والورع وأضرَّهم على العلماء وأشدَّهم على عداوة الحكماء هذه الطائفة الظَّلَمة المجادِلة المخاصِمة الكفرة الفجرة الذين يخوضون في المعقولات وهم لا يعلمون في المحسوسات، ويتعاطون البراهين والقياسات وهم لا يحسنون الرياضيات، ويتكلمون في الإلهيات وهم يجهلون في الطبيعيات، ويتصدَّرون في المجالس ويتجادلون في أشياء لا تفيد في الدين علمًا ولا تُنتج في الحكمة فائدة مثل كلامهم في التعديل والتجويز والجزء الذي لا يتجزَّأ وما شاكلها من المسائل المموهة المزخرفة التي لا حقيقة لها ولا وجود إلا في الأوهام الكاذبة، ولا يصح للمدَّعي فيها حجة ولا السائل عنها برهان، وهم خائضون فيها في مجالسهم مضيعون فيها أوقاتهم بالخصومات والجدالات والمعارضات والمناقضات، وإذا سُئلوا عن أشياء هي موجودة مقدَّرة بين الناس ومعروفة مشهورة عند الحكماء لا يحسنون أن يجيبوا عليها.

فإذا استعصى عليهم بالسؤال والبحث أنكروها وجحدوها، ويأنفون أن يقولوا: لا ندري، أو يقولوا: الله ورسوله أعلم، بل يخوضون في طغيانهم وجهالاتهم ويدَّعون فيها المحالات، وربما يضعون في إبطالها المقالات المزخرفة، ويعارضون بها الحكماء والعلماء، ويشنِّعون بها عليهم مثل قولهم: إن علم الطب والنجوم باطل، وإن الكواكب جمادات وإن الأفلاك لا وجود لها، وإن علم الطب لا منفعة فيه، وإن علم الهندسة لا حقيقة له، وإن علم المنطق والطبيعيات كفر وزندقة، وإن أهلها ملحدون، ويدَّعون عليهم المحالات ويحكون عنهم الخرافات، ويقولون هذا كلامهم ومذهبهم ورأيهم واعتقادهم، ولعل القوم لا يقولون قليلًا ولا كثيرًا ولا يعتقدونها، وإن كان الاعتقاد لهم ورأيهم فلا يسمع منهم أحد ذلك، ويموتون مع اعتقاداتهم واندراس مذاهبهم فلا يعلم ولا يحس به أحد، أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلًا.

وأما هؤلاء المجادِلة فيظهرون بها في أهل المجادل، ويوردون تلك الاعتقادات الفاسدة والمذاهب الرديئة بفصيح العبارات ويبينون عنها بأوضح الاحتجاجات، ويكتبونها بأصح

الخطوط وأجود ورق، ينسبونها إلى أقوام قد عُرِفوا بالعلم والحكمة وجودة الرأي وصحة التمييز على سبيل الشنعة عليهم والوقيعة بهم بسخيف الرأي ويسمونها الأحداث ويصورونها في قلوبهم ويمكِّنون في نفوسهم تلك الآراء الفاسدة والمذاهب الرديئة، ويحيِّرونهم ويشتتونهم في الحقائق.

فلو أن أهل تلك الآراء والمذاهب اجتهدوا بجهدهم وأنفقوا الأموال في إظهار مذاهبهم والاحتجاج على آرائهم والإيضاح عن اعتقاداتهم لما بلغوا عُشْر العُشْر مما قد بلغ هؤلاء المجادلة في تملُّكها في أكثر النفوس.

ومع هذه البليَّة كلها يدَّعون أنهم بهذا الفعل ينصرون الإسلام ويقرُّون الدين، وإلى يومنا هذا ما رُوِي أن يهوديًّا تاب على يد واحد منهم، ولا نصرانيًّا أسلم ولا مجوسيًّا آمن بآرائهم[٦] متمسكين باعتقاداتهم محتفظين، بل يزدادون باعتقادهم ومذاهبهم احتفاظًا إذا نظروا إلى هؤلاء المجادلة فرأوا خصوماتهم في أحكام الدين وكثرة خلافهم ومنازعاتهم بعضهم لبعض وعداوة بعضهم مع بعض، ويلعن بعضهم بعضًا، فاعتبروا أن مثل هؤلاء المجادِلة فيما هم فيه ومَنْ يدخل في مذاهبهم إلا كما ذكر الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ وقالوا: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ فهذا حكم المجادلة فيما هم فيه من الخصومات والعداوات في الدين.

ثم اعلم أنك إذا تأملت طبقات الناس وجماعاتهم في أحوالهم من الدين والمذاهب والعلوم والصنائع والتجارات والحِرَف لم تجد بينهم من العداوة والبغضاء والطعن واللعن عُشْر العُشْر مما تجد بين أهل هذه الطبقة المجادلة.

وذلك أنك تراهم يُكفِّر بعضهم بعضًا ويتبرَّأ بعضهم من بعض، ويرى كل واحد منهم حِلَّ أَخْذ مال مخالفيه، ويشهد عليهم بالكفر والزندقة والخلود في النار أبد الآبدين، فلا جَرَم قد بغَّضوا العلماء إلى الناس وزهَّدوهم عن تعلُّم العلم والأدب وطلب المعارف.

وذلك أن الناس إذا نظروا إليهم وهم بهذه الأوصاف فلا هم يتعلمون ولا يتركون غيرهم يتعلَّم، وما مثالهم في ذلك إلا مثل الكلب ينام في المعلف وهو لا يأكل ولا يدع الخيل تأكل حتى يموت هو وهي ضرًّا وهزالًا.

---

[٦] يلاحظ أن في السياق اضطرابًا منشؤه أن الجار والمجرور في قوله: «بآرائهم» متعلق بقوله: «آمن»، وعليه وجب أن يقال بعد هذا: «بل تراهم» حتى يستقيم إعراب ما بعده على صيغة المفعول.

يُحْكَى عن الحسين بن علي عليه السلام، أنه كان يقول: «يا علماء السوء جلستم على باب الجنة، فلا أنتم تعملون فتستوجبون الجنة، ولا تركتم غيركم يجوزكم فيدخل الجنة!» وذلك أنهم إذا نظروا إليهم وما هم فيه من هذه الأوصاف التي ذكرنا، فاحذرهم فإنهم أعداء أهل العلم، ومخالفون لأهل الورع، مضادون لإخوان الصفا؛ لأنهم أحوالهم وأخلاقهم أخلاق الشياطين، وقوتهم قوة الدجَّالين، ذلقو اللسان عميان القلوب فُصَحَاء الألفاظ جاهلون بالمعاني، قد نصبوا أنفسهم للمجادلة مع العلماء ومناقضة الحكماء ومماراة السفهاء، لا الحكمة يعرفون ولا أحكام الشريعة يتحققون، ويحاجُّون بآيات كتب إلهية وهم فيها شاكُّون! يتبعون المتشابهات ويتركون العلم بالمُحْكَمات كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الآية.

ثم اعلم أن الله تعالى يتلطَّف ويتكرَّم مع أوليائه، وانظر إلى حكم الله لخاصته من أوليائه وتلقينه لهم وحكايتهم وأقاويلهم ودعائهم واقتدائهم، فإن أردت أن تكون هاديًا مَهْديًّا مؤيَّدًا رشيدًا بالدين الحنيفي والمنهاج السلفي فاعمل بأحكام الشريعة والوصايا النبوية وإشارات الحكماء، واترك الخصومات والأخلاق الرديئة والأعمال السيئة والأفعال القبيحة، واجتنب الآراء الفاسدة، وتعلَّم العلم: أي علمٍ كان حكميًّا أو شرعيًّا رياضيًّا أو طبيعيًّا أو إلهيًّا؛ فإنها كلها غذاء للنفس وحياة لها في الدنيا والآخرة جميعًا، ولا تتبع سبيل الذين لا يعلمون، وهم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى آخر الآية.

وقد عملنا في هذه العلوم والآداب إحدى وخمسين رسالة، كل واحدة منها في فنٍّ من العلوم ونوع من الآداب، فاطلبها واقرأها تجدها سهلة من غير تعب وكدٍّ، وفَّقك الله وإيانا وجميع إخواننا إلى طريق السداد، وهداك وإيانا وجميع إخواننا سبيل الرشاد، إنه رءوف رحيم بالعباد، والصلاة والسلام على النبي محمد وآله أجمعين.

(تمت رسالة الآراء والديانات، ويليها رسالة في ماهية الطريق إلى الله عز وجل.)

الرسالة الثانية

من العلوم الناموسية والشرعية في ماهية الطريق إلى الله عز وجل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلموا أيها الإخوان، أيَّدكم الله وإيانا بروح منه، أن الله تبارك وتعالى خلق الخلق وسوَّاه، ودبَّر الأمور وأجراها، ثم استوى على العرش وعلاه، فكان من فضل رحمته وكمال جوده وتمام إحسانه أن اختار طائفة من عباده واصطفاهم وقرَّبهم وناجاهم، وكشف لهم عن مكنون علمه وأسرار غيبه، ثم بعثهم إلى عباده ليدعوهم إليه وإلى جواره ويخبروهم عن مكنون أسراره؛ لكيما ينتهوا عن نوم الجهالة ويستيقظوا من رقدة الغفلة، ويحيوا حياة العلماء، ويعيشوا عيش السعداء، ويبلغوا إلى كمال الوجود في دار الخلود، كما ذكر في كتبه ووصف على ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ثم قال: ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ ثم قال: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

واعلموا أيها الإخوان، أيَّدكم الله وإيانا بروح منه، أنه لا يمكن الوصول إلى هناك إلا بخُلَّتين: إحداهما صفاء النفس، والأخرى استقامة الطريقة، فأما صفاء النفس؛ فلأنها لُبُّ جوهر الإنسان، فإن اسم الإنسان إنما هو واقع على النفس والبدن، فأما البدن فهو هذا الجسد المرئي المؤلَّف من اللحم والدم والعظام والعروق والعصب والجِلْد وما شاكله،

وهذه كلها أجسام أرضية مظلمة ثقيلة متغيرة فاسدة، وأما النفس فإنها جوهرة سماوية روحانية حية نورانية خفيفة متحركة غير فاسدة علَّامة درَّاكة لصور الأشياء، وإن مثلها في إدراكها صور الموجودات من المحسوسات والمعقولات كمثل المرآة؛ فإن المرآة إذا كانت مستوية الشكل مجلوَّة الوجه تتراءى فيها صور الأشياء الجسمانية على حقيقتها، وإذا كانت المرآة معوجَّة الشكل أرت صور الأشياء الجسمانية على غير حقيقتها، وأيضًا إن كانت المرآة صدئة الوجه فإنه لا يتراءى فيها شيء البتة.

فهكذا أيضًا حال النفس؛ فإنها إذا كانت عالمة ولم تتراكم عليها الجهالات، طاهرة الجوهر لم تتدنَّس بالأعمال السيئة، صافية الذات لم تتصدَّأ بالأخلاق الرديئة، وكانت صحيحة الهمة لم تعوج بالآراء الفاسدة فإنها تتراءى في ذاتها صور الأشياء الروحانية التي في عالمها فتدركها النفس بحقائقها، وتشاهد الأمور الغائبة عن حواسها بعقلها وصفاء جوهرها، كما تشاهد الأشياء الجسمانية بحواسها إذا كانت حواسها صحيحة سليمة.

وأما إذا كانت النفس جاهلة غير صافية الجوهر، وقد تدنَّست بالأعمال السيئة أو صدئت بالأخلاق الرديئة أو اعوجَّت بالآراء الفاسدة، واستمرت على تلك الحال بقيت محجوبة عن إدراك حقائق الأشياء الروحانية، وعاجزة عن الوصول إلى الله تعالى، ويفوتها نعيم الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾.

واعلموا أيها الإخوان، أيَّدكم الله وإيانا بروح منه، أن حجابها عن ربها إنما هو جهالتها بجوهرها وعالمها ومبدئها ومعادها، وأن جهالتها إنما هي من الصدأ الذي تركَّب على ذاتها من سوء أعمالها وقبح أفعالها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وأما اعوجاجها فهو من أجل آرائها الفاسدة وأخلاقها الرديئة كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

واعلموا أيها الإخوان، أيَّدكم الله بروح منه، أن النفس ما دامت على هذه الصفات فإنها لا تبصر ذاتها ولا يتراءى في ذاتها تلك الأشياء الحسنة الشريفة اللذيذة الشهية التي في عالمها، كما وصف الله فقال: ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقال: ﴿لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

واعلموا أيها الإخوان، أيَّدكم الله بروح منه، أن النفوس ما لم تشاهد تلك الأشياء لا ترغب فيها ولا تطلبها ولا تشتاق إليها، وتبقى كأنها عمياء، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

واعلموا أيها الإخوان، أيَّدكم الله بروح منه، أن النفس إذا عميت عن أمر عالمها، وتوهَّمت أنه لا وجود لها إلا على هذه الحال التي هي عليها الآن في دار الدنيا فتحرص عند ذلك على البقاء في الدنيا، وتتمنى الخلود فيها وترضى بها وتطمئن إليها وتيأس من الآخرة وتنسى أمر المعاد، كما ذكر الله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وقال: ﴿يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.

ثم إنها إذا ذُكِّرَت بوصية الله التي جاءت على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا تذكر شيئًا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾، ثم إنها تبقى في عمايتها وجهالتها وطغيانها إلى الممات مصرَّة مستكبرة كأن لم تسمعها. فإذا جاءت سكرة الموت التي هي مفارقة النفس الجسد وترك استعمال الجسم، وفارقته على كُرْه منها وبقيت عند ذلك فارغة من استعمال البدن وإدراك المحسوسات؛ تراجعت إلى ذاتها لتنهض فلا يمكنها النهوض من ثِقَل أوزارها ومن أعمالها السيئة وعادتها الرديئة كما قال الله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ فعند ذلك يتبين لها أنها قد فاتتها اللذات المحسوسات التي كانت لها بتوسط البدن، ولم تحصل لها اللذات المعقولات التي في عالمها، فعند ذلك تبين لها أنها قد خسرت الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين، وقد انقضى.

(١) الفصل الأول: في الحث على تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق

وأما الخَلَّة الأخرى التي هي استقامة الطريق فإن كل قاصد نحو مطلوب من أمور الدنيا، فإنه يتحرى في مقصده نحو مطلوبه أقرب الطرقات وأسهلها مسلكًا؛ لأنه قد علم أنه إن لم يكن له طريق قريب فإنه يبطئ في وصوله إلى مطلوبه، وأيضًا فإنه إن لم يكن الطريق سهل المسلك فربما يعوق البلوغ إليه أو يتعب في سلوكه، وإن أقرب الطرقات ما كان على خط مستقيم، وأسهلها مسلكًا هو الذي لا عوائق فيه، فهكذا ينبغي أيضًا للقاصدين إلى الله تعالى بعد تصفية نفوسهم، والراغبين في نعيم الآخرة في دار السلام، والذين يريدون الصعود إلى ملكوت السماء والدخول في جملة الملائكة بأن يتحروا في مقاصدهم أقرب الطرقات إليه كما قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ ونحن نريد أن نُبيِّن ما الطريق المستقيم الذي وصَّانا به وأمرنا باتباعه على ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم،

ونصف أيضًا كيف ينبغي أن نسلكه حتى نصل إلى ما وعدنا ربنا كما قال الله تعالى: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾، ولكن لا يمكننا بيان ذلك بالحقيقة إلا بكلام موزون وقياس صحيح ودلائل واضحة على مثل بيان الله تعالى وسنة أنبيائه، صلوات الله عليهم، بالوصف البليغ لسائر آيات الله في الآفاق وفي أنفسنا حتى يتبين لهم أنه الحق، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وإذا فعلنا ذلك تفتَّحت أبواب العلوم المخزونة والأسرار المكنونة التي لا يمسُّها إلا المطهَّرون.

واعلموا أيها الإخوان، أيَّدكم الله تعالى وإيانا بروح منه، أنه لا ينبغي أن يتكلم أحد في ذات الباري تعالى ولا في صفاته بالحزر والتخمين، بل ينبغي له ألا يجادل فيه إلا بعد تصفية النفس، فإن ذلك يؤدي إلى الشكوك والحيرة والضلال، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ونحن نبتدئ أولًا قبل كل شيء فنُبيِّن كيف ينبغي أن نُصفِّي النفس من الأخلاق الرديئة التي اعْتَدْنا عليها من الصبا، ونجعل لوصفنا ذلك في رسائلنا الرياضية أبوابًا شتى، ونذكر في كل باب ضروبًا من الأمثال؛ لكيما يكون أوضح للبيان وأقرب للفهم وأبلغ في الموعظة، ثم بعد ذلك نصف في هذه الرسائل أبوابًا أُخَر يتبين فيها ما الطريق المستقيم إلى الله عز وجل، وكيف ينبغي أن تتبع بكلام[1] موزون ودلائل واضحة؛ ليكون منهاجًا للقاصدين وإرشادًا للمريدين، ثم نبتدئ بعد هذين الجهتين بالكشف عن الأمور الإلهية الحية والأسرار المخزونة مما قد عرفنا بإلهام الله تعالى، أو مما قد استنبطنا من تفاسير كتب أوليائه وتنزيلات أنبيائه عليهم السلام، ومما قد جرى على ألسنة الحكماء في إشاراتهم ورموزاتهم، ومن سبب بدء كون العالم بعد أن لم يكن، ووقوع النفس وغرورها وخلق آدم الأول وسبب عصيانه، وحديث الملائكة وسجودهم لآدم، وقصة إبليس والجان واستكباره عن السجود، وشجرة الخُلْد والمُلْك الذي لا يبلى، وسبب أخذ الميثاق إلى ذرية آدم وأخبار القيامة والنفخ في الصور والبعث والنشور والحساب، وفصل القضاء والجواز على الصراط والنجاة من النار والدخول إلى الجنة، وزيارة الرب تبارك وتعالى، وما شاكَل هذا من الأخبار المذكورة في كتب الأنبياء، صلوات الله عليهم، وما حقائق معانيها؛ لأن في الناس أقوامًا عقلاء مميَّزين

[1] نتبع ما تقدَّم، أو نتبع بياننا وأبحاثنا أو ما شئت فقدِّر مفعول «نتبع» ليتمَّ الكلام.

متفلسفين إذا فكَّروا في هذه الأشياء وقاسوها بعقولهم لا تُتَصوَّر لهم معانيها الحقيقية، وإذا حملوها على ما يدل عليه ظاهر ألفاظ التنزيل لا تقبله عقولهم فيقعون عند ذلك في الشكوك والحيرة، وإذا طالت تلك الحيرة بهم أنكروها بقلوبهم، وإن كانوا لا يظهرون ذلك باللسان مخافة السيف.

وفي الناس أقوام دونهم في العلم والتمييز يؤمنون ويعلمون أنها الحق، وأقوام آخرون يأخذونها تقليدًا ولا يتفكَّرون فيها، وفي الناس طائفة إذا سمعوا مثل هذه المسائل نفرت نفوسهم منها واشمأزوا عن ذكرها، وينسبون المتكلم أو السائل عنها إلى الكفر والزندقة والتكلُّف لما لا ينبغي.

فأولئك أقوام قد استغرقت نفوسهم في نوم الجهالة فينبغي للمذكر لهم أن يكون طبيبًا رفيقًا يُحْسِن أن يداويهم بأرفق ما يقدر عليه من التذكار لهم بآيات الكتب الإلهية وما في أيديهم من أخبار أنبيائهم، وما في أحكام شرائعهم من الحدود والرسوم والأمثلة، فإن ذلك كله إشارات للنفس بتذكيرها ما قد غفلت عنه من أمر معادها ومبدئها مثل مقادير الفروض على أعداد مخصوصة، ومثل أحكام النبيين على شرائط معلومة، ومثل تأديتها في أوقات معروفة، ومثل التوجه إلى جهات مختلفة، ومثل التعبُّد على فنون متباينة إن كان هؤلاء من أهل التوراة أو من أهل الإنجيل أو من أهل القرآن، فإن تعلُّقهم بظاهر أحكام شرائعهم وحرصهم وعنايتهم بقراءة كتب أنبيائهم وإقرارهم بصواب ما فيها من الأحكام للدين والدنيا حجة للمذكِّرين لهم بعدما جهلوه من أمر عالمهم وما قد نسوه من أمر معادهم ومبدئهم، وشاهد عليهم بما قد جحدوه من معاني هذه المسائل التي ذكرناها، وإن كان هؤلاء القوم المنكرون لمعاني هذه المسائل من عبدة الأوثان والأصنام والنيران والشمس والكواكب وما شاكلها، فإن في كتب نواميسهم وصور هياكلهم وأحكام سننهم أمثلة أيضًا لذلك وإشارات إليها مثل ما في الشرائع والأديان النبوية، لكن يحتاج أن يكون المذكرون لهم عارفين بها.

وإن في الناس طائفة إذا سمعوا مثل هذه المسائل تطلَّعت همم نفوسهم إلى أجوبتها، ورغبت في معرفة معانيها، فإذا سمعوا الجواب عنها قبلتها بلا حجة ولا برهان، ولكن على التقليد.

أولئك قوم نفوسهم سليمة بعدُ لم تتعوَّج بالآراء الفاسدة، ولم تستغرق بعدُ في نوم الجهالة، فيحتاج المذكِّر إلى أن يسلك بهم طريقة التعليم إلى التدريج كما وصفنا في الرسالتين الأوليين اللتين وضعناهما للمتعلمين والمريدين، فإذا تهذَّبت نفوسهم وصَفَتْ

أذهانهم وقويت أفكارهم أطلقت لهم أجوبة من هذه المسائل ببراهينها، كما بيَّنَّا في الرسائل الخمس التي صورناها على صورة الإنسان وأوضحنا دلائلها بالمثالات التي في صورة الإنسان. وفي الناس طائفة من أهل العلم قد نظروا في بعض العلوم وأقرُّوا بعض كتب الحكماء، أو سمعوا من المتكلمين في مناظرتهم ومن المتفلسفين والشرعيين جميعًا قد تكلموا في مثل هذه المسائل وأجابوا عنها بجوابات مختلفة، ولم يتفقوا على شيء واحد ولا صحَّ لهم فيها رأي واحد، بل وقعت بينهم في ذلك منازعات ومناقضات، كل ذلك لأنهم لم يكن لهم أصل واحد صحيح ولا قياس واحد مستوٍ يمكن أن يجاب به عن هذه المسائل كلها من ذلك أو على ذلك القياس، ولكن كانت أصولهم مختلفة وقياساتهم متفاوتة غير مستوية.

واعلموا أيها الإخوان، أيَّدكم الله وإيانا بروح منه، أن الجواب على أصول مختلفة والحكم بقياسات متفاوتة تكون متناقضة غير صحيحة، ونحن قد أجبنا عن هذه المسائل كلها وأكثر منها مما يشاكلها من المسائل على أصل واحد وقياس واحد، وهو صورة الإنسان؛ لأن صورة الإنسان أكبر حجة لله على خلقه؛ ولأنها أقربها إليهم ودلائلها أوضح وبراهينها أصح، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي الميزان الذي وضعه بين خلقه، وهي المكيال الذي يكيل لهم به يوم الدين ما يستحقونه من الثواب والجزاء، وهي المجموع فيها صور العالمين جميعًا، وهي المختصر من العلوم التي في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كل جاحد، وهي الطريق إلى كل خير، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار.

وينبغي لمن يدَّعي الرياسة في العلوم الحقيقية ويقول إنه يُحسن أن يجيب عن هذه المسائل التي تقدَّم ذكرها أن يطلب منه الجواب على أصل واحد وقياس واحد؛ فإنه لا يمكنه إلا أن يجعل أصله صورة الإنسان من بين صور جميع الموجودات من الأفلاك والكواكب والأركان والحيوان والنبات وغير ذلك، وإن جعل أصله أشياء غير صورة الإنسان فلا يمكنه أن يقيس بها سائر الموجودات ويجيب عن هذه المسائل إلا بمثل ما قِسْنا عليه نحن وأجبنا عنه، وإذا فعل ذلك اتفق الجميع على رأي واحد ودين واحد ومذهب واحد، وارتفع الخلاف واتضح الحق للجميع، ويكون ذلك سببًا لنجاة الكل.

ونحن لا نرخِّص لأحد بالنظر في مثل هذه الأشياء ولا السؤال عنها إلا بعد تهذيب نفسه بمثل ما قلناه ووصفناه في هذين الكتابين؛ اقتداءً بسنة الله تبارك وتعالى كما أخبر وقال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾؛ وذلك أن موسى عليه السلام، قام لياليها وصام نهارها حتى صَفَتْ نفسه فناجاه الله تعالى عند ذلك وكلَّمه.

ويُرْوَى عن النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أنه قال: «مَنْ أخلص العبادة لله أربعين يومًا فتح الله قلبه وشرح صدره وأطلق لسانه بالحكمة ولو كان أعجميًّا غلفًا.»

فمن أجل هذا وجب على الحكماء إذا أرادوا فتح باب الحكمة للمعلمين وكشف الأسرار للمريدين أن يروضوهم أولًا ويهذِّبوا نفوسهم بالتأديب؛ كيما تَصْفُوا نفوسهم وتطهر أخلاقهم؛ لأن الحكمة كالعروس تريد لها مجلسًا خاليًا؛ فإنها من كنوز الآخرة، وإن الحكيم إذا لم يفعل ما هو واجب في الحكمة من رياضة المتعلمين قبل أن يكشف لهم أسرار الحكمة فيكون مثَلُهُ في ذلك كمثَلِ حاجبِ ملكٍ أَذِن لقوم بُلْهٍ بالدخول على الملك من غير تأديب ولا ترتيب؛ فإنه يستحق العقوبة عليه إن فعل ذلك، فإذا هو فعل ما قد يجب من تأديبهم ثم لم يفعلوا هم ولا قبلوا منه فقد برئ الحكيم من اللوم، ولزمهم الذنب؛ لأنك إذا قدَّمت الطعام والشراب إلى الجائع فقد أشبعتَه، فإذا هو لم يأكل حتى مات جوعًا فهو المأخوذ بدمه ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ﴾.

وفَّقك الله أيها الأخ البارُّ الرحيم وإيانا للرشاد، وسدَّدك وإيانا وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد، إنه رءوف بالعباد.

(تمت رسالة ماهية الطريق إلى الله عز وجل وكيفية الوصول إليها،
ويليها رسالة في بيان اعتقاد إخوان الصفاء.)

الرسالة الثالثة

من العلوم الناموسية والشرعية في بيان اعتقاد إخوان الصفا ومذهب الربانيين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنَّا قد فرغنا من بيان ماهية الطريق إلى الله تعالى وكيفية الوصول إلى معرفته، وهي الغاية القصوى، فنريد الآن أن نذكر في هذه الرسالة بيان اعتقاد إخوان الصفا ومذهب الربانيين، وبيان أن النفس تبقى بعد مفارقتها الجسد التي عُبِّر عنها بالموت الطبيعي بطريق مقنع لا بطريق البرهان، فنقول:

اعلم أنه في الزمان السالف ذكروا أنه كان رجل من الحكماء رفيقًا بالطب دخل إلى مدينة من المدن فرأى عامة أهلها بهم مرض خفي لا يشعرون بعلَّتهم ولا يحسُّون بدائهم الذي بهم، ففكَّر ذلك الحكيم في أمرهم كيف يداويهم ليبرئهم من دائهم ويشفيهم من علَّتهم التي استمرت بهم، وعلم أنه إن أخبرهم بما هم فيه لا يستمعون قوله ولا يقبلون نصيحته، بل ربما ناصبوه بالعداوة واستعجزوا رأيه واستنقصوا آدابه واسترذلوا علمه، فاحتال عليهم في ذلك لشدة شفقته على أبناء جنسه ورحمته لهم وتحنُّنه عليهم، وحرصه على مداواتهم طلبًا لمرضاة الله عز وجل بأن طلب من أهل تلك المدينة رجلًا من فضلائهم الذين كان بهم ذلك المرض، فأعطاه شربة من شربات كانت معه قد أعدَّها لمداواتهم وسعطه بدخنة كانت معه لمعالجتهم، فعطس ذلك الرجل من ساعته ووجد خفة في بدنه وراحة في حواسه وصحة في جسمه وقوة في نفسه.

فشكر له وجزاه خيرًا وقال له: هل لك من حاجة أقضيها لك مكافأة لما اصطنعت إليَّ من الإحسان في مداواتك لي؟ فقال: نعم. تعينني على مداواة أخ من إخوانك، قال: سمعًا وطاعة لك. فتوافقا على ذلك ودخلا على رجل آخر ممن رأوا أنه أقرب إلى الصلاح فخلوا به من رفقائه وداوياه بذلك الدواء فبرأ من ساعته، فلما أفاق من دائه جزاهما خيرًا وبارك فيهما وقال لهما: هل لكما حاجة أقضيها لكما مكافأةً لما صنعتما إليَّ من الإحسان والمعروف؟ فقالا: تعيننا على مداواة أخ من إخوانك. فقال: سمعًا وطاعة لكما. فتوافقوا على ذلك ولقوا رجلًا آخر فعالجوه وداووه بمثل الأول، فبرئ وقال لهم مثل قول الأولَين، وقالوا له مثل ما قال الأول.

ثم تفرَّقوا في المدينة يداوون الناس واحدًا بعد آخر في السر حتى أبرءوا أناسًا كثيرًا، وكثر أنصارهم وإخوانهم ومعارفهم، ثم ظهروا للناس وكاشفوهم بالمعالجة وكابروهم بالمداواة قهرًا، وكانوا يلقون واحدًا واحدًا من الناس فيأخذ منهم جماعة بيديه وجماعة برِجْليه ويسعطه الآخرون كرهًا ويسقونه جبرًا حتى أبرءوا أهل المدينة كلهم.

(١) فصل في مذهب الربانيين في كيف يبدأ الإنسان الدعوة

واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن هذا مثل الأنبياء، صلوات الله عليهم، في بدء دعوتهم الناس من إذكارهم ما قد نسوه من أمر الآخرة والمعاد وتنبيههم من نوم الجهالة ورقدة الغفلة التي هي مرض النفوس؛ وذلك أن النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، في أول مبعثه ودعوته ابتدأ أولًا بزوجته خديجة، عليها السلام، ثم بابن عمه علي عليه السلام، ثم بصديقه أبي بكر، ثم مالك وأبي ذر وصهيب وبلال وسلمان وجبير وبشار وغيرهم، حتى التأموا تسعة وثلاثين رجلًا وامرأة، ثم دعا رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أن يعزَّ الله عز وجل الإسلام بأحد رجلين: إما بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، فاستجيبت دعوته في عمر وأسلم والتأموا أربعين رجلًا وأظهروا الدعوة، والقصة طويلة معروف كيف كانت.

وهكذا فعل موسى عليه السلام، لما دخل في أول مبعثه مصر فابتدأ أولًا بأخيه هارون وغيره من علماء بني إسرائيل أولاد يعقوب حتى التأموا معه سبعون رجلًا سرًّا، ثم ظهروا وقصدوا دعوة فرعون — وقصته تطول — وقد بيَّنَّا بعضها في رسائلنا، وكذلك فعل المسيح، عليه السلام، في بيت المقدس في أول مبعثه.

واعلم يا أخي أن العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، فالأنبياء عليهم السلام أطباء النفوس وأولياؤهم وخلفاؤهم؛ فهذا مذهب إخواننا الكرام وإليه ندعو إخواننا الباقين، فكن أيها الأخ البارُّ الرحيم معينًا لإخوانك ومساعدًا لهم تُوفَّق إن شاء الله.

واعلم أن أكثر الناس المُقِرِّين بالمعاد شاكُّون فيه متحيِّرون لا يدرون حقيقته ولا يعرفون طريقته، ولكن تقليدًا يروي الآخر عن الأول، ويحكي التابع عن المتبوع، وما مثلهم في ذلك إلا كجماعة عميان يضع أحدهم يده على كتف الآخر ويصيرون كقطار الجمال ويمشون، فإن لم يكن لهم قائد بصير تاهوا كلهم، وأعيذك أيها الأخ أن تكون منهم، بل لتكن قائدًا بصيرًا تهدي الضُّلَّال وطبيبًا رفيقًا تبرئ الأكمه والأبرص، ولا تكن عليلًا سقيمًا محتاجًا إلى مداوٍ. واعلم أن الأطباء إذا اجتمع رأيهم على مداواة عليل واتفقت كلمتهم على دواء واحد — وكانوا مستبصرين بتلك العلة وتعاونوا على علاجه مشفقين ناصحين غير متنازعين — أبرأ الله ذلك العليل على أيديهم في أقرب مدة، وشفاه بأسهل سعي، فأما إذا اختلفوا وتنازعوا وناقض بعضهم بعضًا خذل العليل من بينهم وهلك ولا يشفيه الله لهم ولا ينتفعون هم بعلمهم.

فكن أيها الأخ مساعدًا لإخوانك وموافقًا ومناصحًا ينفع الله بك العباد ويُصلح بك شأنهم، كما وعد الله فقال: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾، وقد سمعت في الخبر أن الحكمين يوم صفين لم يريدا إصلاحًا، بل خدع كل واحد صاحبه ومكر وأضمر الحيلة والغل فلم يوفَّقوا في الصلح إلى طريق الرشاد، فرجع أمير المؤمنين غير راضٍ بذلك الحكم.

(٢) فصل في أن إخوان الصفا أصفياء وأصدقاء كرام

اعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنَّا نحن جماعة إخوان الصفا أصفياء وأصدقاء كرام، كنا نيامًا في كهف أبينا آدم مدة من الزمان تتقلَّب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان، حتى جاء وقت الميعاد بعد تفرُّق في البلاد في مملكة صاحب الناموس الأكبر، وشاهدنا مدينتنا الروحانية المرتفعة في الهواء التي ذكرناها في الرسالة الثانية، وهي التي أُخرج منها أبونا آدم وزوجته وذريتهما لما خدعهما عدوهما اللعين وهو إبليس وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ واغترَّا بقوله وحملهما الحرص والعجلة فبادرا وطلبا ما ليس لهما أن يتناولاه قبل استحقاقه في أوانه فسقطت مرتبتهما وانحطَّت درجتهما وانكشفت عورتهما، وأخرجاهما وذريتهما جميعًا بعضهم

لبعض عدو، وقيل لهم: اهبطوا منها ولكم في الأرض مُستقَرٌّ ومتاعٌ إلى حين، فيها تَحْيَوْن وفيها تموتون ومنها تُخرَجون يومَ البعث إذا انتبهتم من نوم الجهالة واستيقظتم من رقدة الغفلة، إذا نُفِخ فيكم بالصور فتنشقُّ عنكم القبور، وتخرجون من الأجداث سراعًا كأنهم إلى نُصُبٍ يوفِضون.

فهل لك يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن تبادر وتركب معنا في سفينة النجاة التي بناها أبونا نوح عليه السلام، فتنجو من طوفان الطبيعة قبل أن تأتي السماء بدخان مبين، وتسلم من أمواج بحر الهيولى ولا تكون من المغرَقين؟!

أو هل لك يا أخي أن تنظر معنا حتى ترى ملكوت السموات التي رآها أبونا إبراهيم لَمَّا جنَّ عليه الليل حتى تكون من الموقنين؟

أو هل لك يا أخي أن تتمِّم الميعاد وتجيء إلى الميقات عند الجانب الأيمن حيث قيل يا موسى فيُقْضَى إليك الأمر فتكون من الشاهدين؟

أو هل لك يا أخي أن تصنع ما عمل فيه القوم كي يُنْفَخَ فيك الروح فيذهب عنك اللوم حتى ترى الأيسوع عن ميمنة عرش الرب قد قرب مثواه كما يقرب ابن الأب أو ترى مَنْ حوله من الناظرين؟

أو هل لك أن تخرج من ظلمة أهرمن حتى ترى اليزدان قد أشرق منه النور في فسحة أفريجون؟

أو هل لك أن تدخل إلى هيكل عاديمون حتى ترى الأفلاك التي يحيكها أفلاطون، وإنما هي أفلاك روحانية لا ما يشير إليه المنجمون؟ وذلك أن علم الله تعالى محيط بما يحوي العقل من المعقولات، والعقل محيط بما تحوي النفس من الصور، والنفس محيطة بما تحوي الطبيعة من الكائنات، والطبيعة محيطة بما تحوي الهيولى من المصنوعات، فإذا هي أفلاك روحانية محيطات بعضها لبعض؟

أو هل لك ألَّا ترقد من أول ليلة القدر حتى ترى المعراج في حين طلوع الفجر حيث أحمد المبعوث في مقامه المحمود فتسأل حاجتك المقضيَّة لا ممنوعًا ولا مفقودًا وتكون من المقرَّبين؟ وفَّقك الله أيها الأخ البارُّ الرحيم وجميع إخواننا لفهم هذه الإشارات والرموز، وفتح قلبك وشرح صدرك وطهَّر نفسك ونوَّر عقلك لتشاهد بعين البصيرة حقائق هذه الأسرار، فلا تفزع من موت الجسد إذا فارقته وفيه حياة النفس فتكون من أولياء الله الذين تمنوا الموت لا مَنْ توهَّم أنه منهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

واعلم أيها الأخ أنه لا يصدُقنك في المودَّة ولا يُخْلِص لك في النصيحة مَنْ لا يرى أنه يجازى على مودتك ويكافأ على محبتك بعد مفارقة الجسد، فلا تغتر بمن لا يريد في معاونته لك إلا جر المنفعة لجسده أو دفع المضرة عنه.

واعلم أن كل متعاونين في طلب منفعة مما يكون فيه خوف التلف على جسد أحدهما وسلامة الآخر؛ فإنه يود كل واحد منهما أن يُسلم جسده وإن تلف جسم صاحبه؛ ليفوز هو بتلك المنفعة ويكون هو المغبوط وصاحبه المغبون الهالك.

واعلم يا أخي أنه ليس هكذا رأي إخواننا ولا اعتقادهم في معاونة بعضهم بعضًا في طلب صلاح الدين والدنيا، بل بالعكس من ذلك؛ وذلك أن من كرم أخلاقهم وحسن اعتقادهم ما يُرْوَى عن الرجل الحكيم الذي كان وزير الخيشوان ملك الهياطلة — على ما يُحْكَى عنه في التواريخ — أنه لما قصده فيروز ملك الفُرْس لقتاله بجموعه وبلغه الخبر وعلم أنه لا يطيق مقاومته جمع وزراءه واستشارهم في ذلك، فمنهم مَنْ أشار عليه بالقتال، ومنهم مَنْ أشار عليه بالهرب، ومنهم مَنْ أشار عليه بالحيلة.

فقال واحد ممن أشار عليه بالحيلة، وكان رجلًا حكيمًا: أيها الملك، عندي حيلة لطيفة إن قبِلْتها وعملتَ عليها نجوتَ أنت وجيشك ورعيتك وسلِمَتْ بلادك وهلك عدوك. فقال الملك: هلمَّ أشِرْ عليَّ برأيك وحكمتك. فقال الحكيم: أخْلِ لي المجلس. ففعل، فقال: الرأي عندي أن تجمع خزائنك وتتوجه إلى موضع كذا؛ فإنه موضع حريز، وتقوم أنت وجيشك وتمر إلى موضع كذلك وتتركني في مكاني هذا بعد أن تقطع يدي ورِجْلي وتسمل عيني وتُظْهِر الغضب عليَّ، وتقول لمن حولك ولمن ببابك: قد ظهرت مني عليك خيانة وقلة نصيحة وهذا عقوبة ذلك، ثم ترحل إذا علمت أنه قرب منك ملك الفُرْس وتتركني بمكاني وتنتظر إلى أن تتمَّ حيلتي، فقال الملك: تالله ما رأيت ولا ظننت أن أحدًا من الناس يسمح بما سَمَحَتْ به نفسك! قال الحكيم: قد سمح قبلي بمثل ذلك الرجل الخِب العاقل. قال الملك: حدِّثني كيف كان حديثه؟ قال الحكيم: ذكروا أنه كان قوم من الغواصين ذهبوا إلى جزيرة يستخرجون اللؤلؤ فصحبهم رجل خِب ليحتال عليهم فيفوز ببعض ما يستخرجون، فلما بلغوا ما أرادوا وانصرفوا راجعين لم يظفر الرجل بشيء مما أراد غير ما وهبوا له من صغار اللؤلؤ لخدمته لهم، ثم إنه خرج عليهم القُطَّاع في طريقهم، فلما رآهم الغوَّاصون بلع كل واحد منهم ما كان معه من ذلك الجوهر الثمين شفقةً من أخذه، ولم يكن مع الخِب شيء يشفق من أخْذِه فلم يبلع هو شيئًا، فلما أخذهم القُطَّاع فتَّشوهم فلم يجدوا معهم شيئًا غير صغار اللؤلؤ، فقالوا لهم: أين خبَّأتم الكبار؟ فقالوا: لم نجد

غير هذا، فقالوا: بل بلعتموها، فلنشُقَّنَّ أجوافكم. فحبسوهم تلك الليلة وعزموا على شقِّ أجوافهم! فجعل الغوَّاصون يفكرون طول الليلة، ففكَّر الرجل الخِب في نفسه، وكان رجلًا عاقلًا فخلا بهم، وقال لهم: إني أخبركم بأنِّي ما صحبتكم إلا لكذا وكذا، فلم أظفر بشيء مما أردت، وقد علمت بأنه ما من أحد منكم إلا وقد بلع شيئًا غيري، ولئن شُقَّ جوف واحد فوُجد فيه شيء لنهلكنَّ بأجمعنا، وقد رأيت من الرأي أن أفديكم بنفسي فلعلكم تَسْلَمُون؛ وهو أن أقول لهم: إن كان ولا بد فشُقُّوا جوف واحد، فإن وجدتم شيئًا فرأيكم بالباقين، وإن لم تجدوا شيئًا فاعلموا أنَّا صادقون، ولكن أمهِلونا لنقترع بيننا، فمَنْ خرجت قرعته فدونكم ما تريدون، فإن أجابوا إلى ذلك احْتَلْتُ أنا حتى تخرج قرعتي، وإن تلِفَت نفسي وسلِمْتم فأسألكم أن تُحْسِنوا إلى ذريتي وتواسوهم مما معكم إذا سلمتم إن شاء الله تعالى. ففُعل به ذلك فلم يوجد في جوفه شيء وسلِمَ القوم. فأنا أيها الملك أعلم أنه إن ظفر بنا عدونا فأنا هالك لا محالة، وأنا أرجو إن تمَّت حيلتي أن يسْلَمَ الملك وحاشتيه ورعيته ومَنْ معهم ويهلك عدونا وإن تلف جسدي، ومع هذا أرى أن الرجل كان أسمح مني؛ لأنه كان رجلًا شابًّا يرجو الحياة وأنا رجل شيخ قد سئمت الحياة، ومع هذا أعلم أن الملك إذا سلِم يُحْسِن إلى ذريتي أكثر مما كان يأمل ذلك الرجل منهم، ويكون من حسن الأحدوثة بعدي مثل ما لذلك الرجل، ومع هذا فإن الذين أفديهم بنفسي أكثر عددًا من الذين فداهم هو. ثم إن الملك أمر فصُنِع به ما أشار لما قرب فيروز ملك الفُرْس منه، ورحل وترك مكانه، فلما رآه أصحاب فيروز على تلك الحال سألوه عن خبره ومَنْ فعل به ما هو فيه؟ فزعم أنه كان أحد وزراء خيشوان ملك الهياطلة، وأنه لما استشاره في مقاتلة فيروز أشار عليه بالصلح وأداء الخراج فكره ذلك منه وفعل به ما ترون؛ فرُفِع خبره إلى فيروز وأُحْضِر وسُئل فأجاب بمثل ذلك فصدَّقه فيروز وقال: أصبْتَ فيما أشرتَ عليه، فقال: أيها الملك فلتُدْركني رأفتك وتحملني معك لا يفترسنِّي السباع؛ فإني أدلُّك على طريق هو أقرب من هذا الذي تسلكه وأَخْفَى؛ فقَبِلَ نصيحته وقال: تزوَّدوا ليومين. وسلك بهم مفازة بعيدة، فلما ساروا يومين فني الزاد فقالوا: كم بقي؟ قال: قليل، سيروا سيرًا عنيفًا، فساروا يومهم، فلما كان من الغد قالوا له: كم بقي؟ قال: لا أدري، إني سلكت هذا الطريق وأنا بصير، والآن ترون حالي، اطلبوا لأنفسكم النجاة. فتفرَّقوا في تلك البرية وهلك أكثرهم، ونجا فيروز مع نفر يسير من خاصته ورجع إلى بلاده، وصالحه خيشوان ورجع إلى بلاده سالمًا هو وحاشيته وصارت دية ذلك الشيخ من أعز مَنْ في المملكة وأغناهم، وبقي حسن الأحدوثة عن الشيخ في إخوانه وأصدقائه وأبناء جنسه. فهكذا رأى إخواننا الفضلاء الكرام في معاونة بعضهم

بعضًا لنصرة الدين وطلب المعاش؛ إذا علموا أن في تلف أجسادهم صلاحًا لإخوانهم في أمر الدين والدنيا سمحت أنفسهم بتلف أجسادهم؛ لأنهم يؤملون مثل ما أمَّل ذلك الشيخ الحكيم وذلك الشاب الفاضل العاقل وزيادة عليهما؛ وذلك أنهم يرون ويعتقدون أن مَنْ يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ونصرة الدين وصلاح الإخوان فإن نفسه — بعد مفارقة جسدها — تصعد إلى ملكوت السماء وتدخل في زمرة الملائكة وتحيا بروح القدس وتسبح في فضاء الأفلاك في فسحة السموات فرِحة مسرورة منعَّمة ملتذَّة مكرمة مغتبطة، وذلك قول الله، عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يعني به روح المؤمن.

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى آخر الآية.

وقد علم كل عالم أن تلك الأجساد قد بليت في التراب وتمزَّقت، وأن هذه الكرامة إنما هي لتلك النفوس التي سمحت بتلف أجسادها في نصرة الدين وصلاح الإخوان؛ وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لما هاجَرَ من مكة إلى المدينة كتب إلى المؤمنين كتابًا وأمرهم فيه بالهجرة إليه، فمنهم مَنْ بادر بالهجرة ومنهم مَنْ توقَّف يؤدي في ذلك الأسباب المانعة له إما شفقة على تضييع أولاد له صغار أو والد كبير أو أخ له أو صديق أو زوجة موافقة أو مسكن مألوف أو مال مجموع يخاف تضييعه أو تجارة يخشى كسادها، فأنزل الله تعالى هذه الآية على نبيه، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبعث بها رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

فلما قرءوها بادروا بالهجرة إلى رسول الله ﷺ وبقي قوم ضعفاء لم يمكنهم الخروج لقلة الزاد وبُعْد الطريق فبقوا كالخاسرين، وجعل المشركون من أهل مكة يتعرضون لهم بالأذية شتمًا وحبسًا وضربًا وقتلًا، فشكوا إلى الله عز وجل ودعوه أن يكشف ما بهم، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بما يلقَون من أذية المشركين، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأذِن لرسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، في قتال المشركين من أهل مكة؛ ليخلص المؤمنين من أيديهم فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ فخرج رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، إلى غزو بدر لقتال المشركين من أهل مكة.

فلما التقى الجمعان وبادروا إلى البراز بادر الأنصار فنادى المشركون: ابعث إلينا أكفَاءنا يا محمد. فقال رسول الله ﷺ: «قد وجبت عليكم يا بني هاشم نصرة نبيكم.» فقام حمزة عمه وعلي وأبو عبيدة وبارزوا، واشتبكت الحرب وكانت الدائرة على المشركين، وكان مع رسول الله ﷺ نحو سبعين رجلًا من المهاجرين، ولم يكن منهم رجل إلا وكان له في عسكر المشركين ابن أو أب أو أخ أو صديق أو قرابة أو عشيرة، فلم يجاوبوهم وحاربوهم بالسيف، ولم يشفقوا عليهم ولا على أنفسهم من التلف؛ لأنهم قد علموا أن في ذلك نصرة للدين وصلاحًا لإخوانهم المؤمنين وطاعة لرسول الله ﷺ ورضوانًا للرب، عز وجل.

وهكذا يوم أُحُد لما اشتدَّ الأمر وانهزم الناس وبقي ﷺ في نفر يسير معه فقال النبي ﷺ: «مَنْ ينصرني اليوم ويفديني بنفسه فله الجنة.»

فقام إليه ثلاثة نفر من الأنصار فقاموا في وجه كل واحد من رماة المشركين فحجزوا عنه بأجسادهم وجعلوها وقايةً لسلامة رسول الله ﷺ حتى استشهدوا جميعًا؛ لأنهم قد علموا أن في بقائه نصرة الدين وصلاحًا لإخوانهم، وأن رسول الله ﷺ لم يستفْدِهِم مخافة من الموت ولا حرصًا على الحياة في الدنيا، ولكن من أجل أن الدين بعدُ لم يتم والشريعة لم تكمل، فلما نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ تمنَّى رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الموت ونزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «نُعِيَتْ إليَّ نفسي.» فقال: يا رسول الله، لو سألت الله أن يبقيك في أمتك إلى يوم القيامة ينتفعون بك! فقال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.» أبى الله أن يجعل لأوليائه الخلود في الدنيا، ثم قال: «وا شوقاه إلى إخواني الأنبياء.» ثم ما مكث إلا قليلًا حتى تُوُفِّي ومضى إلى الله عز وجل وأكرم مثواه، صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلى سائر الأنبياء.

(٣) فصل في قرآن الأنبياء وأتباعهم وخلافائهم

واعلم أن الأنبياء وأتباعهم وخلفاءهم ومَنْ يرى مثل رأيهم من الفلاسفة الحكماء يتهاونون بأمر الأجساد إذا تُبعث الأنفس؛ لأنهم يرون أن هذه الأجساد حبْس للنفوس أو حجاب لها أو صراط أو برزخ أو أعراف، وقد فسَّرنا هذه المعاني في رسائلنا، وإنما تشفق النفس على الجسد ما لم تنبعث، فإذا انبعثت هانت عليها مفارقة الجسد، ومما يدل على صحة

ما قلنا إحراق البراهمة أجسادهم وهم حكماء الهند، وأما مَنْ يفعلون ذلك من جهالتهم وشطارتهم فليس كلامنا، وإنما نريد أن نذكر المستبصرين منهم الحكماء؛ وذلك أنهم يرون ويعتقدون أن هذه الأجساد لهذه النفوس الجزئية بمنزلة البيض للفرخ أو المشيمة للجنين، وأن الطبيعة حضنتها وهي تشفق عليها ما لم تستتم الخِلْقة أو تستكمل الصورة، فإذا تمَّت الخِلْقة وكملت الصورة تهاونت، ولا تبالي إن انشقَّت البيضة أو انخرقت المشيمة إذا سلم الفرْخ أو الطفل.

فهكذا حال النفس مع الجسد، إنما تشفق على الجسد وتصونه وتحنُّ عليه ما لم تعلم بأن لها وجودًا خلْوًا من الجسد، وأن ذلك الوجود خير وأبقى وألذ وأحسن من هذا الوجود والبقاء الذي مع الجسد، فإذا استتمَّت الأنفس الجزئية وكملت صورتها ومعارفها، وانتبهت النفس من هذا النوم واستيقظت من هذه الغفلة وأحسَّت بغربتها في هذا العالم الجسماني وأنها في أسْر الطبيعة في بحر الهيولى، تائهة في قعر الأجسام، مبتلاة بخدمة الأجساد، مغرورة بزينة المحسوسات، وبان لها حقيقة ذاتها وعرفت فضيلة جوهرها، ونظرت إلى عالمها، وشاهدت تلك الصورة الروحانية المفارقة للهيولى، وأبصرت تلك الألوان والأصباغ والملاذَّ العقلية، وعاينت تلك الأنوار والبهجة والسرور والروح والريحان؛ هانت عليها مفارقة الجسد وسمحت بإتلافه في رضى الله عز وجل ونصرة الدين وصلاح الإخوان، ومما يدل على ذلك أن الأنبياء، صلوات الله عليهم، يرون ويعتقدون بقاء النفوس وصلاح حالها بعد تلف الأجساد؛ ما فعل موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام.

وذلك أن موسى عليه السلام، قال لأصحابه ولإخوانه: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾؛ يعني هذه الأجساد بالسيف؛ لأن جوهر النفس لا يناله الحديد؛ وذلك أن القوم افتتنوا بعبادة العجل في غيبة موسى إلى الجبل، فلما رجع إليهم وبان لهم أنهم قد ضلُّوا ندموا وتابوا، ولما عرف موسى أن الذين تنزَّهوا عن عبادة العجل من الذين ثبتوا على سنته بعد مبعثه والذين عبدوا العجل الذين نشئوا على سنة الجاهلية قبل مبعثه، وعلم أنهم إن بقوا بعد موته لم يأمن أن يُحْدِثوا في دينه وسنته وشريعته شيئًا آخر، فرأى من الصواب أن ينفيهم من محلة بني إسرائيل، وأذِن الله تعالى له في ذلك؛ لما فيه من الصلاح للجمهور والنفع للعام، ثم قال لهم موسى: إن أردتم أن يقبل الله تعالى توبتكم فردُّوا المظالم واكتبوا الوصايا والبسوا الأكفان واخرجوا إلى المصلى، وادعوا الله لعله أن يرحمكم أو يتوب عليكم أو يُمْضِي فيكم حكمه. ففعلوا ذلك طوعًا وكرهًا. فأما الطائع فهو الذي علم أن في تلف جسده صلاحًا لنفسه وخيرةً لها، وأما الكاره فهو الذي جهل ذلك وعميت عليه الأنباء.

ثم إن موسى أمر أولئك الذين تجنَّبوا عبادة العجل أن يأخذوا السيوف ويضربوا أعناق أولئك عبدة العجل ولا يرحموا منهم أحدًا ولا تأخذهم في أحد منهم رأفة في دين الله، ففعل القوم ما أُمِرُوا وصبروا إذ علموا أن في ذلك حياةً لنفوسهم، وما كان منهم من أحد إلا كان له في أولئك القتلى أخ أو ابن أو قرابة أو صديق، فلم يمنعهم ذلك عن قتلهم إذ علموا بأن في تلف أجسادهم صلاحًا لنفوسهم ونصرة للدين وصلاحًا لإخوانهم الباقين وطاعة لموسى ورضًى للرب.

وكذلك رضيت نفوس تلك السَّحَرة بتلف أجسادهم قتلًا أو صلبًا؛ إذ قال لهم فرعون: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾، ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ❁ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ فصلبهم كلهم ولم يهابوه، وسمحت نفوسهم بتلف أجسادهم لما علمت أن ذلك حياة لها وفوزًا ونجاةً ونصرة للدين وصلاح الإخوان وطاعة لموسى ورضًا للرب.

ثم إن موسى بعد قتل عبَدة العجل أراد أن يمرَّ إلى الجبل لمناجاة ربه، فقال له هارون: احملني معك فإني لست آمنُ أن يُحْدِث بنو إسرائيل بعدك حدثًا آخر فتغضب عليَّ مرة أخرى. فحمله معه، فلما كانا في بعض الطريق إذ هما برجلين يحفران قبرًا فوقفا عليهما وقالا: لمن تحفران هذا القبر؟ قالا: لأشبه الناس بهذا الرجل، وأشارا إلى هارون، ثم قالا له: بحق إلهك إلا نزلت وأبصرت هل هو واسع؟ فنزع هارون ثيابه ودفعها إلى موسى ونزل ونام فيه وقبض مَلَكُ الموت روحه من ساعته وانضمَّ القبر، وانصرف موسى باكيًا حزينًا على مفارقته، ورجع إلى بني إسرائيل ومعه ثياب هارون فاتهموه، وقالوا: حسدته فقتلته! فبرَّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا، وبقي موسى بعد وفاة هارون قليلًا حتى كتب لهم التوراة ووصَّاهم بما احتاجوا إليه، وسلَّم إلى يوشع وودَّعه وصعد إلى الجبل والناس يبكون حتى غاب عن أعينهم وسلَّم نفسه إلى ربه.

ثم تُوُفِّي ومضيا إلى ربهما فأكرم مثواهما صلوات الله عليهما، وبقي بنو إسرائيل بعد وفاة موسى أربعين سنة تائهين عن الهدى حتى بُعِث فيهم يوشع بن نون، ولد نون ولد يوسف النبي عليه السلام، وهو أحد الرجلين اللذين أنعم الله عليهما حين قال موسى لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾.

(٤) فصل في أن الأنبياء يعتقدون بقاء النفس وصلاحها بعد مفارقة الجسد

ومما يدل على أن الأنبياء عليهم السلام يرون ويعتقدون بقاء النفس وصلاحها بعد مفارقة الجسد، فعل المسيح عليه السلام، بناسوته ووصيته للحواريين بمثل ذلك؛ وذلك أن المسيح لما بُعِثَ في بني إسرائيل فرآهم منتحلين دين موسى مستمسكين بظاهر شريعته يقرءون التوراة وكتب الأنبياء غير قائمين بواجبها ولا عارفين حقائقها، فلا يعرفون أسرارها بل يستعملونها على العبادة ويُجْرونها على التقليد، ولا يعرفون الآخرة ولا يرغبون فيها، ولا يفهمون أمر المعاد ولا يدرون ما فيها غير الدنيا وغرورها وأمانيِّها، ولا يدرون مما يستعملون من أمر الشريعة وسنة الدين إلا طلب الدنيا. وليس غرض الأنبياء في دعوتهم الأمم ووضع الشرائع والسنن إصلاح الدنيا فحسب، بل غرضهم من ذلك كله نجاة النفوس الغريقة من بحر الهيولى، والعتق لها من أسْر الطبيعة وإخراجها من ظلمات الأجسام إلى أنوار عالم الأرواح، والتنبيه لها من نوم الجهالة، والتيقظ لها من رقدة الغفلة، وتخليصها من ألم نيران الشهوات الجسمانية المحرقة للأفئدة والتبصير لها من الغرور باللذات الجرمانية المهولة، وشفاءها من الأمراض النفسانية ومن عذاب الحر والبرد والجوع والعطش، وألم الأمراض والأسقام وخوف الفقر والتلف والأحزان والأسف وأحداث الزمان وغيظ الأعداء، والغم على الأصدقاء، وحرقة الإشفاق على الأحياء والأقرباء، ومعاداة الأضداد ومكايدة الأقران وحسد الجيران ووساوس الشيطان ونوائب الحدثان حالًا بعد حال.

فلما رآهم المسيح على تلك الحالة لا فرق بينهم وبين مَنْ لا يقر بالمعاد ولا يعرف الدين والنبوة ولا الكتاب ولا السنة ولا المنهاج ولا الشريعة، ولا الزهد في الدنيا ولا الرغبة في الآخرة، غمَّه ذلك منهم ورقَّ لهم وتحنَّن على أبناء جنسه، وتفكَّر في أمرهم كيف يداويهم من دائهم الذي استقرَّ بهم، وعلم أنه إن وبَّخهم بالتعنيف والوعيد والزجر والتهديد لا ينفعهم ذلك؛ لأن هذه كلها موجودة في التوراة وما في أيديهم من كتب الأنبياء عليهم السلام، فرأى أن يظهر لهم بزي الطبيب المداوي، وجعل يطوف في محالِّ بني إسرائيل يلقى واحدًا يعظه ويذكِّره ويضرب له الأمثال وينبِّهه من الجهالة، ويزهِّده في الدنيا ويرغِّبه في الآخرة ونعيمها، حتى مرَّ بقوم من القصارين خارج المدينة فوقف عليهم فقال لهم: أرأيتم هذه الثياب إذا غسلتموها ونظفتموها وبيَّضتموها هل تجوزون أن يلبسها أصحابها وأجسادهم ملوثة بالدم والبول والغائط ولون القاذورات؟ قالوا: لا، ومَنْ فعل

ذلك كان سفيهًا، قال: فعلتموها أنتم؟ قالوا: كيف؟ قال: لأنكم نظَّفتم أجسادكم وبيَّضتم ثيابكم ولبستموها ونفوسكم ملوَّثة بالجيف مملوءة قاذورات من الجهالة والعماء والبُكْم وسوء الأخلاق والحسد والبغضاء والمكر والغش والحرص والبخل والقبح وسوء الظن وطلب الشهوات الرديئة، وأنتم في ذل العبودية أشقياء لا راحة لكم إلا الموت والقبر، فقالوا: كيف نعمل؟ هل لنا بُدٌّ من طلب المعاش؟ قال: فهل لكم أن ترغبوا في ملكوت السماء حيث لا موت ولا هرم ولا وجع ولا سقم ولا جوع ولا عطش ولا خوف ولا حزن ولا فقر ولا حاجة ولا تعب ولا عناء ولا غم ولا حسد بين أهلها، ولا بغض ولا تفاخر ولا خيلاء، بل إخوان على سرر متقابلين فرِحين مسرورين في روح وريحان ونعمة ورضوان وبهجة ونزهة، يسيحون في فضاء الأفلاك وسعة السموات، ويشاهدون ملكوت رب العالمين ويرون الملائكة حول عرشه صافِّين يسبِّحون بحمد ربهم بنغمات وألحان لم يسمع بمثلها إنس ولا جان، وتكونون أنتم معهم خالدون لا تهرمون ولا تموتون ولا تجوعون ولا تعطشون ولا تمرضون ولا تخافون ولا تحزنون؟ وأكثر النصح فيهم وعمل كلامه في نفوسهم، وأراد الله عز وجل بهم خيرًا فأسمعهم وهداهم وشرح صدورهم وفتح قلوبهم ونوَّر أبصارهم؛ فشاهدوا ما وصف المسيح عليه السلام، مما يشاهده هو بعين البصيرة ونور اليقين وصدق الإيمان، فرغبوا فيها وزهدوا في الدنيا وغرورها وأمانيِّها، وخرجوا مما كانوا فيه من عبودية طلب شهوات الدنيا، ولبسوا المرقَّعات وساحوا مع المسيح حيث مرَّ من البلاد.

وكان من سنة المسيح التنقُّل كل يوم من قرية إلى قرية من قرى فلسطين، ومن مدينة إلى مدينة من ديار بني إسرائيل، يداوي الناس ويعظهم ويذكِّرهم ويدعوهم إلى ملكوت السماء ويرغِّبهم فيها، ويزهدهم في الدنيا ويبيِّن لهم غرورها وأمانيها، وهو مطلوب من ملك بني إسرائيل وغوغائهم، وبينا هو في محفل من الناس هُجم عليه ليؤخذ فتجنب من بين الناس فلا يُقدر عليه ولا يُعرف له خبر حتى يُسمع بخبره من قرية أخرى فيُطلب هناك، وذلك دأبه ودأبهم ثلاثين شهرًا، فلما أراد الله تعالى أن يتوفاه ويرفعه إليه اجتمع معه حواريوه في بيت المقدس في غرفة واحدة مع أصحابه وقال: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، وأنا أوصيكم بوصية قبل مفارقة لاهوتي وآخذ عليكم عهدًا وميثاقًا، فمَنْ قبِل وصيتي وأوفى بعهدي كان معي غدًا، ومَنْ لم يقبل وصيتي فلست منه في شيء ولا هو مني في شيء، فقالوا له: ما هي؟ قال: اذهبوا إلى ملوك الأطراف وبلِّغوهم مني ما ألقيت إليكم وادعوهم إلى ما دعوتكم إليه، ولا تخافوهم ولا تهابوهم فإني إذا فارقت ناسوتي فإني

واقف في الهواء عن يمنة عرش أبي وأبيكم، وأنا معكم حيثما ذهبتم ومؤيدكم بالنصر والتأييد بإذن أبي، اذهبوا إليهم وادعوهم بالرفق، وداووهم وَأْمُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما لم تُقتلوا أو تُصلبوا أو تُنفوا من الأرض، فقالوا: ما تصديق ما تأمرنا؟ قال: أنا أول مَنْ يفعل ذلك.

وخرج من الغد وظهر للناس وجعل يدعوهم ويعظهم حتى أُخذ وحُمِلَ إلى ملك بني إسرائيل فأمر بصلبه فصُلِب ناسوته وسُمِّرت يداه على خشبتَي الصليب، وبقي مصلوبًا من ضحوة النهار إلى العصر، وطلب الماء فسُقِي الخلَّ وطُعِن بالحربة ثم دُفِن مكان الخشبة، ووُكِّل بالقبر أربعون نفرًا، وهذا كله بحضرة أصحابه وحواريه، فلما رأوا ذلك منه أيقنوا وعلموا أنه لم يأمرهم بشيء يخالفهم فيه، ثم اجتمعوا بعد ذلك بثلاثة أيام في الموضع الذي وعدهم أنه يتراءى لهم فيه، فرأوا تلك العلامة التي كانت بينه وبينهم، وفشا الخبر في بني إسرائيل أن المسيح لم يُقْتَل فنُبش القبر فلم يوجد الناسوت، فاختلف الأحزاب من بينهم وكثر القيل والقال، وقصته تطول. ثم إن أولئك الحواريين الذين قبلِوا وصيته تفرَّقوا في البلاد وذهب كل واحد منهم حيث وُجِّه: فواحد ذهب إلى بلاد المغرب، وآخر إلى بلاد الحبشة، واثنان إلى بلاد رومية، واثنان إلى ملك أنطاكية، وواحد إلى بلاد الفُرْس، وواحد إلى بلاد الهند، واثنان قاما في دير بني إسرائيل يدعون إلى رأي المسيح، حتى قُتِل أكثرهم وظهرت دعوة المسيح في شرق الأرض وغربها بأفعال الحواريين بعدهم، فتهاونهم بأمر أجسادهم يدل على أنهم كانوا يرون ويعتقدون بقاء النفس وصلاح حالها بعد تلف الأجساد، ومن ذلك أفعال الرهبان، والذين هم خيار أصحابه وأتباعه: إن أحدهم يحبس جسده في صومعته سنين كثيرة، ويمتنع عن الطعام والشراب واللذات واللباس الناعم وملاذِّ الدنيا وشهواتها، كل ذلك لشدة يقينهم ببقاء النفس وصلاح حالها بعد تلف الأجساد.

(٥) فصل في رأي إبراهيم خليل الرحمن في بقاء النفس

ومما يدل على أن إبراهيم خليل الرحمن كان يرى هذا الرأي قوله: ربي الذي خلقني فهو يَهْدِينِي، والذي هو يُطعِمني ويَسْقِيني، وإذا مَرِضتُ فهو يَشْفِيني، والذي يُمِيتُني ثم يُحْيِيني، والذي أطمع أن يغفر لي خَطِيئتي يومَ الدين، رَبِّ هَبْ لي حُكْمًا وأَلْحِقني بالصالحين.

وهكذا قول يوسف الصدِّيق: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

أترى أنهما أرادا اللحوق بالصالحين بجسديهما أو نفسيهما؟ وهل أُلْحِق جسداهما إلا بتراب الأرض التي منها خُلِقَا، وإنما أرادا نفسيهما الزكيتين الشريفتين الروحانيتين والسماويتين النورانيتين لا جسديهما المؤلَّفين من اللحم والدم والعظم والعروق والعصب وما شاكلها من الأخلاط الأربعة.

(٦) فصل ومما يدل على أن أهل بيت نبينا عليهم السلام ...

ومما يدل على أن أهل بيت نبينا عليهم السلام كانوا يرون هذا الرأي تسليمهم أجسادهم إلى القتل يوم كربلا، ولم يرضوا أن يتولوا على حكم يزيد وزياد، وصبروا على العطش والطعن والضرب حتى فارقت نفوسهم أجسادهم ورُفِعت إلى ملكوت السماء، ولقوا آباءهم الطاهرين محمدًا وعليًّا والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم في ساعة العسرة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ولو لم يكن القوم مستيقنين ببقاء نفوسهم بعد مفارقة أجسادهم لَمَا تعجَّلوا إهلاك أجسادهم وتسليمها إلى القتل والضرب والطعن وفراق لذيذ عيش الدنيا، ولكن القوم قد علموا وتيقَّنوا ما دعوا إليه من الحياة في الآخرة والنعيم والخلود فيها والفوز والنجاة من غرور الدنيا وبلائها، فبادر القوم إلى ما تصوروا وتحققوا وتسارعوا في الخيرات، وكانوا يدعون ربهم رغبًا ورهبًا وكانوا من خشيته مشفقين.

فهل لك يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن تقتدي بهم وبسنتهم وتسلك مسلكهم وتقصد مقصدهم وتبادر قبل الفوات في فكاك نفسك من أسْر الطبيعة وتنجيها من بحر الهيولى، وتخرجها من قعر الأجسام وظلمة الأجساد ونيران الشهوات المحرقة والغرور باللذات الجرمانية في جوار الشيطان، وتعمل كما يعمل الناس النجباء بأن تصحب إخوانًا لك نصحاء وأصدقاء كرماء محبين لك وادِّين مواظبين على نجاتك ونجاة نفوسهم، وأن ترغب في صحبتهم وتسمع أقاويلهم وتفهم كلامهم بحضورك في مجالسهم، وتنظر في كتبهم؛ لتعرف اعتقادهم وتتخلَّق بأخلاقهم وتتعلَّم علومهم وتسير بسيرتهم العادلة، وتعمل بسنتهم الزكية وتتفقَّه في شريعتهم العقلية لتحيا كحياتهم الملكية وتعيش عيش السعداء مخلدًا أبدًا، وتتجنَّب صحبة إخوان الشياطين الذين لا يريدونك إلا لصلاح أمور دنياهم وحياة أجسادهم ودفع المضرة عنها وهم يهلكون نفوسهم وهم لا يشعرون.

(٧) فصل ومما يدل على أن الفلاسفة الحكماء ...

ومما يدل على أن الفلاسفة الحكماء المتألِّهين كانوا يرون هذا الرأي ويعتقدون تسليم سقراط جسده للتلف وتناوله شربة السم اختيارًا منه.

وذلك أن هذا الرجل كان حكيمًا من حكماء بلاد اليونان وفلاسفتها، وكان قد أظهر الزهد في الدنيا ونعيمها ولذاتها، ورغب في سرور عالم الأرواح وروحها وريحانها، ودعا الناس إليها ورغَّبهم فيها وزهَّدهم في المقام في عالم الكون والفساد؛ فأجابه إلى ذلك جماعة من أولاد الملوك وكبار الناس، واجتمع حوله الأحداث وأولاد النعم يسمعون حكمته وغرائب نوادر كلامه، فحسده جماعة من مخالفيه ومَنْ يريد الدنيا وزينتها واتهموه بمحبة الصبيان، وقالوا: إنه يتهاون بعبادة الأصنام ويأمرهم به، وسعوا به إلى الملك وشهد عليه بالزور أحد عشر رجلًا بأنه واجب قتله، فحُبِسَ أشهرًا يرون في قتله.

فاجتمع عنده في الحبس نحو من سبعين فيلسوفًا مخالفًا وموافقًا يناظرون في رأيه وما يعتقدونه في أمر النفس وبقائها بعد مفارقة الجسد وصلاح حالها، فحاجَّهم كلهم وصحَّح رأيه في بقاء النفس وصلاح حالها بعد فراق الجسد — ولهذا قصة يطول شرحها في كتاب — فمما قيل له: إن كنت مظلومًا فهل لك أن تخلص من القتل بفدية من مال أو بهرب؟

فقال: أخاف أن يقول لي الناموس غدًا: لِمَ فررتَ من حكمي يا سقراط؟!

فقالوا له: تقول: لأني كنت مظلومًا. فقال: أرأيتم إن قال لي الناموس: أرأيت أن ظلمك بالقضاة والعدول الأحد عشر الذين شهدوا عليك بالزور فكان من الواجب أن تظلمني أنت وتفر من حكمي! فما أقول؟ فحاجَّهم بهذا.

وذلك أن القوم كان في حكم شريعتهم إذا شهد العدول على واحد من الناس بحكمٍ ما، كان واجبًا عليه أن ينقاد وإن كان مظلومًا فمَنْ لم يَنْقَد كان ظالمًا لحكم الناموس؛ يعني الشريعة.

وانقاد سقراط للقتل من أجل هذا، ثم قال: مَنْ تهاون بالناموس قتله الناموس! ولما تناول شربة السم ليشربها بكى مَنْ حوله من الحكماء والفلاسفة حزنًا عليه، فقال لهم: لا تبكوا؛ فإني وإن كنت مفارقًا لكم إخوانًا حكماء فضلاء؛ فإني أذهب إلى إخوان لنا حكماء فضلاء كرماء، وقد تقدَّمَنا فلان وفلان — وعدَّ جماعة من الفلاسفة الحكماء الذين كانوا قد ماتوا قبله — فقالوا: إنما نبكي على أنفسنا حين نفقد أبًا حكيمًا مثلك.

(٨) فصل ومما يدل على أن أفلاطون حكيم اليونان …

ومما يدل على أن أفلاطون حكيم اليونانيين كان يرى هذا الرأي ويعتقده — يعني بقاء النفوس وصلاح حالها بعد مفارقة الجسد — قوله في بعض حكمته: لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخير لكانت الدنيا فرصة الأشرار.

وقال أيضًا: نحن ها هنا غرباء في أَسْر الطبيعة وجوار الشياطين، أُخْرِجْنا من عالمنا بجناية كانت من أبينا آدم وكلام نحو هذا.

ومما يدل على أن أرسطاطاليس صاحب المنطق يرى هذا الرأي ويعتقده كلامه في الرسالة المعروفة بالتفاحة وما تكلم به حين حضرته الوفاة، وما احتجَّ به من فضل الفلسفة؛ لأن الفيلسوف يجازى بفلسفته بعد مفارقة النفس الجسد.

ومما يدل على أن فيثاغورث صاحب العدد — وهو من الفضلاء الحكماء — كان يرى هذا الرأي ويعتقده كلامه في الرسالة الذهبية ووصيته لديوجانس وقوله في آخرها: فإنك عند ذلك إذا فارقت هذا البدن حتى تصير بخلي في الجو تكون حينئذٍ سائحًا سالمًا ساكنًا غير عائد إلى الإنسية ولا قابلًا للموت.

(٩) فصل وإنما استشهدنا على هذا الرأي بأقاويل الفلاسفة …

وإنما استشهدنا على هذا الرأي بأقاويل الفلاسفة ووصاياهم وأفعال الأنبياء وسنن شرائعهم؛ لأن في الناموس أقوامًا متفلسفين لا يعرفون من الفلسفة إلا اسمها، وأقوامًا من الشرعيين لا يعرفون من أسرار الشريعة إلا رسومها يتصدَّرون ويتكلَّمون فيها بما لا يحسنون، ويتناظرون فيما لا يدرون فيناقضون تارةً الفلسفة بالشريعة، وتارةً الشريعة بالفلسفة، فيقعون في الحيرة والشكوك فيُضِلُّون ويَضِلُّون.

ومما يدل على بقاء النفوس بعد مفارقتها أجسادها أن كل عاقل يتفكر في بكاء الناس وأحزانهم على موتاهم وقت مفارقة نفوسهم أجسادها، فلو كان بكاؤهم على أجسامهم فما لهم والبكاء والأجساد بحضرتهم برمَّتها وهم يشاهدونها لم ينقص منها شيء، ولو أرادوا أن يحفظوها بأدوية تُطْلى عليها لا تتغير زمانًا طويلًا كان يمكنهم ذلك، بل يستوحشون منها ويدفنونها كراهة لمنظرها وعارًا من فضيحتها إذا فارقتها نفوسها، وإن كان بكاؤهم إنما هو حزن على فقدان ما كان يظهر من تلك الأجساد من الحركات والأفعال والحكم والفضائل، فما لهم لا يبكون على فقدانها في وقت منامهم فإنها كلها تعدم إلا النبض والتنفُّس.

ألا ترى يا أخي أن هذه الأُلْفة والأُنْس والمحبة والتودد إنما هي لتلك النفوس الشريفة والجواهر النفيسة، فإن هذا البكاء والأحزان والتأسف والاستيحاش على فقدان تلك النفوس التي كانت تظهر من أجسادها تلك الحركات والكلام والأفعال والفضائل والصنائع والحكم.

ومما يدل على بقاء النفس وصلاح حالها بعد مفارقتها أجسادها ذهاب الناس إلى قبور الصالحين والأولياء والأخيار لطلب الغفران واستجابة الدعاء والتوسل بهم إلى الله عز وجل، وما يرجون من شفاعتهم عند ربهم وما يطلبون أيضًا من قضاء حوائجهم من أمور الدنيا بالدعاء عند قبورهم، أفترى أن أهل الديانات كلها اتفقوا على شيء لا حقيقة له؟ كلا، بل هذا علم غامض وأسرار خفيَّة لا يعقلها إلا العالمون، كما ذكرهم الله عز وجل ومدحهم بما علموا مما خفي على غيرهم حيث يقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(١٠) فصل في كيف يكون تواصل إخوان الصفا

ينبغي أن نُبيِّن كيف يكون تواصل إخوان الصفاء؟ وكيف تكون معاونة بعضهم بعضًا في طلب معيشة الدنيا؟ وماذا كيف يكون حال مَنْ سبقته المنية قبل صاحبه؟ وكيف يكون عيش الباقي منهم بعد صاحبه؟ ذُكر أن مدينةً كانت على رأس جبل في جزيرة من جزائر البحر مخصبة كثيرة النعم رخيَّة البال طيبة الهواء عذبة المياه حسنة التربة كثيرة الأشجار لذيذة الثمار كثيرة أجناس الحيوانات — على حسب ما تقتضيه تربة تلك الجزيرة وأهويتها ومياهها — وكان أهلها إخوة وبني عم بعضهم لبعض من نسل رجل واحد، وكان عيشهم أهنأ عيش يكون بتودُّد ما كان بينهم من المحبة والرحمة والشفقة والرفق بلا تنغيص من الحسد والبغي والعداوة وأنواع الشر، كما يكون بين أهل المدن الجائرة المتضادة الطباع المتنافرة القوى المشتتة الآراء القبيحة الأعمال السيئة الأخلاق. ثم إن طائفة من أهل تلك المدينة الفاضلة ركبوا البحر فكُسِرَ بهم المركب ورمى بهم الموج إلى جزيرة أخرى فيها جبل وعر، فيه أشجار عالية وعليها ثمار نذرة، فيها عيون غائرة ومياهها كدرة، وفيها مغارات مظلمة وفيها سباع ضارية، وإذا عامة أهل تلك الجزيرة قردة، وكان في بعض جزائر البحر طير عظيم الخلقة شديد القوة قد سُلِّط عليها في كل يوم وليلة يكرُّ عليهم ويختطف من تلك القردة عدة، ثم إن هؤلاء النفر الذين نجوا من

الغرق تفرقوا في الجزيرة وفي أودية ذلك الجبل يطلبون ما يتقوَّتون من ثمارها؛ لما لحقهم من الجوع، ويشربون من تلك العيون ويستترون بأوراق تلك الأشجار ويأوون بالليل إلى تلك المغارات، ويعتصمون بها من الحر والبرد، فأنِسَت بهم تلك القرود وأنِسوا بها؛ إذ كانت أقرب أجناس السباع شبهًا لصورة الناس فولعت بهم إناث القردة وولع بها مَنْ كان به شبق، فحبلت منهم وتوالدت وتناسلوا وكثروا وتمادى بهم الزمان فاستوطنوا تلك الجزيرة واعتصموا بذلك الجبل، وألِفوا تلك الحال ونسوا بلدهم ونعيمهم وأهاليهم الذين كانوا معهم بديًّا، ثم جعلوا يبنون من حجارة ذلك الجبل بنيانًا ويتخذون منها منازل ويحرصون في جمع تلك الثمار ويدَّخرها مَنْ كان منهم شرهًا، وصاروا يتنافسون على إناث تلك القرود ويغبطون مَنْ كان منهم أكثر حظًّا من تلك الحالات، وتمنوا الخلود هنا، وانتشبت بينهم العداوة والبغضاء وتوقَّدت نيران الحرب، ثم إن رجلًا منهم رأى فيما يرى النائم كأنه قد رجع إلى بلده الذي خرج منه، وأن أهل تلك المدينة لما سمعوا بمجيئه استبشروا، واستقبله خارج تلك المدينة أقرباؤه فرأوه قد غيَّره السفر والغربة، فكرهوا أن يدخل المدينة على تلك الحال، وكان على باب المدينة عينٌ من الماء فغسلوه وحلقوا شعره وقصُّوا أظافيره وألبسوه الجدد وبخَّروه وزيَّنوه وحملوه على دابة وأدخلوه المدينة، فلما رآه أهل تلك المدينة استبشروا به وجعلوا يسألونه عن أصحابه وسفرهم وما فعل الدهر بهم، وأجلسوه في صدر المجلس في المدينة، واجتمعوا حواليه يتعجَّبون منه ومن رجوعه بعد اليأس منه، وهو فرحان بهم وبما نجَّاه الله عز وجل من تلك الغربة وذلك الغرق، ومن صحبته تلك القرود وتلك العيشة النكدة، وهو يظن أن ذلك كله يراه في اليقظة، فلما انتبه إذا هو في ذلك المكان بين أولئك القرود، فأصبح حزينًا منكسر البال زاهدًا في ذلك المكان مغتمًّا متفكرًا راغبًا في الرجوع إلى بلده، فقصَّ رؤياه على أخ له فتذكر ذلك الأخ ما أنساه الدهر من حال بلدهما وأقاربهما وأهاليهما والنعيم الذي كانوا فيه، فتشاوروا فيما بينهم وأجالوا الرأي وقالوا: كيف السبيل إلى الرجوع؟ وكيف النجاة من هنا؟ فوقع في فكرهما وجه الحيلة بأنهما يتعاونان ويجمعان من خشب تلك الجزيرة ويبنيان مركبًا في البحر ويرجعان إلى بلدهما، فتعاقدا على ذلك بينهما عهدًا وميثاقًا ألَّا يتخاذلا ولا يتكاسلا، بل يجتهدا اجتهاد رجل واحد فيما عزما عليه، ثم فكَّرا أنه لو كان رجل آخر معهما لكان أعون لهما على ذلك، وكلما زاد عددهما يكون أبلغ في الوصول إلى مطلبهم ومقصدهم فجعلوا يذكِّرون إخوانهم أمر بلدهم، ويرغِّبونهم في الرجوع ويزهِّدونهم في السكون هناك، حتى التأم جماعة من أولئك القوم على أن يبنوا سفينة يركبوا فيها ويرجعوا إلى بلدهم،

فبينا هم في ذلك دائبون في قطع الأشجار ونشر الخشب لبناء تلك السفينة؛ إذ جاء ذلك الطير الذي كان يختطف القرود فاختطف منهم رجلًا وطار به في الهواء ليأكله، فلما أمعن في طيرانه تأمله فإذا هو ليس من القرود التي اعتاد أكلها، فمر به طائرًا حتى مر به على رأس مدينته التي خرج منها فألقاه على سطح بيته وخلَّاه، فلما تأمل ذلك الرجل إذا هو في بلده ومنزله وأهله وأقربائه، فجعل يتمنى لو أن ذلك الطير يمر في كل يوم ويختطف منهم واحدًا ويلقيه إلى بلده كما فعل به، وأما أولئك القوم بعدما اختطفه الطير من بينهم جعلوا يبكون عليه محزونين على فراقه؛ لأنهم لا يدرون ما فعل الطير به، ولو أنهم علموا بحاله وما صار إليه لتمنوا ما تمنى لهم أخوهم.

فهكذا ينبغي أن يكون اعتقاد إخوان الصفاء فيمن قد سبقته المنية قبل صاحبه؛ لأن الدنيا تشبه تلك الجزيرة وأهلها يشبهون تلك القردة، ومثل الموت كمثل ذلك الطير، ومثل أولياء الله كمثل القوم الذين كُسِر بهم المركب، ومثل دار الآخرة كمثل تلك المدينة التي خرجوا منها؛ فهذا اعتقاد إخواننا الكرام في معاونتهم في الدنيا وما يعتقدون فيمن سبقته المنية قبل إخوانه.

فانتبه أيها الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، فإن الدنيا دار غرور ومحن، ولا يرغب العاقل الخلود في دار الحزن والبلاء، وفَّقك الله وإيانا وجميع إخواننا إلى السداد، وهداك وإيانا وجميع إخواننا سبيل الرشاد.

(تمت رسالة في بيان اعتقاد إخوان الصفاء ومذهب الربانيين، ويليها رسالة في كيفية عِشْرة إخوان الصفاء وتعاوُن بعضهم مع بعض.)

الرسالة الرابعة

من العلوم الناموسية والشرعية في كيفية معاشرة إخوان الصفاء
وتعاوُن بعضهم مع بعض وصِدْق الشفقة والمودة
في الدين والدنيا جميعًا

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنه ينبغي لإخواننا، أيَّدهم الله حيث كانوا من البلاد، أن يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه في أوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم، يتذاكرون فيه علومهم ويتحاورون فيه أسرارهم. وينبغي أن تكون مذاكرتهم أكثرها في علم النفس والحس والمحسوس والعقل والمعقول، والنظر والبحث عن أسرار الكتب الإلهية والتنزيلات النبوية ومعاني ما تضمنها موضوعات الشريعة، وينبغي أيضًا أن يتذاكروا العلوم الرياضيات الأربعة؛ أعني العدد والهندسة والتنجيم والتأليف، وأما أكثر عنايتهم وقصدهم فينبغي أن يكون البحث عن العلوم الإلهية التي هي الغرض الأقصى.

وبالجملة ينبغي لإخواننا، أيَّدهم الله تعالى، ألَّا يعادوا علمًا من العلوم أو يهجروا كتابًا من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب؛ لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها؛ وذلك أنه هو النظر في جميع الموجودات بأسرها، الحسية والعقلية؛ من أولها إلى آخرها، ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، بعين الحقيقة من حيث هي كلها من مبدأ واحد وعلة واحدة وعالم واحد ونفس واحدة محيطة جواهرها المختلفة وأجناسها المتباينة وأنواعها المفننة وجزئياتها المتغايرة.

وقد ذكرنا في الرسالة الثانية أن علومنا مأخوذة من أربع كتب: أحدها الكتب المصنفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة من الرياضيات والطبيعيات، والآخر الكتب المنزلة التي جاءت بها الأنبياء، صلوات الله عليهم، مثل التوراة والإنجيل والفرقان وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة وما فيها من الأسرار الخفية، والثالث الكتب الطبيعية وهي صور أشكال الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب ومقادير أجرامها وتصاريف الزمان واستحالة الأركان وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات وأصناف المصنوعات على أيدي البشر، كل هذه صور وكنايات دالات على معاني لطيفة وأسرار دقيقة يرى الناس ظاهرها ولا يعرفون معاني بواطنها من لطيف صفة الباري، جل ثناؤه.

والنوع الرابع: الكتب الإلهية التي لا يمسها إلا المطهَّرون: الملائكة التي هي بأيدي سفرة كرام بررة، وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها وجزئياتها وتصاريفها للأجسام وتحريكها لها وتدبيرها إياها وتحكُّمها عليها، وإظهار أفعالها بها ومنها حالًا بعد حال، في ممر الزمان وأوقات القرانات والأدوار، وانحطاط بعضها تارةً إلى قعر الأجسام، وارتفاع بعضها تارةً من ظلمات الجثمان، وانبعاثها من نوم الغفلة والنسيان، وحشرها إلى الحساب والميزان، وجوازها على الصراط ووصولها إلى الجنان، أو حبسها في دركات الهاوية والنيران، أو مُكْثها في البرزخ أو وقوفها على الأعراف، كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ وهم الرجال الذين في بيوت أَذِن الله أن تُرْفَع ويُذْكَر فيها اسمه لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. وهذا حال إخواننا الفضلاء الكرام، فاقتدوا بهم أيها الإخوان تكونوا مثلهم. وقد بيَّنَّا في رسائلنا كل ما يحتاج إليه إخواننا من أهل هذه العلوم.

(١) فصل في ماذا ينبغي لإخواننا أيَّدهم الله إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقًا

وينبغي لإخواننا، أيَّدهم الله، حيث كانوا في البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقًا مجددًا أو أخًا مستأنفًا أن يعتبر أحواله ويتعرَّف أخباره ويجرِّب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده؛ ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودَّة وحقيقة الأخوة أم لا؟ لأن في الناس أقوامًا طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال وعاداتهم رديئة مفسدة ومذاهبهم مختلفة جائرة، فمنهم خيِّر وشرير، وكفور وشكور، وذو أمانة وغدَّار، وحليم وسفيه، وسخي

وبخيل، وشجاع وجبان، وحسود وودود، وفاجر وعفيف، وجزوع وصبور، وشرِه وقنوع، وسلِس وشرِس، وفظ غليظ ولطيف رقيق، وعاقل وأحمق، وعالم وجاهل، ومحب ومبغض، وموافق ومخالف، ومنافق ومخلص، وناصح وغاش، ومتكبر ومتواضع، وعدو وصديق، ومؤمن وزنديق، وعارف ومنكر، ومقبل ومدبِر، وما شاكَل هذه الأخلاق المحمودة والمذمومة مضادات بعضها لبعض.

واعلم أن شر هذه الطوائف كلها مَنْ لا يؤمن بيوم الحساب، وشر الأخلاق: كبر إبليس، وحرص آدم، وحسد قابيل، وهي أمهات المعاصي.

واعلم أن الناس مطبوعون على أخلاقهم بحسب اختلاف تركيب مزاج أجسادهم وبحسب اختلاف أشكال الفلك في أصل مواليدهم. وقد بيَّنَّا في رسالة الأخلاق هذا بشرحه.

واعلم أن من الناس مَنْ هو مطبوع على خلق واحد أو عدة من أخلاق محمودة ومذمومة، وأن العادات الرديئة تقوِّي الأخلاق الرديئة، والعادات الجميلة تقوِّي الأخلاق المحمودة، وهكذا حكم الآراء والاعتقادات، فإن من الناس مَنْ يرى ويعتقد في دينه ومذهبه أنه حلال له سفك دم كل مخالف له في مذهبه مثل اليهود والخوارج وكل مَنْ يكفر بالرب.

ومن الناس مَنْ يرى ويعتقد في دينه ومذهبه الرحمة والشفقة للناس كلهم ويرثي للمذنبين ويستغفر لهم، ويتحنَّن على كل ذي روح من الحيوان ويريد الصلاح للكل، وهذا مذهب الأبرار والزهاد والصالحين من المؤمنين، وهكذا مذاهب إخواننا الكرام.

(٢) فصل في كيف يجب أن يكون الصديق

فينبغي لك إذا أردت أن تتخذ صديقًا أو أخًا أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير، والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس، وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشرى المماليك والأمتعة التي يشترونها.

واعلم أن الخطْب في اتخاذ الإخوان أجلُّ وأعظم خطرًا من هذه كلها؛ لأن إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعًا، وهم أعز من الكبريت الأحمر، وإذا وجدت منهم واحدًا فتمسك به فإنه قُرَّة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة؛ لأن إخوان الصدق نصرة على دفع الأعداء وزين عند الأخلَّاء وأركان يُعتمد عليهم عند الشدائد والبلوى، وظهر يستند إليهم عند المكاره في السراء والضراء، وكنز مذخور ليوم الحاجة وجناح خافض عند المهمات، وسُلَّم للصعود إلى المعالي، ووسيلة إلى القلوب عند طلب

الشفاعات، وحصن حصين يُلْتَجَأ إليه يوم الروع والفزعات، فإن غبت حفظوك، وإن تضعضعت عضدوك، وإن رأوا عدوًّا لك قمعوه، والواحد منهم كالشجرة المباركة تدلَّت أغصانها إليك بثمرها وأظلَّتك أوراقها بطيب رائحتها وسترتك بجميل فيئها، فإن ذكرت أعانك وإن نسيت ذكَّرك، يأمرك بالبر ويسابقك إليه، ويرغِّبك في الخير ويبادرك إليه، ويدلك عليه ويبذل ماله ونفسه دونك.

فإذا أسعدك الله يا أخي بمن هذه صفته فابذل له نفسك ومالك، وقِ عرضه بعرضك، وافرش له جناحك، وأَوْدِعْه سرك، وشاوره في أمرك، وداوِ برؤيته عينك، واجعل أُنْسَك إذا غاب عنك ذكره والفكر في أمره، وإنْ هفا هفوةً فاغفر له، وإن زلَّ زلَّة فصغِّرها عنده ولا توحشه فيخاف من حقدك، واذكر من سالف إحسانه عند إساءته ليأنس بك ويأمن غائلتك؛ فإن ذلك أسْلَم لوده وأدْوَم لإخائه.

(٣) فصل في أن من الناس من لا يصلح للصداقة

واعلم يا أخي أن من الناس مَنْ لا يصلح للصداقة والأخوَّة والمقاربة أصلًا البتة، فانظر مَنْ تصحب وتعاشر، ولا تغترَّ بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها، ولا بحلاوة العاجل من قبل النظر في مرارة عاقبتها، فإذا أردت اتخاذ أخ أو صديق فاعتبر أولًا أحواله واختبر أخلاقه وسلْه عن مذهبه واعتقاده، وانظر في عاداته وسجيَّته وشمائله وحركاته، فإنه لا يخفى على المتفرس بواطن الأمور إذا نظر إلى ظواهرها.

واعلم بأن من الناس مَنْ يتشكل بشكل الصديق ويدلِّس عليك بشبه الموافق ويُظْهر لك المحبة وخلافها في صدره وضميره؛ فلا تغترَّ أو تتيقَّن.

واعلم أن أعمال الناس في ظاهر أمورهم تكون بحسب أخلاقهم التي طُبِعوا عليها وبحسب عاداتهم التي نشئوا عليها، أو بحسب آرائهم التي اعتقدوها، فإذا رأيت الرجل معجبًا صلفًا، أو نكدًا لجوجًا، أو فظًّا غليظًا، أو مُمَاحِكًا مماريًا، أو حسودًا حقودًا، أو منافقًا مرائيًا، أو بخيلًا شحيحًا، أو جبانًا مهينًا، أو مكَّارًا غدرًا، أو متكبرًا جبارًا، أو حريصًا شرهًا، أو كان محبًّا للمدح والثناء أكثر مما يستحق، أو كان مزريًا لنظرائه أو كان مستحقرًا لأقرانه والناس ذامًّا لهم، أو متكلًا على حَوْلِه وقوَّته؛ فاعلم أنه لا يصلُح للصداقة وصفوة الأخوة؛ لأن هذه الأخلاق والآراء والعادات مفسدة لاعتقاده لإخوانه؛ وذلك

أن مَنْ يختر المطالبة بما لا يجب له لا تسمح نفسه ببذل ما يجب عليه، وهكذا الحسود واللجوج والغضوب تمنعه هذه الأخلاق عن الإذعان للحق، وهكذا اللجاج والتكبر يمنعان عن قطع الجدال والخلاف، وكذلك الفظاظة والغلظة يمنعان من العذوبة والسهولة، والشراسة والغضب يهيجان على المكابرة.

وبالجملة كل هذه الأخلاق مفسِدة للمودة ومخالِفة لصفوة الأخوة مستثقلة للنفوس وموحشة للأُنْس والراحة ومنفِّرة لإلْف الطباع ومنغِّصة للعيش ومبغِّضة للحياة.

واعلم أن الصداقة لا تتمُّ بين مختلفين بالطبع؛ لأن الضدين لا يجتمعان، مثال ذلك السخي والبخيل فإنهما متضادان في الطبع فلا تتمُّ بينهما الصداقة ولا تصفو لهما المودَّة ولا يهنيهما العيش؛ لأنه إذا فعل السخي شيئًا مما يوجبه سخاؤه من بذل المال أو المعروف رآه البخيل بصورة المضيع قد فعل ما لا ينبغي ولا يجوز، وإذا فعل البخيل بطبعه شيئًا من إمساك المال مما يوجبه بخله رآه السخي بصورة مَنْ قد أتى منكرًا لا يحسن فعله، فيصير ذلك سببًا لعيب كل واحد منهما على صاحبه حتى يعتقد البخيل في السخي سُخْف الرأي وتضييع المال وترك النظر في العواقب، ويعتقد السخي في البخيل النذالة والدناءة وصغر النفس وقصور الهمة، فإذا وقع بينهما ودام صارت وحشة وتواترت حتى تصير عداوة وتصير العداوة إلى الصرامة.

وهذا القياس في كل خلقين مختلفين متضادين فإنهما يوجبان المنازعة، والمنازعة توجب المغالبة، والمغالبة تنتج المغايظة، والمغايظة توجب المباغضة، والمباغضة ضد الصداقة.

(٤) فصل في أن مَثَل اتخاذ الأصدقاء والإخوان كمَثَل اكتساب المال والذخائر

واعلم أن مَثَل اتخاذ الأصدقاء والإخوان كمثَل اكتساب المال والذخائر؛ وذلك أن من الناس مَنْ يُفنِي عمره في طلب صديق موافق فلا يجد، فمثله كمثل الذي يُفني عمره في طلب جمع المال فلا يقدر عليه، ومنهم مَنْ يكون مرزوقًا من كثرة المال، ومنهم مَنْ يحسن أن يكسب المال ولكن لا يحسن أن يحفظه، فهكذا حكم اتخاذ الإخوان والأصدقاء، ومنهم مَنْ لا يحسن حفظهم ومراعاة أمورهم فيصيرون إلى العداوة بعد الصداقة، وإلى المباغضة بعد المودَّة.

فينبغي لك أن يكون أكثر كدك وعنايتك — بعد اتخاذ الصديق — حفظه ومراعاة أمره وأداء حقوقه حتى لا تصير الصداقة عداوة بعد طول الصحبة بملالة أو ضجر أو

شكوك أو ظنون أو شبهة تدخل في المودَّة أو نميمة ووشاية من مخالف له يسعى بينكما للفساد؛ فتفقَّد يا أخي هذا الباب ولا تغفل عنه.

واعلم يا أخي أن الإنسان كثير التلوُّن قليل الثبات على حال واحد؛ وذلك أنه قلَّ من الناس مَنْ تحدُث له حال من أحوال الدنيا، أو أمر من أمورها من غِنًى إلى فقر، أو من فقر إلى غنًى، أو من حضر إلى سفر، أو من عذوبة إلى تزويج، أو من ذل إلى عز، أو من عطلة إلى شغل، أو من بؤس إلى نعمة، أو من رفعة إلى ضعة، أو من ضعة إلى رفعة، أو من صناعة إلى تجارة، أو من صحبة قوم إلى صحبة آخرين، أو من رأي مذهب إلى مذهب، أو من شباب إلى شيخوخة، أو من صحة إلى مرض؛ إلا ويحدث له خلق جديد وسجيَّة أخرى، ويتغيَّر خلقه مع إخوانه، ويتلوَّن مع أصدقائه، إلا إخوان الصفا الذين ليست صداقتهم خارجة من ذاتهم؛ وذلك أن كل صداقة تكون لسبب ما، فإذا انقطع ذلك السبب بطلت تلك الصداقة إلا صداقة إخوان الصفاء، فإن صداقتهم قرابة رحِم، ورحِمهم أن يعيش بعضهم لبعض ويرث بعضهم بعضًا؛ وذلك أنهم يرون ويعتقدون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة، فكيف ما تغيَّرت حال الأجساد بحقيقتها فالنفس لا تتغيَّر ولا تتبدَّل كما قال القائل:

وفي الجسم نفْس لا تشيب بشيبه ... ولو أن ما في الوجه منه خراب
لها ظفر إن كَلَّ ظفر أُعِدُّه ... ونابٌ إذا لم يبقَ في الفم ناب
يُغيِّر مني الدهر ما شاء غيرها ... فأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

وخصلة أخرى: أن أحدهم إذا أحسن إلى أخيه إحسانًا فلا يمنَّ عليه به؛ لأنه يرى ويعتقد أن إحسانه إلى نفسه. وإن أساء إليه أخوه لم يستوحش منه؛ لأنه يرى أن ذلك كان منه إليه، فمن اعتقد في أخيه مثل هذا واعتقد أخوه فيه مثل ذلك فقد أمن كل واحد من أخيه غائلته أن يتغير عليه في يوم من الأيام بسبب من الأسباب أو بوجه من الوجوه.

(٥) فصل في كيفية الاحتفاظ بالصديق

فينبغي إذا ظفرت بواحد منهم أن تختاره على جميع أصدقائك وأقربائك وعشيرتك وجيرانك الذين نشأت معهم فإنه خير لك من ولدك الذي من ظهرك، وأخيك من صلب

أبيك، ومن زوجتك التي جعلت كل كسبك لها وجميع سعيك من أجلها، فاعرف حقه كما تعرف حقوقهم، بل ينبغي أن تؤثِره عليهم كلهم؛ لأن هؤلاء يحبونك من أجل منفعة تصل منك إليهم، ويريدونك من أجل مضرة تدفعها عنهم، فإذا استغنوا عنك زهدوا فيك ورغبوا في غيرك وخذلوك أحوج ما تكون إليهم، فأما هذا الأخ فليس يريدك من أجل شيء خارج عن ذلك، بل من أجل أنه يرى ويعتقد أنك إياه وهو إياك نفس واحدة في جسدين متقابلين، يسرُّه ما يسرُّك ويغمُّه ما يغمُّك، يريد لك منه مثل الذي تريد له منك. واعلم أن قلوب الأخيار صافية؛ لأن نفوسهم طاهرة، ولا تخفى عليهم خفيات الأمور؛ لأنها تتراءى فيها كما تتراءى في أعين البُصَراء ظواهر كليات الأمور، فلا تضمرنَّ لإخوانك الأصفياء خلاف ما تُظْهِر لهم، فإن ذلك لا يخفى عليهم ولا ينكتم عليهم منك.

فصل

واعلم بأن خير شيء يُرْزَقه الإنسان السعادة، وأن السعادات نوعان: داخل وخارج، فالذي هو داخل نوعان: أحدهما في الجسد والآخر في النفس، فالذي في الجسد كالصحة والجمال، والذي في النفس كالذكاء وحسن الخلق، والذي من خارج نوعان: أحدهما ملك اليد كالمال ومتاع الدنيا، والآخر الأقران من أبناء الجنس كالزوجة والصديق والولد والأخ والأستاذ والمعلم والصاحب والسلطان والرئيس، فمن أسعد السعادات أن يتفق لك يا أخي معلم رشيد عالم عارف بحقائق الأشياء والأمور، مؤمن بيوم الحساب، عالم بأحكام الدين، بصير بأمور الآخرة، خبير بأحوال المعاد، مرشد لك إليها، ومن أنحس المناحس أن يكون لك ضد ذلك.

واعلم أن المعلم والأستاذ أبٌ لنفسك وسبب لنشوئها وعلة حياتها، كما أن والدك أب لجسدك وكان سببًا لوجوده؛ وذلك أن والدك أعطاك صورة جسدانية، ومعلمك أعطاك صورة روحانية؛ وذلك أن المعلم يغذي نفسك بالعلوم ويربِّيها بالمعارف ويهديها طريق النعيم واللذة والسرور والأبدية والراحة السرمدية، كما أن أباك كان سببًا لكون جسدك في دار الدنيا ومربيك ومرشدك إلى طلب المعاش فيها التي هي دار الفناء والتغير والسيلان ساعة بساعة، فسلْ يا أخي ربك أن يوفق لك معلمًا رشيدًا هاديًا سديدًا، واشكر الله على نعمائه السابغة.

(٦) فصل في أن في الناموس أقوامًا يتشبَّهون بأهل العلم

واعلم أن في الناموس أقوامًا يتشبَّهون بأهل العلم ويتدلَّسون بأهل الدين، لا الفلسفة يعرفونها ولا الشريعة يحققونها، ويدَّعون مع هذا معرفة حقائق الأشياء ويتعاطون النظر في خفيات الأمور الغامضة البعيدة، وهم لا يعرفون أنفسهم التي هي أقرب الأشياء إليهم، ولا يميزون الأمور الجلية ولا يتفكرون في الموجودات الظاهرة المدرَكة بالحواس المشهورة في العقول، ثم ينظرون في الطفرة والقلقة والجزء الذي لا يتجزأ وما شاكلها من المسائل في الأمور المتوهمة التي لا حقيقة لها في الهيولى، وهم شاكُّون في الأشياء الظاهرة الجلية، ويدَّعون فيها المحالات بالمكابرة في الكلام والحجاج في الجدل، مثل دعواهم أن قُطْرَ المربع مساوٍ لأحد أضلاعه، وأن النار لا تحرق، وأن شعاع البصر جسم يبلغ في طرفة العين إلى فلك الكواكب، وأن علم النجوم باطل، وما شاكل ذلك من الزور والبهتان، فاحذرهم يا أخي فإنهم الدجالون الذلقو الألسن العميان القلوب الشاكُّون في الحقائق الضالون عن الصواب.

واعلم أنهم محنة على العلماء، كذَّابون على الأنبياء عليهم السلام، ينتحلون ولا يتحققون، ويدعون ما لا يعرفون، ويتكلَّمون فيما لا يحسنون، وما هم إلا كما وصفهم رب العالمين جل اسمه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ يهيمون في أودية ما يتوهمون، ويقولون ما لا يفعلون ولا يعلمون.

أعاذنا الله وإياك أيها الأخ ممن فيه هذه الصفات الذميمة ومن شرهم؛ فإنهم أعداء فاحذرهم.

(٧) فصل في أن من سعادة الإنسان أن يتفق له معلم ذكي

واعلم أيها الأخ أن من سعادتك أيضًا أن يتفق لك معلم ذكي جيد الطبع حسن الخلق صافي الذهن محب للعلم طالب للحق غير متعصب لرأي من المذاهب.

واعلم أن مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد من الآراء كمثَل ورق أبيض نقي لم يُكْتَب فيه شيء، فإذا كُتِب فيه شيء حقًّا كان أم باطلًا فقد شغل المكان ومنع أن يُكتب فيه شيء آخر ويصعب حكُّه أو محوه.

فهكذا حكم أفكار النفوس إذا سبق إليها علم من العلوم واعتقاد من الآراء أو عادة من العادات تمكَّن فيها حقًّا كان أو باطلًا ويصعب قلعها ومحوها كما قال القائل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغًا فتمكَّنا

فإذا كان الأمر كما وصفت فينبغي لك أيها الأخ ألَّا تشتغل بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا من الصبا آراء فاسدة وعادات رديئة وأخلاقًا وحشة؛ فإنهم يتعبونك ثم لا ينصلحون، وإن صلحوا قليلًا قليلًا فلا يُفلحون.

ولكن عليك بالشباب السالمي الصدور الراغبين في الآداب، المبتدئين بالنظر في العلوم، المريدين طريق الحق والدار الآخرة، والمؤمنين بيوم الحساب، المستعملين شرائع الأنبياء عليهم السلام، الباحثين عن أسرار كتبهم، التاركين الهوى والجدل غير متعصبين على المذاهب.

واعلم أن الله تعالى ما بعث نبيًّا إلا وهو شاب، ولا أعطى لعبد حكمة إلا وهو شاب، كما ذكرهم ومدحهم فقال عز اسمه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، وقال تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، وقال أيضًا، عز وجل: ﴿قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾.

واعلم أن كل نبي بعثه الله فأول مَنْ كذَّبه مشايخ قومه المتعاطون الفلسفة والنظر والجدل، كما وصفهم تعالى فقال: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ❋ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

(٨) فصل في أن مواهب الله كثيرة لا يُحصَى عددها

واعلم أن مواهب الله جل اسمه، كثيرة لا يُحْصَى عددها، ولكن يجمعها جنسان، تحت كل جنس أنواع كثيرة: أحدهما قنية جسدانية والآخر قنية نفسانية.

فمن القنية الجسدانية أحدها المال، ومن القنية النفسانية أحدها العلم، والناس في هاتين النعمتين العظيمتين على منازل أربع: فمنهم مَنْ قد رُزِق الحظ من المال والعلم جميعًا، ومنهم مَنْ قد حُرِمهما جميعًا، ومنهم مَنْ رُزِق المال ولم يُرْزَق العلم، ومنهم مَنْ رُزِق العلم ولم يُرْزَق المال.

فينبغي لإخواننا — ممن قد رُزِق المال والعلم جميعًا — أن يؤدي شكر ما أنعم الله جل وعز، به عليه بأن يضمَّ إليه أخًا من إخوانه ممن قد حرمهما جميعًا ويواسيه من

فضل ما أتاه الله تعالى من المال؛ ليقيم به حياة جسده في دار الدنيا، ويرقده ويُعْلمه من علمه لتحيا به نفسه للبقاء في دار الآخرة، فإن ذلك من أقرب القربات إلى الله، وأبلغ لطلب مرضاته.

ولا ينبغي له أن يمنَّ عليه بما ينفق عليه من المال ولا يستحقره، ويعلم أن الذي حرم أخاه هو الذي أعطاه، وكما أنه لا يمن على ابنٍ له جسداني فيما يربيه وينفقه عليه من ماله ويورثه ما جمعه من المال بعد وفاته، كذلك لا يجب أن يمنَّ على ابنه النفساني؛ لأنه إن كان ذلك ابنه الجسداني فهذا ابنه النفساني، كما رُوِي أن النبي ﷺ قال لعلي، عليه السلام: «أنا وأنت أبوا هذه الأمة.» وقال ﷺ: «المؤمن أخو المؤمن من أبيه وأمه.» وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وقال عز وجل لنوح عليه السلام، حيث قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ قال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فبيَّن أن النسب الجسداني لا ينفع في الآخرة.

ولهذا المعنى قال المسيح عليه السلام، للحواريين: «جئت من عند أبي وأبيكم.» وقال الله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فهذه الأبوة نفسانية لا ينقطع نسبها كما قال النبي عليه السلام: «كل نسب ينقطع يوم القيامة إلا نسبي.» وقال: «يا بني هاشم لا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، فإني لا أُغْنِي عنكم من الله شيئًا.» إنما أراد النسبة الجسدانية؛ لأنها تنقطع إذا اضمحلَّت الأجسام وبقيت النسبة النفسانية؛ لأن جواهر النفوس باقية بعد فراق الأجساد وإن كان يظن أن ابنه الجسداني يحيي ذكره بعد موته؛ فهذا أيضًا إن عاش أحيا ذكره في مجلس العلماء ومحاضر أهل الخير إذا نشر علمه، ويتوجَّه إليه ويترحَّم عليه كلما ذكره، كما نذكر نحن معلمينا وأستاذينا أكثر مما نذكر آباءنا الجسدانيين ونترحَّم على آبائنا، وإن كان يظن أن ذلك الابن الجسداني ربما ينفعه إذا كبر ويعينه على أمور الدنيا.

فهذا ربما بلغ في العلم والحكمة والخير والمرتبة عند الله تعالى أن يشفع بعلمه لمعلمه فينجو بشفاعته وهو لا يدري كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ﴾.

وأما مَنْ رُزِق المال ولم يُرْزَق من العلم من إخواننا فينبغي له أن يطلب أخًا ممن قد رُزِق العلم ويضمه إليه ويواسيه هذا من ماله، ويُرْفِده هذا من علمه، ويتعاونان جميعًا على إصلاح أمر الدين والدنيا، وينبغي للأخ ذي المال ألَّا يمنَّ على الأخ ذي العلم بما يواسيه من

ماله ولا يحتقره لفقره؛ لأن المال قنية جسدانية تقام بها حياة الجسد في دار الدنيا، والعلم قنية نفسانية تقام بها حياة النفس في دار الآخرة، وجوهر النفس خير من جوهر الجسد، وحياة النفس خير من حياة الجسد؛ لأن حياة الجسد إلى مدةٍ ما ثم تنقطع وتضمحل، وحياة النفس في الدار الآخرة تبقى مؤيدًا كما ذكر الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾، وينبغي للأخ ذي العلم والحكم ألَّا يحسد أخًا ذا مال له، ولا يستحقره لجهله، ولا يفتخر عليه بعلمه، ولا يطلب منه عوضًا فيما يعلمه؛ لأن مثلهما في صحبتهما وتعاوُنهما، هذا لهذا بماله وهذا لهذا بعلمه، كمثل اليد والرِّجْل في اتصالهما بالجسد وخدمتهما وتعاونهما في إصلاح الجملة؛ وذلك لأن اليدين لا تطلبان من الرِّجْلَين إذا احتذت لهما نعلًا أو أخرجت منهما شوكة جزاءً ولا شكورًا، وكذلك الرِّجْلان لا تطلبان من اليدين إذا بلَّغتاهما إلى الموضع الذي شاءتا وتستَّرتا وهربتا به من خوف القطع جزاءً ولا عوضًا؛ لأنهما آلات جسد واحد، وقوام إحداهما بالأخرى، وهكذا أيضًا السمع لا يمن على البصر إذا أسمعه النداء، ولا البصر يمن على السمع إذا أراه المنادي؛ لأنهما قوتان لنفس واحدة كلٌّ منهما صلاح للأخرى في تعاونهما في خدمة النفس وطاعتهما في إدراكها المحسوسات.

فهكذا ينبغي أن يكون تعاون إخوان الصفاء في طلب صلاح الدين والدنيا؛ وذلك أن معاونة الأخ ذي المال للأخ ذي العلم بماله ومعاونة الأخ ذي العلم للأخ ذي المال بعلمه في صلاح الدين كمثل رجلين اصطحبا في الطريق في مفازة: أحدهما بصير ضعيف البدن معه زاد ثقيل لا يطيق حمله، والآخر أعمى قوي البدن ليس معه زاد، فأخذ البصير بيد الأعمى يقوده خلفه، وأخذ الأعمى ثقل البصير فحمله على كتفه، وتواسيا بذلك الزاد وقطعا الطريق ونجوَا جميعًا، فليس لأحدهما أن يمنَّ على الآخر في إنجائه له من الهلكة في معاونته؛ لأنهما نجوَا جميعًا بمعاونة كل واحد منهما صاحبه، والمعاونة لا تكون إلا بين اثنين أو أكثر، والأخ الجاهل كالأعمى والأخ الفقير كالضعيف، والأخ الغني كالقوي والأخ العالم كالبصير، والطريق هي صحبة النفس مع الجسد، والمفازة هي الحياة الدنيا والنجاة هي حياة الآخرة.

فهكذا مثل إخواننا المتعاونين في صلاح الدنيا والدين.

وأما مَنْ رُزِق العلم ولم يُرْزَق المال ولا يجد مَنْ يواسيه بالمال من إخواننا فينبغي له أن يصبر وينتظر الفرج؛ فإنه لا بد أن يؤيده الله عز وجل بأمر أو بأخٍ يخفِّف عنه ما يحتمله من ثقل الفقر، كما وعد لأوليائه فقال عز من قائل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

وينبغي له أن يعلم أن الذي رُزِقَ من العلم خير من الذي حُرِم من المال؛ لأن العلم سبب لحياة النفس في دار الدنيا والآخرة جميعًا، والمال سبب لإقامة حياة الجسد في دار الدنيا فقط، وفضل ما بين النفس والجسد وشرف جوهرها وفضل حياتها وفضل ذاتها، فقد تقدَّم ذكره، وينبغي له أن يتفكر في الذي حُرِم من المال والعلم جميعًا ليعرف نعمة الله عليه ويشكره على كل حال؛ ليستوجب المزيد كما وعد الله تعالى فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وأما مَنْ ليس بذي مال ولا علم من إخواننا فهو الذي له نفس زكية جميلة الأخلاق سليم القلب من الآراء الفاسدة، محب للخير وأهله صابر راضٍ بما قسم الله له من ذلك، فينبغي أن يُعْلَمَ أن الذي أعطى من حسن الأخلاق وسلامة القلب ومحبة الخير والرضا بما قُسِم له خير من الذي مُنِعَ من المال والعلم؛ لأننا نجد في الناس مَنْ أُعْطِي العلم والمال أو أحدهما ولم يُرْزَق من هذه الخصال التي ذكرناها شيئًا؛ وذلك أنَّا نجد أقوامًا علماء متفلسفين يصنِّفون الكتب في تحسين الأخلاق، ويأمرون الناس بها وهم أسوأ الناس خلقًا، ونجد أقوامًا ليس لهم علم كثير وهم مهذبو الأخلاق كما وصفنا، فقد تبين أن حسن الخلق من مواهب الله تعالى كما قيل في الخبر: «قد فرغ الله من الخَلْقِ والخُلُقِ والرزق والأجل.» ومدح الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بحسن الخلق حين قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ وقد قيل في الخبر: «إن الإنسان بحسن الخلق يدرك في الجنة درجة الصائم.» لأن حسن الخلق من أخلاق الملائكة وشيمة أهل الجنة كما ذُكِر في القرآن: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وسوء الخلق من أخلاق الشياطين وأهل النار الذين يحسد بعضهم بعضًا ويتباغضون ويلعن بعضهم بعضًا كما ذكر الله تعالى في القرآن: كلما دخلَتْ أُمَّة لعنت أختها، وقالوا: لا مرحبًا بهم إنهم صَالُو النار. قالوا: بل أنتم لا مرحبًا بكم. وهم في العذاب مشتركون.

(٩) فصل في ترتيب نفوس إخوان الصفا

واعلم أن قوة نفوس إخواننا في هذا الأمر الذي نشير إليه ونحث عليه على أربع مراتب: أولها صفاء جوهر نفوسهم وجودة القبول وسرعة التصور، وهي مرتبة أرباب ذوي الصنائع في مدينتها التي ذكرناها في الرسالة الثانية، وهي القوة العاقلة المميزة لمعاني المحسوسات الواردة على القوة الناطقة بعد خمس عشرة سنة من مولد الجسد، وإلى

هذا أشار بقوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ وهم الذين نسميهم في مخاطبتنا ورسائلنا إخواننا الأبرار والرحماء.

وفوق هذه المرتبة مرتبة الرؤساء ذوي السياسات، وهي مراعاة الإخوان وسخاء النفس وإعطاء الفيض والشفقة والرحمة والتحنُّن على الإخوان، وهي القوة الحكمية الواردة على القوة العاقلة بعد ثلاثين سنة من مولد الجسد، وإليه أشار جل ذكره بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهم الذين نسميهم في رسائلنا إخواننا الأخيار والفضلاء.

والرتبة الثالثة فوق هذه وهي مرتبة الملوك ذوي السلطان والأمر والنهي والنصر والقيام بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق واللطف والمداراة في إصلاحه، وهي القوة الناموسية الواردة بعد مولد الجسد بأربعين سنة، وإليها أشار بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ وهم الذين نسميهم إخواننا الفضلاء الكرام.

والرابعة فوق هذه وهي التي ندعو إليها إخواننا كلهم في أي مرتبة كانوا، وهي التسليم وقبول التأييد ومشاهدة الحق عيانًا، وهي القوة الملكية الواردة بعد خمسين سنة من مولد الجسد، وهي الممهِّدة للمعاد والمفارقة للهيولى وعليها تنزل قوة المعراج، وبها تصعد إلى ملكوت السماء فتشاهد أحوال القيامة من البعث والنشر والحشر والحساب والميزان والجواز على الصراط والنجاة من النيران، ومجاورة الرحمن ذي الجلال والإكرام، وإلى هذه الرتبة أشار بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾، وإليها أشار إبراهيم عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾، وإليها أشار يوسف عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، وإليها أشار المسيح عليه السلام، بقوله للحواريين: «إني إذا فارقت هذا الهيكل فأنا واقف في الهواء عن يمين العرش بين يدي أبي وأبيكم أتشفَّع لكم، فاذهبوا إلى الملوك في الأطراف وادعوهم إلى الله تعالى، ولا تهابوهم فإني معكم حيث ما ذهبتم بالنصر والتأييد.» وأشار إليها نبينا محمد ﷺ: «إنكم تردون على الحوض غدًا.» وأحاديث مروية، كل هذه مشهورة عند أصحاب الحديث وإليها أشار سقراط بقوله يوم سُقي السم: «إني وإن كنت أفارقكم إخوانًا فضلاء؛ فإني ذاهب إلى إخوان كرام قد تقدَّمونا ...» في كلام طويل، وإليها أشار فيثاغورث في الرسالة

الذهبية في آخرها: «إنك إذا فعلت ما أوصيك عند مفارقة الجسد تبقى في الهواء غير عائد إلى الإنسية ولا قابل للموت.» وإليها أشار بلوهر ليوزاسف حين قال الملك لوزيره وكان من أهل هذه المقالة: «قل لي مَنْ أنت؟ فقال: من الذين يعرفون ملكوت السماء.» في حديث طويل، وإليها ندعو نحن إخواننا جميعًا والله يهدي مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم، وإليها أشار بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى وهي كل آية فيها صفة الجنان وأهلها ونعيمها.

(١٠) فصل في أن المطلوب من المدعوين إلى هذا الأمر أربعة أحوال

واعلم أن المطلوب من المدعوين إلى هذا الأمر أربعة أحوال: أولها الإقرار بحقيقة هذا الأمر، والثاني التصور لهذا الأمر بضروب الأمثال للوضوح والبيان، والثالث التصديق له بالضمير والاعتقاد، والرابع التحقيق له بالاجتهاد في الأعمال المشاكِلة لهذا الأمر، واعلم أن المُقِرَّ باللسان غير متصور له يكون مقلدًا، والمتصور له غير مصدق به يكون شاكًّا متحيرًا، والمصدِّق به غير المتحقق له بالاجتهاد بالعمل المشاكل لهذا الأمر يكون مقصرًا مفرطًا، والمكذِّب باللسان لهذا الأمر المُنْكِر له بقلبه يكون جاحدًا كافرًا، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾. واعلم أن المُقِرَّ لهذا الأمر بلسانه المتصور له بقلبه على حقيقته يجد من نفسه أربعة خصال لم يعرفها قبل ذلك: أحدها قوة النفس والنهوض من الجسد، والثاني النشاط في طلب الخلاص من الهيولى الذي هو جهنم النفوس، والثالث الرجاء والأمل بالفوز والنجاة عند مفارقة النفس الجسد، والرابع الثقة بالله واليقين بتمام الأمر وكماله.

(١١) فصل في أن كل مقر بهذا القرآن …

واعلم أن كل مقر بهذا القرآن وبكتب الأنبياء عليهم السلام وإخبارها عن الغيب فهم في ذلك على منازل أربع: إما مقر بلسانه غير مصدِّق بقلبه، أو مقر بلسانه ومصدق بقلبه غير عارف لمعانيه وبيانه، أو مقر ومصدِّق ومتبيِّن ولكن غير قائم بواجب حقه، فالمُقِرُّ بلسانه غير المصدق بقلبه هو الذي رُزِق من الفهم والتمييز قليلًا، فإذا فكَّر بعقله وميَّز ببصيرته ما يدل عليه ظاهر ألفاظ الكتب النبوية لا يقبله عقله؛ لأنه لا يتصور معانيها

اللطيفة وإشاراتها الخفية فينكره بقلبه ويشك فيه، وأما مَنْ أقرَّ بلسانه وصدَّق بقلبه — وهو الذي يتفكر ويعلم أن مثل هذا الأمر الجليل الذي قد اتفقت على تحقيقه الأنبياء والأئمة المهديون والخلفاء الراشدون وصالحو المؤمنين وأقرَّ به فضلاء الناس والمميزون المستبصرون — لا يجوز أن يكون ليس له حقيقة،[١] ولكن فهمه وتمييزه وعقله يقصر عن إدراكه وتصوره لها بحقائقها، وأما مَنْ قد عرف بيانه ولكن قصَّر في القيام بواجبه فهو الذي وفَّقه الله وأرشده واهتدى بحقائق هذه الأسرار المذكورة في كتب الأنبياء عليهم السلام ولكن لا يجد المعين له على القيام بنصرتها وواجب حقها؛ لأنه وحيد وليس كل أمر يتم بالوحدة، بل ربما يحتاج فيه إلى الجمع العظيم وخاصة أمر الناموس، فأقل ما يحتاج فيه إلى أربعين خصلة تجتمع في واحد من الأشخاص أو في أربعين شخصًا مؤتلفة القلوب.

(تمت رسالة كيفية عِشْرة إخوان الصفا، ويليها رسالة
في ماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحققين.)

[١] كذا في الأصل، ومفاده أن مجيئه على لسان الأنبياء وغيرهم من الحكماء يجعله أمرًا مقطوعًا به، أو يجعله أقرب ما يكون إلى الحقيقة، ومن غير الجائز أن يكون كذبًا، وفي الأصل ما فيه من تشويش.

الرسالة الخامسة

من العلوم الناموسية والشرعية في ماهية الإيمان
وخصال المؤمنين المحققين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن الله جل ثناؤه قد أكثر ذكر المؤمنين في القرآن والمدح والثناء الجميل عليهم، ووعدهم الثواب الجزيل في الدنيا والآخرة جميعًا، وهكذا أيضًا قد أكثر ذكر الكافرين وسوء الثناء عليهم والزجر والتهديد والوعيد في الدنيا والآخرة جميعًا، فنريد أن نُبيِّن مَن المؤمن حقًّا ومَنِ الكافر حقًّا؛ إذ كان هذا أمرًا قد التبس على كثير من أهل العلم حتى صار يكفِّر بعضهم بعضًا ويلعن بعضهم بعضًا بغير علم ولا بيان، ولكن من أجل أن كثيرًا من أهل العلم لا يعرفون الفرق بين العلم والإيمان احتجنا أن نبيِّن أولًا ما الفرق بينهما؛ وذلك أن كثيرًا من المتكلمين يسمون الإيمان علمًا، ويقولون: هو علم من طريق السمع، وما يُعْلَم بالقياس هو علم من طريق العقل، فنريد أن نُبيِّن أيما هو علم بالحقيقة؟ فنقول:

إن الحكماء قالوا: إن العلم هو تصور النفس رسوم المعلومات في ذاتها، فإذا كان العلم هو هذا فليس كلما يرد الخبر به من طريق السمع تتصوره النفس بحقيقته، فإذن لا يكون ذلك علمًا بل إيمانًا وإقرارًا وتصديقًا، ومن أجل هذا دعت الأنبياء أممها إلى الإقرار أولًا، ثم طالبوهم بالتصديق بعد البيان، ثم حثُّوهم على طلب المعارف الحقيقية،

والدليل على صحة ما قلنا قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، ولم يقل يعلمون بالغيب، ثم حثَّهم على طلب العلم بقوله: فاعتَبِروا يا أُولِي الألباب، ويا أُولِي الأبصار، ثم مدح فقال: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، وقال: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ فكفى بهذا فرقًا بين العلم والإيمان، فنريد أن نبيِّن شرائط الإيمان وصفات المؤمن؛ ليعلم كل إنسان هل هو مؤمن حقًّا أو شاك مرتاب؟ لأن المؤمنين هم ورثة الأنبياء وتلامذتهم، وأن الأنبياء لم يورثوا دراهم ودنانير، بل إنما ورَّثوا علمًا وعبادة، فمَنْ أخذ بهما فقد وفر حظًّا جزيلًا كما ذكر الله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

(١) فصل في أن نِعَم الله كثيرة على الخلق

واعلم يا أخي، أيَّدك الله، أن نعم الله كثيرة على الخلق لا يُحْصَى عددها، ولكن نذكر طرفًا مما يخص الإنسان، وهو نوعان: أحدهما من خارج الجسد؛ كالمال والقرين والولد ومتاع الدنيا أجمع. والآخر داخل؛ فهو نوعان: أحدهما في الجسد؛ كالصحة وحسن الصورة وكمال البنية والقوة والجَلَد وما شاكلها. والآخر في النفس، وهو نوعان: أحدهما حسن الخلق والآخر ذكاء النفس وصفاء جوهرها، وهي الأصل في جميع المعارف. واعلم يا أخي أن الناس كلهم في المعارف على أربع منازل: فمنهم مَنْ قد رُزِق العلم ولم يُرْزَق الإيمان، ومنهم مَنْ رُزِق الإيمان ولم يُرْزَق العلم، ومنهم قد وفر حظه منهما جميعًا، ومنهم مَنْ قد حُرِمهما جميعًا، وإليهم أشار بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فخبَّر بهذا عن أشرفهم في المعارف؛ إذ كان علم البعث والقيامة من أشرف العلوم.

وأما الذين أوتوا الإيمان ولم يُرْزَقوا العلم فهم طائفة من الناس المُقِرِّين بما في كتب الأنبياء عليهم السلام من أخبار البعث وأمر المبدأ والمعاد، وأحوال الملائكة ومقاماتهم، وحديث البعث والقيامة والحشر والنشر والحساب والميزان والصراط وجزاء الأعمال في النشأة الآخرة ونعيم الجنان، وما شاكلها من الأمور الغائبة عن الحواس البعيدة عن تصور الأوهام، وهم مع قلة علمهم ساكنة نفوسهم بما أخبرت به الأنبياء وما أشارت

إليه الحكماء من الثواب في المعاد ونعيم الجنان، ومصدقون لهم في السر والإعلان، راغبون فيها، طالبون لها، عاملون من أجلها، ولكنهم تاركون البحث عنها والكشف لها والنظر في حقائقها: كيف؟ وأين؟ ومتى؟ ولِمَ؟ وإليهم أشار بقوله: ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ لهم الأمن واليُمْن والأمان والإيمان.

وأما الذين رُزقوا حظًّا من العلم ولم يُرْزَقوا الإيمان فهم طائفة من الناس نظروا في كتب الفلاسفة والحكماء وبحثوا عنها، وارتاضوا بما فيها من الآداب مثل الهندسة والتنجيم والطب والمنطق والجدل والطبيعيات وما شاكلها، فأُعجبوا بها وتركوا النظر في كتب النواميس والتنزيلات النبوية والبحث عن أسرار الموضوعات الشرعية، والكشف عن خفيات الرموزات الناموسية، فعميت عليهم الأنباء فهم شاكُّون في حقائقها متحيِّرون في معرفة معانيها، جاهلون بلطيف أسرارها، غافلون عن عظيم شأنها، وإليهم أشار بقوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

وأما الذين حُرِموا العلم والإيمان جميعًا فهم طائفة من الذين أُتْرِفوا في هذه الحياة الدنيا، فهم مشغولون الليل والنهار في طلب شهواتها، مغرورون بعاجل حلاوات لذات نعيمها، تاركون لطلب الآداب معرِضون عن العلم وأهله، غافلون عن أمر الديانات وأحكام الشرائع ومفروضات السنن التي الغرض منها نجاة النفس وطلب الآخرة، وإليهم أشار بقوله: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقال: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وقال: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

فأما الذين أوتوا من العلم والإيمان حظًّا جزيلًا فهم إخواننا الفضلاء الكرام الأخيار الذين أشار إليهم بقوله: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، وقد أخبرنا عن مذهبهم وعرَّفناكم أخلاقهم، وبيَّنَّا آراءهم وأوضحنا أسرارهم في إحدى وخمسين رسالة عملناها في فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحِكَم.

فانظروا فيها أيها الإخوان الأبرار الرحماء فلعلكم توفَّقون لفهم معانيها بتأييد الله لكم وبروح منه، فتحيون حياة العلماء، وتعيشون عيش السعداء، وتهتدون إلى طريق ملكوت السماء، وتنظرون إلى الملأ الأعلى وتساقون إلى الجنة زُمرًا.

واعلم يا أخي أن المؤمنين درجاتهم متفاوتة الإيمان، كما أن العلماء متفاوتون في درجات العلوم؛ وذلك أن الإنسان لا يبلغ درجة في العلم إلا ويلوح له فوقها درجات لم يبلغها بعدُ، كما ذكر الله بقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فهو من أجل هذا يحتاج إلى الإقرار به والتصديق بقول مَنْ هو أعرف وأعلم منه.

وإذ قد بان من فضيلة العالم والمؤمن، وما العلم وما الإيمان بما تقدَّم؛ فنريد أن نذكر ماهية كل واحد منهما ونبيِّن كمِّيتهما وكيفيتهما فنقول:

إن العلم هو صورة المعلوم في نفس العالم، والإيمان هو التصديق لمن هو أعلم منك بما لا يخبرك عما لا تعلمه.

واعلم أنه رُبَّ صورة في نفس العالم ليس لها وجود في الهيولى فنحتاج أن تنظر في هذا الباب نظرًا شافيًا؛ فإن أكثر ما يُدْخِل الشبهة على العلماء من هذا الباب.

وأما الإيمان فهو التصديق للمخبِر فيما قال وأخبر عنه، ولكن رُبَّ مخبر بخلاف ما في نفسه فيكون كذَّابًا إن كان قاصدًا لذلك، ورُبَّ مصدق أيضًا لكذاب، وهذا أيضًا يحتاج إلى نظر شافٍ؛ لأن الشبهة تدخل على القائلين والمستمعين من هذا الباب، وقد بيَّنَّا طرفًا من هذه المعاني في رسائلنا المنطقيات.

(٢) فصل في أن الإيمان يورث العلم

واعلم يا أخي أن الإيمان يورث العلم؛ لأنه متقدِّم الوجود على العلم، ومن أجل هذا دعت الأنبياء عليهم السلام الأمم إلى الإقرار أولًا بما خبَّرتهم والتصديق بما كان غائبًا عنهم عن إدراك حواسهم وتصور أوهامهم، فإذا أقرُّوا بألسنتهم سمَّوهم عند ذلك المؤمنين، ثم طالبوهم بتصديق القلب كما ذكر الله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فإذا وقع التصديق بالقلب سمَّوهم الصدِّيقين، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

واعلم أن أول ما يبدأ بالإيمان — الذي هو التصديق من الأنبياء للملائكة بما يخبرونهم عما ليس في طاقة البشر — تصورها قبل إخبار الملائكة لهم كما قال الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخر الآية.

واعلم يا أخي أن الملائكة هم محتاجون إلى الإيمان؛ فهم متفاوتون في درجات العلوم كما أخبر عنهم فقال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾، وإن من أشرف الملائكة حملة العرش الذين هم في أعلى المقامات في العلوم، وهم أيضًا محتاجون إلى الإيمان كما أخبر عنهم فقال جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

واعلم أنك أيضًا محتاج إلى الإيمان والتصديق لقول المخبر لك الذي هو فوقك في العلم وأعلى منك في المعارف؛ لأنك إن لم تؤمن بما يخبرك به حُرِمْتَ أشرف العلوم وأجلَّ المعارف، وتعلم أنه ليس لك طريق إلى تصديق المخبر لك في أول الأمر إلا حسن الظن

بصدقه، ثم على ممر الأوقات تتبين لك حقيقة ذلك فلا تطلبه بالبرهان في أول الأمر، ولكن اجتهد في أن تتصور في فكرك ما تسمع بأذنك، ثم اطلب السبيل والبرهان بعد ذلك، ولا ترضَ بالتقليد إذا توسطت في العلم، ولا تطلب البرهان في أوله، ولكن هلمَّ بنا يا أخي إلى مجلس إخوان لك فضلاء وأصدقاء لك علماء وأودَّاء لك نصحاء؛ لتسمع أقاويلهم وترى شمائلهم وتقف على أسرارهم، وتتصور بصفاء جوهر نفسك ما تصوروا بصفاء جوهر نفوسهم، وتنظر بعين قلبك كما نظروا بعيون قلوبهم، وترى بنور عقلك ما رأوا بنور عقولهم، فلعلك أن تنتبه نفسك من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وتحيا بروح العلوم، وتعيش عيش السعداء وتوفَّق للصعود إلى ملكوت السماء؛ لتنظر إلى الملأ الأعلى، وتكون هناك بنفسك الزكية الطاهرة النقية الشفافة مسرورًا فرِحًا منعَّمًا ملتذًّا أبدًا، لا بجسدك الثقيل المظلم المستحيل الفاسد، وفقك الله أيها الأخ للصواب وهداك إلى الرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد.

(٣) فصل في ماهية الإيمان

اعلم يا أخي أن الله جل ثناؤه، إنما أكثر مدح المؤمنين في القرآن وجعل وعدهم في الآخرة وثوابهم الجنة؛ لأن الإيمان خصلة تجمع الخيرات البشرية كلها وفضائل الملائكة، وأيضًا أكثر ذمَّ الكافرين وجعل وعيدهم جهنم؛ لأن الكفر خصلة تجمع الشرور البشرية كلها ورذائل الشيطانية جميعًا، وقد بيَّنَّا ماهية الكفر ومَنِ الكافر بالحقيقة في رسالة الناموس، ونريد أن نذكر من شرائط الإيمان وخصال المؤمنين طرفًا؛ ليُعلَم ما الإيمان ويُعْرَف مَن المؤمن بالحقيقة.

اعلم يا أخي أن الإيمان يقال على نوعين: ظاهر وباطن، فالإيمان الظاهر هو الإقرار باللسان بخمسة أشياء: أحدها هو الإقرار بأن للعالم صانعًا واحدًا حيًّا قادرًا حكيمًا وهو خالق الخلق كلهم ومدبرهم لا شريك له في ذلك أحد، والثاني هو الإقرار بأن له ملائكة «هم» صفوة الله من خلقه، نصبهم لعبادته وخدمته، وجعلهم حَفَظَةً لعالمه، ووكل كل طائفة منها بضرب من تدبير خلائقه بما في السموات والأرض لا يعصون ما نهاهم عنه ويفعلون ما يؤمرون، والثالث الإقرار بأنه قد اصطفى طائفة من بني آدم وجعلهم واسطة بينهم وبينه الملائكة؛ ليتلقى الملائكة عن ربهم، ويلقون إلى بني آدم ما يتلقونه من الملائكة من الوحي والأنباء، والرابع الإقرار بأن هذه الأشياء التي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام من الوحي والأنباء باللغات المختلفة مأخوذة معانيها من الملائكة إلهامًا

ووحيًا، والخامس الإقرار بأن القيامة لا محالة كائنة، وهي النشأة الأخرى، وأن الخلق كلهم يُبْعَثون ويُحْشَرون ويحاسَبون ويثابون بما علموا من خير ومعروف ويجازون بما عملوا من شر ومنكر، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ وقال: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فهذا هو الإيمان الظاهر الذي دعت الأنبياء عليهم السلام الأمم المنكرة لهذه الأشياء إلى الإقرار به، وهو يؤخذ تلقينًا كما يتلقَّن الصغار من الكبار، والجهال من العلماء، الإقرار به.

وأما الإيمان الذي هو باطن فهو إضمار القلوب باليقين على تحقيق هذه الأشياء المُقِرِّ بها باللسان؛ فهذا هو حقيقة الإيمان.

وأما المؤمن في ظاهر هذا الأمر فهو المُقِرُّ بهذه الأشياء بلسانه المتميز من اليهود ومن النصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا، وبهذا الإقرار تجري عليه أحكام المسلمين من الصلاة والزكاة والحج والصوم وما شاكلها من مفروضات شريعة الإسلام وسنة المؤمنين.

وأما الذين مدحهم في كتبه ووعدهم الجنة فهم الذين يتيقَّنون بضمائر قلوبهم حقائق هذه الأشياء المُقَرِّ بها.

وأما الطريق إليه فهو بالتفكير والاعتبار والقيام بشرائطها وواجب حقها، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ الآية.

(٤) فصل في ماهية التوكل

فاعلم أن إحدى شرائط هذا الإيمان وخصال المؤمنين هو التوكل على الله كما قال: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقال لنبيه عليه السلام: ﴿تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ ونريد أن نبيِّن ما التوكل؟ ومَنِ المتوكل على الله بالحقيقة؟

اعلم يا أخي أن التوكل هو الاعتماد على الغير عند الحاجة بأن ينوب عنك فيها.

واعلم أنه إذا كان المتوكَّل عليه ثقة يكون قلب المتوكِّل عليه ساكنًا ونفسه مطمئنة، وإذا كان غير ثقة يكون قلب المتوكل غير ساكن ونفسه غير مطمئنة.

واعلم يا أخي أن الناس كلهم متوكلون، ولكن أكثر توكلهم على غير الله تعالى، من ذلك توكُّل الصبيان على آبائهم فيما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس وغيرهما

من الحاجات، فهم طول النهار مشغولون باللعب لا يفكرون في أمر المعاش، ولا يهمهم طلبه لاتكالهم على آبائهم، وقلوبهم ساكنة ونفوسهم هادئة ليقينهم بآبائهم.

وهكذا العبيد مشغولون بخدمة مواليهم، لا يفكرون في طلب المعاش اتكالًا على مواليهم فيما يحتاجون إليه.

وهكذا جنود السلطان وخدمه لا يفكرون في طلب المعاش اتكالًا على السلطان في أرزاقهم المفروضة لهم فهم مشغولون في خدمة سلطانهم.

وأما غير هؤلاء من الناس فهم طائفتان: الأغنياء والفقراء، فأما الأغنياء فاتكالهم على ذخائرهم وأموالهم وقلوبهم ساكنة ونفوسهم هادئة، ولكن الحرص والرغبة في الزيادة يحثانهم على الطلب، وهم في الطلب متوكلون على رأس أموالهم وصرفهم وحذقهم بالبيع والشراء في طلب الربح.

وأما الفقراء فهم الصناع والذين يعملون بأبدانهم واتكالهم على صناعتهم وقوة أبدانهم.

وأما المكديون[1] فاتكالهم على الناس في مواساتهم من فضل ما في أيديهم، فبهذا الاعتبار لا تجد أحدًا متوكلًا على الله حق التوكل إلا الأنبياء وصالح المؤمنين؛ وذلك أن الأنبياء قبل أن يوحى إليهم يكونون كأحد أبناء الدنيا في طلب المعيشة، حتى إذا جاءهم الوحي والنبوة تركوا طلب المعاش واشتغلوا بتبليغ الرسالة، وتوكلوا على الله فيما يحتاجون إليه من عَرَض هذه الدنيا، وتيقنوا به عز وجل واطمأنت نفوسهم؛ لأنهم يعلمون ويتيقَّنون بأن مرسلهم يكفيهم ما يحتاجون إليه في طاعتهم إذا اشتغلوا بخدمته، كما أن الملوك يكفون جنودهم ما يحتاجون إليه في طاعتهم لهم، وكما أن الموالي يكفون عبيدهم ما يحتاجون إليه في طاعتهم لهم.

وهكذا المؤمنون المحققون الذين هم ورثة الأنبياء يقتدون بهم ويسلكون مسلكهم فيما دلَّهم الله عليهم فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فالتوكل إذن أحد هذه الخصال التي يبين بها من المؤمن المحق.

[1] المكديون من مكد مكودًا ومكدًا، أقام بالمكان لا يبرحه لعجز أو لغيره، وأما أن يكون من كد بمعنى طلب الرزق واسم الجمع منه أكداد وأكاديد (ولا واحد لهما)، والمعنى مهزومون ومغلوبون، ولعل هذا أقرب إلى ما نحن بصدده.

(٥) فصل في ماهية الإخلاص

ومن شرائط الإيمان أيضًا وخصال المؤمنين الإخلاص في العمل والدعاء كما أمر الله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وقال: ﴿لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ﴾ فالإخلاص في العمل هو ألَّا يطلب بما يعمل جزاءً ولا شكورًا من أحد من خلق الله مثل إخلاص الوالدين في تربيتهما الأولاد؛ فإنهما لا يطلبان جزاءً ولا شكورًا؛ لأنهما قد علما بأنها واجبة في الجِبلَّة، ومثل إخلاص العبيد الصالحين الذي يخدمون مواليهم من غير خوف من الضرب ولا طلبًا للعوض؛ لأنهم قد علموا بأن خدمتهم هي شيء تقتضيه الحكمة والسياسة كما بيَّنَّا في رسالة السياسيات.

واعلم يا أخي أن العبد الذي يخدم مولاه خوفًا من الضرب أو طلبًا للعوض عبد سوء، وهكذا مَنْ لا يطيع ربه إلا خوفًا من النار أو رغبةً في الأكل والشرب والجماع في الجنة؛ فهو أيضًا عبد سوء، والعبد السوء لا يكون مخلصًا في الدعاء ولا في العمل.

وأما الإخلاص في الدعاء فلا يكون إلا عند انقطاع الحيلة والتبري من الحول والقوة، والمثال في ذلك رُكَّاب البحر؛ وذلك أنهم يدعون الله ويسألونه السلامة عند دخولهم السفينة، ولكن غير مخلصين لاتكالهم على الربَّان والملاحين في حفظها ومراعاتها، ونفوسهم ساكنة هادئة بحضور الربان والملاحين حتى إذا توسطوا البحر وهاجت الأمواج واضطربت المراكب ودهش الربان وفزع الملاحون وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك يدعون الله مخلصين له الدين؛ لأنهم قد علموا أنه لا يقدر أحد من خلق الله على معاونتهم، ولا قوة لأحد على دفع ما ورد عليهم إلا الله عز وجل، ولا تتعلق قلوبهم بسبب من الأسباب إلا أن يكون فيها إنسان يعرف أحكام النجوم.

وقد عرف ما العلة الموجبة لما هم فيه من مناحس الفلك، ويعلم أن النحس دافع تدبيره إلى سعد من السعود، ويكون قلبه متعلقًا به؛ فإنه وإن كان يدعو ربه لا يكون دعاؤه مخلصًا حتى يتبين أن النحس مستمر، أو دافع التدبير إلى نحس أشر منه، فعند ذلك يقطع رجاءه من النجوم فيكون دعاؤه بالإخلاص.

واعلم يا أخي أن مثل هذه الأحوال التي تَرِد على بني آدم وفزع العقلاء إلى الله تعالى ودعاء العارف لهم بالكشف عنهم ما ورد عليهم، يكون فيها تلقين للجاهلين بالله وهداية للنفوس إلى معرفته فيعلمون عند ذلك — بنظرهم إلى العقلاء في دعائهم وتضرعهم إلى الله بالكشف عنهم ما هم فيه — أن لهم إلهًا جبارًا عالمًا قادرًا يسمع دعاءهم ويعلم ما هم فيه وهو قادر على نجاتهم يراهم وإن كانوا لا يرونه ولا يدرون أين هو؟

وعلى هذا القياس كل ما يصيب الناس من الجهد والبلاء فيضطرهم ذلك إلى الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل مثل الغلاء والوباء وآلام الأطفال ومصائب الأخيار وما شاكلها من الأمور السماوية التي لا سبيل لأحد في دفعها عنه إلا الله تعالى، فيكون ذلك دلالةً لهم على الله عز وجل وهداية إليه، كما قال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

(٦) فصل في ماهية الصبر

ومن إحدى شرائط الإيمان وخصال المؤمنين الصبر كما قيل: الصبر رأس الإيمان، وقال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ وقال للمؤمنين: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ الآية.

واعلم يا أخي أن الصبر هو الثبات في حال الشدائد بلا جزع لما يرجى من محمود العاقبة، والصبر مشتق من مرارة الصبر.

واعلم يا أخي أن الناس أكثرهم يصبرون في الشدائد ولكن لا يكون صبرهم بالله ولا لله؛ لأنهم يجزعون ويضطربون ويشكون ويظنون بالله ظن السوء كما قال الله جل ثناؤه في قصة المنافقين: ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾؛ وذلك أن منهم مَنْ ظن أن تلك الشدائد التي أصابتهم جور منه إذا قضاها عليهم، ومنهم مَنْ ظن أنه ليس من قضائه وحكمه، ومنهم مَنْ ظن أنه ليس يعلم ما هم عليه من الجهد والبلوى، ومنهم مَنْ يعلم أنه يعلمه ولكنه يظن أنه لا يكفر فيهم ولا يُهِمه أمرهم، ومنهم مَنْ يظن أنه قاسي القلب قليل الرحمة وما شاكلها من ظنون السوء.

فأما الأنبياء المؤمنون فإنهم يصبرون في الشدائد والبلوى، ويكون صبرهم بالله ولله؛ وذلك أنهم يرون ويعتقدون أن الشدائد التي تصيب الخلق فيها ضروب من المصلحة لهم وإن كان يخفى على كثير من العقلاء ما لتلك المصلحة والحكمة، كما بيَّنَّا في باب الدعاء والإخلاص عند الشدائد، وكما بيَّنَّا في رسالة اللذات ما الحكمة في ألم نفوس الحيوان دون سائر النفوس التي في العالم، وأن الحكمة فيها هي حث نفوسها على حفظ أجسادها من التلف والفساد.

واعلم يا أخي أن اعتقاد الأنبياء والمؤمنين في الشدائد التي تصيبهم مصلحة لهم نتجت من المقدمة التي أقروا بها هي قولهم: إن للعالم صانعًا واحدًا حيًّا قادرًا حكيمًا، وإنه قد رتَّب أمر العالم على أحسن النظام والترتيب في إتقان الحكمة حتى لا يجري أمر

من الأمور صغارها وكبارها إلا وفيها ضروب من الحكمة وصنوف من الصلاح لا يعلمه إلا هو.

(٧) فصل في ماهية القضاء والقدر والرضاء بالقضاء

ومن شرائط الإيمان وخصال المؤمنين الرضا بالقضاء والقدر، وهو طيب النفس بما يجري عليها من المقادير، وجريان المقادير هو موجبات أحكام النجوم، والقضاء هو علم الله السابق بما توجبه أحكام النجوم، ويقال: إن الرضا بالقضاء هو أقل أعمال بني آدم التي تصعد إلى السماء، وهو أشرف شرائط الإيمان وأفضل خصال المؤمنين.

وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

ثم اعلم يا أخي أنه لا يوجد أحد طيِّب النفس بما يجري عليه من المقادير المرة الصابرة إلا العارفون بحرمة الناموس، ولا يعرف أحد حرمة الناموس كما يجب إلا الأنبياء والمؤمنون، وقد بيَّنَّا حق الناموس وكيفية حرمته في رسالة النواميس، فمن علامة الرضاء بالقضاء وبما تجري به المقادير أن ينقاد لحكم الناموس طيِّب النفس مثل انقياد سقراط حكيم اليونانيين؛ وذلك أن هذا الحكيم أوجب عليه القاضي القتل بشهادة العدول، وأنه واجب عليه القتل بشبهة دخلت على القوم فانقاد سقراط للقتل طيبة به نفسه، فقيل له: إنك تُقْتَل مظلومًا، فهل لك أن نفديك بفدية أو نهرب بك؟ قال سقراط: أخاف أن يقول الناموس غدًا لي: لِمَ فررتَ من حكمي؟ فقالوا: تقول له: لأني كنت مظلومًا، قال لهم: إن قال لي الناموس: إن ظلمك الشهود الذين شهدوا عليك بالزور والبهتان فكان من الواجب ألَّا تظلمني أنت وتفر من حكمي، فماذا أقول؟ فخصمهم بهذه الحجة وانقاد للقتل طيبة به نفسه راضيًا بحكم الناموس.

ثم قال: مَنْ تهاون بالناموس قتله الناموس، وكان قد انقاد قبل سقراط للمقادير أحد بني آدم إذ قال له أخوه قابيل: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قال له هابيل: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾، فرضي بقضاء الله الذي هو علمه السابق بالكائنات قبل كونها، فانقاد للمقادير التي هي موجبات أحكام النجوم طيبة بها نفسه، ومثل ذلك أن رضي المسيح بقضاء الله وانقاد للمقادير وسلَّم ناسوته إلى اليهود طيبة به نفسه راضيًا بحكم الله الذي هو علمه السابق بالكائنات قبل كونها؛ إذ لا يكون شيء بخلاف ما علم.

ومثل ما رضيت به السحرة بقضاء الله لما هدَّدهم فرعون بالصلب فقالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ وذلك أن القوم قد علموا بأنه ليس له سلطان على نفوسهم إنما سلطانه على أجسادهم فقالوا: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ فانقاد القوم للمقادير وسلَّموا أجسادهم إلى حكم فرعون طيبة بها أنفسهم.

ومثلما رضي رسول الله ﷺ يوم أُحُد لما قُتِل خيار أنصاره وفضلاء المهاجرين وكُسِرت رايته وجرى عليه من المقادير الفلكية ما جرى، قيل: يا رسول الله: لو دعوت الله على المشركين بالهلاك لما فعلوا بك؟ فقال: «رحم الله أخي نوحًا فإن غوغاء قومه ضربوه وكان يقول: اللهم لا تؤاخذ قومي فإنهم لا يعلمون، وأنا أقول: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.» ولما بلغ الخبر إلى المدينة ذلك اليوم بما جرى عليه وعلى أصحابه خرج أهل المدينة يتعرفون أخبار إخوانهم فخرجت امرأة من الأنصار تسأل عن زوجها فقيل لها: إنه استشهد، فسألت عن أبيها فقيل لها مثل ذلك، فسألت عن أخيها فقيل لها مثل ذلك، فقالت: أليس قد سلِم رسول الله؟ قالوا: نعم. فقالت: في بقائه عوض عن الكل، ومثل رضاء عثمان بن عفان لما دخلوا عليه ليقتلوه فقام عبيده وسلُّوا سيوفهم وقالوا: نُقْتَل دونك؟ فرجع وكره وذكر قول أنس لما قال رسول الله ﷺ: «افتح له الباب وبشِّره بأنه وليُّ هذه الأمة بعد عمر.» ووعده ببلوى تصيبه بهراقة دمه، فقال لعبيده: مَنْ ردَّ سيفه إلى غمده فهو حر لوجه الله تعالى، وقعد في مجلسه وأخذ المصحف في حجره فقرأ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، ورضي بقضاء الله، وعلم أنه مقتول، وانقاد للمقادير طيبة بها نفسه. ومثل رضاء الحسين رضي الله عنه يوم كربلاء لما اشتدَّ به العطش وطلب الماء فقالوا له: تنزل على حكم ابن زياد حتى نخلي سبيلك؟ فقال: لا، ولكن على حكم الله. وعلم أنه مقتول، فقاتَلَ حتى قُتِلَ راضيًا بقضاء الله وبما جرت به المقادير طيبة بها نفسه.

واعلم يا أخي أن هذه النفوس التي تقدَّم وصفها إنما صارت راضية بقضاء الله الذي هو علمه السابق في خلقه، وصبرت بما جرت عليها المقادير المرة التي هي موجبات النجوم لما ترجو من الخيرات في المنقلب وما تنال من السعادة والروح والراحة بعد المفارقة، وما يقصر الوصف عنه، وإليها أشار بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

(٨) فصل في أنَّ من علامة المؤمنين المحققين ألَّا يخافوا ولا يرجوا إلا الله تعالى

ومن علامة المؤمنين المحققين ألَّا يخافوا ولا يرجوا إلا الله تعالى، كما أن الأولاد لا يخافون ولا يرجون إلا الآباء والأمهات، وهكذا الصبيان لا يخافون إلا من المؤدب، والتلامذة لا يخافون إلا من الأستاذين، وهكذا الجند لا يخافون إلا من صاحب الجيش، والناس كلهم لا يخافون إلا من سلطانهم القادر على نفعهم وضرهم. وكما حكى عن الملائكة فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فالملائكة لا يخافون إلا من ربهم، وهكذا العلماء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ الذين يشاهدونه ويرونه كما قال: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وكما قال رسول الله، ﷺ حين سأله الأعرابي: ما الإحسان؟ فقال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ فهذه الرؤية والمشاهدة بعين الحقيقة، وهي ألَّا ترى في الدارين أحدًا غيره، كما قال المحقق شعرًا:

ما شرب صفو صبابة أشجانها — حرق تأجج في الهوى نيرانها
وسألت عن صفو الوداد فقيل لي — إيثار حبك قلت جر عنانها
كلٌّ له وبه ومنه فأين لي — شيء فأوثره فطاح لسانها

(٩) فصل في أن أول عمُد الإيمان وأقوى أركانها هو الاتباع لأصحاب النواميس الإلهية

اعلم يا أخي أن أول عمُد الإيمان وأقوى أركانها هو الاتباع لأصحاب النواميس الإلهية فيما يأمرون به من الطاعات وينهون عنه من المعاصي، وهو السمع منهم والطاعة لهم؛ وذلك أن أشرف أعمال البشرية وألذ أفعال الإنسانية وأعلى رتبة ينالها العقلاء مما يلي رتبة الملائكة هي وضع النواميس الإلهية. واعلم يا أخي أن لواضعي النواميس وأتباعهم خصالًا كثيرة وشرائط عدة، قد ذكرنا طرفًا منها في رسالة النواميس وطرفًا في رسالة اعتقاد إخوان الصفا، وطرفًا في رسالة عِشْرة الإخوان بعضهم لبعض.

واعلم أن مثل واضعي الناموس مع أتباعهم وما يسمعون منهم من العلوم وما يأتمرون به من سنن النواميس كمثل السماء وأمطارها والأرض ونباتها؛ وذلك أن كلام

أصحاب النواميس وأقاويلهم كالأمطار، واستماع أتباعهم كالأرض، وما ينتج بينهما من فوائد العلوم من الآراء والأعمال كالنبات والحيوان والمعادن. وإلى هذه المعاني أشار بقوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني القرآن ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ يعني حفظتها القلوب بمقاديرها من القلة والكثرة ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يعني ما تحمل ألفاظه وظاهره معاني متشابهات حفظتها قلوب المنافقين الزائغة الشاكين المتحيرين ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ مثَل آخر يعني الجواهر المعدنية لها زبد عند السبك كزبد السيل، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ يعني أمثال الحقائق والأباطيل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾؛ يعني الأباطيل والشبهات تذهب فلا يُنْتَفع بها ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ يعني ألفاظ التنزيل تثبُت في قلوب المؤمنين المصدقين وتثمر الحكمة كما ذكر فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

واعلم يا أخي أن الناموس لا يتم إلا بالأوامر والنواهي، والأمر والنهي لا ينفذان إلا بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يتمكنان إلا بالترغيب والترهيب، والترغيب والترهيب لا ينجعان إلا فمين يخاف ويرجو، والخوف والرجاء لا يظهران ولا يُعْرَفان إلا عند اتباع الأمر والنهي، فمَنْ لا يخاف شيئًا ولا يرجو أملًا فهو لا يرغب ولا يرهب، ومَنْ لا يرغب ولا يرهب فلا ينجع فيه الوعد والوعيد، ولا ينجع فيه الأمر والنهي، ومَنْ لا يأتمر لواضعي النواميس ولا ينتهي عن نواهيهم فلا يكون له نصيب في الناموس الإلهي البتة.

واعلم يا أخي أن الأمور التي يخاف منها في العاقبة ويُرْجَى إليها الوصول في استعمال النواميس نوعان اثنان: أحدهما دنيوي والآخر أخروي، فأما الدنيوي مثل الرياسة وحسن الثناء والعز والمال ومتاع الدنيا ما دامت النفس مقرونة مع الجسد وما يبقى منها من الذرية والأعقاب بعد الممات، والأخروي هي نجاة النفس من بحر الهيولى وأَسْر الطبيعة والخروج من هاوية الأجسام — عالم الكون والفساد التي تحت فلك القمر — والفوز بالصعود إلى ملكوت السماء والدخول في زُمَر الملائكة والسيحان في فضاء الأفلاك وسعة السموات، والتنسُّم من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن الذي يقصر الوصف عنه إلا مختصرًا، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ إلى آخر الآية.

(١٠) فصل في أن بغية كل طالب في استعمال أحكام الناموس هي البلوغ إلى الحق

اعلم أن بغية كل طالب في استعمال أحكام الناموس هي البلوغ إلى الحق وحكم الصواب وعمل الخير وتجنُّب الزور والبهتان.

واعلم أن الحق هو غاية ليست وراءها نهاية، ولكن دونها أمور متشابهة مشكلة. واعلم أن الألفاظ محتملة للمعاني والأوهام تذهب في طلبها كل مذهب، فينبغي لك إذا سمعت لفظة محتملة للمعاني ألا تحكم عليها حكمًا دون أن تبين بعقلك كل المعاني التي تحتملها تلك اللفظة لعلك تفهم الغرض الأقصى الذي هو الصواب، وتبلغ الغاية القصوى التي هي الحق.

واعلم أن غرض واضعي النواميس الإلهية بعيد الغور جدًّا في أحكام النواميس لا يتصور لك في أول وهلة، ولكن بعد النظر الشافي والبحث الشديد، ونريد أن نضرب لذلك مثلًا ليكون قياسًا على ما قلنا ووصفنا:

ذُكِر في المثال أنه كان رجلان اصطحبا في طريق على سفر، فلما انتهيا إلى شاطئ نهر قعدا للغداء فأخرج كل واحد زاده، فكان مع أحدهما رغيفان ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فكسراها في موضع واحد ليأكلاها؛ إذ مرَّ بهما مجتاز فدعَوه إلى طعامهما فأجاب وجلس وأكل معهما، فلما فرغوا قام ورمى بين يديهما خمسة دراهم وقال: اقسموها بينكما بالسوية، ومضى هو لسبيله، فقال صاحب الرغيفين لصاحبه: لك النصف ولي النصف الباقي؛ لأنه قال بالسوية، وقال صاحب الثلاثة الأرغفة: بل العدل أن يكون لي ثلاثة دراهم ولك درهمان؛ لأنه قال بالسوية بحسب الرغيفين، فتنازعا وتحاكما إلى قاضٍ من حكام الناموس، فحكم بينهما أن لصاحب الرغيفين درهمًا واحدًا ولصاحب الثلاثة أربعة، وكان هذا الحكم هو الحق وغاية الصواب.

فتفكَّر يا أخي فيه، فإنْ فهمتَ معناه وتوجَّه لك الصواب فأنت فقيه بأحكام الناموس، وإن ذهب عليك فيه وجه الصواب وغاية الحقيقة فاذهب إلى حاكم الناموس؛ ليعرِّفك وجه الصواب وحقيقة المعنى.

واعلم يا أخي أن كثيرًا من العقلاء الذين يتعاطون الفلسفة والنظر في المعقولات إذا فكَّروا بعقولهم في أحكام الناموس وقاسوها بآرائهم وتمييزهم وفهمهم يؤديهم اجتهادهم وقياساتهم إلى أن يروا ويعتقدوا في كثير من أحكام الناموس أن العدل والحق والصواب في خلافه، كل ذلك لقصور فهمهم وقلة تمييزهم وعجز معرفتهم عن كنه أسرار أحكام الناموس.

مثال ذلك أنهم إذا فكَّروا في حكم المواريث: أن للذكر مثل حظ الأنثيين فيرون أن الصواب كان أن يكون للأنثى حظ الذكرين؛ لأن النساء ضعفاء قلائل الحيلة في اكتساب المال. ولا يدرون ولا يبصرون أن هذا الحكم الذي حَكَمَ به الناموس سيئول الأمر به إلى ما أشاروا إليه وأرادوه؛ وذلك أن الناموس لما ذكر حكم للذكر مثل حظ الأنثيين حكَم أيضًا أن المهر في التزويج على الرجال للنساء؛ فهذا الحكم يئول الأمر به إلى أن يحصل للأنثى من المال مثل حظ الذكرين.

مثال ذلك: لو أنك ورثت من والدك ألف درهم وورثت أختك خمسمائة درهم فإذا تزوَّجت أخذت مهرها خمسمائة درهم أخرى فيصير معها ألف درهم، وأنت إذا تزوَّجت وأمهرت خمسمائة درهم بقي معك من المال نصف ما مع أختك، فعلى هذا القياس قد آل الأمر في حكم الناموس إلى ما أرادوا وأشاروا إليه، فهكذا ينبغي أن يكون نظرك في أحكام الناموس حتى يتبين لك وجه الصواب فيها وغاية الحق.

واعلم أن نظر واضعي الناموس في موجبات أحكامه ليس بنظر جزئي يريد صلاح بعض دون بعض ولا عاجل دون آجل، بل نظره كلِّيٌّ يريد الصلاح للكل والخير للعاجل والآجل جميعًا بالنظر في العواقب وما يئول الأمر إليه في المنقلب كما بيَّنَّا في رسالة الناموس.

(١١) فصل في أن الإنسان لا يخلو من حالتَي الشدة والرخاء

اعلم يا أخي أن الإنسان لا يخلو من حالتَي الشدة والرخاء، والمؤمن في كلتا حالتيه لا يُعْرِض عن طاعة الله؛ وذلك أنه إذا كان صحيح الجسم قوي البدن غني المال عريض الجاه متفضل الآداب قادرًا على ما يشاء ممكنًا لما يريد؛ فهو مع هذه الحالات كلها يكون متكلًا على الله مستندًا إليه مستعينًا به متبرئًا من حوله وقوته إلا بالله، كما قال سليمان، عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، وأما الكافر فهو في هذه الحالات كلها يكون راجعًا إلى نفسه وحوله وقوته ومشيئته وإرادته واجتهاده وحيلته متكلًا على أسبابه معرِضًا عن ربه ناسيًا ذكره كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

وأما حال الشدة والبلوى فالمؤمن يكون فيها صابرًا بقضاء الله راضيًا مقبلًا إليه بحكم الله حامدًا له حسن الظن به، راجيًا لرحمته سائلًا عفوه مستسلمًا لأحكامه، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وأما

الكافر فإنه يكون سيئ الظن بالله ضجور النفس جزعًا من الشدائد، ساخطًا على المقادير ذامًّا لأسبابه آيسًا من روح الله قنوطًا من رحمته، كما ذكر الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ إلى آخر الآية.

(١٢) فصل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة

ومن شرائط الإيمان وخصال المؤمنين الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، كما رغَّب الله تعالى نبيه ﷺ فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وآيات كثيرة في القرآن في التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

واعلم يا أخي أن الإنسان مطبوع على ألَّا يترك النفع الحاضر العاجل ويزهد فيه ويطلب الغائب الآجل ويرغب فيه إلا بعدما يتبين له فضل الآجل على العاجل.

واعلم أن المؤمنين والحكماء والأنبياء إنما زهدوا في الدنيا وتركوا عاجل شهواتها، ورغبوا في الآخرة وطلبوا آجل نعيمها؛ لما تبين لهم حقيقة الآخرة وعرفوا فضل نعيمها على نعيم الدنيا، وشاهدوها بعيون قلوبهم ونور عقولهم كما شاهد أبناء الدنيا أمورها بحواسهم.

واعلم يا أخي أن الطريق إلى معرفة حقيقة الآخرة ومشاهدة أحوالها بالاعتبار والتفكر في أمور الدنيا، والمقايسة بينها وبين أمور الآخرة بالعقول السليمة من الآراء الفاسدة والنفوس الصافية من الأخلاق الرديئة ونتائج المقدمات الصحيحة الضرورية.

بيان ذلك أن العاقل اللبيب إذا فكَّر في قول الجمهور من الناس وتسميتهم هذه الدار التي نشئوا فيها باسم الدنيا وذمهم نعيمها يدل على الدار الآخرة وشرفها؛ لأن لفظة الدنيا تدل على الأخرى، كما أن لفظة الأخرى تدل على الأولى؛ لأنهما من جنس المضاف.

ومن وجه آخر إذا اعتبرت أحوال الناس في الدنيا وجدتهم كلهم طائفتين: أخيارًا أو أشرارًا، فأما الأخيار فهم الذين يعملون من أعمال ما رُسِمَ لهم من النواميس الإلهية، ويفعلون ما أوجبته العقول السليمة، ولا يطلبون على ذلك عوضًا من جرٍّ منفعة إلى أجسادهم أو دفع مضرة عنها، فعند ذلك يقال لهم أخيار على الإطلاق، وأنهم من أبناء الآخرة، وأما الذين يطلبون العوض فيما يعملون من الخير والشر من جر المنفعة إلى أنفسهم أو دفع المضرة عنها ولا يفكرون في المعاد، ولا يرجون في الآخرة الخير ولا يخافون العقاب ولا يهمهم أمر النفس ولا النظر في حالها بعد الموت، فيقال عند ذلك: إنهم أشرار، وإنهم من أبناء الدنيا.

ووجه آخر إذا اعتبرت أحوال هؤلاء الأخيار الذين تقدَّم ذكرهم وأنهم قد أفنوا أعمارهم كلها فيما وصفنا من أعمال الخير، ثم ماتوا ولم يحصل لهم عوض على ما عملوه قبل الموت، تتعلم العقول وتقضي بالحق أن ذلك لا يضيع عند الله شيء فيصبح بهذا الاعتبار أن بعد الممات — الذي هو مفارقة النفس الجسد — حالة أخرى يجازى فيها الأخيار وهي التي تسمى الدار الآخرة، وهكذا إذا اعتبر حال الأشرار الذين سعوا في الأرض بالفساد طول أعمارهم ثم ماتوا ولم يعاقبوا على ما فعلوا، فتعلم العقول وتقضي أن هؤلاء لم يفوزوا وأن حالهم بعد الممات ليس كحال أولئك الأخيار، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

هذا وإذ قد ذكرنا طرفًا من خصال المؤمنين وشرائط الإيمان وخصال الكافرين وماهية الكفر، فنريد أن نذكر طرفًا من علم المؤمنين الراسخين وخصال العارفين المستبصرين الذين هم ورثة النبيين وأنصار المرسلين وإخوان الصدِّيقين المتألهين الربانيين الذين هم في أعلى رتبة الإنسانية مما يلي رتبة الملائكة أعلى عليين، ونذكر أيضًا طرفًا من صفة إخوان الشياطين الضالين المضلين الذين هم في أدون رتبة الإنسانية مما يلي رتبة البهيمية أسفل السافلين.

(١٣) فصل في أن العلوم كلها شريفة

اعلم يا أخي أن العلوم كلها شريفة فيها عز، ولكن أشرفها وأجلَّها هي معرفة الإنسان حقيقة جوهره وما تتصرف به الأمور حالًا بعد حال إلى أن يبلغ إلى أقصى مدى غايته الذي هو قاصد نحوه وهو أن يلقى ربه إما في الدنيا قبل فراقها، وإما في الآخرة بعد الفراق.

واعلم يا أخي أن هذا الباب من العلم هو لُبُّ ذوي الألباب وجذر العلوم وعنصر الحكمة، فاجتهد في طلبه فإنك به تنال شرف الدنيا وسعادة الآخرة، وقد بيَّنَّا طرفًا من هذا العلم في رسائلنا الطبيعية ووصفنا فيها كيفية ما يتصرف به الإنسان من الأمور حالًا بعد حال من يوم مسقط النطفة إلى يوم يموت وتفارق روحه جسده، وقد بيَّنَّا أيضًا طرفًا في رسائلنا العقلية مما تصير إليه الأنفس الجزئية بعد مفارقة أجسادها، ووصفنا كيفية ما تتصرف بها الأحوال إلى يوم يُبْعَثون، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة أشرف الأمور

التي تنال الإنسان في الدنيا وأعلى رتبة يبلغ إليها قبل الموت ما هي؟ ولكن قبل ذلك نحتاج أن نُبيِّن أولًا ما الإنسان؟ إذ كان هو من أعجب الموجودات التي تحت فَلَكِ القمر وأشرفها تركيبًا وأحسنها صورةً، ثم نخبر بعد ذلك عن الأمور التي ينالها ويبلغ إليها فنقول:

إن الإنسان إنما هو جملة مجموعة من جسد جسماني في أحسن الصور، ومن نفس روحانية من أفضل النفوس. واعلم يا أخي أن لكل واحد من جزأيه غاية إليها ينتهي، ونهاية إليها يرتقي. فأعلى رتبة ينالها الإنسان بجسده وأشرف رتبة يبلغها ببدنه هي سرير الملك والعز والسلطان على أجساد أبناء جنسه، والقهر والغلبة بالقوة الغضبية، وأما أعلى رتبة ينالها الإنسان من جهة نفسه وأشرف درجة يبلغها بصفاء جوهرها فهي قبول الوحي الذي به يعلو الإنسان على سائر أبناء جنسه، وبه يغلبهم بما يدرك من المعارف الحقيقية بالقوة الناطقة. ولما تبين أن النفس أشرف جوهرًا من الجسد صارت الرتبة التي ينالها الإنسان بنفسه أشرف وأعلى من التي ينالها بجسده؛ لأن هذه جسمانية دنيوية وتلك روحانية أخروية. ولما قد تبين أن الوحي هو أشرف موهبة قد يجدها الإنسان في الدنيا أردنا أن نُبيِّن ما الوحي؟ وكيف قبول النفس له؟ فنقول:

إن الوحي هو إنباء عن أمور غائبة عن الحواس يُقْدَح في نفس الإنسان من غير قصد منه ولا تكلُّف.

وأما قبول النفس الوحي فعلى ثلاثة أوجه: منها ما يكون في المنام عند ترك النفس استعمال الحواس، ومنها ما يكون في اليقظة عند سكون الجوارح وهدوء الحواس، وهما نوعان: إما استماع صوت من غير رؤية شخص بإشارات دائمًا، وإما استماع كلام من غير رؤية شخص كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ﴾.

وسنوضح كيفية كل واحد من هذه الوجوه الثلاثة، ونبدأ أولًا بوصف قبول النفس الوحي في المنام كيف يكون؟ إذ كان هو أعم وأكثر، ثم نذكر الذي يكون في اليقظة إذ كان هو أخص وأقل فنقول:

أولًا: ما النوم؟ وما الرؤيا؟ أما النوم فهو ترك النفس استعمال الحواس، والرؤيا هي تصور النفس رسوم المحسوسات في ذاتها وتخيلها الأمور الكائنة قبل كونها بقوتها الفكرية في حال النوم وسكون الحواس. وسنوضح هذا في فصل آخر، ولكن من أجل أن قومًا من أهل الجدل ينكرون أمر النفس أنها جوهرة ويجحدون وجودها احتجنا

أن نبيِّن ما النفس؟ وما حقيقة جوهرها؟ وما الدليل على صحة وجودها؟ فنقول: أولًا: إن النفس هي جوهرة روحانية حية علامة فعَّالة، فأما الدليل على صحة ما ذكرنا فهو أكثر من أن يُحصى.

وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في رسالة تركيب الجسد وطرفًا في رسالة الحاس والمحسوس، وطرفًا في رسالة أن الإنسان عالم صغير، ولكن نريد أن نذكر من ذلك طرفًا في هذا الفصل فنقول:

إن من الدليل الواضح على أن مع جثث الحيوانات جوهرًا آخر غير جسماني هو ما يظهر من أجسادها من الحس والحركة والأصوات والأفعال في حال الحياة ما لا خفاء به، وفقدانها كلها في حال الموت دليل على مفارقة تلك الجواهر من أجسادها.

ومن الدليل أيضًا على وجود النفس مع الجسد وفراقها بعد الموت بكاء الناس على موتاهم وحزنهم على فراق تلك النفوس، ولو كان هذا الحزن والبكاء على الأجساد فما لهم والبكاء والأجساد عندهم برمَّتها؟ ولو أرادوا أن يحفظوها من التغيير والفساد لكان يمكن بأدوية تُطْلَى عليها مثل الصبر والكافور والعسل وما شاكلها، ولكن لا ينفعهم ذلك من البكاء والحزن إذا فارقتها تلك الجواهر الشريفة. ومن الدليل البيِّن على أن النفس جوهر هو أفعالها الصادرة عنها من غير استعمالها آلات الحواس وحركات الجوارح؛ وذلك أن الإنسان إذا أراد أن ينظر في علم غامض ويبحث عن معنًى دقيق حتى يفهمه يحتاج إلى أن يسكن حركات جوارحه ويترك تأمُّل محسوساته، ويغوص في فكرته حتى يمكنه أن يتصور ذلك الشيء ويفهم ذلك المعنى، فإذا فعل ما وصفنا فربما يجتاز به مَنْ يسلم عليه أو يكون بحضرته مَنْ يكلِّمه فلا يسمع ولا يحس إذا كان غائصًا في فكره؛ يعرف حقيقة ما قلنا كل عاقل قد ارتاض في علم من العلوم.

فإن قال قائل: إن النفس وإن كانت قد تركت استعمال الحواس وتحريك الجوارح في مثل هذه الحال فإنها لم تترك استعمال البدن كله؛ لأن الفكر لا يكون إلا بوسط الدماغ، كما أن النظر لا يكون إلا بالعين، والسمع لا يكون إلا بالأُذُن وكذلك سائر الحواس.

ولَعَمْري إن القول كما قال، ولكن إنما نحن أردنا أن نبيِّن بهذا المثل أن النفس جوهرة عاقلة، وهي المستعملة للدماغ والقلب وسائر الحواس والجوارح، وهي آلات لها وأدوات يظهر بها بعض أفعالها، ولكن لها أفعال أُخَر لا تحتاج فيها إلى أدوات جسدانية ولا آلات جسمانية وهي رؤيتها المنامات وعجائب تصاريفها فيما يرى أكثر الناس من الرجال والنساء والصبيان والجهال والعلماء والأخيار والأشرار جميعًا ما لا يرون في حال اليقظة مثلها.

(١٤) فصل فيما وقع لابن مَلِك

من ذلك ما ذُكِر أن ابن ملك وقع في أيدي عدو له فاستعبده وكلَّفه الخدمة الشديدة والأعمال الشاقة مع قلة المطعم والمشرب والعري والضرب والشتم والاستخدام، حتى ذهبت قوته وهرم شبابه ونحل جسمه وضعف سمعه وكَلَّ بصره، واسترخت مفاصله وعُقل لسانه، ثم حبسه في مطمورة ضيقة، وطال حبسه واشتدَّ جوعه وعطشه وغمه وحزنه حتى غُشِي عليه من الجهد والبلوى والضر الذي هو فيه.

فبينما هو ذات ليلة مفكر فيما هو فيه من العناء والشقاء والجهد والبلوى فنام ورأى فيما يرى النائم كأنه في دار مملكته على سرير عزه وقد رجعت إليه أيام شبابه وقوة بدنه وطراوة جسمه وصحة حواسه ونشوة شهواته، وإذا هو في بستان من البساتين التي كانت له كثيرة الأشجار تحتها الأنهار تجري وعلى حافاتها رياحين وزهر ونور يفوح منها مثل نسيم الجنان، وإذ هو بفتيان شبان أتراب إخوان كانوا له من أولاد الملوك، عليهم لباس الجمال، وهم قعود على كراسي موضوعة على تلك الأنهار، وبأيديهم التُّحَف، يحيِّي بعضهم بعضًا بالسلام، فلما رآهم ورأوه، وعرفهم وعرفوه، واستبشروا به لطول غيبته عنهم، وفرح بهم لبُعْدِ غربته منهم، فرُفِعَ في صدر المجلس وأقبلوا عليه بالتحية والسلام، وداخَلَه من الفرح والسرور واللذة ما لا يوصف ولا يقال.

فماذا ترى يا أخي؟ أيهما خير لذلك الرجل وأحب إليه أن يبقى طول الدهر نائمًا ملتذًّا مسرورًا فرِحًا بما تراه نفسه من ذلك المنام، أو ينتبه فيحس بما فيه جسده من تلك الآلام؟ وماذا ترى وتقول لمن يزعم أن الإنسان إنما هو الجسد، وأن النفس لا حقيقة لها، وأن تلك الآلام واللذات والفرح والغم والسرور والحزن كلها ينالها الجسد؟ فلِمَ لا ينال الجسد في حال النوم تلك الآلام والغم والحزن والذي به من الجهد والبلوى وهو موجود برمته، وتلك الأحوال باقية عليه عند رؤية نفسه مثل هذا المنام ونيلها ذلك الفرح السرور؟

(١٥) فصل فيما وقع للعراقي

وذكروا أيضًا أن رجلًا بالعراق أصلح مجلسًا للشرب ودعا إخوانًا له، فلما فرغوا من الأكل وقعدوا للشرب، وارتفعت أصوات العيدان والمزامير ودار الشراب فيهم وطرب القوم؛ نام رجل منهم عند ذلك مما هم فيه من اللذة والسرور فرأى دارًا حسنة وستورًا وفُرُشًا وأواني ورياحين وفواكه وشموعًا تزهر ومجامر تبخر، وقد امتلأ حول الإيوان من الضياء

والروائح والنعيم، ورأى فتيانًا عليهم زين الجمال ومحاسن الكمال، فبقي متفكرًا متعجبًا بما يرى ويسمع ويشم من محاسن المحسوسات وما تلتذ منه الحواس وتفرح الأرواح وتُسَر النفوس، ونعس وغاص في نومه حتى لم يحس بشيء مما كان في المجلس من تلك المحسوسات.

ثم رأى فيما يرى النائم كأنه في بلاد الروم في كنيسة من كنائس النصارى وهي مشتعلة بالقناديل منقوشة بالتصاوير مملوءة من الصلبان، وإذا هو بين قوم من القسيسين والرهبان عليهم ثياب المسوح وعلى أوساطهم مناطق من السيور، وبأيديهم مجامر معلقة وهم يطرحونها ويبخرون فيها القسط[٢] والكندر، وهم يقرءون كلمات لهم شبيهة بالتسبيح ويلحنونها ويكررونها حتى حفظها الرجل من تكرارهم لها وهي هذه: كسنى وسحرة قليلًا وأبان، محمد حين بنسا إلى بما، ومعناها بالعربية: إن الأخيار يسبحون الله تعالى بالليل فهم أحياء عنده وإن كانوا قد ماتوا، وأما الأشرار الظَّلَمة فهم موتى عند الله وإن كانوا في الدنيا أحياء. ورأى قومًا من الأساقفة بأيديهم أقداح مملوءة خمرًا، وفي مناديل لهم أقراص برسان يفرقونها على القوم ويُحْسُونهم من ذلك الخمر، فتناول ذلك الرجل من تلك الأقراص واحدة بحرص ورغبة وتحسَّى من ذلك الشرب من شدة الجوع والعطش وهو لم يستمرئ بعدُ ما قد تعشى بالعراق، ثم ما زالت تلك حاله وهو متعجب ومتفكر كيف وقع بالروم وحصل في تلك الكنيسة؟ وكيف الرجوع إلى العراق مع طول المسافة؟ ثم تذكَّر إخوانه في مجلسهم وما تركهم فيه من اللذة والسرور؛ فاشتدَّ شوقه إليهم وضجره بمكانه وما يرى من الأشياء المخالِفة للسُّنَّة والشريعة التي هو فيها، المضادة لطبيعته وعادته، فضاق صدره واضطرب في منامه من ضجره فانتبه فإذا هو بالعراق في مجلسه ومكانه بين إخوانه، وتلك الشموع وتلك الأصوات وتلك الروائح التي تأملها قبل نومه بحالها لم يتغير شيء منها. فقل يا أخي لمن يزعم أن النفس لا حقيقة لها، وأن الحساس الدارك الذي يعلم الأشياء ويفكر فيها هو هذا الجسد حسبُ لا شيء آخر معه! وقل مَن الذي ذهب إلى الروم ورأى تلك الأمور في الكنيسة وأكل وشرب وحفظ تلك الكلمات، الجسد أو النفس؟ وقل مَن الذي كان حاضرًا بالعراق بالمجلس، النفس أو الجسد؟ وقل لِمَ لَمْ يكن الجسد يحس في حال النوم تلك المحسوسات التي كانت

[٢] القُسط بضم القاف: هو عود ذو رائحة طيبة يُتداوى به ويُستعمل بخورًا، والكندر بضم الكاف جمع شجرة شائكة كالاس، والكندر أيضًا الشديد، يقال في الجمع: فتيان كنادرة أشداء.

معه في ذلك المجلس من الأصوات والضياء والروائح وهي موجودة هناك برمتها بعينين وأذنين ومنخرين؟ فإن زعم أن المنامات لا حقيقة لها فماذا تقول في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ وقول يوسف الصدِّيق: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ وقول إبراهيم، عليه السلام، لابنه إسماعيل: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، فلو لم يكن إبراهيم عليه السلام، يعلم بأن المنامات لها حقيقة وأن الرؤيا صحيحة لما كان يعزم على ذبح ابنه برؤيا رآها في منامه؟ وكذلك إسماعيل لو لم يعلم صحة ذلك لما قال: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولما كان يستسلم للذبح.

ويُرْوَى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرؤيا الصادقة جزء من أجزاء النبوة.» وقال: «قد ارتفع الوحي وبقيت الرؤيا الصادقة.» فلو علم مَنْ يزعم أن المنامات لا حقيقة لها أن أكثر الأنبياء عليهم السلام كانوا يقبلون الوحي في المنام عند ترك النفس استعمال الحواس لَمَا قال هذا القول، ولَمَا أنكر وجود النفس.

هيهات قد جهل أشرف العلوم وخفيَ عليه أصل المعارف وبعُدَ من الصواب وحُرِم أفضل المواهب مَنْ يزعم أن المنامات لا حقيقة لها، وأن النفس لا وجود لها، ولكن نسأل الله أن يهديهم ويفتح قلوبهم ويشرح صدورهم؛ ليفهموا دقائق العلوم ولطائف الأسرار؛ فإنه مَنْ لم يهده الله فلا هادي له ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

(١٦) فصل في حكاية الرجل المترف

وذكر أيضًا أن رجلًا من المترفين وأرباب النعم ممن قد بُسِط له في دنياه ومُكِّن له فيها جعل أكثر جهده وكدِّه طول عمره ليلًا ونهارًا في تنعُّم بدنه ورفاهة جسمه ولذة عيشه وإصلاح شهواته، حتى لم يكن له طول نهاره شغل إلا دخول الحمام وحلق رأسه وتمريخ بدنه أو تغيير لباسه أو تبخير ثيابه وبدنه واستنشاق طيبه، أو تنقلًا من مجلس إلى مجلس في تجديد لذَّاته وإصلاح شهواته، حتى لم يكن يأكل ولا يشرب إلا أطيب الطعام وألذ الشراب، ولا يلبس إلا أنعم اللباس، ولا يقعد إلا على أوطأ المراكب وألين الفُرُش، وكان لم يكن ينام إلا على سرير معلَّق في الهواء في وسط قبة له؛ مخافة دبيب يعرض له أو غبار يصيبه، فعاش بذلك زمانًا طويلًا حتى شُهر في الناس بطيب عيشه ولذيذ شهواته، وجعل الراغبون في شهوات الدنيا يتمنون حاله ويغبطونه على ما هو فيه، ويتشبَّه به

المترفون من أهل زمانه وأرباب النعم، كل واحد بحسب إمكانه واتساع حاله، حتى صار قدوةً لطالبي اللذات في اتباع الشهوات.

وكان مع هذه الحال كلها لم يكن يعرف شيئًا من إصلاح نفسه ولا تحسين أخلاقه، ولا تفقُّهًا في الدين ولا تزوُّدًا لآخرته، ولا تفكُّرًا في أمر معاده، ولا رغبةً في علم ولا طلبًا لأدب، ولا فكرة في زوال الدنيا ولا ذكرًا للموت، بل كان مقبلًا على طلب شهواته محتقرًا لأمور الناس مزريًا من دونه معرضًا عن الفقراء، هاجرًا لأهل العلم متهاونًا بأمر الدين.

ثم أراد الله تعالى أن ينبِّهه من نوم غفلته ورقدة جهالته، ويُرِي للعباد قدرته ويجعله عبرةً لغيره وعظة لمن سواه، فبينما هو ليلة نائم على فراشه فوق سريره معانقًا لحبيبته وأبواب داره مغلقة وستوره مسبلة، وحول سريره شموع تزهر، وعلى أبواب داره خدمه وغلمانه مستيقظين؛ إذ رأى فيما يرى النائم كأنه في برِّيَّة قفرة وحده وهو عريان جائع عطشان وبدنه مسود وشعره طويل وجسده ملوث برجيع ما في جوفه، وعلى ظهره ثقل ثقيل، وإذا هو بأسودين منكرَين خِلقتهما طويل قامتهما وعيونهما تبرق، ومن مناخرهما يخرج الدخان، ومن شدقيهما تلتهب النيران، وبأيديهما حراب حداد، وهما يقربان نحوه ليأخذاه، فلما رآهما ولَّى هاربًا من بين أيديهما وهما يتبعانه حتى إذا أمعن في هربه إذا هو بجبل شاهق فيه طريق ضيق وعر مسلكه، فسلكه بمشقة شديدة وعناء طويل، حتى إذا انتهى إلى قمته هَوَى من الجانب الآخر في وادٍ منكسًا على رأسه حتى وقع في بئر يخرج منها دخان معتكر يأخذ بالأنفاس ولهب يشوي الوجوه، والأسودان في أثره لا يفارقانه، فمن هول ما رأى وعظم ما عايَنَ وشدة ما لقي صرخ في منامه صرخةً واضطرب اضطرابًا شديدًا، ووقع من سريره إلى الأرض، وانتبه كل مَنْ كان في داره ومَنْ حوله من جيرانه من شدة زعقته، وطاش عقله وشخصت عيناه وارتعدت مفاصله وعقل لسانه، واجتمع حوله كل مَنْ كان في داره من خَدَمه وغلمانه وأقربائه يسألون: ما الذي أصابه؟ فلم يُطِق جوابًا بقية ليلته حتى أصبحوا وجُمِع له المعزِّمون والرَّاقُون، وظنوا أنه أصابه لممٌ من الجن أو سحر من الأعداء ووسواس من الشيطان.

فقال لهم: ليس بي ما تظنون، ولكن رأيت رؤيا هالتني وأفزعتني وأدهشتني فجُمِع له المعبِّرون وقُصَّت عليهم رؤياه، فقال بعضهم: أضغاث أحلام، وقال بعضهم: هذا من خلط سوداوي ومزاج غليظ، وقال آخر: لا، بل فكر رديء وتخيل فاسد، وقال آخر: لا، بل هو من الجن.

وجعلوا يرجمون الظنون حتى جنَّهم الليل فجمع خدمه وغلمانه وأقرباءه في مجلس واحد حول سريره، ونام هو بينهم فوق فراشه، وجعلوا يقرءون الرقى والعزائم والعوذ

ويبخرون الدخن، حتى كان ذلك الوقت من الليل، فإذا هو برؤياه تلك بعينها بل ما هو أعظم وأهوَل وأصرخ، ففزع من فراشه وأفزع كل مَنْ كان حوله، ثم أدركوه وجعلوا يسألون عنه وهو مرتعد مرعوب لا ينام ولا ينامون توجُّعًا له إلى الصباح.

وتسامَعَ الناس بخبره، وجُمِعت له الأطباء فوصفت له الحِمْيَة والاستفراغ والشَّرْبة، وظنوا أنه نافع من هذا العارض، ففُعل وما نفع شيء.

فلما كان من الأسبوع الداخل في مثل ذلك الوقت من الليل فإذا هو برؤياه بعينها، بل ما هو أعظم وأهوَل فانتبه مرعوبًا مرتعدًا إلى الصباح ما نام.

فلما كان من الغد جُمِع له المنجِّمون والمعزِّمون والعرَّافون وسُئلوا عن موجبات أحكام النجوم؟ فذكروا أن مثل هذا العَرَض إنما يعرض للإنسان من أجل أنه يكون في أصل مولده من استيلاء النحوس على درجة طالعه أو أحد الأوتاد في تحويل السنين والشهور، فقيل لهم: فما الدواء النافع فيه والمُنجي له؟ فقالوا: نختار له يومًا يكون القمر متصلًا بالسعود، وطالعًا جيدًا يكون السعد في الأوتاد والنحوس سواقط عنها، ويتحوَّل من ذلك الوقت من بلد إلى بلد، أو من محلَّة إلى محلة أو من دار إلى دار.

ففُعل ذلك وما نفع الدواء له، وشاع حديثه في الناس، وتسامعت به الأخبار في البلاد، وصار موضع رحمة بعد أن كان بحال غبطة، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس خائفين أن يصيبهم مثل ما أصابه من البلوى والمحن، وجعل أهل المدينة ليس لهم حديث في مجالسهم ومحالفهم إلا حديثه، ولا عظة إلا ما أصابه.

فبينما يومًا جماعة من جيرانه قعود على الطريق في حديثه إذ مرَّ بهم رجل يُعْرَف بالناسك — وكان من أهل العلم والدين والسر قد رُزِق العلم والإيمان — فقيل له: كيف غمك على فلان جارك؟ قال: كغم أبٍ مشفق طبيب على ولدٍ عليل.

فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأن عندي تأويل رؤياه ودواء دائه.

فقيل له: لِمَ لا تقصده وتعرِّفه ما عندك؟ قال: لأنه لا يسمع قولي ولا يقبل نصيحتي.

فقالوا له: ولِمَ ذاك؟ قال: لأن أزهد الناس في علم الرجل جيرانه، ولكن أخبركم أنا وعرفوه أنتم ولا تذكروني عنده؛ فإني خائف ألا يقبل استصغارًا لما أقول، أو يعمل من غير يقين فلا ينفعه، قالوا له: عرِّفنا نسمع ما تقول؟ فقال: أما رؤياه البرِّيَّة القفرة فهو براءته من الدنيا وبراءتها منه يوم يموت.

وأما فقره فهو فقره بعد الموت وشدة الحاجة في الآخرة إلى الزاد.

وأما عريه فهو عري من الأعمال الصالحة التي لها ثواب الآخرة، وأما جوعه وعطشه فهو رغبته وحرصه في طلب شهوات الدنيا.

وأما سواد بدنه فهو سواد وجهه عند الله لسوء أعماله، وأما طول شعره فهو شعور حزن طويل في الآخرة.

وأما تلويث بدنه برجيع ما في جوفه فهو خوف واكتئاب يناله في الآخرة، ويتمنى الرجعة إلى الدنيا ولا سبيل له إلى ذلك.

وأما الثقل الذي رأى على ظهره فهو ثقل أوزاره وسوء أعماله.

وأما الشخصان المنكران فهو منكر أفعاله ونكير أخلاقه وسوء عاداته لا يفارقان نفسه وحيثما ذهبت يتبعانها.

وأما الجبل الشاهق فهو جبلَّته وعادته التي هو عليها مشقة، والشاهق شقاء يناله بعد الموت إلا أن يتوب ويرجع إلى الله عن إثمه.

وأما المسلك الوعر فهو طريق الآخرة التي لا بد من سلوكها بنصب وعناء.

وأما الوادي فهو وادي جهنم، والبئر المُهوي هي الهاوية التي إليها تصير نفوس الأشرار وأرواح الفُجَّار.

فقولوا له: إنْ هو بادر وتدارك وتلافى قبل الموت وإلا فسيكون مصير نفسه إلى هناك بعد الموت، فإن الله تعالى أراد بهذه الرؤيا أن يعظه ويذكِّره وليتوب ويرجع عما هو فيه من الغفلة في أمر الآخرة والحرص على الدنيا.

فقالوا له: فما دواؤه؟ قال: ينوي نية صادقة ويعزم عزمًا صحيحًا ويرجع إلى الله ويتوب مما قد سلف ويتصدَّق بشطر من فضول ماله على الفقراء والمساكين، ويلبس من خشن الثياب ما يواري العورة، ويصوم في كل أسبوع يومين، ويمشي إلى المساجد خاضعًا ويتفقَّه في الدين، ويستعمل القرابين، ويصلِّي في ظلمة الليل، ويستغفر في الأسحار، ويسأل الله تعالى أن يكشف ما به وأنه تعالى يفعل ذلك إن شاء.

فقام القوم من ساعتهم ودخلوا عليه وعرَّفوه بما أصابه ومما هو خائف مترقب له، ثم أخبروه بما قال الناسك، فقال لهم: من أين لكم هذا التأويل؟ ومَنْ وصف لكم هذه الرؤيا؟ فقالوا: أخبرنا العالم في الدين الناصح الذي لا نشك فيما قاله، فقبِلَ قولهم وجمع جماعة من العلماء والفقهاء وأهل المدينة فأخبرهم بما قيل له، فقالوا: حقًّا ما قيل وصوابًا ما وصف.

فسألهم عند ذلك عن التوبة النصوح كيف تكون؟ وعن فقه الدين وطريق الآخرة وأمر المعاد وصفة الجنان وثواب الأخيار؟ وأين يكون منقلب الأشرار؟ فوصفوا له ما هو مذكور في كتب الأنبياء عليهم السلام فقبِلَ ما قالوه وفعل ما أمروه بين شك ويقين

وخوف ورجاء. فلما كان في الأسبوع الآخر مثل ذلك اليوم صام نهاره وتصدَّق عند إفطاره وأكل يسيرًا من الطعام وقام يصلِّي ليلته، فلما كان من ذلك الوقت وهو ساجد إذ غلبه النوم، فرأى في منامه كأنه في تلك البرِّية بعينها، وقد أخضرت من العش والكلأ، وقد تفتَّحت أزهار الرياحين وفاح نسيمها، فإذا هو على رأس قمة عليها عين من الماء الزلال، وكأنه قد اغتسل من مائها فتناثر عن بدنه ذلك الشعر والدَّرَن، وقد ألبس ثيابًا جددًا تفوح منها رائحة الطِّيب، وإذا هو بشخصين قائمين أمامه كأنهما صورتان من النور تشفُّ أبدانهما، عليهما زي الجمال ومحاسن الكمال ورونق الشباب وهيبة الوقار، وهما مبتسمان في وجهه كالمستبشرين له يشيران إليه بالنظر إلى قُدَّام، فلمَّا تأمَّل فإذا هو بفضاء فسيح يقصر دونه الطرف، وإذا هو بأنوار قد ملأت الآفاق من الضياء، وإذا في ذلك الفضاء رياض خضر كأن بينها نسج الديباج من الزهر والنور والزعفران، وإذا في وسطها أنهار تجري على أرض بيضاء كأن حصاها الدر والياقوت والمرجان، وعلى حافات تلك الأنهار أشجار كأن أوراقها الحرير والسندس والأرجوان، وإذا هبَّ نسيم تخشخشت أوراقها كأنها أصوات نغمات أوتار العيدان، وبين تلك الأوراق ألوان الثمار متفننة الأشكال والطعوم والألوان، وإذا بين ذلك قصور شاهقة كأنها جبال من رخام، أبوابها مفتَّحة، وصحون واسعة، وإيوانات متقابلة، فيها سرر موضوعة عليها فُرُش مرفوعة ونمارق مصفوفة، وبينها سادة كرام متكئون متقابلون عليهم زين الجمال ومحاسن الكمال وهيبة الوقار، بأيديهم التُّحَف يسعى بينهم ولدان وغلمان وجواري حِسَان أتراب مبرقات بالمحاسن والجمال، فلما رأى تلك المحاسن قال لصاحبيه: ما هذه؟ قالا: هي الجنة، دار السلام ومعدن الأرواح ومسكن نفوس الأخيار ومستقر الأبرار، فإن أنت دمت على ما أنت عليه إلى الموت فسيكون مصيرك إلى هناك بعد مفارقتها جسدها، فتجد لذة العيش وسرور النعيم صافيًا بلا تنغيص ما بقي الدهر، فمِنْ فَرَحِ ما سمع وسرور ما بُشِّر استفزَّه ذلك فانتبه داهشًا متفكرًا يتمنى عسى أن ينام فيرى تلك الرؤيا ثانيًا بعد أن كان كارهًا للنوم مخافة أن يرى رؤياه الأولى، فلما أصبح تصدَّق بجميع ماله، وأعتق كل عبد له، ولبس المسوح، وكان طول نهاره صائمًا، وسهر ليله قائمًا مجانبًا للناس لا يكلِّم أحدًا، بل يصلِّي نهاره باكيًا حزينًا زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة، حتى فشا خبره في الناس وتسامعت به المدينة والبلاد، فقصده الناس من الآفاق يسألونه رؤياه ويسمعون تأويله ويتعظون به، ثم صار بعد ذلك يتكلم على الناس في المجالس بالحكمة والموعظة ويضرب لهم الأمثال، ويدلهم على طريق الآخرة، ويرغِّبهم في ثواب الجنة، ويزهدهم في غرورها وأمانيها

ويحذرهم الاغترار بها، فقيل له: من أين لك هذه الحكمة والموعظة وأنت لم تكتب الحديث ولم تسمع الأخبار ولم تقرأ الكتب؟ قال: أجد قلبي كالمرآة تتراءى فيه حقائق الأشياء، وأجد لساني يجري على الصواب من غير تكلُّف مني، وأجد نفسي كالترجمان تسمع من وراء الحجاب وتعبِّر، وتؤدي إلى أبناء جنسي ما تسمع بلا تصنُّع مني، فعلم عند ذلك أنه مؤيَّد بملكٍ من الملائكة يلهمه بإذن الله جل ثناؤه، ثم صار ذلك الرجل قدوة في الدين لأهل زمانه، فبينما هو يومًا في محفل، والناس حوله يسألونه عن أمر الدين وهو يفتيهم والناس، ما بين مستمع مصدِّق وشاكٍّ ومتعجب منه؛ كيف كان بالأمس أرغب الناس في الدنيا قدوة لطالبي الشهوات؟ وكيف هو اليوم في أمر الدين إمام لطالبي الآخرة؟ إذ وقف في المجلس رجل من أولئك الجيران الذين دخلوا عليه يعوذونه، فرأى ذلك الناسك في مجلسه يسائله عن مسائل من أمر الدين، ويستوصف منه طريق الآخرة، فدنا منه وقال له — شبه المتعجب: هذا صاحبك الذي فسَّرت منامه ووصفتَ دواءه وأنت اليوم تسائله عن أمر الدين وطريق الآخرة؟ قال: نعم. ولكن قد جاءه من العلم ما لم يأتِني، وقد قبِل نصيحتي أمس فنفعته اليوم، وأنا أقبل منه اليوم ما عسى أن ينفعني غدًا، وكانت وصفتي له أمس تعليمًا بشريًّا ووصفته اليوم تعليم ملكي. ثم إن ذلك الرجل التائب بقي مدة من الزمان مجتهدًا في عبادة الله على عادته حتى قرب أجله ووقت مفارقته، فرأى في منامه كأن روحه قد خرجت من جسده، وإذا هي على صورة مثل شكل الجسد وهيئته سواء، غير أن هذا الشكل جسماني وتلك صورة روحانية شفافة لا ينالها لمس ولا حس، وإذا هي قد ثبتت في الهواء حيث شاءت وكيف شاءت بلا كلفة ولا عناء، وهي تجد من ذاتها خفة وراحة وسرورًا وروحًا ولذة وفرحًا لا توصف بمثلها حال الأجسام، ولما نظرت إلى جسدها فإذا هو مطروح لا حراك به فحنَّت إليه لطول الصحبة وإلف العادة، فلما دنت منه وتأملته فإذا هو كأنه قد أتى ثلاثة أيام بعد الموت وهو منتفخ منتن الرائحة يسيل منه الدم والقيح والصديد، وتجري بين لحمه ودمه الديدان، ويخرج من فيه ومنخريه وأذنيه الديدان والقُمَّل، فلما رأت ذلك المنظر الهائل اشمأزَّت منه وتأخرت عنه، وأنِفَت من الدنو إليه، وجعلت تغبط حالها حين فارقته وخرجت منه ونجت من وسخه ودرنه ووحشته وعاره ووباله، ثم التفتت فإذا هي أبواب السماء قد فُتِحَت والمعراج قد امتدَّ من السماء إلى الأرض، والملائكة نزلت وامتلأت الآفاق من النور والضياء، وسمع مناديًا ينادي: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ فانتبه من نومه ذلك ثم أخبر بما رأى، وأوصى وصيته، وما مكث إلا أيامًا حتى تُوُفِّيَ ومضى لسبيله.

(١٧) فصل في مغزى هذه الحكايات

تفكَّر يا أخي في هذه الحكايات التي تقدَّم ذكرها، واعتبرْ حال المنامات وتصاريفها وعجائبها؛ إذ قد كان يبلغ من أمرها وقوته أن تتقلَّب بالأعيان وتتغير بها العادات وتصاريف أمر الناس من الغم والحزن في طلبها إلى الزهد فيها والترك لها والرغبة في الآخرة والاجتهاد في طلبها بعد الإعراض عنها، وتصديق جمهور الناس بأحكام المنامات وصحة الرؤيا هو مشهور بين العقلاء، ومَنْ ينكر هذا البيان وحقيقة الرؤيا ويجحد صحة المنامات فما هو إلا معاند عدو لما يجهل منكر لما لا يفهم، وقد جعل فكرة المعارضة للحكماء والمجادلة للعلماء، ويفتخر بقوة لسانه وحسن بيانه بغير علم ولا إيمان.

وقد يُرْوَى في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي رجل عليم اللسان جاهل القلب.» نعوذ بالله من ذلك.

(١٨) فصل في أنه ليست من طائفة أضر على الأنبياء ...

اعلم أنه ليست من طائفة أضر على الأنبياء وأشق على المؤمنين من هذه الطائفة سواء يكونون في أزمان مبعث الأنبياء من جملة أعدائهم المنافقين، أو يكونون من بعد مبعثهم في أمتهم؛ وذلك أنهم إن كانوا في أزمان مبعث الأنبياء عليهم السلام فهم الذين يطالبون الأنبياء بالمعجزات، ويعارضونهم بالخصومات ويجادلون المؤمنين بالشبهات مثل ما قالوا لنوح عليه السلام: ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ واستصغارًا للمؤمنين واستنقاصًا لقولهم.

وهكذا قالوا لموسى النبي عليه السلام: أتعلمون أنَّه مُرسَل مِن ربه. وأرادوا جدالهم فترك المؤمنون جدالهم وقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وقالوا لمحمد ﷺ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ وهم الذين كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بالمؤمنين كانوا يتغامزون، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾. وآيات كثيرة في القرآن في ذم هذه الطائفة المجادِلة، فهذه حالهم، وحكمهم إذا كانوا في مبعث أزمان الأنبياء عليهم السلام وأما إذا كانوا من بعد ذلك فهم الذين يقرءون شرائع الأنبياء وأحكام سننهم سواء يكونون من أعدائهم المخالفين أو من أتباعهم المنافقين؛ وذلك أنهم إذا كانوا من أعدائهم فهم الذين يأتون بالشبهات ويجادلون بها المؤمنين، وإن كانوا من أتباعهم فهم الذين

ينكرون من أحكام شرائعهم وآيات كتبهم ما لا يفهمون، ويجحدون ما يقصر علمهم عن تصور مرموزاتهم ودقائق أسرارهم، ثم يعتقدون فيها آراء فاسدة ومذاهب مختلفة، ويضعون لها قياسات متفاوتة بعقولهم الناقصة، ويجادلون بها المؤمنين ويناقضونهم ويحتجُّون بآيات من كتب الأنبياء، عليهم السلام، بغير علم، ويفسرون معانيها على ما يوافق مذاهبهم وآراءهم وقياساتهم، حتى ربما يقولون: إن في حجج العقول كفاية عما جاءت به الأنبياء من الوصايا، ثم يستمر بهم ذلك حتى إنهم ربما ينبذون أحكام كتب الأنبياء وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ في أوهامهم من الوساوس والخيالات، وهم مع ذلك يتعاطون المعقولات وهم لا يعرفون حقائق المحسوسات، ويتكلَّمون في العلوم الإلهيات وهم لا يدرون ما الرياضيات، ولا علم الفلسفة يعرفونها ولا أحكام الشريعة يحققونها ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا بالفلسفة يتهذَّبون ولا بالشريعة يهتدون.

فلو أنهم علموا بأن الله عز وجل إنما جعل العقل مقدمة أمام الرسالة والوحي، وجعل الوحي والرسالة أيضًا مقدمة أمام البعث والقيامة، وجعل البعث والقيامة أيضًا مقدمة للغاية؛ لَمَا قالوا بأن في موجبات العقل كفاية للإنسان عن الوصايا التي جاءت في الرسالة على ألسنة الأنبياء من الأمر والنهي والأحكام والحدود، أترى بأي عقل كان يمكن أن يُعلم بأن الإنسان يُبْعَث بعد الموت ويلقى ربه فيحاسبه ويجازيه لو لم يُخبر في الرسالة؟ أو بأي عقل يمكن أن يعلم حديث آدم وقصة إبليس وخطاب الملائكة وما هو مذكور في القرآن في نحو من سبع وخمسين آية في عدة سور؟

(١٩) فصل في أن الله جل ثناؤه، لما خلق الإنسان في أحسن تقويم ...

اعلم أن الله جل ثناؤه، لما خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفضَّله على سائر الحيوان وملَّكه عليها وسخَّرها له، وجعله خليفة في أرضه يتحكم على جميع ما فيها من المعادن والنبات والحيوان، يتصرف فيها كيف يشاء ويحكم عليها بما يريد، كل ذلك بتمييز عقله وتمكُّنه بكمال هيئته، لم يجُزْ في حكمة الباري تعالى أن يتركه بلا وصية يبيِّن له فيها ما ينبغي له أن يفعل وما لا ينبغي أن يفعل.

ولما أوصاه وأمره ونهاه لم يجز في حكمته أن يتركه دائمًا ولا يدعوه إلى حضرته ويسأله عما فعل، كما ذكر، جل ثناؤه، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ الآية وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾

الآية وقال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ﴾، وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى. ولكن هذه الطائفة المجادِلة زعموا بأن معنى لقاء الله والرجعة إليه هو لقاء ثوابه، وإنما أنكروا رؤية الله؛ لأنهم يظنون ويزعمون ألا يُرى إلا الأجسام وأعراضها حسبُ، والله تعالى ليس بجسم بالإجماع، فمن هذا الوجه والقياس أنكروا لقاء الله ورؤيته، وليس الأمر كما ظنوا ألَّا يُرى إلا الأجسام وأعراضها حسبُ، بل الأجسام غير مرئية بالحقيقة لولا الألوان، والألوان أيضًا غير مرئية لولا النور، والنور ليس بجسم ولا عَرَض؛ لأنه لو كان النور جسمًا لَمَا كان يسري في الأجسام الصلبة الشفافة مثل الزجاج والبلور وغيرهما؛ لأن الجسم لا يدخل في جسم آخر بالإجماع؛ لأنه لو كان جسم يدخل في جسم آخر لدخلت الأجسام كلها في جسم واحد، وأيضًا فإن النور ليس بعَرَضٍ من الأعراض الحالَّة في الأجسام، فإنَّا قد بيَّنَّا أن النفس أيضًا ليست بجسم وإن كان لا يرى أن يظهر أفعالها إلا من الأجسام، وكذلك الملائكة والشياطين والجن والأرواح والأنفس والعقل الفعَّال؛ فهذه كلها ليست بجسم ولا أعراض وإن كان لا يظهر أفعالها إلا من الأجسام، وكذلك النور ليس بجسم وإن كنا لا نرى أن يظهر لأبصارنا إلا من جسم.

ولو لم يجُزْ أن يوصف الباري، جل ثناؤه، بالرؤية لَمَا قال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ وأنه تجلى للجبل، فإن التجلِّي والحجاب لا يقال ولا يوصف بهما الأشياء التي لا يجوز عليها الرؤية، والله تعالى أعلم بصفات نفسه وما يجوز أن يوصف به من عقول هؤلاء المجادِلة.

(٢٠) فصل في الرؤيا وبطلانها

ومن احتجاجات هؤلاء الطائفة المجادِلة على بطلان الرؤيا وصحة المنامات يقولون: إنه إذا رأى الإنسان في منامه كأن رأسه مباين لبدنه أفترى بأي عين يبصر رأسه؟ ولا يدرون بأن النفس جوهر لا ينالها الحديد لو قُطِّع الجسد إربًا إربًا.

ومثل هذه الرؤيا من أدل الدليل على وجود النفس وشرف جوهرها إذا كانت تتأتَّى لها رؤية الجسد بسوء الحال مقطوع الأعضاء ناقص البنية معوج الصورة وهي سليمة صحيحة من الآفات، مثل أنفس المقطوعي الأيدي والأرجل والزمنى المفلوجين نصف أبدانهم.

وذلك أنك ترى كثيرًا منهم يكون أعقل وأذكى وأعلم وأفهم ممن هو صحيح الجسم سمين البدن عظيم الجثة.

فلو كان الإنسان هو هذا الجسد حسبُ بلا نفس معه لكان يجب أن يكون كل مَنْ كان أصح جسمًا وأكبر جثةً وأسمن بدنًا يكون أكثر إنسانية وأعقل وأفهم وأذكى وأعلم ممن كان أصغر جثةً أو كان ناقصًا بعض الأعضاء أو كان مهزولًا.

وقد يوجد الأمر بخلاف ذلك في كثير من الناس وفي كثير من الحيوانات أيضًا: فإنك تجد القرد أذكى من الخنزير، والثعلب أخبث من الذئب، والببغاء أفصح من الكُرْكِيِّ، والقطا أهدى من النعامة، وما هو موصوف في كتاب الحيوان من هذا المعنى.

وقد تبيَّن بأن الحيوانات لها نفوس أيضًا، وتلك النفوس تتفاضل لا بِكِبَر الجثة وعِظَم الخِلْقة وحسن الصورة حسبُ، بل من قِبَل أفعالها وجواهر نفوسها وأخلاقها وخواصها ومتصرفاتها مما هو مذكور في كتاب الحيوان وكتاب الخواص.

كل ذلك دليل على أن مع هذه الحيوانات جواهر أخرى هي الفاعلة المحركة لأجسامها؛ إذ كان الجسم لا فعل له بمجرده ولا للعرَض أيضًا له بالإجماع.

(٢١) فصل في الرد على من يزعم أن الإنسان ليس هو بشيءٍ ...

ويقال لمن يزعم أن الإنسان ليس هو بشيء سوى هذه الجملة المشار إليها — يعني هذا الجسم وما يحلُّه من الأعراض مثل الحياة والحس والحركة — وأن النفس لا وجود لها: لِمَ لا يسمي هذه الحيوانات إنسانًا؟ فإن كل واحد منها هو أيضًا جسد فيه الحياة والحس والحركة؟ فإن قال: أعني بالإنسان بِنْيَة مخصوصة، أو قال: مزاجًا معلومًا أو قال: تأليفًا ما، فيقال له أخبِرْنا أي بِنْيَة تعني وأي مزاج، بيِّن لنا؟ وإنَّا قد نرى بِنْيَة بدن الزنجي مخالفة لبنية بدن التركي، ومزاج الطفل مخالفًا لمزاج الشيخ، وتأليف بِنْيَة المفلوج الزَّمِن مخالفًا لبنية السليم الصحيح، وطبع العليل مخالفًا لطبع الصحيح، وكلهم إنسان لا يختلفون في الإنسانية مع اختلاف هذه الأحوال.

فبيِّن لنا: ما ذلك المعنى الذي كلهم فيه بالسوية إن لم يكن للنفس حقيقة ولا وجود؟ فإن قال: الروح فهو الذي نسميه نفسًا، وإنما الاختلاف هو في العبارة ولا ضير إذ قد اتفقنا في المعنى.

فإن قال: إن الجسم يفعل هذه الأفعال بكون الروح فيه ولكن الروح عَرَض من الأعراض، فقد ناقَضَ وادعى بأن ما لا فعل له يجتمع مع ما له فعل فيكون فاعلًا؛ فهو المطالب بالدليل على دعواه! ولم يصح للقائلين بهذه الدعوى دليل برهاني يقيني إلى يومنا

هذا إلا شبهات ودعاوى، والمنازعة قائمة بذاتها، فإن قال بأنه إذا دخل في الجسم عَرَضٌ من الأعراض فإن الله تعالى يُحْدِث عند ذلك فعلًا فقد ناقَضَ مذهبه وأقر بخلق الأفعال بعد ما كان منكرًا لها إن كان من أهل الاجتهاد، وإن كان ممن يقول بطريق السمع فالأمر سهل؛ لأنه قد وردت أخبار كثيرة في تصحيح وجود النفس والروح وآيات كثيرة في القرآن تنطق بها، وإن كان كلامنا مع من يرد دلائل العقل وحجج الجدل.

(٢٢) فصل في وجود النفس وحقيقة المنامات

وإذ قد ثبت بما ذكرنا وجود النفس وحقيقة المنامات وصحة الرؤيا بما فيه كفاية لكلِّ منصف عقله، فنريد أن نذكر كمية أنواع المنامات وفنون تصاريفها. واعلم يا أخي أن رؤية المنامات على ستة أنواع: فمنها ما هو أضغاث أحلام وأحاديث النفس، ومنها ما يكون من جهة غلبة أخلاط الجسد، ومنها ما يكون من جهة موجبات أحكام النجوم، ومنها ما هو وساوس من الشيطان، ومنها ما هو إلهام من الملائكة، ومنها ما هو وحي من الله وتأييده. تفسيرها: أما أضغاث الأحلام فمثل ما يرى كل إنسان ما يكون منصرفًا فيه نهاره ومفكرًا فيه ليله من الأعمال والصنائع والتجارات والأقاويل والفكر والهموم وما شاكلها من أحاديث النفس، كالذي يرى الحراث من الزرع والحصاد والشجر والنبات والعوامل من الحيوان وما هو منصرف فيه نهاره ومفكر فيه ليله، وعلى هذا القياس سائر طبقات الناس مما يرون من أحوالهم ومتصرفاتهم يُسمَّى أضغاث أحلام وأحاديث النفس. وأما الذي يكون من غلبة أخلاط الجسد فهو مثل الذي يرى مَنْ غلبت عليه مرة السوداء من السواد والدخان والقاذورات والأحزان وما شاكلها، وكالذي يرى البلغمي المرطوب من الأنداء والأمطار والآجام والأنهار والوحل وما شاكلها، وكالذي يرى الدموي من الفرح والضحك واللعب والسرور وما شاكلها، وكالذي يرى الصفراوي من الحريق والبروق والنيران والألوان الحمر وما شاكلها.

وأما الذي يكون من أحكام موجبات النجوم فهو الأصل وسائرها فروع: وذلك أن بني الإنسان يختلفون في رؤيتهم المنامات على فنون شتَّى: فمنهم مَنْ يكون كثير المنامات صحيح تأويلها، ومنهم مَنْ هو بالضد، ومن الناس مَنْ تكون عجيبةً رؤياه غريبًا تأويلها كما ذُكِر ذلك في كتب تأويل المنامات بشرح طويل.

(٢٣) فصل في تأويل المنامات وإن كانت مختلفة

ثم اعلم يا أخي أن تأويل المنامات وإن كانت مختلفة كثيرة الفنون فليست تخرج كلها من ثلاثة أنواع: منها ما يكون مثلًا بمثل سواء، كالذي يرى كأنه سافر إلى بلد فيتفق له السفر إلى ذلك البلد، أو كالذي يرى أنه وَلِيَ ولاية فيلي ذلك العمل، أو يرى إنسانًا في منامه فيراه في اليقظة، وعلى هذا القياس تكون رؤيا كثير من الناس.

ومنها ما يكون تأويلها بالضد مما رأى كالذي يرى كأنه يبكي فيناله فرح، أو يرى كأنه يضحك فيغتم وأشباه ذلك.

ومنها ما له تفسير كالذي يرى أنه طار فسافر، أو كأنه أكل لحم إنسان فاغتابه، أو أكل طعامًا حارًّا فوقع في خصومة، وما شاكَل هذا مما هو مذكور في كتاب تأويل الرؤيا. وكل ذلك إنما هو بحسب موجبات أحكام النجوم في أصل مولد الإنسان في تحاويل سنِّه وشهورها، كما ذُكِر ذلك في كتاب أحكام النجوم بشرح طويل، ولكن نذكر منها مثالًا في هذا الفصل؛ ليكون دليلًا وقياسًا على سائر ما ذكرنا لمن يعرف من أحكام النجوم شيئًا.

مثال ذلك: متى كان في أصل مولد الإنسان بين رب الطالع والمستولي على الطالع، وبين رب التاسع والثالث والمستولي عليهما، اتصال أو نظر جميعًا، أو دفع التدابير أو حال من الأحوال الخمسة والعشرين المذكورة في كتاب المدخل إلى أحكام النجوم، فإن ذلك الإنسان كثير المنامات.

فأما تصاريف قوتها واختلاف تأويلاتها فبحسب البروج وطبائعها والبيوت وأوتادها واستيلاء السعود عليها أو النحوس وشرحها طويل، ولكن نذكر مثالًا واحدًا ليكون قياسًا على الباقية؛ وذلك أنه متى كان الاتصال برب الطالع ورب التاسع من السابع وللزُّهَرَة هناك حظ من الحظوظ المعروفة المذكورة في المدخل، فإن أكثر رؤيا ذلك الإنسان وتأويلها يكون في أمر التزويج والنكاح والمواصلات وما شاكلها، وإن كان الحظ للمشتري يكون ذلك في تأويل المعاملات والتجارات والأخذ والإعطاء وما شاكلها، وإن كان الحظ للمريخ فإن ذلك يكون في باب الحروب والخصومات والمنازعات وما شاكلها، وإن كان الحظ لعطارد فإن ذلك يكون في باب المحاسبات والمحاورات والخصومات وما شاكلها، وإن كان الحظ للشمس فإن ذلك يكون بحضرة الملوك والسلاطين، وإن كان الحظ لزُحَل فبحضرة المشايخ والأكابر من الناس، وإن كان الحظ للقمر فإن ذلك بحضرة من العوام وجمهور الناس.

مثال آخر: فإن كان الاتصال من البرج التاسع والمستولي عليه زحل فإن أكثر رؤياه أسفار بعيدة وأمور قديمة وما شاكلها، وإن كانت الشمس فالهياكل وبيوت العبادات والأعياد والجماعات وما شاكلها، وإن كان عطارد فعن البحث عن العلوم الدقيقة والأسرار الخفية، وإن كان القمر فعن الأحاديث والأخبار والروايات، وإن كان المشتري فعن العبادات والصوم والصلاة وما شاكلها، وإن يكن الزُّهَرة فعن الوحي والزجر والكهانة، وإن يكن المريخ فعن الذهاب في المطالب وطلب البشارات وما شاكلها.

وعلى هذه القياسات وسائر الاتصالات في سائر البروج والبيوت تمتزج دلائل طباع الكواكب بدلائل طبائع البروج، كما ذُكر ذلك في كتب الأحكام بشرح طويل، وهذه الفنون والتصاريف أيضًا تكون رؤيتها وتأويلها بشارات وإنذارات.

(٢٤) فصل في أن رؤية المنامات تكون إلهامًا من الملائكة أو وسواسًا من الشيطان

وأما المنامات التي تكون رؤيتها إلهامًا من الملائكة أو وسواسًا من الشيطان فإن الباب فيهما واحد، وإن كان الطريقان مختلفين فنحتاج أن نُبين أولًا ما الملائكة، وما الإلهام، وما الوسوسة، إذ كان هذا الباب علمًا غامضًا وسرًّا خفيًّا، وإن كان أكثر المجادلة ينكرونها بقلوبهم، وإن كانوا لا يُظهرون إنكارها بألسنتهم مخافة السيف والشنعة.

ونبدأ أولًا بوصف نفوس شياطين الإنس، ثم نذكر نفوس شياطين الجن، ثم نصِف نفوس المؤمنين الذين هم ملائكة بالقوة.

واعلم يا أخي أن الإنسان هو الذي يجب عليه الأمر والنهي إما بموجب العقل أو بطريق السمع، فمتى قام بواجب حكمة أحدهما فابتدأ أولًا يتعلم فقه الدين ليخرج به من ظلمة الجهالة، ثم ابتدأ بتهذيب الأخلاق التي تخلَّق بها من الصبا فأصلح منها ما كان فاسدًا، وكذلك نظر في عاداته التي اعتادها من الصبا في أيام الشباب فغيَّر منها ما كان مذمومًا من اتباع الشهوات المذمومة وطلب اللذات المكروهة، وكذلك نظر في اعتقاداته المذمومة وآرائه الفاسدة التي اعتقدها من غير علم ولا بصيرة ولا بحث عن حقائقها فحلَّها عن ضميره وأبدلها بما هو خير منها، ثم عمل بما رُسِمَ له في الشريعة العقلية أو السمعية من الأعمال الصالحة، وسار في أمور معيشته بسيرة عادلة، ثم فكر في أمور الدنيا واعتبار أحوالها وما تتصرف به الأمور حالًا بعد حال حتى تنتبه نفسه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، فيُبصر عيوب الدنيا ويعرف غرورها ويزهد فيها، ثم يبحث عن أمور الآخرة

ويفكر في المعاد حتى يعرفها حق معرفتها، ثم يرغب فيها ويطلبها حق الطلب ويدوم على ذلك إلى الممات، فإذا فعل فإن نفسه إذا فارقت جسدها عند الموت استقلَّت بذاتها واستغنت عن التعلق بالأجسام بعد ذلك، وتخلصت من وسخ الأبدان، ونجت من بحر الهيولى، وأُعْتِقت من أَسْر الطبيعة، وفازت بالخروج من عالم الكون والفساد، وارتقت إلى عالم الأفلاك، وسعت في سعة فضاء السموات فرحانة مسرورة ملتذَّة مطلقة حيث شاءت ذهبت، فعند ذلك تكون ملكًا من الملائكة.

ومن الدليل على ذلك ما ذكر الله جل اسمه، من كرامات أهل الجنة وقال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾.

واعلم يا أخي أن الملائكة لا تسلِّم إلا على أبناء جنسها ولا تخاطب إلا مَنْ شاكلها، كما أن الإنسان لا يسلِّم على الجماد والحيوانات، بل على أبناء جنسه من الناس، ولا يخاطب إلا أمثالهم منهم، وإنما ذكر الله تعالى سلام الملائكة على أهل الجنة على سبيل الكرامة لأهل الجنة؛ لأنهم هم القادمون عليهم والملائكة هم المقيمون هناك.

ومثال ذلك ما جرت به سنة الشريعة أن الحاج إذا رجعوا إلى منازلهم فإن المقيمين هم الذين يقصدونهم ويدخلون عليهم فيهنئونهم بالسلام.

فعلى هذا المثال يكون حكم نفوس المؤمنين العارفين الأخيار الفضلاء الأتقياء الأبرار، الذين هم في الدنيا زاهدون، وإلى دار الآخرة راغبون، وإلى نعيمها مشتاقون، وفي أقوالهم وأخلاقهم وآرائهم ومذاهبهم وعلومهم بالملائكة متشبهون، فنفوسهم ملائكة بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل؛ ومن الدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ إلى آخر الآية.

واعلم يا أخي أنه ليس كل إنسان يمكنه أن يتصور هذا الأمر على حقيقة ما قلنا ووصفنا إلا بعد رياضة كثيرة في العلوم والمعارف، وبعد بحث دقيق عن علم النفوس والمعرفة بحقيقة جوهرها، وبعدما يكون قد هذَّب أخلاقه وصحَّح اعتقاده وحسَّن مذهبه وزكَّى عمله، ثم نظر في هذا العلم وبحث عن هذا السر الجليل الدقيق وطلب هذا الأمر الشريف الجليل، فإن وقع له التصور لهذا الأمر الذي قلنا ووصفنا، وإلا فليس له طريق إلا الإيمان بما هو مذكور في كتب الأنبياء من هذه المعاني التي وصفناها والتصديق بما يخبره به مَنْ هو أعلم منه بهذا الأمر وأعرف منه بهذه الأسرار.

(٢٥) فصل في أمر الملائكة ونفوس الأخيار

وكما قلنا في أمر الملائكة ونفوس الأخيار، فهكذا نقول في أمر الشياطين ونفوس الأشرار مثل ما قلناه في أمر الملائكة ونفوس الأخيار.

واعلم يا أخي أن الإنسان إذا بلغ أَشُدَّه وعقل الخطاب وجاءته الوصية من الله، وسمع الأمر والنهي، وفهم الوعد والوعيد والترهيب والترغيب والزجر والتهديد، ثم لم يأتمر ولم ينتهِ ولم يتعظ ولم ينزجر، وأهمل أمر الدين وأعرض عن طلب الآخرة، ونسي ذكر المعاد واشتغل بطلب الدنيا وحرص على جمع حطامها، واشتدت رغبته فيها، وأهمل أمر نفسه والنظر في مصالحها، وجعل فكره اتباع الشهوات وطلب الملذات من الأكل والشرب واللباس والمركب والمسكن المزخرف والتفاخر والتكاثر، ومع هذه كلها تكون أعماله سيئة وأخلاقه رديئة وأفعاله فاسدة وسيرته جائرة وجهالته متراكمة، فإن نفسه تكون شيطانة بالقوة، وإذا فارقت جسدها عند الموت على هذه الحالة كانت شيطانة بالفعل، وذلك أنها إذا فارقت جسدها بقيت مسلوبة آلات الحواس الخمس التي كانت تتناول بها الملاذَّ الجسمانية وكانت تتمكَّن بها من الشهوات الجرمانية، وصارت بعد ذلك ممنوعة عنها بعدما اعتادتها بطول التدرب فيها في سالف الأيام وماضي عمرها، وانطبعت في همتها تلك الشهوات وصارت جبلَّة لها ثم ﴿حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، فعند ذلك يكون مثَلُها كمثَل مَنْ سُمِلت عيناه وصُمَّت أذناه وسُدَّ منخراه وأُخْرِس لسانه وشُلَّت يداه وقُطِّعت رِجْلاه وعمي قلبه وهجره أحباؤه واشتد شوقه وشهوته إلى لذته، فهكذا يكون حكم نفوس الكفار والأشرار والفساق والفجار إذا فارقت أجسادها، وسُلِبَت عنها آلات الحواس وحيل بينها وبين شهواتها ومحبوباتها، فعند ذلك تتمنى العَوْد كما قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ولا سبيل لها إلى ذلك ولا هي أيضًا تهتدي للطريق إلى ملكوت السماء فتعرج إلى هناك كما قال الله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ الآية، فعند ذلك تبقى هذه النفوس مجردة بذواتها بلا جسد، وتكون هائمة في الجو دون فلك القمر، وتطرح بها أمواج الطبيعة في بحر الهيولى إلى كل فج عميق وهي مشتعلة فيها بنيران شهواتها، وتكون معذبة بذاتها من وزر سيئاتها وسوء عاداتها إلى يوم القيامة كما ذكر الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ إلى آخر الآية.

(٢٦) فصل في حنين النفوس إلى أجسادها

ثم اعلم يا أخي أن هذه النفوس التي تفارق أجسادها على هذه الأوصاف فإنها تحنُّ إلى أبناء جنسها من النفوس المتجسدة الشريرة التي على سننها وسيرتها في شهواتها كما يحنُّ الأعمى البصير إلى أبناء جنسه إذا سمع أصواتهم، وتستروح هذه النفوس أيضًا إلى وسوسة أبناء جنسها وحثالتهم على فعل تلك العادات التي كانت فيها، مما تقدَّم من الشرور وطلب الشهوات، لما تجد من ألم شهواتها المركوزة في ذاتها من سوء عاداتها القديمة فيما يستروح كمن قد عدمت شهوته للطعام والشراب، وضعفت حرارة معدته فهو يشتهي ما لا يستمرئ وبه شبق وآلته لا تُواتيها؛ فهو عند ذلك يستروح بالنظر إلى الآكلين والشاربين والفاعلين من ألم ما يجد في نفسه من الشهوات المركوزة وعاداته الجارية، وإلى هذه النفوس ووسواسها أشار بقوله: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ فشياطين الجن هي النفوس المفارقة الشريرة التي قد استجنَّت عن إدراك الحواس، وشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة المستأنسة بالأجساد.

واعلم يا أخي أن هذه النفوس المتجسدة الشريرة إخوان لتلك النفوس المفارقة، فإذا فارقت أجسادها بعد الموت لحقت بتلك النفوس المتقدمة التي قد خلت في القرون الماضية، وحصلت في العذاب معها كما ذكر سبحانه: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ إلى آخر الآية، وفي هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن لمن يتدبرها ويتفكر فيها.

وإذ قد تبين ما الشياطين ووسواسها وكيف تنال النفوس من الآلام والأحزان بمجردها ممن وصفناه فيما تقدَّم.

فكذلك أيضًا أن تلك النفوس الملكية الناجية التي تقدَّم ذكرها هي أيضًا إذا فارقت أجسادها وحصلت لها تلك الكرامة التي وصفنا حنَّت هي عند ذلك إلى مخلفيها من الأولاد وقراباتها وتلامذتها وأهل دينها ومذهبها الصالحين منهم وعطفت عليها، وتمنَّت لها هي ما وجدت من الكرامات والراحة والسرور، حتى إنها ربما نزلت لهم في منامهم ووعظتهم وأذكرتهم المعاد، أو وصفت لهم ما صارت إليه وأمرتهم بلزوم طريق التقوى وعمل الخير وطلب النجاة، وبشَّرتهم فاستبشرت بمن يقدم عليها بعدها كما ذكر الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ إلى آخر الآية، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾، ولما تبين لأهل البصائر والمعارف أن تلك النفوس

هذه حالها من الكرامات، فقالوا من أجل هذا أمرَ ورخَّص واضعو النواميس وأصحاب الشرائع في سنن الديانات الذهاب إلى قبور الأنبياء والأئمة المهديين والصالحين من عباد الله بالصدقات والقرابين والصوم والصلاة والدعاء عند قبورهم والسؤال بشفاعتهم، فكم يا أخي من مسجد ومشهد بُنِي في الأرض بسبب رؤية تمثال نبي في المنام أو شهيد أو عبد صالح، فإن لم تكن تلك النفوس موجودة باقية عند الله ويشعر مَنْ يستشفع بها إلى الله ويقتدي بها في سنن الدين لَمَا كانت لهذه السنن فائدة وإثبات؛ لأن الباطل لا ثبات له ولا دوام.

(٢٧) فصل في كيف تعرف الرؤيا

وإذ قد تبيَّن بما وصفنا ما الملائكة وما الشياطين فنريد أن نُبيِّن كيف تعرف الرؤيا التي تكون من إلهام الملائكة أو من وسواس الشياطين أو غيرهما من سائر أنواع المنامات؟ فنقول: إن كل رؤيا تكون فيها موعظة أو في تأويلها دلالة على التقوى أو حث على عمل الخير أو تزهيد في الدنيا أو ترغيب في الآخرة أو ذكر المعاد أو ما شاكل هذه المعاني؛ فهي إلهام من الملائكة مثل ما هي في تلك الكلمات التي حفظها العراقي بالروم في تلك الكنيسة من أولئك الرهبان والقسيسين من العظة والتذكير، وإنما وعظته الملائكة بتلك الكلمات السريانية في بلد غير بلده وفي شريعة غير شريعته وبلغة غير لغته؛ ليكون أبلغ في الموعظة وأعجب للتذكار؛ لأن الحكماء إذا أرادوا تبليغ الموعظة جعلوها بضرب من الأمثال على ألسنة الحيوانات وما لا نُطْقَ له؛ ليكون أعجب وأغرب وأبلغ في الأوهام مثل ما هو موجود في كتاب كليلة ودمنة وأمثاله من الكتب، فأما الموعظة والتذكار في رؤيا ابن الملك فهو ما فيها من الدلالة على أن أنفس الأشقياء في الدنيا من الفقراء والمساكين والضعفاء والمرضى والزمنى وأهل البلوى إذا فارقت أجسادها وقعت في راحة وسرور ولذة مثل ما رأت نفس ابن الملك في منامه من اللذة والفرح والسرور مع ما كان جسده فيه من البلوى وسوء الحال، إذ قد تبيَّن أن اللذة ليست سوى الخروج من الآلام كما بيَّنَّا في رسالة الحاسِّ والمحسوس، وأما رؤيا ذلك الرجل المُترف التائب فمما لا شك فيه أنها كانت إلهامًا من الملائكة بإذن الله تعالى؛ لما كان فيها من الموعظة والدلالة على طريق الآخرة والرشد في الدين لما صار إليه هو من التوبة والصلاح والخير واتعاظ الناس حتى صار قدوة لأهل الدين وطلاب الآخرة في زمانه، وأما الرؤيا التي تكون من وسواس الشياطين فهي مثل ما يرى الراغبون في حطام الدنيا من محاسن مرغوباتهم ومشتهياتهم فيزدادون رغبة

فيها وشهوة، ومثل ما يرى الحساد من محاسن محسودهم فيزدادون حسدًا، ومثل ما يرى المتعادون من أسباب العداوات فيزدادون عداوة، ومثل ما يرى أصحاب الشهوات مشتهياتهم فيزدادون في الدنيا حسدًا وحرصًا وعداوة وشرهًا وما شاكل هذا؛ فهو وسواس الشياطين الغائصين في طلب اللذات.

(٢٨) فصل في حكاية الرجل المنهمك في الشهوات

وذكروا أن رجلًا من المنهمكين في الشهوات وطلب اللذات كان أكولًا شريبًا شبقًا، فمن كثرة ما كان يأكل ويشرب ويجامع حرقت معدته وضعفت قوته الهاضمة، واسترخت آلته من كثرة الجماع، وكان ممكَّنًا من شهواته، ولكن آلات الجسد لم تكن تواتيه، ولا قوة النفس الشهوانية تطاوعه في ترك الطلب؛ لأن الشهوات صارت عادة لها لكثرة الدربة فيه وجبلَّة مركوزة فيها، فجعل ذلك الرجل يطلب الحيلة والدواء مما يُقوي القوة الهاضمة في معدته ويُنعظ آلته للباه لشدة شهوته، وكان مما يداوي ويحتال في إنعاظ آلته أن أمر حتى صُوِّر له في بيت الخلوة على الحيطان والسقوف صور الجامع للباه، وكتب بين تلك الصور أخبار المرأة الأليفة وأوصافها في حالات الجماع، ثم كان يدخل ذلك البيت مع غلمانه وجواريه يخلو ويشرب ويلعب ويلهو وينظر إلى تلك الصور ليستنهض بها آلته، فلما أعيتْه ولم تُجِبه دعا عند ذلك غلمانه إلى نفسه ليأتوه من خلفه، وصار ذلك دأبه وعادته حتى إنه ربما كان يهيج ويصيح كالسنانير وينهق كالحمير، ثم امتنع عنه غلمانه لبشاعته وخرَقه وقبح منظره وهجروه، وهلك هو على تلك العادة، وفشا حديثه في الناس وسوء الثناء عليه، وربما كان يرى بعض غلمانه في منامه على تلك الحال التي كان يدعوهم إلى نفسه فيصيح وينهق.

وأمثال هذه النفوس التي ذكرناها هي شياطين بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل، فاعتبِرْ يا أخي بخبر الرجل الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ فيقال: إنه هذا كان رجلًا من خيار أصحاب موسى عليه السلام، بعثه في سرية فابتُلِي بعشق امرأة وخاف من أصحاب موسى فارتدَّ واتبع هواه، وله قصة طويلة مذكورة في كتاب التاريخ.

واعلم يا أخي أنك إذا تأملت وجدت في القرآن نحو ثلاثمائة وستين مثلًا ضرب الله بعضها في صفات المؤمن وأهل الخير وأمر الآخرة وثواب الأخيار، وبعضها في صفات الكفار وأنفس الأشرار وسوء منقلبها ومبالغة في ذمهم وتوبيخهم وسوء الثناء عليهم، فلا

تجد مثلًا أشد توبيخًا من هذا؛ فإنه شبَّهه بالكلب في اتباع الشهوات فقال: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، يعني مَنْ كان مثلهم في اتباع شهواته، ولا تجد أيضًا أشد اختصارًا في ترغيب نعيم الجنان من قوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

(٢٩) فصل في الإلهام وفي كيفية قبول الوحي في اليقظة ورؤية الملائكة واستماع كلامهم

وإذ قد تبيَّن بما وصفنا ما الملائكة والشياطين، وما الإلهام والوسوسة، وما الوحي وما الرؤيا الصادقة فيما تقدم ذكره فنريد أن نُبيِّن كيفية قبول الوحي في اليقظة ورؤية الملائكة واستماع كلامهم.

فاعلم يا أخي أنه لما كانت رتبة الإنسانية متوسطة بين الموجودات، كما بيَّنَّا في رسالة المعارف، وكان أقرب الموجودات إلى الإنسانية نسبةً مما هي فوقها رتبة الملائكة وأقربها إليها مما هو دون رتبة البهيمة، وكان بعض الحيوانات إلى الإنسانية أقرب نسبةً إما من جهة صورة بنيته وشكل جسده، وإما من جهة ذكاء النفس وصفاء جوهرها؛ وذلك أن منها ما يفهم الخطاب ويقبل الأمر والنهي كالفيل، ومنها ما يحاكيه في كلامه وأصواته كالببغاء والهزار، ومنها ما يحاكيه في أخلاقه وسيرته كالحمام والفرس والجواد، ومنها ما ينقاد لطاعته وخدمته كالبقر والغنم والحمير والجمال وغيرها، ومنها ما يقبل تعليمه وتأديبه كالدب والقرد، ومنها ما يبعد من الإنسان وينفر منه كالوحش.

ولما كان من هذه الأصناف المستأنسة بالإنسان المسخَّرة له من الحيوانات كل ما كان منها أزكى نفسًا وأجود جوهرًا كان تعليم الإنسان له أمكن وقبول التأديب أسهل.

فعلى هذا القياس نقول في قبول الإنسان إلهام الملائكة والوحي، وذلك أن كل إنسان تكون نفسه أصفى جوهرًا وأذكى فهمًا، كما بيَّنَّا في رسالة كيفية الطريق إلى الله تعالى، فكانت أخلاقه وسجاياه لأخلاق الكرام أقرب وأشبه، كما بيَّنَّا في رسالة الأخلاق، وكان مذهبه واعتقاده باعتقاد الأنبياء ومذهب الحكماء أشد تحققًا، كما بيَّنَّا في رسالة الناموس، وكانت أعماله وسيرته بأفعال الملائكة وسيرتها أشد تشبهًا، كما بيَّنَّا في رسائل إخوان الصفا، فأقول: إن قبول نفسه إلهام الملائكة والوحي والإنباء أمكن، وفهمه لمعانيها أسهل مثل نفوس الأنبياء، ثم بعدهم نفوس الصدِّيقين، ثم بعدهم نفوس المؤمنين المصدقين الأخيار الفضلاء الأبرار، ثم الأمثل فالأمثل والأقرب فالأقرب.

والدليل على صحة ما قلنا وصايا الأنبياء والحكماء بهذا الأمر؛ وذلك أن موسى، عليه السلام، أوصى أولاد هارون أن يلزموا بعد قيامهم بشريعة التوراة خدمة الهيكل المسمى الزمان، ويتعبدوا فيها ويتركوا لذات نعيم الدنيا واتباع شهوات النفوس، ويقتصروا على ما لا بد منه من القوت وما يستر العورة من اللباس، ويتركوا ما سوى ذلك من الفضول.

كل ذلك كيما تصْفُوا نفوسهم وتتهذَّب أخلاقهم وتصير نفوسهم متهيئة لقبول الوحي والإلهام، وقال لهم: «مَنْ تعبَّد منكم على ما رسمت له في هذا الهيكل أربعين سنة مخلصًا جاءه الوحي من الله عز وجل ونزلت عليه الملائكة بالروح.»

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أخلص العبادة لله أربعين صباحًا نوَّر الله قلبه وشرح صدره وأطلق لسانه بالحكمة ولو كان أعجميًّا غلقًا.»

وقال موسى في مناجاته بعد خطاب طويل: «رب إني أجد في التوراة نعْت أمة كادوا أن يكونوا أنبياء من دقة التمييز من هم اجعلهم من أمتي.» قال الله تعالى: «يا موسى تلك أمة أحمد.» فقال موسى: «يا رب جعلت الخير كله في أمة أحمد فاجعلني منهم.» فقال له ربه: «أنت منهم وهم منك أنت على دين الإسلام وهم على دين الإسلام.»

وكان مما يقوله المسيح للحواريين: «إنما جئتكم من عند أبي وأبيكم لأحييكم من موت الجهالة وأداويكم من مرض المعاصي، وأبرئكم من مرض الآراء الفاسدة والأخلاق الرديئة والأعمال السيئة؛ كيما تتهذَّب نفوسكم وتحيا بروح المعارف وتصعدوا إلى ملكوت السماء عند أبي وأبيكم فتعيشوا هناك عيش السعداء، وتتخلصوا من سجن الدنيا وآلام عالم الكون والبلى.» التي هي دار الأشقياء وجور الشياطين وسلطان إبليس.

(٣٠) فصل في سير الأنبياء ووصاياهم

واعلم يا أخي أنك إذا تأملت سير الأنبياء ووصاياهم وسنن واضعي النواميس ومراميهم لوجدت أن غرضهم كلهم مما شرعوه هو تأديب النفوس الإنسانية ونقلها من مرتبة البشرية إلى رتبة الملائكة، وتخليصها من عالم الكون والفساد إلى عالم البقاء والدوام، كما قيل: إنما خُلِقتم للأبد، وإنما من دار إلى دار تُنْقَلون، من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى البرزخ، ومن البرزخ إما إلى الجنة وإما إلى النار، كما قال الله تعالى: فأَمَّا الذين سُعِدوا ففي الجَنَّة خالِدين فيها ما دامتِ السموات والأرض، وأَمَّا الذين شَقُوا ففي النار لهم فيها زَفِيرٌ وشَهِيق خالِدين فيها ما دامتِ السموات والأرض.

فانظر يا أخي في هذا الأمر الخطير، وتفكر في خذا الخطب العظيم، وانتبه من يوم الغفلة ورقدة الجهالة، وبادر وتزوَّد فإن خير الزاد التقوى، وقد أعذر مَنْ أنذر، وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

(٣١) فصل في كيفية قبول نفوس الأخيار إلهام الملائكة

وكما قلنا في كيفية قبول نفوس الأخيار إلهام الملائكة فهكذا نقول في قبول نفوس الأشرار وسواس الشياطين، كما بيَّنَّا طرفًا منه قبل ذلك: إن كل إنسان يكون في أفعاله القبيحة وأخلاقه الرديئة وجهالاته المتراكمة بالبهائم أشد شبهًا، فأقول: إن نفسه لوسواس الشياطين أسرع قبولًا، ولطاعة الهوى أسهل انقيادًا كما ذكر الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ الآية.

فإن قيل: كيف يجد الإنسان نفسه في حال إلهام الملائكة والوحي؟ قل كما حكى ذلك الرجل التائب عن نفسه حين قيل له: من أين لك هذه الحكمة؟ فأن قيل: كيف يرى الإنسان أشخاص الملائكة وليست بأجسام؟ فقل: كما يرى رسوم الأشياء في المرايا وصورها وليست تلك الصور بأجسام، فإن قيل: كيف يسمع كلامهم وليسوا بحيوان ذي رئة ولا آلات جسدانية؟ فقل: كما نسمع الصدى. وإنما اختصر بالجواب عن كيفية رؤية الملائكة واستماع كلامهم بجواب مثالي من غير شرح؛ لأن معرفة حقيقتها مما يحتاج الإنسان فيه إلى بحث شديد ونظر دقيق، كما ذكرنا في رؤية الأشخاص الجرمانية والأصوات الجسمانية في رسالة الحاس والمحسوس، ولعل كثيرًا من العقلاء يدق عليهم فهمها بحقيقتها فكيف بهذه الأمور الروحانية؟ والدليل على أن معرفة رؤية الأشخاص الجرمانية والأصوات الجسمانية عسير فهمها اختلاف العلماء في ذلك؛ لأن العلماء لا يختلفون في أمور محسوسة إلا لدقتها فكيف بالأمور المعقولة؟

فصل

ومثَلٌ آخر في كيفية قبول الإنسان إلهام الملائكة فنقول: إن العلماء ذكروا أن العلوم ثلاث مراتب: أولها الرياضيات وبعدها الطبيعيات وبعدها الإلهيات، فمَن ابتدأ أولًا بتعلُّم الرياضيات وأحكمها كما ينبغي سهُل عليه تعليم الطبيعيات، ومَنْ أحكم الطبيعيات كما ينبغي سهُل عليه تعلُّم الإلهيات، فهكذا نقول: مَنْ يريد أن يهذب نفسه ويهيئها لقبول

إلهام الملائكة إذ ابتدأ أولًا فأصلح أخلاقه الرديئة التي نشأ عليها منذ الصبا، ثم سار سيرةً عادلةً في متصرفاته كما رُسِم له في الشريعة، ثم نظر في العلوم الحسية فأحكمها كما يجب — مثل ما ذكرنا في رسالة الحاس والمحسوس، ثم نظر في الأمور العقلية فأحكمها كما يجب ليحلَّ بها عن ضميره والآراء الفاسدة التي اعتقدها قبل البحث عن حقائق الأشياء، كما بيَّنَّا في رسالة العقل والمعقول — فأقول: إن نفسه عند ذلك متهيئة لقبول إلهام الملائكة، وكلما زاد في المعارف استبصارًا صارت نفسه لقبول إلهام الملائكة أسهل طبعًا، ولطاعة العقل أشد تشبهًا، وإلى السمائية أقرب قربة، وإنما يمنعها عن الصعود إلى ملكوت السماء نوازع طبيعة الجسد ما دامت تتعلق به.

فإذا فارقته عند الممات كانت هناك في طرفة عين مع أبناء جنسها ممن مضى على سنن الهدى كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، وكما قلنا في النفوس الإنسانية: إنها تنتقل إلى رتبة الملائكة فهكذا نقول أيضًا في نفوس الملائكة: إنها تترقى في درجات الجنان ومقاماتها في المعارف كما ذكر الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾، وكما قلنا في تنقُّل نفوس الإنسانية إلى الملائكة كذلك نقول في النفوس الحيوانية: إنها ستنتقل إلى رتبة الإنسانية على ممر الدهور والأزمان كما بيَّنَّا في رسالة الأدوار والأكوار.

ثم اعلم أن أحق النفوس الحيوانية أن تنتقل إلى رتبة الإنسانية هي الشقية في أيدي البشر، المسخَّرة للإنسان المتعبة في خدمته المنقادة لطاعته، كما أن أحق النفوس الإنسانية أن تنتقل إلى رتبة الملائكة هي النفوس المتعوبة في التعبد المنقادة لأحكام الشريعة الخادمة في الهياكل والمساجد والبِيَع والصلوات والصوم والقرابين والدعاء والتألُّه، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

واعلم أن من الموجودات ما هو أجسام بلا أرواح لا معارف لها ولا شعور كالحجارة والخشب وغيرهما، ومنها ما هو أرواح لا أجساد لها وهي علامة كالملائكة، ومنها ما هي مركبة مؤلَّفة منهما جميعًا كالحيوان.

واعلم أن الحيوانات متفاوتة في شعورها ومعارفها؛ وذلك أن منها ما له حاسة واحدة، ومنها ما له حاستان، ومنها ما له ثلاث حواس، ومنها ما له أربع حواس، ومنها ما له خمس حواس، كما بيَّنَّا في رسالة الحيوانات، وهكذا أيضًا الناس متفاوتون في

معارفهم وعلومهم؛ وذلك أن من الناس عقلاء وبُلْهًا، ومن العقلاء علماء وجهلاء، والعلماء متفاوتون في درجات العلوم؛ وذلك أن منهم مَنْ يُحسن عدة علوم ومنهم مَنْ هو أكثر منه ومنهم دون ذلك، وإن المفيدين في العلوم يتفاوتون في درجاتهم؛ وذلك أن منهم مَنْ تكون معلوماته كلها جسمانية، ومنهم مَنْ تكون معلوماته روحانية.

واعلم أن كل عالم تكون أكثر معلوماته روحانية فهو إلى الملائكة أقرب نسبة، ومن أجل هذا جعل الله تعالى طائفة من بني آدم واسطة بين الناس وبين الملائكة؛ لأن الواسطة هي التي تناسب أحد الطرفين من جهة والطرف الآخر من جهة؛ وذلك أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يناسبون الملائكة بنفوسهم وصفاء جوهرها، ومن جهة أخرى كانوا يناسبون الناس بغلظ أجسامهم.

واعلم يا أخي أن كلام الملائكة إنما هو إشارات وإيماء، وكلام الناس عبارات وألفاظ.

وأما المعاني فهي مشتركة بين الجميع، وكانت الأنبياء تأخذ الوحي والأنباء عن الملائكة إيماء وإشارات، وذلك بلطافة ذكاء نفوسهم وصفاء جوهرها، وكانت تعبِّر عن تلك المعاني للناس باللسان الذي هو عضو من الجسد، لكل أمة بلغتها وبالألفاظ المعروفة بينها.

واعلم يا أخي أن الأنبياء يستعملون في خطابهم الناس ألفاظًا مشتركة المعاني؛ لكيما يفهم كل إنسان بحسب ما يحتمل عقله؛ لأن المستمعين لألفاظهم وقراء تنزيلات كتبهم متفاوتون في درجات عقولهم، فمنهم خاص ومنهم عام ومنهم بين ذلك، فالعامة يفهمون من تلك الألفاظ معاني، والخاصة يفهمون معاني أخرى أدق وألطف، وفي ذلك صلاح للجميع؛ لأنه قد قيل في الحكمة: «كلِّموا الناس على قدر عقولهم.» وقال المسيح عليه السلام، للحواريين: «لا تضيعوا الحكمة فتضعوها عند غير أهلها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.»

فاجتهد يا أخي في طلب المعارف والعلوم، واسلك مسلك الربانيين والأخيار الذين أسلموا، فلعل نفسك تنتبه من نوم الغفلة وتستيقظ من رقدة الجهالة، وتصفو من كدر أوساخ الطبيعة، وتنفتح لها عين البصيرة فتفهم أسرار كتب النبوة ومرموزات النواميس الإلهية، فعند ذلك يتهيأ لها قبول إلهام الملائكة.

واعلم يا أخي أن نفسك مَلَكٌ بالقوة، ويمكن أن تصير ملكًا بالفعل إن أنت سلكتَ مسلك الأنبياء وأصحاب النواميس الإلهية، وعملت بوصاياهم المذكورة في كتبهم المفروضة في سنن شرائعهم، وإن نفسك أيضًا شيطان بالقوة يمكن أن تصير يومًا شيطانًا بالفعل إن أنت سلكتَ مسلك الأشرار والكفار.

فانظر الآن يا أخي ماذا تختار لها وترضى لنفسك؟ فقد أعذر مَنْ أنذر ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وأن لا تقولوا يوم القيامة ما جاءنا من رسول ولا كتاب.

واعلم يا أخي أن الملائكة هم سكان الجنان وسعة السموات وفضاء الأفلاك، وهي ثمان جنان المذكورة في القرآن: جنة الفردوس وجنة النعيم وجنة الخلد وجنة المأوى ودار السلام ودار المتقين ودار المقامة ودار القرار، ومن ورائها كلها عرش الرحمن ذي الجلال والإكرام.

واعلم يا أخي أن الشياطين هم سكان النيران، وهي سبع طبقات: جهنم وجحيم وسقر ولظى وحُطَمة وسعير وهاوية، وجملة درجات الجنان ودركات النيران خمس عشرة رتبة، وقد بيَّنَّا في رسالة أخرى تفصيلها.

واعلم يا أخي أن الرتبة الإنسانية هي آخر طبقة من جهنم، وهي أول درجات أبواب الجنان، فإن أنت بادرْتَ وخرجْتَ من عالم الكون والفساد قبل الفوت رجوت الصعود إلى عالم الأفلاك وفسحة السموات، والدخول في زُمَر الملائكة الذين هم سكان الجنان، وسُقيت هناك من ماء الحيوان شرابًا طهورًا، وعشت عيش السعداء وأمنت من الموت إلا الموتة الأولى، وإن أنت أبيت ذلك وتوانيت وأخلدت إلى الدنيا حق عليك أن تُرَدَّ إلى أسفل السافلين، وبقيت في البرزخ إلى يوم يُبْعَثون.

وفقك الله أيها الأخ للسداد، وهداك إلى الرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد بمنِّه وجوده.

(تمت رسالة ماهية الإيمان وخصال المؤمنين، ويليها رسالة في ماهية الناموس الإلهي.)

الرسالة السادسة

من العلوم الناموسية والشرعية في ماهية الناموس الإلهي وشرائط النبوة وكمية خصالهم ومذاهب الربانيين والإلهيين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن الحيوانات زينة الأرض كما أن الكواكب زينة السماء، وأن أتمَّ الحيوانات هيئة وأكملها صورةً وأشرفها تركيبًا هو الإنسان، وأفضل الإنسان هم العقلاء، وأخيار العقلاء هم العلماء، وأعلى العلماء درجةً وأرفعهم منزلةً هم الأنبياء عليهم السلام ثم بعدهم في الرتبة الفلاسفة الحكماء، والفريقان قد اجتمعا على أن الأشياء كلها معلولة، وأن الباري عز وجل وتقدَّس هو علَّتها ومتقنها ومبدعها ومتممها ومكمِّلها، كما أن الواحد من العدد هو علة العدد وأولها ومبدؤها، واتفقا أيضًا؛ أعني الأنبياء والفلاسفة، على ذم الدنيا والإقرار بالمعاد وجزاء الأعمال فيه إن كان خيرًا فخيرًا وإن كان شرًّا فشرًّا، وكلا الفريقين شاهد لنا على ما نقول ونعتقد في أمر الدين والدنيا، فمَنْ لم يرضَ بحكمها فليطلب له حاكمًا غيرهما هو خير منهما إن كان من الصادقين.

واعلم أيها الأخ، أن النبوة هي أعلى درجةٍ وأرفع رتبةٍ ينتهي إليها حال البشر مما يلي رتبة الملائكة، وأن تمامها في ست وأربعين خصلة من فضائل البشرية الأولى هي الرؤيا الصادقة، وهي جزء من أجزاء النبوة كما قال النبي ﷺ: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من أجزاء النبوة.» ونحن قد فصَّلنا الخمس والأربعين الخصلة الباقية وشرحناها في رسالة لنا بعد هذه تجدها إن شاء الله.

(١) فصل واعلم أيها الأخ، أنه إذا اجتمعت هذه الخصال في واحد …

واعلم أيها الأخ، أنه إذا اجتمعت هذه الخصال في واحد من البشر في دور من أدوار القرانات في وقت من الزمان، فإن ذلك الشخص هو المبعوث وصاحب الزمان والإمام للناس ما دام حيًّا، فإذا بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمة ودوَّن التنزيل ولوَّح التأويل وأحكم الشريعة وأوضح المنهاج وأقام السنة وألَّف شمل الأمة، ثم تُوُفِّيَ ومضى إلى سبيله؛ بقيت تلك الخصال في أمته وراثةً منه، وإن اجتمعت تلك الخصال في واحد من أمته أو جلُّها فهو الذي يصلح أن يكون خليفته في أمته بعد وفاته، فإن لم يتفق أن تجتمع تلك الخصال في واحد لكن تكون متفرقة في جماعتهم اجتمعت تلك الجماعة على رأي واحد، وائتلفت قلوبهم على محبة بعضهم بعضًا، وتعاضدت على نصرة الدين وحفظ الشريعة وإقامة السنة وحمل الأمة على منهاج الدين، دامت لهم الدولة في دنياهم، ووجبت العقبى لهم في أخراهم، وإن تفرقت تلك الأمة بعد وفاة نبيها واختلفت في منهاج الدين تشتَّت شمل أُلْفتهم، وفسد عليهم أمر آخرتهم وزالت عنهم دولتهم.

فإن كنت عازمًا على طلب إصلاح الدين والدنيا فهلمَّ بنا نجتمع مع جماعة إخوان فضلاء، ونقتدي بسنة الشريعة في صدق المعاملة ومحض النصيحة وصفوة الأخوة.

(٢) فصل في أنه ليس من جماعة يجتمعون على المعاونة في أمر من أمور الدين والدنيا …

واعلم أنه ليس من جماعة يجتمعون على المعاونة في أمر من أمور الدين والدنيا أشد نصيحة بعضهم لبعض ولا أحسن من معاملة إخوان الصفاء؛ وذلك أن كل واحد منهم يرى ويعتقد أنه لا يتم له ما يريده من إعلاء الدين إلا بمعاونة أخيه، وكل واحد منهم يريد ويحب لأخيه ما يحب ويريد لنفسه، وكذلك يكره له ما يكره لنفسه.

وقد بيَّنَّا في رسالة لنا قبل هذه كيف تكون صفوة الأخوة وما شرائطها فتأمَّلها أيها الأخ واعرضها على إخوانك وأصدقائك ممن ترجو منه الصلاح والنصيحة والمودة تُوفَّق إن شاء الله.

(٣) فصل واعلم أن هذا الأمر الذي قد ندبنا إليه إخواننا ...

واعلم أن هذا الأمر الذي قد ندبنا إليه إخواننا وحثثنا عليه أصدقاءنا ليس هو برأي مستحدَث ولا مذهب مُحْدَث، بل هو رأي قديم قد سبق إليه الحكماء والفلاسفة والفضلاء، وهو طريقٌ سلكه الأنبياء عليهم السلام ومذهبٌ مضى عليه خلفاء الأنبياء والأئمة المهديون، وبه كان يحكم النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استُحْفِظوا من كتاب الله، وهي ملَّة أبينا إبراهيم وبه سمانا المسلمين من قبلُ.

وفي هذا القرآن وهو الاجتماع على رأي واحد بترك الاختلاف وموافقة النفوس وتأليف القلوب والخطاب بصدق الأقاويل والتصديق في الضمائر، وأن لا يكذِّب بعضها بعضًا، ولا يخدع ولا ينخدع، وينصح ولا يخون، ويثق ولا يتهم، ويتودد ولا يتحاسد، ويتحاب ولا يتباغض، ويوافق ولا يخالف، ويتفق ولا يختلف، ويتعاضد ولا يتخاذل، ويتناصر ولا يتقاعد، ويتعاون على صلاح الدين، ويكونوا كرجل واحد ونفس واحدة؛ اقتداءً بسنة الشريعة كما قال النبي ﷺ: «المؤمنون كرجل واحد ونفس واحدة، تتكافأ دماؤهم وأموالهم، وهم يدٌ على مَنْ سواهم.» وكما أوصانا الله تعالى وقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وقال: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

(٤) فصل في أنه ما من جماعة تجتمع على أمر من أمور الدين والدنيا ...

واعلم أنه ما من جماعة تجتمع على أمر من أمور الدين والدنيا وتريد أن يجري أمرها على السداد وتكون سيرتها على الرشاد إلا ولا بد لها من رئيس يرأسها؛ ليجمع شملها ويحفظ نظام أمرها ويراعي تصرُّف أحوالها، ويرمُّ[١] على الانتشار جماعتها، ويمنع من

[١] يرم: من رمَّ الشيء أصلحه وعالجه حتى سوَّاه، والرُّمُّ بضم الراء الجماعة، يقال: أعطاه الشيء برمَّته يعني كله أو جميعه.

الفساد صلاحها؛ وذلك أن الرئيس أيضًا لا بد له من أصل عليها يبني عليه أمره ويحكم به بينهم.

وعلى ذلك الأمر بحفظ نظامهم، ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة إخواننا والحَكَم بيننا العقل الذي جعله الله تعالى رئيسًا على الفضلاء من خلقه الذين هم تحت الأمر والنهي، ورضينا بموجبات قضاياه على الشرائط التي ذكرناها في رسائلنا وأوصينا بها إخواننا، فمَنْ لم يرضَ بشرائط العقل وموجبات قضاياه ولم يقبل تلك الشرائط التي أوصينا بها إخواننا أو خرج عنها بعد الدخول فيها فعقوبته في ذلك أن نخرج من صداقته ونتبرأ من ولايته ولا نستعين به في أمورنا ولا نعاشره في معاملتنا ولا نكلِّمه في علومنا، ونطوي دونه أسرارنا، ونوصي بمجانبته إخواننا؛ اقتداءً بسنة الشريعة كما ندبنا إليه ربنا، جل وعز، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ﴾ الآية.

(٥) فصل في أن الرياسة نوعان

ثم اعلم أيها الأخ، أن الرياسة نوعان: جسماني وروحاني، فالرياسة الجسمانية مثل رياسة الملوك والجبابرة الذين ليس لهم سلطان إلا على الأجسام والأجساد بالقهر والغلبة والجور والظلم، ويستعبدون الناس ويستخدمونهم قهرًا في إصلاح أمور الدنيا وشهواتها والغرور بلذاتها وأمانيها.

وأما الرياسة الروحانية فمثل رياسة أصحاب الشرائع الذين يملكون النفوس والأرواح بالعدل والإحسان، ويستخدمونها في الملل والشرائع لحفظ الشرائع وإقامة السنن والتعبد بالإخلاص والتألُّه برقة القلوب، واليقين بنيل الثواب والفوز والنجاة والسعادة في المعاد.

(٦) فصل في أنه ليس من علم ولا عمل ولا صناعة ولا تدبير ولا سياسة مما يتعاطاه البشر …

واعلم يا أخي أنه ليس من علم ولا عمل ولا صناعة ولا تدبير ولا سياسة مما يتعاطاه البشر هو أعلى منزلةً ولا أسنى درجةً، ولا في الآخرة أكثر ثوابًا، ولا بأفعال الملائكة أشد تشبهًا، ولا إلى الله أقرب قربةً، ولا لرضاه أبلغ طلبًا من وضع الشرائع الإلهية.

(٧) فصل في أن الشريعة الإلهية هي جبلَّة روحانية

واعلم أن الشريعة الإلهية هي جبلَّة روحانية تبدو من نفس جزئية في جسد بشري بقوة عقلية تفيض عليها من النفس الكلية بإذن الله تعالى في دور من الأدوار والقرانات، وفي وقت من الأوقات؛ لتجذب بها النفوس الجزئية وتخلِّصها من أجساد بشرية متفرقة ليفصل بينها يوم القيامة ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ وقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ الآية.

(٨) فصل في أنه من تمام فضيلة واضع الشريعة أن تكون فيه اثنتا عشرة خصلة

واعلم يا أخي بأنه من تمام فضيلة واضع الشريعة أن تكون فيه اثنتا عشرة خصلة قد فُطِر عليها:

إحداها: أن يكون تامَّ الأعضاء قويةً قوائمه على الأعمال التي من شأنها أن تكون بها ومنها، ومتى همَّ أن يقضي عملًا أتى عليه بسهولة.

والثاني: أن يكون جيد الفهم سريع التصور لكل ما يقال له ويلقاه لفهمه على ما يقصد القائل به على حسب الأمر في نفسه.

والثالث: أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يسمعه ولما يذكره، وبالجملة لا يكاد ينسى شيئًا منها.

والرابع: أن يكون فطنًا ذكيًّا ذا رأي يكفيه لتبيُّن أدنى دليل، حتى إذا رأى على شيء أدنى الدليل فطِن له على الجهة التي يدل عليها الدليل.

والخامس: أن يكون حسَن العبارة يواتيه لسانه على ما في قلبه وضميره بأوجز الألفاظ.

والسادس: أن يكون محبًّا للعلم والاستفادة، منقادًا له سهل القبول، لا يؤلمه تعب العلم ولا يؤذيه الكدُّ الذي يلحقه.

والسابع: أن يكون محبًّا للصدق وحسن المعاملة مقربًا لأهله.

والثامن: أن يكون غير شرِه في الأكل والشرب والنكاح، متجنبًا للعيب مبغضًا للَّذات الكائنة عن هذه.

والتاسع: أن يكون كبير النفس عالي الهمة محبًّا للكرامة تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور ويشنع، وتسمو همة نفسه إلى أرفع الأمور رتبةً وأعلاها درجةً.

والعاشر: أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هيِّنة عنده زاهدًا فيها.

والحادي عشر: أن يكون محبًّا للعدل وأهله مبغضًا للجور والظلم وأهله، يعطي النصفة لأهلها، ويرثي لِمَنْ حلَّ به الجور، ويكون مواتيًا لكل ما يرى حسنًا جميلًا، عدلًا غير صعب القياد ولا جموح، وإن دُعِيَ إلى الجور والقبيح لا يجيب.

والثاني عشر: أن يكون قويَّ العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل، جسورًا مقدامًا غير خائف ولا ضعيف النفس.

(٩) فصل في أول قاعدة يضعها واضع الشريعة

واعلم أن أول قاعدة يضعها واضع الشريعة ثم يبني عليها سائر ما يعمل في تتميم الشريعة من القول والعمل، وتكميلها من الأقاويل والأوامر والنواهي ومعاني تأويلها ومفروضات شرائعه وسنن أحكامه وتدبير أمته، وسياسة أهل مملكته في أمر الدين والدنيا؛ هي أن يرى ويعتقد في نفسه علمًا يقينيًّا أن للعالم بارئًا قديمًا حيًّا عالمًا حكيمًا قادرًا قاهرًا مريدًا هو علة جميع الموجودات ومالكها ومصرفها بحسب ما يليق بواحد واحد منها.

والثاني: أن يرى ويتصور موجودات عقلية مجردة من الهيولى كل واحد منها قائم بنفسه متوجه نحو ما نُصِب له من أمره، وهم ملائكة الله تعالى وخالص عباده، بهم تقع المراسلة والوحي والإنباء، ومن جهتهم يحصل التأييد.

والثالث: أن يرى ويعتقد وجودات نفسانية مجردة من الأبدان تارةً، ومستعملة لها تارةً، ومتعلقة بها تارةً، وأنها نازلة من جثث الحيوانات بحسب ما يليق بواحد واحد منها من إدراك مأربها وتمكنها به.

والرابع: أن يرى أن بمفارقتها الجثث لا تبطل ذاتها، وخروجها من الأجساد والحس لا يُخْرِجها من قدرة الباري سبحانه.

والخامس: أن يرى أن كل واحدة من الموجودات منفردة بذاتها لا يُصلحها ولا يُفسدها إلا ما يتعلق بها من سوء أعمالها أو فساد آرائها أو رداءة أخلاقها أو تراكم جهالاتها.

والسادس: أن يرى أن الباري تعالى إذا أمر الناس أمرًا مكَّنهم منه وأزاح عللهم فيه، فمنهم طائع لأمره ومنهم راكب نهيه.

والسابع: أن جعل لكل صنف من أصناف الطاعات والمعاصي جزاءً من الثواب والعقاب، ويُعْلِم المأمورين والمنهيين عنه أنه إذا ما أتوه على بصيرة أوجب الأجر وقطع العذر ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

والثامن: أن يرى أن لهم معادًا فيه مجازَون بما أسلفوا من خير وشر وعُرْفٍ ونُكْرٍ، وأنه قد جعل إلى كل واحد تمهيد مثواه وإصلاح مأواه، فإن أحسن فلنفسه وإن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد.

والتاسع: أن يرى أن الدعاء إلى الله تعالى أولى الأعمال بالثواب وأرفعها درجة عند المآب.

والعاشر: أن يرى أن الدعاة إلى الله تعالى هم أعلى الناس درجةً وأرفعهم منزلةً وأشدهم في الدعاء إلى الله تعالى حرصًا، وأكثرهم فيه دربًا، وأوسعهم علمًا وأكثرهم أمةً وأعظمهم على الناس نعمةً، وأنطقهم بالصدق وألزمهم لمنهاج الحق.

فإذا تحققت هذه الآراء في نفس واضع الشريعة، وتصوَّرها في فكره كأنه يشاهد يقينًا لا شك فيه، دعا عند ذلك إليها أهل دعوته الذين أُرسل إليهم، ويجتهد في إنبائهم ما قد اعتقده بالتصريح عنها للخواص من أهل دعوته في السر والإعلان غير مرموز ولا مكتوم، ثم يشير إليها ويرمز عنها عند العوام بالألفاظ المشتركة والمعاني المحتملة للتأويل بما يعقلها الجمهور وتقبلها نفوسهم.

فمَنْ فهِمَ تلك المعاني وتصوَّر حقائق تلك الأمور التي أشار إليها واضع الشريعة، وتيقَّن بها ودام بعد نصرتها مجتهدًا في معاونته محتملًا للضيم صابرًا في السر أو الضر؛ طلبًا لمرضاة الله تعالى سماهم واضع الشريعة الصدِّيقين والشهداء والصالحين، وأبلغ الله تعالى في المدح والثناء عليهم فقال عز وجل: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

وإنما سماهم الشهداء؛ لمشاهدتهم تلك الأمور الروحانية المفارقة للهيولى؛ يعني به جنة الحياة ونعيمها، وسماهم الصدِّيقين لتصديقهم لها بالطلب والاجتهاد من أنفسهم في نصرة واضع الشريعة ومعاونته.

فأما مَنْ قصر فهمه عن معرفة تلك المعاني وعن تصور تلك الأمور بحقائقها فأقر بما أخبره واضع الشريعة وصدَّقه على ما قال وقام معه بنصرته مجتهدًا في معاونته صابرًا تحت أمره ونهيه، سماهم واضع الشريعة المؤمنين ومدحهم الله تعالى وأثنى عليهم من جهة إيمانهم بما أخبرهم وتصديقهم له واجتهادهم معه في نصرته ومعاونته فقال: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية.

وأما مَنْ أقرَّ بلسانه وشكَّ فيما قال بقلبه سماهم المسلمين، وذمَّهم الله تعالى فقال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ وقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾.

وأما مَنْ آمن بلسانه وخانه في السر ونافق وأضمر له بقلبه تكذيبًا خلاف ما أظهر بلسانه وخدعه ومكر به، سماهم واضع الشريعة المنافقين، وأكثر الله لهم الوعيد والذم والزجر، فقال إنكارًا لما لم ينتهوا عما هم عليه ووعيدًا لهم من النفاق: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

وأما مَنْ أنكر دعوته في الظاهر، وكذَّب في السر والإعلان وعاداه جهرًا سماهم واضع الشريعة الكفار وناصبهم الحرب والقتال، وأكثر لهم الوعد والذم والزجر والتهديد.

(١٠) فصل في أن أحد خصال واضع الشريعة مراعاته لأهل دعوته

واعلم أن من أحد خصال واضع الشريعة ومراعاته لأهل دعوته أن يتعرَّف خبر كل واحد من أهل دعوته من الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والحر والعبد، والشريف والدنيء، والعالم والجاهل، والغني والفقير، والقوي والضعيف، والقريب والبعيد، حتى يعرف كل واحد منهم ما اسمه ونسبه وصناعته وعمله وتصرفه في حالاته، وما هو بسبيله في أمر معاشه، وما هو الغالب عليه من الطبع الجيد والرديء والخلق الحسن أو السيئ والعادات العادلة أو الجائرة حتى يثق بهم علمًا، ويتبيَّن منازلهم، ويستعين بكل واحد منهم في العمل المُشاكل له، ويستخدمه في الأمر اللائق به.

(١١) فصل في أن أول سُنَّة يستنُّها لهم ويطالبهم بإقامتها ...

واعلم أن أول سُنَّة يستنُّها لهم ويطالبهم بإقامتها هي الأمور التي أولها موالاة بعضهم بعضًا بسبب حرمة الشريعة؛ لتأكيد المودَّة بينهم وتأليف قلوبهم؛ ليجتمع بذلك شملهم

وتتفق كلمتهم، ويأمرهم بمخالفة مَنْ يخالفهم في سنة الشريعة ومجانبتهم والبراءة منهم وإن كانوا ذوي القرابة والأحباء، كما قال الله عز وجل: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾.

فإذا قاموا بواجب هذه السنة وتثبَّتوا عليها واستحكمت تلك في نفوسهم وتعاضدوا على ذلك وتناصروا عليه؛ صار كلهم عند ذلك كرجل واحد وجسد واحد ونفس واحدة، وصار واضع الشريعة لهم بمنزلة الرأس من الجسد وهم له كسائر الأعضاء، وتصير قوة نفس واضع الشريعة متصرفة في نفوسهم كتصرف القوة المفكرة في سائر القوى الحساسة، فيصدرون عند ذلك عن رأي واحد وقصد واحد وغرض واحد بقوة واحدة، فيغلبون كل مَن رام غلبتهم، ويقهرون كل مَنْ خالفهم وعاداهم وضادَّهم.

(١٢) فصل في أن صلاح الدين والدنيا ...

فهلمَّ بنا أيها الأخ إن كنت عازمًا على طلب صلاح الدين والدنيا أن نقتدي بسنة الشريعة ونجتمع مع إخوان لك فضلاء وأصدقاء كرام، ونتعاون على ذلك بمحض النصيحة في الضمير وصدق المعاملة في السر والإعلان، وإلْف المحبة في القلوب توفق إن شاء الله تعالى.

(١٣) فصل في أن من إحدى الخصال التي يعتقدها واضع الشريعة يقينًا ...

واعلم أن من إحدى الخصال التي يعتقدها واضع الشريعة يقينًا لا شك فيه أن من أقرب القربات إلى الله تعالى وأبلغ طلب لمرضاته بذل المال والنفس والأهل في إقامة الشريعة وتقويتها وإظهارها، وإن كل نفس من أنصاره وأتباعه أنفق ماله أو فارق أحباءه أو بذل دمه وجعل جسده قربانًا في نصرة الشريعة، فإن تلك النفس بعد مفارقة جسدها تبقى مجردة من الهيولى، وتعلو رتبتها على سائر النفوس التي هي أبناء جنسها، وترتفع درجتها وتشرف هي على النفوس المتجسدة المستعملة لتلك الشريعة، فتصير موقوفة عليها شاهدة أحوالها، وتكون الشريعة لها مدينة روحانية، ويكون تصرفها وتحكمها في النفوس المستعملة لتلك الشريعة كتصرف رؤساء أهل المدينة في أملاكهم وغلمانهم وأتباعهم، وإنها تنال بتلك اللذة والسرور والفرح مثل ما ينال الرؤساء ذوو السياسة من

انقياد المرءوسين لطاعتهم وحسن خدمتهم، وكلما كثر عدد التابعين في الشريعة ازدادت فرحًا وسرورًا ولذةً وغبطةً دائمًا أبدًا.

واعلم أن من إحدى خصال واضع الشريعة أن يسنَّ لأهل دعوته أولًا سنة حسنة يقيمونها بشرائطها، وسيرة عادلة يتعاملون بموجبها فيما بينهم، ويكون في استعمالهم صلاح الجمهور والنفع العام، ولا يبالي أن يكون عليه أو على بعضهم من استعمالها لها مشقة أو ضرر؛ لأن غرض واضع الشريعة ليس إصلاح أمر نفسه ولا إصلاح أنصاره وأتباعه الموجودين في الوقت الحاضر في زمانه أو النفع العاجل له ولهم، بل غرضه إصلاحهم وإصلاح مَنْ يجيء بعدهم من التابعين ومَنْ يجيء بعد أولئك إلى يوم القيامة.

واعلم بأن نسبة تلك الأشخاص الموجودة في زمانه بالنسبة إلى مَنْ يجيء بعدهم من الكثرة ما هو إلا كنسبة الآحاد إلى العشرات، والعشرات إلى المئات، والمئات إلى الألوف، والألوف إلى عشرات الألوف، والعشرات الألوف إلى المئات الألوف، والمئات الألوف إلى ألوف الألوف إلى ما لا نهاية.

واعلم أن مثل واضع الشريعة مع إخوانه وأنصاره وأتباعه الذين يجيئون بعدهم إلى يوم القيامة في حكم الشريعة كمثل شجرة هو وأصحابه وأنصاره أغصانها وقضبانها ومَنْ يجيء بعدهم من التابعين لهم كالفروع، ومَنْ يجيء بعدهم كالورق والنَّوْر والزهر والثمر، وهذه الشجرة روحانية تنبت من فوق إلى أسفل؛ لأن عروقها في السماء مما يلي رتبة الملائكة؛ لأن مادتها من هناك تنزل — يعني بتأييد واضع الشريعة من الملائكة — وعنهم يأخذ الوحي والإلهام والأنباء يؤديها إلى البشر الذين هم في الأرض؛ ليجتذبهم بها إلى رتبة الملائكة، وهذه الشجرة التي رمز عنها يقال: إنها شجرة طوبى نبتت من تحت العرش، وتدلَّت أغصانها في منازل أهل الجنة وهم يجتنون ثمرها في دائم الأوقات.

(١٤) فصل في أن من إحدى الخصال التي يضعها صاحب الشريعة ألَّا ينسب إلى رأيه …

واعلم أن من إحدى الخصال التي يضعها صاحب الشريعة ألَّا ينسب إلى رأيه واجتهاده وقوته شيئًا مما يقول ويفعل ويأمر وينهى في وضع الشريعة، لكنه ينسبها إلى الواسطة التي بينه وبين ربه من الملائكة التي توحي إليه في أوقات غير معلومة. وأما الحكماء والفلاسفة إذا استخرجوا علمًا من العلوم وألَّفوا كتابًا، أو استخرجوا صنعةً من الصنائع

أو بنوا هيكلًا أو دبَّروا سياسة نسبوا ذلك إلى قوة أنفسهم واجتهادهم وجودة رأيهم وفحصهم وبحثهم، وهذا خلاف ما يفعله واضع الشريعة.

(١٥) فصل في أن تمام الدين والدنيا لتابعي الشريعة في أربع خصال

واعلم أن تمام الدين والدنيا لتابعي الشريعة في أربع خصال: أحدها أن يكون لكل واحد منهم عقل يعرف به القبيح وينزجر عنه ويعرف الجميل ويأمر به، والثاني أن يكون لهم بواضع الشريعة قدوة في أفعاله وأقاويله وآدابه ومتصرفاته، والثالث أن يكون مع كل واحد منهم وصية من واضع الشريعة يدرسونها في أوقات معلومة، والرابع أن يكون على كل جماعة منهم رئيس من فضلائهم عارف بسنة الشريعة يأمرهم بإقامتها ويحثهم على حفظها وينهاهم ويزجرهم متى أرادوا تغيير سيرة الشريعة.

(١٦) فصل في أن العقلاء الأخيار إذا انضاف إلى عقولهم القوة بواضع الشريعة …

واعلم أن العقلاء الأخيار إذا انضاف إلى عقولهم القوة بواضع الشريعة فليس يحتاجون إلى رئيس يرأسهم ويأمرهم وينهاهم ويزجرهم ويحكم عليهم؛ لأن العقل والقدرة لواضع الناموس يقومان مقام الرئيس الإمام، فهلم بنا أيها الأخ أن نقتدي بسنة الشريعة ونجعلها إمامًا لنا فيما عزمنا عليه، والله يوفقك إنه جواد كريم.

(١٧) فصل في طائفة من المرتاضين بالعلوم الفلسفية

واعلم أن طائفة من المرتاضين بالعلوم الفلسفية والمتأدبين بالآداب الرياضية إذا كانت نفوسهم جاهلة بظاهر أحكام الشريعة عمياء عن معرفة أسرار موضوعاتها توانوا في استعمال سنة الشريعة الإلهية والسير بسيرته، وعابوا موضوعاته وأنِفوا من الدخول تحت أحكامه، واستكبروا عن الانقياد لحدوده، فمن أجل هذا سماهم صاحب الشريعة شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا فيما ينكرون على الشريعة من أحكامه، وما يعيبون عليه من موضوعاته، يعني يتغامزون على أهل الشريعة المستعملين لها كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ كل ذلك جهلًا منهم بأسرار الشريعة وعمًى عن أحكامها كما وصفهم الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

(١٨) فصل في أن للكتب الإلهية تنزيلات ظاهرة

واعلم أن للكتب الإلهية تنزيلات ظاهرة وهي الألفاظ المقروءة المسموعة، ولها تأويلات خفية باطنة وهي المعاني المفهومة المعقولة، وهكذا لواضعي الشريعة موضوعات عليها وضعوا الشريعة ولها أحكام ظاهرة جلية وأسرار باطنة خفية، وفي استعمال أحكامها الظاهرة صلاح للمستعملين في دنياهم وفي معرفتهم أسرارها الخفية صلاح لهم في أمر معادهم وآخرتهم، فمَنْ وُفِّق لفهم معاني الكتب الإلهية وأُرْشِد إلى معرفة أسرار موضوعات الشريعة، واجتهد في العمل بالسنة الحسنة والسير بسيرته العادلة، فإن تلك النفوس هي التي إذا فارقت الجسد ارتفعت إلى رتبة الملائكة التي هي جنات لها، وهي ثمان مراتب، وفازت ونجت من الهيولى ذي الثلاث الشُّعَب التي هي الطول والعرض والعمق، وارتفعت في درجات الجنان والمراتب الثمان التي سعة كل واحدة منها كعرض السماء والأرض، ومَنْ لم يرشد لفهم تلك المعاني ولا معرفة تلك الأسرار ولكن وُفِّق للعمل بسنته العادلة وأحكامه الظاهرة، فإن تلك النفوس عند مفارقتها الجسد تبقى محفوظة على صورة الإنسانية التي هي الصراط المستقيم إلى أن يتفق لها الجواز على الصراط المستقيم، وإلى هذا أشار بقوله تعالى فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية، وهذا هو الغرض الأقصى في وضع الشريعة الإلهية، ومَنْ لم يُرْشد لفهم تلك المعاني، ولا اجتهد في العمل بسنة الشريعة ولا الدخول تحت أحكامها ولا الانقياد لحدودها فإن تلك النفوس إذا فارقت الجسد انحطَّت إلى البهيمية التي هي دركات لها وهاوية تهوي فيها، كما قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ وإلى هذا أشار بقوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، وفي معرفة أسرار هذه النكت الإلهية قيلت هذه القصيدة، وإلى أسرار موضوعاتها أشير بها وهي هذه:

اقتربت الساعة وانشق القمر ... وانكشفت عنه أفانين العبر
وإن يروا آيةَ حقٍّ يُعرِضوا ... عنها وقالوا: هو سحر مستمر
وكذَّبوا واتبعوا أهواءهم ... وكلُّ شيء فعلوه في الزُّبُر
من بعد ما قد جاءهم من عجبِ الـ ... أنباء ما فيه لِعَاتٍ مُزدجَر
في حكمةٍ بالغةٍ محكَمةٍ ... ينفي بها العذر فما تُغني النُّذُر
حتى إذا حق الهلاك مسرعًا ... أشياعهم فيه فهل من مدَّكِر

أحياه بعد موته الله وقد   قال ارجعوني بعد ما كان قُبِر
فردَّه الله لقطع عذره   فكان أطغى في الرجوع وأشَر
مثل الذين فارقوا ديارهم   من حذرِ الموت فما أغنى الحذر
فقال مُنشيهم لهم موتوا معًا   ثُمَّة أحياهم برزقٍ وعُمُر
أو كالذي مرَّ بظهر قرية   خاوية على العروش منقعر
فقال: هل يُحيي الإله هذه   بعد الممات فأُميتَ ونُشِر
فكان فيه ثُمَّ في حماره   وفي الطعام والشراب مُعتبَر
يا أيها الناس اتقوا فإنما   أعمالكم أعمالكم كما ذُكِر
ألهاكم الشيطان عن مقعد صِدْ   قٍ ومقام لمليك مقتدر
من قبل أن نطمس منكم أوجهًا   وطمسُها ردٌّ لها على الدُّبَر
أو يُلعن العادُون في حدِّهمُ   لعنة أهل السبت في سيف البحر
إذ جعلوا فيه قرودًا وخنا   زير وأنواعًا من الخلق الأُخَر
بدَّل تبديلًا لهم أمثالهم   مستويات الجنْح موشيَّ الصور
منكَّسين لا يُرَد طرفهم   إليهمُ للذكر كلا لا وزر
لا يستطيعون السجودْ إذ دُعوا   وطالما عافوا السجود في القدر
من بين مغلول اليدين طافيًا   وبين صالٍ في الجحيم المستعر
يظما وللماء عليه لجَّة   في بعضها يعني بورد وصدر
وبين مسلوك له سلسلة   مقدارها سبعون ذرعًا في القدر
قد أوجب النقمة منه نفسه   فصار موكولًا إلى أمٍّ سقر
وآخرٍ غطى التراب رأسه   وطمَّ منكوسًا كما قام الشجر
لا ينثني عن صائب الحتف ولا   يجتذب النفع ولا ينفي الضرر
مستسلمًا للواردات حسرة   نارًا تلظَّى وهو ماء منهمر
هذا وكائِنْ من وقود أضرمت   حرًّا وبردًا في حديد أو حجر
في الدَّرَك الأسفل لا يُبعدهم   إلا الذي في أول العمر فطر
وكلهم إذ ظلموا أنفسهم   مشتركون في عذاب مستعر
يُبدَّلون بالجلود كلما   أنضجها ذوق العذاب في سقر
أعوذ بالله من الجهل الذي   يُصِمُّ ذا السمع ويُعمي ذا البصر

ومن خيالات النفوس شأنها — أن تعبد الله على حرف الغرر
ومن أثيم مستطيل كلما — أمهله الله تمادى وأشِر
أتته آيات الإله ربه — فانسلخ المحروم منها وانتشر
فكان من جملة غاوين رأوا — رفعتهم أفضت بهم إلى الحُفر
وجاهلٍ يخلط في إيمانه — كفرًا فإن نبَّهته تاه وفر
وسْنان لا يعلم إلا ظاهرًا — من الحياة غافلًا عن الأثر
وهو على الإعراض عن آخرة — فيها لمن أدركها خير وشر
يستعجل الساعة والساعة في — مماتة الجاهل أدهى وأمَر
من معشر عذَّبهم جهلهمو — إذ ضرب السور عليهم فانحصر
مميِّزٌ للخلق في ظاهره — من العذاب شاغل عن العِبَر
ضنك على المرء وفي باطنه — من رحمة الله غمام منتشر
تبارك الله العليم ربنا — وعالموه فهم الحزب الأغر
وكل مَنْ والى وعادى فيه لو — آوى دعاة المؤمنين أو نصر
وكل مَنْ هاجر في الله ومَنْ — جاهد أو حج إليه واعتمر
إلى بيوتٍ حية ناطقة — مشتركات في اللباس المنتشر
قد أذن الله لها في رفعها — وأن يكون لاسمه فيها ذكر
من معشرٍ موحدين دينهم — كدين عبد الله مولانا «الخَضِر»
يرون في عين النفوس ما يرى — غيرهم في حسنها في المنتظَر
في كل عصر منهمُ ذو دعوة — يجرُّ من سفن البحار ما عبر
لا يقفون عند شخص واحد — تمضي دهور وهو وعد يُنتظر
بل فيهم ومنهم طوالع — تجري على ترتيب نظْم مستطر
دونكموها يا بني الحق ولا — تشغلْكمُ عنها أباطيل الفكَر
فكم لها من سامع منتفع — يعلم ما يأتي لها وما يذر
وغافل عن الرموز جاهل — يقول: مَنْ يقول ذا فقد كفر
فمَنْ يكن يعلم ما يقوله — وكان يُجري رأيه على النظر
بما يَبِين صدقه بشاهد — من العقول لا برجمٍ من حذر
بما يكون قربه مشتركًا — ويستوي فيه دعاوى من يُقِر
فليأتِ بالحكمة في أخباره — بالعدد المخصوص في آي السور

مثل مقادير الفروض كلها ... من الصلاة والزكاة والطهر
وكم أولو العزم وأصحاب الرضا ... طالوت ذي البسط وحيد المنتظر
وكيف أسماء الإله ربِّنا ... تسعٌ وتسعون هي الحسنى الكبر
وكيف في تفريقه أمَّته ... على ثلاثٍ بعد سبعين اختصر
وكيف أجزاء النبي ستة ... وأربعون وهو أمر ذو خطر
لِمْ جعل الرؤيا الصحيح واحدًا ... من جملة الأجزاء فيه فافتكر
وحاملو العرش وفي عدَّتهم ... عدَّة أبواب الجنان في القدر
واختُصَّت النيران في أبوابها ... بسبعةٍ ممن أتاها وابتدر
منطلق فيها إلى ظلاله ... فيها ثلاث شُعَب ترمي الشرر
فقال في الذِّكْر عليها تسعة ... يملك ما فيها جميعًا وعشر
كأنهم قد جُعِلت عدَّتهم ... لفتنة الكافر أو ذكر الخبر
وكل مَنْ يسلك فيها وله ... سلسلة مقدار سبعين قدر
هذا وما «طه» وما «حم» أو ... «طس» أو أشباه هذا من سور
وما أمور أُخْفِيَت أنباؤها ... عن ظاهر بين رعاعٍ كالحُمُر
من قصة الجان الذين أفسدوا ... واستحوذوا منها بماء قد غمر
وما هي «الحية» «والطاووس» إذ ... كانا مُعِينين لإبليس الخسر؟
وما هي الحنطة إذ حُذِّرها ... آدم من بين النبات والخضر؟
وكيف لما ذاقها بدت له ... سوآته وكان قبلُ مستتر؟
وكيف تعليم «الغراب» أولًا ... «قابيل» دفنًا لأخيه إذ حضر؟
وما هي النار التي كانت على ... الخليل إبراهيم بردًا إذ شكر؟
وما هي «الطير» التي أنشرها ... له الإله بعد موت إذ صبر؟
وما هو «الطوفان» إذ عمَّ؟ وما ... سفينة الألواح فيه والدُّسُر؟
وما قميص يوسف وذئبه ... والدم إذ جيء بإفك مشتهر؟
و«الجُبُّ» إذ أُلْقِيَ في غيبته ... والحبس إذ قد خُصَّ بما منه بهر
وكيف باعوه على مبتاعه ... بالثمن البخس وبالشيء النذر؟
وما هو البرهان إذ أبصر قال ... عندها: السجن مرادي فصبر؟
وشاهد منه قد استشهده ... على قميص كان قُدَّ من دُبُر
وكيف كان بعد ذا قميصه ... فيه شفاء لأبيه مدَّخَر؟

وما هو العجل الذي خار؟ وما الصفراء أزجيت قتيلًا في البقر؟
وما دمٌ فاض فصار شرقًا لمن عليه لا على الماء اقتصر
وكيف تاهت أمَّة عظيمة دهرًا وأرض التيه كالدُّرِّ صِغَر؟
و«الجبل» المرفوع فيهم ظِلُّه يشهده مَنْ غاب منهم وحضر
وخر ذي الملك سليمان وما «خاتمه» وما «العصا» ساعة خر؟
وما هي الطير وما منطقها والريح إذ تجري به وتنسخر؟
وما هو الكرسيُّ في إلقائه له عليه جسدًا لما اختبر؟
والعرش إذ أحضره عالمه قبل ارتداد طرفه كما ذكر
ويونس إذ قد بلعه حوته فشاهد الأنجم فيها واعتبر
وما المسيح الروح والمهد الذي كلم فيه الناس في وقت صغر؟
وصلب هاروت وماروت وما يعلِّمان الناس ممن قد سحر
ونوم أهل الكهف والبعث لهم وكلبهم سابعهم حسب الخبر
وسد يأجوج ومأجوج ومَنْ يلحسه من زمر بعد زمر
وكيف سوَّاه حجابًا موثقًا نفخ المعينين وإفراغ القطر؟
وكيف إذ يقترب الوعد لهم تشخص أبصارهم إذا انقعر؟
وما طلوع الشمس من مغربها ما بين قرنَي مارد لا ينزجر
وكيف بعد نورها تكويرها والأنجم الزُّهْر عليها تنكدر؟
وما هو «الدجال» إذ حُذِّر منـ ـه كل خلق وهو شخص ذو عوَر؟
وكيف يجري عن جنابَي جيشه من الجبال شامخات في الكبر؟
فالجبل البصريُّ فيه جنة مثمرة ذات رياض وزهر
والأصفهاني عليه أبدًا نار تلظَّى ودخان منعكر
وذاك لا يعلمه إلا الذي أشهد خلق نفسه فيما عبر
وكان في خلق السموات العلى والأرض قد عوضد أو كان خبر
فالحمد لله الذي أشهدنا ما لم نكن نعلم إلا بالخبر

واعلم يا أخي أن هذه الأبيات وما فيها من المسائل إنما هي إرشاد للمتأدبين بإصلاح الأخلاق وتنبيه للمرتاضين بعلم النفس على الأسرار النبويات، وما في موضوعات الشرائع

من الرمز، ولا ينبغي لأحد من إخواننا أن يجيب أحدًا إذا سُئل عن هذه المسائل إلا لمن قد هذَّب نفسه وأصلح أخلاقه؛ لأن صدأ النفس ورداءة أخلاقها ممتنع من فهم معاني هذه.

وقد بيَّنَّا في الرسالة السابعة التي تتلو هذه كيفية ذلك، فافهم إن شاء الله وحده.

(تمت رسالة ماهية الناموس الإلهي وشرائط النبوة،
ويليها رسالة في كيفية الدعوة إلى الله.)

الرسالة السابعة

من العلوم الناموسية والشرعية في كيفية الدعوة إلى الله

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

واعلم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن شيعتنا وإخواننا المتفرقين في البلاد، وسائر مَنْ يُنْسَب إلينا فهم في أحوالهم ومراتبهم على منازل ثلاث: فطائفة منهم خواص وعقلاء متدينون أخيار فضلاء، وطائفة منهم أغبياء أشرار أردياء، وطائفة بين ذلك متوسطون، ولكل طائفة منهم آراء ومذاهب هم فيها مختلفون، وأقاويل مفننة هم بها مشغوفون، وأخلاق وسجايا هم بها متغايرون، ولهم مع ذلك أفعال وأعمال هم لها معتادون، فنريد أن نذكر كل طائفة منهم بأوصافهم، وندل عليهم بعلاماتهم، حتى إذا دخلْتَ مدينة أو بلدًا من البلدان ولقيت منهم أحدًا تبيَّنتهم بعلاماتهم وعرفتهم بسيماهم، فلقيتهم بالتحية والسلام، وداخلت كل طائفة منهم بألطف ما تقتدر عليه من الرفق والمداراة، وذاكرتهم من علمنا بحسب ما تقبله قلوبهم، وألقيت إليهم من أسرارنا حسبما تحتمله عقولهم وتتسع له نفوسهم، وتبلغ إليه هممهم وتتصوَّره أفهامهم، وتكون في كل ذلك كمثل الطبيب الحكيم الرفيق الذي قد ذُكِرت قصته في أول الرسالة لإخوان الصفاء.

(١) فصل في أن من خواص إخواننا ...

إن من خواص إخواننا الفضلاء أنهم العلماء بأمور الديانات العارفون بأسرار النبوات المتأدبون بالرياضيات الفلسفية، وإذا لقيت أحدًا منهم وأنست منه رشدًا فبشِّره بما يسره، وذكِّره باستئناف دور الكشف والانتباه وانجلاء الغمة عن العباد بانتقال القران من برج مثلثات النيران إلى برج مثلثات النبات والحيوان في الدور العاشر الموافق لبيت السلطان وظهور الأعلام.

واعلم أن من إخواننا وأهل شيعتنا طائفة أخرى بوجودنا شاكُّون، وفي بقائنا متحيرون فيما يعتقدون من موالاتنا، وطائفة أخرى موقنون ببقائنا لكنهم غافلون عن أمرنا غير عارفين بأسرارنا، وكلهم منتظرون لظهور أمرنا مستعجلون لمجيء أيامنا مشتهون نصرة أمرنا، فإذا لقيت منهم أحدًا فبشِّره بما يسرُّه وقر عينه بما يظنه بعيدًا مما يؤمله، وعرِّفه أن ما يرجوه غير بعيد، وذكِّر مَنْ وثقت بهم من إخواننا بما ألقينا إليك من علمنا، وأطْلِعْه على ما أطلعناك عليه من أسرارنا؛ كيما تطمئن نفوسهم فيما يعتقدون فينا، ويتبين لهم صدق ما هم مُقِرُّون به من أمرنا، وأخرج إليهم من رسائلنا ما ترغب نفوسهم فيه وترتاح إليه، وليكن ذلك على النظام والترتيب كما بيَّنَّا لك، فلعلهم إذا استمعوا لقراءتها وفهموا معانيها انتبهت نفوسهم من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وحييت بروح المعارف كما ذكر الله جل ذكره: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

واعلم يا أخي بأن في الناس طائفة من أهل ملتنا مقرُّون بفضلنا وفضل أهل بيتنا، ولكنهم جاهلون بعلومنا غافلون عن أسرارنا وحكمتنا، فمن ذلك أنهم يجحدون وجودنا ويُنكرون بقاءنا، ومع هذا فإنهم يُزرون بشيعتنا المُقِرِّين بوجودنا المنتظرين ظهور أمرنا، ومعاندون لهم متعصبون عليهم مبغضون لهم.

واعلم بأن أحد الأسباب في ذلك هو أن قومًا من أشرار الناس جعلوا التشييع سترًا لهم عما يحذرون من الآمرين عليهم بالمعروف والناهين لهم عن المنكر فيما يفعلون؛ وذلك أنهم يركبون كل محظور ويتركون كل مأمور به، وإذا نُهوا عن المنكر فعلوه بارزوا بإظهار التشيع، واستعاذوا بالعلوية على مَنْ يُنكر عليهم أو ينهاهم عن منكر فعلوه، ولبئس ما كانوا يعملون. ومن الناس طائفة يُنسبون إلينا بأجسادهم وهم براء بنفوسهم منا، ويسمون أنفسهم العلوية، وما هم من العلويين ولكنهم من أسفل السافلين، لا

يعرفون من أمرنا إلا نسبة الأجساد، ولا من القرآن إلا اسمه، ولا من الإسلام إلا رسمه، لا علمًا يتعلمون ولا فقهًا يدرون ولا صلاةً يقيمون، ولا زكاةً يؤدون، ولا البيت يحجُّون، ولا جهادًا يعرفون، ولا حرامًا يجتنبون، ولا عن منكر ينتهون، وكل قبيح يركبون ولا يتوبون ولا هم يذكرون، ومع هذا كله على الناس يستطيلون وإليهم يتبغَّضون ومن شيعتنا ينفرون، فهم أبعد الناس من أهل ملتنا، وأعدى الناس لشيعتنا، وأجهل الخلق بعلومنا، وأغفل الناس عن حقيقة أمرنا وأسرار حكمتنا إلا الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيرًا، وإليهم أشار رسول الله ﷺ بقوله: «يا بني هاشم لا يأتي الناس يوم القيامة بأعمالهم وتجيئون بأنسابكم، فإني لا أُغْنِي عنكم من الله شيئًا.» ومن الناس طائفة قد جعلت التشيع مكسبًا لها، مثل النائحة والقُصَّاص، لا يعرفون من التشيع إلا التبرِّي والشتم والطعن واللعنة والبكاء مع النائحة وحب المتدينين بالتشيع، وترْك طلبِ العلم وتعلُّمِ القرآن والتفقه في الدين، وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد وزيارة القبور كالنساء الثواكل يبكون على فقدان أجسادنا وهم بالبكاء على نفوسهم أولى.

ومن الشيعة مَنْ يقول: إن الأئمة يسمعون النداء ويجيبون الدعاء ولا يدرون حقيقة ما يقرون به وصحة ما يعتقدونه، ومنهم مَنْ يقول: إن الإمام المنتظر مختفٍ من خوف المخالفين، كلا بل هو ظاهر بين ظهرانيهم يعرفهم وهم له منكرون، كما قيل:

يعرفه الباحث من جنسه وسائر الناس له منكر

وكلهم يقرُّون بأن الأنبياء عليهم السلام خُزَّان علم الله، وأن الخلفاء هم والأئمة المهديون وارثون علم النبوات، ولكنهم لا يدرون حقيقة ما يقرُّون ولا تصديق ما يعتقدون، فأعيذك أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن تكون منهم، بل كن هاديًا مهديًّا رشيدًا طبيبًا رفيقًا لإخوانك وأصدقائك وجيرانك: ترشد الضال وتبرئ الأكمه والأبرص وتُحيي الموتى بإذن الله.

(٢) فصل ذكروا أن ملكًا من ملوك الهند كان عظيم الشأن …

ذكروا أن ملكًا من ملوك الهند كان عظيم الشأن عزيز السلطان واسع المملكة حسن السيرة في رعيته محبًّا للعدل والإنصاف، ولكن كان متدينًا بعبادة الأصنام معظِّمًا لها مقرِّبًا

لأهلها، ولم يكن يعرف شيئًا من أخبار الأنبياء ولا ما جاءت به من حديث ملكوت السماء وأمر الوحي والتنزيل والسنن والتأويل، وأمر المبدأ والمعاد والبعث والقيامة والحشر والحساب والميزان والصراط والنجاة من النار ودخول الجنان، ومجاورة الرحمن ذي الجلال والإكرام، ثم إن ذلك الملك رُزِق على رأس الكبر ابنًا سعيد المولد، فأمر المنجِّمين بالحساب والحكم على موجبات أحكام النجوم في مولده، فحكموا بأنه يتربى ويعيش ويطول عمره وينال ملكًا وسلطانًا لا يشبه ملك الأرضين ولا سلطان الجسمانيين، بل ملك السماويين وسلطان الروحانيين، فلما تربى ذلك الغلام ونشأ أفرد له أبوه منزلًا، وبنى له قصرًا فأسكنه فيه ووكل به الحفظة وشحنه بالخدم والطيرة والخصيان، ومنع أن يصل إليه أحد من العامة، فلما نشأ الغلام وترعرع رُزِق من الفهم والذكاء ما لم يُرْزَق أحد غيره من أهل بلده، ثم علم آداب أبناء الملوك من القراءة والكتابة والشعر والفصاحة والنحو واللغة والحساب والنجوم والهندسة وما يليق بأولاد الملوك من العلوم والآداب، وكان صافي النفس حي القلب كثير التفكر في ملكوت السماء وأمر الصانع وكيفية المبدأ وأمر المعاد وأحوال القرون الذين مضوا وانقرضوا، ترى إلى ماذا صاروا، وإلى أين ذهبوا، حتى منعته الفكرة عن الأكل والنوم والتمتع بلذات النعيم في الدنيا وشهواتها، فأسهر ليله وأطال نهاره، وتمنى أن يجد أحدًا يسأله عما في نفسه ويذاكره بما في قلبه فلم يجد أحدًا، حتى فشا حديثه في الناس، وكثر الثناء الجميل عليه، وانتشر ذكره في الآفاق فسمع خبره حكيم من حكماء بلاد سرنديب فطمع في رشده، ورجا أن يكون هاديًا رشيدًا وفيلسوفًا حكيمًا، فقصد نحو بلاده وحمل معه كتابًا من كتب الحكمة وأسرار النبوة ملفوفًا في ثوب في جوف سَفَطٍ مختوم،[١] ثم إنه أتى تلك المدينة فطاف فيها فلم يجد فيها أحدًا من أهلها يصلح أن يسمع حكمته غير ذلك الغلام، فطاف ببابه فرأى الوصول إليه صعبًا، والأمر ممتنعًا من كثرة الحراس والحفظة حول القصر، وأقام زمانًا يفكر كيف يكون الوصول إليه والدخول إلى عنده حتى عرف الداخلين والخارجين من عنده وإليه، فوقع اختياره على أحد الخدم المختصِّين به، فرصده يومًا حتى وجده خاليًا، وأخذ بيده إلى جانب الطريق وقال له: اسمع ما أقول واكتم عليَّ سري.

[١] السَّفَط: وعاء كالقُفَّة، والتابوت الصغير سفطٌ أيضًا، والقشر الذي على جلد السمك سفط، والجمع أسفاط، والأول هو المراد هنا فتنبه.

واعلم بأن عندي نصيحة لابن الملك، وقد وقع اختياري عليك لما توسَّمت فيك من الخيرية.

قال له الخادم: ما هذه الحاجة؟ وما هذه النصيحة؟ أسمعنيها حتى أعرفها.

قال له: أنا رجل من تجار البحر، وقد وقع بيدي جواهر مثمَّنة نفيسة لا تصلح إلا للملوك وأبناء الملوك، وقد قصدت هذا الفتى لأعرضها عليه، فإن كانت تصلح له واختارها فهي مبذولة له، وإن لم يكن يريدها رُدَّت إليَّ سرًّا ولم يعلم بها أحد من الناس؛ فإني لست آمَن من أن يشعر بها بعض اللصوص أو الطرارين[٢] فيحتال عليَّ في أخذها.

فقال له الخادم: أرني جواهرك أنظر إليها، فإن كانت تصلح له حملتها إليه.

فقال الحكيم: إن لجواهري شعاعًا وبريقًا شديدًا لا تستطيع النظر إليها؛ لأن في عينيك ضعفًا أُشفق عليك ضررًا.

وأما ابن الملك فشابٌّ حدثٌ جيد النظر حادُّ البصر لا أخاف عليه منه ضررًا.

فقال له الخادم: إن هذا الأمر الذي تصف لأمرٌ عظيم، وما أرى بكلامك بأسًا، وأنا شاكٌّ فيما تقول فكيف أصنع؟

فقال الحكيم: لا يسعك أن تحرم ابن الملك هذه النصيحة إذا بذلتها له. واعلم بأنك إن لم توصلني إليه مع سفطي هذا توسلت بغيرك إليه. فذهب الخادم وعرَّف الفتى.

فلما سمع ابن الملك ذلك الحديث تهلل وجهه وداخَلَه من الفرح والسرور ما لم يتمالك نفسه أن قام من مجلسه ومشى في الدار، وعلم أنه قد ظفر بحاجته ووجد طلبته، وقال للخادم: نِعم ما رأيت حين عرَّفتني هذا الحديث، فالآن أوصله إليَّ ولكن بالليل في سرٍّ وكتمان.

فلما وصل الحكيم إلى الفتى ورأى شخصه تفرَّس فيه النجابة والفلاح، وقام الغلام من مجلسه وسلَّم عليه ورحَّب به وأقعده وقعد بين يديه، وقال للخادم: تنحَّ الآن عنا لأسأله عما في نفسي.

ثم ابتدأ فسأله عن حاله ومجيئه وقصده، وأخذ في حديث طويل، وقد بيَّنَّا في فصل بعد هذا أشياء مما جرى بينهم من الخطاب.

فهكذا ينبغي لإخواننا الفضلاء الأخيار، أيَّدهم الله وإيانا بروح منه، أن يقتدوا بذلك الحكيم في اختيارهم لحكمتهم الأحداث الفتيان الأخيار النجباء المتأدِّبين المتهذِّبين الفهماء

---

[٢] الطرار: من يشق الجيوب ليسرق.

الأذكياء؛ لأذكار علومنا وأسرار حكمتنا اقتداءً بسنة الله تعالى؛ وذلك أنه لم يبعث نبيًّا إلا وهو شاب، ولا أعطى الحكمة لعبد من عباده إلا وهو حَدَث من الفتيان، كما ذكرهم الله تعالى وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الآية، وقال في قصة خليله إبراهيم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ وقال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾.

وهكذا ينبغي لإخواننا إذا وجدوا صديقًا بهذا الوصف ينبغي لهم أن يغتنموا ذلك ويعرِّفوا إخوانهم الباقين، ويستبشروا بالنصر والتأييد من الله عز وجل كما وعد، جل ثناؤه، بقوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ وقال: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٣) فصل فكان مما يجري بين الفتى والحكيم أن قال له: أخبِرْني لِمَ يذمُّ الحكماء الدنيا ...

فكان مما يجري بين الفتى والحكيم أن قال له: أخبِرْني لِمَ يذمُّ الحكماء أمور الدنيا ويزهِّدون في نعيمها وهي دارهم التي نشئوا فيها ومسكن آبائهم الذين ربَّوهم؟ فأجاب: لأنها تصغُر في أعينهم إذا شاهدوا أمر ملكوت السماء، ويستقلُّون نعيمها في جنب ما يعرفون من نعيم أهل الآخرة كما صغر حال ذلك المسكين في أعين الملك ووزيره.

قال الفتى: كيف كان ذلك؟ قال الحكيم: ذكروا أنه كان ملك من ملوك الهند عظيم الشأن عزيز السلطان واسع المملكة حَسَن التدبير والسياسة عادل السيرة في الرعية صادق الحجة في الحكمة، بصيرًا بأمور الدنيا، راغبًا فيها متمنيًا للخلود، ولم يكن يعرف أمر الآخرة ولا المبدأ ولا المعاد ولا البعث ولا القيامة ولا الوحي ولا النبوة، وكان مع ذلك يعبد الأصنام تقليدًا، يقرِّب لها القربان ويعظِّم شأنها ويُحسن إلى أهلها على عادة جارية قد اعتادها من الحداثة والصبا من غير فكر ورويَّة في شأنها، وكان له وزير خيِّر عارف بصير قد عرف ملكوت السماء ونبأ الملأ الأعلى وأمر المعاد والمبدأ وكيفية الوحي للأنبياء عليهم السلام، وعلل سنن الديانات ومرامي مرموزات النواميس وأسباب أحكام الشرائع، وما الغرض الأقصى منها؟ وما حقيقة معانيها وخفيَّات أسرارها ودقائق إشاراتها؟ وما قصد واضعيها؟ وما النفع العاجل منها؟ وما المطلب والمغزى في الأصل منها؟

فكان كلما رأى ذلك الوزير الملك يسجد لتلك الأصنام ويستلمها ويعظم شأنها من غير معرفة بحقيقة أمرها ولا بصيرة لشأنها وما المغزى من ذلك؛ امتعض قلبه لما عليه لغفلته وسهوه فيما يفعله تقليدًا ويعمله جهالةً، وكان يرثي له سرًّا وجهرًا رحمة وشفقةً

عليه؛ لطول الصحبة معه وحسن المعاشرة له، وكان نهايته أن ينهاه عن ذلك أو ينبِّهه من غفلته، وأن لا يسمع لقوله لشدة سكرته وغفلته، ولا يقبل نصيحته لتمكُّنها في نفسه واستمراره عليها طول الزمان، فشكى ذلك إلى صديق له فقال:

قد طالت صحبتي لهذا الملك وما رأيت منه إلا خيرًا، وله إليَّ إحسان كثير وإنعام وأفضال لا أقدر أن أؤدي شكرها، ولست أُنْكِر من أمره إلا ما هو فيه من الغفلة في أمر الدين والمعاد وقلة الرغبة في الآخرة وترك النظر في المنقلب بعد الموت، ولا أدري إن ذكرته كيف يقع منه؟

فقال له صاحبه: أنت أَخْبَرُ بصاحبك وأعْرَف بأخلاقه وأعلم بعاداته، فكن طبيبًا رفيقًا، لا تضع الدواء إلا عند الداء حتى ينفع، واطلب الفرصة فإن رأيت للكلام موضعًا وللخطاب موقعًا فاغتنم ذلك، وإن لم ترَ فلا تُضيِّع الحزم. واعلم بأن الملوك لهم سكرات وغفلات من عدة وجوه، فمنها سكرات السلطان والأمر والنهي ومحبة الرياسة والعز والأنفة والكبر والاستطالة، ومنها سكر الشباب والنشاط والنجدة والتفاخر والخيلاء والشجاعة والشطارة ومحبة الغلبة والرياسة والسمعة، ومنها حب الشهوات المركوزة في الجبلَّة والتمكن منها والميل إلى اللذات المعتادة والرفاهية والراحة والزلفة واستمرار على العادات المعتادة من الصبا، ومنها الجهالات المتراكمة من أول الأمر والأخلاق المنشأة مع الطبع والخِلْقة، وكل هذه سكرات تمنع من استماع الحكمة والنظر في العاقبة والفكر والرويَّة في المعاد والمنقلب في الآخرة بعد الموت.

ثم إن ذلك الوزير مكث دهرًا طويلًا يطلب الفرصة لخطابه إلى أن اتفق أن قال له الملك ذات ليلة — بعد ما فرغا من النظر في أمر الرعية وكتب النوبة وتدبير السياسة: هل لك أن نخرج الليلة متنكرَين لنعرف حال المدينة ونتحسس أحوال الرعية وننظر إلى آثار المطر وكيفية ذي البلاد ومصالح العباد؟ وكان من سُنَّة ملوك تلك البلاد ألَّا يركب الملك إلا في كل سنة مرة، ولا يظهر للرعية إلا يومًا واحدًا، كل ذلك تعظيمًا لأمر الملك وسياسةً لأمر الرعية، فخرجا يطوفان حول المدينة متنكرين، فبينما هما كذلك إذ هما بضوء من بعيد فامتدَّا نحوه حتى دنوا منه فإذا هما بمزبلة شبه رابية عظيمة عليها جِيَف مرمية وسماد طرية منتنة الرائحة، وإذا في أسفله ثقبة تشبه المغارة، وإذا في أقصى داخلها رجل قاعد مشوَّه الخلقة على دكة قد أصلحها من بين سماد ورماد تلك المزبلة، وقد فرش تحته

من خرق تلك المزبلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقعة، وفي رِجْليه تُبَّان،[٣] وعلى رأسه شملة مثل ذلك، وإذا بحذائه امرأة تشبهه في الخلقة والتشوه عليها كسوات شبه درع وخمار ومقنَّعة مثل ما عليه من خرق تلك المزبلة، وإذا بين يديهما سراج من خرق فوق آجرَّة شبه منارة، وبجنبه جَرَّة مكسورة فيها درديٌّ كالخل وقد مزجه بيسير من ماء، وإلى جانبه سلة خوص فيها طاقات كرفس وكراث، وبيد كل واحد منهما مشربة مكسورة يغترفان من تلك الجَرَّة ويشربانها، وإذا على فخذه قصبة قد مدَّ عليها خيطًا شبه قوس النداف وهو ينقر عليها بقضيب في يده ويغنِّي بأبيات غير موزونة خارجة من الإيقاع، وإذا به يذكر في تلك الأبيات حسن تلك المرأة ويصف جمالها وشدة عشقه لها وإفراط محبته إياها، وإذا بيدها خشبة غربال مكسورة وقد مدَّت عليها قطعة جلد غير مدبوغ جافَّة منتنة الرائحة شبه الدف، وهي تنقر إذا غنى هو وترقص وتثني يديه، وإذا شرب كل واحد منهما سار صاحبه وحيَّاه بطاقة من ذلك الكرفس والكراث وهي تثني عليه بالحسن والجمال كأنه يوسف الصديق وتسميه شاهنشاه: ملك الملوك، وهو يسميها كديانوية: سيدة النساء، ويشرب ويسارُّ إليها ويُثني عليها ويصفها بالحسن والجمال مما يقصر وصف الحور العِين في جنب ذلك، وإذا شربا سألا الله ألا يعدمهما ما هما فيه ولا يغير ما بهما من نعمة، وأن يبقيهما على تلك الحال أبدًا ما بقي الدهر.

فلما أبصر الملك والوزير ما هما فيه من اللذة والسرور والفرح طال وقوفهما متعجبين من حال تينك المسكينين، ثم قال عند ذلك الملك للوزير: ما أظن أني في طول حياتي وعز سلطاني ونعيم ملكي وأيام شبابي ومجالس لهوي مع تمكني من شهواتي بلغ مني الفرح واللذة والسرور ما يصفان هذان المسكينان الحقيران الوضران من حالهما، ومع هذا كله أظن أنه لا تفوتهما هذه الحال كل ليلة إن أرادا؛ لأنه لا يعرض لهما شيء من العوائق التي تعرض لنا من الأشغال المانعة عن فراغ مجلس اللذة واللهو مثل خروج الخوارج في أطراف المملكة، واضطراب النواحي وشغب الجند وطلبهم الأرزاق، ومثل النظر في تظلُّم الرعية وهمج العامة والنظر في محاسبة الكُتَّاب وتولية العمال، ومثل النظر في التعازي والتهاني والنظر في أمر الخاصة وإصلاح أمر العامة، ومثل النظر في القصص والتوقيعات

[٣] التُّبَّان بتشديد التاء المضمومة: سراويل صغير يُصْنَع بمقدار شبر يستر العورة المغلَّظة يكون للملاحين والمصارعين، والجمع تبابين، والاسم فارسي معرَّب.

وحفظ الخزان وتفقُّد الرسل الواردين من الأطراف وإكرامهم والتجمل لهم، ومثل النظر في الكتب الواردة من أصحاب الأخبار وكتب أجوبتها وما شاكل هذه من الأشغال المنغِّصة للعيش المنقصة للذات المُوردة للغموم والهموم والأحزان.

ثم قال الملك: ولكن أظن أنه لو كان هذان المسكينان دخلا منازلنا وأُلْبِسَا ثيابنا وأبصرا مجالسنا وذاقا من طعامنا وعاينا أحوال ملكنا وشاهدا عز سلطاننا وعرفا لذة نعيمنا مرة واحدة مقدار ساعة، ثم رُدَّا إلى حالهما لما تهنَّيا بالعيش بعد ذلك، ولا وجدا لهذه الحال النكرة التي هما فيها لذة أبدًا، وصغر في أعينهما ما هما فيه من اللذة والفرح والسرور.

فلما فرغ الملك من هذا الخطاب وسمع الوزير قول الملك تذكَّر ما قال له صاحبه لما شكا إليه: اطلب الفرصة وضع الدواء حيث الداء، فإن لكل مقام مقال.

فقال الوزير للملك: أخاف أيها الملك أن نكون فيما نحن فيه من عز سلطاننا ونعيم ملكنا ولذيذ شهواتنا وسرورنا بأحوالنا وفرحنا بما حولنا مغرورين كغرور هذين المسكينين بما هما فيه، ونحن محقرين وجميع أحوالنا في أعين قوم آخرين كاحتقار هذين المسكينين عن أحوالنا.

فلما سمع الملك قول الوزير استكبره واستعظمه وقال له: وهل تعلم في الأرض اليوم مملكة أوسع من مملكتنا؟ أو سلطانًا أعز من سلطاننا؟ أو بلدًا أكثر نعمًا من بلدنا؟ أو مروة[٤] أحسن من مروتنا؟ قال له الوزير: لا.

قال الملك: فمَنْ هؤلاء القوم الذين زعمتَ أنه يصغر حالنا في أعينهم ويستحقرون أمرنا؟ قال: قوم يقال لهم النُّسَّاك، فقال الملك: أين بلدهم؟ ومن أي ناس هم؟ قال: هم من قبائل شتَّى متفرقين في المدن وفي الآفاق والبلاد يجمعهم دين واحد ومذهب واحد ورأي واحد.

قال: صِفْ لي مذهبهم وحالهم؟ قال: هم أمناء الله في خلقه وخلفاء أنبيائه وأئمة لعباده، وليس في الناس منهم إلا نفر يسير؛ لأنهم في الأنام كالملح في الطعام، بسؤالهم يُنْزِل الله القَطْر من السماء والبركات في الأرض، وبدعائهم يرفع الله عن العباد القحط والغلاء والوباء، ومنهم حُفَّاظ كتب الله وعلماء تأويلها.

---

[٤] المروة: حجر صلب براق يوري النار ويكنَّى به عن القوة والثراء، والمرو أيضًا اسم جنس لأنواع الرياحين فتنبَّه.

فقال الملك: ومَنْ أنبياء الله؟ فقال الوزير: هم طائفة من بني آدم اصطفاهم من عباده وقرَّبهم وناجاهم وكشف لهم عن مكنون أسرار غيبه، وجعلهم أمناء وحيه وسفراء بينه وبين خلقه، أرسلهم من عالم الأرواح الذي في ملكوت السماء إلى عالم الكون والفساد في الأرض، وأنزل معهم الكتاب ليدعوا عباده إلى جواره في الجنة التي كان أبوهم آدم فيها تربى.

فقال الملك: وماذا يصفون من أحوال عالم الأرواح وملكوت السموات؟ قال: يقولون: إن هنالك فضاءً فسيحًا وأفلاكًا دوَّارة وكواكب سيَّارة وأنوارًا ساطعة وبهجة ونسيمًا وروحًا وريحانًا ونعيم الجنان والرضوان وجوار حور حسان وولدان وغلمان ومردان وطيب ونسيم لا يخالطها هجير الصيف وزمهرير الشتاء، ولا ظلمة الأجسام ولا فيئ الأجرام ولا مزاحمة في المكان وملك دائم وعز سرمد، وأهلها أحياء لا يموتون وشبان لا يهرمون، وأصحاء لا يمرضون وأغنياء لا يفتقرون، وجيران لا يتحاسدون وأصدقاء لا يختلفون، ونعيمهم لا يكدِّره بؤس ولذاتهم لا تخالطها آلام، وسرورهم لا تشوبه أحزان وفرحهم لا تدخله غموم ولا هموم ولا نوائب ولا حدثان ولا تغيير الزمان.

فقال الملك: وماذا يقولون؟ هل إلى هناك وصول؟ قال الوزير: لا يشكُّون أن مَنْ طلبها كما يجب وصل إليها.

قال الملك: فكيف وجه الطلب؟ وكيف المسلك؟ وكيف الوصول؟ فوصف له الوزير ما ذكرنا طرفًا منه في رسائلنا الناموسيات، وما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام في كتبهم، وما أشار إليه الفلاسفة الحكماء في مرموزاتهم.

(٤) فصل قال الملك للوزير: متى عرفت هذه القصة …

فقال الملك للوزير: مذ متى عرفت هذه القصة واعتقدت هذا الرأي وعلمت هذا المذهب؟ فقال: من زمان. قال: فما الذي منعك أن تذاكرني بهذا الأمر الجليل العظيم الخطير في طول صحبتك معي؟ قال الوزير: إني لم أترك مذاكرة الملك بهذا الأمر الجليل؛ لأني بخلت عليك به أو لم أرَك أهلًا لذلك، ولكني تركته انتظارًا وطلبًا لفرصة توجب الخطاب وموضعًا للكلام؛ لأن النظر في هذا العلم والبحث عن تحقيق هذا الأمر والتصور له بكنه المعرفة يحتاج إلى قلب فارغ من أشغال الدنيا، ونفس صافية من العوارض المكدِّرة والآراء الفاسدة والعادات الرديئة، وهمة عالية في طلب الأمور الشريفة، والزهد في الشهوات الجسمانية المذمومة، وترك اللذات المحسوسة الجرمانية الفانية حتى يتصورها بحقها

وصدقها؛ كي لا يكون المُقر بهذا الأمر مقلِّدًا كالعوام الذين لا يعلمون من القول إلا زورًا، ولا من العمل إلا ظاهرًا، ولا من العلوم إلا قشورًا، ولا من الدين إلا تعصبًا، وإن الملوك أكثر الناس أشغالًا في أمور الدنيا، وأطولهم آمالًا وأرغبهم في الخلود في الدنيا، وأكثرهم تمنِّيًا للبقاء فيها؛ لشدة تمكنهم من التمتع بنعيمها واستغراقهم في شهوات لذاتها، ولا يصلح للمذاكرة بهذا العلم إلا فتيان أذكياء لهم نفوس صافية وقلوب واعية بريئون من الآراء الفاسدة، غير معتادين للعادات الرديئة، أو مشايخ مهذبين في العلوم الرياضية مجرَّبين في الأمور السياسية، محبين للعلوم الإلهية غير متعصبين في المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة، أو نفوس ملكية لها همم عالية في طلب مراتب الملائكة والأمور السماوية والمعقولات الروحانية والوجود المحض والبقاء الدائم والدوام السرمد.

فقال الملك: ما يسعنا بعد هذا اليوم إلا أن نجعل أكثر عنايتنا في الكشف عن حقيقة هذا الأمر على صحة وبيان من غير تقليد ولا تكذيب، فإن بان أنه حق طلبناه حق الطلب وتركنا ما نحن فيه من عبادة أصنام وأمور هذه الدنيا التي كلها إلى زوال وفناء، كما فنيت أعمار الذين كانوا من قبلنا فزال ملكهم ونعيمهم، ثم قال له: أخبِرْني بماذا يصفون الحكماء من أصناف الخلائق هناك؟ قال: يقولون: لا يعلم عددهم إلا الله، كما لا يحصي عدد الخلائق الذين هم في الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام والسباع والوحوش والطير والهوام والحشرات والدواب وحيوان الماء والبحار أجمع، وأصناف بني آدم من أجناس الأمم من التُّرْك والحبش والزنج والنوبة والعرب والعجم والفُرْس والروم والهند والسند والصين والنبط والزط[٥] والأكراد ويأجوج ومأجوج والسيسان وأمم أخر غير معروفة عند كثير من الناس وكل هؤلاء؛ مختلفي الألسن والألوان والأخلاق والطباع والعادات والأعمال والأفعال والصنائع والآراء والمذاهب، من أهل المدن والقرى والسوادات والسواحل والجزائر والبراري، نحو من سبعة عشر ألف مدينة تملكها نحو من ألف ملك، هذا في الربع المسكون من الأرض، وعلى أن الأرض بجميع ما عليها من البحار والجبال والبراري والأنهار والعمران والخراب ما هي، في فسحة سعة الهواء — إلا كحلقة ملقاة في برِّيَّة صحراء، وفضل سعة كل واحد من الأفلاك التسعة على الهواء كفضل البرِّيَّة على تلك الحلقة، أفترى أيها الملك أن الخالق تعالى ترك تلك الفسحة الواسعة من الفضاء مع

[٥] الزط: جيل من الناس يُظَن أن أصلهم من بلاد الهند، وهم المعروفون في بلاد الشام بالنَّوَر بفتح الواو وقبلها نون مشددة مفتوحة، وفي أوروبا بالبوهيميين والواحد زطي بزاي مضمومة وظاء وياء مشددتين.

شرف جوهرها وشرف جوهر تلك الأجرام وطيب نسيم تلك الأماكن فارغة خالية لم يجعل فيها أهلًا وسكانًا وخلائق تليق بها؟ وهكذا لم يترك البحار الأجاج الأمواه حتى خلق في قرارها الزاخرة أجناسًا من الحيوانات وأنواعًا من الأسماك، وهكذا جوهر الهواء الرقيق لم يتركه فارغًا بل خلق فيه أجناسًا من الطيور تسبح كما يسبح السمك في الماء، وكذلك هذه البراري اليابسة الجافة لم يتركها خاوية حتى جعل فيها أجناسًا من الوحوش والسباع والأنعام، وكذلك في الآجام والآكام ورءوس الجبال وبطون الأودية وشطوط الأنهار حتى خلق في لبِّ النبات وفي ثمر الشجر في جوف الحَب حيوانات مختلفة الصور والأشكال.

واعلم أن صور هذه الحيوانات مع اختلاف أشكالها وسائر هيئاتها مثالات وأشباح لتلك الصور التي في عالم الأفلاك، غير أن هذه في هيولى جسمانية وتلك في جواهر روحانية، وما نسبة هذه الخلائق التي في عالم الكون والفساد وأحوالها بالإضافة إلى تلك الخلائق التي في عالم الأفلاك وأحوالها إلا كنسبة الصور المنقوشة على وجوه الحيطان وأبواب الحمامات بالأصباغ المختلفة، وكما أن تلك الصور مثل وأشباح للدواب المتحركة والحيوان الحساس، وأن تلك الصورة ميتة وهذه حية، كذلك تلك الخلائق روحانية وهذه جسمانية، وتلك شفافة وهذه مظلمة، وتلك باقية وهذه فانية، وتلك صافية وهذه كدرة، وتلك نورانية وهذه ظلمانية، وتلك حافظة وهذه فاسدة. قال الملك: لِمَ أُخْرِج آدم وزوجته وذريته من الجنة هناك وأُهْبِطوا إلى الأرض؟ قال: الجناية كانت منهما. قال: فحدِّثني كيف كانت القصة؟ قال: هي سر خفي لا يجوز كشفها، ولكن أضرب لك مثلًا تفهمه، ألَا ترى أيها الملك إلى عبدك الفلاني الذي ربَّيته صغيرًا ثم لما نشأ ونما أدَّبته وعلَّمته كثيرًا فلما كبر اصطفيته وفضَّلته وشرَّفته ثم ولَّيته بعض مملكتك وجعلته خليفة في بعض بلادك وأمرت بطاعته أكثر عبيدك ورعيتك ومنحته أكثر نعمك ونهيته عن معصيتك؛ فخالفك وترك وصيتك وارتكب نهيك، كيف حططت من مرتبته؟ وكيف تكشَّفت عورته؟ وكيف حبسته في حبسك هو ومَنْ ساعده على ذلك؟ ثم انظر كيف رضيت عنه لما ندم وتاب ورجع هو ومَنْ معه؟ وكيف رددته إلى حالته الأولى؟ وكيف صددت مَنْ لم يعرف ولم يرجع؟ فهكذا قياس آدم وإبليس وذريتهما، فقال الملك: أكل ذرية آدم جنَوا وعصَوا؟ قال: لا، ولكن كنا ذرية من بعدهم، فلما جاءت الأنبياء بالرسالة قامت الحجة علينا أن نقول يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. قال الملك للوزير: ما يقول هؤلاء الرسل إذا بلَّغوا والأنبياء إذا أخبروا في أول دعوتهم للناس وتذكارهم لهم ما قد نسوه وإعلامهم إياهم ما قد جهلوه؟ فوصف له ما قد ذكرنا طرفًا منه في رسالة النواميس الإلهية. قال: وما يفعلونه؟ فوصف

له ما قد ذكرنا طرفًا منه في اعتقاد إخوان الصفاء. قال: كيف عِشْرتهم مع أهل دعوتهم، وعِشْرة أهل دعوتهم بعضهم مع بعض؟ فوصف له ما قد ذكرنا طرفًا منه في رسالة عِشْرة إخوان الصفاء بعضهم مع بعض، فقال: في ماذا يتميَّز أهل دعوتهم من غيرهم؟ فوصف له ما قد ذكرنا طرفًا منه في رسالة خصال المؤمنين وشرائط الإيمان.

فقال: أخبِرْني عن كتب الأنبياء بأي لغة تكون؟ قال: بلغة القوم الذين نشئوا فيها وبألفاظ الذين بُعِثوا إليهم. فقال: فعرِّفني معاني ألفاظها؟ قال: يكون منها أخبار القرون الماضية وأحاديث الأمم السالفة وبدء خلق السموات والأرض وكيفية أطباقها، ووصف أصناف الخلائق فيهما وأخبار ما يأتي في الزمان المستقبل من حديث الأيام وتغييرات الدهور والأزمان وفناء عالم الأجسام، وكيفية نشء الآخرة والحشر والحساب والميزان والقصاص والجواز على الصراط والنجاة وما شاكلها من الأمر المنتظر في الزمان المستقبل، ويكون فيها الأوامر والنواهي والتعليم والتأديب، وبيان الحلال والحرام والحدود والأحكام والفرائض والسنن من الصوم والصلاة والزكاة والقربان وفنون التعبُّد بالترغيب إلى نعيم الجنان والمدح والثناء على أهل الخير والزجر والنهي عن المساوئ، والسرقة والجور في الأحكام، والوعيد بعذاب النيران بضروب الأمثال والإشارات والرموز، ويكون فيها آيات بيِّنات محكمات للقلوب وأمور متشابهات محيية للعقول. قال: فأخبِرْني أكلُّ أوامرهم ونواهيهم وتحريمهم وتحليلهم وفرائضهم وسننهم تكون متساوية؟ قال: لا، بل مختلفة. قال: لِمَ ذاك ومرسلهم واحد؟ قال: لأنهم أطباء النفوس ومنجموها، فمحرماتهم هي حمية النفوس، ومحللاتهم أدوية وشربات، وفنون التعبد هي المعالجات والمداواة، كل ذلك بحسبما يعرض للنفوس من الأمراض التي هي الآراء الفاسدة والأخلاق الرديئة والعادات الجائرة والجهالات المتراكمة، وكل ذلك بحسب اختلاف طبائع الأمم وأهوية البلدان وتغييرات الأزمان وموجبات أحكام النجوم ودلائل القرانات، كما بيَّنَّا في رسالة الأكوار والأدوار.

(٥) فصل وكان مما سأل الفتى ذلك الحكيم أيضًا أن قال له …

وكان مما سأل الفتى ذلك الحكيم أيضًا أن قال له: أخبرني ماذا يرى الحكماء في حال النفوس بعد مفارقتها الجسد على الشرائط التي ذكرت وصعودها إلى ملكوت السماء؟ هل تشتاق هذا الجسد أو تتمنى العود إليه؟ قال الحكيم: ذكروا أن ملكًا من الملوك كان له ابن كريم عليه، فزوَّجه بابنة ملك وزفَّها إليه على أحسن ما يكون من الكرامات كما

تُزَف بنات الملوك، وأصلح للحاشية دعوة سبعة أيام لا يعرفون غير الأكل والشرب والغناء والفرح والسرور، وكان ابن الملك يقعد في صدر المجلس على سرير له وينظر إلى الناس وما هم فيه من الفرح والسرور، فلما مضى من الليل قطعة ونام أكثر الناس قام من مجلسه ليدخل الحجرة للخلوة عند العروس.

فاتفق ليلة أن نام أهل المجلس كلهم من السُّكْر وقام الفتى يمشي في الدار حتى خرج من باب الدار وجعل في الشارع، ومشى حتى خرج من المدينة فوقع في الصحراء ولم يدرِ أين هو؟

ثم إنه رأى ضوءًا من بعيد فذهب نحوه حتى قرب منه فإذا هو بباب مردود والضوء من داخله، فدفع الباب فإذا هو بقوم نيام مطروحين يمنةً ويسرةً، وكل واحد ملفوف في إزار، فظن أنها حجرة العروس، وأن أولئك النيام جواريها وخدمها فجعل يناديهم فلم يُجِبْه أحد منهم، فظن أن ذلك من شدة سُكْرهم فجعل يلتمس العروس من بينهم حتى وقعت يده على واحدة هي أطراهنَّ ثيابًا وأطيبهنَّ ريحًا؛ فظن أنها عروسه فاضطجع معها وعانقها وجعل طول الليل يبوسها ويمتص من ريقها ويتلذذ، ولا يرى أن تكون لذة أطيب مما هو فيه.

فلما أصبح وزال سُكْره نادى بالخادم فلم يُجِبه أحد، وجعل يحرك العروس فلا تجيبه ولا تنتبه.

فلما طال ذلك عليه فتح عينيه فإذا هو في ناووس خرب، وإذا أولئك النيام كلهم جيف الموتى، وإذا هو بجنب امرأة عجوز قد ماتت منذ قريب وعليها أكفان جدد وحنوط طري، وإذا الدم والصديد قد سال منها وتلوثت ثيابه وبدنه ووجهه من تلك الدماء والصديد والقاذورات!

فلما رأى ذلك الحال هال وورد عليه أمر مهول فقام مرعوبًا، وطلب الباب وخرج هاربًا متنكرًا؛ مخافة أن يراه أحد على تلك الصورة والحال ذاهبًا في طلب الماء؛ ليغسل ما به حتى إذا ورد إلى نهر نزع ثيابه ليغسلها من ذلك الدم والصديد من القاذورات وهو متفكر في أمر كيف كان خروجه من مجلسه ومنزله؟ ولا يدري أين هو من البلد؟ وما خبر أهله من بعده؟

فما زال كذلك حتى مرَّ به مجتازٌ في الطريق، فلما رآه لم يعرفه، فقال له: ما قصتك؟ ولِمَ أنت قاعد في الماء؟ فاستحى منه أن يعرِّفه خبره، فقال: زلقت في مزبلة وتلوثت ثيابي وأنا قاعد ها هنا منتظر إلى أن يتوجه إليَّ أهلي بثياب ألبسها، فقال له المجتاز: إن الناس

في شغل عنك! فقال: ما الذي أصابهم؟ قال: يقولون: إن ابن الملك قد اختطفه الجن البارحة، وهم محزونون عليه متوحِّشون لفقده. فقال له: عندي خبر ابن الملك فهل لك أن تعيرني ثيابك ودابتك حتى أمر وأبشِّرهم به والبشارة بيني وبينك نصفان؟ فدفع الرجل إليه بعض ثيابه وأركبه دابته وأوصله إلى دار الملك، فدخل الغلام متنكرًا من باب الحجرة، فلما رأوه فرحوا به وسألوه عن خبره؟ فقال: القصة طويلة أُخبركم بها وقتًا آخر، عودوا إلى ما كنتم عليه، فعاد القوم إلى السرور والفرح أضعاف ما كانوا عليه، ثم قال الحكيم للفتى: ما تقول وما ترى؟ هل ذلك الغلام يريد بعد ما نجَّاه الله تعالى من مبيته تلك الليلة في الناووس العَود إليه ويشتاق إلى معانقتها — يعني تلك العجوز الميتة — ليلة أخرى؟ قال الفتى: لا. قال الحكيم: فهكذا يرى الحكماء حال النفوس بعد مفارقتها للأجساد وصعودها إلى ملكوت السماء أنها لا تشتاق إلى هذا الجسد، ولا تريد العود إليه، بل تأنف من الفكر فيه وتشمئز من فعله وذكره كما اشمأزَّت نفس الغلام من ذكر مبيته في الناووس تلك الليلة وما عليه من العار عند أبناء الملوك إن عرفوا حديثه.

(٦) فصل واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم أن لنا إخوانًا وأصدقاء من كرام الناس ...

واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن لنا إخوانًا وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد، فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والعمال والكُتَّاب، ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والدهاقين[٦] والتجار والتُّنَّاء،[٧] ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحمَلة الدين، ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس. وقد ندبنا لكل طائفة منها أحدًا من إخواننا ممن ارتضيناه في بصيرته ومعارفه؛ لينوب عنا في خدمتهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة والشفقة عليهم؛ وليكون عونًا لإخوانه بالدعاء لهم إلى الله سبحانه وإلى ما جاءت به أنبياؤه وما أشارت إليه أولياؤه من التنزيل والتأويل؛ لإصلاح أمر الدين والدنيا جميعًا، وقد اخترناك

[٦] الدهاقين: جمع دهقان بكسر الدال وضمها، والدهقان حاكم الإقليم المتصرِّف وحده، والكلمة فارسية معرَّبة، وقبل الدهقان الداهية الكيِّس.

[٧] التُّنَّاء: جمع تانئ، من تنأ تنوءًا بالمكان؛ أقام به تانئ، والجمع التُّنَّاء أو المرابطون.

أيها الأخ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه؛ لمعاونتهم وارتضيناك لمشاركتهم بما آتاك الله من فضله من العقل والفهم والتمييز وجرية النفس[^8] وصفاء جوهرها؛ لتكون مساعدًا لهم ومعاضدًا لإخوانك؛ لأن جوهرك من جوهرهم ونفسك من نفوسهم، فانظر بعقلك وميِّز ببصيرتك مَنْ ترى من إخوانك وأصدقائك من الكُتَّاب والعمال وأهل العلم والفضل وحمَلة الدين والأديان ومَنْ تبعهم من حاشيتهم وغلمانهم ممن يمكنك الوصول إليهم بأرفق ما تقدر عليه من اللطف والمداراة بأن نذكر لهم ما ألقيناه إليك من حكمتنا وأسرار علمنا؛ لتنبههم من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتحييهم بروح الحياة بإذن الله تعالى، فإن الله يؤيدك بنصره ويعينك بقدرته إذا رأى منك الجد والاجتهاد كما وعد أولياءه فقال عز من قائل: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾، فإذا عرفت منهم أحدًا وآنست منهم رشدًا عرفنا حاله وما هو بسبيله من أمر دنياه وطلب معائشه وتصرفه في حالاته؛ لكي نعرف ذلك ونعاونه على ما يليق به من المعاونة، فإن كان ممن يخدم السلاطين ويتصرف في أعمالهم أوصينا إخواننا ممن يكون بحضرة السلاطين والملوك بالنيابة عنه والنصيحة له وحسن الرأي فيه لدى الملوك والسلاطين والوزراء، وإن كان من أبناء التُّنَّاء والدهاقين والأشراف وأرباب الضياع أوصينا إخواننا ممن يتولى عمل السلطان بصيانته وحسن معاونته في ملته، وكف الأذية عنه وقبض أيدي الظالمين عن البسط إليه، وإن كان من أبناء أصحاب النعم وأرباب الأموال عاونَّاه بحسب ذلك، وإن كان من الفقراء المحتاجين واسيناه مما آتانا الله من فضله، وإن كان ممن يرغب في العلم والحكمة والأدب وأمر الدين وطلب الآخرة علَّمناه مما علَّمنا الله عز وجل وألقينا إليه من حكمتنا، وأطلعناه على أسرارنا بحسب ما يحتمل عقله ويتسع له نفسه وتتوق إليه همته إن شاء الله عز وجل.

واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أنَّا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفًا من سطوة الملوك ذوي السلطنة الأرضية، ولا حذرًا من شغب جمهور العوام، ولكن صيانةً لمواهب الله، عز وجل، لنا كما أوصى المسيح عليه السلام، فقال: «لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.»

واعلم أيها الأخ، أنَّا لا نحسد ملوك الأرضين ولا نتنافس في مراتب أبناء الدنيا، لكن نطلب الملك السماوي ومراتب الملائكة الذين هم أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع؛ لأن

[^8]: جرية النفس: سهولتها والماء سيلانه وفيضه.

جوهرنا جوهر سماوي وعالمنا عالم علوي، ونحن ها هنا أسرى غرباء في أَسْر الطبيعة، غرقى في بحر الهيولى بجناية كانت من أبينا آدم الأول حين خدعه عدوه اللعين إذ قال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾، ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ وقيل لهم: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني أنتما وذريتكما ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ وقال: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

واعلم أيها الأخ، أنه كما أن المعاونة تكون بقوة الأجسام على أمور الدنيا من أبلغ ما يكون لأبناء الدنيا فيما يريدون وأسهلها عليهم فيما يقصدون، وهكذا نرى أن المعاونة بين إخواننا بالعلوم والمعارف على أمر الدين وطلب الآخرة من أبلغ ما يقصدون وأسهلها عليهم فيما يريدون.

واعلم أننا لا نستعين بأحد من إخواننا على أمر الدين قبل أن نبذل له من المعاونة على أمر الدنيا، فإن كان مستغنيًا عن معاونتنا فذلك الذي نريد له، وإن كان محتاجًا إلينا فذلك الذي نريد منه، حتى إذا كفيناه ما يهمه من أمور دنياه وأفرغ لنا قلبه وأجمع لنا رأيه واستغنى عن ذلك بقوة نفسه وتمييز عقله وصفاء جوهره، فإن كان عنده علم ليس عندنا تعلمنا منه تعلُّم صبيان الكُتَّاب، واستمعنا منه استماع المنصتين لخطبة الخطيب يوم الجمعة، فإن كان حقًّا ما يقول اتبعناه اتباع المأموم والإمام، وإن كان يرغب فيما لدينا من العلم علمناه بحسب رغبته وطلبته.

(٧) فصل في أنَّا لا نعادي علمًا من العلوم

واعلم أيها الأخ، أنَّا لا نعادي علمًا من العلوم، ولا نتعصب على مذهب من المذاهب، ولا نهجر كتابًا من كتب الحكماء والفلاسفة مما وضعوه وألَّفوه في فنون العلم، وما استخرجوه بعقولهم وتفحُّصهم من لطيف المعاني.

وأما معتمدنا ومعوَّلنا وبناء أمرنا فعلى كتب الأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين، وما جاءوا به من التنزيل وما ألقت إليهم الملائكة من الأنباء والإلهام والوحي.

واعلم أيها الأخ أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن لنا كتبًا نقرؤها مما شاهدها الناس ولا يحسنون قراءتها، وهي صورة أشكال الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب وأمهات الأركان واختلاف جواهر المعادن وفنون أشكال النبات وعجائب هياكل الحيوانات، ولنا كتاب آخر لا يشاركنا فيه غيرنا ولا يفهمه سوانا؛ وهو معرفة جواهر النفوس ومراتب مقاماتها واستيلاء بعضها على بعض، وافتنان قواها

وتأثيرات أفعالها في الأجسام من الأفلاك والكواكب والأركان والمعادن والنبات والحيوانات وطبقات الناس من الأنبياء والحكماء والملوك وأتباعهم والسوقة وأعوانهم، فإن نشطت أيها الأخ البارُّ الرحيم إلى قراءة هذه الكتب أنت وإخوانك لتعلم ما فيها وتفهم معانيها وتعرف أسرارها فهلمَّ إلى حضور مجلس إخوان لك فضلاء وأصدقاء لك كرام تسمع أقاويلهم وترى شمائلهم، وتعرف سيرتهم لعلك تتخلق بأخلاقهم وتتهذَّب بآدابهم فتنتبه نفسك من نوم الغفلة، وتستيقظ من رقدة الجهالة، وينشرح صدرك ويصفو ذهنك وتفتح عين البصيرة من قلبك، فترى ما قد أبصروه بعيون قلوبهم، وتشاهد ما قد عاينوه بصفاء جواهر نفوسهم، وتنظر إلى ما نظروا إليه بنور عقولهم، وتفهم معاني هذه الكتب الأربعة كما فهموها، وتؤيد بروح الحياة وتعيش عيش العلماء، وتحيا حياة الشهداء، وتوفَّق للصعود إلى ملكوت السماء، وتنظر إلى الملأ الأعلى الـ ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(٨) فصل في أنه لا يحسن بنا أن ندَّعي معرفة حقائق هذه الأشياء

واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنه لا يحسن بنا أن ندَّعي معرفة حقائق هذه الأشياء ونحن لا نعرف أنفسنا؛ لأن مثل مَنْ يدَّعي معرفة حقائق الأشياء ولا يعرف نفسه كمثل مَنْ يطعم الناس وهو جائع، وكمَنْ يكسو غيره وهو عريان، وكمن يداوي الناس وهو عليل، وكمن يهدي الناس إلى الطريق وهو لا يعرف طريق بيته، فقد علم أن الإنسان في مثل هذه الأشياء ينبغي له أن يبتدئ أولًا بنفسه ثم بغيره.

واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن كل واحد منا هو مركَّب ومؤلَّف من جوهرين متباينين متضادين: أحدهما هو هذا الجسد الغليظ المحسوس المؤلَّف من اللحم والدم والعظم والجلد والعصب والعروق وما يشاكل ذلك، وهذه كلها أجسام أرضية ميتة مظلمة فاسدة، وأما الجوهر الآخر فهو هذا الروح اللطيف؛ أعني النفس؛ فهو جوهرة سمائية روحانية نورانية علامة دراكة صور الأشياء.

واعلم أن هذا الجسد لهذه النفس في المثال بمنزلة دار تُسْكَن أو دابة تُرْكَب أو آلة تُسْتَعمل، وما دامت هذه النفس مع هذا الجسد مربوطة به إلى الوقت المعلوم فلا بد لنا من النظر فيما تصلح به معيشة الحياة الدنيا وما تُنال به النجاة والفوز في الآخرة.

واعلم أن هذين الأمرين لا يجتمعان ولا يتمَّان إلا بالمعاونة، والمعاونة لا تكون إلا بين اثنين أو أكثر من ذلك، وليس شيء أبلغ على المعاونة من أن تجتمع قوى الأجساد المتفرقة وتصير قوة واحدة، وتتفق تدابير النفوس المؤتلفة وتصير تدبيرًا واحدًا حتى تكون كلها كأنها جسد واحد ونفس واحدة، فعند ذلك تغلب كل مَنْ رام غلبتها، وتقهر كل مَنْ خالفها وضادَّها.

فهلمَّ بنا يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، لنجتمع ونتعاون على ذلك، وينبغي أن تعلم، أيها الأخ، أنه لا يجتمع اثنان على أمر من الأمور إلا ولاجتماعهما علة تجمعهما وسبب يحفظهما على تلك الحال، فما دامت تلك العلة باقية وذلك السبب ثابتًا دامت لهما تلك الحال، وإن بطلت تلك العلة وانقطع ذلك السبب تفرَّقا بعد اجتماعهما وتنافرا بعد إلْفهما.

واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنه ليس من جماعة يجتمعون على تعاون في أمر من أمور الدنيا والآخرة أشد نصيحة بعضهم لبعض من تعاون إخوان الصفاء، وينبغي أن تعلم أن العلة التي تجمع بين إخوان الصفاء هي أن يرى ويعلم كل واحد منهم أنه لا يتم له ما يريد من صلاح معيشة الدنيا ونيل الفوز والنجاة في الآخرة إلا بمعاونة كل واحد منهم لصاحبه، وأما السبب الذي يحفظهم على تلك الحال فهو المحبة والرحمة والشفقة والرفق من كل واحد منهم، والمساواة فيما يريد ويحب ويبغض ويكره لنفسه.

واعلم أن هذه الشرائط تتم وتدوم إذا علم كل واحد منهم بأن أنفسهم نفس واحدة وإن كانت أجسادهم متفرقة.

واعلم أيها الأخ، أن أكثر الناس يريدون ويتمنون أن تكون بينهم صلة وصداقة وأخوَّة لا تكدِّرها تصاريف الزمان، ولكنهم لا يعرفون ما العلة المانعة لهم عن ذلك؟ وما السبب الموجِب لكونها؟

فينبغي أن تعلم أيها الأخ أن المانع للناس أن يكونوا أصدقاء والمانع للأصدقاء أن يكونوا إخوانًا أصفياء على ما يقتضيه العقل هو إما علة غير موجودة، وإما سبب غير مفقود.

فإن كانت علة غير موجودة فما هي لنطلبها؟ وإن كان سببًا غير مفقود فما هو لنقطعه ونزيله؟

وينبغي أن تعلم أيها الأخ، أن المانع من ذلك هو أسباب موجودة نحتاج أن نقلع عن تلك الأسباب حسب لا غير، وهي أربعة أجناس: أحدها سوء أعمالهم، والثاني فساد آرائهم، والثالث رداءة أخلاقهم، والرابع تراكم جهالاتهم.

واعلم أن سوء أعمالهم يكون بحسب آرائهم الفاسدة التي اعتقدوها قبل بحثهم حقائق الأشياء، وأن آراءهم الفاسدة استحكمت في ضمائرهم بحسب أخلاقهم الرديئة التي اعتادوها منذ الصبا، وأن أخلاقهم انطبعت في نفوسهم بحسب جهالتهم المتراكمة التي غشيتهم في أول الأمر.

فينبغي لنا، أيها الأخ، أن نعلم أنه إذا أردنا أن نكون إخوانًا أصفياء أن نبتدئ أولًا بالكشف عن الجهالات المتراكمة التي غشيتنا من أول الأمر؛ إذ هي الأصل في الشرور.

واعلم أن الجهالات التي غشيتنا المانعة لنا من الصداقة وصفوة الأخوة هي أربع جهالات: إحداها أنهم لا يعرفون ما الفرق بين النفس والجسد، والثانية أنهم لا يدركون كيف رباط النفس بالجسد؟ والثالثة أنهم لا يدرون لِمَ رُبِطَت بالجسد؟ والرابع أنهم لا يدرون كيف تنبعث النفس من الجسد؟ فلا جرم أن النفس ما لم تنبعث من الجسد فلا تعرف الفوز والنجاة والخلود في النعيم مخلدة في الجحيم في عذاب أليم.

وينبغي لنا، أيها الأخ، بعد اجتماعنا على الشرائط التي تقدمت من صفوة الإخوان أن نتعاون ونجمع قوة أجسادنا ونجعلها قوة واحدة، ونرتِّب تدبير نفوسنا تدبيرًا واحدًا، ونبني مدينة فاضلة روحانية، ويكون بناء هذه المدينة في مملكة صاحب الناموس الأكبر الذي يملك النفوس والأجساد؛ لأن مَنْ ملك النفوس ملك الأجساد، ومَنْ لم يملك النفوس لم يملك الأجساد.

وينبغي أن يكون أهل هذه المدينة قومًا أخيارًا حكماء فضلاء مستبصرين بأمور النفوس وحالاتها وما يتبع ذلك من أمور الأجساد وحالاتها.

وينبغي أن يكون لأهل المدينة سيرة جميلة كريمة حسنة يتعاملون بها فيما بينهم، وأن يكون لهم سيرة أخرى يعاملون بها أهل المدن الجائرة، ولا ينبغي أن يكون بناء هذه المدينة في الأرض حيث تكون أخلاق أهل سائر المدن الجائرة، ولا ينبغي أيضًا أن يكون بناؤها على وجه الماء؛ لأنه يصيبها من الأمواج والاضطراب ما يصيب أهل المدن التي على السواحل من البحار، ولا ينبغي أن يكون بناء هذه المدينة في الهواء مرتفعًا؛ لكيلا يصعد إليها دخان المدن الجائرة فتتكدر أهويتها، وينبغي أن تكون مشرفة على سائر المدن؛ ليكون أهلها يشاهدون حالات أهل سائر المدن في دائم الأوقات، وينبغي أن يكون أساس

هذه المدينة على تقوى الله؛ كيلا ينهار بناؤها، وأن يُشيَّد بناؤها على الصدق في الأقاويل والتصديق في الضمائر، وتتم أركانها على الوفاء والأمانة؛ كيما يدوم ويكون كمالها على الغرض في الغاية القصوى التي هي الخلود في النعيم.

فإذا فرغنا من بنائها بنينا المركب الذي هو سفينة النجاة حتى تكون السفينة مستقلة بثقل الأجساد، وتكون المدينة مأوى الأرواح.

وينبغي أن يكون تعاون أهل المدينة مرتَّبًا أربع مراتب: إحداها مرتبة أرباب الأركان الأربعة ذوي الصنائع، والثاني مرتبة ذوي الرياسات، والثالثة مرتبة الملوك ذوي الأمر والنهي، والرابعة مرتبة الإلهيين ذوي المشيئة والإرادة.

وينبغي أن يكون تدبير ذوي الصنائع يجري في المرءوسين كسريان الضوء في الهواء وكسريان القوة النامية في الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، ويكون سريان سياسة ذوي الرياسات يسري في أرباب ذوي الصنائع[٩] كسريان الألوان في الضياء، أو كسريان القوة الحيوانية في القوة النامية، ويكون نفاذ أمر الملوك ذوي السلطان يسري في الرؤساء ذوي السياسة كسريان القوة الباصرة في إدراك الألوان، وكسريان القوة الناطقة في القوة الحيوانية، ويكون سريان مشيئة الإلهيين ذوي الإرادة يسري في الملوك ذوي السلطان كسريان العقل في المعقولات، أو كسريان القوة الملكية في القوة الناطقة.

فإذا انتظم أمر المدينة على هذه الشرائط فهي السيرة الكريمة الحسنة التي يتعامل بها أهل المدينة فيما بينهم.

(٩) فصل في اعلم يا أخي أن هذه المدينة مفروغ من بنائها على هذا الوصف ...

واعلم أيها الأخ، علمًا يقينًا أن هذه المدينة مفروغ من بنائها على هذا الوصف، ولكن لا يمكن أحد أن يدخل مدينتنا هذه متى لم يكن علمه مساويًا لعلمنا؛ لأن حولها أربعة أسوار مبنية من جهالات الناس، ما بين كل سورين خندق من سوء أعمالهم وفساد آرائهم ورداءة أخلاقهم، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدَّم، فمَنْ عزم على دخولها فعليه بعلم النفس ومعرفة جوهرها فإنه أولى بأن يستفتح من مدينتنا.

---

[٩] كذا في الأصل.

وقد بيَّنَّا كل ما يحتاج إخواننا، أيَّدهم الله، إليه من هذا العلم في إحدى وخمسين رسالة، فانظر فيها، أيها الأخ، إن لم يكن يستوي لك الحضور في مجلسنا، واعرضها على إخوانك الذين ترتضيهم وتأنس منهم الرشد والسداد، فلعلكم توفَّقون لفهم معاني ما ذكرنا فيها من معاني فنون العلم وغرائب الحكم، وترشدون إلى العمل بما يقرِّبكم إلى الله زلفى وينجيكم من نار جهنم عالم الكون والفساد، وتهتدون للصعود إلى ملكوت السماء عالم الأفلاك، والدخول في زمرة الملائكة الذين يَحمِلون العرش ومن حوله يسبِّحون بحمد ربهم ويُؤمِنون به ويستَغفِرون للذين آمنوا ... الآيات إلى قوله: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أن قوة نفوس إخواننا في هذا الأمر الذي نشير إليه ونحث عليه على أربع مراتب: أولها صفاء جواهر نفوسهم وجودة القبول وسرعة التصور وهي مرتبة أرباب ذوي[١٠] الصنائع في مدينتنا التي ذكرناها في الرسالة الثانية، وهي القوة العاقلة المميِّزة لمعاني المحسوسات الواردة على القوة الناطقة بعد خمس عشرة سنة من مولد الجسد، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ وهم الذين نسميهم في رسائلنا: إخواننا الأبرار الرحماء.

وفوق هذه المرتبة مرتبة الرؤساء ذوي السياسة وهي مراعاة الإخوان وسخاء النفس وإعطاء الفيض بالشفقة والرحمة والتحنُّن على الإخوان، وهي القوة الحكمية الواردة على القوة العاقلة بعد ثلاثين سنة من مولد الجسد، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهم الذين نسميهم في رسائلنا: إخواننا الأخيار الفضلاء.

والمرتبة الثالثة فوق هذه وهي مرتبة الملوك ذوي السلطان والأمر والنهي والنصر والقيام بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق واللطف والمداراة في إصلاحه، وهي القوة الناموسية الواردة على النفس بعد مولد الجسد بأربعين سنة، وإليها أشار بقوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ الآية، وهم الذين نسميهم في رسائلنا: إخواننا الفضلاء الكرام.

والرابعة فوق هذه وهي التي ندعو إليها إخواننا كلهم في أي مرتبة كانوا، وهي التسليم وقبول التأييد ومشاهدة الحق عيانًا، وهي القوة الملكية الواردة بعد خمسين سنة

---

[١٠] كذا في الأصل، ويلاحظ أن أرباب الصنائع وذوي الصنائع تكرار سخيف لا معنى له!

من مولد الجسد، وهي الممهِّدة للمعاد والمقرِّبة بمفارقة الهيولى، وعليها ترد قوة المعراج وبها تصعد إلى ملكوت السماء فتشاهد أحوال القيامة من البعث والحشر والنشر والحساب والميزان والجواز على الصراط، والنجاة من النيران ودخول الجنان، ومجاورة الرحمن ذي الجلال والإكرام.

وإلى هذه المرتبة أشار بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ الآية.

وإليها أشار إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.

وإليها أشار بقوله يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ الآية.

وإليها أشار بقوله المسيح عليه السلام، للحواريين: «إني إذا فارقت جسدي — وهو هذا الهيكل — فأنا واقف في الهواء عن يمين العرش بين يدي الحق أبي وأبيكم أستشفع لكم، فاذهبوا إلى الملوك في الأطراف وادعوهم إلى الله عز وجل ولا تهابوهم؛ فإني معكم حيث ما ذهبتم بالنصر والتأييد لكم.»

وإليها أشار محمد ﷺ: «إنكم تردون غدًا.» وأحاديث مروية كلها مشهورة عند أصحاب الحديث.

وإليها أشار سقراط بقوله يوم سُقِي السم: إني وإن كنت أفارقكم إخوانًا فضلاء فإني ذاهب إلى إخوان كرام قد تقدَّمونا في حديث طويل.

وإليها أشار فيثاغورث في الرسالة الذهبية في آخرها: «إنك إن فعلت ما أوصيك فإنك عند مفارقة الجسد تبقى في الهواء.»

وإليها أشار بلوهرحين قال: «إن الملك قال لوزيره: ومَنْ أهل هذه المقالة؟ قال: هم الذين يعرفون ملكوت السماء.» في حديث طويل.

وإليها ندعو إخواننا جميعًا والله يهدي مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم، وآيات كثيرة في هذا المعنى وهي كل آية فيها صفة الجنان وأهلها ونعيمها.

(١٠) فصل في أن المطلوب من المدعوين إلى هذا الأمر أربعة أحوال

واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن المطلوب من المدعوين إلى هذا الأمر أربعة أحوال: أولها الإقرار باللسان، والثاني التصور لهذا الأمر بضروب الأمثال للوضوح والبيان، والثالث التصديق له بالضمير والاعتقاد، والرابع التحقيق له بالاجتهاد في الأعمال المشاكِلة لهذا الأمر.

واعلم أن المُقرَّ باللسان غير متصوِّر له يكون مقلدًا، والمتصوِّر له غير المصدِّق به يكون شاكًّا متحيرًا، والمصدِّق به غير المحقِّق له بالاجتهاد في العمل المُشاكل لهذا الأمر يكون مقصِّرًا ومفرِّطًا، والمكذِّب باللسان لهذا الأمر المنكر له بقلبه يكون جاحدًا كافرًا، كما قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾.

واعلم أن المُقِرَّ بهذا الأمر بلسانه المتصور له بقلبه على حقيقة يجد من نفسه أربع خصال لم يكن يعرفها قبل: إحداها قوة النفس بالنهوض من الجسد، والثانية النشاط في طلب الخلاص من الهيولى التي هي جهنم النفس، والثالثة الرجاء والأمل للفوز والنجاة عند مفارقة النفس الجسد، والرابعة الثقة بالله واليقين بتمام هذا الأمر وكماله.

(١١) فصل في أن كل مقر بهذا القرآن وبكتب الأنبياء ...

واعلم أن كل مقر بهذا القرآن وبكتب الأنبياء عليهم السلام وأخبارهم عن الغيب فإنهم في ذلك على أربع منازل: إما مُقِرٌّ بلسانه غير مصدِّق بقلبه، أو مقر بلسانه ومصدِّق بقلبه غير عارف بمعانيه وبيانه، أو مصدِّق ومقر ومتيقن عارف ولكن غير قائم بواجب حقه.

فالمُقِرُّ بلسانه غير المصدق بقلبه هو الذي قد رُزِق من الفهم والتمييز قليلًا، فإذا فكَّرة بقلبه وميَّز ببصيرته ما يدل عليه ظاهر ألفاظ الكتب النبوية لا يقبله عقله أنه لا يتصور معانيها اللطيفة وإشارتها الخفية فينكرها بقلبه ويشك فيها.

وأما مَنْ أقرَّ بلسانه وصدَّق بقلبه فهو الذي يتفكر ويعلم أن مثل هذا الأمر الجليل الذي قد اتفقت على حقيقته الأنبياء والأئمة المهديون والخلفاء الراشدون وصالحو المؤمنين، وأقر به فضلاء الناس والمميزون والمستبصرون لا يجوز أن يكون لا حقيقة له، ولكن فهمه وتمييزه وعقله يقصر عن إدراكه وتصوره لها بحقائقها.

وأما مَنْ عرف بيانه ولكن قصَّر عن القيام بواجبه وهو الذي وفَّقه الله وأرشده وهداه فاهتدى لحقائق هذه الأسرار المذكورة في كتب الأنبياء، صلوات الله عليهم، ولكنه لا يجد المعين له على القيام بنصرتها وواجب حقها؛ لأنه واحد وليس كل أمر يتم بواحد من الناس، بل ربما يحتاج فيها إلى الجمع العظيم، وخاصة أمر الناموس، وأقل ما يحتاج فيه إلى أربعين خصلة تجتمع في أحد من الأشخاص، أو أربعين شخصًا مؤتلفي القلوب.

(١٢) فصل في خطاب المتفلسفين الشاكِّين في أمر الشريعة الغافلين عن أسرار الكتب النبوية

قد فهمنا أيها الأخ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، ما ذكرته مما جرى بينك وبين أخ من إخواننا من المذاكرة والبحث عن مبادئ الموجودات وعلل الكائنات، وما شكوت من صعوبة انقياده إليه من صفوة الإخوة والمعاونة على نصرة الأديان النبوية، وما وصفت من شدة استغراقه في الآراء الفلسفية وإعراضه عن معرفة أسرار الكتب الإلهية وتفاسير التنزيلات النبوية ومعاني موضوعات الشرائع الناموسية، وما تتضمنه من المنافع الجليلة والأغراض البعيدة للنفوس المستبصرة من الدلالة لها على الارتقاء إلى المراتب العالية، والخلاص من نيران الهاوية، وما ذكرت من اعتماده في البصائر والمعارف على ما يدركه عقله وتمييزه وبصيرته ويؤدي إليه اجتهاده، وما قلت من تعلقه بأقاويل الفلاسفة في آرائهم المختلفة وقياساتهم المتناقضة على أصول لهم متغايرة.

فاصبر عليه، أيها الأخ، ودارِه بالرفق وذاكرْه بهذه الرسالة، فلعله يتقرر في نفسه ما تدعوه إليه، ويتصور في عقله ما تشير إليه من الأسرار المصونة المكنونة التي لا يمسها إلا المطهرون، فقل له: أخبِرْنا أيها الأخ أمُقِرٌّ أنت بما جاءت به الأنبياء، عليهم السلام، في تنزيلاتهم من أخبار الملائكة وقصة إبليس والجان وحديث آدم وبدء خلقه وسجود الملائكة له وأخذ الميثاق على ذريته وما شاكل ذلك من حديث القيامة والبعث والحشر والحساب والميزان والجواز على الصراط، والنجاة من النار والثواب والفوز والجنة ونعيمها وأشباهها مما هو مذكور في التوراة والإنجيل والفرقان وغيرها من صحف الأنبياء، عليهم السلام، أم جاحد بها؟

فإن كنت مقرًّا بها أو ببعضها فأخبِرْنا أمصدِّق متيقن بحقائقها؟ أم شاكٌّ متحير في معانيها؟

فإن كنت مصدِّقًا متيقنًا فأخبِرْنا أعالمٌ أنت عارف بها أو غافل ساهٍ عنها؟ فإن كنت عارفًا عالمًا بها فأخبِرْنا عن الجنة والنار، وهل هما موجودان في وقتنا هذا أم غير موجودين؟ فإن كانا موجودين فقل لنا: أين هما؟ وصِفْ لنا كيفيتهما؟ وإن قلت: إنهما غير موجودين فما معنى قوله: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾؟ وما معنى قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾؟ وما معنى قول النبي: «إن أرواح الشهداء في الجنة»؟ وما معنى المعراج ورؤية النبي ﷺ لرضوان خازن الجنان ومالك خازن النيران؟ وما معنى قول النبي ﷺ: «حرام على كل نفس أن تموت أو ترى مقعدها في الجنة أو النار»؟

وما معنى قوله: «مَنْ مات فقد قامت قيامه»؟ وما معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ الآية، وما معنى قوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؟ وما معنى قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الآية، وما معنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وما شاكل هذه المسائل لو سألناك لطال عليك الخطاب.

(١٣) فصل في أن لكل مذهب وأهله رأيًا ينفردون به

اعلم أيها الأخ، أن لكل مذهب وأهله رأيًا ينفردون به عن غيرهم وعلماء وفقهاء يتدارسونه فيما بينهم، وإن مِنْ رأي إخواننا، أيَّدهم الله، أن هذه الأشياء كلها موجودة منذ خلق الله السموات والأرض ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وهم ينتظرون كونها في الزمان المستقبل وهم أهل التقليد الذين هم من أمر الدين على العمى.

وأما أهل البصيرة الذين هم من أمر الدين على بيان ويقين ومعرفة فهم ينتظرون بها انتظار الكشف والبيان كما رأى النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ليلة المعراج.

وقد بيَّنَّا في رسائلنا هذه المعاني، فإن كنت تعرف منها أيها الأخ فبيِّن لنا علم هذا على أصل تعرفه على قياس واحد لا يجب أن تعدل عنه إذا سألناك، ولا تقلِّد أقاويل الفلاسفة المختلفي الآراء المتناقضي الأقاويل.

فقد رُوِيَ أنه ذُكِر في مجلس النبي ﷺ أرسطاطاليس فقال النبي عليه السلام: «لو عاش حتى يعرف ما جئت به لاتبعني على ديني.»

فينبغي لمن هو مُتَزَيٍّ بزيِّ المسلمين ومعتصمٌ بعروة الإسلام منسوب إلى أمة محمد ﷺ مُقِرٌّ بما جاء به من التنزيل وما في تنزيله من أخبار أمور قد مضت مع الزمان الماضي، مثل بدء كون العالم وخلق السموات والأرض وحديث آدم وقصة إبليس وعصيانه وسجود الملائكة وطاعتهم، وأخذ الميثاق على ذرية آدم وما شاكل ذلك من نظائره مما هو موجود في التوراة والإنجيل وصحف الأنبياء الأولين، وإنذارهم أممهم بأمر القيامة وأخبار البعث والنشور والحشر والحساب والميزان والقصاص والجواز على الصراط والنجاة من النار والفوز بالجنة ونعيم أهلها والنار وأليم عذابها وما شاكل ذلك من الأمور المنتظرة في الزمان المستقبل. وقد دُعينا إلى الإقرار بها والاستعداد لها، فمَنْ أعرض عنها كلها حتى لا يعرف من حقائقها حرفًا واحدًا غير الإقرار باللسان مع حيرة في نفسه وشكوك في قلبه،

ومع هذه كلها يدَّعي معرفة أسرار الكتب الفلسفية، ورموزات الفلاسفة وتدقيق المعاني التي فيها مع كثرة اختلافاتهم ومناقضات بعضهم لبعض مع حيرة أتباعهم فيها، ولا ينظر ولا يتفكر أن الأنبياء كلهم — مع تباعد الأزمان فيما بينهم ومع اختلافات لغاتهم وموضوعات شرائعهم وافتنان سننهم — كيف هم متفقون على رأي واحد ودين واحد ومقصد واحد فيما يشيرون إليه في دعوتهم الأمم إلى أمر الآخرة وأحوال القيامة وجزاء الأعمال فيها إنْ خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشرًّا.

وقد بيَّنَّا في الرسالة الثالثة الرأي الذي يتفقون عليه؛ أعني الأنبياء كلهم، وهي اثنتا عشرة خصلة هي العمدة والأصل فيما يدعون إليه من الدين وإن اختلفت شرائعهم وسننهم، كما ذكر الله تعالى فقال: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ وقال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ ...﴾ الآية.

فدين الأنبياء دين واحد ومسلكهم جميعًا مسلك واحد ومقصدهم مقصد واحد وغرض واحد وإن اختلفت شرائعهم، صلوات الله عليهم.

وأما الفلاسفة فليست شريعتهم واحدة ولا دينهم واحد فكيف يرضى العاقل عن أسرار كتب الفلاسفة مع اختلافهم ويُعْرِض عن البحث وعن معرفة أسرار كتب الأنبياء عليهم السلام مع اتفاقها؟!

واعلم أيها الأخ، أنه إنما ذهب على أكثر المتفلسفين والباحثين عن حقائق الأشياء معرفة كتب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لتركهم البحث عنها وإعراضهم عن النظر فيها، ولقصور فهمهم عن تصورها؛ لأنها مأخوذة عن الملائكة الذين هم في الملأ الأعلى وأهل السموات وسكان الأفلاك.

(١٤) فصل في خطاب الشاكِّين في أمر النفس المتحيرين في اختلاف أقاويل العلماء فيها

وقد علمنا، أيها الأخ، ما ذكرت مما جرى بينك وبين شيخ من مشايخنا من المذاكرة في أمر النفس وماهية جوهرها وكيفية وجودها وأين مكانها من الجسد؟ وما علة رباطها معه؟ وكيف تكون مفارقتها للجسد؟ والذي أنكره من معرفة جوهرها بقوله: هذا علم لا يمكن أن يُعْلَم، واحتج بقول جالينوس إذ يقول: «إني لا أدري ما جوهر النفس؟» وقوله: «إذ لست أعلم من جالينوس.» والذي نسألك أيها الأخ أن تتفضَّل وتتلقَّاه وتقرأ عليه السلام وتعرف شدة شوقنا إليه ومطالعتنا وتشوقنا إلى معرفة أخباره أطابها الله، ورغبتنا في

مشاهدته ومجاورته وتبلغه عنا ما ألقينا إليك من الجواب فيما سألناك، وهو أن تقول له: هل يتفضَّل سيدنا الشيخ ويعيننا بجودة رأيه وقوة نفسه وصفاء جوهره ويفرِّغ لنا قلبه ساعة ويجمع لنا همته ولا يشغل أفكارنا بالشبهة التي يوردها علينا من أقاويل الفلاسفة واختلاف آرائهم وروايات العلماء وأسانيدهم وتشبيهات الشعراء وترتيباتهم وأحاديث العوام وتشغيباتهم، وينصفنا في القول ويناصحنا في الضمير ويجعل الحاكم بيننا وبينه العقل الذي قد رضينا بحكمه وموجبات قضاياه؟ فإنَّا إذا سألناه أو سأل هو واحدًا منا فقال له: ما أنت؟ وما حقيقتك؟ ومَنْ هذا الذي هو يكلِّمني ويسمع مني ويفهمني ويستفهم مني؟ أفترى ترضى منا الجواب بأن نقول:

إنه هو الجسد الذي ترى المحسوس المؤلَّف من اللحم والدم والعظام والعصب وما شاكلها، المبني كأنه منارة رهبان إذا وقع لا يمكنه أن يقوم، وإن تُرِك فلا يمكنه أن يتحرك، وإذا نام لا يحس بأنه موجود، وإن انتبه فلا يدري أين كان؟ فجائز في العقل أن مَنْ هذا حاله يستحق أن يُسأل عن خفيات الأمور مع المحسوسات والمعقولات وما غاب عن الحواس بالمكان وما مضى كونه مع الزمان، وما يكون في المستقبل من الكائنات، أو يستأهل أن يُسمع منه قوله إذا أخبر عن تركيب الأفلاك ونظامها وأقسام البروج وأوصافها وحركات الكواكب ومجاريها، وعن أركان الأمهات وطبائعها، واختلاف جواهر المعادن وخواصها، وفنون أشكال النبات ومنافعها، وعجائب هياكل الحيوانات واختلاف أخلاقها وأصواتها؟! فيا عجبًا ممن يظن أن هذه الأشياء كلها يعلمها هذا الجسد الجاهل المؤلف! أو يرى أن هذا المخبر عن هذه الأشياء هذا الجسم الطويل العريض العميق الأعمى الأصم الأخرس الذي لا يحس ذاته ولا يشعر بوجود نفسه، فكيف يجوز أن يعلم هذه الأشياء العجيبة النائية عن ذاته الغائبة عن حواسه، وهو لا يعلم ذاته ولا يحس بوجود نفسه؟! هيهات بعد الصواب من ظن أن هذه العلوم يعلمها هذا الجسد المؤلَّف من اللحم المستحيل الفاسد.

واعلم أيها الأخ، أن الإنسان الباحث عن أمر النفس الطالب معرفة جوهرها لو أنه أنصف عقله ورجع إلى حكمه وقبِل قضاياه وفكَّر في نفسه وتأمل بتمييزه، وتصفَّح حالات جسده من القيام والقعود والحركة والسكون والنوم واليقظة والحياة والممات؛ لاستبان له أن مع هذا الجسد جوهرًا آخر هو أشرف منه، وأن هذا الجسد بالنسبة إليه ما هو إلا كدارٍ مبنية فيها ساكن، أو كدُكَّان فيه صانع، أو كسفينة فيها ملاح، أو كدابَّة عليها راكبٍ، أو كقميص ملبوس، أو كلوح في يد صبي في المكتب، أو كمدينة فيها ملك.

وبالجملة ينبغي لمن أراد أن يعرف النفس قبل معرفتها أن يبحث عن أمرها ويطلب علمها بسبعة مباحث: أحدها يبحث هل النفس شيء من الأشياء الموجودات أو هذه تسمية فارغة لا معنى تحتها؟ وقد بيَّنَّا في رسالة البرهان وجودها، والثاني يبحث هل هي عَرَض كما بيَّنَّا في رسالة لنا، والثالث يبحث كم هي أجناس النفوس الموجودات في العالم كما بيَّنَّا في رسالة قول الحكماء: الإنسان عالم كبير، والرابع يبحث كيف يكون رباط النفس مع الجسد كما بيَّنَّا في رسالة تركيب الجسد، والخامس يبحث أين كانت النفس قبل رباطها بالأجساد كما بيَّنَّا في رسالة مسقط النطفة، والسادس يبحث عنها إذا فارقت أجسادها أين تكون كما بيَّنَّا في رسالة البعث والقيامة، والسابع يبحث ما الغرض في كونها مع الأجساد تارةً ومفارقتها تارةً؟ كما بيَّنَّا في رسالة أن الإنسان عالم صغير، فإن رأى الشيخ أن يتأمل وينظر فيها ويتأمل معانيها فعل.

(١٥) فصل في مهنة النفوس وعشقها للأجسام

واعلم أيها الأخ، أن مثل هذه النفس الجزئية مع شرف جوهرها وما هي عليه من غربتها في هذا العالم الجسماني، وما قد ابتليت به من آفات هذا الجسد وفساد هيولاه كمثل رجل حكيم في بلد الغربة قد ابتُلِي بعشق امرأة رعناء فاجرة جاهلة سيئة الأخلاق رديئة الطبع، وهي في دائم الأوقات تطالبه بالمأكولات الطيبة والمشروبات اللذيذة والملبوسات الفاخرة والمسكن المزخرف والشهوات المُرْدِية، وإن ذلك الحكيم من شدة محبته لها وعِظَم بلائه بصحبتها قد صرف كل همته إلى إصلاح أمرها، وأكثر عنايته بتدبير شأنها حتى قد نسي أمر نفسه وإصلاح شأنه وبلدته التي خرج منها وأقربائه الذين نشأ معهم أولًا ونعمته التي كان فيها بديًّا.

واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أن جوهر النفس جوهرة سماوية وعالمها عالم روحاني، وهي حية بذاتها غير محتاجة إلى الأكل والشرب واللباس والمسكن وما شاكل ذلك مما يحتاج إليه الجسد في قوام وجوده ومادة بقائه، وأن كل ما يحتاج إليه الإنسان من أعراض هذه الدنيا إنما هو من أجل هذا الجسد المستحيل الفاسد ولإصلاحه وقوامه وجر المنفعة إليه ودفع المضرة عنه الذي لا يثبت على حال واحدة طرفة عين، وأن النفس ما دامت مع الجسد إلى الوقت المعلوم متعوبة بكثرة همومها لإصلاح أمر هذا الجسد وشغلها بشدة عنايتها به فيما تتكلَّف من الأعمال الشاقة والصنائع المتعبة من اكتساب المال والمتاع والأثاث، وما يحتاج إليه الإنسان في طول الحياة الدنيا، وأن النفس لا راحة لها دون

مفارقتها لهذا الجسد، كما أن ذلك الرجل الحكيم المبتلى بعشق تلك المرأة الفاجرة الرعناء لا راحة له ممن قد ابتُلي بها إلا بمفارقتها والتسلّي عنها وعن حبها وعشقها.

(١٦) فصل في مهنة النفوس وإخراجها من عالم الأرواح لجناية كانت منها

اعلم أيها الأخ، أن النفس الجزئية لما أُهْبِطَت من عالمها الروحاني، وأُسْقِطت من مرتبتها العالية للجناية، وغرقت في بحر الهيولى وغاصت في قعر أمواج الأجسام وقيل لها: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ فغرقت في هياكل الأجسام وتفرقت بعد وصلتها، وتشتت شمل أُلْفتها كما ذكر الله عز وجل اسمه، بقوله: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ عرض لها عند ذلك من الدهشة والأهوال والمصائب مثل ما عرض لقوم من رُكَّاب البحر لما اشتدت بهم الريح واضطرب بهم البحر، وهاجت بهم الأمواج وكُسِر بهم المركب وغرقوا في قعر البحار وغاصوا في ظلمات الماء، وتفرَّقوا في كل فجٍّ عميق من الجزائر والسواحل وبطون الحيتان.

فكما أن أولئك القوم في الوقت الذي انكسر بهم المركب تراهم بين غائص في الماء أو طافٍ أو متعلق بخشبة أو بحبل أو يركب بعضهم كتف بعض يقول كل واحد: نفسي نفسي، من شدة الأهوال لا يفكر لغيره ولا يريد النجاة إلا لنفسه، ولا يهمه سواها ولا يذكر شيئًا مما كان فيه قبلًا، فهكذا حال النفوس في هذه الدنيا وكونها مع هذه الأجساد، وما ابتُلِيَت به من ظلمات هذه الأجساد من هموم المعاش وخوف الجوع وألم العطش وأوجاع الأمراض والأسقام وأذية الحر والبرد وفضيحة العري وأحزان النوائب وجل المخاوف وعوارض التلف والحسرات والأسف.

فمن أجل هذه الشدائد والمصائب صارت النفس لا تذكر شيئًا مما كانت فيه من أمر عالمها ومبدئها ومعادها كما قال الله جل ذكره، بقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾.

واعلم أيها الأخ، أن النفس إذا انتبهت من نوم الغفلة واستيقظت من رقدة الجهالة، وأبصرت ذاتها وعرفت جوهرها وأحسَّت بغربتها في عالم الأجسام ومحنتها وغرقها في بحر الهيولى، وأَسْرها بالشهوات الطبيعية، وعاينت عالمها واستبان لها فضل نعيمها على اللذات الجسمانية، وتنسَّمت بروح عالمها وريحانها؛ اشتاقت إلى هناك ومالت إلى الكون في ذلك العالم، ومقتت الكون مع الأجساد، وزهدت في نعيم الدنيا وتمنَّت الموت الذي هو مفارقة الجسد والخروج من ظلمة الأجسام، فيكون مثلها عند ذلك كمثَلِ قوم خرجوا من الحبس والمطامير مع ضوء الصبح فشاهدوا هذا العالم بما فيه دفعة واحدة.

وأما النفوس غير المستبصرة فمثَلُها كمثَلِ العميان سواء عندهم ضوء النهار وظلمة الليل.

واعلم أن النفس إذا لم تستبصر ذاتها ولم تعرف جوهرها ومبدأها ومعادها، ولم تحس بغربتها وما هي عليه في هذه الدنيا من المحنة والبلوى ما دام يمكنها البحث والاجتهاد في التعلم، ولها تمييز وعقل وحواس صحيحة، ويمكنها الاعتبار والفحص والبيان فلم تجتهد حتى بقيت عمياء إلى الممات؛ فهي بعد الممات أعمى وأضل سبيلًا، كما ذكر الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أعاذنا الله وإياك أيها الأخ وجميع إخواننا من هذه الصفة إنه ودود رءوف رحيم.

(١٧) فصل في أنَّا قد عملنا إحدى وخمسين رسالة في فنون الآداب …

واعلم يا أخي أنَّا قد عملنا إحدى وخمسين رسالة في فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحكم، كل واحدة منها شبه المدخل والمقدمات والأنموذج؛ لكيما إذا نظر فيها إخواننا وسمع قراءتها أهل شيعتنا، وفهموا بعض معانيها، وعرفوا حقيقة ما هم مقرُّون به من تفضيل أهل بيت النبي ﷺ؛ لأنهم خُزَّان علم الله وورثو علم النبوات، وتبيَّن لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم والمعرفة والفهم والتمييز والبصيرة في الآفاق بما في أنفسهم من الآيات لقوم يوقنون، ويعلمون أنه الحق من ربهم، ولكيما لا يحتاجون إلى تفسير المخالفين لكتب الأنبياء عليهم السلام وينبغي لإخواننا إذا حضروا المجلس ومعهم أخ مستجيب مستحدث أن يقرأ عليهم هذه الخطبة.

اعلموا أيها الإخوان أيَّدكم الله وإيانا بروح منه، وهداكم للحق وجعلكم من أتباعه، وسهَّل لكم سبيل الخير وأرشدكم إلى معرفة أهله، وعصمكم من الشر وجنَّبكم صحبة أهله، وحرسكم من غرور الشيطان ووقاكم جور السلطان ونكبات الزمان ونوائب الحدثان، ووفَّقكم لقبول نصيحة الإخوان إنه ودود منَّان.

واعلموا أن كل دولة لها وقت منه تبتدئ ولها غاية إليها ترتقي، وحدٌّ إليه تنتهي، وإذا بلغت إلى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها أخذت في الانحطاط والنقصان، وبدا في أهلها الشؤم والخذلان، واستأنف في الأخرى القوة والنشاط والظهور والانبساط، وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد ويضعف ذلك وينقص، إلى أن يضمحلَّ الأول المتقدم ويتمكن الحادث المتأخر، والمثال في ذلك مجاري أحكام الزمان؛ وذلك أن الزمان كله، نصفه نهار مضيء ونصفه ليل مظلم، وأيضًا نصفه صيف حار ونصفه شتاء بارد، وهما يتداولان في

مجيئهما وذهابهما كلما ذهب هذا رجع هذا، وتارةً يزيد هذا وينقص هذا، وكلما نقص ذلك من أحدهما زاد في الآخر حتى إذا تناهيا إلى غايتهما ابتدأ النقص في الذي تناهى في الزيادة، وابتدأ الزيادة في الذي تناهى في النقصان، فلا يزالان هكذا وهذا دأبهما إلى أن يتساويا في مقداريهما، ثم يتجاوزان على حالتيهما إلى أن يتناهيا إلى غايتيهما من الزيادة والنقصان، وكلما تناهى أحدهما في الزيادة ظهرت قوته وكثرت أفعاله في العالم وخفيت قوة ضده وقلَّت أفعاله.

فهكذا حكم أهل الزمان في دولة الخير ودولة الشر، فتارةً تكون القوة والدولة وظهور الأفعال في العالم لأهل الخير، وتارةً تكون القوة والدولة وظهور الأفعال لأهل الشر، كما ذكر الله جل ثناؤه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ الآية.

وقد ترون أيها الإخوان أيَّدكم الله وإيانا بروح منه، أنه قد تناهت قوة أهل الشر، وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط والنقصان.

واعلم أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان ودور وقران من أمة إلى أمة، ومن أهل بيت إلى أهل بيت، ومن أهل بلد إلى بلد.

واعلموا أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام خيار فضلاء يجتمعون في بلد ويتفقون على رأي واحد ودين واحد ومذهب واحد، ويعقدون بينهم عهدًا وميثاقًا بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضًا، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم وفيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة، لا يعتقدون سوى رحمة الله ورضوانه عوضًا.

فأبشِروا، أيها الإخوان، بما أخبرناكم، وثقوا بالله في نصرته لكم إذا بذلتم مجهودكم كما وعد الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

(١٨) فصل في مخاطبة العمال والكُتَّاب

اعلم أيها الأخ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن لنا إخوانًا وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد: فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والكُتَّاب، ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والدهاقين والتُّنَّاء والتجار، ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين، ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس.

وقد ندبنا لكل طائفة منهم أخًا من إخواننا ممن ارتضينا في بصيرته ومعارفه لينوب عنا في خدمتهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة والشفقة عليهم؛ وليكون عونًا لإخوانه بالدعاء لهم إلى الله وإلى ما جاءت به أنبياؤه عليهم السلام، وإلى ما أشارت إليه أولياؤه من التنزيل والتأويل لإصلاح أمر الدين والدنيا أجمعين.

وقد اخترناك أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، لمعاونتهم، وارتضيناك لمشاركتهم لما آتاك الله من فضله من العقل والفهم والتمييز وحرية النفس وصفاء جوهرها؛ لتكون مساعدًا لإخوانك ومعاضدًا لهم؛ لأن جوهرك من جوهرهم ونفسك من نفوسهم وصلاحهم صلاحك.

فامضِ على بركات الله وحسن توفيقه إلى أخٍ من إخواننا، وتوصل إليه بالرفق على خلوة وفراغ من مجلسه وطيبة من نفسه فاقرأ عليه منا التحية والسلام، وبشِّره بما يسره من نصيحة الإخوان، وعرِّفه شدة شوقنا إلى إخائه ومودته وولايته، والله يوفقه وإيانا للسداد ويهديه وإيانا للرشاد ولجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد إنه كريم جواد.

ثم اقرأ عليه هذه الخطبة وعرِّفه معانيها وفهِّمه مغزاها ومقصدها، ثم عرِّفنا ما يكون منه من الجواب، والله يوفقكما وجميع إخواننا للصواب، وقل له: أَخْبِرْنا أيها الأخ عن صاحبك هذا الذي أنت متعلق بخدمته ومجتهد في طاعته ومعتصم بعز سلطانه، هل تعلم أنه كان في هذا الأمر الذي هو فيه الآن غيره قبله فزال عنه عزه وسلطانه، وتفرقت عنه جموعه وأعوانه؟ وهل تعلم أن هذا الأمر الذي هو فيه باقٍ عليه؟ أو لا بد أن يزول عنه يومًا ويصير إلى غيره كما صار إليه بعد الذي كان قبله؟ أو هل تعلم أن مَنْ يجيء بعده ويصير مكانه كيف يكون حالك معه؟

وقد علمت أن هذه الدنيا وأمورها دول ونوب تدور بين أهلها واحدًا بعد آخر.

(١٩) فصل في مخاطبة الملوك والسلاطين

قد اخترناك أيها الأخ لأمر فيه قربة إلى الله تعالى ونصرة للدين ونصيحة للإخوان، فكن واثقًا بما اخترناك مغتبطًا به، وسر على بركة الله وحسن توفيقه متوكلًا عليه في نصرته وتأييده إلى أخ من إخواننا الفضلاء الكرام من كرام الناس، وتلطَّف في الوصول إليه في رفق ومداراة حتى تلقاه على خلوة من مجلسه وفراغ من قلبه، وطيبة من نفسه، وتقرأ عليه التحية والسلام من إخوان له فضلاء وأصدقاء له نصحاء، من أولاد العلماء وحملة الدين والفقهاء، وأولاد التجار وأرباب الأموال المستبصرين بالعلوم الفلسفية والأحكام

الشرعية والآداب الرياضية، مثل الهندسة والنجوم والطب والفراسة والتدبير والسياسة، وتبشِّره بما ألقيناه إليك من الأسرار في شأنه وما يتحقق من المأمول في أمره من نصرة الدين وفتح البلاد، وما يكون على يده من صلاح العباد مما خبَّرت به دلائل القرآن، ولوَّحت به شواهد الامتحان، وتعرض عليه هذه التذكرة ليتأملها ويتفكر فيها، وتعرفه أن إخوانه الذين وجَّهوك إليه من ذلك البلد لما هم عليه من العقل وكرم الأخلاق وحسن الآداب والأُلْفة والاتفاق، وما يعتقدون في أمر الدين من جميل الرأي، وما يتعاملون في أمر الدنيا من حسن المعاملة، لهم مجلس يجتمعون فيه في الخلوات، ويتذاكرون العلوم ويتحاورون في الأسرار، ويبحثون عن خفيات الأمور، فتذكَّروا يومًا فيما بينهم من حوادث الأيام وتغييرات الزمان والخطوب والحدثان، وما تدل عليه دلائل القرآن من تغييرات شرائع الدين والملل، وتنقُّل الملك والدول من أمة إلى أمة ومن بلد إلى بلد ومن أهل بيت إلى أهل بيت، فاجتمع رأيهم واتفقت كلمتهم على أنه لا بد من كائن في العالم قريب وحادث عجيب فيه صلاح الدين والدنيا، وهو تجديد ملك في المملكة، وانتقال الدولة من أمة إلى أمة، وإن لذلك دلائل بينة وعلامات واضحة، وقالوا: قد عرفناها بفراغ عقولنا وتجارب الأمور واعتبار تصاريف الزمان فيما مضى من الحدثان وما يُعْرَف منها بالزجر والفأل والكهانة والفراسة، وبدلائل المتحركات من النجوم والمنامات مما تدل عليه الكائنات قبل أن تكون، وقد اعتبرنا بهذه الوجوه التي ذكرناها، وأشرنا إليها حتى عرفنا صاحب الأمر بصفاته، والسنة والشهر الذي يكون فيه الحادث في شأنه، وما نرجو من ذلك من صلاح الدين والدنيا والله بالغ أمره ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وإنما أردنا بهذه التذكرة أن تكون لنا بها قربة إلى الله تعالى ونصرة للدين وحرمة للإخوان ونصيحة لصاحب الأمر وقدم صدق في الأولين، ولسان صدق في الآخرين.

فإن وقعت هذه التذكرة منه مكانها من القبول، وسمَت نفسه إلى ما أشرنا إليه فذلك هو الذي نريده، وإن توقف وقال: ما علامة ما يقولون؟ وما تصديق ما يزعمون من الرأي والحديث؟ فنقول: عندنا دلائل واضحة وبراهين بيِّنة وعلامات وشواهد يعلمها مَنْ كان ينظر في العلوم كنظرنا، ويعتبر الأمور كاعتبارنا، وكان في المعارف بصيرًا مثلنا.

فإن أراد أخونا الفاضل الكريم فليبعث إلينا ثقة من ثقاته وأمينًا من أمنائه ومن أبناء جنسنا ومَنْ يشاكلنا في العلوم والمعارف، ومَنْ يحاجنا على ما نقول ويناظرنا على ما نشير إليه؛ ليتضح له حقيقة ما قلنا، ويتبين له التصديق بما أمرنا والله الموفق للصواب.

(٢٠) فصل في مخاطبة أهل العلم الغافلين عن أمر النفس والمعرضين عن معرفة جوهرها

أخبِرْنا، أيها الأخ، هل أنت عالم ومتيقن بأن مع هذا الجسد الطويل العريض العميق أعني الجسد المركَّب من اللحم والعظم والعصب والعروق، المؤلَّف من الأخلاط الأربعة التي هي الدم والبلغم والمَرْتان[١١] التي كلها أجسام أرضية مظلمة غليظة منتنة متغيرة فاسدة جوهرًا آخر هو أشرف منه وهو النفس التي هي جوهرة روحانية بسيطة حية سماوية شفافة، وهي المحرِّكة لهذا الجسم المديرة له المظهرة به، ومنه أفعالها وأقوالها وعلومها، أو تقول: إنه ليس ها هنا شيء آخر غير هذا الجسد المرئي المحسوس المتغير الفاسد المستحيل الهالك الذي إن أصابه حر ذاب، أو إن أصابه برد جمد، وإن نام بطلت حواسه، وإن انتبه لا يشعر بوجوده، وإن نُقِل لا يدري أين كان، وإن تُرِك لا يتحرك، وإن حُرِّك لا يحس بذاته، جاهل لا يعلم شيئًا وإن لم يُسْقَ جفَّ عطشًا، وإن لم يُطْعَم ذبل، وإن طعم امتلأ من الدم والصديد والبول والغائط كأنه ربع مجصص ظاهره، مملوء من القاذورات باطنه، إن مات نتن، وإن لم يُدْفَن افتضح، وإن عاش فهو في العذاب والشقاء.

أترى أن الفاعل لهذه الأفعال المحكمة والصنائع المتفننة التي تظهر على أيدي البشر هو هذا الجسد وحده، والناطق بهذه اللغات المتباينة والمتكلم بهذه الأقاويل المختلفة والمخبر عن الأمور المنقضية مع الأزمان الماضية، والعالم بالأشياء الموجودة في الأماكن الغائبة، والمنبئ عن الحوادث الكائنة في الأزمان المستقبلة، والمستنبط غرائب العلوم من خواص جواهر العدد وأشكال الهندسة وتأليف اللحون وتشريح الأجساد وتركيب الأفلاك وحساب حركات الكواكب وصفات البروج وطبائع الأركان، واختلاف جواهر المعادن ومنافع النبات واختلاف الحيوان، هل هو هذا الجسد وحده؟ أو تنسب هذه العلوم والأقاويل والفضائل إلى مزاج الجسد، كما زعم مَنْ لا خبرة له بحقائق الموجودات، وكيف تظهر هذه من مزاج الجسد والمزاج عَرَضٌ من الأعراض وهو أحد هذه الأشياء التي ذكرناها؟ فقد بعُدَ من الصواب مَنْ قال هذا القول، وعمي عن معرفة حقائق الأشياء مَن اعتقد هذا الرأي، وأول غفلة دخلت عليه جهالته بجوهر نفسه وتركه طلب معرفة ذاته،

[١١] المَرْت من الأرض: القفر، ومن الإنسان ما لا شعر له، والمَرْتان والمروت جمعه، والأول المراد؛ لأن الطين الصِّرْف هو رابع الأخلاط.

وأعظم بليَّة مع هذا أنه يدَّعي الرياسة في العلوم ومعرفة حقائق الأشياء وصواب أقاويل أهل الأديان ومعرفة صفات الباري، جل ثناؤه، الذي هو أشرف المعارف وأدق العلوم وألطف الأسرار، وهو يجهل مع هذا كله ذاته، ولا يعرف حقيقة نفسه فكيف يوثَق برأيه؟ وكيف يُصدَّق قوله فيما يدَّعيه من العلوم ويخبر عن الأمور الغائبة عن حواسه وعقله؟

وإن كنت مقرًّا، أيها الأخ البارُّ الرحيم، بأن مع هذا الجسد جوهرًا آخر هو أشرف منه، وأن هذه الأفعال والأقاويل والعلوم والفضائل إليه تُنْسَب ومنه تبدو وهو المُظْهِر من هذا الجسد هذه الأشياء فقد قلت صوابًا وأقررت بالحق وأنصفت في الجواب، فخبِّرنا عن هذا الجوهر الشريف.

هل يمكن أن يعرف ما هو وكيف كونه مع هذا الجسد باختيار منه أو مضطر أن يكون معه؟ أو هل تعرف أين كان قبل أن يقرن بهذا الجسد؟ وأين يذهب إذا فارقه؟ أو تقول: إني لا أدري، وهل ترضى من نفسك الجهل بهذا المقدار من العلم أن تقول: إن هذا العلم ليس في طاقة الإنسان أن يعلمه، وكيف يسوغ لك هذا القول والعلماء مُقِرُّون أجمع — وأنت معهم — بأن معرفة الله واجبة على كل عاقل؟ وكيف يستوي للعبد إذن معرفة ربه وهو لا يعرف نفسه؟!

وقد رُوِي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه، أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه.» وكيف يستوي لك أن تقول: إنك تعرف ربك ولا تعرف نفسك وقال الله عز وجل: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾، وقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، وقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وقال: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، وقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾، وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾، وقال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي﴾ الآية.

وأنت تعلم أيها الأخ، أن نفس الإنسان أقرب إليه من كل قريب، فكيف يستوي لك أن تقول: لا يمكن أن يعلم الإنسان نفسه ويعلم غيرها من الأشياء البعيدة الغائبة عن حواسه وعقله؟!

واعلم أيها الأخ، أنه إنما ذهب على أكثر الناس معرفة أنفسهم لتركهم النظر في علم النفس والبحث عنها، والسؤال للعلماء العارفين بعلمها وقلة اهتمامهم بأمر أنفسهم، وطلب خلاصها من بحر الهيولى وهاوية الأجساد والنجاة من أَسْر الطبيعة والخروج من ظلمة الأجساد، ولشدة ميلهم إلى الخلود في الدنيا واستغراقهم في الشهوات الجسمانية والغرور باللذات الجرمانية والأُنْس بالمحسوسات الطبيعية، ولغفلتهم عما وُصِف في الكتب

النبوية من نعيم الجنان وفي عالم الأفلاك من الروح والريحان، وقلة رغبتهم فيها لقلة تصديقهم بما خبَّرت به الأنبياء، صلوات الله عليهم، وما أشارت إليه الفلاسفة الحكماء بما يقصر الوصف عنه من لطيف المعاني ودقائق الأسرار، فانصرفت همم نفوسهم كلها إلى أمر هذا الجسد المستحيل، وجعلوا سعيهم كله لصلاح معيشة الدنيا من جمع الأموال والمآكل والمشارب والملابس والمراكب والمناكح، فصيَّروا نفوسهم عبيدًا لأجسادهم وأجسادهم مالكة لنفوسهم، وسلَّطوا الناسوت على اللاهوت والظُّلْمة على النور والشياطين على الملائكة، وصاروا من حزب إبليس وأعداء الرحمن.

فهل لك أيها الأخ أن تنظر لنفسك وتسعى في صلاحها وتطلب نجاتها وتفكَّ أَسْرها وتخلِّصها من الغرق في الهيولى وأَسْر الطبيعة وظلمة الأجساد وتخفف عنها أوزارها، وهي الأسباب المانعة لها من الترقِّي إلى السماء والدخول في زمرة الملائكة والسَّيَحان في فسحة عالم الأفلاك الروحانية، والارتفاع في درجات الجنان والتنفس من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن بأن ترغب في صحبة أصدقاء لك نُصَحاء وإخوانٍ لك فُضَلاء، وادِّين لك كرماء، حريصين على طلب خلاصك ونجاتك مع أنفسهم، قد خلعوا أنفسهم من طاعة أبناء الدنيا، وجعلوا كدَّهم طلب نعيم دار الأخرى بأن تسلك مسلكهم ومقصدهم، وتتخلص بسيرك معهم وتتخلَّق بأخلاقهم بأن تسمع أقاويلهم وتعرف اعتقادهم وتنظر في علومهم وتفهم أسرارهم وما يخبرونك به من العلوم النفسية والمعارف الزكية الحقيقية والمعقولات الروحانية والمحسوسات النفسانية؟

إذا دخلت مدينتنا الروحانية وسِرْت بسيرتنا الملكية وعملت بسنَّتنا الزكية، وتفقَّهت في شريعتنا العقلية لتنظر إلى الملأ الأعلى وتعيش عيش السعداء فرحانًا مسرورًا ملتذًّا مخلَّدًا أبدًا بنفسك الباقية الشريفة النيِّرة الخفيَّة الشفافة، لا بجثَّتك الدَّنِيَّة المظلمة الثقيلة المتغيرة المستحيلة الفاسدة الهالكة، وفقك الله وجميع إخواننا للرشاد، وأوصلك وإيانا إلى دار السلام برحمته ومَنِّه إنه على ما يشاء قدير.

(٢١) فصل في مخاطبة المتشيعين

قد جمع الله بيننا وبينك، أيها الأخ البارُّ الرحيم، في أسباب شتَّى وخصال عدَّة مما يؤكد المودَّة بين الإخوان، ويجمع شمل الأصدقاء في جميع صلاح الدين والدنيا، أيَّدك الله، أولًا مَنْ تأمَّلها وعرف حق عظيم ما أنعم الله تعالى لديك وفضل منَّته عليك لما خصَّك الله به من العقل والفهم والتمييز، فمن إحدى تلك الخصال والأسباب التي تؤكد المودَّة بين الأصدقاء

ملَّة الإسلام التي هي آكَد الأسباب؛ لأنه خير دين دان به المتألهون، وأفضل طريق يسلكه إلى الله القاصدون، وهو القدوة بدين نبينا محمد ﷺ وبعلم كتابه الذي جاء به مهيمنًا على كتب الأولين وسنة الشريعة التي هي أعدل سنَّة سنَّها المرسَلون.

ومما يجمعنا وإياك، أيها الأخ البارُّ الرحيم، محبة نبينا عليه السلام، وأهل بيت نبيِّه الطاهرين وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيِّين صلوات الله عليهم أجمعين، ومما يجمعنا وإياك حرمة الأدب والخروج من جملة العوام، وهو العماد لما نحن بسبيله ونشير إليه.

ومما يجمعنا وإياك من الأخلاق الجميلة والأفعال الحميدة وحرية النفس وصفاء جوهرها وهي التي تدعونا إلى مكاتبتك ومراسلتك وما نرجو منه النفع لك فيما يُسْتَقْبَل من الأمر، والله يؤيدك وإيانا وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد. وقد أنفذْنا إليك أخًا من إخواننا ممن قد ارتضيناه في بصيرته، وحمدنا طريقته في دينه وأخلاقه، وأنت، أيَّدك الله، تعرف حقَّه وما يجب من حرمته وتوصله إليك على خلوة من مجلسك وفراغ من قلبك، وتصغي إليه فيما يقول، وتسمع منه ما ألقينا إليك من أسرارنا وما نشير إليه من علمنا؛ ليتبيَّن لك مذهبنا وتفهم اعتقادنا في أمر الدين والدنيا جميعًا، فإذا سمعت أقاويلنا وفهمت معانيها ووقفت على حقائقنا وتأملتها بعقلك وميَّزتها برؤيتك أجبتنا عن رأيك فيما أشرنا إليه، وما نسألك عنه في اعتقادك بصدق القول لا محتشمًا ولا مهيبًا ولا مجانبًا مما يقتضيه الحكم ويوجبه الحق، والله يوفقك للصواب ويؤيدك بروحٍ منه، وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد.

(٢٢) فصل في أنه إنما ذهب على أكثر الناس المتفلسفين والباحثين …

اعلم أيها الأخ، أيَّدك الله، أنه إنما ذهب على أكثر الناس المتفلسفين والباحثين عن حقائق الأشياء أسرارُ كُتُب الأنبياء عليهم السلام؛ لتركْهم البحث عنها وإعراضهم عن النظر فيها؛ لقصور أفهامهم عن تصوُّرها؛ لأنها مأخوذةٌ معانيها من الملائكة الذين هم الملأ الأعلى أهل السموات وسكان الأفلاك، وأعيذك أيها الأخ الفاضل أن تكون من الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون، الذين ذمَّهم الله عز وجل في كتابه فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ وقال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. أفترى أنهم لم يكونوا يسمعون الأصوات، أو لم يكونوا يبصرون الألوان، أو لم يكونوا يعقلون أمر المعاش؟! بل إنما ذمَّهم؛ لأنهم لم يكونوا يفهمون هذه المعاني المذكورة في

الكتب النبوية التي إليها نشير في رسائلنا، وإليها ندعو إخواننا، أعزَّهم الله، حيث كانوا في البلاد، وهو دين النبيين ومذهب الربانيين والأحبار الذين استُحْفِظوا في كتاب الله من الأسرار المكنونة التي لا يمسها إلا المطهرون، وهم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيرًا، وفقك الله أيها الأخ للصواب واعتقاد الحق والعمل الصالح والمعارف الربانية وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد، إنه كريم جواد لطيف بالعباد.

(تمت رسالة الدعوة إلى الله تعالى، ويليها رسالة في كيفية أحوال الروحانيين.)

الرسالة الثامنة

من العلوم الناموسية والشرعية في كيفية أحوال الروحانيين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن أفعال الروحانيين لا يتهيأ لأحد من العالم الجسماني الوقوف عليها والمعرفة بها إلا بعد معرفته بجوهر نفسه وكيفية فعلها في جسمه، وإذا عرف كيفية ذلك ووقف عليه تهيَّأ له بعد ذلك الوقوف على أحوال الروحانيين في العالم جميعًا: العلوي بما فيه والسفلي وما يحويه، وقاده ذلك إلى معرفة خالقه وتنزيه مبدعه، وفعله الذي فعله بذاته وما أبدعه من موجوداته، وبمعرفة ذلك يكون كمال الإنسان، وبذلك يتهيأ له التصور بالصورة الروحانية الملكية فتكون أفعاله أفعال الملائكة وما يظهر عنهم ويبدو منهم من الأفعال والأعمال في العالم الجسماني والخلق الإنساني، ويعرف أيضًا أفعال الجن والشياطين ومَنْ يتولى عقابهم إذا استرقُوا السمع من الملائكة المسبِّحين، وما يتبعهم من الصواعق المحرقة والشهب الثاقبة دحورًا تأخذهم من كل جانب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وما في العالم من الكرام الكاتبين والحفظة الحاسبين الموكَّلين بإنشاء ما يكون من الأجساد وعمارة عالم الكون والفساد.

(١) فصل في أن دائرة العقل مرتبة من أمر الله تعالى

اعلم أيها الأخ، أيَّدك الله، أن دائرة العقل مرتبة من أمر الله تعالى لا يدركها خاطر نفساني، وأن الأنوار المضيئة مرتَّبة في أفق العقل الكلي بحيث لا يدركها حس ولا يتناولها لمس.

فالدائرة الأولى هي البعيدة عنها أوهام المخلوقين من العالمين: الروحاني والجسماني، اللطيف والكثيف، وهي موصوفة بالفعل الخاص بها الصادر عنها، وهو العقل الذي عقَل ما دونه من مجاوريه فرجعت الأوهام قبل بلوغها غايته ذاهلةً عن بلوغ بعض ما في دائرته وسعة إحاطته، وهو من الإقرار بإلهية خالقه وتنزيهه مبدعه وخشوعه له، موصوف بذلك كصفة ما يبدو من أحد ما بدا عنه، وتكون منه بمنزلة النفس المشتاقة إليه الخاضعة بين يديه المرتَّبة في أفقه المطمئنة به المتَّكلة عليه الراجعة إليه.

واعلم أن دائرة العقل مشرقة بهيَّة؛ فهو يتراءى فيها بشدة صفائها وإشراقها ما يتلألأ من الأنوار الإلهية البادية بالأمر الممجَّد عن الوحدة المحضة التي لا تتكثَّر ولا تزداد، بل هي منفردة بالوجود والإيجاد، وإنما يتكثَّر مَنْ ينضاف إليه ما يشاكله ويجانسه ويزداد مَنْ يحتاج إلى الزيادة، وإذا احتاج إلى الزيادة لزمه النقصان والوحدة المتنزهة عن الصفات البادية بالألفاظ المنطقية والتخيلات النفسانية والتمثيلات الهيولانية لا تتكثر كتكثُّر واحد الأعداد التي هي الوحدة المتكثرة بما يكون ويبدو عنها إذا كانت هي أصل الكثرة ومبدأ وجود الخِلْقة، وهي الدائرة الأولى الحاوية لجميع ما كان منها؛ ولذلك قيل له السابق.

وكذلك دائرة النفس كالثاني التالي للسابق لما بعده، وهي تالية الأول، ثم الثالثة وهي كالهيولى، والرابعة وهي كالطبيعة، وكذلك الدوائر الكائنة عن هذه الأصول حتى تكون آخرها دائرة الأرض، ولكل واحد من هذه الحدود الروحانية فعل يختص به فاعله لا يتعداه بما جعله الباري سبحانه فيها وأودعه إياها، ونريد أن نُبيِّن من ذلك طرفًا يكون دليلًا على ما قلناه وبرهانًا على ما وصفناه.

واعلم أيها الأخ البارُّ أن الباري سبحانه أوجد الزوجين الأولين الذين هما أبوا الموجودات كلها بأسرها، وهما الدائرتان المحيطتان بما في عالم العلو والسُّفْل: إحداهما حائطة والأخرى محوطة.

فالدائرة الأولى موصوفة بالفعل الصادر عنها وهو التمام والكمال والفضل والفيض والرحمة والرأفة، وما ينحط من دائرتها على ما دونها من الخيرات والبركات مما يستمده ويتلقَّاه ويفاض عليه ويُلْقى إليه، وهي الفيضان الفاعلة فيه بما ينطبع في جوهريته المحضة المعرَّاة من الشوائب المتغيرة؛ فلذلك صار لا يتبدَّل ما عنده ولا يتغير لدوام ملاحظته لتلك الأمور الإلهية التي لا تبديل لها ولا تغيير كما قال الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾؛ فهي باقية على حال الانفراد بالبقاء والكون تحت القدرة العظمى وبإشراقها على دائرته، أضاءت ذاته فصارت مشرقة بأنوار الجبروت الممجدة بالصفة المتخصص بها المباين بما في ذاته منها عما يوجد فيما دونه، وبها يصل إلى تمجيد مبدعه وتنزيه خالقه بالتبرِّي عما يشاهده في ذاته ويلاحظه في موجوداته، وأن يكون ذلك بحوله وقوته وإن كان هو المحيط بها والخاص لها إحاطة الإحصاء والعد؛ لأن الفعل منه إنما هو بحسب ما يفعل فيه ويجود به عليه من الجود الذي به صار في حد الوجود، وبجوده صار مبدأ وجود كل موجود؛ ولذلك سُمِّي عقلًا لأنه عقل صور الموجودات بأَسْرها وجاد عليها بخصائصها وترتيبه لها في مواضعها وتكوينه إياها في أماكنها؛ فهو بالإشراق المشرق عليها وبما فاض عليها يتدلَّى إليها، وبتحنُّنه عليها ورأفته بها يكون القرب من علة الممنون عليه، وهو لا ينفد ما عنده إذ كانت المادة متصلة غير منفصلة، ولو كانت فيضًا لتأدَّى منه إلى مَنْ دونه من ذاته غير مكتسب لها ولا محتاج إليها، بل هو واجد لها من ذاته على الدوام، ولو كانت هذه لكمال ما في ذاته لكان لا فرق بينه وبين علَّته الموجِد لها، ولكان غير محتاج إليها بل غنيًّا عنها بما في ذاته، ولم يتغيب عنه كلية المعرفة بها، تعالى الله عن إحاطة مخلوقاته بكُنْه فيضه، وإنما هو، جل ذكره، مفيض ما يشاء من قدرته وأمره على إبداعه الذي ارتضاه لخالص عبوديته والإقرار بلاهوتيته وبدوام استمداده ودوام تسبيحه وتقديسه وتمجيده؛ فهو بذلك يدرك بُغْيته وينال لذاته التي هي غاية أُنْسه وروح قدسه وروحه وريحانه؛ فهو بحسب كرامة الله له مرتبة في أفق المحيط به وهو الأمر، وهو لا يبلغ الإدراك بكلية الأمر، وإنما يدرك من ذلك ما جعل فيه من صور الموجودات التي هو محيط بها ومُخرِج لها من القوة إلى الفعل.

ولما كان العقل كذلك كانت النفس غير حائطة بكلِّيَّة ما في العقل بلا واسطة له بكمال صفاته الموجودة إلا ما أمدَّها به وأفاضها عليه الشيء بعد الشيء، ولو كانت قابلة لجميع ما فيه دفعة واحدة لكانت لا فرق بينها وبينه ولا فضل له عليها؛ لاتساعها

لما وسعه وإحاطتها بما بلغه، وإنما هي حائطة بما دونها كإحاطة العقل بها فدائرة النفس محيطة بما هو موجود فيها عند بدء كونها من علَّتها، وهي ذاتها ما بدا عنها من موجوداتها وفيها قبول ما يُلقى إليها ويُفاض عليها، وفعلها الخاص بها ما انبعث منها وصدر عنها من القوة الطبيعية بما جعلت فيها من الصور المنطبعة بالنفس في الهيولى وغير محيطة بكلية ما في العقل من الصور المعرَّاة والجواهر المبرَّأة من الهيولى إلا بما يلقيه إليها ويمدها به.

ولما كان ذلك كذلك صارت الطبيعة في كل لحظة وفي كل وقت من الأوقات ومع كل حركة من الحركات الزمانية الطبيعية تُظهر شكلًا ونوعًا ولونًا، فغرائبها لا تُحْصَى وعجائبها لا تفنى، وهي تُبديها الشيء بعد الشيء بحسب ما يُلْقى إليها ويفاض عليها من النفس الكلية وبما يسري فيها من القوى الفلكية، وبما ينزل مع الملائكة الموكَّلين بالنشأة الأرضية والخلقة الجسمانية، فهم المُودعو تلك الصور في جواهر الأمهات، المُظهِرون لها بطبائع الأسطقسات، ومتمِّمون ما يبدو منها من الحيوان والنبات، فهم بها موكَّلون ولأعمالهم متمِّمون ولكلٍّ منهم جزء مقسوم ونصيب معلوم كما قال الله تعالى حكاية عن ملائكته الكرام وجنوده العظام: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.

وكذلك قيل في الخبر: «إن مع كل قطرة من قطرات الأمطار، ومع كل نقطة من مياه البحار، ومع كل ورقة من أوراق الأشجار، ومع كل ساعة من ساعات الليل والنهار، ومع كل إنسان وحيوان، ومع كل جان وشيطان ملائكة يسبِّحون الليل والنهار لا يفتُرون، ويفعلون ما يؤمرون، وكلٌّ منهم في مقامٍ معلوم، ولهم أفعال تختص بكل واحد منهم مما هو موكَّل به.»

فلذلك صارت الطبيعة تُظهر على ممر الزمان وتغاير الأيام، ومع كل لحظة من لحظات العيان وفي كل مكان لونًا جديدًا، وصارت أعمالها لا تفنى ولا تبيد، وإن ما منها بادَ بالفساد يكون مكانه مثله بالسواد مُعادًا؛ فهي قوة صادرة باعثة لما تقدَّم منها في الوجود كقوة حركة الدولاب التي تبدو أولًا عن حركة أولى وهي الحركة البهيمية المستعملة في آلة الدولاب، وإيصالها من آلة إلى آلة أخرى حتى تكون مرة حاطَّة لأواني الدولاب إلى قعر البئر، فتُمْلأ ثم ترفعها إلى علو فيعود منها ما كان ممتلئًا فارغًا ثم ممتلئًا، فلا تزال كذلك ما دامت الحركة متصلة.

فإذا بلغ المحرك المستخدم لتلك الدابة المحرِّكة لتلك الآلة ما أراد من الإملاء والتفريغ أمسك الحركة فوقف الدولاب عن الرفع والحط، كذلك فعل الطبيعة إنما هي حركة متصلة بها عن آلة فلكية محركة دورية مربوطة بها النفس الكلية بقوة عقلية تبدو عن مشيئة إلهية وعناية ربانية بأمر مَنْ هو لا يعلمه إلا هو، إرادة اختيارية قاصدة إلى أمر غير مدرَك إدراك الحس فيكون داخلًا في جملة المحسوسات، وإنما يُدْرَك من العلم أنه به مُعَرًّى عن الصفات والنهايات التي تنتهي إليها المخلوقات وتقف عندها الموجودات من أفعال الجزئيات، لكنه أمر يقال عليه قول يطَّرد لا إلى تعطيل ولا تبطيل؛ إذ كان يقول: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وبالأمر كانت المكونات، والإرادة سابقة للكون، والإبداع الأول موضع الكون، وبه كانت الأشياء أشياء خارجة من العدم إلى الوجود، وبكونها في المكان تحيَّزت وتميَّزت موجودة بذواتها عن موجِدها المُلقي لها إلى ما دونه، كإلقاء الذكر ما يكون فيه بالقوة من النطفة إلى الأنثى؛ لتظهر بالفعل صورة موجودة بوجوده محتاجة إلى التمام والكمال، يتهيأ لقبول ذلك فيتحد به من قوة النفس وما يتصل بواسطة الشمس، فيشرق عليه من أثر العقل ما تكون به حياة نفسه وكمال جسمه عند استكمال الآلة وكونه على أفضل حالاته.

فلذلك قلنا: إن الدائرة الإلهية والصور العقلية العلوية هي كتاب تلوح سطوره المكتوبة بقلم الإرادة ولوح المشيئة المحفوظة فيه، بحيث تكون حافظة لها، وبها يكون انبعاث قواها فيما دونه حتى تصير أشياء منها روحانية بسيطة نورانية بادية عنها بكونها في دائرة النفس الكلية، فيستقر كلٌّ منها في مقام لا يعدوه كالحروف المرتَّبة في سطورها المنظومة، وخطوطها المرسومة مرتَّبة في أقسامها مستوية في نظامها لا يعدو بعضها بعضًا.

فالعقل مُنزِلُ كلِّ تلك الأمور على النفس، والمُمِدُّ لها بها وهي المستفتِحة لها منه، وهو المانُّ بها عليها، وهو متلقٍّ لها من فيض باريه.

فلذلك قيل: إن تشبُّه العقل من باريه أقرب من تشبُّه النفس؛ لأنه يتلقى جود باريه من أمره المتصل، والنفس متلقية منه ما يمدُّها ونِسبتها منه أقرب من نسبته ما دونها.

ثم كذلك الأفعال المادية عن كل قوة من القوى المتصلة بكل واحد من الموجودات وما يتعلق به ويُنْسَب إليه من أفعاله.

فأولها الأصول التي هي أمهات الفروع؛ فهي الجواهر الثانية عن الجواهر الأولى المحضة المبرَّأة عن التراكيب المؤلَّفة، والجواهر الأولى المخصوصة بهذه الصفة عالم العقل

والنفس، والجواهر الثانية هي القوى الطبيعية والهيولانية المخصوصة بعالم الأفلاك العالية القائمة بحركاتها الملائكة الموكَّلون بها، والفروع البادية منها الأمهات السفليات والأسطقسات الجزئيات والطبائع الجسمانية وما يبدو منها ويتكون عنها من الحيوان والنبات، وخليفة الله فيها وأمينه عليها هو النفس الجزئية التي هي نفس صاحب شرع كل دور، وهي المدبِّرة لها في العالم السُّفْلي، وهي المتحدة بالجسم المبني بالحكمة الموجودة بإتقان الصنعة، وهي المتمم لها أمور الطبيعة من أعمالها؛ فهي تُرتِّب كل شيء من ذلك في مرتبته، وتستخرج من منفعته، وتوصله إلى غايته فهو في العالم السفلي والمركز الأرضي خليفة الله وملكه الموكَّل بتدبير ما يكون في الأرض من معادنها ونباتها وحيوانها، وهي الدائرة الثانية وفلكها ذو حركة دورية مربوطة بها نفس جزئية متصلة بالنفس الكلية، وفيه كواكب طالعة وأنوار لامعة وملائكة بالقوة يفعلون فيه ما يؤمرون روحانيون بذواتهم الشريفة، جسمانيون بأجسامهم الكثيفة، ولكل ملك منهم جنود وأعوان.

واعلم أيها الأخ، أن في هذه الدائرة الإنسانية يتراءى ما يكون في الدائرة النفسانية والطبيعية؛ إذ كان الإنسان المبدع لما يكون من ذلك والمبيِّن له بالقول والعمل، فالقول كالقول بحوادث الجو الفلكي وأحكام النجوم وصفة النفس وكيفية رباطها بالفلك المحيط وما دونه، ومعرفة العقل بأنه أول الموجودات وأشرف الذوات، وهو الناطق بتوحيد الله عز وجل وتنزيهه، والوسيلة بينه وبين ما دونه من خلقه.

فأما العمل فمثل ما ذكرناه في رسالة الصنائع العملية، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة صفة الدوائر الروحانية النفسانية وسكان كل دائرة من الملائكة، وكيف يكون أفعالهم وتفاضلهم كما قلنا بالقرب من الله تعالى بالأعمال المقرِّبة إليه المزلفة لديه؟ وإذا فرغنا من ذكر الدوائر المستقيمة ذوات الأنوار المضيئة والأشخاص البهيَّة ذكرنا الدوائر الظلمانية المعكوسة وذوات الصور الشيطانية المنكوسة، وبمعرفة ذلك تكون معرفة الإنسان بحقيقة الجنة والنار وأفعال أهلها يخص كلَّ شكلٍ منها.

فإذا وُفِّقْتَ إلى هذه الحكمة الشريفة وترقَّيت إلى هذه الدرجة المنيفة فخصَّ بها إخوانك البالغين وأحبَّاءك المصطفين الذين تهذَّبوا بالأخلاق الحكمية وعرفوا المنازل العلمية.

واعلم أن رسائلنا الناموسية الإلهية هي جواهر ما بسطناه وذخائر ما ألَّفناه، وهذا الكتاب الذي ألقيناه إليك وخصصناك به جعلناه وديعة عند إخواننا، أيَّدهم الله وإيانا بروح منه.

(٢) فصل في فعل الله تعالى الذي فعله بذاته وما يليق به من صفاته

اعلم أيها الأخ، أن نسبة العقل من مبدعه أقرب من نسبة ما دونه، ونسبة ما دونه لمن ينسب أولًا منه أقرب، وكذلك الأفعال البادية عن كل قوة من القوى المتصلة بكل واحد من الأصول البادية وما يتعلق به من الصفات والتراكيب المؤلفة.

ولما كان العقل هو أقرب الأشياء من باريه، جلَّ اسمه، وأنه الفاعل لما دونه بأمره وجب أن يكون هو فعل الباري تعالى الذي فعله بذاته وكتابه الذي كتبه بيده، وهو الملك الذي ليس له فيه شريك يناوئه ولا ضد ينافيه، بل هو خالصٌ صافٍ لا يقع عليه التغيير، ولا يجوز عليه التبديل، مشرقة أنوراه ظاهرة آثاره حاوٍ لما بدا عنه محيط ما يكون منه.

فهذا هو فعل الله الخاص به المنسوب إليه الذي لا تفاوت فيه.

ولما كان الفاعل يعطي فعله الخاص به صورته ومثاله ويؤيده بالقدرة التي تتكون له بها القوة على ما يبديه من أعماله صار العقل موضعًا لأمر الله عز وجل ومكانًا لقدرته.

وقد جاء في بعض الكتب المنزلة أن الله خلق آدم على صورته ومثاله، وقوله عز وجل: ﴿وَلَهُ الْمثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وكذلك قال الحكماء: إن في المعلول توجد آثار العلة، وكذلك صارت الأفعال المحكمة والصنائع المتقنة تدل على حكمة صانعها وتُنْسَب إليه ويكون موصوفًا بها، فلنذكر ما يليق بها من الصفة مثل ما لاق به من الفعل.

اعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم أن صفات الباري، جل جلاله، بالتقريب من أفهام المخلوقين المنسوبة من أفعال الجسمانيين روحانية لا من حيث كونها في الروحانيات المخلوقات محدثات مبدعات فاعلات أفعالًا تليق بها، منسوبة إليها يكون بعضها من بعض، مثل العلم والقدرة والإحاطة والحياة وما شاكل ذلك من الصفات، وإن ذلك متعلق بالعقل وما دونه حتى تكون متصلة بالإنسان وبالحيوان، ولكلٍّ منها بحسب ما يليق مما جعله الله فيه؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ولما كانت هذه الصفات مشتركة فيها جميع الموجودات علمنا أن للباري سبحانه من جهة النزهة عنه صفات تختص به كفعله المخصوص به، فطلبناها بالحرص والاجتهاد واستقراء كتب الحكماء وسؤال العلماء ومَنْ عنده علم الكتاب من أهل الذكر كما قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فوقفنا من ذلك على ما مَنَّ الله سبحانه به علينا وهدانا إليه.

ونحن نذكر من ذلك ما يليق ذكره بهذا المكان وفيه كفاية لذوي الألباب ومَنْ وفَّقه الله تعالى للصواب.

(٣) فصل في أن صفات الله تعالى التي لا يشركه فيها أحد من خلقه ...

اعلم أيها الأخ، أن صفات الله تعالى التي لا يشركه فيها أحد من خلقه ومعرفته التي لا يعرف بها إلا هو أنه مبدع مخترع خالق مكوِّن قادر عليم حي موجود مبدع قديم فاعل.

وإنه المعطي من جوده الوجود هذه الصفات وما ينبغي له ويليق، فأفاض على العقل من ذلك أنه مبدئ محدث حي مخترع عالم فاعل موجود، فالعقل مبدئ لما بدا منه، وفاعل بمعنى مفعول، ومحدَث بمعنى أنه محدث معلول، ومعطي الحياة لمن دونه كما أعطى، وموجود بوجود أفعاله الصادرة عنه.

وكذلك ما يكون من صفات الروحانيين والجسمانيين واشتراكهم فيها، وهي صفات جزئية يقال بها عليهم مقالة مجازية، وهي مقرونة معهم بأضدادهم كاقتران الوجود بالعدم والعلم والجهل، والحياة بالموت، والقدرة بالعجز، والحركة بالسكون، والنور بالظُّلْمة.

فكل هذه الموجودات بالصفة في الموصوفين بها مقارنة لأضدادها لا يوصف بها الباري سبحانه، بل إنه خالق الوجود والعدم فصار مخصوصًا بالخلقة، جاعل الموت والحياة فصار مخصوصًا بالبقاء، موجد العلم والجهل فاختص بالعلم.

كذلك ما يوجد من أفعال المخلوقين من الروحانيين والجسمانيين والأعمال، فبحسب الودائع التي فيهم والآثار المُفاضة عليهم باستفادة بعضهم من بعض حتى يكون سبحانه موجِدهم كلهم ومعطيهم الحياة، ثم لا يكون موصوفًا بصفاتهم في المعنى، ولا يستحقونها بالشركة له فيها، وهم ذوو درجات ومنازل، ولكل واحد منهم صفة تزيد على ما دونه بها ويتخصص بفضلها، وذلك موجود لا يخفى على مَنْ تأمَّله كوجود القدرة في الحيوان كله من الحساس إلى الإنسان، فإن لكل شخص من أشخاصه قدرة يتميز بها من غيره حتى يكون نهايته منها قدرة الإنسان عليها كلها إما بقوة جسمانية وإما بجبلَّة نفسانية، ثم العلم المخصوص به الإنسان المتميز به عن الحيوان هم فيه مشتركون، لا شركة المساواة بل شركة تنزيه وانفصال واستعلاء في الطبقات، وترافع في الدرجات حتى تكون نهايتهم فيه المُعَرِّفة لهم به: النبي في زمانه، والحكيم في وقته المُفاض عليه ذلك من القوة المتصلة به من العالم الأعلى المخصوص بالعلم الذي صلح له به أن يكون معلِّمًا لمن دونه.

واعلم أن الإنسان المعرِّف لهم؛ أعني الناس، بما يحتاجون إليه هو خليفة الله سبحانه فيهم وأمينه عليهم، ثم الحياة أيضًا مشتركة بين الحيوان كله موصوف بالحركة الانتقالية، وكل حيوان ذو حركة وحياة، وليسوا هم متساوين؛ لأنهم غير موجودين في حالة واحدة،

وهم ذوو أعمار قصار وطوال وبين ذلك، حتى يكون المخصوص بالحياة الدائمة مَن انتقل من صورة الإنسانية إلى صورة الملائكة وما دون فلك القمر إلى ما فوق.

ثم كذلك صفة الروحانيين والملائكة، وهم أيضًا مشتركون في هذه الصفات، متباينون في الدرجات، ولكلٍّ منهم جزء مقسوم وحدٌّ معلوم، ثم يكون كذلك حتى يكون العقل نهايتهم فيها والسابق لهم إليها والمانَّ عليهم بها، ثم هو من الخضوع والخشوع والاعتراف بالعجز والتقصير عن الإحاطة بباريه وبلوغ كُنْه ما عنده، والمعرفة ببدايته ونهايته على غاية لا يبلغها إلا هو ولا ينفرد بها سواه ولا يشركه فيها غيره؛ ولذلك صار هو المعطي للنفس الخضوع والخشوع والحيرة في أمر المبدع سبحانه، ولم يُفِضْ عليها من ذلك إلا بما فُتِح عليه وألقى إليها بحسب ما أُلْقِي إليه وهو الإبداع الأول المُفاض عليه صورة التمام والكمال، فإذن أفعال الروحانيين من عالم العقل والنفس إنما يُعطَونها بما أمر الله تعالى، وهم بالقرب منه بحيث لا يصل إليهم مَنْ دونهم؛ ولذلك صارت الملائكة الذين لهم من القرب منهم ما ليس لغيرهم حتى يتصل ذلك بآخرهم، وهم الملائكة الساكنون في فلك القمر ولهم من الأفعال والأعمال ما يليق بهم مما أُلْقي إليهم ويفاض عليهم من المواد النفسانية والقياسات العقلية بالودائع التي فيهم من المشيئة الإلهية ما يكون لهم به موادُّ النفس الجزئية والجواهر الجسمانية والقوى الطبيعية والأشخاص الأرضية؛ ليكون للحركة الأولى سابقة للمتحركة بها إلى تمام المشيئة وبلوغ القضية الحتمية الموجِبة الحركة الأولى، وهذه الحركة حول قطب الدائرة النارية لوصول الموجودات؛ فهي أبدًا ينحط منها ما ينبثُّ في حيز الوجود متحركًا ليكون شيئًا معلومًا، ويقول بالتحميد والتمجيد والتسبيح والتقديس والتنزيه: إن الباري، جل اسمه، لا موصوف بصفات الروحانيين من حيث هم محدثون فاعلون ومنفعلون، ولا بصفة الجسمانيين المدركين بالحواس، وإنما صفته من حيث أفهامنا أنه قديم أزلي، معلِّل العلل، فاعل غير منفعل، موجِد مُبدِع مجوهِر، يبدي ما يشاء ويفعل ما يريد، كل يوم في شأن، لا يشغله شأن عن شأن، وليس هذا اليوم من أيام العالم وإنما هو يوم من أيام الدائرة الإلهية المرتبة في أفقها: الدائرة العقلية، منشئ النشأة الأولى مبدع النشأة الآخرة، لا إله إلا هو رب الآخرة والأولى، رافع مَنْ وحَّده إلى جنة المأوى، ومُحِطٌّ مَنْ جحده إلى قعر جهنم السفلى، وفعله الخاص ما كان بالأمر عنه.

فهذا هو الفعل الخاص به المنفعل عنه ذوات الخواص المثبتة أسماؤها في السطور المكتوبة في الرَّقِّ المنشور، المدرجة في البيت المعمور، الذي لا يدخله إلا المطهَّرون، ولا يسكنه إلا المحبورون بسعادات أنوار الطاعة الخاصة من المعاصي البعيدة بالقرب من أهل

الطغيان، الفاعلة ما يرد منها ويصدر عنها إلى مَنْ دونها صورة بالقوة لتكون مستقرة في اللوح.

ثم يبرز مثالها حتى يحصل في الدائرة الطبيعية صورة نفسانية متحركة بلا زمان في مكان خارجة بذاتها عن الزمان منفعلة إليها في زمان؛ فهي بذاتها الأول غير داخلة تحت حركة الزمان فسبحان خالق الزمان ومُوجِد المكان ومكوِّن الكيان، وله الأسماء الحسنى والأمثال العليا قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

فهذه الصفات المحيِّرة لذوي الألباب والعقول في معرفة الباري منها سبحانه بأنه لا يشركه فيها أحد سواه، وفعله الذي فعله بذاته وأوجده بكلماته موجودة في موجوداته مسطورة في أرضه وسمواته، وهي آياته المكتوبة في الآفاق والأنفس، يتأمل الناظر فيها الواقف عليها الحق المبين ويعاين الصراط المستقيم.

فهذه معرفة صفات الله عز وجل وفعله المخصوص بها، بما أوجبه الكلام النطقي والتعبير اللفظي، بالآلة الجسمانية والصورة الإنسانية والملائكة المقرَّبين، تقديسًا وتسبيحًا وتمجيدًا وتحميدًا إلا هو غير هذا، وإنما لكل أهل دائرة من العباد ما يصلح لها ويليق بها، كما أن معرفة الإنسان بباريه هي أرفع وأعظم من معرفة الحيوان، وحس الحيوان بذلك أقوى من حس النبات، وللنبات من الحس بذلك أكثر مما للمعادن.

فأما حركة الجواهر المعدنية للعبادة والإقرار بالمبدع سبحانه فهو قبولها للنقش والصورة؛ فهذه عبادتها وطاعتها وخضوعها وخشوعها، وإن منها ما يلتذ ويشتاق إلى الطاعة، ومنها ما هو أسرع للقبول وأحسن في الصورة وأجلُّ في القدر وأعظم في ذلك ودون ذلك، ومنها ما هو في غفلة من ذلك لا يقبل الصورة ولا يذوب بالنار ولا له إشراق ولا صفاء، ولا يُنتفع به كالصمِّ الصلاب والصرة والحجارة والأرضين السباخ.

وأما عبادة النبات فهي ما يظهر منه من الحركات، وذهابه مع الهواء إذا ذهب يمينًا وشمالًا فهو راكع وساجد ومسبِّح ومقدِّس باصطكاك أوراقه وحركات قضبانه وما يُبديه من أنواره وأزهاره وتسليمه ثمرته إلى الحيوان، ومنها ما لا ينتفع به ولا يصلح إلا للنار.

وأما عبادة الحيوان فهي خدمته الإنسان وذهابه معه حيثما ذهب، وما يكون من صبره على ما يعمل به، ومنه عاصٍ منكِر جاحد لطاعة الإنسان عدو له كالسباع وأنواع الوحوش.

وأما عبادة الإنسان فهي ما أوجبه الله تعالى عليه وهداه إليه، وهو أجلُّ العبادات الأرضية وأعظم المعارف الحيوانية، وله فضيلة النطق وشرف القدرة على ما دونه، وكمال

الخِلْقة واستواء القامة مجموع من العالمين؛ فهو كالحدِّ المتاخم للحدَّين وكالواسطة بين الطرفين، فاحرص أيها الأخ بالعبادة والطاعة حتى تصل إلى حيث يكون تسبيحك وتقديسك غاية أُنْسِك وأعظم لذَّة تجدها نفسك، فعند ذلك تأنف من الغذاء الجسماني ولا تحرص عليه ولا تشتاق إليه، وتصير في روضة الملكوت بحيث تكون حيًّا لا تموت.

(٤) فصل في أن الإنسان الغافل عن العبادة المنهمك في المعصية ...

واعلم أيها الأخ، أن الإنسان الغافل عن العبادة المنهمك في المعصية هو أخس من الحيوان، وأخس من النبات وأخس من المعادن، مردود إلى أسفل السافلين؛ لأن الجواهر المعدنية قبلت الصورة وهو لم يقبلها، والشجرة ساجدة وراكعة لربها وهو لا يسجد، والحيوان طائع للإنسان وهو لا يطيع ربه ولا عرفه ولا وجده، ونعوذ بالله من هذه الغفلة وهذا النسيان، ونسأله التوبة والإقالة إنه ولي الإحسان.

(٥) فصل في معرفة أفعال العقل

اعلم أيها الأخ، أن العقل الفعَّال هو الإبداع الأول والخلق الأكمل، وأنه فعل الله الذي فعله بذاته وأوجده بكلمته وقدرته، الذي قدَّر فيه وجوده الذي جاد به، ويحقق هذا البرهان أن الرادَّ علينا فيما ذكرنا لا يمكنه جحود ما أوردناه ولا خلاف عنده فيما وصفناه إلا كان ردًّا للعيان.

ونعود فنقول: إن للعقل فعلًا يختص به ولا ينفرد عنه ولا ينفصل منه قريب بحيث هو.

ولما كان العقل لا يعدم جود باريه بل واجد له يجب أن يكون بحيث القرب منه تعالى مرتبًا في قبضته وإحاطته واتصال أمره به، كذلك يجب أن يكون الإبداع الثاني المنبعث عنه البادي منه المتوجِّه بالشوق إليه، منه بدأ وإليه يعود؛ فهو بالقرب منه بحيث التوجه بالشوق إليه والاستفادة منه والأخذ عنه ما يكون له صورة القيام، وهي النفس الكلية المرتبة في قبضته، وهو المفيض عليها الفضائل الموجودة في جوهرها، ولما تتلقى منه يكون تمامها وسعادتها، وبما تلاحظ في ذاتها العالية عليها المحيطة بها، وبتأملها بدقة تأمُّل الاستقراء والشوق إليها والرغبة فيها يتهيَّأ لها بذلك انتساج ملاحظته فيها في دائرتها وحصولها في ذاتها، فإذا تأملت بملاحظتها واستمدادها عادت متمثلة لما رأت في

دائرتها أشكالًا كما يفعل التلميذ إذا امتلأ من تعليم مفيده عاد إلى تمثيل ما تعلَّم بالتشبُّه والمحاكاة، كما يوجد ذلك في الصبيان من محاكاة صنائع آبائهم والتشبه بهم في أفعالهم.

وإنما جُعل ذلك في جبلَّتهم وغريزة في عقولهم؛ ليكون قائدًا لهم إلى معرفة الصنائع والأعمال؛ لما في ذلك لهم من النفع التام والصلاح العام لعمارة دار الدنيا.

فإذا صارت تلك النقوش والأشكال في دائرة النفس ورتَّبتها في آفاقها وبنتها في دائرتها ابتدأت بإلقائها إلى مَنْ دونها، وتولَّت إثباتها فيه كثبوتها فيها وكونها عنها، فابتدأت القوى الطبيعية التي تحيط بالأجساد الهيولانية، فتُركَّب منها نقوش صورية وأصباغ نورانية موجودة في أجسام نورانية، موجودة في أجسام ظلمانية وأجساد هيولانية لتُشرق عليها أنوار نفسانية، وتتحد بها قوًى روحانية، وصارت الحِكم الملقاة عليها بقوة ملكية وإرادة فلكية وبقوة عقلية ومشيئة إلهية، وظهرت الخِلْقة الآدمية والصور الإنسانية قائمة بالحق ناطقة بالصدق مُقِرَّة بتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، ومُقِرَّة بحدوث خلقها وإتقان صنعها وكمال بِنْيتها بوجود باريها ما أوجده فيها وقدَّمه عليها.

فهي صورة مماثِلة لصورة العالم الكبير؛ فلذلك سُمِّيت عالمًا صغيرًا، ثم ما دونها من صور الحيوانات وعجائب تراكيبها وبدائع تآليفها.

وصورة الإنسان لنفسه كتاب مُبِين وصراط مستقيم في العالم الكبير، وهو ما فيه إنسان واحد للنفس الكلية تدبر أفلاكه وتحرِّك كواكبه بإذن الله تعالى ومشيئته وسابق إرادته، كما يحرِّك نفس الإنسان الذي هو عالم صغير جميع مفاصل جسده وأعضاء بدنه.

واعلم أيها الأخ، أن لتلك الحركات النفسانية قوى متصلة بفلك القمر وما دونها من الأركان ومولداتها وأفعال تظهر فيها ومنها لا يُحصي عددها إلا الله سبحانه وتعالى، كما أن لنفس الإنسان في جميع بدنه ومفاصل جسده أفعالًا كثيرة كما بيَّنَّا في رسالة تركيب الجسد، وفي رسالة الإنسان عالم صغير.

واعلم أن جسم العالم كله مركَّب من إحدى عشرة كرة، كما بيَّنَّا في رسالة السماء والعالم، وأن الفلك مقسوم نصفين، وفي الفلك اثنا عشر برجًا لمسير كواكبه، وينحط من كل برج ما يسري فيه من قوة كل كوكب، ما يكون به ظهور فعل يختص به هو فاعل له وقائم بعمله، كما أن الدائرة الأولى دائرة الفلك المحيط به والمحرِّك له النفس الكلية، وفعله الخاص به تدوير ما دونه معه، والفعل الصادر عنه كون الدوائر على الاستواء في النظام وهو محيط بها وهي مرتَّبة في أفقه، وهكذا إلى المراكز بعضها في جوف بعض، وتتبعث

من هذه الكواكب الثابتة تأثيرات وقوًى تتصل بما دونها فتودع فيهم الأفعال التي تبدو عنهم، وتظهر منهم في الأوقات التي ينبغي فيها إظهار ذلك بمشيئة الله وقدرته.

واعلم أيها الأخ، أن دائرة الشمس في العالم العلوي دائرة شريفة عظيمة القدر والمنزلة عند الله تعالى، وهي بمنزلة القلب في الجسد والفلك المحيط كالرأس، وبه يدوم دوام الحكمة ومن الشمس سريان القوة، وذلك أنه يتصل بها من النفس الكلية قوة تختص بها وهي المعطية قوة الحياة لجميع الأجسام، وبها يكون صلاح العالم وتمام وجوده وكمال بقائه؛ وذلك أنه تنبثُّ منها قوة روحانية يكون بها استواء النظام وقوام الأشياء على أحسن قوام، فيتلألأ العالم ويزهر، وهي قنديل النور الذي لا يُطْفى وسراج القدرة الذي لا يخبو، وهي بمنزلة المثل الأعلى في السموات؛ لأنها أشرف الموجودات السماوية والأشخاص الفلكية، وقوَّتها كمثل الحرارة المنبثَّة من القلب في جميع أعضاء الجسد، واختصاص أفعال الحرارة في كل عضو ويظهر فيه عنها ويتكون فيه منها ما يكون به نموه وبقاؤه واختلاف ما خرج منه ورجوع ما بدا عنه، كذلك أفعال الروحانية الطبيعية ترد عوضًا عما باد واندرس من العالم، فيعود مثله إلى مكانه وهي مستولية على الأجسام الوضعية والأكوان المرتَّبة، وروحانيات النفس المنحطَّة من الطرف الأعلى مما يلي العقل تختص شرايف روحانيتها وكرام ملائكتها بمواليد الملوك وأصحاب التيجان وأُولي العز والرفعة والسلطان.

واعلم أيها الأخ، أن النفس ذات طرفين تنحطُّ منها قوَّتان: قوة مما يلي الطبيعة، وهي المتحدة بها من الأفعال الطبيعية، وقوة تنحطُّ من الطرف القريب من العقل فتتصل بالصورة الإنسانية وتتشكل بالأشكال الفلكية، فعند ذلك يُشرق العقل عليها ويصرفها بهاتين القوتين وينحطُّ من النفس بواسطتهما من العالم الأعلى، فالطرف الأعلى ينحطُّ من دائرة الشمس فيختص من الحيوان بالإنسان، ومن النبات بما طابت رائحته وزَكَتْ ثمرته وحسُنت صورته، ومن المعادن بالذهب، ومن الجواهر بالياقوت، ولها من الأفعال التمام والكمال ومن الصفات الإشراق والضياء، ومكانها من الأرض مواضع الملوك والرؤساء، وفعلها فيها الطهارة والنقاء، والطرف الأدنى ينحط بوساطة القمر المرتَّب في السماء الدنيا الموصوف بالزيادة والنقصان والأخذ والإعطاء والتفريغ والإملاء، ونحن نذكر من أفعاله ما يختص به في موضعه، إن شاء الله.

(٦) فصل في أنه ينحطُّ من دائرة الشمس ...

واعلم أيها الأخ، أنه ينحطُّ من دائرة الشمس إلى عالم الأرض دائرة لموضع ملائكة تسميها الحكماء روحانيات، ولهم صفات في الأسرار الناموسية والعلوم الشرعية تليق بهم، وأفعال تُنْسَب إليه فهم بها معروفون وبما يظهر عنهم فيها موصوفون، وأفعالهم ما يظهر من الملوك وما يختص بهم، كما قدَّمنا ذكره في كل الجهات، وما فيها من النبات والمعادن وجميع الموجودات كل ما قد علا وارتفع قدره وعظُم ذكره، وأفعالها المخصوصة بها وصفاتها المضافة إليها الحياة والحرارة التي تنبثُّ من القلب في الجسد والاعتدال والكمال والتمام والصلاح والحسن والبهاء والنور والضياء والعظمة والجلالة؛ فهذه أفعال روحانيات الشمس في المعاملات ومقامات الملائكة المنبثِّين في العالم منها المنحطِّين من دائرتها لموضع الملوك والسلاطين الذين لبسهم الديباج الأصفر، وحُليُّهم الذهب الأحمر، وتيجانهم مكللة بالجوهر، ودوابُّهم خيل شقر وبراذين[١] صُفْر، يَقْدُمهم ملك كريم وشخص عظيم بيده راية صفراء مكتوب عليها بالنور: لا إله إلا الله الحي القيوم، معطي الحياة لكل حيٍّ، جاعل الشمس والقمر آيةً للناظرين المتفكرين في خلق السموات والأرض، وما خلق ذلك إلا بالحق، سبحان ربِّك رب العزة عما يصفون ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهؤلاء الملائكة الموصوفون بهذه الصفات المنسوبون إلى هذه الدرجات يطلعون بطلوعها ويغربون بغروبها، وهم الملائكة الموكلون بدائرتها السائرون في فلكها المتصلون بعالم الأرض بوساطتها، ومنهم تُشرق القوة النفسانية وبهم تضيء القوة العقلية، فهم إذن أشخاصهم نفسانية وأرواحهم عقلية وموادهم إلهية، فهم لا يضيق بهم المكان ولا يغيِّرهم طول الزمان عن أفعالهم والمكان عن كيانهم.

فهذه المنزلة أجلُّ منازل الروحانيين الفاضلين وهم الملائكة المقرَّبون ومَنْ دونهم اللاحقون بهم من تحتهم، ومن فوقهم ملائكة موصوفون بصفات غير هذه كذلك حتى يكون فوقهم مَنْ هو أعلى وأشرف؛ إذ كان هؤلاء روحانيون بذواتهم متصلون بالجسمانية بما يظهر فيهم من أفعالهم، والذين فوقهم ملائكة عالون، وهؤلاء المقرَّبون

[١] البراذين: جمع برذون وهو الأتان الصغير من البغال والحمير. راجع فقه اللغة للثعالبي.

من العالين وصفات الملائكة العالين تختص بهم من حيث ذواتهم وأفعالهم أنفس ناطقة، وروحانياتهم كائنة منها نفسانيون، وهم اللاحقون بالكرسي الذي وسع السموات والأرض، ومنهم الحافُّون من حول العرش، ومنهم حمَلة العرش وكلٌّ في مقام كريم ومحلٌّ عظيم يسبِّحون بحمد ربهم.

فإذا تأملت يا أخي ما وصفنا وتحقق لك ما ذكرنا فقد تهيَّأ لك أن تصير بالصورة الملكية فتكون قد حُزْتَ الفضيلة والإنسانية، وتبرَّأت عن الصورة الحيوانية والصفة البهيمية، وتصير من سكان السماء بروحك الزكيَّة ونفسك المضيئة، وتصير صورتك ذاتية نفسانية وروحك قدسية عقلية ومادتك إلهية، وتستحق حينئذٍ مرافقة الملائكة المقرَّبين والأنبياء المرسلين والشهداء الصالحين، وتدخل الجنان وتحل في دار الحيوان فيكون طوبى لك وحسن مآب.

واعلم أيها الأخ، أنه لا يتهيأ لك ذلك بالمعرفة دون العمل، ولا بالقول دون الفعل، كما أنه لا يمكنك أن تكون في الدنيا بمجرد نفسك ولطيف روحك دون جسمك والوسائط التي بين الموجودات وبينك.

واعلم أن العمل هو سُلَّم المعراج والمعرفة هي النور يسعى بين يديك، فبالسُّلَّم ترتقي وبالنور تهتدي، وفقك الله وإيانا للعلم والعمل برحمته.

(٧) فصل دائرة زحل

دائرة زحل تنبثُّ منها روحانيات تسري في جميع العالم من الأفلاك والأمهات والمواليد، وبها يكون تماسك الصورة في الهيولى، وهي تعطي الأشياء الثقل والرزانة والوقوف والإبطاء، وموضعها من جسد الإنسان الطحال وما ينبثُّ منه في الجسد من المِرَّة السوداء، وبذلك تكون أجزاء البدن من العظام والعصب والجلود وجمود الرطوبات، ومن أفعاله البرودة واليبوسة، ولها من الحيوان ما اسودَّ لونه وقبحت صورته، ومن النبات مثل ذلك، ومن المعادن الرصاص الأسود والقير وكل ما اسودَّ لونه ونتنت رائحته، ومن الأرض الجبال السود والأودية المظلمة والطرق الوعرة والوحوش الذعرة الكريهة المنظر، ومن عالم الإنسان ما يكون بهذه الصفة.

ومن أفعال هذه الروحانيات الموت وسكون الحركة والملائكة المنبثَّة منه في العالم موصوفون بما يبدو عنهم ويظهر منهم من أفعالهم وأعمالهم؛ ليكون بذلك الفعل عذاب النفوس العالية والأرواح الساهية، وهي كتب مطموسة وصور معكوسة.

وأفعال روحانيته في العالم البرودة واليبوسة، والملائكة النازلون لقبض الأرواح وموت الأجساد روحانيات موكَّلون بساعات الليل، وهي أعداد لا يحصيها إلا الله، وهم رُكَّاب على دوابَّ دُهْمٍ يقدمها ملك بيده راية سوداء مكتوب عليها: لا إله إلا الله مقدِّر الليل والنهار وجاعل الظلمات والنور، كذب العادلون بالله وضلُّوا ضلالًا بعيدًا ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾.

ويختص من بقاع الأرض بالمواضع الدارسة والأماكن المنقطعة والجبال الشامخة والطرقات الوعرة، وهي عُمَّار ما خرب من الأرض، وبهم يكون تماسك البحار في أماكنها وثبات أوتاد الأرض وتماسكها، ولولا ذلك لسالت أجزاؤها واختلطت بالماء وساحت في البحار.

فهذه الملائكة الموكَّلة بها تمسكها بإذن الله عز وجل، والفلاسفة تسمي هذه الملائكة روحانيات زحل، والناموس يسميها ملائكة الغضب وجنودًا وأعوانًا وهم الموكلون بقبض الأرواح ومَلَك الموت منهم.

(٨) فصل دائرة المشتري

دائرة المشتري تنحط منها قوى روحانيات تسري في جميع العالم يكون بها اعتدال الطبائع وتأليف القوى المتنافرات، وهي سبب المتولدات الكائنات وحفظ النظام على الموجودات، وأفعال روحانياتها في العالم الكبير ما ينبثُّ من الكبد في جسد الإنسان الذي هو عالم صغير، الذي به يكون صلاح المزاج واعتدال الأخلاط وجريان الدم في الأعضاء، وبه ينمو الجسد ويستوي البدن وتطيب الحياة ويلذُّ العيش وتأنس الأرواح، وروحانيته مستولية على مواليد الأنبياء، صلوات الله عليهم، وأصحاب النواميس ومواضع الملائكة المنبثَّة من دائرته النازلين من فلكه الخارجين من بابه مواضع الصلوات وبيوت العبادات.

ومن الحيوانات الصور الحسنة المذبوحة في القرابين المفرَّقة لحومها في الصدقات والزكوات.

ومن النبات ما كان في غاية الاعتدال ونهاية النفع، وله من الطيب الكافور ومن البخور ما كان معتدلًا بين البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة، ومن الثياب البيض والعمايم الكبار والطيالس، ويختص بمواليد الحكماء والقضاة ومَنْ يخدم في نواميس الأنبياء ومقامات الحكماء، والملائكة المنبثَّة منه سكان الفضاء ومدبِّرو الهواء، وهم عدة لا يحصيهم إلا الله عز وجل، وركَّاب على خيول بيض وشهب وبُلق، وثيابهم بيض وخضر،

يَقْدُمهم ملك كريم وشخص عظيم بيده راية مكتوب عليها: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وهو على كل شيء قدير.

وتختص هذه القوى من المعادن بالأجساد البيض اللينة، ومن الجواهر اللؤلؤ والمرجان والبلور والزجاج، ومن المياه ما كان حلوًا لذيذًا يكون فيها الحيوان الحي وغير الحيوان، وهو مختص بها وبه يكون منبعها، ومع روحانيته يكون معراج الأنبياء إلى ما أعدَّ الله لهم من حسن المآب وجزيل الثواب، ورضوان خازن الجنان منهم.

(٩) فصل دائرة المريخ

دائرة المريخ تنبثُّ منها قوًى روحانية تسري في العالم من الأفلاك والأركان والمولدات، وبها يكون النزوع والنهوض والسرعة في الأعمال والصنائع والترقِّي في معالي الدرجات وطلب الغايات والوصول إلى التمام والبلوغ إلى الكمال بالقهر والغلبة والعز والسلطنة.

وتختص أفعال روحانيتها وأعمال ملائكتها من المعادن بالحديد وما يُتَّخذ منه من السلاح، وما يصلح لوقود النار في النبات والأشجار ما يكون منه من الحرارة المنضجة لثمارها التي تمتصُّ الرطوبات المائية والمواد النديَّة، وبهذه الحرارة الغريزية يكون جذبها للبرودة الموجودة فيها، ولولا هذه الحرارة لتلفت أصول النبات وغلبت عليها البرودة فتلفت واضمحلَّت وما بقيت وعدمت.

وفعلها المختص بالحيوان ما يظهر فيه من الغضب والتعدي والشر، وكذلك في عالم الإنسان ما يكون من الحروب والفتن، ومن بقاع الأرض مواضع النيران وعمل الحديد ومذابح الحيوان، ومن جسم الإنسان المِرَّة الصفراء وما ينبثُّ منها من الأفعال في البدن من اللهيب والحرارة، ولولا ذلك لغلبت القوة الباردة اليابسة على الجسد فتلف واضمحلَّ.

وبالحروب والفتن يميز الله الخبيث من الطيب، ويكون سعادة لقوم ونحسًا للآخرين: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وهذه الروحانيات أيضًا ملائكة غلاظ شداد لا يُحْصِي عددهم إلا الله عز وجل، يَقْدُمهم ملك راكب فرسًا أحمر، بيده راية حمراء مكتوب عليها: لا إله إلا الله مقدِّر الموت والحياة، وله ما في السموات وما في الأرض وما سكن في الليل والنهار ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾.

وهذه الروحانيات تختص بمواليد السلاطين وأصحاب السيوف وولاة الحروب وأصحاب الشجاعة والإقدام والنجدة والجراءة، وهي تفعل من ذلك بضدِّ ما تفعل روحانيات زحل؛ إذ فعل روحانيات زحل القرار والهدوء وأعمال الحيلة وإبطاء الحركة وطلب الفرصة.

(١٠) فصل دائرة الزُّهَرة

دائرة الزُّهَرة تنبثُّ منها قوًى روحانية تسري في جميع جسم العالم وأجزائه، وبها يكون زينة العالم وحسن نظامه، وبهاء أنواره، وورنق أزهاره، وزخرف الكائنات، وحسن الموجودات، واعتدال النبات، والشوق إلى الزينة، ومحبة الجمال، وطلب الكمال، كما ينبثُّ من جِرْم المعدة شهوة الملاذِّ إلى جميع مجاري الحواس التي تستلذُّ المأكولات والمشروبات، وروحانياتها تستولي على مواليد النساء والخدم ومَنْ يجري مجراهم، وأفعال روحانياتها في العالم العشق والمحبة والتزين بالزينة الحسنة، وتختص من المعادن بما يصلح للنساء من الآلات والأكاليل والحُلي والخواتم، ومن الجواهر بالدُّرِّ، ومن النبات بكل ما طاب طعمه ورائحته وحَسُنَ منظره من جميع أزهار الأشجار وروائحها وأدهانها وحسن منظرها وطيب ثمرها.

ومن الحيوان بمثل ذلك، ومواضعها في الأرض أمكنة اللذات ومواضع الخلوات، وروحانياتها ملائكة لا يُحْصِي عددهم إلا الله عز وجل، رُكَّاب حيوانات ملوَّنة موشَّحة بالزينة، يَقْدُمهم ملك بيده راية مكتوب عليها: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الآية، وهي ذات النقش والتصوير وبهذه القوة ثبات النفس في الهيولى.

(١١) فصل دائرة عطارد

دائرة عطارد تنبثُّ منها قوى روحانيات تسري في جميع جسم العالم وأجزائه، وبها تكون المعارف والعلوم والخواطر والإلهام والرؤيا والوحي والنبوة، كما تنبثُّ من الدماغ القوة الوهمية وما يتبعها من الذهن والتخيل والفكر والروية والتمييز والفراسة والخواطر والإلهام والشعور والإحساس، وتستولي روحانياتها وتختص أفعال ملائكتها الهابطة من المعادن الطبيعية بالزوابيق والأرواح الصاعدة، ومن جواهر ما كان ذا لونين مثل الجزع

والبادزهر، ومن الحيوان الزرافات وبقر الوحش وكل ما خفَّ مشيه وأسرع في ذهابه، ومن النبات مثل الأودية الفاضلة، وتختص من عالم الإنسان بمواليد الكُتَّاب والوزراء والعمال وجباة الأموال، ويؤثِّر في العالم الصنائع والحِرَف، ومن الكلام الشعر والخط والنظم وغير ذلك، وملائكته النازلة من دائرته كرام كاتبون وحفظة حاسبون ذوو مناظر حسنة وصور بهية، أرواحهم خفيفة وأشخاصهم لطيفة، يَقْدُمهم ملك بيده راية مكتوب عليها: لا إله إلا الله وحده لا شريك له: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

(١٢) فصل دائرة القمر

دائرة القمر تنبثُّ منها قوًى روحانية تسري في جميع العالم وأجزائه، فيها تنفس الموجودات في العالم جميعًا تارةً من عالم الأفلاك نحو عالم الكون من أول الشهر، وتارةً من عالم الكون نحو عالم الأفلاك في آخر الشهر، وهي القوة المتوسطة بين عالم الأفلاك ومعدن البقاء والتمام، وبين عالم الأركان معدن الكون والفساد والهبوط والاتحاد، كما تنبثُّ من جرم الرئة القوة التي بها يكون التنفس تارةً باستنشاق الهواء من خارج الجسد لحفظ الحرارة الغريزية على الجسد، وتارةً تكون بإرساله إلى خارج لترويحه، فعند استنشاق الهواء تربو الرئة وتعظم، وعند إرساله تهزل وتصغر، كذلك القمر باستمداده مما فوقه تتسع دائرته وتهبط ملائكته بالمواد العلوية والخيرات السماوية، فيفعل في العالم الزيادة والنماء والرُّبَى، فعند ذلك تكثر مياه الأنهار وتربو وتسمن الأجسام، فلا يزال كذلك إلى النصف من الشهر، ويتكوَّن في هذه المدة بعض المعادن، ويتكون بعض الجواهر، وروحانياتها تفعل في المعادن الفضة والأجساد البيض مثل الملح والثلج، وله من الجبال البيض ومواضع الثلوج، وله من الحيوان ما يتكون من المياه، ويكون غذاؤه منها، وتستولي روحانياته، وتختص أفعاله وجنوده بمواليد أصحاب العمارة مثل الوكلاء والدهَّاقين وأصحاب الجمع ومَنْ يفعل في المياه.

وقد ذكرنا، أيها الأخ، ما يكون من أفعال روحانيات منازل القمر التي تسير فيها وتمرُّ عليها وما يهبط منه ومنها إلى العالم الأرضي والمركز السفلي، وما يكون منها وما يجب للعامل إذا أراد أن يعمل ما يعمله من معرفتها في رسالة السحر والعزائم، وهذه القوة هي المخصوصة بتدبير عالم الكون والفساد، وفلك القمر هو سماء الدنيا وملائكتها

هي الموكَّلة بعالم الأرض، وهم عدة لا يحصيهم إلا الله تعالى، يَقْدُمهم ملك بيده راية بيضاء مكتوب عليها بسواد: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

(١٣) فصل في أنه ينبثُّ من جرم كل كوكب من الكواكب الثابتة …

وهكذا ينبثُّ من جرم كل كوكب من الكواكب الثابتة قوة روحانية تسري في جميع جسم العالم من أعلى الفلك الثامن الذي هو الكرسي الواسع إلى منتهى مركز الأرض، وبهذه القوة ومع هذه الملائكة يكون النور الذي تشرق به السموات وتضيء الأفلاك ويتصل بالشمس فتكون هي القنديل المضيء والكوكب الدُّرِّيُّ والنور الزاهر والسراج الأنور المتوقد ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، وينبثُّ من نور الشمس في الهواء الأجسام الشفَّافة، المجموع فيها النور والإشراق والضياء والحسن والبهاء، وبهذه القوة تنحطُّ صور الموجودات فتصير في دائرة الطبيعة محفوظة في الهيولى، وبها صلاح العالم وقوامه، وكونه على ما هو موجود بإذن باريه تعالى، ونهايات سكان السموات وهم الملائكة العالون، وهم جنود الله الذين لا يعلمهم إلا هو كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ وقال حكايةً عنهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ وهم سكان الكرسي الواسع، وحمَلة العرش المحيط من فوقهم يمدُّونهم بالفيوضات الكاملة والنعم الشاملة، وهم المرتبون في جوار رب العالمين المستمعون لكلامه الفاعلون بأمره ونهيه، وهم حمَلة الوحي والتأييد إلى مَنْ دونهم، المبلِّغون رسالات ربهم إلى الأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين.

(١٤) فصل في صفة الدوائر الفلكية

وإذ قد ذكرنا صفة الدوائر الفلكية والملائكة السماوية والروحانيات الهابطة من الملأ الأعلى من لدن العرش إلى منتهى المركز أسفل السافلين، وبين ذلك دائرة ودائرة ما فيها من السكان وما يظهر من أفعالهم في الزمان بموجبات أحكام القرآن، فأول الدوائر التي دون فلك القمر دائرة الأثير، وهي دائرة كُرِيَّة نارية حادثة من تحريك فلك القمر وما يتصل

به من أفلاك الكواكب ونيران حرارات دوران الأفلاك واصطكاكاتها وتموُّجها وشعاعاتها، وتجتمع كلها تحت فلك القمر، وكيفية هذه الدائرة وردية متموجة متحركة مستديرة ينحطُّ منها إلى العالم قوًى نارية، والنار التي في العالم منها، ويكون وصولها إلى العالم بوصول نور الشمس وهي الحرارة التي تنحلُّ بنور الشمس مما دون فلك القمر، تقوى في الصيف وتضعف في الشتاء لقرب الشمس منها، إذا قاربت في بروجها من دائرة الأرض يكون الصيف، وإذا بعدت في أوجها وعلى دائرة فلكها ضعفت هذه الدائرة، وبضعفها يقوى فعل الدائرة المرتَّبة تحتها وهي دائرة الزمهرير، ومن فعل دائرة الأثير في العالم يكون التسخين والنضج وإصلاح الغذاء، وهي النار المستضاء بها من ظلمات الليل، وهي نار جزئية من النار الكلية.

(١٥) فصل في دائرة الزمهرير

ومن تحتها دائرة الزمهرير، وكيفيتها كُرِيَّة لونها أزرق وتحمر، وحدوثها من الهواء والبخارات الصاعدة من الأرض، فإذا وصلت إلى سطح كرة الأثير تعذَّر عليها نفوذها فوقفت مرتبة تحتها، منها ينبثُّ إلى العالم ما يحدث في الشتاء من البرد والأمطار والثلوج وما شاكل ذلك إذا بعدت الشمس وضعف فعل دائرة الأثير واستولت على الكواكب النارية في اليُبْس، وفعلها البرد والرطوبة، ووصول قوتها يكون بوصول القمر، ويزيد بزيادته وينقص بنقصانه.

(١٦) فصل في دائرة الهواء

ومن تحتها دائرة الهواء وكيفيتها مستديرة ممتزجة ولونها أسمانجوني وهو لون السماء، وتبيض بإشراق الشمس والقمر والكواكب عليه، تُضيء بالنهار وتُظلم بالليل، وهي مهيَّأة لقبول الأنوار، وتضيء بحسب قواها فيها ووصولها إليها وإشراقها عليها، وفعل هذه الدائرة في العالم تغذية الأجسام وحفظها على استواء النظام وترويح الحرارة الغريزية والنفس وحفظ القوة والحركة وطيبة العيش ولذة الحياة، وهي معتدلة تميل مع ما يقوى عليها ويتصل بها، تبرد في الشتاء بما يتصل بها من قوة الزمهرير، وتحمى في الصيف بما يتصل بها من قوة حر الأثير وما يكون من فعل الشمس والقمر وبقية الكواكب، ذلك تقدير العزيز العليم.

(١٧) فصل في أن دون دائرة الهواء دائرة الماء

ودون دائرة الهواء دائرة الماء، وهي مستديرة حائطة بالأرض، والهواء حائط بها، فما ينشفه الهواء ويصعد به ويعرج معه بالبخارات الصاعدة مع لطائف الأمهات حتى يتصل بدائرة الزمهرير ويسخن بحرارة الأثير، وتشرق الشمس عليه مع شعاعات الكواكب فيصير مطرًا وغيثًا يغاث به أهل الأرض، ويصير حلوًا طيبًا سائغًا لذة للشاربين.

ومنه ما يكون قبل صعوده مِلْحًا أجاجًا كالبحار المالحة والمياه النابعة من السباخ، فانظر أيها الأخ هذه الحكمة، وتأمَّل هذه الصنعة، وانظر كيف يكسب الماء بطلوعه إلى دائرة الزمهرير وبُعده من دائرة الأرض، ويتصل به وتُشرق عليه هذه الطبيعة واللذة والصفاء واللطافة والمنفعة، ويصير مادةً للأجسام وغذاءً للأبدان وحياةً للنبات والحيوان، ولو بقي على الحالة الدنيئة والرتبة الناقصة لكان غير منتفَع به.

وكذلك النفس إذا بقيت مع جسمها البالي ومكانها الدنيء لا تنال الفضائل التي بها تكون سعادتها وارتقاؤها في رفيع درجاتها، وما تناله من اللذة والطيب في دار المعاد بعد مفارقة الأجساد وعند النقلة عن عالم الكون والفساد.

(١٨) فصل في بعد دائرة الماء دائرة الأرض وهي التراب

وبعد دائرة الماء دائرة الأرض وهي التراب، وكيفيتها مستديرة ولونها أسود، كثيفة جامدة، وعلى بسيطها مستقَرُّ الجثمانيين، وعلى ظهرها إشراق أنوار الروحانيين، وفي البقاع الطاهرة فيها مسكن النبيين والصالحين، وهي مهبط الوحي والملائكة المقرَّبين، وفي باطنها سكون المعادن، وفي البقاع الطيبة يستقر الماء المَعِين الذي هو لذة للشاربين، سطحها مما يلي الأفلاك هو وجهها، وهو مقر العالم الجسماني والخلق الإنساني، وهو دوائر عليها وخطوط فيها، ولكل دائرة فعل يختص بها وعمل يظهر منها بحسب ما يتصل بها من فوقها، والذي دون فلك القمر مأوى الصمِّ البُكْم الذين لا يعقلون في أسفل السافلين.

وإذ قد ذكرنا الدوائر التي هي دون فلك القمر إلى منتهى مركز الأرض فلنذكر الدوائر التي على سطح الأرض، الكائنة فيها، الصاعدة عنها، المستقرة عليها.

(١٩) فصل في أن أول ما بدأ في باطن الأرض وتحرَّك بالكون: المعادن

اعلم أيها الأخ، أنه أول ما بدأ في باطن الأرض وتحرَّك بالكون: المعادن، وهي دائرة كانت ذات قوة كامنة كثيفة وثقيلة، منها صلبة ورخوة، ذات ألوان وأصباغ وزيادة ونقصان، ومنها ما يقبل الصورة وينساق للفعل، ولكلِّ شكلٍ منها فعلٌ يختص به وقوة توجد فيه، قد ذكرناها في رسالة المعادن، ثم الدائرة التي فوقها التالية لها دائرة النبات، وهي مرتفعة عن الأرض بعد كونها مرتفعة نحو المحيط قابلة لما ينزل عليها، وفعلها الغذاء للحيوان، وهي الواسطة بينه وبين الأرض بما يتناوله من ثمارها وحبوبها، وبما ينتفع به منها فيما يصدر إليه عنها، وقد ذكرنا ما يختص بكل نوع منها في رسالة النبات.

(٢٠) فصل في الدائرة التي من فوقها دائرة الحيوان

والدائرة التي من فوقها دائرة الحيوان وأفعالها وما يظهر منها، وهي حائطة بدائرة النبات قاهرة لما يكون فيها، تأكل منها وتتغذى بها، ولكل جنس منها عمل وهو عامل له وفعل يختص به، وفيها للإنسان منافع، قد ذكرناها في رسالة الحيوانات، والدائرة المرتبة فوق هذه الدوائر، التي هي لها كالفلك المحيط بالأفلاك، دائرة عالم الإنسان؛ إذ كان المتحكم فيها كلها، فأول هذه الدائرة آدم، وآخرها صاحب الدور الجديد في القرآن المستأنف.

وهذه النفوس الحيوانية المرتَّبة تحت الإنسان بالطاعة له والانقياد لأمره ونهيه هم الملائكة الذين سجدوا لآدم عليه السلام وأقرُّوا بالطاعة، وهم صور وأشباح للملائكة الذين هم سكان السموات وعالم الأفلاك والحيوانات العاصية للإنسان المعادية له، وهي مثل إبليس وجنوده وحزبه والشيطان وأتباعه، فقد بان بما وصفنا وتحقق بما ذكرنا معرفة ما في العالم الصغير والكبير، وما يكون من فعل الإنسان ويبدو منه ويظهر عنه من الأفعال المتضادة والأعمال المتباينة، وأنه صورة قد قهرت الصور، ودائرة قد أحاطت بالدوائر التي دونها، وفيها مثالات لما فوقها، وقد ذكرنا طرفًا منه في رسالة: «الإنسان الصغير»، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة ما يتفرع من كل دائرة من هذه الدوائر المجسمة والخطوط المركَّبة، ونبتدئ بدائرة الإنسان وما يوجد فيها من الأقسام المحيط بعضها ببعض حتى يكون آخرها فلك القمر، وينتهي إلى مركز الأرض الذي هو مستقر الكثائف ووجود فعل اللطائف بالتمثيل وإقامة الدليل.

(٢١) فصل دائرة الناموس الإلهي

دائرة الناموس الإلهي وأشخاصها القائمون بأمور النواميس وما أُنْزِل إليهم من ربهم، ومثلها في عالم الإنسان مثل الفلك المحيط وكواكبه، وما ينحط إليها من السعادات في الدين والدنيا، مثل ما يتصل بالعالم كله من فيضان الكواكب الثابتة من الحيوان والسعادات وإشراق النور والضياء، وهذه الدائرة في عالم الإنسان بمنزلة دائرة الشمس في عالم السموات، ويقترن بها دائرة الملك والعز والسلطان، وهي حاوية لجميع ما دونها من الدوائر في عالم الإنسان، محيطة بما دونها من العوالم، وبهم يتصل منها العلم والحكمة والإخبار بما كان ويكون.

(٢٢) فصل في الدائرة التي تليها دائرة أصحاب الحِكَم الفلسفية

الدائرة التي تليها دائرة أصحاب الحِكَم الفلسفية العقلية المرتَّبة في أفق الدائرة الأولى، وتنبثُّ منها في العالم الصنائع المُحْكَمَة والأفعال المتقنة مما يصلح للرؤساء والملوك وما يليق بهم.

ثم ما دون ذلك دائرة تحت أخرى حتى يكون آخرهم أدنى الصنائع وأخس الأعمال كما قال تعالى: ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات[٢] وأحوج بعضهم إلى بعض، وجعل بعضهم لبعض سخريًّا.

فقد بان بهذا القول أن عالم الإنسان درجات وطبقات ودوائر محيطة بعضها ببعض، بادية بعضها عن بعض، ويختص بكل دائرة منها من قوى الشمس وأفعالها ما يختص بكل كرة وفلك من فعل النفس الكلية، وما يسري فيها من قواها وروحانياتها في العالم، وتتهيَّأ قواها وروحانياتها في جهاته وتوكيلها ملائكته بموجوداتهم وإقامتهم إياهم في مواضعهم اللائقة بواحد واحد منهم، وبمعرفة الإنسان بِنْيَة جسده وكيفية فعل نفسه في جسمه تكون معرفته بما في العالم الكبير بأسره، وبتوحيد خالقه وتنزيه مبدعه ومعرفة آياته المكتوبة في أرضه وسمائه، وما أبداه واخترعه من مخلوقاته.

ولذلك قال النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أعرَفُكم بنفسه أعرَفُكم بربه.»

[٢] لعله يقصد إيراد فحوى الآية لا نصها.

(٢٣) فصل في أن الله عز وجل جعل جسم الإنسان مركَّبًا من تسعة جواهر

اعلم أيها الأخ، أن الله عز وجل جعل جسم الإنسان مركَّبًا من تسعة جواهر مبنيًّا على تسع دوائر مركَّبة بعضها في جوف بعض؛ ليكون جسم الإنسان بموجود بنيته وكمال هيئته مشاكلًا للأفلاك بالكيفية والكمية جميعًا؛ لأن الأفلاك تسع طبقات مركَّبة بعضها في جوف بعض، والفلك المحيط حائط بها كلها، كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فكذلك جسم الإنسان خُلِق من تسعة جواهر بعضها فوق بعض وآخر ملبَّد عليها محيط بها، تفصيل ذلك: وهي العظام والمخ فيها، والعصب، والعروق وفيها الدم، واللحم والجلد والشعر والظفر.

فالمخ في جوف العظام، وفعله تركيب العظام وحفظ القوة وتليين اليبس، وفعل العظام مسك اللحم وثباته عليها، وفعل العصب ضبط المفاصل ورباطاتها كيلا تنفصل، وفعل اللحم سد خلل ذلك الجسم، ووقاية للعظام لئلَّا تنصدع وتنكسر، وفعل العروق جمع الدم فيها وجريانه إلى أطراف الجسد وتحريكه بالنبض، وفعل الدم مسك الحرارة وضبط الحياة واعتدال المزاج والحركة، وفعل الجلد الإحاطة بجميع الجسم وما فيه، وهو كالسور عليه، وفعل الظفر ضبط الأطراف ومسكها وزمها؛ لئلَّا تنكسر وتنتشر.

(٢٤) فصل ولما كان الفلك معمورًا باثني عشر برجًا كذلك وُجِد في بِنْيَة الجسد ...

ولما كان الفلك معمورًا باثني عشر برجًا كذلك وُجِد في بِنْيَة الجسد اثنا عشر ثقبًا مماثلة لها، وكما أن في النفس الفلكية في كل برج من أبراج الفلك قوًى موكلة بها، كذلك لنفس الإنسان في كل حاسة من جسمه قوى موكلة بها تصدر عنها وترجع إليها.

ولما كانت الأبراج ستة منها جنوبية وستة شمالية كذلك وُجِد للإنسان ست ثقوب في الجانب الأيمن وست في الجانب الأيسر مماثِلة لها بالكمية والكيفية جميعًا.

ولما كان في الفلك سبعة كواكب سيَّارة بها تجري أحكام الفلك في الكائنات، وبها يكون نظام الموجودات، كذلك يوجد في الجسد سبع قوى فعالة منبثَّة من النفس الإنسانية متصلة بالقوة الطبيعية بما يكون به صلاح الجسد، ولما كانت هذه الكواكب ذوات نفوس وأجسام وأفعال روحانية تفعل بما يظهر من فعلها في الموجودات من الحيوان والنبات، كذلك يوجد في جسم الإنسان سبع قوى جسمانية تفعل في الجسم ما يكون به بقاؤه

ونموه وصلاحه بمواد سبع قوًى وهي: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصوِّرة، وسبع قوًى روحانية مماثلة لقوى روحانيات الكواكب السبعة وهي القوى الحساسة، وبها كمال الإنسان وتمام أفعاله، كما أن بالسبعة الكواكب زينة الفلك وقوامه واستواء العالم الأعلى ونظامه، وهي القوة الباصرة والشامَّة والذائقة والسامعة واللامسة والناطقة والعاقلة.

والقوى الخمس تشبه الكواكب الخمسة، وهاتان القوَّتان؛ أعني الناطقة والعاقلة، مشابهتان للشمس والقمر؛ وذلك أن القمر من الشمس يأخذ نوره بجريانه في منازله الثماني والعشرين، كذلك الناطقة من القوة العاقلة تأخذ معاني الموجودات وحقائق المرئيات فتخبر عنها بثمانية وعشرين حرفًا من حروف المعجم.

ولما كان في الفلك عقدتان وهما: الرأس والذَّنَب، وهما خفيَّتا الذات ظاهرتا الأفعال، كذلك وُجِد في جسد الإنسان شيئان للمزاج: صلاح وفساد، فإذا صلح المزاج استقام أمر الجسد، وإذا فسد المزاج اضطرب الكل، وكذلك النفس إذا مالت إلى العقل صحَّت أفعالها وتخلَّصت من كدر الطبيعة، وأشرق العقل عليها واهتدت إليه وأنِسَت به، وإذا مالت إلى الطبيعة اضطربت أفعالها وقبحت أعمالها وبعدت عن علتها، وغرقت في بحار جهالتها، وانكسفت كما يكون انكساف الشمس والقمر بعقدة الذَّنَب، وما يحدث في الأرض ويكون في ذلك من الأمور الصعبة، كذلك المزاج بصلاحه يكون صلاح القوة الناطقة والقوة العاقلة إذا سلمت بِنْيَة الجسد وجرت على الأمر الطبيعي صَفَتِ النفس، وإذا صفت النفس أشرق العقل عليها وأضاء فيها، والعينان في الجسد مشاكلتان للشمس والقمر؛ إذ هما سراجا الجسد، وبهما تُدْرك النفوس صور الموجودات والألوان المرئيات بمادة إشراق ضوء الشمس والقمر، وكذلك بقية سائر الحواس، وكما أن في دوائر الفلك وبروجه حدودًا ووجوهًا ودرجات، كذلك يوجد في مفاصل الجسد وأعضاء البدن مفاصل وعروق مختلفة الأوصاف، وكما أنه ينبثُّ من قوى النفس الكلية في الكواكب السبعة والبروج الاثنا عشر روحانيات لها أفعال تختص بكل كوكب وكل برج، وأنها تنحطُّ إلى العالم مع كل لحظة ودقيقة وساعة وحركة من حركات الزمان، كذلك لنفس الإنسان في جسمه ومفاصله أفعال وأعمال تظهر منها وتبدو عنها مع كل حركة من حركاته ولحظة من لحظاته ونَفَس من أنفاسه، وكما أن نفس الإنسان متصلة متحدة محركة بحركة الجسم ما دام موجودًا بذاته قائمًا بأدواته إلى وقت مفارقتها إياه وخروجها عنه إلى ما سواه، كذلك النفس الكلية متَّحدة بالحركة الفلكية بإذن باريها وكونها على ذلك إلى المدة المقدَّرة والحكمة المدبَّرة.

(٢٥) فصل في مشاكلة جسم الإنسان للدوائر التي دون فلك القمر

رأسه يشبه دائرة الأثير، وهي النار من جهة شعاعات بصره وحركة حواسه وحرارة أنفاسه، ومِن فِيهِ إلى أصل عنقه مُشاكل لدائرة الزمهرير لمرور الماء البارد عليها وجريانه فيها كما ينزل الماء من دائرة الزمهرير إلى الأرض، كذلك من فم الإنسان يكون وصول الماء إلى جوفه وما يظهر فيه من البصاق، وما يبدو من كلامه وأصواته وزجراته ونهراته مثل الرعد والصواعق والثلوج المنحطة من دائرة الزمهرير، ومثل ما ينفخ في فمه من الهواء البارد إذا أراد تبريد الحرارة، وصدره مشاكل لدائرة الهواء وما يتصل من أنفاسه وما يسكن من رئته وما يكون من ترويح الحرارة الغريزية التي في قلبه، وجوفه مُشاكل لدائرة الماء؛ لاستقرار الماء فيه والرطوبات التي لا تفارقه، والنداوة اللازمة له، ومن سُرَّته إلى قدمه مُشاكل لدائرة الأرض لاستقراره عليه وكونه ملازمًا للأرض بسعيه فيها والذهاب والمجيء، ومن جهة أخرى رأسه كالفلك المحيط والقوى فيه كالملائكة الموكلة بالفلك المحيط.

وكما ينحطُّ من الروحانيات إلى العالم ما يكون به صلاحه فكذلك تنحط من القوة العاقلة من الرأس إلى الجسم ما يكون به صلاحها، ومثل نبات شعر رأسه مثل فلك زحل وما ينبثُّ من روحانياته وما يبدو عنه ويكون منه، ثم كذلك إلى ما دونه إلى أن ينتهي إلى فلك القمر موجود كل ذلك في بِنْيَة جسد الإنسان، وقد ذكرنا هذا الفصل بتمامه في رسالة «الإنسان عالم صغير» وقوى نفسه الخاصة بها إذا اعتدلت وعدلت عن الطبيعة إلى جهة العقل كانت كالملائكة، وصارت أفعالهم مشاكِلة لأفعالهم، فإذا فارقت الجسم صارت إليهم وقدمت عليهم، وإن عدلت عن العقل إلى الطبيعة صارت مثل الشياطين ومن حزب إبليس اللعين، وصارت أفعالها تشبه أفعالهم، وإن فارقت الجسم وهي على ذلك صارت معهم، فمستقبل الإنسان بالجنة أشبه وهو ذات اليمين، ومؤخره بالنار أشبه وهو ذات الشمال، والقفا يشبه عالم الكون والفساد؛ إذ كان ظلمةً كلُّه، وهو الظهر وما يبدو منه ويكون عنه من خروج الغائط، والوجه عامر بالحواس والأنفاس والأنوار، وهو عامر مأنوس كعمارة الأفلاك ونور السموات، كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، ولا صورة أحسن من الإنسان المليح الوجه التام الخِلْقة الكامل البنية إذا أقبل، ولا شيء أوحش من الإنسان إذا أدبر، وكذلك يوجد الإنسان بين حالتين في معيشة دنياه وما يكون به صلاح جسده وقوام نفسه وهما: الفقر والغِنَى فالغِنَى يُسمَّى إقبالًا والفقر إدبارًا.

فبالغِنى النعيم واللذة وبلوغ الغرض والشهوة، وكذلك أهل الجنة لهم فيها ما يشتهون، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وبالفقر يكون عدم المحبوبات وكثرة الهموم والأحزان والحسرة والندامة على ما يفوتهم مما يناله غيرهم من أهل اليسار.

وكذلك أهل النار لا ندامة كندامتهم على ما يفوتهم من خيرات الجنة وما يناله أهلها.

وعلى هذا المثال إذا اعتبرت بِنْيَةَ الإنسان وتأملتها وجدتها جميع الموجودات وفيها مثالات ما فيها بأسرها؛ فلذلك يسميها الحكماء عالمًا صغيرًا؛ إذ كانت مشاكلة بجميع ما فيها لجميع ما في العالم الكبير.

(٢٦) فصل وإذ قد وجدنا من وجود هذه الدوائر في جسم الإنسان ...

وإذ قد وجدنا من وجود هذه الدوائر في جسم الإنسان بما وصفناه من دائرته وثباته من تركيب بنيته، فلنذكر ما يوجد من ذلك في دائرة الحيوان التي هي تحت دائرة الإنسان:

واعلم أيها الأخ، أن الحيوان منه ما هو حَسَن الصورة مليح الأفعال حسن الأعمال، ثم ما دون ذلك حتى ينتهي إلى أقبحه في المنظر وشرِّه في المَخْبَر، وهو دوائر بعضها جوف بعض ودرجات ومنازل، والأنفس التي فيها تعمل أعمالًا مثل ما تعمل الروحانيات في عالم الأفلاك وسكان السموات، فما حسُنت صورته وأطاعت روحه وخدمت الأنفس الإنسانية وكان ساجدًا لها فهو يجوز أن يلحق بها في تفضيلها، ومنزلته من دائرته كمنزلة الملائكة من عالم الأفلاك والسموات الساجدة لربها، وكمنزلة الملوك والرؤساء من عالم الإنسان، وما قبحت صورته وعصي على الأنفس الإنسانية كان مثل إبليس العاصي المعتدي المستكبر على النبي في زمانه والحكيم في أوانه، مثل فرعون وهامان وقارون وكل مَنْ ظلم وتعدَّى وأخذ ما ليس له بحق وارتكب النهي وخالف الأمر وأصرَّ ولم يتُب.

وكذلك النبات أيضًا، يوجد فيه مثل ذلك، منه ما هو مليحٌ زهره طيِّب ريحه وثمرته باسق فرعه زكي أصله ونفعه ظاهر، ومنه ما هو بالعكس من ذلك.

وكذلك المعادن أيضًا، منها الرفيع في قدره الحسن في منظره مثل الذهب والفضة وما دون ذلك، حتى ينتهي إلى ما ينتفع به كمنفعة غيره مما تقدَّم ذكره.

وإذا كان ذلك كذلك فقد صحَّ أن الخلقة بأجمعها والفطرة بأَسْرها أفلاك حائطة ودوائر جامعة محيطة بعضها ببعض مربوطة بعضها ببعض، وأن العالم كله كجسم حيوان واحد، وجميع القوى السارية فيه نفس واحدة، والله سبحانه محيط به إحاطة إبداع واختراع وخلقة وتكوين، أوجده بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا.

(٢٧) فصل في أنك إذا تأملت هذه الآيات ...

اعلم أيها الأخ البارُّ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنك إذا تأملت هذه الآيات ونظرت إلى أفعال هذه الروحانيات، وتفكَّرت في خلق السموات والأرض وما بينهما من الرفع والخفض، ثم نظرت إلى هذا الهيكل المبني بالحكمة، وتأملت هذه الكتب المملوءة من العلوم، ونظرت إلى هذا الصراط الممدود بين الجنة والنار رجوت لك أن توفَّق للجواز عليه لعلك أن تنتبه من نوم الغفلة وتنجو من ظلمات بحر الهيولى، وتنفكُّ من أَسْر الطبيعة وترقى إلى المحل الفاخر والمكان الطاهر بحيث لا يلحقك الفساد ولا تحنُّ إلى محل الأجساد.

واعلم أيها الأخ، أن الإنسان ما دام في الدنيا فلا بد له من أعمال يعملها وأفعال يفعلها، وجميع ما يبديه من أعمال ويصنعه من أفعاله فإنما يظهر من قوى نفسه الشريفة وروحه اللطيفة، فيصنع صنائع عجيبة، ويفعل أفعالًا وينظم ألفاظًا منطقية وخُطَبًا لغوية.

وهذه أيضًا أفعال روحانية تظهر بأدوات جسمانية، والمبدية لها قوة نفسانية منبعثة عن النفس الكلية، فما كان منها موضوعًا في موضعه قائمًا في حقه فهو مشابه لأفعال الملائكة، وما كان بالعكس من ذلك مثل فعل الخطايا والشرور وقول الزور والغضب والتعدي والظلم والزنا واللواطة وما شابه هذه فمشابه لفعل إبليس والشياطين.

وقد ذكرنا في هذه الرسالة الجامعة معرفة هذه الرتب والمنازل المحمودة والمذمومة في مواضعها وأشخاصها مثل الأرض والمعادن والنبات والحيوان والإنسان، فإن آخر المعادن مربوط بأول النبات، وآخر النبات مربوط بأول الحيوان، وآخر الحيوان مربوط بأول البشر،[٣] وآخر البشر مربوط بأول مرتبة الملائكة وذلك إذا صفا،[٤] وأن هذه الدوائر فيها رُتَب متباينة مقسومة على طبقات ومنازل، وأنها تبتدئ كالنقطة وتتسع حتى تسير حائطة بعضها ببعض، وإن الباري سبحانه وتعالى جعل الموجودات كلها مشاكلة بعضها لبعض، وجعل قصد العالم كله كقصد الفلك الذي يحويه والدائرة التي تئويه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

---

[٣] لعل أنصار مذهب دارون يرون في هذا ما يؤيد رأيهم، وإن كانوا لم يجتمعوا مع إخوان الصفاء في صعيد واحد.

[٤] وليس السوبر مان أو الإنسان الجديد إلا هذا الذي أسماه إخوان الصفا إنسانًا ملكيًّا مع الفارق الكبير.

(٢٨) فصل في أن الباري سبحانه جعل شكل الفلك كريًّا

واعلم أيها الأخ، أن الباري سبحانه جعل شكل الفلك كريًّا؛ لأن هذا الشكل أفضل الأشكال الجسيمة من المثلثات والمربعات والمخروطات وغير ذلك، ولكلِّ شكلٍ من هذه الأشكال ومثَل من هذه الأمثال أفعال تصدر عنها وأعمال تكمل منها.

فأما ما تختص بالشكل الفلكي والمثَل الدوري فهي أعظم الأشكال مساحةً وأسرعها حركةً وأبعدها من الآفات والأقطار المتساوية في الوسط، ويمكنه أن يتحرَّك مستديرًا ومستقيمًا، ولا يمكن أن يوجد ذلك في شيء غيره؛ ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أنْ جعل شكل العالم مستديرًا كريًّا، والأفلاك والكواكب كذلك؛ لما تبيَّن من فضل هذا الشكل على الأشكال كلها، وكل فلك يظهر فيه من أفعاله فيما دونه بحسب سعة دائرته وضيق ما دونها عن الإحاطة، فعند ذلك تظهر فيه أفعال المرتب فوقه، وفي هذا الفعل سر يدل على حكمة المبدع سبحانه ومعرفته؛ إذ هو محيط بما خلق، فاعل فيما اخترع، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه.

(٢٩) فصل في أن فعل الشكل المستدير يظهر فيما دونه ...

واعلم أيها الأخ، أن فعل الشكل المستدير يظهر فيما دونه أكثر وأظهر من كونه فيما فوقه وما هو أوسع منه، كما أن فعل المياه الحلوة إذا انصبَّت إلى البحار المالحة فإنها لا تؤثِّر فيها لقلتها وكثرة ماء البحار واتساعها، وكذلك ضوء الشمعة إذا وردت إلى بيت فيه سراج فإنه لا يتميز الضوء السراجي من الضوء الشمعي لغلبته عليه، وكذلك ما هو أقوى وأبيَن من ضوء الشمعة إذا ورد عليها.

وعلى هذا القياس يكون فعل الشيء أبيَن وأقوى فيما دونه وما هو مرتَّب تحته، ولما كان ذلك كذلك صارت النفس غير فاعلة في العقل فعلًا يغطِّي على فعله ولا يظهر عليه، وصار العقل يفعل في النفس بالقوة والفعل جميعًا؛ لأنه يعطيها صورة التمام والكمال، ففعله إياها بالقوة كونها هيولانية موجودة في أول وجوده وإبدائه إياها بالفعل إلى حيث تكون ذات الموجودات؛ فلذلك صارت أفعاله ظاهرة فيها ودائرته محيطة بدائرتها، وكذلك فعل النفس في الطبيعة بيِّنٌ ظاهرٌ إذا كانت هي المتممة لأفعال الطبيعة والمعطية لها الحُسن والبهاء، فالعقل إذن من فعل الله؛ فهو المحيط به وبما دونه، الباهر بنوره أنوار مخلوقاته كلها؛ فهي منحصرة عن إدراكه انحصار الوقوف عن الإحاطة به، بحيث أوقفها

لا نفاذ لها من أمره ولا خروج عن حكمه، كما قال جل اسمه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، وهو المرتِّب لها مراتبها ومعطيها صور البقاء والكمال والتمام، سبحانه لا إله إلا هو رب العرش العظيم والكرسي الذي وسع السموات والأرض.

(٣٠) فصل في أن الفلك المحيط دائرته أوسع الدوائر الفلكية

والفلك المحيط دائرته أوسع الدوائر الفلكية، والأفلاك مما دونه كلها مستديرة مركبة بعضها في جوف بعض، والفلك المحيط يدور حول الأرض في كل أربع وعشرين ساعة واحدة من المشرق إلى المغرب فوق الأرض، ومن المغرب إلى المشرق تحت الأرض مثل الدولاب، وفعله ظاهر بيِّن فيما دونه من الأفلاك كلها، وهو المحرِّك لها ومعطيها ما هو موجود فيها ونازل عليها وواصل إليها وما يكون منها ويصدر عنها من الأعمال والأفعال، والنفس الكلية هي الفاعلة فيه ما يفعله والممثلة له ما يعمله، وهي المحرِّكة له ودائرتها مربوطة بدائرته حائطة به؛ فهي تدور بالشوق إليها وطلب القرب منها؛[٥] إذ هي علَّته والفاعلة فيه بأمر الله عز وجل ما يشاء.

(٣١) فصل في أن كل كوكب من هذه السبعة يدور في فلك صغير

واعلم أن كل كوكب من هذه السبعة يدور في فلك صغير مدور يُسمَّى فلك التدوير، وتلك الأفلاك أيضًا تدور في أفلاك خارجة عن المراكز، وكلها مرتبة في سطح فلك البروج المحيط بسائر الأفلاك وهو الدولاب، ولو لم يكن الفلك والأرض كُرَيَّات مستديرات لَمَا استوى هذا الدوران ولا استمرت حركات كواكبه وجَرَت أفعاله على ما ذكرنا وبيَّنَّا بهذا الوصف.

واعلم أيها الأخ، أن العالم بأَسْرِه من الجزئيات والكليات والفروع والأمهات والأنواع الكائنات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان وجميع ما على الأرض من البحار والجبال والبراري والأنهار والخراب والعمران كُرَة واحدة، والهواء محيط بها من جميع جهاتها، والزمهرير والأثير وحوادث الجو وما حوى فلك القمر حائط بها كلها.

---

[٥] لعل دورانها بالشوق هو ما يُعبَّر عنه حديثًا بالجاذبية التي يزعمون أن أنشتين هو أول مَن اكتشفها، وإن كان إخوان الصفا لم تقع لهم على أنشتين ولا على أحد من قارة أنشتين نظرة أو ما يقرب من نظرة.

وإن شكل الجبال على بسيط الأرض كل واحد قطعة قوس من محيط الدائرة، وأما الفعل المختص بالجبال مما ينحط عليها وينزل إليها من روحانيات زحل كما قدَّمنا ذكره من الثقل والرسوب والإمساك والإحالة بين مياه البحار وبين بسيط الأرض؛ لئلَّا يظهر عليها الماء فيُغْرقها، وأما ارتفاعها في الهواء في وسط الأرض وهي كالحيطان والربدات[٦] والشاذرونات لسَوْق الرياح والسحاب ما بينها إلى المواضع المفتقرة إليها لطفًا من الله بخلقه ورأفةً بعباده، وكالأسوار التي تُحصِّن ما دونها من العدو إذا أراد ما وراءها؛ وذلك أن البحار تريد أن تُغرق وجه الأرض لشدة حركات أمواجها، وأنها محصورة في أماكنها والجبال حاجزة بينها وبين الاتساع على بقاع الأرض؛ لطفًا من الله بخلقه، وبطول الجبال نحو فلك القمر ودائرة الزمهرير يكون صعود البخارات التي تتراكم الغيوم والسحاب والضباب منها، ثم يثقل وتعصرها كرة الأثير بحركاتها فتردُّ هابطة فيكون منها المطر والثلج، فإذا نزل لقيته رءوس الجبال واستقر فيها فأودعته كهوفها وحفائرها وخللها أيام الشتاء، فإذا جاء الصيف وحميت الشمس عصرت تلك المياه في الجبال وطلبت النفوذ منها والبعد عنها، فتبرز العيون وتمد الأنهار وتسقي القرى والمدن والسوادات والأراضي القحلة من شمس الصيف؛ لتُحيي وتُنبت العشب للحيوان، ويكون ذلك حياة العالم وذلك لطف من الله للجمهور.

وأما البحار فالفعل المختص بها والحكمة في كونها مالحة؛ فذلك لتمتزج ملوحتها بالهواء فتدفعه وتمزق الرطوبات وتقطع الأخلاط الغليظة، ويتصل ريحها بالعالم فتزيل عنه الوخم؛ لئلَّا يفسد الهواء فيؤدي إلى هلاك حيوان الأرض أجمع، فإذا جرت إليها الأنهار وتتابعت عليها الأمطار لا تلبث فيها؛ لأنها لا تزيدها ولكنها تعيدها إذا شربتها ومصَّتها بخارًا، وتنشأ منها غيوم وينشأ منها بخار كبخار القدر والحمامات، ويتصاعد الماء منها إلى الجو، وتنشأ منها غيوم وتتصاعد إلى أن تبلغ إلى دائرة الزمهرير، وتمضي إلى الجبال والعمران، كما قلنا، وتثقل هناك وتنحدر من هناك إلى بطون الأودية والأنهار وإلى البحار ثانيًا، كما كان في العام الأول الماضي كدولاب يدور، ذلك تقدير العزيز العليم.

فهكذا فعل الحيوان والنبات كل يفعل بحسب ما جعل فيه مبدعه ويسَّره له خالقه، وكلها تكون من هذه الأركان وتتمُّ وتكمل وتتكون وتبقى ما شاء الله تعالى، ثم تفسد

[٦] الربدات: جمع ربدة، والربدة مكان وراء البيوت يُنتفع به، والمِرْبَد: محبس الإبل والغنم، وقيل: محل الإقامة للخفارة والرباط والحراسة.

وتتلاشى وتصير ترابًا كما كانت بديًّا، ثم الله ينشئ النشأة الأخرى كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أعاذك الله، أيها الأخ، من الجهل والعمى.

وأما نحن فقد بذلنا مجهودنا في هداية الضالين وإرشاد التائهين وتنبيه الغافلين، وخاطبنا كل قوم وصنف منهم بما هو أصلح أن نخاطبهم به في رسائلنا، ولا سيما في هذه الرسالة التي بيَّنَّا لهم فيها أفعال الروحانيين، ونبَّهناهم على وجود الطبيعة وظهور أفعالها في كثير من رسائلنا بما في بعضها كفاية لمن أنصف، ولا سيما بما في رسالة السياسات وبما خاطبنا به المتفلسفين الشاكِّين، وبما قد قلنا فيما يظهر من أفعال الكواكب في هذا العالم، وما قد بيَّنَّا في عدة مذاهبهم إلى هؤلاء منهم خصوصًا نقول:

أتُراكم، أصلحكم الله، لم تقرءوا القرآن المنزَّل على لسان محمد، صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟ أو لم تسمعوا ممن يقرءونه في كل وقت — إن لم تكونوا أنتم قرأتموه — من تكرار ذكر النفس في المواضع الكثيرة؟ منها قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ هذا الخطاب إلى مَنْ يتوجَّه أيها الجاحدون لوجود النفس جملةً، المنكرون لأفعالها؟ أترونه مخاطبة لمعدوم غير موجود أو هو خطاب لموجود؟ وقال، عز وجل، أيضًا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ وقال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وآيات كثيرة في القرآن في ذكر النفس وخطابها بالتأنيث؛ ليعلم كل عاقل أنها هي شيء غير الجسد؛ لأن الجسد مذكَّر لا يخاطب بالتأنيث، وكفى بهذا فرقًا وبيانًا بين النفس والجسد، وكيف يزعم هؤلاء القوم، أصلحهم الله، أن الإنسان هو هذا الجسد المحسوس المشاهَد الموصوف بالطول والعرض والعمق؟ فقط لا شيء غيره ولا موجود معه سواه، وقد يعلم كل عاقل إذا فكَّر وتأمَّل أمر الجسد أنه جسم مؤلَّف من اللحم والدم والعروق والعصب والعظام وغير ذلك من الأعضاء المذكورة في كتب التشريح وما شاكلها، وأصله نطفة ودم الطمث ثم اللبن والغذاء، ثم إذا حضره الموت عند مفارقة النفس إياه بلي جسده إذا شاء الله كما وعد، جلَّ ثناؤه.

فأما النفس فهي جوهر سماوي نورانية حية علَّامة فعَّالة حساسة درَّاكة لا تموت، بل تبقى مؤبَّدة إما ملتذَّة وإما متألِّمة، فأنفس المؤمنين من أولياء الله وعباده الصالحين

يُعْرَج بها بعد الموت إلى فسحة الأفلاك في روحٍ وراحة إلى يوم القيامة، فإذا نشرت أجسادها ردَّت إليها لتحاسب وتجازى بها بالإحسان إحسانًا وبالسيئات غفرانًا، وأما أنفس الكفَّار والفسَّاق والفجَّار والأشرار فتبقى في عمائها وجهالتها معذَّبة متألِّمة حزينة خائفة إلى يوم القيامة، ثم تُرَد إلى أجسادها التي أُخْرِجت منها لتحاسَب وتجازى بما عملت.

والدليل على صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا قول الله عز وجل: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ وقال: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى تدل على بقاء النفس بعد الموت إما منعَّمة ملتذَّة، وإما متألِّمة معذَّبة.

وفيما ذكرنا كفاية لمن اكتفى ونصح لنفسه واهتم لما بعد الموت وتفكَّر في أمر المعاد، واستعدَّ للرحلة وتزوَّد للسفر، وزهد في الدنيا، ورغب في الآخرة قبل فناء العمر وتقارب الأجل والفوت.

وأرجو أن يكون ما قلناه كفاية في التدليل على وجود الروحانيين وأصنافهم في هذه الرسالة وفي رسالة السحر والطلسمات، فقد ذكرنا أن بعض المتقدمين زعموا أن النفوس تنقسم قسمين: أحدهما لا يسكن الجثة ولا يتعلق بالأجسام، وهو ينقسم قسمين: أحدهما خيِّر بالذات وهم الملائكة، والآخر شرير بالذات وهم الشياطين، ونفوس أخرى متعلقة بجثة الكواكب لا تفارقها ولا تصبر عنها إلا بمقدار وهي متصرفة في العالم صنفين من التصرف: أحدهما بطبائع أجسادها على ما هو مسطور في كتب أحكام النجوم والثاني بنفوسها.

ونفوس أخرى متعلقة بالأجساد لا تفارقها ولا تصبر عنها إلا بمقدار ما تفارق جثة لفسادها، ومن هذه الطبقة من النفوس نوع يسكن الجثة الإنسانية ولا يفارقها إلا كمفارقة النفس سائر أشخاص الحيوانات والنباتات، ومصيرها إلى بحر طوس لتُعذَّب هناك، إلا أن تطلب الإيقاف في الهبوط إلى مادة تصلح لسكناها وتتمكن من درك نجاتها، على ما ذكرنا بشرح طويل في رسالة علم النجوم والسحر والطلسمات.

وأما الجنس الآخر من الروحانيين المُسَمَّيْن في مواضع كثيرة بالشياطين والجن وسائر أجناس أرواح السوء فالقرآن مملوء بذكرهم أيضًا، وكتب النصارى خاصة وما يتلوهم في بِيَعهم يتكرر فيها ذكر الشياطين وأفعالهم مع المسيح، وفي الإنجيل ذكرهم في عدة مواضع، فاقرأ الإنجيل أيها الأخ، أيَّدك الله، وكتاب رسائل «قولوا من»؛ فإنك ترى فيها من هذا الفن سببًا كثيرًا لولا خوف الإطالة لذكرنا لك منها فنزيدك معرفةً بصحة ما قلنا من وجود الروحانيين وأفعالهم في هذا العالم.

وأما في القرآن من ذكر ذلك فكثير أيضًا ويطول ذكره كله، ولكن نذكر منه الآن ما يحضر ذكره في هذا الوقت؛ لتعلم أيها الأخ، أيَّدك الله، بطلان ما يقوله هؤلاء القوم في تكذيب القول بوجود الروحانيين وجحودهم لأفعالهم الظاهرة، فمن ذلك في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

فهذا القول الذي نطق به القرآن يدل على وجود إبليس الذي لا نراه بأبصارنا، ولا نرى قبيله وهو يرانا، وهو لا تدركه حواسنا مع شهادة القرآن بوجوده.

وقال عز وجل أيضًا في هذه السورة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

فكيف نكذِّب بمن هذا فعله؟ وقال فيها: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

وقال، عز ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وفيها: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾.

وفي سورة النساء: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ وفيها: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ وفيها: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وفي سورة الأنعام: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وفيها: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ إلخ. وفيها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وفيها: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾.

وفي سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وفيها: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فأي ذكر أبيَن من هذا وأقوى شهادة على وجود الروحانيين وأفعالهم العظيمة القوية.

وفي هذه السورة أيضًا: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ وفيها: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾، وأي شيء يكون من التحذير أكثر من هذا؟ وفيها: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ وفيها: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وفيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

وفي سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وفي سورة يوسف: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

وفي سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهذا من قول الشيطان عن نفسه، وأما فعله بهم فمما يجب أن يفكِّر به ويتأمَّله كل مَنْ يكذِّب به وبوجوده ويجحد أفعاله.

وفي سورة الحجر: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ وفيها: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

وفيها قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. وفي سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. وفي سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ

عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۞ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۞ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾. وفيها: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾. وفي سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. وفي سورة الحج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وهذا أيضًا من فعله حتى بالأنبياء عليهم السلام، فتلافاهم الله بنسخ ما قد فعله الشيطان لهم. وفي سورة الفرقان: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾. وفي سورة النمل: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾. وفي سورة القصص: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾. وفي سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾، ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ وفيها: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۞ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۞ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾. وفيها: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾. وفي سورة ص: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾، ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ وفيها: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾. وفي سورة حم السجدة: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾. وفي سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾. وفي سورة والذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞

إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. وفي سورة الرحمن: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ وفيها: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. وفي سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾. وفي سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وفيها: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾. وفيها: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، وفي سورة الناس: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾؛ فهذه الأقاويل كلها على كثرة معانيها وفنون ورودها وعدد جهاتها التي حكيت عنها أتراها كلها إشارات إلى معدوم وغير موجود؟ فقد ذكرنا منها ما فيه كفاية لمن اكتفى وترك المكابرة.

ثم قد استشهدنا بعدها ببعضٍ من عشرين سورة مما يدل على صحة ما قلناه فيما تقدَّم بما يكفي ويُقنع مَنْ كان منصفًا، والآن قد وجب أن نقطع الكلام في هذا؛ لأنَّا قد بلغنا منه غرضنا الذي قضيناه به، والحمد لله كثيرًا ونسأله أن يوفقنا، أيها الأخ، للسداد ويهدينا وإياك سبيل الرشاد وجميع إخواننا الكرام حيث كانوا في البلاد بمَنِّه وكرمه، وهو حسبنا وله الحمد دائمًا أبدًا كما هو أهله ومستحقه.

(تمت رسالة في كيفية أحوال الروحانيين، ويليها رسالة
في كيفية أنواع السياسات وكميتها.)

الرسالة التاسعة

من العلوم الناموسية والشرعية في كيفية أنواع السياسات وكميتها

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنَّا قد جعلنا في كل رسالة من رسائلنا فصلًا جعلناه من لُبِّها وخالصها، إذا وُفِّق له مَنْ فهمه وعمل به نال السعادة في الدنيا والآخرة، وقد لخَّصنا ما قد أوردناه في رسائلنا الإحدى والخمسين في رسالة مفرَدة عن الرسائل سمَّيناها «الجامعة»، وهي خارجة من جملة الرسائل، أوردنا فيها بيان ما أخبرناه في غيرها بأخص ما أمكننا منه، فليس تكاد تجتمع رسائلنا كلها عند رجل واحد إلا مَنْ سهَّل الله تعالى له ذلك، فعملنا تلك الرسالة لتنوب عن أخواتها، غير أن الأصوب والأجود عندنا ألَّا تُقرأ الرسالة الجامعة إلا بعد قراءة رسائلنا الإحدى والخمسين؛ فإنه إذا قرأها بعد قراءة هذه كثر نفعه وانفتح عليه ما انغلق من رسائلنا، وإن وجدها وفاتته الرسائل أو بعضها لم يخلُ من فوائدها.

وأما هذه الرسالة فقد وَسَمْناها بالسياسة والرياسة لتحمل نفسك على موجبها، وتقرأها على مَنْ يخصك من إخواننا الكرام، رحمهم الله، وتُذاكرهم في أوقات نشاطك ونشاطهم فإنك لا تخلو من فوائدها.

ونحن نأمرك أيها الأخ السعيد — بعد وقوفك على هذه الرسالة — أن تتَّبع ما أمرناك به فإنك تنال السعادة العظمى دينًا ودنيا إن شاء الله تعالى، وإنما سمَّيناه الفصل الجامع؛ لأنه جمع أصل سعادات المنافع إن شاء الله عز وجل.

واعلم أن منفعة الإنسان تكون من وجهتين لا ثالث لهما: دنيوية وأخروية، وجسمانية ونفسانية.

وإذا كملت للإنسان هاتان السياستان استحق اسم الإنسانية، وتهيأت نفسه لقبول الصور الملكية والانتقال إلى الرتبة السماوية عند مفارقة الجسد بالحال التي تسمى الموت النازل عليه والاضمحلال الواصل إليه.

وإنما جمعنا لك في هذه الرسالة وصف السياستين ليحصل لك بها الكمال في المنزلتين، فترقى بها إلى منزل السعداء في الدارين، فعليك بالاحتفاظ والصيانة له.

ونريد أن نصف لك صفة الذين يصلح أن تُلقى إليهم وتمُنَّ بها عليهم، ونختصر في ذلك بأن نقول: مَنْ كان صفته صفتك وطريقه طريقك فلا تبخل عليه؛ فإنه لا يحل أن تمنع الحكمة أهلها، بل تلقيها إليه إذ كان فصلًا جامعًا للخيرات وقولًا تكمل به السعادات وينزل على العامل بعلمه البركات.

واعلم أيها الأخ، أنه لما رأيناك متهيئًا لقبول الفوائد العقلية والصنائع العملية، واسع النفس الناطقة لقبول الفوائد العقلية والذخائر العلمية الربانية، زاهدًا في الدنيا قليل الرغبة فيها متهاونًا بما لا يهمك من لذاتها، ولمحبوباتها منصرفًا عنها متنزهًا عن شهواتها، مترفعًا عن ملاذِّها، قانعًا باليسير من قوتها، صارفًا عنايتك بكلِّيَّتها إلى صلاح نفسك الزكية وروحك الطاهرة المضيئة، تنتقل من بلد إلى بلد ومن بقعة إلى بقعة، طالبًا للعلم مشتملًا برداء الحلم، حسن العبادة كامل الزهد بأخلاق رضية وآداب ملكية ونفس أبيَّة وصورة جميلة وخِلْقة معتدلة وآلة كاملة وذهن صافٍ وخاطر مدرك وقلب خاشع وطرف دامع، وتأملناك تأمُّل مَنْ حقق فيك ظنه وصدقته عنك فراسته لما استجلاك بنور الله الذي أودعه فيك، تنظر به إلى مخلوقاته، وتحسن به قراءة آياته، كما قال الحكيم الصادق، صلى الله عليه وعلى آله: «المؤمن ينظر بنور الله.» وقال تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، ونظرناك بهذا النور الموهوب لنا المجعول أولًا في أبينا إبراهيم حتى رأى به ملكوت السموات والأرض وكان به من الموقنين، وصار وراثة تنتقل في ذريته الذين اتبعوه كما قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولما رأيناك بهذه الرؤية الصادقة بعد اجتهادك وحرصك على الوصول إلينا وشدة الطلب لنا وخلاصك من دياجي ظلمات زمان الجور وغلبة الشياطين وكثرة أعوان الظالمين وخمول الحق وانقطاع أهله بأنفسهم عن الجمهور والرعاع وتوعُّر طرقه وسبله، فكنت

من بين أهل زمانك كقادح زناد في ليلة ظلماء ذات رياح عاصفة وظلمات متراكمة وأهوية باردة، يريد الاستضاءة بنوره في طريق فُقِدَ أدلَّته واندرست معالمه وذهبت دلائله، ولم يبقَ منه إلا مسلك وعر داثر العلامات، يصعب السلوك فيه والقصد لديه إلا على أصحاب اقتفاء الآثار الخفيَّة، بمعرفة سبقت عندهم بها وعلامات وُصِفَت لهم وخفيت على الذين يريدون إطفاء نور الله بذهابها وإزالتها؛ لئلَّا تُرفع حجة الله من أرضه وتنمحي آثار حكمته.

فلما أَوْرَتْ لك الزناد بنوره ودلَّك الدليل بظهوره، حتى وصلت إلى بقعة من بقاع الجنة وروضة من رياض الأرض التي بها تُبدَّل الأرض غير الأرض يوم العرض، فيها ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾، ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ الآية، وهم على شاطئ البحر المحيط من وراء جبل قاف عند مجرِّ خط الاستواء، وهي بقعة يجمع طرفاها ما بين شعاع الشمس عند طلوعها وغروبها، يرى منها المنازل الثماني والعشرين المهيأة لمسير القمر، وهي بقعة عالية على متن جبل الأعراف، فلما تخلصت من أسفل السافلين حتى وصلت إلى أعلى علِّيين بوحدتك وانقطاعك وغربتك عن أهلك وأوطانك وأحبائك وجيرانك وأصدقائك وأخلائك، وذهاب نعيم جسمك وفقْد مالك وولدك، وصبرك على الفتن والبلوى، وركوبك مطيَّة الصبر، وسلوكك في طريق وعر، وارتقائك على جبال يصعب على غيرك طلوعها، وهبوطك في أودية لا يسهل على غيرك الهبوط فيها، فكنت ما بين جبل ترتقيه ووحش مُهلك تتَّقيه، ومَهْمَهٍ داثر شاسع تخشى أن تضلَّ فيه، فلم تزل بين شدائد متكاثفة وأهوال مترادفة كصاحب سفينة في بحر مظلم في ليل مغيم قد غاب قمره واستترت أنجمه، وعصفت به الرياح من كل جانب، وارتفعت حوله الأمواج من كل مكان، وهو صابر على ما حلَّ به يدعو إلى ربه الوسيلة إلى الخلاص والنجاة مما هو فيه؛ فهو بسكانه يدير سفينته ويتجنب بها موارد الهلكة بمعرفته وبما ألهمه الله سبحانه من العلم والعمل بما يكون به نجاته، فلم تزل تلك حاله حتى وصل إلى مكان بُغيته ومقر طمأنينته.

فلما وصلت، أيها الأخ السعيد، إلينا واطلعت علينا، وامتحنَّاك بحيث نراك كما يُمتحن مثلك ممن يصل إلينا ويرِدُ علينا، فرأيناك صابرًا نِعْم العبد لله عز وجل.

ولما رأيناك بهذه الصفة وعرفناك بهذه المعرفة لم يحِلَّ لنا ولا وسِعَنا في ديننا أن نكتمك النصيحة ولا نؤدي إليك الأمانة؛ لئلَّا ترانا بعين الخيانة، وليصحَّ عندك قول نبيك

الصادق الفاضل السيد الكامل: «سافروا تغنموا.» فتعود راجعًا بعد طول سفرك بلا غنيمة تغتنمها ولا حاجة تبلغها، فرأيناك وكان بالله توفيقنا بما رأيناه بإلهام منه لنا ووحي إلينا في رؤيا صادقة أراناها بمَنِّه، أن نجعلك داعيًا إلينا ودالًّا علينا ومبشِّرًا بظهور أمرنا وانكشاف سرِّنا من رأيته من إخواننا وأهل ملتنا؛ إذ كانوا لا يقدرون على ما قدرت عليه، ولا يصلون إلى ما وصلت إليه؛ لتعذُّر الأمور عليهم وصعوبة الزمان لديهم، والأسباب المانعة والحوادث القاطعة، وقد اخترناك لُمقامك موضعًا تسكن فيه وتأوي إليه لا تصل فيه إليك أيدي الظالمين.

(١) فصل فيما نلقيه إليك في هذا الفصل

فإذا أنت وقفت على ما نلقيه إليك في هذا الفصل فاعتمد عليه واسكن إليه، فإذا صرت إلى حيث كنت قبل وصولك إلى حيث وصلت فابْنِ لك دارًا من القناعة وشيِّد بنيانها وارفع حيطانها واجعل بابها من الزهادة، واجعل حاجبك عليها الفقر، واجعل وطاءك وغطاءك ترك القِنْيَة إلا ما تسد به الجوع وتستر به العورة.

واعلم أن هذه الدار إذا سكنتها أَمِنت من قُطَّاع الطريق واللصوص ومصادرة السلطان وحسد الإخوان، وقلَّ جارُك وبعُدَ على الناس مزارك، فإذا بنيت هذه الدار على هذه الأركان فليكن مُقامك فيها على وجَلٍ وخوف من التواني عن شيء من إقامة السياسة النفسانية، وأن تتغافل عن عمل الأعمال الناموسية، وليكن مقعدك من هذه الدار في صدرها بعد إحكامك جميع أمرها.

(٢) فصل في السياسة الجسمانية

فأما تدبيرك لجسمك فإذا اخترت العافية التي لا يصل إلى جسمك معها الأذى من الغذاء فليكن غذاؤك من الموجود غير الممتنع عليك صنفين ثالثهما الماء، إما ما ينزل من السماء أو ما ينبع من الأرض، ما تيسر لك؛ فإنك ما دمت على ذلك من قلة الأكل وترك الشبع وتعمُّد الجوع في الأوقات التي يصلح فيها استعماله، كانت طبائعك على حالها لا يزيد فيها ما تحتاج أن تَنْقص، ولا يَنْقُص منها ما تحتاج أن تزيده.

فإن كانت العوارض النازلة بالجسم ليست من قِبَل الغذاء ولا من جهة التغافل عن إصلاحها، نظرتها إن كانت من جهة اختلاف الأهوية المتصل بالجسم منها الأذى عدلتها

بما يصلح لها مما علمته من السياسة الطبية، وإن كان ذلك بموجبات أحكام النجوم وما قُدِّر فيها اطمأنت نفسك وحسُن الصبر بك ولم تتهم نفسك أن الأذى دخل على جسمك من جهة تفريط في الغذاء ولا إكثار من الأكل والشرب.

واعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم، أنك إذا لم تحمل على جسمك من المآكل والمشارب والباءة والحركة إلا معتدلًا لازمتك العافية وعدمتَ الأسقام، ومع ذلك فاعلم أن الأسقام والآلام لا تدخل على الأجسام إلا بموجب حركة نجومية ومقادير سماوية، وكذلك زوالها، وإنما صار ذلك مقدَّرًا على الأجسام من أجل أنها ليست هي الذات الباقية ولكنها ذات فانية؛ فلذلك وصل إليها التغيير والاضمحلال والتقلُّب والزوال، وأكثر الناس إذا نزلت الآلام والأسقام اتهموا فيها نفوسهم من كثرة ما يستعملون من المآكل والمشارب، فيكثر غمُّهم وتدوم حسرتهم حتى إنهم اتخذوا أنفسهم أعداء لهم يرجعون عليها باللوم والتأسف على ما فرط منهم، فيكون ذلك أدوم لحسرتهم وأطول لعلتها.

وإذا أنت تيقنت ذلك سكنت نفسك وطاب لها الصبر على الأسقام النازلة والأعلال الواصلة إلى الجسم، واجعل أكثر شوقك إلى الخلاص من هذه الدار ومفارقة هذا السجن؛ لأنك إذا خرجت منه قدمت على ربك.

واعلم أيها الأخ، أنك لا تقدم على ربك ولا تصل إليه وصولًا يجازيك به مجازاة مَنْ يستحق الثواب وأنت على هذه الحال.

فإذا تحقق عندك ذلك هان الموت عليك فتمنيته وطابت نفسك، فإذا حدثت تلك العلل والعوارض المحللة لتركيب الجسد بموجب الأحكام المقدَّرة، ولم ترَ لنفسك في ذلك أمرًا وصل ذلك إليك من جهته فليس بموصله إليك إلا الحكم المراد به صلاحك وخلاصك ونجاتك، فتفرح بذلك ولا تحزن كما يحزن الممتحَنون في أنفسهم بأجسامهم، وفي أجسامهم بأنفسهم، إذا نزلت بهم الأعلال والأمراض، فيكثر خوفهم ويدوم حزنهم فزعًا من الموت، وهم يعلمون أنه لا بد ملاقيهم، فحسرتهم لا تنقضي وغمُّهم لا يفنى، قد اشتغلوا بصلاح أجسامهم وأمر دنياهم عن صلاح أنفسهم وآخرتهم، فهم مستعجِلون نعيمًا زائلًا وسقمًا إليهم واصلًا، فهم لا يخفَّف عنهم من عذابها، ولا يُقْضَى عليهم فيموتوا موت اليأس منها والانقطاع عنها.

فإذا علمت ذلك وتدبَّرته وفهمته جعلته أمامك في سياسة جسمك وتدبير جسدك؛ فهذه سياسة يختص بها جسمك الكثيف الذي ليس له مقر إلا في الدنيا، ولا مكانٌ إلا في الأرض، ولا صفةٌ إلا الطول والعرض والعمق وما يحويه وما يحيط به.

واعلم أنه محمول لا حامل، كما ظنَّ كثير ممن لا علم عندهم ولا معرفة معهم أن الجسم حامل النفس، وأنها زبدته وصفوة طبائعه، وأنها تقوى بقوة الغذاء وتضعف بضعفه، وليس الأمر على ما ظنوا ولا القضية كما توهَّموا، وإنما النفس حاملة للجسم وأعراضه، وهي الذاهبة به في الجهات التي يجب لها، وهي معه تُدبِّره في مجيئه وذهابه، وبها يستقر على ما يجانسه ويشاكله من الكثائف، إما في جهة من الجهات الأرضية من هبوط إلى أسفل بحيث يكون له ثبات القدمين في الهبوط، وإما طلوع إلى فوق بحيث يمكنه مثل ذلك، وإما استواء طيران في الهواء وطلوع إلى السماء؛ فإنها لا يمكنها بهذه الطينة الكثيفة ترقِّيها إلى هناك، بل يمكنها الصعود بمجردها إذا تخلصت منه وانفصلت عنه.

وذلك أن السفينة في البحر المُحكَمة الآلة المُتقَنة الأداة تمر فيه بمن يرُبُّ أمرها ويُصْلح حالها، ومع ذلك فإنها لا تسير إلا بهبوب الرياح القائدة لها إلى الجهة التي يختار صاحبها، وإذا سكنت الريح وقفت السفينة عن ذلك الجريان، كذلك جسد الإنسان إذا فارقته النفس لا تتهيأ له تلك الحركة التي كان يتحرك بها مع النفس، ولم يعدم من آلته شيئًا، ولا ذهب منه عضو من الأعضاء إلا ذهاب الروح منه فقط، والبرهان أن الريح ليست من جوهر السفينة ولا السفينة حاملة بل الريح محرِّك لها.

فإذا صحَّ أن الريح محرِّكة للسفينة وليس من جوهر السفينة، ولا تقدر السفينة ومَنْ فيها على استرجاع الريح بعد ذهابها بحيلة يعملونها أو صنعة يصنعونها، كذلك ليست الروح من جوهر الجسم، ولا الجسم حامل للروح، ولا يقدر أحد من العالم على استرجاع النفس إذا فارقت الجسم.

فيا ليت شِعْري كيف يفسد هذا البرهان إلا بمكابرة العيان؟ فإذا تحققت ذلك وعلمتَ أن جسدك إنما هو سفينة مُعَدَّة لهبوب الرياح ونزولها عليها علمتَ أن هلاك السفينة — إذا هلكت — يكون من حالين: إما بفساد من جهة جِرْمها وانحلال تركيبها فيدخل الماء ويكون ذلك سبب غرقها وهلاكها وهلاك مَنْ فيها إن غفلوا عنها ولم يتداركوها بالإصلاح والتفقد لها، كهلاك الجسم من غلبة إحدى الطبائع متى تهاون صاحبه وغفل عنه، كذلك النفس لا تبقى مع الجسد إذا فسد مزاجه وتعطَّل نظامه وضعفت آلته، كما لا يتهيأ للريح أن تعود للسفينة كما كانت تسوقها قبل غرقها، والريح موجودة في هبوبها غير معدومة من الموضع الذي كانت السفينة فيه قبل هلاكها، كذلك النفس باقية في معادها كبقاء الريح في أفقها بعد تلف الجسم، وإنما يكون الغرق للمركب بفساد آلته وهلاك الجسم بفساد مزاجه وغلبة طبائعه.

وأما القسم الثاني فهو أن يكون المركب هلاكه بقوة الريح العاصف الهابَّة الوارد منها على السفينة ما ليس في وُسع آلتها حمله ولا القدرة عليه، فتضعف الآلة وتنكسر الأداة، فإن كان مَنْ فيها من أهلها عارفين موجب ذلك الأمر من نزول ذلك العاصف وأنه بموجب المقدار اطمأنت نفوسهم وسلَّموا إلى ربهم، ووعظ بعضهم بعضًا وصبروا على ما نالهم، فإن زاد بهم الأمر حتى يبطح السفينة ما يكسرها ويكون منهم ما قضى، كانوا مطمئني النفوس ولا يتهمونها أنما أصابهم ذلك لتفريط وقع منهم، كذلك الأحوال العارضة للجسم من جهة الأحكام الفلكية والحركات النفسانية المنبعثة أولًا من النفس الكلية التي تذهب بالأجسام وتهدمها لا دواء للمعالج والطبيب ولا للمريض أيضًا.

فأما الصبر عليها وقلة الجزع منها إلى أن تزول أو يكون بها الانتقال إلى دار المعاد، فأحق ما صُبر عليه وأولى ما استُجيب له.

وبهذا الاعتقاد صح أن النفس هي جوهر غير الجسم، وأنها هي الحاملة له المبتلاة به، فإذا تصورت ذلك وصحَّ عندك وتمَّ لك العمل بهذه السياسة فقد استراحت نفسك من الهم والغم من أجله وبسببه.

(٣) فصل في السياسة النفسانية

فتكون أخلاقك رضية وعاداتك جميلة وأفعالك مستقيمة، تؤدي الأمانة إلى أهلها كائنًا مَنْ كان من ولي وعدو، وتأخذ نفسك بحفظها وترعى حق مَن استرعاك حقها، وتُحسِن مجاورة جارك وتُصفي مودة صديقك، وتُخلص المحبة لمُحبِّك، مع قلة الطمع وإزالة الفزع في مستعجل زائل وحادث نازل، وتريد للغير ما تريد لنفسك، فقد جاء في كلام بعض الناس: «إن المؤمن لا يكون مؤمنًا حقًّا حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه.»[١] وليس هذا من جيد الكلام، وإنما قال الحكيم الفاضل عليه السلام: إن المؤمن لا يكون مؤمنًا حتى يرضى لغيره ما يرضى لنفسه،[٢] وهذا من شريف الكلام.

[١] ما زعمه كلامًا لبعض الناس هو حديث صحيح عن النبي ﷺ ونصه: «اتَّقِ المحارم تكن أعبَد الناس، وارضَ بما قسم الله تكن أغنى الناس، وأَحْسِن إلى جارك تكن مسلمًا، وحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا.»

[٢] وهذا أيضًا حديث صحيح عن النبي ﷺ لكن صحة الرواية: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.» وفي روايةٍ: للناس، بدل أخيه، وزِيد في رواية أخرى: «ويكره لهم ما يكره لها.»

وسبيلك أن تعوِّد نفسك عمل الخير لأنه خير، لا تريد بفعلك عوضًا، ولا يحملك على فعله خوف، فمتى فعلت لطلب المكافأة لم يكن خيرًا، وإن لم تطلب المكافأة وإنما أردت الذكر والاسم كنت أيضًا منافقًا ولم يكن خيرًا، والمنافق لا يستأهل أن يكون في جوار الروحانيين.

وأما سياسة الأهل من الإخوة والزوجة والأولاد والعبيد ومَنْ يجري منك مجراها في النسبة الجسمانية فيجب عليك أن تسوسهم سياسة لا اختلاف فيها، وتُجريهم على عادة لا تعدل عنها إلا بموانع مانعة وأسباب قاطعة؛ لئلَّا ترجع باللوم على نفسك إذا جنوا عليك وتغيروا عما كنت تعهده منهم وتعرفه فيهم بحسب تغيُّر سياستك واختلاف عادتك، فتنسب التفريط إلى نفسك فيكثر غمُّك ويبدو همك، فإذا سسْتهم سياسة أَلَّفْتهم إياها ورتَّبتهم عليها استراحت نفسك، مع أن الأحب إلينا والآثَر عندنا الانفراد والوحدة، ولكن لا يكاد يتهيأ ذلك لجميع إخواننا ولا نأمرهم به أيضًا؛ لئلَّا ينقطع الحرث والنسل.

وإذا فعلت ذلك أحكمت سياسة الأهل وخصوصًا النساء، فأكثِرْ تفقُّد أحوالهنَّ في كل وقت فإنهنَّ سريعات التلوُّن كثيرات التغير، يتغيرن مع الساعات ويضطربن على الأوقات، فيكون صفحك إليهنَّ كثيرًا ومن غير شعار منهنَّ أن تكون مراعيًا أحوالهنَّ، ولا يغررك منهنَّ صلاحٌ تعرفه فيهنَّ؛ فقد أنبأناك أن تلوُّنهنَّ كثير، وإن استفسادهنَّ سهل يسير إلا مَنْ عصمها الله تعالى منهنَّ، وقليل ما هم.

وأما أولادك وغلمانك وحواشيك فإياك أن تُظْهر لهم فاقة بعد أن تقوم بواجبك المفروض عليك؛ فإنه متى ظهر لهم منك اختلال أو حاجة نقصت منزلتك وقصر موضعك، فلم يقم لك وزن ولا قامت لك هيبة، ولا حاجة بك إلى أن تكشف فاقتك إلى مَنْ لا يزيد شكواك إلا ذلًّا ومهانة، بل ضع عذرك عند كل واحد منهم على وجه لا تُنْسَب معه إلى فاقة، وقف فهو أعوَد وأصلَحُ.

(٤) فصل في سياسة الأصحاب

اعلم أيها الأخ، أن سياسة الأصحاب لا تكون إلا بعد المعرفة بهم والاطلاع عليهم ومعرفة أحوالهم، ألَّا يخفى عليك من أمرهم صغيرة ولا كبيرة؛ لتسوس كل واحد منهم السياسة التي تليق به دنيا ودينًا.

واعلم أنك متى كنت جاهلًا بمعرفتهم لم تتم لك سياستهم ولم تبلغ رضاءهم ولم يكونوا لك أصحابًا، أوَمَا علمتَ أن صاحب الناموس لا يصاحب إلا مَنْ عرفهم وخبرَهم

فاطلع عليهم اطلاع الإحاطة بهم؟ واحرص أن تباعِد بين معرفتهم بك وبينهم؛ لئلَّا يطَّلعوا عليك كما اطلعت عليهم فيأتوك من حيث أَمِنت؛ لأنه ليس كل مَنْ صاحبك يحق لك أن تثق به ولا تطمئن إليه؛ لأن كثيرًا ممن يصحب الأنبياء إنما تكون صحبتهم لهم لوقوع الحيلة بهم، ومرادهم منهم الاطلاع على أسرارهم ليكشفوها ويُظْهروها لمن لا يعرفها وهم المنافقون.

فيجب أن تُظْهِر لهم القرب بالبعد، واللين بالغلظة، والأُنْس بالوحشة، والكرم بالشحِّ، والانبساط بالانقباض، والرحمة بالسخط، والوعد على الجميل، والوعيد على الذنب، وقبول التوبة باللين، والموعظة بإلقاء العلم إليهم بمقدار ما يحتملونه وبحسب ما يستوجبونه، ولا يكون اعتقاد أهلك وذريتك وأزواجك وبنيك مخالفًا لما يظهر من اعتقادك لأصحابك وإخوانك، فمتى لم يكن كذلك فلا أهل لك ولا أصحاب ولا دين ولا دنيا ولا علم ولا عمل، وكيف يجوز للعاقل العالم أن يكون له أهل يتديَّنون بدين ويذهبون إلى مذهب هو يأمر أصحابه بخلافه؟ بل الواجب عليه أن يكون أهله وأصحابه بمنزلة واحدة عنده في التعليم، ولا يخص أصحاب النسب الجسداني بما لا يبديه لأهل النسب الروحاني، بل يجمعهم معًا في طريق واحد ويلقِّنهم التعاليم والمعارف والعبادات والفرائض، فيأخذ كل واحد منهم بحسب قوته واستطاعته، فإنْ عدل واحد من أهله وأقاربه إلى الضد مما هو عليه وخالفه بعد تبرُّئه منه وأخرجه من جملته كما فعل رسول الله ﷺ بعمه أبي لهب وقال: «يا بني هاشم، لا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم؛ فإني لا أُغْنِي عنكم من الله شيئًا إلا بعمل صالح.» وكما قال تعالى حكاية عن إبراهيم خليله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، ويكون يراعي أهل الذكاء والفطنة ومَنْ يقصد الأغراض التي يريدها بكلامه ويومئ بها في إشارته ومخبآت جواهره في تقاطيع أمثاله ونوادره، فإذا عرفهم ميَّزهم بنظره وألقى القول إليهم في الاعتماد عليهم في تهذيب مَنْ دونهم حتى يوصلوهم إلى مثل ما وصلوا إليه.

فإذا أحكمت هذه السياسة في الأصحاب والأهل الأقرب فالأقرب والأبعد فالأبعد، فأَحْكِم أمر العبادة والقرابين المقرَّبة إلى الله سبحانه والأعمال المزدلفة لديه.

(٥) فصل في القرابين

فنذكر الآن العبادة والقرابين، وهي نوعان لا ثالث لهما، قربانان مقبولان صادقان ودعاءان مستجابان، وها هنا قربان غير مقبول ودعاء غير مستجاب، وهو ما أخبر الله عنه أن ولدَي آدم قرَّبا قربانًا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر، ودعاء الكافر الذي هو في تبابٍ لا يُقْبَل.

فأما العبادتان: فإحداهما الشرعية الناموسية باتباع صاحب الناموس والانقياد إلى أوامره ونواهيه، والمسارعة إلى ما جاء به وقضاه وحكم به على من استجاب إليه وتقرَّب إلى الله سبحانه وتعالى بما ذكر أنه رضيه من القرابين والعبادات والطهارات والصلوات والصوم والزكاة والحج والجهاد، والسعي إلى البيوت العامرة والبقاع الطاهرة، والإقرار بكتب الله ورسله وملائكته ووحيه، وما شاكل ذلك في موجبات أحكام الشرائع، وإقامة النواميس والامتثال للأوامر والنواهي، والنظر إلى أفعال النبي ﷺ والاقتداء بأفعاله والتشبُّه به في جميع أفعاله، كما قال الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، والتضرع إلى الله سبحانه بالدعاء والابتهال في وقت الاجتماعات في الأعياد والجمعات وعند ظهور الآيات؛ فهذا هو الدعاء المستجاب والقربان المتقبَّل.

وأما العبادة الثانية فهي العبادة الفلسفية الإلهية، وهي الإقرار بتوحيد الله عز وجل، وقد تقدَّم ذكرها في صدر الرسالة الجامعة في شرح رسالة الأرثماطيقي نقف عليه إن شاء الله.

وأما الدعاء والقربان المقبول المستجاب، فاعلم يا أخي أنك متى كنت مقصِّرًا في العبادة الشرعية فلا يجب لك أن تتعرَّض لشيء من العبادة الفلسفية وإلا هلكت وأهلكت وضللت وأضللت؛ وذلك أن العمل بالشريعة الناموسية والقيام بواجب العبادة فيها، ولزوم الطاعة لصاحبها عليه السلام، والعمل بالعبادة الفلسفية الإلهية إيمان، ولا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يكون مسلمًا، والإسلام سابق على الإيمان كما قال الله تعالى على لسان رسوله ﷺ مخاطبًا الأعراب المنافقين من أهل الشريعة الذين كانوا يُظْهِرون الإيمان ويكتمون النفاق: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وإنما تخصص أصحاب الرسول عليه السلام، بعده بالصبر الذي رأوه كان يستعمله في العبادة والطاعة لربه فرضًا على نفسه وتعليمًا لأصحابه، فقام بالأمرين وكمَّل المنزلتين وحاز الفضيلتين؛ لأنه كان عليه السلام، مسلمًا مؤمنًا عارفًا بالدعاء في

وقت الإجابة؛ ولذلك كان لا يُرَد له دعاء، وكان إمامًا للمسلمين والمؤمنين عارفًا بالفلسفة الإلهية.

ولما تمَّت الفضيلة لواحد من أهله وأصحابه قال مفتخرًا: «أنا أرسطاطاليس هذه الأمة».

واعلم يا أخي أن اقتران العبادة الشرعية بالعبادة الفلسفية صعب جدًّا؛ لأنها موت الجسد في أقرب الأوقات، وحصر النفس عن الأمور المحبوبة بأَسْرِها، وترك الرخصة في كل شيء منها والوصول إلى إدراك حقائق الموجودات بأسرها.

ونريد أن نشرح لك طرفًا منها فتحصل لك رتبة من الدرجة الأولى وهو شبه المدخل والمقدمة لك، لعلك تقوم بشيء منها فيحصل لك رتبة من الدرجة من حد العبادة والدعاء في الأوقات المستجاب فيها مَنْ يدعو بذلك.

(٦) فصل في أن أفضل الدعاء في السُّنَّة الشرعية …

واعلم أيها الأخ، أن أفضل الدعاء في السُّنَّة الشرعية والديانة الإسلامية في ليلة القدر، وبعدها عيد الفطر، وعيد الأضحية، ويوم النحر، وعند البيت الحرام، وبين الركن والمقام، وعند معاينة هلال الفطر، وعند بذل الزكاة لمستحقها، ودعاء مَنْ يأخذها في وقت أخذها وطلبه إياها، فإن هذا دعاء مستجاب وقربان متقبَّل.

وأما العبادة الفلسفية الإلهية فإن أول درجة منها — وهي التي كانت الفلاسفة القدماء والأجلَّة العلماء يأخذون بها أولادهم وتلامذتهم بعد تعليمهم أحكام السياسات الجسمانية والنفسانية والعبادات الناموسية الشرعية — أن يكون لهم في كل شهر من شهور السنة اليونانية — على عدد التاريخ المعروف إلى حيث ينتهي مَنْ أراد الاقتداء بتلك السنة — ثلاثة أيام في كل شهر: يومٌ في أوله ويومٌ في وسطه ويومٌ في آخره.

فأما اليوم الأول من الشهر فيجب له أن يتطهَّر أنظف طَهور ويتبخَّر بأطيب ما يقدر عليه من البخور، ولا يفرط في طهارته وصلواته المفروضة عليه في شريعة الناموس، فإذا انقلب من محراب صلاة عشاء الآخرة جلس يسبِّح الله ويقدِّسه ويهلِّله ويكبِّره إلى أن يمضي من الليل الثُّلُث الأول، ثم يقوم ويجدد الوضوء ويسبغ الطهارة ليكون طهور على طهور ونور على نور، ويَبرز من بيته إلى أن يحصل تحت السماء بحذاء الجَدْي وهو النجم الذي يُهْتَدى به. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فيتأمَّل الكتاب المبين، ويتدبَّر آياته ويرى الملكوت دائمًا وهو يسبِّح الله ويقدِّسه ولا يدع التكبير والتهليل؛

ليكون من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. ولا يزال كذلك حتى يذهب من الليل الثُّلُثان فيكون الثُّلُث الأول قيامًا بعبادة الناموس، والثُّلُث الثاني قيامًا في التفكر في الملكوت.

فإذا زال أوان الثلث الأوسط هبط إلى الأرض ساجدًا بتذلُّل وخضوع لباريه، فلا يزال كذلك ما قدر عليه ثم يرفع رأسه ببكاء واستغفار وتوبة واستعبار، فيعدِّد ذنوبه على نفسه وينوي التوجُّه بحسناته وصالح أعماله، ويدعو بالدعاء الأفلاطوني والتوسُّل الإدريسي والمناجاة الأرسطاطاليسية المذكورة في كتبهم، فلا يزال كذلك حتى يبدو الفجر فيقوم فيُسْبغ الوضوء ويتطهَّر فيرجع إلى محرابه فيصلِّي صلاة الفجر، ويجلس في مكانه إلى أن تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس وأقبل أول النهار ذبح بيده — إن كان ممن قد اعتاد ذلك — ما قدر عليه من محلَّل الحيوان، ويأمر بإصلاح ما كان من الطعام، ويأذن لأهله وإخوانه بالدخول عليه والوصول إليه، ويُحْضر ذلك بين أيديهم، فإذا فرغوا من طعامهم حمدوا الله جل وعز اسمه، وشكروه، وخرُّوا له سُجَّدًا شكرًا له بما مَنَّ عليهم، ثم يُخْرِج إليهم من الحكمة بحسب ما يوجبه الزمان ويسعه المكان، ولا يزالون كذلك بقية يومهم إلى الوقت من عشاء الآخرة فيرجعون إلى منازلهم ويتصرفون في معايشهم، ويقومون بواجبات أحكام أديانهم إلى اليوم الثاني: وهو ليلة البدر، إذا استكملت استدارته وتمَّت أنواره فيه في تلك الليلة وصبيحة ذلك اليوم كما فعل في اليوم الأول وأزيَد قليلًا، ثم كذلك إلى وقت الانصراف بعد العشاء الآخرة من غد ليلة، ثم في آخر الشهر وهو اليوم الخامس والعشرون من شهره بينه وبين أول الشهر الجديد المستقبل خمسة أيام، ويكون لمن اقتدى بهذه السُّنَّة في السَّنَة ثلاثة أعياد.

(٧) فصل في العيد الأول يوم نزول الشمس برج الحمل

العيد الأول يوم نزول الشمس برجَ الحمل؛ وذلك أنه في هذا اليوم يستوي الليل والنهار في الأقاليم، ويعتدل الزمان ويطيب الهواء ويهبُّ النسيم ويذوب الثلج وتسيل الأودية وتمدُّ الأنهار وتنبع العيون، وترتفع الرطوبات إلى أعلى فروع الأشجار، وينبت العشب ويطول الزرع وينمو الحشيش ويتلألأ الزهر وتورق الأشجار وتكمل الأنوار، ويخضرُّ وجه الأرض، وتتكوَّن الحيوانات ويدبُّ الدبيب، وتنتج البهائم وتدرُّ الضروع وتنتشر الحيوانات في البلاد، ويطيب عيش أهل البر وتأخذ الأرض زُخْرفها وتصير كأنها فتاة شابة طريَّة، فيجب أن يكون ذلك اليوم عيدًا يظهر فيه الفرح والسرور.

وكان الحكماء في هذا اليوم يجتمعون ويجمعون أولادهم وشبان تلامذتهم بأحسن زينة وأنظف طهور إلى الهياكل التي كانت لهم، ويذبحون الذبائح الطيبة الطاهرة، ويضعون الموائد ويُكْثرون البقول والألبان والحبوب مما تنبته الأرض، فإذا أكلوا وفرحوا أخذوا في استعمال الموسيقى بالنقرات المحرِّكة للأنفس إلى معالي الأمور والنغمات اللذيذة بتلاوة الحكمة ونشر العلم، فيكون بذلك راحة النفس وكمال الأُنْس فلا يزالون كذلك بقية يومهم ثم ينصرفون إلى أشغالهم.

ولهذا اليوم اسم باللغة اليونانية معروف عندهم، وهو اليوم الذي نزلت فيه الشمس رأس الحمل نوء الربيع.

(٨) فصل في العيد الثاني

فإذا نزلت الشمس أول السرطان فإن ذلك اليوم العيد الثاني نوء الصيف، وفيه يتناهى طول النهار وقِصَر الليل، وانصراف الربيع ومجيء الصيف، واشتداد الحر وهبوب السمائم، ونقصان المياه ويبس العشب، واستحكام الحَبِّ وإدراك الحصاد والثمار، فيكون ذلك عيدًا لاستقبال زمان جديد تابع للزمان الأول.

وكانت الحكماء تجتمع فيه إلى الهياكل المبنية لذلك اليوم؛ لأنهم كان لهم لكل عيد هيكل لا يدخلونه بذلك الزي إلا في يوم مثله؛ فيدخلون الهيكل المبني ويلبسون الذي يليق بطبيعة ذلك البرج، وكذلك ما يكون يستعملونه من الطعام والشراب وما كان من الثمار الآتي بين التيبيس والترطيب في الطبقة الأولى، فإذا قضوا ما يجب عليهم في ذلك اليوم انصرفوا، فلا يجتمعون إلى العيد الثالث، وهو يوم نزول الشمس رأسَ الميزان.

(٩) فصل في العيد الثالث

فإذا نزلت أول دقيقة من برج الميزان استوى الليل والنهار مرة أخرى، ودخل الخريف وطاب الهواء وهبَّت رياح الشمال وتغيَّر الزمان، ونقصت المياه وجفَّت الأنهار وقلَّ ماء العيون وجفَّ النبات، فيكون ذلك اليوم أيضًا يوم عيد، فيدخلون إلى الهيكل المبني لذلك اليوم، ويكون استعمالهم من الأكل ما يوافق طبيعة ذلك اليوم والزمان، ومن نشر العلم ما لاق به، ولا عيد لهم بعده إلى أن تبلغ الشمس آخر القوس أول الجَدْي.

(١٠) فصل في العيد الرابع

العيد الرابع: يتناهى طول الليل وقِصَر النهار، ويأخذ الليل في النقصان والنهار في الزيادة، وينصرف الخريف ويدخل الشتاء، ويشتد البرد ويسخن الهواء، ويتساقط ورق الشجر ويموت أكثر النبات، وتنحجر الحيوانات في أعماق الأرض وكهوف الجبال من شدة البرد، فإذا كثرت الأنداء ونشأت الغيوم وأظلم الهواء وكلح وجه الزمان وهزلت البهائم وضعفت قوى الأبدان، ومُنِعَ الناس التصرف والاجتماع بعضهم من بعض، ويمر عيش أكثر الحيوان، وكانت الحكماء تتخذ هذا اليوم يوم حزن وكآبة وندم واستغفار، وكانوا يصومونه ولا يفطرون فيه.

وإذا تأملت أيها الأخ هذه الأيام الثلاثة في السنة الفلسفية التي اتخذوها أعيادًا وأفراحًا، وكان فرحهم الأكبر في الأول منها، ودونه في الأوسط، ودونه فيما يليه، وفي الآخر يوم حزن وكآبة إلى أن يُسْتَأنف الدور الآخر عند رجوع الشمس إلى أول برج الحمل، وإذا أنعمت النظر إلى أعياد الشريعة الإسلامية وجدتها موافِقة لها؛ وذلك أن نبينا، عليه السلام، سَنَّ لأمته في شريعته ثلاثة أعياد: فالأول منها يوم عيد الفطر، وهو أعظم فرح يكون بخروج الناس من شدة الصوم إلى الفطر كفرح أهل الأرض بقدوم الربيع والخصب بعد ذهاب الشتاء، ثم عيد الأضحى وهو يوم تعب ونَصَب؛ لأنه يوم الحج فيكون الوفد الشرعي فيه شُعْثًا غبرًا، ويحتاج فيه إلى إراقة دم، ويكون فرحًا ممزوجًا بغم ونَصَب، فيكون الفرح دون الفرح الأول، كفرح الفلاسفة بالعيد الثاني من سنتهم؛ إذ كانوا يستقبلون الهجير والرمضاء والسمائم وشدة الصيف.

واليوم الثالث في السنة الشرعية يوم وصيته عند انصرافه من حجة الوداع بغدير خُم، وفرحه ممزوج؛ لأنه خالط ذلك بنكث وغدر، موافقًا للعيد الثالث الفلسفي المتقلِّب فيه الزمان من الصيف إلى الخريف فتناهي حال الثمار وأخذها في النقصان والجفاف.

واليوم الرابع هو يوم الحزن والكآبة؛ فهو يوم قُبِضَ فيه النبي ﷺ إلى رضوان الله ومحل كرامته، صلى الله عليه وآله، وإن كان عيدًا له؛ لِما وعده ربه تعالى بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ فهو بانتقاله إلى جوار الله وكريم فنائه عيد له، غير أنه مشوب بمصاب أمته وانقطاع الوحي وفقدهم شخصه الكريم.

واعلم أيها الأخ، أنَّا جماعة إخوان الصفاء أحق الناس بالعبادة الشرعية ومراعاة أوقاتها وأداء فروضها ومعرفة تحليلها وتحريمها؛ لأنَّا أخصُّ الناس بها وأولاهم بحملها، وأقرب الناس إلى مَنْ جاءت على يديه وأَولاهم به، وأحق الناس أيضًا بالعبادة الفلسفية

الإلهية والقيام بها والأخذ لها والتجديد لما دثر منها، فإذا أكملنا ذلك كانت لنا سنة ثالثة تتميَّز بها وتتخصَّص بعلمها، ولنا أيضًا ثلاثة أيام نتخذها أعيادًا ونأمر إخواننا بالاجتماع فيها والسعي إليها.

واعلم أيها الأخ، أن أعيادنا هذه ليست تشابه أعياد الفلسفة ولا الشريعة في الحقيقة لكن بالمثل؛ لأن أعيادنا ذاتية قائمة بذواتها، تظهر الأفعال عنها وبها وفيها، وهي ثلاثة أيضًا: أول وأوسط وآخر والرابع أصعبها عملًا وأشدها فعلًا. وأمثال هذه الأيام الأربعة التي ذكرناها ووصفناها في الزمان بالحركات الفلكية وموجبات أحكام النجوم: الربيع والصيف والخريف والشتاء، وفي الشريعة المحمدية والملة الهاشمية: عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد الغدير ويوم المصيبة به صلوات الله عليه، وفي الشريعة الفلسفية نزول الشمس الحملَ والسرطان والميزان والجَدْي في الصورة الإنسانية أيام الصبا وأيام الشباب وأيام الكهولة وأيام آخر العمر … به ذهاب الشخص ومفارقة الجسم للنفس؛ ولذلك يبكي عليه ويكون عند أهله الهم والحزن والأسف على فقده، كما حزن أهل بيت النبوة لما فقدوا سيدهم وغاب عنهم واحدهم، وتُخطِّفوا من بعده وتفرَّق شملهم وطمع فيهم عدوهم واغتُصِبوا حقهم وتبدَّدوا، ثم خُتِمَ ذلك بيوم كربلاء وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ من الشهداء ما افتضح الإسلام به.

ومن قبله ما أنال أحقَّ الناس بما قاسى أولادهم بالأمر من بعده ثم من بعد غيبة صاحب الشريعة ﷺ قُتِلَ من بعده من أجلَّة أصحابه المساعدين له في إقامة الناموس معه؛ مثل صِدِّيقه وفاروقه وذي النورين، وما تواتر على أهله وأقاربه من المصائب، فصار ذلك سببًا لاختفاء إخوان الصفاء وانقطاع دولة خلان الوفاء، إلى أن يأذن الله بقيام أولهم وثانيهم وثالثهم، في الأوقات التي ينبغي لهم القيام فيها إذا برزوا من كهفهم واستيقظوا من طول نومهم.

واليوم الرابع يكون فيه حزنهم لغيبة سيدهم كما غاب أبوهم صاحب الناموس، وما كان من الحزن والكآبة الواقعة بهم من بعده.

فأعيادنا، أيها الأخ، هي أشخاص ناطقة وأنفس فعَّالة تفعل — بإذن باريها — ما يوحيه إليها ويُلْهمها من الأفعال والأعمال؛ فاليوم الأول من أيامنا والعيد الفاضل من أعيادنا هو يوم خروج أول القائمين منا، ويكون اليوم الموافق له لنزول الشمس برجَ الحمل لمجيء الربيع والخصب والنعمة ونزول الرحمة والظهور والانتشار، وهو يوم فرح وسرور لنا ولجميع إخواننا.

واليوم الثاني هو يوم قيام الثاني الموافق يوم قيامِه نزولَ الشمس أولَ السرطان في تناهي طول الليل وقصر النهار؛ إذ كان فيه تصرُّم دولة أهل الجور وانقضاؤها، وهو فرح وسرور واستبشار.

واليوم الثالث هو يوم قيامة ثالثنا، الموافق لنزول الشمس أولَ الميزان، واستواء الليل والنهار، ودخول الخريف، وهي مقاومة الباطل الحق، وكون الأمر على خلاف ما كان عليه.

ثم اليوم الرابع يوم الحزن والكآبة؛ يوم رجوعنا إلى كهفنا وكهف التقيَّة والاستتار، وكون الأمر على ما قال صاحب الشريعة: «إن الإسلام ظهر غريبًا وسيعود غريبًا، فيا طوبى للغرباء.» فيكون الأمر على مثل ما نحن عليه في وقتنا إلى وقت البروز والخروج والرجوع بعد الذهاب، كرجوع الشمس بعد ذهاب الشتاء إلى برج الحَمَل ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾، ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾.

واعلم يا أخي أن في هذه المدة يَمِيز الله الخبيث من الطيب، ويرفع أهل العلم درجات لم يكونوا لينالوها إلا بصبرهم واحتسابهم في جنب ما يصيبهم، فلا تنكر، أيها الأخ، ما ذكرنا من أن الزمان لا يدوم بصفائه؛ إن الصفاء إنما يُعْرَف بالكدورة، والعدل بالجور، والصحة بالسقم، وإنما صفا إخوان الصفاء لَمَّا أخلصوا الصبر على البلوى في السرَّاء والضرَّاء، واستسلموا لربهم وانقادوا إليه بنفوس طيبة ساكنة مطمئنة.

واعلم أيها الأخ، أن القربان كما ذكرنا قربانان: شرعي وفلسفي، لا ثالث لهما، فأما القربان الشرعي فهو المأمور به في الحج من ذبح الحيوانات المذكورة الموصوفة على شرائطها، من أجناسها المحمودة السالمة، في المواضع التي يجب ذلك فيها، وأجلُّها ما كان أكثر ثمنًا وأحسن صورةً وأجود غذاءً لمن يأكلها ممن يُفرَّق فيهم ويُشبعهم ويكفيهم.

فإذا خرج ذلك من حلِّه ودُفِعَ إلى أهله بنفس طيبة ونية صادقة كان قربانًا مقبولًا وكفَّارة نافعة ودعاءً مستجابًا؛ فهذا قربان شرعي.

وأما الفلسفي فهو مثل ذلك، إلا أن النهاية فيه التقرب بالأجساد إلى الله سبحانه بتسليمها إلى الموت وترك الخوف، كما فعل سقراط لَمَّا شرب السم المذكور (قصته في كتاب فاذن)، وكاستبشار أرسطاطاليس لما نزل الموت به لما حزن عليه تلامذته، وما كان من خطابه ووصيته المذكورة في رسالة «التفاحة».

واعلم أيها الأخ، أن أعظم القرابين هو ترك النفس محبة الدنيا والزهد فيها، وقلة الخوف من الموت وتمنِّيه.

وأما قربان إخوان الصفاء فهو قربان يجمع هذه الخصال كلها بأسرها: شرعيها وفلسفيها، وهو التقرُّب بما تقرَّب به إبراهيم من الكبش الممنون به عليه فداءً لولده الذي قد رعى في أرض الجنة أربعين خروفًا، فإن تمكنت أن تتقرَّب بكبش رعى في أرض الجنة ولو شبرًا فافعل، ولا تقعد عنه واجتهد في ذلك؛ لتكون قد بلغت المجهود وأقمت المثل وعمرت عالم الله تعالى، وأرجو أن يوفِّقك الله لفهم ما تسمع ويجعلك من أهله.

ولما كان هذا الفصل جامعًا للفضائل النفسانية، وعلمنا أنك متى امتثلت فيه الوصية كملت لك الصورة الملكية وكانت لك في معادك مهيَّأة لوصولك إليها ونزولك عليها ختمنا الرسالة بهذا الفصل وسمَّيناه: «الفصل الجامع للفوائد النافعة»، وهو منها بمنزلة القلب من الجسد، والرأس من البدن، وهو نهاية الغرض بعد الوقوف على ما فيه والارتسام بجميع ما رسمناه، والاعتماد على ما وصفنا.

واعلم أيها الأخ، أن كلامنا هذا تشهد بصحته العقول السليمة، وتسكن إليه النفوس الصافية المشتاقة إلى ربها، وتعضده الآيات المكتوبة في الآفاق والأنفس وما في السموات والأرض وما تدل عليه الكتب النبوية والتنزيلات السماوية وأفعال الأنبياء واتفاقهم على هذه الأعمال التي ذكرناها والسياسات التي وصفناها، وأفعال الحكماء من الفلاسفة القدماء وبنائهم الهياكل في الأرض على مثال ما هي مبنية في السماء.

واعلم أيها الأخ، أن الشاكَّ فيما ذكرناه والرادَّ فيما وصفناه معذور في ذلك؛ لأنه جاهل لا علم له ولا معرفة عنده؛ فهو لاهٍ في سَكْرَته وتائه في ضلالته، فَمَنْ أراد أن يعرف صحة ما قلنا ويمتحن صدقنا من كذبنا فليفعل ما فعلنا ويبذل من نفسه ما بذلنا؛ ليحلَّ له دخول الحرم والوقوف على المقام وزمزم، فإن رأى ما يؤيد الشريعة المحمدية والملة الهاشمية ويقوِّيها وينفي عنها شُبَه الملحدة وجحدة الأنبياء فيقيم معنا بالرحب والسعة له ما لنا وعليه ما علينا، وإن رأى ما ينال في الشريعة فهو معذور في رفضه مُثاب في تركه، وليس على ما خرج منه ثواب يمنعه من العود إليه، وقد جاء في الخبر عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يمين في معصية الله.» بلَّغك الله أيها الأخ البارُّ الرحيم منازل الأبرار، ونجاك وإيانا من عذاب النار، وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد والقفار، إنه جواد غفار.

(تمت الرسالة التاسعة في كيفية أنواع السياسات وكميتها،
ويليها رسالة في كيفية نضد العالم بأسره.)

الرسالة العاشرة

من العلوم الناموسية والشرعية في كيفية نضد العالم بأسره

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن العالم الكبير بأسره كرة واحدة تنفصل إحدى عشرة طبقة: تسع منها هي أفلاك كُرَيَّات مجوَّفات مشفَّات، وكواكبها أيضًا كلها كُرَيَّات مستديرات مضيئات، وحركاتها كلها دوريات.

وذلك أن الفلك المحيط بجميع ما يحوي من الأفلاك والكواكب يدور حول الأرض في كل أربع وعشرين ساعة سواء دورة واحدة، وكذلك كل كوكب يدور في فلك مختص به أو دائرة حركة دورية في زمان معلوم، وكلما دارت دورة استأنفت ثانية — كما وصفنا في رسالة مدخل النجوم ورسالة السماء والعالم ورسالة الأكوار والأدوار — ودون فلك القمر كرتان: إحداهما النار والهواء والأخرى الماء والأرض، وكل واحد منهما كريُّ الشكل، محيطات أواخرها متصلة بأوائلها.

بيان ذلك أن النار متصل أولها بفلك القمر وآخرها بطبيعة الزمهرير، والزمهرير آخره متصل محيط بالماء والأرض، كما وصفنا في رسالة الآثار العلوية.

وأما الأرض بجميع بحارها وجبالها فكُرَةٌ واحدة. وإذا اعتبر بشكل الجبال والأنهار على بسيط الأرض وتأمَّل تبيَّن أن كل واحد منها كأنه قطعة قوس من محيط الدائرة.

وأما شكل البحار فكل واحد كأنه قطعة من سطح جسم كُرِيٍّ.

(١) فصل في أحوال الكائنات

وهكذا أحوال الكائنات إذا اعتبرت وتأمَّلت تبيَّن أن أكثرها كُرِيَّات الشكل أو مستديرات، من ذلك أن أكثر ثمار الأشجار وأوراقها وحَب النبات ونور أزهارها كُرِيَّات الأشكال أو مستديرات.

وهكذا أكثر مصنوعات البشر، كما بيَّنَّا في رسالة الهندسة، وأما أحوالها فدائرة أيضًا يعطف أوائلها على أواخرها مثل دوران الزمان من الشتاء إلى الربيع، ومن الربيع إلى الصيف، ومن الصيف إلى الخريف، ومن الخريف إلى الشتاء.

وهكذا دوران الليل والنهار حول كرة الأرض كما بيَّنَّا في رسالة الهيولى، وكذلك حكم دوران مياه الأنهار والبحار والغيوم والأمطار فإنها كالدولاب الدائر، وتلك الغيوم والسحاب تنشأ من البخار المتصاعد من البحار والأنهار، وتسوقها الرياح إلى القفار ورءوس الجبال وتمطر هناك، وتجتمع السيول في الأودية فتذهب راجعة نحو البحار ثم تصعد ثانية ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وكذلك حال النبات وتكوينه من التراب والماء والنار والهواء ورجوعه إليها في دورانها كالدولاب، وكذلك أن النبات يبدو وينشأ ويتمُّ ويكمل حتى إذا بلغ إلى أقصى غاياته ومنتهى نهاياته رجع عند البلى والفساد إلى ما تكوَّن منه.

بيان ذلك أن النبات يمتص بعروقه لطائف الأركان ويصير ورقًا وحَبًّا وثمارًا يتناولها الحيوان ليتغذَّى، ثم يستحيل في أبدان بعضها لحمًا ودمًا، وبعضها يخرج ثقلًا وسمادًا ويُرَدُّ إلى أصول النبات ليتغذى منه ويصير حبًّا وثمارًا ثانيًا ويتناوله الحيوان، فإذا تأمَّل هذا من حاله وجد كأنه دولاب دائر.

وأما أجسام الحيوان فإنها كلها تعود إلى التراب وتبلى وتصير ترابًا ويكون منها نبات، ومن النبات حيوان، كما بُيِّن قبلُ، فإذا تأمَّل ذلك وجد أيضًا كأنه دولاب يدور.

وأما أحوال البشر إذا اعتُبِرَت فكلها دائرة كالدولاب؛ وذلك أن الإنسان يبدو كونه من النطفة ثم ينشأ وينمو ويتمُّ ويبلغ إلى أن تتولَّد منه النطفة فيشتهي العَود إلى حيث خرج لقضاء شهوته ونتاج مثله، وكذلك بدأ كونه ناقص القوة ضعيف البنية ثم يرتقي ويتزايد إلى أن يبلغ إلى الأشُد، ثم يبتدئ في الانحطاط والنقص إلى أن يُرَدَّ إلى أرذل العمر كما كان بديًّا كما ذكر تعالى فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ

ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ وكما قال سبحانه: ﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ وقال ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

(٢) فصل في أن لهذه الموجودات التي تحت فلك القمر نظامًا

واعلم أيها الأخ، أن لهذه الموجودات التي تحت فلك القمر نظامًا وترتيبًا أيضًا في الوجود والبقاء، وهي مرتَّبة بعضها تحت بعض، متصل أواخرها بأوائلها كترتيب العدد وترتيب الأفلاك.

بيان ذلك أنه لما كانت أجزاء العالم محيطات بعضها بعضًا وهي إحدى عشرة كرة: تِسْع منها في عالم الأفلاك، أولها من لدن فلك المحيط، وآخرها إلى منتهى فلك القمر، وآخرها متصل بأوائلها، كما بيَّنَّا في رسالة السماء والعالم، وكان اثنتان منها دون فلك القمر، وهي كرة النار والهواء وكرة الماء والأرض، وهي مقسومة على أربع طبائع: أولها الأثير، وهي نار ملتهبة دون فلك القمر، ودونه الزمهرير الذي هو البرد المفرط، ودونه الماء المفرط الرطوبة، ودونه الأرض المفرطة اليُبْس. وهذه الأربعة محفوظة كلياتها في مراكزها، ومتصلة أواخرها بأوائلها، ومستحيلة جزئياتها بعضها إلى بعض، كما بيَّنَّا في رسالة الكون والفساد.

وأما الكائنات منها التي هي جزئياتها فهي المعادن والنبات والحيوان، ولها نظام وترتيب متصل أواخرها بأوائلها كترتيب الأفلاك والأركان؛ بيان ذلك أن المعادن متصل أولها بالتراب وآخرها بالنبات، والنبات أيضًا متصل آخره بالحيوان، والحيوان متصل آخره بالإنسان، والإنسان متصل آخره بالملائكة، والملائكة أيضًا لها مراتب ومقامات متصلة أواخرها بأوائلها، كما بيَّنَّا في رسالة الروحانيات، فنريد أن نذكر في هذا الفصل مراتب الكائنات من الأركان الأربعة التي هي المعادن والنبات والحيوان والإنسان، فنقول: أول المعادن هو الجصُّ مما يلي التراب، والملح مما يلي الماء؛ وذلك أن الجص هو التراب الرملي يبتلُّ من الأمطار ثم ينعقد ويصير جصًّا.

وأما الملح فإنه يمتزج بالتربة السبخة، وينعقد فيصير ملحًا، وأما آخر المعادن مما يلي النبات فهو الكمأة والقطن وما شاكلها، يتكوَّن في التراب كالمعدن ثم ينبت في المواضع

النديَّة في أيام الربيع من الأمطار وصوت الرعد كما ينبت النبات، ولكن من أجل أنه ليس له ثمرة ولا ورقة ويتكوَّن في التراب كما تتكون الجواهر المعدنية، فصار من هذه الجهة يشبه المعدن، ومن جهة أخرى يشبه النبات، فأما باقي أنواع الجواهر المعدنية ففيما بين هذين الحدَّين؛ أعني الجص والكمأة، وقد بيَّنا في رسالة المعادن أنواعها وأجناسها وخواصها ومنافعها.

وأما النبات فنقول: إن هذا الجنس من الكائنات متصل أوله بالمعادن وآخره متصل بالحيوان؛ بيان ذلك:

اعلم يا أخي أن أول مرتبة النبات وأدْونها مما يلي التراب هي خضراء الدِّمَن، وآخرها وأشرفها مما يلي الحيوانية النخل؛ وذلك أن خضراء الدمن ليست بشيء سوى غبار يتلبَّد على الأرض والصخور والأحجار، ثم يصيبها المطر فتصبح بالغداة خضراء كأنها نبت زرع وحشائش، فإذا أصابها حر الشمس نصف النهار تجفُّ، ثم تصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم.

ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدِّمَن إلا في أيام الربيع في البقاع المتجاورة لتقارب ما بينهما؛ لأن هذا معدن نباتي وذلك نبات معدني.

(٣) فصل في أن النخيل هو آخر المرتبة النباتية مما يلي الحيوانية

وأما النخل فهو آخر المرتبة النباتية مما يلي الحيوانية؛ وذلك أن النخل نبات حيواني؛ لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال النبات، وإن كان جسمه نباتيًّا؛ بيان ذلك أن القوة الفاعلة منفصلة من القوة المنفعلة؛ والدليل على ذلك أن أشخاص الفحولة فيها مباينة لأشخاص الإناث، ولفحولته في أشخاصه لقاح في إناثها، كما يكون في ذلك للحيوان، وأما سائر النبات فإن القوة الفاعلة منه ليست بمنفصلة من المنفعلة بالشخص بل بالفعل حسبُ، كما بيَّنَّا في رسالة النبات. وأيضًا فإن النخل إذا قُطِعَت رءوس أشخاصه جفَّت وبطل نموه ونشوءه، كما أن الحيوانات إذا ضُرِبَت أعناقها بطلت وماتت، فبهذا الاعتبار بان أنَّ النخل نبات بالجسم حيوان بالنفس؛ إذ كان أفعال النفس الحيوانية أفعاله وشكل جسمه شكل النبات، وفي النبات نوع آخر فعله أيضًا فعل النفس الحيوانية، وإن كان جسمه جسمًا نباتيًّا وهو الأكثوث؛[١] وذلك أن هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت في

[١] الأكثوث: نبات ملتفُّ الفروع كثيفها يقوم على سوق غيره من النباتات والأشجار.

الأرض كما يكون لسائر النبات، ولا له ورق كأوراقها، بل هو يلتفُّ على الأشجار والزروع والبقول والحشائش ويمتص من رطوباتها ويغتذي، كما يفعل الدود الذي يدبُّ على ورق الأشجار وقضبان النبات ويقرضها ويأكل منها ويغتذي بها، وهذا النوع من النبات وإن كان جسمه يشبه النبات فإن فعل نفسه فعل الحيوان.

فقد بان بما وصفنا أن آخر المرتبة النباتية متصل بأول الحيوانية، وأما سائر المراتب النباتية فهي ما بين هاتين المرتبتين.

(٤) فصل في أن أول مرتبة الحيوانية أيضًا متصل بآخِر النباتية

واعلم يا أخي أن أول مرتبة الحيوانية أيضًا متصل بآخر النباتية، كما أن أول النباتية متصل بآخر المعدنية، وأول المعدنية متصل بالتراب والماء، كما بيَّنَّا قبلُ.

واعلم أن أدون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسة واحدة وهو الحلزون، وهي دودة في جوف أنبوبة، تنبت تلك الأنبوبة على الصخور التي في بعض سواحل البحار وشطوط الأنهار، وتلك الدودة تُخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة، وتنبسط يمنةً ويسرةً تطلب مادةً يغتذي بها جسمها، فإذا أحسَّت برطوبة ولين انبسطت إليه، وإن أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت في جوف تلك الأنبوبة حذرًا من مؤذٍ لجسمها ومفسد لهيكلها، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق إلا اللمس حسبُ.

وهكذا أكثر الديدان التي تكون في الطين في قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم؛ لأن الحكمة الإلهية لم تُعْطِ الحيوان عضوًا لا يحتاج إليه في جرِّ المنفعة أو دفع المضرَّة؛ لأنه لو أعطاها ما لا تحتاج إليه لكان وبالًا عليها في حفظها وبقائها.

فهذا النوع حيواني نباتي؛ لأنه ينبت جسمه كما ينبت بعض النبات، ويقوم على ساقه قائمًا، ومن أجل أنه يتحرَّك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان، ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة، وتلك الحاسة أيضًا هي التي يشاركها النبات؛ وذلك أن النباتات لها حس اللمس حسبُ.

والدليل على أن للنبات حس اللمس هو إرساله عروقه نحو النهر والمواضع النديَّة، وامتناعه عن إرسالها إلى ناحية الصخور واليبس، وأيضًا أنه إذا اتَّفق منبته في مضيقٍ مالَ وطلب الفسحة، وإن كان فوقه سقف يمنعه من الذهاب علوًّا وتُرك له ثقب من جانبٍ

مالَ النبات إلى تلك الناحية، حتى إذا طال أخرج من هناك رءوسه، وهذه الأفعال تدل على أن له حسًّا وتمييزًا بمقدار الحاجة إليه.

فأما حسُّ الألم فليس للنبات؛ وذلك لأنه ليس يليق بالحكمة الإلهية أن تجعل للنبات ألمًا ولم تجعل له حيلة الدفع كما جعلت للحيوان؛ وذلك أن الحيوان لما جُعل له أن يحس بالألم جُعل له أيضًا حيلة الدفع: إما بالفرار والهرب أو بالتحرُّز أو بالممانعة.[٢]

فقد بان بما وصفنا كيفية مرتبة الحيوانية مما يلي النبات، فنريد أن نذكر ونبيِّن كيفية مرتبة الحيوانية مما يلي الإنسانية فنقول: إن رتبة الحيوانية مما يلي رتبة الإنسانية هي ليست من وجه واحد، ولكن من عدة وجوه؛ وذلك أن رتبة الإنسانية لما كانت معدن الفضائل وينبوع المناقب لم يستوعبها نوع واحد من الحيوان، ولكن عدة أنواع: فمنها ما قارب رتبة الإنسانية بصورة الجسدانية مثل القرد، ومنها بالأخلاق النفسانية مثل الفرس الكريم الأخلاق، ومثل الطير الإنسي الذي هو الحمام، ومثل الفيل الذكي القلب، ومثل الهَزَار والببغاء الكثيرة الأصوات والألحان والنغمات، ومثل النحل اللطيف الصنائع وما شاكل هذه الأجناس؛ وذلك أنه ما من حيوان يستعمله الناس أو قد أَنِسَ بالإنسان إلا وله في نفسه شرف قربٍ من نفس الإنسانية.

وأما القرد فلقرب شكل جسده من جسد الإنسان صارت نفسه تحاكي أفعال النفس الإنسانية، وذلك مُشاهَد منه متعارَف بين الناس.

وأما الفرس الكريم فإنه قد بلغ من كرم أخلاقه أن صار جسده مركِبًا للملوك؛ فإنه ربما بلغ من حسن أدبه ألَّا يبول ولا يروث ما دام بحضرة الملك أو هو راكبه، وله أيضًا مع ذلك ذكاء وإقدام في الهيجاء وصبر على الطعن والجراح كما يكون للرجل الشجاع، كما وصف الشاعر:

وإذا شكا مُهري إليَّ جراحة　　عند اختلاف الطعن قلت له: اقدما
لما رآني لست أقبل عذره　　عضَّ الشكيم على اللجام وحمحما

وأما الفيل فإنه يفهم الخطاب بذكائه، ويمتثل الأمر والنهي كما يمتثل العاقل المأمور المنتهي.

---

[٢] الذي أثبته العلم أخيرًا أن النبات يتألَّم ويُحِس، ويفقد الحياة شيئًا فشيئًا؛ كما رأينا محاضرة العلامة بوز جاجاديس العالم الهندي، ولقد كان ذلك بالمشاهدة العينية.

فهذه الحيوانات في آخر مرتبة الحيوانية مما يلي رتبة الإنسانية؛ لما يظهر منها من الفضائل الإنسانية، وأما باقي أنواع الحيوانات فما بين هاتين المرتبتين.

وإذ قد فرغنا من ذكر مراتب الحيوانية مما يلي رتبة الإنسانية فنريد أن نذكر أولًا رتبة الإنسانية مما يلي رتبة الحيوانية:

اعلم أن أدون رتبة الإنسانية التي تلي الحيوانية هي رتبة الذين لا يعلمون من الأمور إلا المحسوسات، ولا يعرفون من الخيرات إلا الجسمانيات، ولا يطلبون إلا صلاح الأجساد، ولا يرغبون إلا في زينة الدنيا، ولا يتمنَّون إلا الخلود فيها مع علمهم أنه لا سبيل لهم إلى ذلك، ولا يشتهون من اللذات إلا الأكل والشرب مثل البهائم، ولا يتنافسون إلا في الجماع والنكاح مثل الخنازير والحمير، ولا يحرصون إلا على جمع الذخائر من متاع الدنيا يجمعون ما لا يحتاجون إليه كالنمل، ويحبون ما لا ينتفعون به كالعقاعق، ولا يعرفون من الزينة إلا أصباغ اللباس مثل الطاووس، ويتحاربون على حطام الدنيا كالكلاب على الجيف! فهؤلاء وإن كانت صورتهم الجسدانية صورة الإنسان فإن أفعال نفوسهم أفعال النفس الحيوانية والنباتية.

(٥) فصل في الرتبة الإنسانية التي تلي رتبة الملائكة

وأما الرتبة الإنسانية التي تلي رتبة الملائكة فهي رتبة الذين انتبهت نفوسهم من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وانتعشت بحياة العلوم والمعارف، وانفتحت لها عين البصيرة فأبصرت بنور قلوبها ما كان غائبًا عن حواسِّها من الأمور الروحانية والموجودات العقلية، وشاهدت بصفاء جوهرها عالم الأرواح، ورأت بعين اليقين أصناف الخلائق الذين هم هناك، وهي الصورة المجردة عن الهيولى الجسمانية، وهي أجناس الملائكة وجنود ربك من الروحانيين والكروبين وحملة العرش أجمعين، وعرفت أحوالهم وتبيَّن لها سرورهم وملاذُّهم ونعيمهم، فتشوقت نحوها ورغبت فيها وحرصت على طلبها، وزهدت في نعيم أبناء الدنيا والكون في عالم الأجساد، وتركت طلب شهواتها الجسمانية، وأعرضت عن تناول لذاتها الجرمانية، وصارت بفكرتها هناك وإن كانت بجسدها ها هنا، فأسهر ليله مفكرًا ونهاره طاويًا في طلب المعارف والبحث عن حقائق الأمور، ورضي من متاع الدنيا بكسرة يقيم بها حياة الجسد، وخرقة يواري بها العورة إلى وقت معلوم، وعاش في الدنيا مع أبناء جنسه من الآدميين بجسده وهو بنفسه من أجناس الملائكة.

فاجتهد يا أخي في طلب ما طلبوه، وارغب في صحبتهم، واقتدِ بسنتهم وسِرْ بسيرتهم لعلك تُحْشَر في زمرتهم إلى الجنة دار القرار كما ذكر الله تعالى ووعد فقال، جل ثناؤه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ الآية، وقال رسول الله ﷺ: «المرء يُحْشَر يوم القيامة مع مَنْ يحب.» وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾، وقد بيَّنَّا طريق الأنبياء، صلوات الله عليهم، وخصال المؤمنين المحققين في إحدى وخمسين رسالة عملناها في غرائب العلوم وطرائف الآداب وتهذيب النفس وإصلاح الأخلاق، وفقك الله أيها الأخ لقراءتها وفهم معانيها والعمل بما فيها إن شاء الله تعالى.

(تمت الرسالة في كيفية نضد العالم بأسره، ويليها رسالة
في ماهية السحر والعزائم والعين.)

الرسالة الحادية عشرة

من العلوم الناموسية والشرعية في ماهية السحر والعزائم والعين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

اعلم أيها الأخ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنَّا قد ذكرنا في خمسين رسالة تقدَّمت لنا قبل هذه الرسالة فنونَ العلم وغرائب الحكمة، ورتَّبناها وجمعنا فيها علومًا كثيرة وأغراضًا جمة وحِكَمًا بليغة، ورتَّبناها بحسب ما تقتضيها درجات المتعلمين ومراتب الطالبين المستفيدين، فكما لا ينبغي أن نبذل العلم لمن ليس هو من أهله ولا يعرف فضله، فهكذا لا يجوز ولا يحلُّ أن نمنع منه مَنْ هو مسترشد وطالب له، ولا نبخل به على مستحق.

فينبغي لمن حَصَلَت له هذه الرسائل من إخواننا الكرام أن يدفع منها إلى كل مَنْ يستحق ما يقرب من فهمه وما يعلم أنه يصلح له أو يليق بمرتبته أولًا فأولًا، على الترتيب الذي رتَّبناه في رسالة الفهرست.

فكلما ارتقت نفسه في العلم إلى درجةٍ درجة، وانتهت إلى مرتبةٍ مرتبة في المعرفة، رُقِّيَ إلى ما بعدها ودُفع إلى ما يتلوها إلى أن تبلغ نفسه إلى حدِّ كمالها.

وقد جعلنا الرسائل كلها على أربعة أقسام: القسم الأول رياضية يبتدئ يها، والقسم الثاني جسمانية طبيعية يتلو بها، والقسم الثالث نفسانية عقلية من بعدها، والقسم الرابع ناموسية إلهية هي آخرها.

وهذه الرسالة هي آخر الرسائل من القسم الرابع، وهي الحادية والخمسون، نريد أن نذكر فيها ماهية السحر وكيفية عمل الطلسمات، وأنها كأحد العلوم والمعارف المتعارَفة

وكبعض الحكم المستعمَلة، ونستشهد عليها بما سمعناه من العلماء وعرفناه من كتب القدماء الذين كانوا فيما مضى قبلنا.

واعلم أيها الأخ، أيَّدك الله، أننا رأينا اليوم أكثر الناس المتغافلين إذا سمعوا بذكر السحر يستحيل واحد منهم أن يصدِّق به، ويتكافرون بمن يجعله من جملة العلوم التي يجب أن يُنظر فيها أو يُتأدب بمعرفتها، وهؤلاء هم المتعالمون والأحداث من حكماء دهرنا المتخلِّفين والمدَّعين بأنهم من خواصِّ الناس المتميزين؛ وذلك لأنهم لما رأوا بعض المتعاملين بهذا العلم والخائضين في طلبه من غير معرفة له إما أبله قليل العقل أو امرأة رعناء أو عجوزًا خرفة بلهاء، فرفعوا أنفسهم عن مشاركة مَنْ هذه حاله إذا سمعوا بذكر السحر والطلسمات أنفةً منهم؛ لئلَّا يُنسبوا إلى الجهل وإلى التصديق بالكذب والخرافات، إذ كان أولئك السخفاء الطالبين لهذا العلم يطلبونه لأغراض لهم سخيفة دنيئة من غير معرفة توجب الطِّلْبة ولا ما المقصود منه والغرض، ولم يعلموا أن هذا هو جزء من الحكمة، بل هو جزء وآخر علوم الحكمة؛ لأنه يُحتاج قبله إلى تعلُّم علوم تقدمه؛ فمنها علم النجوم الذي هو معرفة ثلاثة أشياء وهي: الكواكب والأفلاك والبروج.

فالبروج اثنا عشر برجًا، والأفلاك تسعة، والكواكب المعروفة ألف وتسعة وعشرون كوكبًا، فمنها سبعة سيارة، وقد ذكرناها في الرسالة الثالثة من القسم الأول من كتابنا هذا، وهو كالمدخل على علوم النجوم وجميع ما يُحتاج إلى تقديمه من ذلك.

فأما سوى البروج والكواكب والأفلاك فمنها العقدتان اللتان تسمى إحداهما الرأس والآخر الذَّنَب؛ فالرأس يدلُّ على السعود والذَّنَب يدل على النحوس، وليسا هما كوكبين ولا جسمين ظاهرين، ولكنهما أمران خفيَّان، فخفاء ذاتيهما وظهور أفعالهما يدل على أن في العالم نفوسًا خفيَّة عن الحس، أفعالها ظاهرة وذاتها خفيَّة، يسمون الروحانيين الذين ذكرناهم في الرسالة التي هي قبل هذه الرسالة، وهم أجناس الملائكة وقبائل الجن وأحزاب الشياطين، ويعرف ذلك أصحاب العلوم والسحر والطلسمات، فاقرأ تلك الرسالة التي لنا قبل هذه الرسالة؛ لتعرف هذا المعنى على التمام والكمال منها إذا قرأتها، ويتحقق لك أيها الأخ ما هو موجود في العالم من أفعال الروحانيين كما ذكرناه ورتَّبناه وشرحناه فيها، فأما معرفة أفعال النجوم وتأثيراتها فيما تحت فلك القمر من بعد المعرفة بدلالاتها فهي من الحكمة الروحانية والتأييد الإلهي والعناية الربانية، وأجلُّ العلماء المشهورين بهذا العلم هو بطليموس صاحب المجسطي وغيره من الكتب التي له في هذا العلم وغيره من العلماء.

واعلم يا أخي أن الكواكب ملائكة الله وملوك سمواته، خَلَقَهم لعمارة عالمه وتدبير خلائقه وسياسة بريَّته، وهم خلفاء الله في أرضه، يسوسون عباده ويحفظون شرائع أنبيائه بإنفاذ أحكامه على عباده لصلاحهم وحفظ نظامهم على أحسن الحالات.

واعلم يا أخي، أيَّدك الله، أنه لا يكاد يعرف كيفيات تأثيرات هذه الكواكب وأفعالها في جميع ما في هذا العالم من الأجسام والأرواح والنفوس إلا الراسخون في العلم البالغون في المعارف، والناظرون في العلوم الإلهية المؤيَّدون بتأييد الله وإلهامه لهم.

واعلم يا أخي أن أول قوة تسري من النفس الكلية نحو العالم ففي الأشخاص الفاضلة النيِّرة التي هي الكواكب الثابتة، ثم من بعدها في الكواكب السيَّارة، ثم من بعدها فيما دونها من الأركان الأربعة في الأشخاص الكائنة منها من المعادن والنبات والحيوان.

واعلم يا أخي أن مثال سريان قوى النفس الكلية في الأجسام الكلية الجزئية جميعًا كمثال سريان نور الشمس والكواكب في الهواء ومطارح شعاعاتها نحو مركز الأرض.

واعلم أنه إذا اتفق في وقت من الزمان أن تكون الكواكب السيَّارة في أوجاتها وإشراقها، ويكون بعضها من بعض على النسبة الأفضل التي تسمى النسبة الموسيقية، سَرَتْ عندها تلك القوى من النفس الكلية، ووصلت بتوصُّل تلك الكواكب إلى هذا العالم، فجرى أمر الكائنات على أعدل مزاج وأطبع طبائع وأجود نظام.

وتسمى تلك الأحوال سعادة، وإن اتفق أن يكون الحال على ضد ما ذكرت كان الأمر بالضد، ولا يكون ذلك بالقصد الأول ولكن بأسباب عارضة، كما بيَّنَّاها في رسالة الآراء والمذاهب في باب علل الشرور وأسبابها، فتعرَّفها يا أخي من هناك.

واعلم أيها الأخ، أنه ليس في معرفة الكائنات قبل كونها صلاحٌ لكل أحد من الناس؛ لأن ذلك منغِّص للعيش، وإنما يراد هذا العلم ليُترقَّى فيه إلى ما هو أشرف منه، ويُعرف الشر الذي فيه بمعرفة الأسباب والعلل، فتتنبَّه النفس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتنبعث من موت الخطيئة، وتنفتح لها عين البصيرة، وتعرف حقائق الموجودات وتتحقَّق أمر المعاد، فتزهد في الدنيا وتهون عليها مصائبها، ولا تحزن ولا تجزع إذا علمت موجبات أحكام النجوم والفلك، كما ذُكر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات.» وتصديق ذلك قول الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

واعلم أيها الأخ، أن هذه العلوم تنقسم على خمسة أقسام: أحدها علم الكيمياء الذي ينفي الفقر ويكشف الضر، والثاني علم أحكام النجوم الذي يُدرَك به ما كان ويكون، والثالث علم السحر والطلسمات التي تلحق الرعية بالملوك والملوك بالملائكة، والرابع علم الطب الذي يحفظ صحة الأجسام ويشفي نوازل الأسقام، والخامس علم التجريد تعرف النفس به ذاتها وتشرف بعد تجرُّدها على مستقرها، وقد تكلَّمنا في رسالة لنا في النجوم بما هو كالمقدمة وما يحتاج إليه في معرفته قبل هذه الرسالة، وقد كان علم السحر والطلسمات تابعًا لعلوم أحكام النجوم وتاليًا له ومتعلقًا به وعليه، والمنافع به كثيرة مشهورة، فقد سُمِع بخبر الطلسمات وكثرتها؛ فمنها خبر الذي كان الرأس ونقلها الزيتون والطلسم الذي للتمساح، وطلسم البَق وطلسم الحيات وطلسم العقارب وطلسم الزنابير، وغيرهما مما يسمع بالأخبار عنه دائمًا من قوم، ولا يجوز عليهم التواطؤ في أوقات مختلفة وعلى وجوه متفرقة.

ومع هذا فلا بد مما يورد على هؤلاء المنكرين لهذا العلم والمكذِّبين لمن يدَّعي صحته من الشهادات بعض ما ذكر المتقدِّمون في كتبهم وسطروه من أخبارهم.

ويحكي من ذلك ما كان واضح الشهرة لا يخفى موضعه على طالبيه، ولا يكذب قائله حتى لا يجد السفهاء إلى تكذبينا سبيلًا.

فنقول: إن أفلاطون الفيلسوف قد ذكر في المقالة الثانية من كتاب السياسة على علوٍّ في قدره أنه قال: إن جرجيس الذي في أهل مدينة أوروبا كان رجلًا يرعى الغنم، وكان أجيرًا لمتسلِّط كان في ذلك الوقت على مدينة أوروبا، وجاءت في ذلك الزمان أمطار وكان معها زلازل، فانشقَّ موضع من الأرض وصارت فيه خسفة في الموضع الذي كان فيه ذلك الرجل الذي يرعى الغنم فيه.

فلما رأى الرجل تلك الخسفة عجب منها ونزل إليها، فرأى هناك أشياءً عجيبة، وكان مع سائر ما هناك فرس معمول من النحاس في يده كوًى مشقوقة، فاطَّلع في جوف الفرس من تلك الكوى فإذا في جوف الفرس إنسان ميت، مقداره فيما يراه منه أكثر من مقدار إنسان، ولم يكن عليه شيء أصلًا سوى خاتم ذهب كان في يده، فأخذ ذلك الخاتم وخرج من الخسفة.

واتفق أن الرعاة اجتمعوا على ما جَرَتْ عادتهم من الاجتماع شهرًا فشهرًا؛ ليُنهوا إلى الملك أمر أغنامه، وحضر معهم الراعي وهو لابس لذلك الخاتم، فبينا هو جالس مع سائر الرعاة إذ عرض له أن ضرب بيده إلى خاتمه فأداره في أصبعه، حتى صار فصُّه إلى داخل

مما يلي راحته، فلما فعل ذلك خَفِيَ عن الجلوس الذين كانوا معه حتى لم يتبينوا أنه جالس ولم يبصروه، وجعلوا يتكلَّمون في أمره مما يدل على أنه قد انصرف عنهم.

وكان هو يتعجَّب من ذلك الكلام، ثم إنه ضرب بيده إلى خاتمه فأدار فصَّه إلى خارج، فلما أداره صار القوم يرونه.

فلما فهم ذلك ضرب خاتمه ليرى هل فيه هذه القوة فوجده يعرض منه ذلك الأمر بعينه؛ أنه متى أدار فصه إلى داخل استتر واحتجب عن البصر، ومتى أداره إلى خارج ظهر وأبصره الناس.

فعند ذلك لما اختبر بهذا من أمره في خاتمه تلطَّف واحتال أن يصير في عدد الرسل إلى الملك، فلما وصل إليه قتله وصار معه الآن.

تأمَّل هل ترى أن أفلاطون الفيلسوف — مع فضله وعقله — كتب هذه الآية في كتاب من كتبه وهو الذي صنَّفه في السياسة، وهو مع هذا يجوز أن يعتقد ويظن أنه يرى أن هذا الطلسم على الخاتم الذي تقدَّم ذكره قد عمل للحكمة التي بعدها غاية، حتى صار في قوة الفعل إلى الحدِّ الذي ظهر منه في العمل الذي يعمل به، وإنما السبب الذي يدعو هؤلاء الأحداث إلى التكذيب والإنكار لمثل هذا هو ما فيهم من الكسل وقلة الرغبة في التعلُّم، والأنفة وقلة الحياء، يحمل هؤلاء على ما يفعلونه من الجحود لهذه العلوم وتكذيب مَنْ قال بصحتها؛ لأنهم يجدون هذا أسهل عليهم وأخف مؤنة.

وإياك، أيها الأخ، أن تسلك سبيلهم وتحتذي مثالهم أو تشاركهم أو تتشبَّه بهم، بل يكون الطلب أبدًا فكرك وإصابة الحق غرضك، وفي اقتناء الحكمة ودركها شهوتك؛ لتسعد بذلك وتفوز مع السعداء والشهداء.

ثم قد حكى ابن معشر جعفر بن محمد المنجِّم قال في كتاب مذاكرته لشادب بن بحر: حدَّثني محمد بن موسى أنس الخوارزمي. قال: حدَّثني يحجب بن منصور المنجِّم، قال: وصلت أنا وجماعة من المنجِّمين إلى المأمون وعنده جماعة، وإنسان قد تنبَّى ونحن لا نعلمه، وقد دعا بالقضاة ولم يحضروا بعدُ، فقال لي ولمن حضر من المنجِّمين: اذهبوا فخذوا طالعًا لدعوى إنسان بشيء يدَّعيه، وعن قوى ما يدل عليه الفلك من صدقه وكذبه، ولم يُعْلمنا المأمون أنه متنبِّئ، فجئنا إلى بعض الصحون فأحكمنا الطالع وصوَّرناه؛ فوقعت الشمس والقمر في دقيقة واحدة في الطالع، والطالع الجَدْي، والمشتري في السنبلة ينظر إليه، فقال كل مَنْ حضره غيري: ما يدَّعيه صحيح.

فقلت أنا: هو في صحة، وله حجة زهرية عطاردية، وتصحيح الذي يطلبه لا يصحُّ ولا يتمُّ له ولا ينتظم.

فقال: من أين؟ قلت: لأن صحة الدعاوى من المشتري أو تثليث الشمس أو من تسديدها إذا كانت الشمس غير منحوسة، وهذا الحال هبوط المشتري والمشتري ينظر إليه نظر موافقة إلا أنه كاره لهذا البرج والبرج كاره له، ولا يتمُّ التصحيح والتصديق، والذي قالوا من حجة زهرية عطاردية ضرب من المخرفة والتزويق والخداع.

فتعجَّب من ذلك فقال: أنت لله درُّك!

ثم قال: أتدرون مَن الرجل؟ قلت: لا. قال: هذا الرجل يزعم أنه نبي!

فقلت: يا أمير المؤمنين، فمعه شيء يحتج به؟ فسأله فقال: معي خاتم ذو فصَّين، ألبسه فلا يتغيَّر مني شيء، ويلبسه غيري فيضحك ولا يتمالك نفسه من الضحك حتى ينزعه، ومعي قلم شاني آخذه فأكتب به ويأخذه غيري فلا ينطلق إصبعه.

فقلت: يا سيدي، هذه الزُّهَرة وعطارد قد عمِلا عملهما. فأمره المأمون أن يفعل ما قال ففعله، فعلمنا أنه من علاج الطلسمات.

فما زال به المأمون أيامًا كثيرة حتى تبرَّأ من دعوى النبوة ووصف الحيل التي احتالها وعمل بها في الخاتم والقلم، ثم وهبه المأمون ألف دينار.

ثم لقيناه بعد ذلك فإذا هو من أعلم الناس بعلم النجوم.

فأما ما قد ذُكر في القرآن في مواضع كثيرة من ذكر السحر وتكرير ذكره فمن ذلك ما قيل في سورة البقرة قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾.

فإذا كان قد بلغ من قوة السحر وعلمه أن يفرِّق بين المرء وزوجه فأي شيء بقي بعد هذا؟ أو هل في ذلك الخبر شك بعد ما نطق به القرآن وعرفنا منه صحته؟ وقد قال عز وجل في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وقال عز من قائل في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وقال، عز وجل، في سورة الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ *

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۞ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

ألا ترى أن القرآن يستعظم سحرهم! وقال تعالى في هذه السورة: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ وفيها أيضًا: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وفي سورة يونس: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾، وقال تعالى في تلك السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وقال تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾. وفيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾، وقال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ۞ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾، وفيها: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾، وفيها: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾، وفيها: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وهذا أيضًا أيها الأخ، أيَّدك الله، كما تسمع وترى ما ذَكَرَ القرآن من تكرير ذكر السحر في هذه المواضيع أتراه باطلًا لا أصل له؟ أعوذ بالله أن نسحر أحدًا من الخلق وأن نقول هذا، الآن نرجع أيضًا إلى ما عليه أصحاب الشرائع الأُخَر وما في كتبهم التي يتديَّنون بها ويشهدون بصحتها، فمنها ما في التوراة مكتوبة ما يعتبره ويقر بصحته أمَّتان من الأمم وهم اليهود والنصارى جميعًا، والتوراة موجودة بأيدي اليهود والنصارى باللغة العبرانية وباللغة السريانية وباللغة العربية لا خلاف بينهم فيها، بل هم متفقون على صحتها وحقيقة ما فيها، وفيها مكتوبة في قصة عيصو قال: «كان عيصو بن إسحاق صاحب صيد، وكان كلما خرج إلى الصيد خرج إليه ابن النمرود بن كنعان فيقول: صارِعْني على أنِّي إنْ غلبتك أخذت صيدك، وكان على ابن النمرود قميص آدم خرج معه من الجنة، وكان فيه صور لكل شيء خلقه الله من الوحش والطير ودواب البحر، وكان آدم إذا أراد صيدًا من شيء من الوحش أو غيرها وضع يده على صورته في القميص فيبقي

ذلك الشيء حائرًا واقفًا أعمى حتى يجيء فيأخذه، فكان كلما صارعه أخذ ابن النمرود عيصو ابن إسحاق فضرب به الأرض وأخذ صيده.

فلما طال ذلك على عيصو شكا إلى أبيه إسحاق ما يَلْقى من ابن النمرود، فقال له إسحاق: صف لي القميص. فوصف عيصو فقال له إسحاق: هذا قميص آدم، ولن تغلبه ما دام عليه، فإذا جاءك يطلب المصارعة فقل له: حتى تنزع القميص. فصارِعْه إذا فعل ذلك فإنك تغلبه، فإذا غلبته فخُذ القميص وعُدْ.

فخرج عيصو يريد الصيد، فجاءه ابن النمرود كعادته وطلب المصارعة، فقال له عيصو: تنزع ثيابك ثم نتصارع، فنزع ابن النمرود القميص، ونزع عيصو ثيابه، ثم اصطرعا، فضرب عيصو به الأرض وجلس على صدره، ثم وثب عيصو وأخذ القميص والصيد ومضى في الهرب يعدو، وأعجز ابن النمرود المشي في البرية، فقال: يا بني، ما دام القميص عليك فلن يغلبك، فإذا مضيت إلى الصيد فأردت أن تصيد شيئًا فضع يدك على صورته في القميص فيقف لك حتى تأخذه.

وكان عيصو إذا أراد صيدًا من الوحش وضع يده على صورته في القميص فيقف أعمى لا يبصر حتى يجيء عيصو ويأخذه.

فمن ها هنا كان يُدْخِل يده ويصيد بالقميص، وهذا، أيها الأخ، خبر مشهور يعرفه جميع مَنْ يقرُّ بصحة التوراة من اليهود والنصارى ولا يجحدونه البتة، وأيضًا في التوراة في السِّفْر الثاني منها في قصة يعقوب مع لابان خاله قال: فلما ولدت راحيل يوسف قال يعقوب للابان: وجِّهني وسِرْ حتى أنطلق وأذهب إلى بلدي ومكاني وأرضي مع أولادي، وأُعْطي نسائي الذين وعلت معهم لك، فقال لابان: أخبرني كم أجرك أعطيك؟ فقال يعقوب: أربع، وأرعى غنمك وأحفظها بالليل والنهار وأسعى في جميع غنمك، وأعزل كل أحمر سمين، وكل أبقع وكل حمل ملمع ببياض في سواد، وكل أملح بياض من الغنم، وكل أصلح أبيض من المعز، فليكن ذلك أجري، وأشهد على هذا الطعن اليوم لكن بعد هذا اليوم على أغبر وأملح بياض وأحمر من المعز أو ملمع بسواد وبياض من الضأن فهو أجري، فقال: لا بأس، نعم. ليكن كما ذكرت. وعزل في ذلك اليوم التيوس الملح ببياض، وكل شيء في غنمه أصلح أو أبقع أو أحمر وكل ما كان فيها بيضاء، وكل ملمع بسواد وبياض فجعلها على أيدي ولده. وفرق يعقوب بين مرعى غنمه ومرعى غنم لابان، وجعل بينهما مقدار مسيرة ثلاثة أيام، وغنم كل واحد منهما على حدة في موضع. وكان يعقوب يرعى سائر غنم لابان التي بقيت، وأخذ يعقوب قضبًا رطبًا من لوز وداب، وقشر منها

قشورًا وجعل من البياض في القشور، وركز القضبان التي قشرها في مجرى الماء من المستقى في موضع ترد منه الغنم للشرب فيستقبل الغنم فتفرح وتتحرَّك أولادها في بطنها إذا رأت القضبان تنتج الغنم جلحًا وملحًا؛ ففي كل سنة أول ما يحمل الغنم متقدمة جعل يعقوب يركز تلك القضبان في المأمن المستقى ولا يركِّزها في مؤخر الغنم، فاستغنى الرجل وكثرت ماشيته.»

فهذا أيضًا في التوراة ما لا يرفعه أحد، فاعرفه أيها الأخ، ثم أيضًا في كتب أخبار ملوك بني إسرائيل التي تجري عند اليهود مجرى التوراة يُذْكَر أنه كان فيهم نبي يقال له شمويل، وهذا مشهور في الأنبياء عليهم السلام وله كتاب، والنصارى واليهود معترفون مصدِّقون بنبوته وجلالة قدره، وكتابه معهم، ويذكر في الكتاب أنه نصب لليهود ملكًا يقال له طالوت، وأمره الله تعالى بقتل العماليق ففعل، إلا أنه خالف من قبل مواشيهم، وسقط عن مرتبة الملك، ومسح له داود سرًا، ومات شمويل وأقبل طالوت على قتل السحرة والعرافين، فقُتِلَ مَنْ قُتِلَ وهرب مَنْ هرب، وأقبل أهل فلسطين لمحاربته فجمع العرَّافين لهم ودخل الرعب من كثرة الجيوش المنصبَّة عليه، ولم يجد مَنْ يسكن إلى قوله كعادته من نبي ولا ساحر ولا عرَّاف ولا حاكم، فقلق لذلك وقال لخاصته: اطلبوا لي ساحرًا أسأله عن عاقبة أمري؟ فدُلَّ على ساحرة فسكن إليها وسألها أن تحيي له نبيًّا يسأله، فسألته: أي الأنبياء يختار أن تحييه؟ فاختار شمويل فأحيتْه، وفزعت عند رؤيته فصرخت، فقال لها طالوت: لا تفزعي، ماذا رأيت؟ فقالت: رجلًا شيخًا بهيًّا مثل ملائكة الرب مشتملًا ببُرنس قد صعد من الأرض، فعلم طالوت أنه شمويل أرسله الله فدخل إليه وسجد بين يديه، فقال شمويل: يا طالوت لمَ أرجعتني وأحييتني؟ قال: لما ضاقت بي الأرض من أهل فلسطين ومحاربتهم إياي وزوال عناية الله عني ومنعه الأحلام مني، فدعوتك لأشاورك في أمري. فقال شمويل: إن الله تعالى قد نقل الملك إلى صاحبك داود وغضب عليك وعلى بني إسرائيل بما فعلتموه في مواشي العماليق، وهو ناصر فلسطين عليكم ومُدِيلهم منكم فتصير معي غدًا في الأموات. فخرَّ مغشيًّا عليه، وعرفته الساحرة فأقبلت إليه ومَنْ كان معه، ولم يزالوا به حتى أفاق وأضافهم ليلتهم وانصرفوا مُصبِحين، فالتحمت الحرب فوقعت الهزيمة على العبرانيين، فأكثر القتل فيهم، وقتل طالوت ثلاث بنين، واتكأ هو على حَرْبته فأخرجها من ظهره، فاجتمع بنو إسرائيل على تمليك داود فدافع بهم مَنْ ناوأوهم.

فهذا كله أيضًا، أيها الأخ، قد وردت به الأخبار فمنها ما هو من جهة الفلاسفة، ومنها ما هو من جهة الأنبياء وكتب الشرائع، ومنها ما هو مذكور في القرآن من ذكر السحرة بما قد حكيناه فيما تقدم.

أَفَترى هذا كله كذب لا أصل له، وسُخْف وحماقة ممن يذكره عند هؤلاء المتعجبين المنكرين بأنفسهم المكذبين بما يسمونه — بجهلهم — تكبرًا منهم وتيهًا وصلفًا؛ لقلة عقولهم وقصر علومهم وقصورهم عن نيل العلوم الحقيقية، فيجدون الإنكار والتكذيب أخفَّ عليهم؟! والله المستعان، ونسأله حسن التوفيق والاختيار، ونقول: إن آخر ما سمعنا عمن ادعى علوم الطلسمات وأفعالها ممن نُقِلَت إلينا أخبارهم وبلغنا آثارهم اليونانيون، وهؤلاء لهم عند الناس أسماء مختلفة؛ فمنها الصابئون والحراسون والحتوفون، وقد كانوا إذا أخذوا أصول علومهم عن السريانيين وعن المصريين على حسب تنقُّل الصنائع والعلوم في البلدان بما يحدث لها من السياسات والأديان، وقد كان من رؤساء أوائلهم أربعة: أولهم أعادمايون وهرمس ولومهرس وأراطس، ثم تفرَّقت جيوشهم إلى الفوثاغرية والأرسطانونية ومن الأفلاطونية والأقعوروسية.

وهم يزعمون أن العالم متناهٍ في مساحة إلا أنه كُرِيُّ الشكل، ويزعمون أن ليس لوجوده مبدأ ثانٍ، وإنما هو متعلق بالباري سبحانه وتعالى تعلُّق المعلول بعلَّته.

وهم يزعمون أن العالم الأرضي أيضًا تتمُّ أموره بأشياء: أحدها المادة القابلة للمزاج والتأليف وهي العناصر الأربعة، والثاني النفوس المحركة والساكنة في أشخاصه، والثالث تحريك العالم السماوي للعناصر الأربعة والمتولدات منها حتى تتهيَّأ لقبول تأثيرات الأنفس من التحريك والتسكين والجمع والتفريق والحر والبرد والرطوبة واليبس التي تمكِّن الصانع من تأثيرات الصنعة في المادة لكل مصنوع.

والرابع: حفظ الإله الأعظم سبحانه وتعالى لقوى جميع الموجودات عليها وإمداده بالمعونة لها وتتميمه لأغراضها ومقاصدها وقسمة الأمور الموجودة على الكواكب السبعة.

وزعموا أن الكواكب الثابتة مقسومة على الكواكب السيَّارة ممتزجة من قواها ومعينة لها على أفعالها.

وزعموا أن الفلك التاسع المماس لفلك الكواكب الثابتة وهو المنتهى لفلك البروج مصوَّر بصور تخصه.

وإن كل درجة من درجاته تنقسم قسمين: أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب، فيها صور قد وفت عليها المراعات لتأثيراتها العارضة عليها على طول الزمان على ما يذكره أصحاب الطلسمات.

ولما قسموا الأمور الأرضية على الكواكب السبعة ورتَّبوها تحت تدبيرها والتأثير فيهاجروا أيضًا على ذلك السبيل في أمر الجهات والأقاليم والنواحي والمدن والرساتيق.

وأما النفوس فعندهم أن منها ما لا يتعلق بالأجسام ولا يسكن الجثة بوجه من الوجوه؛ لعلوِّها عليها وارتفاعها عن أوساخها وأقذارها.

ويسمون هذه النفوس الإلهية، وهي عندهم تنقسم قسمين: أحدهما خيِّر بالذات ويسمونهم الملائكة، ويتقربون إليها اجتلابًا لخيرها.

والقسم الثاني: شرير بالذات ويسمون أشخاصه الشياطين، ويتقربون إليها استكفاءً لشرِّها، وجعلوا لكل واحد منهم دعاءً مقررًا وبخورًا معلومًا وسياقة عمل يتوصلون به إلى ما يرومونه منهم.

ونفوس أخرى متعلقة بجثة الكواكب لا تفارقها، وهي مع ذلك تتعلق وتتصرف في العالم الأرضي صنفين من التصرف: أحدهما بطبائع أجسادها كما ذُكر في كتب أحكام النجوم.

والثاني بنفوسها ونفوس أخرى متعلقة بالأجساد لا تفارقها ولا تصبر عنها إلا بمقدار ما تفارق الجثة لفسادها.

ومن هذه الطبقة من النفوس نوع يسكن الجثة الإنسانية ويتصرف بها وفيها ولا يفارقها إلا مفارقة النفس سائر أشخاص الحيوانات والنباتات ومُضِيها إلى بحر طوس؛ يعني كرة الأثير؛ لتعذب هناك إلى أن تطلب الانقلاب منه والهبوط إلى مادة تصلح لسكانها أو تتمكن من إدراك نجاتها.

ويزعمون أنهم يقدرون على معرفة مَنْ هذه سبيله؛ وذلك بأن يشاهدوا أخلاقه وعاداته، فإذا وجدوه شبيهًا بالبهيمة في تصرُّفه مع الطبيعة من غير فكر ولا رويَّة ولا قبول علم ولا فكرة ولا نصرة دين أو تصفُّح لمذهب حكموا عليه بأن نفسه نفس بهيمة لا تصلح إلا لعمارة الدار وإقامة نوع الإنسانية فقط.

والنوع الآخر: نفوس يمكن فيها أن ترتقي إلى الأفلاك وتسكن بها وتلتذَّ بها، وفيها عند صحتها ويمكن أن تهبط عنها وتسكن الجثة وتتعلَّق بها عند مرضها وتلتذَّ وتُعذَّب بها وفيها.

وهذه النفوس الإنسانية البشرية، وهم يزعمون أيضًا أنهم يمكنهم أن يعلموا إلى ماذا تئول إليه عاقبة الإنسان بعد وفاته إذا فارق الدنيا وهو على ما يشاء قدير من حاله.

وذلك أن لكل واحد من الآراء والديانات تصنيع بالمعتقد له إلى صنف ما من صنوف الأخلاق وتحرُّك إلى فنٍّ من الفنون في الأعمال، كالمذهب الذي يشتدُّ توحُّش أهله وتقشُّفهم، والمذهب الذي يكثر الجدل فيه والمنافرة، والمذهب الذي يكثر فيه قتل النفوس وأخذ

الأموال، والمذهب الذي يفرط فيه ذبح الحيوانات وأكل اللحوم إلى غير ذلك من المذاهب الآخذة من الانهماك في شيء من الأعمال؛ فإن هذه الأعمال إذا كثرت من الإنسان ألبسته من الأخلاق بما توجبه عادته التي قد دام عليها وعُرِفَ بها.

وزعموا أيضًا أن كل صنف من أصناف الأخلاق وإن كان موجودًا في الناس فإنه في نوع ما من أنواع الحيوانات أقوى وأظهر؛ وذلك أن الشجاعة في الأسد، والختل في الذئب، والروغان للثعلب، والحرص للخنزير، والسلامة للحمار، والذلة للبعير، والسهو للوزغة، واللجاجة للذبابة، والخنا للدب، والولع للقرد، والظلم للحية، والسرقة للعقعق، والاختطاف للبازي، والفزع للأرنب، والاحتضار للظبي، والغلمة للتيس، والزهو للطاووس، والغدر للغراب، والنسيان للفأرة، والاحتكار للنملة، والممارسة للكلب، والمواثبة للديك.

وأشباه ذلك من لوازم الأخلاق لأصناف الحيوانات، وكلُّ خُلق من هذه الأخلاق مشترك فيه عدة من أنواع الحيوانات، ويختلف فيه بالقلة والكثرة فيكون كل مقدار من هذه مقصورًا على نوع من الأنواع.

فإذا كان الإنسان — وهو على حدٍّ ما من تلك الحدود — انتقل إلى ذلك النوع الذي حظه من ذلك الخلق المقدار الذي عليه قد مات، ويشبه أن يكون هذا الملك عكس مسلك صاحب الفراسة؛ لأن هذا المسلك يتطرَّق فيه من الخلق إلى استخراج الأخلاق وفي كل جثة تحلُّها وطينة تخصها، يخلط لها النعيم بالعذاب والألم باللذة؛ ليكون ذلك خدعة لها ورباطًا بطول مدة تعلُّقها بها حصلت فيه من محبسها إلى أن يستوفي منها ما حصل عليها وتفي ما لها، وما الله بظلَّامٍ للعبيد.

فهذا الذي قد ذكرته كله وحكيتُهُ عنه من أصولهم ومقدمات علومهم في تصحيح مذهبهم في السحر والطلسمات.

وإن كنت تركت أكثر مما ذكرت وأسقطت أكثر مما حكيت؛ تجنبًا للإكثار وطلبًا للاختصار، فإني تركت ذكر ما عندهم في ذلك مما يجري مجرى ما قد ذُكر في كتاب الخواص كفعل المغناطيس وغيره من الخواص، فإني تركته لظهوره، غير أني أذكر جملة أخرى لتقف منها أيها الأخ، أيَّدك الله، على جميع أغراضهم وتصور أحوالهم في مطلوبهم، وأنهم أيضًا زعموا أنهم لَمَّا استقرت عندهم هذه المقدمات وأَنِسوا بها وطال خوضهم فيها فرَّعوها وبنوا عليها، وقالوا: فإذا كان هذا الذي تقدَّم ذكره مستقرًّا مستمرًّا، وكانت الكواكب والنفوس المستعلية على الأجسام بهذه الحال من العلم والقدرة، وكانت هذه هي المواتية لنا والمستعلية علينا، فإن الحاجة تضطرنا إلى التقرُّب إليها والتضرع لها في إصلاح

ما فسد فينا، وتسهيل ما عسر علينا، وتسديد ما عدل عن الصواب من أفكارنا وآرائنا؛ ليحصل لنا بذلك أمران: أحدهما طيب العيش في الدنيا، والثاني التمكُّن من الإخلاص إلى الآخرة.

وكانوا إذا أرادوا التقرُّب إلى كوكب أو إلى نفس منها عملوا الأعمال التي قد وقع لهم أنها موافِقة لطبيعته، وسألوا عند ذلك حاجتهم التي هي داخلة تحت قدرته ويقولون: إنهم إذا عملوا صنفًا من أصناف الأعمال الطبيعية وتقرَّبوا بها إلى الكواكب المراعي لها من غير تعرُّض لشيء مما يتعلَّق على أحكام النجوم؛ فإنه يكون التأثير عنه في قضاء الحاجة ضعيفًا لانفراد ذلك الكوكب منها بالإرادة فقط.

وهكذا إذا عملوا وسلكوا مسلك الاختيارات النجومية في التماس الحاجة من غير مراعاة الأعمال الطبيعية كان التأثير في قضائها ضعيفًا أيضًا، بل لا يكاد يتمُّ في أكثر الأمر لانفراد الكوكب فيها بالطبيعة فقط كما تسمع وترى كثيرًا ممن يتعاطى ذلك ويطلبه بحمله من غير وجهه، ويرومه من غير جهته، من البُلْه والعوام القليلي المعرفة بهذا الأمر، الجُهَّال بأصول هذه الصناعة؛ أعني صناعة الطلسمات والسحر، ويزعمون أنهم إذا جمعوا بين الأمرين وسلكوا في طلب حوائجهم السبيلين اجتمعت لهم فيها طبيعة الكوكب وإرادته وكان ذلك أوكد السبب وأحمد في الطلب وبلوغ الغرض.

ويزعمون أن ذلك العمل إن صدر عن سريرة مدخولة ونية مضعوفة جرى مجرى العبث والولع وسقط الانتفاع به، وربما كان داعيًا إلى العكس له والمضرَّة فيه وبه، وكانوا ينظرون إلى المدن التي في قسمة كوكب ما من الكواكب على ما أدَّتهم التجربة إليه كما هو موجود مذكور في كتب أحكام النجوم فيميزونها وينظرون أيتها في ولايته إذا كانت في شرفه، وأيتها في ولايته إذا كانت في بيته، وأيتها في ولايته إذا كانت في جده، وأيتها في ولايته إذا كانت في وجهه، فإذا تميَّز لهم الاستقرار لأحوالها والتصفُّح لحوادثها انتظروا حصول ذلك الكوكب في بعض تلك الحظوظ؛ فابتدءوا ببناء هيكل لذلك الكوكب لتلك المدينة التي ذلك الحظ مقصور عليها، وصوَّروا معه مراعيه من الكواكب والصور التي تكون في درجته، ووضعوها في ذلك الهيكل وسنُّوا له سنة أعمال، وثبَّتوها في دستور يتركونه عند سَدَنته ويضيفون إليها ذكر الأمور التي تصلح أن يسألها إذا كان في ذلك الحظ من حظوظه مما هو داخل تحت قسمته، وجعلوا ذلك اليوم من كل سنة عيدًا لذلك الكوكب في ذلك الهيكل، فكان الإنسان من عامَّتهم إذا عَرَضَت له حاجةٌ ما استغنى فيها فسأل عنها في حيز؛ أي الهيكل، فإذا عرفوه نذر لذلك الهيكل نذرًا يليق به، وخرج به إليه في يوم عيده وفعل الأفعال المسطورة له وسأله حاجته.

والمثال في ذلك تمييز الحوائج أن الشمس مثلًا إذا كانت في الحمل — هو شرفها — جعلت في درجة الطالع، وكانت الحوائج التي يمكن أن يسحر بها إنما هي ما كانت من الأمور في قسمة البرج الخامس من الولد، واللذة والفرح بسبب برج الأسد الذي هو الخامس من طالعها، فإذا كانت في الأسد فجُعلت في درجة الطالع كانت الحوائج التي تمكن أن يسحر لها، إنما هي ما كانت من الأمور متعلقة نفسها بالديانات والربانيين والقضاة ونحوها من الأسفار بسبب برج الحمل الذي هو شرفها، وهو التاسع من الطالع، والقمر إذا كان في الثور الذي هو شرفه وجعل في الطالع فإنما يتمُّ من الحوائج ما كانت في القسمة الثالثة من الإخوة والأخوات والقرابات والأسفار القريبة؛ بسبب السرطان الذي هو الثالث من الطالع، وإذا كان في السرطان وجُعل في الطالع، فإنما يتمُّ به الأمور وتُقْضَى به الحوائج ما كانت في قسمة الحادية عشرة من الرجاء والسعادة على ذلك سائر حظوظ الكواكب، وجعلوا الكواكب السيَّارة من الهياكل بحسب ما أوجبه عدة حظوظها، وكانت للشمس منها عدة أشرافها.

قالوا: وللقمر عدة أشرافها أنبياء النواميس والسنن، وكذلك لبقية الكواكب السيَّارة، وزعموا أن التجربة أدَّتهم إلى ذلك وإلى معرفة قوى تأثيراتها؛ فمنها «كلب الجبار» وهو الشعرى العبور، ومنها «الأورون» وهو الجَدْي، ومنها «هروس» وهو الرامي، ومنها «السهى» وهو الكوكب الصغير الذي في بنات الشِّعرى الكبرى، وعملوا أيضًا هياكل أخرى كأنها النفوس المجردة وأجروها مجرى الكواكب والحوائج: منها «الفلوطي» وهو الملك الموكل بالجحيم والهاوية، ومنها «لفوسدور» وهو الملك الموكل بالبحر، ومنها «للموجاس» وهو الملك الموكل بالرياح، ومنها «لميس» وهو الموكل بالروائع العارضة من الجن، ومنها «الفرطوس» وهو الملك الموكَّل بالأمواج إلى غير ذلك مما تخيَّلوه، فتمَّت لهم بذلك سبعة وثمانون هيكلًا، ثم عملوا على هذا الوجه من العمل هيكلًا في وقت كانت الكواكب السيَّارة كلها في خطوطها، وقسموها قسمين: فجعلوا أحدهما للرجال والآخر للنساء، وفي كل واحد من قسميه بيت عظيم ليس في حيطانه نقب ولا في بابه شق، حتى إذا أطبق بابه لم يبقَ منه شيء من الضوء البتة، وجعلوا بابه مما يلي الجنوب وصدره مما يلي الشمال، وصوَّروا بأسمائها البروج الاثني عشر، وعملوا صور الكواكب السيَّارة كل واحد منها معمول من المادة الموافِقة كالشمس من الذهب، والقمر من الفضة، وزُحل من الحديد، والمشتري من الزئبق، والمريخ من النحاس، والزُّهَرة من القلعي، وعطارد من الأسراب.

وجعلوا كل واحد على صورته التي يكون عليها في برج شرفه مما هو مبيَّن في كتب أحكام النجوم، وبين يديها مطرح لطيف عليه سبعة أقراص جواري، قد وُضِعَت على مثال

المرامي ووجهها إلى التماثيل، وعلى كل واحد منها مجهود حربة معمولة من طين أحمر، كل واحد منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة والقريبة من الأصنام للقمر، ولها دور واحد: البعيد منها لزحل، ولها سبعة أدوار، وكل واحد منهنَّ، فأدوارها على مرتبة كونها، وفي كل واحدة منهنَّ مجمرة ولها بخور مفرد؛ فالتي للشمس العود، والتي للقمر الكلية، والتي لزحل الميعة، والتي للمشتري العنبر، والتي للمريخ السندروس، والتي للزُّهَرَة الزعفران، والتي لعطارد المصطكي، وعن شمال الكواكب إبريق شراب وثلاثة قضبان طوال من خشب الطرفا، قد قُطعت من شجرتها قبل صياح الديك، وسكِّين حديد نصابها منه، وخاتم حديد فصُّه منه، لطيف في قدر الظفر منقوش عليه صورة جرجاس رئيس الأبالسة، فإذا حضر عند ذلك، وهو هيكل جرجاس، وفيه يُدْخلون أحداثهم وجواريهم إلى دينهم، وفيه تُذْبَح الديكة، وفيه تلاوة السِّرَّيْن اللذين سنذكر حالَيهما فيما بعدُ، فيأتي رئيس الكهنة، فيدخل إلى بيت من الرجال، ويقعد على ذلك المطرح يحاذي المادة قبل غيبوبة الشمس، ويطبق الباب، والسُّرُج تشتعل والدجى تفتر، وهو جاثٍ قد افترش رِجْله اليسرى ونصب اليمنى، ووضع إبهامه وسبَّابته ووسطاه من يده اليسرى بالأرض، ورفع مثلهنَّ من يده اليمنى، وأقبل يقول في ذلك الوقت قبل صياح الديك قولًا هذا معناه: يا جرجاس الجراجسة، وإبليس الأبالسة، وكبير الشياطين، وعظيم الجن أجمعين، أسألك وأتضرَّع إليك، وأطرح نفسي بين يديك، عالمة أنه لا يخلِّصني إلا رضاك، ولا ينجيني إلا مداراتك إذ كنت مني جاريًا مجرى الحس، وساكنًا مسكن النفس، ومتصرفًا فيما تحت شعاع الشمس.

أخلاطنا بك مثورة، وأعضاؤنا مختلفة، وخِلْقَتنا مشوَّهة، وأفكارنا مبلبلة، وأقدامنا مزلزلة.

وقد عزمنا في صباح ليلتنا هذه على إدخال بعض أحداثنا في دعوتنا وإسماعه سر ملائكتنا، فاحضر معنا واشهد لنا وعلينا، واصرف شرك وبليَّتك غدًا، واطرد ذوي المكر والخداع من أصحابك عن موقفنا.

وأنا أقرِّب إليك وأذبح بين يديك عدوًّا من أعدائك أزرق مربيقًا أفلق، قد طال ما عاداك بطبعه، وكان ذلك بحمده وتسنَّم إلى بِنَا الحرار، وتسلَّق إلى غصون الأشجار، وصوَّح في وجوه الأشجار، وصفَّق بصفيق السماوية والإنذار، فارتاع له جنابك، وتلجلج من خوفه لسانك، ودبَرت بإقباله هاربًا عنه، ونفرت بنفوره مذعورًا منه، وأجعل لك ذلك رسمًا مرسومًا وقانونًا معلومًا في كل حدث أسمعه سِرِّي وأحركه لك في شيء تُصلح به

أمري. حتى إذا صاحت الديكة أمسك عن كلامه وأقبل على ما ينتفع به من نوم أو غيره، فإذا أسفر الصبح أقبل، وقد اجتمع مَنْ حضر من رجال أهل دعوته وحدهم، وجيء بالأحداث الذين يريدون إدخالهم الدعوة وإسماعهم السر فوقفوا على باب بيت السر، ويُعرَّى أحدهم ويقبض على عضده كاهنان، فيُدخلانه وهو مشدود بعصابة وهو يمشي القهقرى، حتى يصل إلى ذلك البيت إلى رئيس الكهنة، ومعه رجل يكفله، ويطبق الباب، والسرج تتَّقِد، والمجامر تدخر، فيقول له رئيس الكهنة: أتحب أن تدخل في ديننا فتسمع ملائكتنا؟ فيقول: نعم. فيقول له: على أنك إن خرجت عن ديني أو أظهرت أحدًا على سري أذلَّ الله رأسك هذا الذي تحت قبضتي بين أصحابي، وأسقط إكليلك من ورائك! فيقول: نعم.

فيقول: لكن إن أقمتَ على ديني وحفظتَ سرِّي فإن رأسك يكون بين أصحابك عاليًا وإكليلك ثابتًا.

ثم يقول لكفيله: أتكفل أنت على إقامته على ديني وحفظ سري؟ فيقول: نعم. فيُضجعه الكاهن على ذلك البساط قدَّام المائدة على جانبه الأيسر، ويتلو على رأسه أسماء الملائكة المذكورة والمرتبة، وهي سبعة وثمانون اسمًا وجرجاس رئيس الأبالسة.

ثم بعد ذلك يقول: طوباك إذ صرت من أهل الاستماع لهذه الأسرار، وإن لم تكن لله طاهرًا فإن الله يطهِّرك.

ثم يتناول تلك السكِّين التي وصفتها ليذبحه بها، فيتقدَّم كفيله فيقول له: فادفع إليَّ خاتمك رهنًا عنه أنه يحفظ المناسك ويقيم على الدعوة ويكتم السر، فيدفع إليه خاتمه والديك.

فيقول الكاهن: فأنا إذن أقبل نفسًا بدل نفس، وندبًا بين يدي الشمس المحيية للنفوس وجرجاس رئيس الأبالسة.

ثم يترك الديك على عنق الغلام ويذبحه وهو يقول: يا جرجاس ملك الأبالسة اقبل هذه الذبيحة، واترك هذا الغلام لأبويه وللملائكة.

ثم يُحمي ذلك الخاتم الحديد بالسراج ويكويه على ظهر إبهام يده اليمنى، وقد أمسك بها تسعة وتسعين، ويكويه ببعض تلك العيدان من الطرفا إلى صدره وجبهته كيًّا خفيًّا لئلَّا يظهر.

ثم يُلبسه ثيابًا جددًا بيضًا وخفًّا من جلود ذبائح الملائكة، ويشد وسطه بعمامة، ويعطيه فطور ملح يرسمه رسمًا مثلثًا، وكذلك يفعل بسائر أصحابه.

وأما جمهور الناس فإنهم يكونون خارج بيت السر في الهيكل وما يليه، يقضون تَفَثَهم ويوفون نذورهم ويذبحون قرابينهم من أصناف الحيوانات ومن الديَكة لجرجاس رئيس الأبالسة، كما ذكر أفلاطون في كتابه المسمى «قاذون» من أن سقراط الحكيم معلمه أوصى عند موته فقال: اذبحوا عني ديكًا في الهيكل فإنه نذرٌ عليَّ، فكانت هذه وصيته آخر عهده من دار الدنيا، ويأكلون لحوم سائر ذبائحهم لئن شاءوا كيف شاءوا إلا لحوم ديوك نذر السر؛ فإنها لا تأكلها إلا بروح الكهنة في بيت السر، حتى إذا فرغ رئيس الكهنة من الأخذ على الأحداث شرع في إسماعهم السر؛ وذلك أن لهم صنفين من الكلام كل واحد أطول من سور القرآن الطوال: أحدهما يسمونه سر الرجال والآخر يسمونه سر النساء، فسرُّ الرجال لا يسمعه إلا الرجال، وسر النساء لا يسمعه إلا النساء، والسرَّان جميعًا متساويان في عدد الألفاظ والحروف.

وإن ألفاظهم جميعًا إذا نُثِرَت ثم نُظِمَت نظامًا تكون فيه كل كلمة أحدهما بين لفظتين من الآخر حدث منهما تأليفات كثيرة، وإنه يكون في جملة تلك التأليفات أربعة تأليفات كل واحد منها يتضمَّن قوانين وبراهين علم من العلوم الأربعة، التي أحدها الطب الذي تصحُّ به الأجسام وتُنْفَى به الأسقام والآلام ويتمكَّن من الانتفاع بسكني الدار.

والثاني: علم الكيمياء الذي به يُدْفَع الفقر ويُكْشَف الضُّرُّ.

والثالث: علم النجوم وأحكامها الذي به يُطَّلع على ما يكون قبل أن يكون.

والرابع: علم الطلسمات الذي به يلحق الرعية بطبيعة الملوك، والملوك بطبيعة الملائكة، والذي يمنع من كشف هذه العلوم وبذلها للجمهور من العامة ما يتخوَّف به على الخاصة؛ إذ كانت العامة بما هي عليه من الضعف في الهمة وقلة العلم وقوة الشر بسوء الأخلاق وقبح العادات ينهمكون في الشهوات كيف كانت ويتناولونها من أين وُجِدَت، ولا يراعون في ذلك رجوعًا إلى دين ومروءة ومعرفة بالواجبات والمحظورات، فيفسد بذلك الترتيب المحمود ويخرج عن الحدِّ المعروف إذا دخل العامي إلى معرفة علم الكيمياء مثلًا إذا أنفق ما ينفقه فيما لا يحصل إلا فيما أباحته له الشريعة.

وهكذا إذا علم ما لا يجوز أن يعلم من علم الطب من الشمومات والخواص التي هي قوى الأدوية من المعادن وغيرها.

فينبغي أن يصان أيضًا هذا العلم عمن لا يستحقه ويُمْنَع عمن ليس هو أهلًا لاستعماله.

فإنه إذا علم العامي — الذي تقدَّم ذكره ووصفه من علم الطلسمات — ما لا يجوز لمثله أن يعلمه ولا يستعمله كانت الحال فيه كالحال التي حكاها أفلاطون الفيلسوف في كتابه في السياسات.

وقد تقدَّمت حكايتنا لذلك في صدْر رسالتنا هذه من حال الراعي الذي قَتَل الملك وجلس في الملك مكانه من غير أن يكون له أهلًا ولا مستحقًّا لذلك.

وقد كان من المعظَّمين عندهم: قولوس، وأسروا الروم ورثة السر «قلبه بوار»، وهي التي حرَّمت منع المعزى، وجعلتهنَّ للقربان فقط خالصة وأن لا يقربهنَّ حامل ولا يأكل لحومهنَّ.

ويعظمون آروس، وصب الماء الذي سقط من الآلهة في أيام أسطرونيقوس، وخرج قاصدًا إلى بلد الهند فخرجوا في طلبه فلحقوه وسألوه أن يرجع إليهم فقال لهم: إني لا أدخل بعد هذا بلد حران، ولكن أجيء إلى كاذي — ومعنى كاذي ها هنا هو مكان في شرق حران — وأتفقَّد مدينتكم.

وهم إلى اليوم يخرجون في يوم عشرين من نيسان من كل سنة لتوقُّع ورود ذلك الصنم، يسمون ذلك العيد عيد «كاذي»، فانتظارهم لورود هذا الصنم مثل انتظار اليهودي للمسيح. وهم يحفظون الجناح الأيسر من الديك الذي يُذْبَح في بيت سر الرجال ويعلقونه على الحوامل وأعناق الصبيان على سبيل الحرز.

ومن رسومهم العامية أيضًا استكثارهم من الأكل والشرب، وتوسُّعهم في النفقة في أول يوم من نيسان، وهو رأس السنة عندهم. فهذا ما عرفناه وسمعناه من الأخبار والدلائل على تصحيح الرأي في علوم النجوم، وما يتبع ذلك من علوم السحر وعلوم الطلسمات.

وأما الاحتجاج على كل حال فصلًا فصلًا، ومعنًى معنًى، وإقامة البرهان على دون ذلك ونصرته، فكتب القدماء والفلاسفة مملوءة به، وهو أكثر من أن نحصيه في كتاب واحد وفي رسالة واحدة.

فأما قوة الرقى والعزائم والوهم والزجر وما أشبه ذلك وتأثيراتها، فإن مَنْ شاهد الأفعال التي تورثها الأدوية والعقاقير في الأجساد وفي الأنفس المقارنة للأجساد من أصناف التأثيرات، وما قد تشاهده أيضًا وتسمع به من تأثيرات بعض الأدوية والعقاقير والأحجار في بعض؛ كحجر المغناطيس في الحديد وجذبه، وجذب السقمونيا في الصفراء، وجذب الحجر الأرمني في السوداء، وحجر الشب ومنفعته لوجع المعدة إذا حُمِلَ عليها من خارج، ومنفعة ذيل الذئب للقولنج، ومنفعة الخيوط المخنَّق بها الأفعى إذا أُلْقِيت على خارج مَنْ

به ذبحة، ومنفعة عود الصليب من الداء الذي يُسمَّى أم الصبيان، ومضرة الأرنب البحري في الرئة لأنه يُقرِّحها، والزرانيخ تُقرِّح المثانة، والمُرْدَاسَنْج إذا أُلْقِيَ في الخل بدَّل حموضته بالحلاوة، وإذا أُلْقِي في النَّوْرَة سوَّد البدن، وحجر المغناطيس الذي يجذب الحديد إذا هو دُلكَ بالثوم بطل الفعل عنه، فإذا غُسِلَ بالخل عادت تلك القوة إليه ورجع إلى فعله. ومثل هذا كثير جدًّا يطول شرحه وتعديده، وقد ذُكر منه كثير في كتب الخواص وجرَّبه كلَّه أو أكثره مَنْ ينشط من النار بتجربته، فقد شاهد هذه الأمور خاصة من الجمادات وكيف تؤثِّر التأثيرات الظاهرة بعضها في بعض، فقد رأينا تأثيرات النفس الناطقة في النفس الحيوانية من أصناف التأثيرات في قمعها لها وكسرها لقوتها، وما هو مذكور مسطور في الكتب المصنَّفة في إصلاح الأخلاق للفلاسفة وفي كتب الدين، وفيما ذُكر من الوعد والوعيد، ومما تُكسر به الأخلاق الرديئة والأفعال القبيحة من المقاومة لها بأضدادها من الأفعال الجميلة؛ كمن يقهر الحدَّة التي هي من قوى النفس الغضبية التي تُسمَّى النفس الحيوانية بالحلم الذي هو من قوى النفس الناطقة، ويقهر العجلة بالأناة والشهوة بالعفة، وسائر الأخلاق الرديئة بالأفعال الجميلة المحمودة، ورأينا ما تؤثِّر أيضًا النفس الناطقة في النفس الشهوانية، ولا سيما إذا استعانت الناطقة على الشهوانية بالنفس الحيوانية التي تسمى الغضبية بقهرها لها بها، وبقمعها حتى تنقاد لها وتذللها وتقيمها على الاعتدال في سائر أحوالها حتى لا تخرج عن العدل وعما توجبه السياسة الفلسفية والأوامر والنواهي الشرعية والسنن الدينية، حتى لا تدعها تخرج عن ذلك ولا تجاوزه إلى ما لا يحلُّ في الشريعة ولا إلى ما لا يجوز في العدل عند الفلاسفة.

ثم قد رأينا أيضًا ما تؤثِّر النفس الناطقة في النفسين البهيميتين؛ أعني الغضبية والشهوانية، اللتين في الحيوان بما قد استخرجته من الأسباب المؤثرة فيها كالزجر، وما تفعله من الزجر في نادي الحيوانات، كما يفعل الرائض بالخيل وتذليله لها للركوب، وغير ذلك، كما يفعله الفيَّال بالفيل من رياضته وتذليله، وغير ذلك مما يجذب به النفس الناطقة النفس البهيمية إلى تدبيرها وسياستها، وكما يفعل الصفير للخيل والبقر عند شربها والحداء للجمال وغيرها، وما يفعلونه إذا أرادوا حثَّها على السير أشاروا إليها بإشارات قد عوَّدوها هي حتى تنقاد لهم إلى ما يريدونه منها، وما يفعلونه إذا أرادوا منها أن تقف وتمسك عن السير أمسكت ووقفت لهم، ونفوسها تقبل هذه الإشارات المختلفة على اختلاف طبائعها. والزجر للخيل والبغال والحمير غير الزجر للإبل والبقر والغنم،

وكل جنس من هذه وكل نوع منها يُراض بإشارةٍ ما غير الأخرى، تؤثِّر فيه تلك الإشارة ويكون خاصة فيها، فتؤثِّر تلك الإشارات المختلفة في أنفس الحيوانات، وتقبلها منهم أنواع الحيوانات قبولًا ظاهرًا واضحًا على اختلاف طبائعها، وتقهرها النفوس الناطقة وتجذبها إلى ما تريد منها على اختلافها، كاختلاف تأثيرات العقاقير على اختلاف طبائعها في الأعضاء المختلفة بالخواص التي فيها؛ فهذا أيضًا دليل على أن الرقى والعُوذ،[1] تعمل في الأنفس وتؤثِّر فيها على قدر جواهرها وطبائعها.

ثم إن الحكماء دلت على الخواص التي في العقاقير والأدوية على طبائعها، وأثبتت كل طبع وكل خاصية لماذا يصلح وينفع؟ ولماذا يضر ويؤذي؟ ولأي داء ينفع؟ ولأي عضو من الأعضاء يضر؟

كذلك أيضًا قد دلَّت على هذا الرُّقى والعُوذ والنُّشَر، وأثبتت ما يفتح لكل شيء من الحيوان وما يخصه؛ مثل رقية قلم السرور ورقى الحياة، ومثل ما تؤثِّر رقية العقرب ورقية الزنابير وغير ذلك من الحيوان، ومثل ما يؤثِّر السحر في أنفُس الآدميين وأجسادهم، وهو شيء يطول الشرح فيه، وقد حكينا فيما تقدَّم من رسالتنا هذه ما قد دلَّ على صحة القول به وصحة العلم بالطلسمات، وفي بعض ما ذكرناه كفاية في الدلالة على صحة القول به وصحة العلم لمن وقع بما قلناه فيه. وأما هذه الرُّقى والنُّشَر والعزائم وما يشاكلها فإنما هي آثار لطيفة روحانية من النفس الناطقة تؤثِّر في النفس البهيمية وفي الحيوان، فمنها ما يحرِّكها ويزعجها ومنها ما يقمعها، ومنها ما يعمل فيها تأثيرات قوية أعمالًا مختلفة؛ فيه إصابة بالعين وربما شجَّه وربما صرعه.

فقد رأينا كثيرًا مَنْ يصرع الإنسان في أقل من ساعة إذا جلس بين يديه! وإنما ذلك أثر لطيف يبدر من نفس فيعمل في نفس أخرى، كما يبدر الشرر من النار فيقع في الأجرام فيحرقها، إلا أن الذي يبدر من النفس روحاني لطيف؛ لأنه يخرج من النفس اللطيفة ويعمل في لطيفة مثلها، والذي يخرج من النار هو أكثف منه على قدر كثافة النار، ويعمل في الأجرام الكثيفة ويكون سبب هذا الأثر — إذا نظرت وتصوَّرت صورة المنظور إليه — في الفكر، والفكر هو أحد حواس النفس الناطقة، ومؤدَّى ما يحيط به إلى النفس بدر من النفس بادر فأثَّر في نفس المنظور إليه فصرعه.

[1] العُوذ: بضم العين بعدها واو مفتوحة وذال مضمومة جمع عُوذَة، من عَوَّذ بعين مفتوحة وواو مشددة، وأعاذه إعاذة رَقَاه ودعا له بالحظ، وعوَّذه بواو مشدَّدة: طلب له الحفظ وعلق عليه العوذة.

وهذا موجود ظاهر في الملقوعين،[٢] وكثيرٌ من الناس مَنْ يدفع هذا ولا يؤمن به ولا يصدِّقه، وهو شيء واضح مُشاهَد وما يسمعه دائمًا.

فيُحْكى عن قوم من أهل النهد أنهم يؤثِّرون في غيرهم بأوهامهم أشياء عجيبة ينكرها أكثر الناس، وبذلك يُدْفَع السحر، كما حكينا في هذه الرسالة عنهم، ويُدْفع الرقى والوهم؛ لأن مثل هذا هو من اللطائف التي تشبه الغيب، ولكنه موجود، وفي الملقوعين خاصة ظاهر، وإنما يدفعه مَنْ يدفعه من جهة أنه قد تشبَّث بدعاوى كاذبة قد أصَّلتها أصحاب المخاريق الكذابين ودسُّوها فيما يشبه ذلك الجن، كما قد حكينا في صدر هذه الرسالة في معنى تكذيبهم بما يستمعونه من ذكر السحر وذكر عمل الطلسمات إذا سمعوا من بعض الطالبين له من الجُهَّال الخائضين في طلبه، والمتعاطين له من غير معرفة به أصلًا، ولا عرفوا أصوله؛ مثل إنسان أبْلَه قليل العلم والعقل جميعًا، أو امرأة رعناء جاهلة أو عجوزة، كذَّبوا هؤلاء ورفعوا أنفسهم عن أهل هذه الطبقة؛ إذ ظهر لهم نقصهم وجهلهم إذ وجدوا أكثر هذه الأمور التي قد أفسدها أولئك الجهال الكذابون باطلة، حكموا على جميعها بالبطلان؛ ولأن الذي هو من جهة الكذابين هو أكثر وأعمُّ.

فأما الأصل الذي هو من الحكماء فهو صحيح وعن الأصول الصحيحة، وهو قليل جدًّا.

وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «السحر حق. العين حق.» ورُوِيَ أنه ﷺ سُحِرَ به، وأن السحر استُخْرِج من الجُبِّ والحديث في ذلك مشهور،[٣] ورُوِيَ عنه ﷺ أنه أمر رجلًا لُقع صعدًا أن يُسقى له، وهذا أيضًا حديث مشهور، وإنما أمر الرجل أن يغسل له ليزول عن الملقوع ما أثَّرت فيه العين بما بدر منها وأن يزول ذلك بما يبدر منه؛ ولأنه ﷺ علم ذلك بخصوصيته وكيفيته وعرف السبيل فدلَّ عليه.

ومثل هذا ما نشاهده من التثاؤب، ونرى إن تثاءب رجل تثاءب جليسه، حتى ربما يتثاءب جماعة من مجلس واحد.

---

[٢] الملقوعون: جمع ملقوع، والملقوع مَنْ أصابته العين، والملقوع أيضًا مَنْ ناشته الحيَّة. واللَّقاع بفتح اللام المشددة وضمها: الذباب الأخضر الذي يلسع الناس، الواحدة لَقاعة بفتح اللام وضمها. والمعنى الأول هو المراد كما يُفْهَم من سياق الحديث، والله أعلم.

[٣] الحديث الوارد في هذا حديث مدسوس، واعتقاد أنه ﷺ يؤثِّر فيه السحر كفرٌ صراح لا يقول به مسلم؛ لأنه لا يتفق مع مقام الرسالة وما يجب لصاحبها من عصمة عن الزلل والخطأ وغيبوبة العقل، وما ورد من أمره بالتعوُّذ لا يفيد أنه سُحِرَ وإنما هو تشريع لأمته.

وهذا من جهة العدوى، وهي أيضًا أثرٌ يؤثَر، فبدأ من النفس التي ينظر إليها ويؤثِّر فيها، وهذه الصفات التي ذكرناها دليل على تأثير الرقى والنُّشَر والعزائم في الأنفس البهيمية التي في أصناف الحيوانات، وإنما ترى الراقي يستعين على الرقية بالنفث والنفخ وغير ذلك؛ لأن النفث والنفخ هما من جوهر هذه البهيمة بحركة من النفس المنطقية، ويؤثِّران فيها كما يؤثِّر الصفير والنفير وسائر الإشارات التي ذكرناها، وإنما يقف على حقائقها واللطائف التي فيها الحكماء المطهَّرون الذين أُيِّدوا بالوحي من الله عز وجل، فهم يعرفون سبب كل شيء وفي ماذا يؤثِّر؟ وإلى أي جوهر من الحيوان يؤدي؟ فمنها ما دلُّوا عليه ووقع في أيدي الناس وعملوا بها كما يرى، مثل ما دلُّوا على حجر المغناطيس وما فيه من الطبع الذي يجذب الحديد، ومثل هذا لو كان خبرًا ما صدَّق به كثير من الناس وكذَّبوه كما كذَّبوا غيره ما لم يشاهدوه ولا يعرفوه، ولكن العيان والمشاهدة في الأجساد والحجرية والعقاقير المواتية، أفليس يمكن أن يكون مثل هذا في الحيوان مع ما فيه من الفضل على الموات بالنفس البهيمية الممتزجة المتهيئة لقبول أثر النفس الناطقة فيها، وما يشاهَد من أفعالها. ولا سبيل لنا إلى إدراكها أكثر مما أدركناه ومعرفة كيفيتها وعللها والأسباب إلا بتوفيق من الحكماء الذين خُصُّوا بعلمها عليهم السلام: فمنهم من أُعطي كثيرًا منها كما رُوِيَ عن المسيح، عليه السلام، أنه كان لا يمر بحجر ولا شجر ولا بشيء من الأشياء إلا ويكلِّمه ويعرِّفه لما يصلح له، ولم يكن ذلك الكلام من الممات جوابًا، بل كان إشارةً وتوهيمًا واعتبارًا، وكان عليه السلام، يعرف ما فيها بوحي من الله تعالى خالقها، وهو يورث الحكمة مَنْ يشاء من عباده المصطفين، صلوات الله عليهم أجمعين ورحمته وبركاته.

والآن قد مضى من الكلام في هذه الرسالة أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، ما نظن أن لك فيه مقنعًا وكفاية من جهة السمع والخبر، ولا سيما إذا كنت تأمَّلت ما قد تقدَّم لنا من الكلام في خمسين رسالة عملناها قبل هذه؛ فهي مقدمات لها ومُعِينة في إحاطة علمك.

فلهذا نريد الآن أن نقطع الكلام ها هنا لبلوغنا غرضنا لتمام هذه الرسالة الأخيرة، التي هي آخر الرسائل التي ضمنَّا لك علمها ووفينا بتمامها. أعانك الله وإيانا أيها الأخ البارُّ الرحيم على ما يرضيه، ووفَّقنا وإياك فيما أدنانا إلى مقصوده بنا، وبلَّغنا إلى غاية مشيئته فينا من الكمال الذي قصدنا. فله الحمد منا ومن جميع إخواننا الكرام دائمًا أبدًا بلا زوال ولا انقطاع كما هو أهله ومستحقه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) فصل في بيان حقيقة السحر وغيره

اعلم أيها الأخ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن السحر ينصرف في اللغة العربية على معانٍ كثيرة قد ذكرها أصحاب اللغة العارفون بها وأصحاب التفسير لها.

ونريد أن نذكر منها ما يليق بكتابنا هذا؛ ليكون دليلًا على ما نورده من القول في هذا الفن؛ فمن ذلك أن السحر في اللغة العربية هو البيان والكشف عن حقيقة الشيء وإظهاره بسرعة العمل وأحكامه، ومنه الإخبار بما يكون قبل كونه، والاستدلال بعلم النجوم وموجبات أحكام الفلك، وكذلك الكهانة والزجر والفأل، فإن كل ذلك إنما يوصَل إليه ويُقْدَر عليه بعلم النجوم وموجبات الأحكام الفلكية والقضايا السماوية.

ومن السحر قلب العيان وخرق العادات، ومنه ما يُعمل من الخيال والحكايات والتمثيلات، ومنه الدك والشعبذة، ومنه البخورات المنتنة التي تجلب الصَّرَع والبله والحيرة وما شاكل ذلك.

وهو ينقسم أقسامًا كثيرة ويتنوَّع أنواعًا شتَّى، ويقال عليه في جميع اللغات بأقوال مختلفة قد ذكرتها العلماء وبيَّنتها الحكماء، ومنه سحر عملي ومنه سحر علمي، ومنه حق ومنه باطل، ومنه ما رُمِيت به الأنبياء ووُسِمَت به الحكماء، ومنه ما يختص بعلمه النساء. والعرب تقول إذا أرادت السرعة في البيان وإقامة الدليل والبرهان: سحرني فلان بكلامه. وإذا كشف الغطاء وأزال الشبهة يقول العلماء: أتى بسحر عظيم سَحَرَ به العقول. ومن ذلك قول النبي ﷺ في رجل مدح صاحبًا له فصدَق ثم ذمَّه فصدَق في مقام واحد: «إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرًا.»

كذلك لما رأت الأمم الماضية والقرون الخالية من الأنبياء ما رأت من المعجزات الباهرات والآيات الظاهرات والبيان اللائح والدليل الواضح سمَّوهم سحرة. ووسموا به الحكماء لما رأوهم يخبرون بالكائنات فيتكلمون بالإنذارات والبشارات بما يكون في العالم من السرور والخيرات ونزول البركات والنعمات، فنسبوهم إلى الكهانة لمَّا عُمِّيت عليهم الأنباء ولم يعرفوا النبوة والأنبياء عليهم السلام، وزعموا أن لهم أصحابًا من الجن يأتونهم بأخبار السماء فيعلمون بذلك ما كان وما يكون. وقد ذكر الله تعالى في كتابه حكايةً عن هذه الطائفة ما رُميت به الأنبياء من السحر؛ مثل ما قال فرعون لما جاء موسى عليه السلام، بالمعجزات لقومه لما رأوا من موسى وهارون: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾. عنى بذلك أن موسى عليه السلام إنما يعمل ما يعمله بتخيُّل وتحيُّل وشعبذة لا حقيقة لقوله ولا صحة لعلمه، مثل

ما أشار عليه هامانه وسوَّل له شيطانه بقوله: ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، يعني كل مشعبذ وممخرق[٤] ومنمِّق لقوله وملفِّق لعمله، وما كان من قصته وتسليم السحرة إلى موسى وهارون، عليهما السلام، وما كان منهم ورجوعهم عما كانوا عليه نادمين وتبرِّيهم مما كانوا يعملون، وقولهم: آمنَّا برب موسى وهارون. ومثل ما قالت الجاهلية المشركون في نبينا محمد ﷺ: إنه ساحر كذَّاب؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾.

وكل نبي نطق، وكل حكيم صدق، وأتى بالمعجزات وأظهر الآيات، أُلْقِيَ عليه هذا الاسم وعُرِفَ بهذا الوسم، عند الأمم الطاغية، والأحزاب الباغية، تكذيبًا للأنبياء، وردًّا على الحكماء.

واعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن ماهية السحر وحقيقة هذا هو كل ما سُحِرَت به العقول، وانقادت إليه النفوس من جميع الأقوال والأعمال بمعنى التعجب والانقياد والإصغاء والاستماع والاستحسان والطاعة والقبول.

فأما ما يختص منه بالأنبياء، صلوات الله عليهم، فكالعلم بالأمور التي ليست في وُسْع البشر العلم بها إلا من جهة الوحي والتأييد وأخذها من الملائكة، وهي الكتب المنزَّلة، والآيات المفصَّلة، والأمثال المضروبة، الدالَّة على حكمة الله سبحانه وتوحيده، وبيان الحلال والحرام، وإيضاح القضايا والأحكام، والإخبار بالغيب بما كان وما يكون؛ ولذلك كانت الجاهلية تقول لمن اتبع الرسول ﷺ ودخل الإسلام: قد صار فلان إلى دين محمد وقد عمل فيه سحره.

فهذا هو السحر الحلال، وهو الدعاء إلى الله سبحانه بالحق وقول الصدق. والباطل منه ما كان بالضد؛ من مثل ما يعمل به أضداد الأنبياء وأعداء الحكماء، من تنميق الباطل وإظهاره، ودفعهم الحق وإنكاره بالباطل من القول، وإدخال الشكوك والشُّبَه على المستضعفين من الرجال والنساء ليصدُّوهم عن سبيل الله وطريق الآخرة، وليسحروا عقولهم بالباطل وليحُولوا بينهم وبين الفوز والنجاة. وهم شياطين المشركين ورؤساء المنافقين في الجاهلية والإسلام، وهم في كل عصر وزمان يصدُّون عن دين الله سبحانه ما

[٤] المشعوذ والمشعبذ: مَنْ يُريك الشيء على غير حقيقته لخفَّة اليد وسرعة الحركة، والمحمرق: الكاذب المموِّه المختلِق. وقد أُخذ هذا اللفظ للدلالة على التمويه والكذب من مخاليق الصبيان المفتولة التي يلعبون بها.

قدروا عليه، ويزيلون من سنة الناموس بسحرهم ما وصلوا إليه؛ فهذا هو السحر الحرام الباطل الذي لا ثبات له ولا دوام، والذي لا برهان عليه ولا دليل صادق مرشد إليه، والعامل به ملعون، والمصدِّق مفتون، والطالب له مشئوم.

(٢) فصل في أن السحر المذكور في القرآن ...

وأما السحر المذكور في القرآن المنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت فإن العامة قد قالت فيه أقوالًا مسترذَلة لا صحة لها.

ولهذا القول معنًى دقيقٌ قد ذكرته العلماء الذين عندهم علم من الكتاب لمن وثقوا به من خواصِّهم وأودعوه عند أولادهم النُّجَباء وإخوانهم الفُضَلاء.

ونريد أن نضرب في ذلك مثلًا قد حُكِيَ وخبرًا قد رُوِيَ، يقرب به عليك فهم ما تريد الوقوف عليه والوصول من ذلك إليه، وبالله التوفيق.

(٣) فصل حُكِي أن ملِكًا من ملوك الفُرس كانت له نعمة ظاهرة ...

حُكِيَ أن ملِكًا من ملوك الفُرس كانت له نعمة ظاهرة وهيبة قاهرة، وسلطان عظيم وملك عقيم، وكان له وزير له رأي وعزيمة، قد رأى السعادة في تدبيره والكفاءة في توزيره، قد كَفَاه أمر التدبير مما يحتاج إليه، فهو مشغول بلذَّته وتناوُل نهمته، في لذة من عيشه وأمان من مصائب الزمان وحوادث الأيام.

والوزير يُورِد ويُصدِر بحميد رأيه وجميل نيته وحسن طويَّته، فأقام الملك على ذلك مدة من دهره وبُرْهة من عمره.

فلما كان في بعض الأوقات عرضت للملك علَّة كدَّرت عليه عيشه ونغَّصت حياته، فتغيَّر لونه، وهزل جسمه، وضعفت قوَّته، واشتغل من تلك العلة، واستدعى وزيره وقال له: قد ترى ما نزل بي من هذه العلة التي قد حالت بيني وبين اللذات حتى قد تمنيت الموت ومللت الحياة.

فرقَّ له الوزير وبكى عليه، ثم خرج فجمع الأطباء والتمس الدواء، ولم يدع مستطبًّا ولا معزِّمًا ولا صاحب نجامة وكهانة إلا أحضره، وأعلمهم علَّة الملك وما يجده من الألم والوجع، وأنه يشكو ضَرَبان جسده والتهاب حرارة في قلبه وكبده، فكلٌّ قال وما أصاب، وعمل وما أفلح، وعالج فما أنجح.

واشتدَّت تلك العلة بالملك، واشتغل الوزير بذلك عن تدبير المملكة وسياسة الخاصة والعامة من خدم المملكة ورعيتها، واضطربت الأعمال وعصت العمال، وكثرت الخوارج في أطراف المملكة وأقاصي الدولة؛ فعظُم ذلك على الوزير وتحيَّر، وخاف على الملك الهلاك، فعاد إلى جمع الحكماء وإحضار العلماء ومَنْ قدَر عليهم من الشيوخ القدماء، وأعاد عليهم القول واستدعى منهم الجواب، وكان فيهم شيخ كبير قد عرف وجرَّب، فقال:

أيها الوزير، إن العلة التي بالملك معروفة بظاهرها، خفية بباطنها، ومثل هذه العلة لا يكون إلا عن حالين: إحداهما في النفس والأخرى في الجسد.

فالذي في النفس ينقسم قسمين: فأحدهما يختص بالنفس الناطقة والقوة العاقلة والآخر يختص بالنفس الحيوانية والقوة الشهوانية.

والذي يختص بالجسم أيضًا ينقسم قسمين: بالحر واليبس، والآخر بضده وهو البرد والرطوبة.

وأما ما يختص بالنفس الناطقة فهو الفكر في المبدع، جل جلاله، وما أبدع، والحيرة فيما خلق وَبَرأ وأنشأ، وإعمال الرويَّة وإجالة الفكر في كيفية الابتداء والانتهاء، وما شاكل ذلك من الأمور الإلهية.

فإن النفس إذا غرقت في هذا الأمر وانغلقت عليها أبوابه وتعذرت أسبابه ضاقت وحرجت فأحرقت طبيعة الجسد، فضعفت القوى الطبيعية عن تناول الغذاء وحدث بالجسم ما ترى من الضعف والتغير والهزال والضنى.

ولا يزال ذلك كذلك يتزايد ما دامت تلك العلة مستدامة والخاطر مشغولًا بها والأبواب عليه مغلقة والأسباب متعذرة، ولا يجد مَنْ يفتح عليه ما انغلق من أبوابه ويسهل ما صعب من أسبابه.

وأما القسم المختص بالنفس الحيوانية والقوة الشهوانية فكالعشق للصورة البهيمية من النساء والصبيان والأحداث والمردان؛ مثل ما يعرض للعاشق إذا غاب عنه معشوقه وحيلَ بينه وبين محبوبه، فيظهر به من الضعف والتغيير ما يكون به تلف الجسد وانحراف المزاج وفساد البنية، وربما دخل عليه زيادة أدَّته إلى الماليخوليا واحترق ووصل المرض إلى شغاف قلبه فهلك وباد.

وأما ما يكون في الجسد من العلل العارضة من جهة الطبائع الأربع فإن لكل علة تحدُث من فساد المزاج غلبة الطبائع بعضها على بعض، فله علامات يُستدل بها على تلك العلة ومواضع يقصد بالأدوية إليها، ولا يجب للطبيب الحاذق أن يبدأ بدواء العليل إلا بعد السؤال له عن السبب في تلك العلة ما هو؟ وكيف كان؟ وعما كان؟ وما أصله؟ أهو

شيء من المأكولات أسرف في أكله؟ أم مشروب أترف في شربه؟ أو غم عرض له؟ أو همٌّ دخل عليه؟ أو حال اشتغل به قلبه وفكره؟ أو صورة حسنة رآها فوقعت في قلبه، ثم حيل بينه وبينها ومُنع من تناول لذَّاته منها؟ وأي موضع يجد الوجع من جسمه؟ وبماذا يختص من أعضائه؟ وأي شيء يشتهيه؟ وأي حديث يُلهيه ويُرضيه؟ وأي سماع يُطربه؟ فإذا أخبر العليل طبيبَه بشيء مما ذكرناه إذا سأله، وكان العليل صحيح العقل، ازداد الطبيب الماهر علمًا به، واستشهد على ما أخبره لفظًا بما يدل من البرهان عليه بالحس، وما تبيَّن له من صحة النبض مما يستدل به على صحة ما أورده المريض.

ويسترشد الطبيب على قول المريض وشهادة النبض بشاهدٍ آخر وهو الماء، فإذا اتفق النبض والماء مع شكوى المريض فقد عرف حينئذٍ الطبيب العلة وما يختص بها من الأعضاء، فإن تغلبت إحدى الطبائع وضعفت الأخرى أرسل إلى ذلك العضو ما يوافق طبيعته ويلائم قوَّته؛ لينقمع به ضدُّه الذي يضايقه في مكانه بالملاطفة والتدريج، ولا يحمل عليه بالدواء الحاد في أول دفعة؛ فإنه ربما أحدث له ذلك فسادًا لا يُرْجَى صلاحه، والمثال في ذلك النار المشتعلة في الحطب أول ما وصلت إليه؛ فإنها إذا قويت وأُلْقي عليها الماء ازدادت حرارتها وقويت بخاراتها، فأتلفت ما وصلت إليه واحتوت عليه. فاسأل أيها الوزير عن بدء هذه العلة كيف كانت؟ وما السبب فيها والحال الموجِب لها؟ فلعلَّنا إذا عرفنا ذلك نتداركه بالملاطفة وحسن التدبير إن شاء الله. قال الوزير: أيها الحكيم، إن في أدب وزراء الملوك، ومن الواجب على مَنْ صحِب الملوك ألَّا يبدأهم بالسؤال لهم عما لا يجب له السؤال عنه، ولا يهجم عليهم بذلك إلا أن يبدءوا به، ولا يطلب الدليل على ما يقولونه، بل يستمع ويصدِّق ويسلِّم إليهم في جميع أمورهم، ولا يعترض عليهم في أفعالهم وأعمالهم، وأنا أهاب الملك وأخاف منه أن أسأله عن شيء لم يُبْدِه وحالٍ يخفيها ولم يُطْلعني عليها، لا سيما في أمر نفسه وجسمه. قال الحكيم: أيها الوزير، إنه لا سبيل إلى شفائه ومعرفة دوائه إلا بعد الإبانة عما ذكرته لك، وأنا أرى أن سؤالك له عن أمره وما أخفاه من سره يكون سببًا لحياته ونجاته إن شاء الله، فإذا أعلمك ذلك فأعلِمْني به واحفظه عنه؛ لئلَّا تنسى مما يحكيه شيئًا.

ثم انصرف ذلك الشيخ ومَنْ حضر المجلس من الأطباء، ونهض الوزير فدخل على الملك، فلما رآه أنِس به وأدناه بقربه وسأله: هل وجد له دواء واتجه له عنده شفاء؟ فأكثر الوزير من الدعاء له، ثم أقبل عليه فسأله عن بدء العلة كيف كان؟ وما الذي كان السبب في حدوثها به؟ فلما سمع الملك من وزيره هذه المسألة التي لم يكن سأله عنها قبل ذلك

أمر مَنْ كان بين يديه من خدمه أن يُقْعِدوه ويُسْنِدوه ففعلوا ذلك، ثم أمرهم بالبعد عنه، فلما رأى الوزير ذلك خاف على نفسه وفزع واستوى الملك جالسًا على فراشه وقال له: ادنُ مني وأعِدْ هذه المسألة عليَّ، واصدقني، فإني أرجو الشفاء بصدقك إياي، وإنك قدرت على الدواء في إزالة الداء إن شاء الله؛ فإني لم أسمع منك هذا السؤال قبل هذا، والواجب على الملوك في أدب المملكة ألَّا يبدءوا مَنْ يُلمُّ بهم من عبيدهم وخواصهم بكشف أسرارهم وبما يحدث منهم في خلواتهم وما يجيلونه في أفكارهم، لا سيما إذا لم يجدوا له أهلًا يكشفونه لهم ويودِعونه عندهم، ويرجون بهم فتح ما انغلق عليهم بابه وتعذرت أسبابه.

وقد كنت في طول هذه المدة التي حدَثت بي فيها هذه العلة أريد مَنْ يسألني عن ذلك فأُبْديه له فلم أجد سائلًا يسألني عن ذلك، وكلما عدمت مَنْ أبثُّ إليه الشكوى وأخرج إليه بما أجد من البلوى صعبت العلة عليَّ، وتزايدت المحنة لديَّ.

فلما سمع الوزير ذلك من الملك تحقق قول الشيخ الحكيم المجرب وعلم أنه صدق وأصاب.

وقال له الوزير: أرجو أن أكون موضعًا لهذا الأمر وكشف هذا السر.

فقال الملك: إن شاء الله. ثم ابتدأ الملك فقال: إني كنت في بعض الأيام قد ظهرت نعمة الله تعالى عليَّ، وأحضرت أجلها لديَّ، وأمرت بإخراج ما في خزائني من الجواهر النفيسة والآلات الثمينة مما جمعته أنا في أيامي وما ورثته عن آبائي، فأُحضر بين يديَّ في خلوة من حشمي وعبيدي وخُزَّاني الذين كانوا نقلوه إليَّ بين يدي، فرأيت منظرًا أطربني غاية الطرب، وفرحت بها وطربت لها وأخذت منها بالنصيب الأوفر والحظ الأجزل من الغبطة والسرور، والجذل والحبور، فكبرتْ نفسي وعظُم قدري وظننت أنِّي قد وصلت إلى ما لم يصل إليه أحد غيري، وأنِّي من أسعد السعداء، ثم إني نمت فرأيت في منامي كأني في تلك الحال على أحسن ما يكون وأتمِّه وأكملِه، وكان رجال دولتي وعبيد مملكتي كلهم قيام بين يديَّ، خاضعون لي ساجدون، سامعون لقولي مطيعون لأمري، وأنا على سرير مملكتي في محل كرامتي.

فبينما أنا كذلك إذ رأيت رجلًا شابًّا مليح الصورة حسن الأثواب لم أرَه قبل ذلك الوقت ولا عرفته، وكأنه بالقرب مني ينظر إليَّ نظر المستهزئ بي، غير هائب ولا خاضع بين يديَّ ولا مسلِّم عليَّ، مستقِلٌّ بجميع ما أنا فيه وكأنه يملك ما لا أملكه، ويقدِر على ما لا أقدر عليه، ويصل إلى ما لا أصل إليه، فغاظني ذلك منه، وكأني قد هممت بالإيقاع به وأمرت به مَنْ كان بين يديَّ من خدمي وأصحابي من جميع أهل مملكتي ورجال دولتي

أن يقعوا به، وهو قائم في مكانه يضحك بي! وكأنهم لم يصِلوا إليه ولا قدروا عليه، وكأنه قد زاد استهزاؤه بي واستزراؤه ولم يهُلْه شيء مما رآه.

فلما رأيت منه ذلك هالني وأفزعني، فقمت من مكاني وتنحَّيت عن سريري ودنوت منه، وقلت له: مَنْ أنت؟ ومن أين أنت؟ وكيف وصلت إليَّ؟ ومن أين دخلتَ عليَّ؟ فقال لي: يا مسكين، يا مغرور بسلطان الأرض والملك الجزئي، أي ملك أنت! إنما أنت مملوك ولست بمالك! فلِمَ تدَّعي المُحال وترضى لنفسك بالكذب وجميع ما أنت فيه زائل مضمحل؟! فإنه عما قليل يفارقك وتفارقه، وإنما المُلْك المُلك السماوي والسلطان الإلهي، فإن بادرت وعملت ما يُقرِّب إلى ربك وصلت إليه وكنت ملكًا بالحقيقة، ونِلْت ملكًا لا يبلى ولذَّة لا تفنى، فتكون ملكًا بالحقيقة، تفعل نفسك إذا زَكَت، وروحك إذا صفت، ما أنا فاعل، وتصل إلى مثل ما أنا إليه واصل.

ثم إنه ارتفع من الأرض وأقبل يمشي في الهواء ويجول في الفضاء إلى أن رأيته وصل إلى السماء وغاب عني فلم يرَ وسمعت هاتفًا يقول: «لمثل هذا فليعمل العاملون.»

فلما رأيت ذلك منه أيقنت أني لست بمالك وأنِّي مملوك كما قال، وأنِّي لست بعالم وأنِّي جاهل، وأنِّي لست بإنسان وأنِّي حيوان. ثم انتبهت وأجَلْتُ الفكرة وأعملت الرويَّة، وكثُر تخيُّلي لذلك الشخص وما قال لي ورأيت من مملكتي، وسعة قدرته والمكان الذي رقى إليه، واشتهيت المعرفة بالعمل الذي هو وصل إليه، فاشتغلت بهذا الشأن عن جميع ما كنت بسبيله من تلك اللذات، وانقطعت عن جميع الشهوات، وزهدت في المأكول والمشروب، وأقبلت أُجيل فكري وأقلِّب نظري في أهل المملكة ورجال الدولة فلم أرَ فيهم مَنْ يصلُح أن أكشف له هذا السر، ورأيتهم كلهم مُشاغَل بالحال التي أَزرى بها عليَّ ذلك الشخص، وأني وإياهم مماليك، وأن الأسماء التي استعرناها لا تصلُح لنا ولا تليق بنا، وإنها ذاهبة زائلة عنا، وخشيت أن أُبْدي أمري إلى مَنْ ليس هو من أهله فأُنْسَب إلى الجنون وقلة العقل، فصمتُّ عن الكلام وزادني الفكر الغم والهم والأسف، فحدث بي من ذلك ما ترى من التحول والتغير والصفات.

فهذا هو سبب وجعي ومبدأ علَّتي، وأظن أني خارج من هذه الدنيا بهذه الحسرة إن لم أصل إلى العمل الذي يُوصلني إلى ما وصل إليه ذلك الشخص الذي رأيته. وقد خرجت إليك بأمري، وكشفت لك ما أخفيت من سري، فإن كان لي عندك فرج فمُنَّ به عليَّ، وإن عدمت ذلك فاكتم سري ولا تخرج إلى أحد بشيء منه كما خرجت به إليك من أمري؛ لئلَّا

أُنسَب إلى الجنون وزوال العقل فيذهب المُلْك مني ومنك، ويطمع فينا الأعداء؛ لأن علة زوال العقل أصعب العلل، متعذر دواؤها معدوم شفاؤها.

ولكن قد طمعت أن لي عندك فرجًا لما رأيتك قد سألتني عن هذا السؤال ولم يكن هذا من عادتك معي، ولمعرفتي أن فيك من الأدب الذي يصلح للملوك ما لا يحملك على مثل ما أقدمت به عليَّ من ابتدائك لي بالسؤال عن سري الذي لم أُبْدِهِ فاصدقني كما صدقتك.

قال الوزير: فأعدتُّ عليه ما كان وما جرى من الشيخ الذي أشار عليَّ بذلك وأمرني به.

فقال: عليَّ بالشيخ فقد وضع يده على الداء، وأرجو أن يكون عنده الدواء، فخرجت من عنده وأحضرت ذلك الشيخ وقصصت عليه الحال من أولها إلى آخرها فبكا وقال: انكشفت العلة وعرفنا دواءها وقدرنا على شفائها إن شاء الله، ثم نهض معي حتى دخلنا على الملك، فلما رأى الشيخ فرح به ورفعه وأقبل عليه وأنس به، وأقبل يعيد الحديث عليه من أوله إلى آخره، فأقبل الشيخ على الملك وقال له: إن العمل الذي يوصل إلى مثل ما رأيت لا يكون إلا بعد العلم بتوحيد الخالق، جل جلاله، ومعرفته حق معرفته، فإذا صحَّ لك ذلك وعلمته ابتدأت تشرع في تعلُّم العلم المؤدي بك إلى عبادته الموصل لك إلى جنته ودار كرامته، فإذا أحكمت العمل بتلك العبادة وصلت إلى مرادك ونِلْت عرضك، ولا يكون ذلك إلا بعد ترك جميع ما ملكته وقدرت عليه من أمور الدنيا.

قال الملك: قد رضيت بذلك وطابت نفسي به، وقد تعجلت بترك جميع ما كنت فيه، وتمنيت الموت والراحة من هذا العالم.

فقال الشيخ: إن هذا العلم غير موجود عند أحد في بلدنا هذا، وإنما هو موجود بحقيقته عند رجل من الحكماء مقامه في إقليم الهند بجبال سرنديب تحت خط الاستواء، فإن عنده مفاتيح ما انغلق من هذا الأمر وصعب من هذا السر.

قال الملك: فأنَّى لي بالوصول إليه والقدوم عليه وأنا على ما ترى من نحول الجسم وضعف القوة وكثرة الأعداء وما تراه من اضطراب الحال وفساد الأعمال والعمال، وكثرة الخوارج علينا والأعداء لنا، وتمنيهم الوصول بالأذية إليَّ وانتزاع ما في يديَّ من هذه المملكة الفانية والقنية المضمحلَّة، وإن كنت غير متأسف على فقدها ولا حزين على زوالها بعد ما سمعت ورأيت، وإنما أخشى أن أدرك إذا خرجت منه وبعدت عنها فأُقْتَل وأموت في الطريق ولا أصل إلى ما تكون به السعادة بعد الموت، وأكون قد تعجَّلت الذل والهوان في الدنيا وسرعة القدوم عليه في الآخرة.

قال الشيخ: صدق الملك فيما ذكر ولنا في ذلك تدبير آخر.

قال: وما هو؟

قال: أنا أكتب إلى الحكيم أُعْلِمه بالحال وننظر ما يكون من جوابه فنعمل به إن شاء الله.

قال الملك: افعل ذلك، وخف على الملك ما كان يجده وسكنت نفسه إلى قول الشيخ.

وقال للوزير: اعلم أنِّي قد وجدت العافية، وقد سكنت تلك الحركة الفكرية، وبردت الحرارة التي كنت أجدها في قلبي، وأستدعي من الطعام والشراب ما أمسك به القوة ودعت إليه الحاجة، وفشا في أهل المملكة من أعمال الدولة أن الملك قد أفاق من علَّته وزال عنه ما كان يجده.

ففرح الناس بذلك وسكنت الفتنة فتسارعت الخوارج إلى الطاعة وعمَّت البركة وشملت النعمة، وعاد الأمر إلى أحسن ما كان في مدة يسيرة، وقويت نفس الملك ووثق بما وعده الشيخ الموفق الرشيد، فكتب الشيخ إلى رب بيت الحكمة في ذلك الزمان يُعْلمه بما جرى ويسأله أن يُنْفِذ إليه مَنْ يراه ليفتح عليه من العلم ما يصلح له ويعلمه ما ينبغي له في جسده.

فلما وصل الكتاب إلى الحكيم ووقف عليه استدعى تلامذته، وكان له اثني عشر تلميذًا حاضرين معه، فأعلمهم بما وصل إليه وقرأ عليهم الكتاب فقالوا: مُرْنا بما تريد لنمتثله ونأتي فيه بما تؤمله، فأفرد رجلين منهم وقال لهما: اذهبا إلى الملك، فإذا دخلتما عليه فليبدأ به أحدكما فيلزمه حتى يبلغ في العلم الرياضي إلى حد يجب له إذا وصل إليه ووقف عليه الارتقاء إلى العلم الإلهي، ثم ينفصل عنه ويلزمه الآخر حتى يوقفه منه عند الحد الذي ينبغي له، فإذا رأيتماه قد حسنت أفعاله وزَكَت أعماله فانصرفا عنه ولا تطلبا عليه جزاءً ولا شكورًا.

ثم ابتدأ بوصيتهما وبتحذيرهما من الوقوع في حبائل الدنيا وشبكة إبليس، وقال لهما: إنكما في مكان بعيد عن محاسن الدنيا وزخارفها ونضارتها وبهجتها وما يجده أهلها من فتنتها، وستردَّان على الملك على مملكة واسعة ونعمة ظاهرة ولذات متواترة، وإياكما الميل إلى شيء منها والمحبة لها فإنكما إن فعلتما ذلك ومِلْتما إلى شيء مما تريانه انفسدتما وأفسدتما وخرجتما من الصورة الإنسانية إلى الصورة الحيوانية والرتبة الشيطانية بالفعل، وخرجتما من فسحة الجنان وروضة الروح والريحان، وجاورتما الشيطان في دار الهوان، وخرجتما من سعة الكل إلى سجن الجزء.

قالا: سمعنا وأطعنا وتوجَّهنا من حيث هما إلى إقليم الملك، وكتب الحكيم إلى الشيخ يُعْلمه بذلك، وجعله عينًا عليهما ينقل إليه أخبارهما وما يعملانه ويعاملان به الملك.

ثم قدما على الشيخ بالذي هما عليه من الشعث وقلة الجمال ما يليق بالنساك من الفقر وسوء الحال.

فأخبر الملك بقدوم الرجلين من عند الحكيم ففرح بهما الملك واستبشر، ثم أمر بإيصالهما إليه فدخلا عليه فقام لهما قائمًا على قدميه، وأمرهما بالجلوس فجلسا مجالس العلماء المفيدين، وجلس الملك والوزير مجالس المتعلمين المستفيدين.

ثم تقدَّم المبتدئ بالعلم الرياضي فعلم الملك والوزير حتى أحكماه وتعلَّماه — الملك ووزيره — وقاما بموجباته وأحكامه.

ثم انفصل الأول وتقدَّم الثاني فتلا عليهما الحكمة الإلهية إلى أن بلغا من ذلك غاية ما كان عنده واستفادا ما كان في وُسعه.

فلما فرغا مما أمرا به وأرادا الانصراف أقبل الملك عليهما وقال: إني لا أجد لكما مكافأة على ما فعلتماه بي وتوليتماه من أمري إلا أن أسلِّم إليكما ملكي فتتدبَّرانه وتحكمان فيه بما أردتما، وقد أبحتكما جميعه وهو عندي قليل لكما.

فلما سمعا ذلك منه ردَّا عليه ردًّا جميلًا، وانصرفا إلى مكان كان الملك قد أعدَّه لهما فتشاورا فيما عرضه الملك عليهما وأهداه إليهما من ملكه، وقد مالت أنفسهما إلى ما رأياه من حسن الدنيا وبهجتها، وما عايناه من حسن قنيتهما وطيب لذتها فقالا: لا بأس أن تجتمع لنا المنزلتان ونتال السعادتين: الملك في الدنيا والآخرة، وعزما على قبول ما أهدى الملك إليهما من ملكه والجلوس فيه والقيام به، ثم خلا الملك بوزيره فقال له: اعلم يا أخي أن هذه الدنيا فانية ولسنا مخلَّدين، وقد نِلْنا من لذاتها ونعيمها ما قد نلناه، ووصلنا منها إلى ما وصلنا إليه وقدرنا عليه، فهلمَّ بنا نتخلَّى منها ونلزم مداومة النظر في هذا العلم الشريف والعمل اللطيف الذي نصل به إلى الفوز والنجاة من بعد الموت، فإننا لا نشك في وصول الموت إلينا ونزوله علينا، فلعلي وإياك نجتمع في الملك السماوي كاجتماعي وإياك في الملك الأرضي، فقال: افعل، وقويت نيتهما وطابت أنفسهما بذلك.

فلما دخل الرجلان في وقت دخولهما على الملك أعاد القول عليهما وما يريده ومن تسليم الملك إليهما، ورجا بذلك سعادة المملكة وأهلها بتدبيرهما وحكمتهما، ورجا لأهل بلده ومَنْ يكرم عليه من أهله أن يصلوا إلى مثل ما وصل إليه من ذلك العلم والعمل، فتعم البركة وتشمل النعمة وتكمل السعادة؛ فقَبِلَا ما أهداه إليهما وتقلَّدا ما اعتمد فيه عليهما، وجعل أحدهما وهو المعلِّم له العلم الإلهي في مقام المملكة وصاحبه في مقام الوزارة.

واشتغل هو ووزيره في مداومة النظر في العلم والقيام بالعمل والاجتهاد في العبادة والزهادة في الدنيا والتهاون بها واطراح شهواتها وترك لذاتها.

فكتب الشيخ إلى الحكيم بذلك فأيس من عودتهما إليه، وعلم أنهما قد افتتنا بما رأياه ومالت أنفسهما إليه، وتمنيا الخلود فيه، وأقاما على ذلك في تدبير الملك وسياسة المملكة إلى أن مات الملك ولحق به وزيره بعد مدة يسيرة، وصار إلى رحمة الله سبحانه ودار كرامته، ونالا الملك السماوي ووصلا إليه، وافتتن الرجلان بالدنيا وتخلَّيا عن العلم والعمل، وانهمكا في اللذات الدنيوية، واسترجع الحكيم ما كان أودعهما إليه من حكمته فنسيا ما كانا له ذاكرين، وغاب عنهما ما كانا له حاضرين، وفارقا ملك السماء وأخلدا إلى ملك الأرض، فأُهْبِطا من الجنة وبعُدَا من الرحمة، وانقلبا على عقبيهما خاسرين فأهارًّا[٥] وأمارًّا مَنْ حضرهما بما فعلا، وافتتن الناس بهما «وتعلموا منهما ما يضرهم ولا ينفعهم» وبدت سوءاتهما، وقالوا: هذان العالمان اللذان كانا يأمران بترك الدنيا والزهد فيها قد عادا إلى ما كانا ينهيان عنه ويحذران منه، ولو لم يعلما أن العاجلة هي النعمة الحاصلة لما اختاراها، ولا رجعا إليها بعد ما علما، وزاد بهما جموح الطغيان، واستحوذ عليهما الشيطان فأنساهما ذكر الرحمن، فصارا أعداءً للحكماء وأضدادًا للعلماء.

وكتب الحكيم إلى الشيخ يأمره بالتنحي عنهما والبعد منهما خوفًا عليه من شرهما ففعل ذلك.

وأقبلا على تناول أمور الدنيا وشهواتها، وفارقا السحر الحلال الذي أُنْزِل عليهما وأمرا بفعله وعمله وكان به نجاة مَنْ نجا ورجعا إلى السحر الحرام فضلًّا وأضلًّا.

وهذا حديث يدل على حالة الملكين: هاروت وماروت، وما كان من أمرهما وهبوطهما من السماء إلى الأرض، ومفارقتهما جوار ربهما والملائكة الذين كانوا معهما كمفارقة إبليس للملائكة باستكباره وعصيانه، ومفارقة آدم للجنة التي كان فيها بما كان من خطئه ونسيانه؛ فهذا بيان ماهية السحر والسحرة والعمل به وكمية أقسامه وما الحق منه وما الباطل بحسب ما احتمله البيان، واتسع له الإمكان.

[٥] هارَّ بتشديد الراء مهارَّة بمعنى هرَّ في وجهه، ومنه المثل: «شرٌّ أهرَّ» يُضْرَب في ظهور أمارات الشر ومخايله، والهرارات: كوكبان هما الشر الواقع وقلب العقرب، وأمارًّا: أتيا إمرًا، بكسر الهمزة، والإمر: المنكر من الفعل والقول.

(٤) فصل في أن مداواة العِلَل الحالَّة بالأجسام والعلم بها من أجَلِّ المعلومات

واعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن مداواة العِلَل الحالَّة بالأجسام والعلم بذلك من أجَلِّ المعلومات الطبيعية والمعارف الجسمانية كما قال النبي ﷺ وسلم: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، وهو أيضًا ضرب من السحر الحلال؛ لأنه قلب العادة من حال الفساد إلى الصلاح، ومن النقصان إلى التمام، والسحر الحرام منه ما كان الضد من ذلك كإدخال الفساد على الأجسام وما يكون تافهًا، وفساد أمزجتها وانحلال طبائعها مثل ما يعمل بالسموم القاتلة وما يُتَّخذ لذلك من الأدوية والعقاقير الفاعلة بخصائصها وما تفعله في الأجسام من العلل والأسقام، فكل مَنْ فعل ذلك وأقدم عليه بالعَمْد والقصد إلى فساد الصورة الإنسانية بسبب دنيا ينالها أو شيء من قنيتها فهو ساحر مفسد في الأرض ممن حلَّ قتله ونفيه من الأرض، وهو ممن حارب الله عز وجل ورسوله وسعى بالفساد، وممن استحق قطع الأعضاء وفساد الصورة مثل ما فعل فرعون بالسحرة لما رآهم وقد أفسدوا عليه ما كان يعمله، وأسقطوا هيبته عند أصحابه والملأ من قومه.

واعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن كثيرًا من الأطباء المبتدئين وغير المجربين يقتلون العليل ويزيدون المرض بالمرضى فيخطئون من حيث ظنوا أنهم قد أصابوا، فكم من عليل قتلوه ومن صحيح أسقموه ومن ذي سلامة أعطبوه؟! والتفقد لهذا الباب والتحرز منه والتنبيه عليه والإرشاد إليه فيه فائدة جليلة.

ونريد أن نُبيِّن لك ما يكون تعلمه من ذلك؛ فإنه لا بد لك من استعماله إذ كانت الأجسام مرتهنة بحدوث الآلام والأوجاع والأسقام والداء والدواء؛ لأن من شأن إخواننا، أيَّدهم الله وإيانا بروح منه، المعرفة بجميع العلوم والاطلاع عليها ومعرفة أهلها.

فاعلم أيها الأخ، أنه يجب على مَنْ أراد العلم بصناعة الطب أن يبدأ أولًا بدرس الكتب على الحكماء وقراءتها على العلماء، ومعرفة مقدمات العلل والأسباب التي تكون منها وتحدث عنها، ومعرفة جميع الأدوية لأخلاطها على النسبة الفاضلة والقسمة المعتدلة، ومعرفة الطبائع الأربع واختلافها، وكيف تكون صحة المزاج في وقت الصحة؟ وكيف يكون فساده في وقت الفساد؟ وكيف يعرف وزن بِنْيَة الجسد في جانبيه معرفة هندسية؟ فإذا صحَّ ذلك له وأحكمه وعرف العلامات الدالة على العلة في النبض والماء وما ينفصل عن الجسد ويخرج من الفضول الحادثة عن العلل العارضة، وبعد ذلك ابتدأ بتعلم الصناعة النجومية والأحكام الفلكية؛ لأنها هي الأصل والعمدة في جميع الأعمال الأرضية وما يعرض في الأجسام الطبيعية.

فإذا عُرِف من ذلك بحسب ما وُفِّق له وأحكمه وعرفه، فحينئذٍ وجب له التقدم إلى العليل، فإذا رآه وعرف علَّته وسأله عن بدايتها وسمع كلامه إن كان ذا سلامة في عقله، وإن عدم ذلك نظر في شواهد أدلته وما يبدأ منه من علته، فإذا صحَّ له ذلك نظر في مولد العليل، فإن أعدم ذلك نظر في الطالع الذي دخل عليه فإذا رآه يوجب السلامة نظر في بيت الحياة وصحَّ له ذلك أقدم على دوائه بنفس واثقة بسلامته، وأخذ في تلطُّفه في دوائه الذي يصلح لتلك العلة غير شاك لزوالها وغير يائس من بُرْئها فيقوى على العمل بالعلم، ويكون في فعله ذلك تابعًا لأعمال الحكماء وأفعال الأنبياء؛ لأنهم لم يدعوا إلى الله عز وجل، ولم يظهروا ما علموه حتى عرفوا الأصول وموجباتها والقراءات وأحكامها.

فلما تحققوا ذلك علموا مراد الله سبحانه من خلقه معرفته، وتوحيده وعبادته وأنه، عز اسمه، لذلك خلقهم وبسببه أوجدهم.

وأي نفس عدمت ذلك كانت ناقصة غير كاملة، ومريضة لا سالمة، فوجب عليهم التقدم إلى أصحاب العلل النفسانية في الأوقات التي أوجبت لهم التقدم إليهم والتحنُّن عليهم، وعلموا أن دواءهم ينفع وعلاجهم ينجع مثل ما فعل الطبيب الحاذق بأهل المدينة التي دخلها المذكورة قصته في رسالة اعتقاد إخوان الصفا.

فعند ذلك دعوا إلى الله سبحانه بالتذكر والموعظة الحسنة من إقامة الدين وسنة الناموس وما أوجبه ذلك الزمان وحكم بذلك تأثير القرآن، وكانت أدويتهم وعقاقيرهم التي تفعل في أمراض النفوس مثل ما تفعل الأدوية والعقاقير في الأجسام بما أظهروه من الآيات وعملوه من المعجزات إعذارًا وإنذارًا وتخويفًا، ومنعوا من أشياء كان الناس يعملونها، وحذَّروا منها وحرَّموها على فاعلها كما يفعل الطبيب بالعليل من منعه من المآكل الرديئة والأشربة وما يكون به قوة الداء وضعف الدواء، كما قال، عز اسمه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ والأنبياء، صلوات الله عليهم، ضمنت لأهل الطاعة الجنة ولأهل المعصية النار، كذلك الطبيب يعد العليل إن قبِلَ وصيته وصبر على استعمال ما يأمره وترك المخالفة له بطيب العيش والعافية والحياة؛ فإنه متى عدل عن ذلك إلى ضده مات وهلك.

ومعجزات الأنبياء وآيات الحكماء تنقسم على أقسام كثيرة مختلفة متباينة قد خص كل شيء في كل زمان بموجب كل قران بشيء منها، كذلك أدوية الأطباء تختلف بحسب اختلاف العلل.

ومن المعجزات ما يكون رحمة ونعمة ومنها ما يكون سخطًا ونقمة عند الخروج من الطاعة وارتكاب المعصية، فالنعمة والرحمة من ذلك ما ظهر من فضل النبي في ذلك

الزمان الموجب لظهوره وما جاء به من الخيرات والبركات والمواد المتصلة به ونزول النصر عليه من عند الله، وقوة مَن استجاب إليه واتساع دوره وعلو ذكره ورفيع قدره، ومنفعة أهل ذلك الزمان به واجتماعهم على دينه وإزالة الشك منهم في نفسه.

وأما ما يكون من المعجزات به والسخط والبلية على مَنْ أنكره وكذَّبه واستكبر عليه وأنِف من الانقياد إليه مثل ما حلَّ بقوم نوح من الطوفان العظيم، ومثل ما نزل بقوم هود من الريح العقيم، وبفرعون وزملائه من الغرق، وبقوم صالح لما عقروا الناقة، وهذا مذكور في القرآن من القصص عن أخبار الأنبياء المتقدمين والأمم المخالفين.

واعلم يا أخي أن العلم والعمل المختص بالأنبياء، صلوات الله عليهم، وما أظهروه من المعجزات والآيات فهو علم إلهي وتعليم رباني يتصل بهم من الملائكة وحيًا وإلهامًا، وليس هو تعليمًا أرضيًّا ولا علمًا جزئيًّا، وإنما هو تأييد كلي وفيض عقلي، وإنما يخرجون منه إلى العالم بحسب ما يحتملونه، ومن المعجزات ما يكون به الإعذار والإنذار، ولو أرادوا هلاك الأمم الذين كذَّبوهم والفرق الذين أنكروا عليهم في أول مرة لفعلوا، وإن فعلوا لكانوا بخلاف ما أُرْسِلوا له؛ لأنهم إنما أُرْسِلوا لإصلاح الفاسد، وأيدوا بوسع الطاقة في الاحتمال والصبر على الأذى وترك الكبر والغضب والحمية، واستعمال الرفق والتأني في الأمور لما يرجى بذلك من الصلاح العام للعالم ونجاة الذين أُرْسِلوا إليهم وخلاصهم من الجهل والعمى، فإذا لجَّت الأمم الطاغية والأحزاب الباغية في العصيان واستحوذ عليهم الشيطان بعد أن وجبت عليهم الحجة واتضحت لهم المحجة أتت الأنبياء بالآيات، وأظهرت المعجزات وخرقت العادات وأحاطت بالدين كذبوهم البلايا وحلَّت بهم الرزايا، وهلك منهم مَنْ هلك عن بينة وحيَّ مَنْ حيَّ عن بينة، فضعفت قوة إبليس، وانطفت نيرانه وتفرقت عنه شياطينه وهلكت أعوانه وخرست ألسنتهم واندحضت حجتهم، كذلك الطبيب إذا خالفه العليل أول مرة صبر عليه ورفق به وداواه بالملاطفة وسهَّل عليه الأمر، فإذا تمادى في الخلاف والخروج عن طاعته ومخالفته فيما يأمر به واستعمال ما ينهاه عنه خلَّاه ومراده لنفسه فيهلك.

وبهذا الشأن يكمل لك يا أخي معرفة مداواة الأنفس والأجسام فتكون قد أحكمت السياستين وعرفت المنزلتين.

وإنما أردنا بما ذكرناه تنبيه إخواننا، أيَّدهم الله بروح منه، والحث لهم على الاجتهاد في معرفة العلوم كلها بحسب ما يتفق لهم، ووقفوا عليه ووجدوا السبيل إليه، وجعلنا ما أوردناه في هذه الرسالة مقدمات ومداخل وطرقًا ومنازل إلى نهايات العلوم وغايات

الحِكَم، لعلهم إذا نظروا فيها ووقفوا عليها تشوَّقت نفوسهم إلى علم ما غاب عنهم منها، فيجدُّون في الطلب ويسألون أهل العلم عما لا يعلمون، كما قال، عز اسمه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وكما قال الرسول ﷺ: «استعينوا على كل صناعة بأهلها.» فعند ذلك يصيرون هداة مهذبين قد وقفوا على الصراط المستقيم.

(٥) فصل في العلماء العالمين بعلم النجوم والهيئة ...

اعلم أيها الأخ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن العلماء العالمين بعلم النجوم والهيئة وحوادث الجو وأصحاب الفأل والكهانة والزجر وحدوث الروحانيات وأصحاب عمل الطلسمات والعلامات والآيات والخبايا وما شاكلها؛ فإنهم لا يتهيأ لهم ذلك إلا بعد معرفتهم بالأصول وما يبدو منها من الفروع.

فإذا صح لهم ذلك عملوا بحسب ما ينبغي لهم أن يعملوه من هذه الأشياء ويخبروا به بالدلالة على ما يكون منه ويحدث عنه، وهم في ذلك متباينون في الدرجات متفاوتون في الطبقات بحسب اجتهادهم في التعليم ومداومة العلم ومجالسة العلماء ومرافقة الحكماء، والاشتغال بالدروس في الكتب الموضوعة فيها، والتبحر فيها بصفاء الذهن وأعمال الروية واستقراء ما كان ليحكم به على ما يكون، ومعرفة مواليد السنين وموافقتها في الحساب والنسب ومعرفة التواريخ والبدايات، وما يكون في ابتداء الأعمال من الطوالع، وما يوجب دوام ذلك، وما يوجب الكواكب الثابتة وزواله وتغييره بانتقالها من مثلثة إلى مثلثة، واجتماعات الكواكب ونظر بعضها إلى بعض، وارتفاعها في أوجاتها وترقيها في درجاتها وهبوطها في حضيضها، فإذا نظروا نظر التأمل والاستقراء لواحد واحد منها كان مَنْ له ذلك قريبًا من الإصابة في أحكامه.

فإذا وقعت له الإصابة وذاق حلاوتها فما أقل ما يخطئ؛ فإنه بالإصابة تقوى بصيرته ويزيد في سعيه واجتهاده ويستحلي الظفر بالصدق، ويحرص في أن تكون أقواله صادقة وأحكامه صحيحة، فعند ذلك يبرع في العلم على أقرانه ويصير رئيس أهل زمانه فتُكْشَف له الأسرار، وتصير ما بين يديه جليَّة لا يغيب عنه شيء منها، ويصير بنفسه الزكية ورويته الفكرية وتخيُّله الصادق كالفلك المحيط المطلع على ما دونه؛ فهو يخبر بما يكون قبل أن يكون في أقرب نظر وأيسر ملاحظة، ثم كذلك من دونه كما وُفِّق له ورُزِق الظفر به.

وهذا الفن من هذا العلم يُسمَّى نجامة، وكانت الجاهلية تسميه زجرًا وكهانة، وهو ضرب من السحر أيضًا، وبه ينصب الطلسمات ويعمل الأعمال، ونريد أن نذكر فنًّا من

العلم بذلك وكيفية الحكم والاطلاع عليه شبه المقدمة والمدخل؛ ليكون دليلًا على ما ذكرناه وبيانًا لما وصفناه، وبرهانًا لما قدَّمناه إن شاء الله.

(٦) فصل في أن العلم الذي به المعرفة بالأشياء الحادثة ...

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن العلم الذي به المعرفة بالأشياء الحادثة والأمور الكائنة التي تقوم وتدوم وتكون عواقبها بحسب موجبات ما يكون من الحركات السريعة والبطيئة هو ما يجب على الناظر في ذلك الراغب في علمه أن يعرف الأوقات والأحايين التي يكون فيها الابتداء بالأعمال والأفعال بأدق النظر وأصح التأمل حتى يعرف ما هو كائن من ذلك الابتداء وما تصير عاقبته إليه، وهو أن يعرف مواضع البروج الاثني عشر والكواكب المضيئة والنجوم السيارة والثوابت والطوالع في الفلك والعلم بمواضع السهام وما إلى آخر الاثني عشر برجًا والأوتاد وولاة الزمان وأرباب الساعات والأديان والمدبري أرباع السنة، الناظرين على الأيام والساعات وتقويم الحساب السبعة في طولها وعرضها، وأن ينظر في ذلك نظرًا صحيحًا وحسابًا مصححًا، ويقوِّم الطوالع إقامة مستوية مصيبة، ويقوِّم حساب البروج والأوتاد بدرجاتها ودقائقها وموضع الرأس والذَّنَب وموضع السهم الذي كان به ذلك العمل والاجتماع والامتلاء والأجزاء والاثني عشر برجًا والطالع وصاحبه، وصاحب اليوم والساعات، وأين موضع القمر الذي هو أنفع الأشياء في النظر وأصدقها في الخبر، وأحسنها دلالة على ما يحدث في عالم الكون والفساد؛ إذ كان هو أكثرها اختصاصًا بتدبيره وكيف سلامته من النحوس، وبُعْده من الطريقة المحترقة.

فإن جميع ما كانت بداية العمل به في وقت سلامته وحسن استقامته كانت عاقبته محمودة ونتيجته سالمة ومنفعته كاملة، ويكون دوامه وقوامه بحسب إبطاء الحركة وسرعتها وما دلت عليه أدلتها، وإن كان متصلًا بالنحوس هابطًا في ناحية الجنوب، أو يكون في آخر البروج أو في أول درجة منها ثم لم يُتِمها فإن ذلك رديء، أو يكون في هبوطه أو خاليًا عن صاحب بيته لا ينظر إليه، أو ساقطًا عن الوتد أو يكون مع الجوزهر، فإن ذلك الابتداء لا قوام له. وأعرف الكوكب الذي انصرف عنه القمر، والكوكب الذي يتصل به القمر في وتد هو أو ما يلي الوتد أو ساقط؛ لأن القمر إذا كان ساقطًا لم يكن فيه خير، إلا أنه يكون في الموضع الثالث من الطالع، وإن كان صاحب بيته ساقطًا؛ لأنك إن وجدت صاحب بيت القمر في الوتد الطالع أو وسط السماء أو الحادي عشر أو الخامس فكان شرقيًّا مستقيم السير، كان بذلك موافقًا للأمر الذي تبتدئ به، كالزُّهَرة لأمور النساء

والسرور، وكموافقة المشتري للمِلل والأديان والذكور، وموافقة عطارد للكتابة، والشمس للسلطان والرياسة، والقمر للتعليم والرسل.

وينبغي أن تنظر في كل علمٍ تبتدئ به إلى الشمس والقمر وأصحاب شرفيهما أو حدودهما، ثم تنظر إلى وسط السماء؛ لأنك متى وجدت هذين الموضعين نقيَّين من النحوس ويكون أصحابهما — أعني شرفيهما — أو صاحب الطالع في موضع حسن، فإن الابتداء يكون محمودًا تامًّا ذا فضل، ولا سيما إن سامتت السعود المضيئة، وكان صاحب الطالع شرقيًّا؛ لأن تشريق الكواكب يدل على المغالبة والظفر والتمام والسرعة في درك الحاجة وغربي الكواكب، وإن كانت في وتد يدل على الإبطاء والثقل والتطويل، وإن وجدت القمر في موضع حسن وصاحبه ساقط فإن الابتداء بالعمل وحسن عاقبته رديئة، وإن وجدت القمر وصاحبه ساقطين فاقضِ برداءة أول العمل وآخره، وإن كان القمر وصاحبه بموضع حسن فإن العمل تامٌّ على ما طلب صاحبه بتمامه وقوامه، ولا سيما إن كان صاحب الطالع في وتد، وهو سعد، وإن كان نحسًا وموضعه صالح فأنفع الأشياء أن يكون المشتري أو الزُّهَرة في الطالع، فإن ذلك يدل على تمام العمل وحسن العاقبة واستعجال منفعة وعموم بركة، لا سيما إذا كان القمر متصلًا بالسعود، وذلك السعد ليس بناقص ولا راجع، فهو موافق لكل عمل إلا لعبد أراد الإباق من سيده وأخذ ما ليس له.

فصل

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن القمر أول الكواكب بتدبير ما تحته من عالم الكون والفساد وهو الواسطة؛ ولذلك يحتاج أن تنظر أولًا في ذلك إلى ما يكون من سعادته ونحسه، ثم تعرف زيادته في بدايته، وإنه من وقت انصرافه عن الشمس يبتدئ بالقوة ثم يتغير عند تسديسه إياها وتربيعه وتثليثه ومقابلته لها، وتكون قوته على قدر الكوكب الذي يتصل به عند ذلك وجوزهره والحد الذي فيه ذلك التربيع والتثليث والتسديس والمقابلة، فإن وجدت القمر زائدًا في نوره فإن ذلك أفضل في الأعمال التي يُستحب فيها الزيادة، وإذا نقص من ضوئه فإن ذلك أفضل في الأمور التي يُستحب فيها الانتقاص.

وكذلك إذا انفصل القمر من الشمس إلى أن ينتهي إلى تربيعها الأيسر فإنه صالح لطلب الحق.

وإذا انفصل من تربيعها الأيسر إلى أن ينتهي إلى مقابلة الشمس فذلك جيد للمبتدئ بالخصومات والجدل والمناظرات في الأشياء.

وأما ما بين المقابلة والتربيع الأيمن فموافق للمظلومين بالخصومة والدين، ثم إلى أن يصل إلى مجاسدة موافق لأصحاب العمل بالعلم وطلب الحق.

(٧) فصل في سعادة الطالع وقوة الساعة

أفضل سعود الطالع والكواكب إذا كان سعدًا في البرج الذي هو فيه ويكون سعدًا في البرج الثاني منه.

والبروج المنقلبة تصلُح لكلِّ أمر فيه مغالبة وفخر، لا سيما الجَدْي والحمل وذوات الجسدين لأصحاب العمل بالسحر والحيل، والثابتة لأصحاب العقد والربط ونصب الطلسمات وما يريد به صاحب الثبات.

فإن أردت عملًا يدوم ويقوم من علاج ذهب أو فضة أو عمل شيء يربطه روحانية، فليكن القمر والطالع ببرج ثابت وذي جسدين.

وإن أردت الابتداء بعمل تريد معاودته في كل يوم فليكن الطالع برجًا ذا جسدين والقمر في برج منقلب ينظر إلى الطالع.

فإن أردت العمل بدوام ثباته وقوته فليكن ذلك، والطالع برج ثابت ذو جسدين، والقمر في برج ثابت متصل بصاحب بيته من تثليث أو تسديس، وصاحب بيته بريء من النحوس والاحتراقات والرجوع.

فإن لم يمكنك ذلك فليكن القمر متصلًا بالسعود، وليكن ذلك السعد ينظر إلى صاحب الطالع من تثليث أو تسديس، واحذر المقابلة والتربيع؛ فإن أقوى ما يكون نظر السعود من التثليث والتسديس.

ثم أضعف ما يكون نظر السعود من التربيع والمقابلة، وأضعف ما يكون نظر النحوس من التثليث والتسديس، وأقواها من التربيع والمقابلة، فافهم ذلك واعرفه.

فإذا اتصل القمر بصاحب بيته من صداقة وكان نحسًا كان أيضًا صالحًا في الحوائج وجميع ما يعمل، وإذا كان سعدًا وهو ينظر إلى الطالع كان أجود وأحسن، واحذر من جميع الأعمال كلها من موضع القمر مع الذَّنَب، ونظره إلى النحوس من التربيع والمقابلة والمقارنة، واحذر في جميع الأمور والأعمال من فساد القمر؛ فإنه يدل على العُسْر والعناء

والتطويل في العمل والمشقة فيه بنقصانه، ولا سيما إن كان نقصانه من الأنواع الثلاثة التي هي الضوء والحساب والسير، وأفضل ذلك أن يكون زائدًا فيها جميعًا ولا ينظر إليه المريخ بشيء من النظر؛ لأن نظر المريخ إلى القمر في زيادة منحسة عظيمة.

وكذلك نظر زُحَل إلى القمر إذا كان القمر ناقصًا، وأقوى ما يكون القمر بالليل إذا كان فوق الأرض، وأقوى ما يكون الطالع بالنهار وأن يكون القمر تحت الأرض.

ومن أفضل الأشياء أن يكون القمر والطالع في بروج مستقيمة المطالع، فإذا كان كذلك دلَّ على السرعة في الحاجة والنجاح، ولا سيما إذا كان في بروج ثابتة وذوات جسدين.

واعلم أن الحمل أسرع البروج المنقلبة تقليبًا، والسرطان أكثرها تقليبًا، والجَدْي أكثرها سعيًا، والميزان أقواها وأعدلها.

واعلم أن الأوتاد أسرع في تمام العمل والفراغ من غيرها، ويلي الأوتاد إبطاء، والساقطة بطيئة وهيئة فشلة.

وأسرع ما يكون العمل أن يكون سعد في الطالع أو مع القمر ويكون مستقيم السير.

واعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن العلم بعواقب الأعمال إنما يُعْرَف من صاحب تثليث بيت القمر، وصاحب الطالع وبقدر مواضعهما وحالهما ونظر الكواكب إليهما، فقل في مثل ذلك واحكم على عاقبة الأمر بما لاح لك فيه إن شاء الله.

(٨) فصل في أن ذوات الجسدين من البروج أكثرها وجوهًا وصورًا

واعلم يا أخي أن ذوات الجسدين من البروج أكثرها وجوهًا وصورًا، وهي تصلح للشركة والمؤاخاة وما عُمل فيها من شيء فإنه يعود مرارًا.

وإذا كان القمر والطالع في برج ذي جسدين ونظر إلى السعود فإن ذلك جيد؛ لأنها زائدة صالحة موافِقة لكل عمل، والجوزاء أكثرها وجوهًا وأوفقها للصناعة والحساب والمنطق والتجارة والترويج أيضًا، والسنبلة تصلح للأخذ والإعطاء والكتابة والأدب، والقوس يصلح لأمر السلطان والرياسة ولأصحاب الجراءة والبأس والنجدة، والحوت يصلح للغاصة في البحر ومَنْ يعمل فيه ونحو ذلك. والبروج الثابتة موافِقة لكل عمل يحب صاحبه ثباته وطوله؛ لأن القمر والطالع أقوى دلالةً إذا كانا فيها، وإذا ابتدأ بالعمل في برج ثابت دلَّ على ثبات ذلك العمل بطوله وتمامه في آخره، فإن كان ذلك نحسًا أتاه الشر منه.

والعقرب أخف الثابتة، والأسد أثبت، والدلو والثور أرطب، ولا تدع النظر في سهم السعادة وصاحبه؛ لأنهما إذا كانا في ابتداء العمل بمواضع حسنة دلَّا على صلاح ذلك العمل وحسن عاقبته، وأفضل ذلك أن يكون صاحب السهم مشرفًا في مكان معروف.

فاعرف الصور والأشياء على مناظرة القمر لرب ذلك البرج والطالع، واجعل القمر يناظر ربه أبدًا؛ فإنه أسرع لما تريد من الأعمال وأنجح لها بتوفيق الله تعالى.

(٩) فصل قال بطليموس: إن مثل الكوكب إذا لم ينظر إلى بيته …

قال بطليموس: إن مثل الكوكب إذا لم ينظر إلى بيته كالرجل الغائب عن منزله وداره فلا يستطيع أن يدفع عنها ولا يمنع منها، وإذا كان رب الطالع ينظر إلى بيته فهو بمنزلة رب الدار الذي يحفظها ويمنع منها وهو بعيد عنها، فاجعل القمر في جميع الابتداء في موضع حسن جيد ولا تتوانَ فيه، أو اجعله مع السعد أو يتصل بسعد، واجعل البرج الذي تريد منه الحاجة يكون مسعودًا.

واعلم أن سهم السعادة في الابتداء والمسائل يحتاج إليه فلا تُسْقطه عن مناظرة القمر أبدًا ومقارنته؛ فإن للقمر شركة في سهم السعادة، ولا تلتفت إلى الدرجة التي يطلع فيها؛ لأن كل صورة ودرجة تطلع من تلك الصورة موافِقة لأمر واحد وأمرين وأكثر من ذلك. واعلم أن البروج المنقلبة تصلح لما يكون فيه المغالبة والاجتهاد.

(١٠) فصل في أن جميع ما يجرى في عالم الكون والفساد …

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن جميع ما يجرى في عالم الكون والفساد المرتب تحت فَلَك القمر من جميع ما فيه من كبيرة وصغيرة وحية وميتة وناطقة وصامتة، ومن ذي نمو وزيادة، وكل ذي نور ومحاق، فبتدبُّر فلكي وأمر سماوي، لا يخرج عن النظام الذي ركَّبه بارئه، عز اسمه، عليه وجعله فيه، لا يعدوه وكلٌّ مستقر في مكانه اللائق به.

وأفعال الكواكب روحانياتها تسري في عالم الكون والفساد كسريان القوى النفسانية في الأجساد؛ فلكل كوكب في الفلك وجوه وحدود، ولحدودها درج، ولها صورة تنحط من كل صورة إلى عالم الكون والفساد، روحانية متصلة بمثلها مرتبطة بشكلها؛ وهي موكلة بها المدة المقدرة لها، وهم ملائكة الله سبحانه الذين لا يحصي عددهم إلا هو، ولا تنزل إلا بأمره وحكمته.

ولما كان العلم بذلك يوجب لَمَنْ علمه الفضيلة الإنسانية، وهي التصور بعد الموت بالصور الملكية؛ أوردنا منه في رسائلنا ما صلح أن نورده إلى إخواننا الكرام، أيَّدهم الله وإيانا بروح منه؛ ليقفوا عليه فيكونوا قد اطلعوا على مقدمات العلوم ومباديها فيكون معينًا لهم على التمهر فيها ومشوقًا لهم على الاطلاع عليها؛ ولئلا يجهلوا علمًا من العلوم ويتعدَّوا رسمًا من الرسوم، حتى لا يبغضوا العلم فيعادوا حامله ويصدُّوا عنه طالبه. وإنما وضعنا هذه الرسالة في معنى ما ذكرناه وماهية ما وصفناه من السحر والعزائم والكهانة والرقي والفأل والزجر، بما بيَّنَّا ذكره فيما بعدُ إن شاء الله تعالى؛ تنبيهًا للنفس اللاهية والأرواح الساهية الذين لا معرفة لهم بكيفية الموجودات ولا دراية بسريان الروحانية ولا بما تُظهره في عالم الكون والفساد، فأردنا إعلامهم وإيقافهم على معنى ما خفيَ عنهم وصعُب عليهم.

واعلم يا أخي أن جميع الأعمال والصنائع والحرف والمهن، وما يجري بين الناس من الأخذ والإعطاء، والبيع والشرى، والجدل والكلام، والاحتجاج في الأديان، وإقامة الدليل والبرهان، وما يكون من خرق العادات، وقلْب الأعيان، وتحويل الأشياء بعضها إلى بعض، ومزْج بعضها ببعض، فكل ذلك سحر وعزيمة، والعالم كلهم قائمون بعلمه وعمله، ولكن كل عمل يعمل بحسب استطاعته وبلوغ سعيه، وما يجد السبيل إليه بقدرته وطاقته، وكل ذلك بتدبير فلكي موجِب لكل عاقل ما هو عامل وقائم بسبيله لا يفوته ولا يتعدَّاه، ما دام ذلك الحكم مستمرًّا في مجراه حتى ينتقل منه إلى سواه.

وقد ظنَّ كثير من الناس ممن لا علم لهم ولا معرفة عندهم أن ما يجري في العالم الأرضي والمركز السفلي لا يكون إلا منه ولا يظهر إلا عنه، وقد عدموا معرفة الأصل في ذلك، ولو علموا وتحقَّقوا أن الحركة هي سبب النشوء؛ لَبَانَ لهم أن أصل الحركة الدورية هو الفلك المحيط والمحرِّك له هو النفس الكلية بأمر الباري جل جلاله؛ ولذلك أهملوا النظر في علم النجوم ودعاهم جهلهم بمعرفتها إلى الرد على أصحاب العلم، وعادوهم وانحازوا عنهم فانفردوا منهم، ونسبوا جميع ما يجري في العالم من الخير والشر، والعرف والنكر، والمحمود والمذموم، إلى فعل الباري سبحانه وأنه هو مريده، والأمر في حكمة الباري، عز اسمه، بخلاف ما ظنوه وغير ما تخيلوه؛ إذ كان أصل الخلقة خيرًا كله جودًا كله، لا تفاوت في خلقه النوراني وفيضه الروحاني. وقد بيَّنَّا هذا المعنى في الرسالة الجامعة.

واعلم يا أخي أن معرفة خلق الكواكب على ما وصفتها الحكماء وأخبرت بها العلماء مما ينبغي لك أن تعلمه ولا يسعك أن تجهله.

واعلم أنه العلم الذي كانت الكهنة يقدرون به على ما يعلمونه من الأعمال المستحسنة، وكذلك أصحاب الزجر والفأل.

ونريد أن نذكر في هذا الفصل شيئًا من ذلك لتعرفه فتعمل به إذا احتجت إلى العمل به إن شاء الله.

(١١) فصل في معرفة خِلْقة الكواكب والبروج على ما ذكرته الحكماء

«الحَمَل»: ذو جثة مجوفة، عظيم الوسط، برَّاق يتلألأ، صلب فيه اعوجاج. «الثور»: مجوَّف، عظيم الجثة كبير، متصل به شيء صغير، إلى البياض مائل، يابس المغمز خشن اللمس. «الجوزاء»: دقيق الوسط، عريض الطرفين، طويل، فيه اعوجاج، مصمت. «السرطان»: كثير العدد، خشن اللمس، يتفتت. «الأسد»: براق يتلألأ، صلب شديد الصلابة، عريضه أكثر من طويله، له انحراف. «السنبلة»: كثيرة العدد، مجتمعة لها أصل واحد، لها جثة، حسنة اللمس، ضعيفة الجسد، أعلاها غليظ وأسفلها دقيق. «الميزان»: طويل مشيخ، يدخل بعضه في بعض، ملتوٍ بعضه على بعض، مختلف الجوهر، ينتشر وينطوي. «العقرب»: طويل، محوز، مجوف. «القوس»: مصمت النصف الأول والنصف الأخير، مجوَّف، أصهب يابس، إلى الحمرة مائل. «الجَدْي»: كحلي، مجوف، مستقيم، مثل القصب والبردي. «الدلو»: أخضر، مصمت كله إلا خمس درجات من آخره فإنه مجوف. «الحوت»: أبيض إلى الخضرة النصف الأول منه، والثاني أبيض إلى آخره.

(١٢) فصل في خِلْقة الكواكب

الشمس: مدورة براقة، ينتشر لها ضياء وحُسن وصْف، تنقي الإنسان وتُجلي الغم.

القمر: مدور فيه كسر وثلمة إذا كان ناقصًا، مدور مستدير العرض إذا كان تامًّا، كاملًا أكمل الألوان، أسود صقيل فيه بعض الصفاء.

عطارد: صغير خفيف حقير، ينتشر وينطوي.

الزُّهَرة: مختلفة مشرقة اللون، طيبة الرائحة، ذات نماء، لها ثمان زوايا براقة تُثنى.

المريخ: أحمر يابس، في حمرته كمودة، صحيح، طوله أكثر من عرضه.

المشتري: أصفر، كريم الجنس، طويل عريض، فيه انحناء والتواء.

زحل: أسود، حقير خسيس، كريه المنظر كريه الرائحة، مربع، في تربيعه اعوجاج.

(١٣) فصل في الإخبار عن الأشياء الكائنة الغائبة

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن الإخبار عن الأشياء الكائنة الغائبة عن نظر العين بالخير والشر، وبما في الضمير من الأمور المكتمة في نفس الإنسان السائل فهو أيضًا سحر وكهانة، وهو مما ينبغي لك أن تعرفه ليتبين لك صحة ما ذكرته الحكماء من ذلك.

ونريد أن نُبيِّن لك شيئًا منه؛ ليكون مُعينًا لك على ما تريد أن تقف عليه مما رغبتَ فيه وسألتَ عنه.

(١٤) فصل في أن علماء الهند هم العارفون بصناعة النجوم

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن علماء الهند هم العارفون بصناعة النجوم المخصوصون باسم الكهانة، ويلحق بهم في العلم بذلك حكماء الفُرْس ومن بعدهما اليونانيون.

وأما الزجر فمختصٌّ به العرب في الجاهلية، وبعد ذلك الفأل في الإسلام، وقد وُضِعَت في هذا العلم كتب مستحسنة، بيَّنوا فيها من هذا البيان ما يكون في الوصول إلى بلوغ الغرض منه، فإذا أردت ذلك وسألك سائل عن خبر وضمير أو خبي يريد منك الإخبار به والقول عليه، فاحكم على ذلك من أرباب الساعات.

مثال ذلك: إذا سألك رجل عما في يده في أول ساعة الزُّهَرة، فاعلم أنه شيء أبيض حسن اللون طيب الرائحة مما يدخل النار ويخرج كالفضة.

وإن جاءك في وسط الساعة فإنه شيء حسن طيب الرائحة من العطر.

وإن جاءك في آخر الساعة فإنه شيء ضعيف لين مما يُنسب إلى الماء.

وإن جاءك في أول ساعة الشمس فهو صغير من نبات الأرض، وإن جاءك في وسط الساعة فإنه ذهب أو نقرة أو حلي من ذهب مدور أو دينار، وإن جاءك في آخر الساعة فإنه شيء رقيق ناري شبه القوارير.

القمر: إن جاءك في أول ساعاته فإنه فضة قليلة فيها رداءة أو خاتم فيه فص أسود أو نقرة أو فضة ناقصة للعيار، فإن جاءك في وسط الساعة فإنه شيء مدور فيه صدْع

أو كسر كالدرهم المكسور أو ورد أو شيء من الكافور، وإن جاءك في آخر الساعة فهو زرنيخ أحمر أو أصفر.

المريخ: إن جاءك في أول ساعته فإنه شيء طويل أحمر، النحاس أشبه بذلك، وإن جاءك في وسط الساعة فهو شيء أحمر عريض، إما حلقة أو امرأة، وإن جاءك في آخر الساعة فهو شيء حاد طويل مثل السنان أو الخنجر.

عطارد: إن جاءك في أول ساعته فاعلم أنه كتاب أو ديوان حساب، وإن جاءك في وسط الساعة فاعلم أنه نبات الأرض إلى السواد وما هو عريض يابس.

وإن جاءك في آخر الساعة فهو حجر مثقوب أو حب لؤلؤ أو دراهم أو شيء منقوش أو فيه صورة.

المشتري: إن جاءك في أول ساعته فهو جوهر ياقوت أو لؤلؤ، وإن جاءك في وسط الساعة فإنه خرز أو بلور، وإن جاءك في آخر الساعة فإنه شيء مثل خاتم ساذج فصه، أو فصه فيروزج.

زحل: إن جاءك في أول ساعة فاعلم أنه حديد أو رصاص، وإن جاءك في وسط الساعة فإنه من نبات الأرض ثقيل، وإن جاءك في آخر الساعة فهو لا محالة شيء مثل عناب أو نبق أو شبه ذلك.

(١٥) فصل في معرفة أرباب الساعات

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنه إذا صحَّ لك معرفة هذا العلم من هذا الباب قدرت على الإخبار بما شرحناه في الفصل الذي قبل هذا؛ وهو أن تعلم أن الكواكب السبعة التي هي أرباب الأيام السبعة.

فربُّ يوم الأحد الشمس، وربُّ يوم الإثنين القمر، وربُّ يوم الثلاثاء المريخ، وربُّ يوم الأربعاء عطارد، وربُّ يوم الخميس المشتري، وربُّ يوم الجمعة الزُّهَرة، والسبت زحل.

فإذا كان رب اليوم كوكبًا من الكواكب فهو مدبِّر الساعة الأولى من ذلك اليوم، ثم رب الساعة الثانية الذي دونه، والذي بعد رب الساعة الثالثة، وكلما انتهى إلى رب اليوم ابتدأ بالعدد إلى تمام أربع وعشرين ساعة، كيوم الأحد مثلًا فإنه للشمس، وهو رب الساعة الأولى، والزُّهَرة رب الساعة الثانية، وعطارد رب الساعة الثالثة، وكذلك ساعات أرباب كل يوم.

(١٦) فصل في معرفة ما تدل عليه الكواكب من أعضاء الحيوان

لزحل: الأذن اليمنى في ظاهر الجسم، وفي داخله الطحال.

وللمشتري: الأذن اليسرى، ومن داخله الفؤاد.

وللمريخ: المنخر الأيمن، ومن داخله الكليتان.

وللشمس: العين اليمنى بالنهار، ومن داخله المعدة.

وللقمر: بالليل العين اليسرى، ومن داخله الرئة.

الزُّهَرة: لها من خارج الجسم والوجه والصدر، ومن داخله القلب.

ولعطارد: اللسان، ومن داخله المرارة.

(١٧) فصل في معرفة الخبيء

إذا كان حيوانًا فاستدلَّ على خلقة رأسه بخِلْقة رأس الطالع، وعلى خِلْقة صدره بخِلْقة صدر وسط السماء، وعلى خِلْقة بطنه بخلقة وسط السابع، وعلى عدد أرجله وخِلْقته بخِلْقَة أرجل الرابع وعددها، وعلى حسنه وقبحه بمشاهدة السعود والنحوس؛ إن كان القمر منحوسًا فإن الذي سألت عنه من أعضاء الجسد قبيح، وإن كان مسعودًا فإنه أحسن.

(١٨) فصل في معرفة الخبيء من الثاني عشر وصاحبه

إن كان الثاني عشر برجًا هوائيًّا فهو من الهواء، وإن كان أرضيًّا فمن الأرض، وإن كان مائيًّا فمن الماء، وإن كان ناريًّا فمن النار.

ثم انظر إلى صاحب الموضع كذلك وامزجهما، فإن كان أحدهما أرضيًّا وصاحبه مائيًّا فهو نبات، وإن كان أحدهما مائيًّا وصاحبه أيضًا فهو جوهر جسدي، مثل الأجساد والكباريت، وإن كان أحدهما أرضيًّا والآخر هوائيًّا فهو من الحيوان الذي ينحل من الأرض، وإن كانا أرضيين فهو أرضي، وكذلك في جميع الأشياء.

(١٩) فصل في معرفة ما تدل عليه الحدود من كلام حكماء الفرس

الحَمَل: حد المشتري وهو الأول ست درجات، يدل على جوهر أبيض وأصفر يعمل بالنار. الثاني: الزُّهَرة ثمان درجات، يدل على شيء شديد يابس يضرب إلى السواد وإلى الصُّفْرة تذيبه النار، وكل ذلك مدحرج أو مدور إلى العرض ما هو. الثالث: عطارد سبع درجات، يدل على نقش سواد أو على شيء كتابة أو نبات أسود. الرابع: المريخ خمس درج، يدل على شيء طويل أحمر يشبه النحاس. الخامس: زحل، أربع درجات، يدل على حديد أو رصاص أو شيء أسود أصله رديء أو ميت، أو شيء لا قيمة له.

الثور: الأول حد الزُّهَرة ثمان درجات، نبات الأرض، لكنه جوهر أبيض من نبات أبيض. الثاني حد عطارد سبع درجات نبات الأرض، لكنه جوهر قد تغيَّر عما كان عليه. الثالث حد المشتري سبع درج، حيوان ذو أربع قوائم مما يكون له قرون. الرابع حد زحل درجتان، جوهر من جنس الأرض، لكنه شديد خشن يابس أسود. الخامس حد المريخ ست درج، حيوان يأكل اللحم.

الجوزاء: الأول منها حد عطارد سبع درجات، حيوان من جنس الناس، ومن الطير العقبان مما يأكل اللحم ويستأنس بالناس ويأْلف البيوت وينطق. الثاني حد المشتري ست درجات، حيوان الأنس، ومن الطير القصار الأعناق، وكل ذلك إلى البياض. الثالث حد الزُّهَرة سبع درجات، حيوان ذو ألوان مختلفة من الطير لا واحد ولا اثنين، مختلفة ألوانها. الرابع حد المريخ ست درجات، الحيوان الأنسي، ومن الطير مما يأكل اللحم. الخامس حد زحل أربع درجات، حيوان يضرب إلى السواد.

السرطان: أول حدٍّ منه لبهرام ست درجات، سباع الماء، وجوهر قد عمل بالماء والنار. والثاني للمشتري سبع درجات، جوهر الماء مما يؤكل ويُنْتَفع به. الثالث حد عطارد سبع درجات حيوان. ومن الطير ما يأكل اللحم، حَسَن المنطق، صغير، فيه لونان. الرابع حد الزُّهَرة سبع درجات، جوهر يخرج من الماء أو حيوان لين أو شيء ريحه طيب. الخامس حد زحل ثلاث درجات، حيوان، لكنه لا يُنْتَفع به، وهو أسود فيه حمرة، ضخم لا يكون إلا في الماء.

الأسد: أول حدٍّ منه لزحل ست درجات، شيء شديد لا يُنتفع به، يابس مثل الحجر ولكنه إلى الطول ما هو. الثاني حد عطارد سبع درج، جوهر أسود يابس لا يُنْتَفع به، دنس. الثالث حد المريخ خمس درج، جوهر أسود لا يُنْتَفع به، دنس. الرابع حد الزُّهَرة

ست درجات، شيء النصف الأول منه يابس والنصف الآخر رديء لا يُنتفع به. الخامس حد المشتري ست درجات، ذو أربع قوائم، يأكل اللحم ويستوحش من الناس، ضخم.

السنبلة: أول حدٍّ منها لعطارد سبع درجات، نبات صغير ثقيل إلى الطول ما هو. الثاني للزُّهَرَة ست درجات، نبات لا يكون له ثمر، عظيم، جوفه أطيب من خارجه. الثالث حد المشتري خمس درجات، شيء دسم عزيز. الرابع حد زحل ست درجات، شجرة كثيرة الشوك، ثمرها أحمر له لونان، وله نور حسن حار يابس. الخامس حد المريخ ست درج، حيوان جسيم طويل يضرب إلى السواد، كثير الأرجل، صبور.

الميزان: الأول لزحل سبع درجات شيء أسود. الثاني حد الزُّهَرة خمس درجات حيوان يطير، وما لا يطير لا يكون له قوائم، عدو للناس. الثالث حد عطارد خمس درجات، حيوان ثقيل لا يُنتفع به. الرابع حد المشتري ثمان درجات، شيء أبيض مؤنث. الخامس حد بهرام خمس درجات، حيوان يأكل اللحم، وفيه ألوان.

العقرب: أول حدٍّ منه للمريخ ست درجات، حيوان يكون في الماء، ويؤذي دواب الماء، ويكون كثير القوائم. الثاني حد الزُّهَرة خمس درجات، جوهر في الماء حسن يُنتفع به. الثالث حد المشتري ثمان درجات، يكون في الماء، دقيق طويل، يُنتفع به، يأكله الناس. الرابع حد عطارد ست درجات، جوهر يكون في الماء، يابس منتن. الخامس حد زحل خمس درجات، حيوان لا يُنْتَفع به، شبه شيء قذر.

القوس: أول حدٍّ منه للمشتري ثمان درج، جوهر عزيز شبه حجر، النصف الأول والنصف الثاني حيوان ذو أربع قوائم، يُنتفع به ويُحمل عليه. الثاني حد الزُّهَرة ست درجات، النصف الأول حيوان، والنصف الثاني جوهر أحمر عزيز. الثالث حد عطارد خمس درجات، النصف الأول حيوان، والنصف الثاني جوهر لا يُنتفع به. والرابع زحل، ست درجات، جوهر أسود يذاب بالنار، أحمر أصم. الخامس المريخ، خمس درجات، حيوان مفسد، عدو للإنسان.

الجَدْي: أول حدٍّ منه للزُّهَرَة سبع درجات، جوهر نباتي. الثاني عطارد سبع درجات، من جوهر الأرضين، طير، قد تشبه الماء والنار. الثالث حد المشتري ثماني درجات، حيوان ذو أربع قوائم ذو قرون. الرابع حد زحل أربع درجات، جوهر شديد يعمل بالنار، لا يذوب، حديد. الخامس حد بهرام أربع درجات، جوهر شديد، تذيبه النار، ويضرب إلى الحمرة، نحاس.

الدلو: أول حدٍّ منه لزحل سبع درجات، حيوان من دواب الأرض مما يتأذى به الناس. الحد الثاني للزُّهَرَة ست درجات، حيوان. الحد الثالث للمشتري سبع درجات، حيوان يشبه الإنسان، وطير يشبه دجاجة تربَّى في الماء. الرابع حد المشتري خمس درج، يأكل اللحم، أكثر ما يكون من الطيور، يشبه النسر والعقاب. والخامس حد المريخ خمس درجات.

الحوت: أول حدٍّ منه للزُّهَرَة اثنتا عشرة درجة، ثياب تُصْنَع من وبر الحيوان، قوي متشابه الألوان. الثاني حد المشتري أربع درجات، حيوان يكون في الماء. الثالث حد عطارد ثلاث درجات، نبات يكون في الماء، لا يُنتفع به إلا في النار. والرابع حد المريخ تسع درجات، حيوان يكون في الماء يؤذي ما يكون فيه من الدواب. الخامس حد لزحل درجتان، حجر وَدَع يتكون في الماء على ساحل البحر، يحمل حديدًا وحجرًا عليه حديد.

(٢٠) فصل في معرفة النوبهرات من كلام حكماء الهند

الحمل أول نوبهر فيه ذهب، الثاني نبات، الثالث نبات أخضر، الرابع ذو أربع قوائم، الخامس ذهب أو ياقوت أحمر، السادس حيوان ذو رِجْلين، السابع نبات، الثامن صقر أبيض، التاسع ذو رجلين. «الثور» أول نوبهر منه نبات، الثاني حجر، الثالث ذو روح وقوائم، الرابع ذهب، الخامس نبات، السادس إنسان، الثامن صقر أبيض، التاسع روح ذو رجلين. «الجوزاء» أول نوبهر منه نبات، الثاني شبهه، الثالث إنسان، الرابع نبات، الخامس رصاص أو قلعي أو أسرب، السادس من دواب الماء، السابع ذو أربع قوائم، الثامن نبات من الأرض، التاسع ذو رجلين. «السرطان» أول نوبهر منه نبات، الثاني جوهر أو صدف، الثالث حب، الرابع نبات، الخامس حديد، السادس برذون أو بغل، السابع نبات، الثامن جوهر أو حجارة، التاسع دواب الماء. «الأسد» أول نوبهر منه ذهب، الثاني ذو أربع قوائم، الثالث إنسان، الرابع حية، الخامس أسد أو نمر، السادس ذو أربع قوائم، السابع امرأة، الثامن عقرب أو حية، التاسع برذون أو بغل. «السنبلة» أول نوبهر منه صوف، الثاني حرف، الثالث إنسان، الرابع شاة، الخامس جاموس، السادس طير، السابع العلق الذي يكون في الماء، الثامن كلب، التاسع امرأة. «الميزان» أول نوبهر منه نبات، الثاني سهم، الثالث ذو أربع قوائم، الرابع مثله أو غراب أو ضبع، الخامس طير يأكل اللحم، السادس امرأة، السابع ملح، الثامن دواب، التاسع نبات. «العقرب» أول نوبهر منه زنبور أو عقرب، الثاني دب أو قرد، الثالث فراخ حدأة أو رخمة، الرابع سيف، الخامس عقرب

أو حية، السادس فيل، السابع سلحفاة، الثامن إنسان، التاسع نعامة. «القوس» أول نوبهر منه ذهب، الثاني نبات، الثالث إنسان، الرابع نبات، الخامس أسد، السادس جارية، السابع نبات أخضر، التاسع برذون أو إنسان. «الجدي» أول نوبهر منه ضب، الثاني صدف، الثالث إنسان، الرابع دجاجة أو ديك، الخامس فيل، السادس ريح، السابع سيف، الثامن نبل، التاسع إنسان. «الدلو» أول نوبهر منه حرف، الثاني إنسان، الثالث طير أو عنز، الرابع جمل أو حمار، الخامس حيوان غريب، السادس جوهر الماء، السابع خنزير، الثامن نبات، التاسع إنسان. «الحوت» أول نوبهر منه طير الماء ودواب الماء، الثاني طير الماء، الثالث فضة أو لؤلؤ أو صدف أو زبد البحر، الرابع قوائم أبلق، الخامس حيوان يأكل اللحم، السادس برذون أو رجل، السابع إنسان، الثامن ثمر أو بير، التاسع سمكة.

(٢١) فصل في أن لأصحاب هذه الصناعة والحكم على هذه المسائل دلائل كثيرة

واعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن لأصحاب هذه الصناعة والحكم على هذه المسائل دلائل كثيرة، تركنا ذكرها والاستقصاء فيها؛ إذ كنا إنما نذكر من كل علم شبه المقدمة والمدخل إلى باقيه؛ ليكون تحريضًا لإخواننا على التمهر فيه والشوق إليه؛ لأن بالشوق إلى الشيء يكون الحرص على الاطلاع عليه والمعرفة به. ومثل هذا العلم يجب لإخواننا، أيَّدهم الله وإيانا بروح منه، أن يعرفوه ويتعلموه ولا يزهدوا في شيء منه؛ لأنه علم جليل نفيس شريف، وجوهر سماوي وبدؤه إلهي، وجميع ما في العالم السفلي والمركز الأرضي فتدبيره يكون في حال نشوئه وبلائه ونقصانه وتمامه.

ونريد أن نذكر أول ما ابتدأ به أصحاب هذه الصناعة وجعلوه مقدمة للمبتدئين ليعرفوا به ما يتفرَّع من المسائل، ومعرفة الضمير الذي يسأل عنه السائل ما هو؟ وماذا يكون منه؟ وما الذي يصدر عنه؟ وهو الأصل المعتمَد عليه في صناعة الكهانة والنجامة.

والذي يختص منه بالكهانة هو ما لا يستعين عليه صاحبه بآلة ولا بإظهار حساب ولا نظر في كتاب، بل بجودة الحفظ، وذكاء النفس، وصحة العقل، وجودة التمييز، وحدَّة الخاطر، مع مساعدة ما اتفق له في مولده الموجب له ذلك.

فإذا عرف موضع القمر وتقويم الطالع وأرباب الساعات والأيام، وجاءه السائل أخبره عما سُئل عنه وما يكون من أمره، وعن ابتداء عمله وكيف تكون عاقبته، وأما ما يختص بالزجر فهو أن يجعل أول ما تقع عينه عليه في وقت المسألة جوهر ما يُسأل عنه،

فإذا رأى ذلك نظر إلى جوهر الطالع في ذلك وموضع وقت القمر، فإذا وافقه حَكَمَ به وأخبره بما يكون منه، فإن عدم النظر رجع إلى حسن السمع فجعل أول صوت يسمع مثل ما قدمنا ذكره في النظر، وله علم يختص به يطول ذكره.

(٢٢) فصل في استخراج الضمير للسائل

واعلم يا أخي أن المسائل على ثلاثة أوجه: فأول ذلك أن تعلم في أي شيء جاءك السائل وعما سأل عنه؟ والوجه الثاني من أين هذه المسألة؟ وأي شيء كان سببها أولًا؟ والوجه الثالث أن تعلم هل تُقْضَى أو لا؟ وإلى ماذا تصير عاقبتها؟ قال: أو قِس إذا أردت أن تعرف ذلك ابتدِئ بمعرفة الدليل على ما أصف لك.

ومعرفة ذلك أن تنظر إلى الطالع وصاحبه، وإلى القمر وإلى رب بيته، وإلى الشمس وإلى رب بيتها، وإلى صاحب الساعة وإلى سهم السعادة. واعمل بأجودهم موضعًا وأكثرهم شهادة، فإن لم تجد شيئًا مما ذكرنا فانظر إلى صاحب الطالع وإلى صاحب الشرف وصاحب الحد وصاحب المثلثة وصاحب الوجه، ثم اعرف أيها المستولي على الطالع، وهو أن تنظر أيها أكثر حظًّا في الطالع فاتخذه دليلًا.

واعلم أنه إذا كان جيد الموضع — وجودة موضعه أن يكون في بيته أو في شرفه أو في جده أو في مثلثه أو وجهه ويكون نقيًّا من النحوس — فإنه الدليل.

واعلم أن لصاحب البيت خمسة حظوظ، ولصاحب الشرف أربعة حظوظ، ولصاحب الحد ثلاثة حظوظ، ولصاحب المثلثة حظين، ولصاحب الوجه حظًّا واحدًا، فاعمل بأكثرهم شهادة وأجودهم موضعًا.

واعلم أنه إذا كان صاحب الطالع في الطالع فهو أَولى به من غيره، فإن لم يكن في الطالع وكان صاحب الشرف في الطالع فهو المستولي له كله، فإن كانا جميعًا في الطالع فهما شريكان، وإن كان لأحدهما شهادة أخرى فهو أقوى موضعًا، وهو الدليل بفضل شاهد أن يكون له كوكب له في الطالع شهادة ويتصل بأحدهما، أو يكون القمر في بيت أحدهما أو يتصل بأحدهما، فإذا كان كذلك فهو الدليل بفضل شهادة، فإن لم يكونا في الطالع فعليك بالدليل.

واعلم أن أقوى ما يكون من الأدلة وأَولاها بالمسألة أقواها موضعًا وأكثرها نصيبًا.

واعلم أن لكل طالع ربًّا، وقد يبقى الطالع ساعتين حتى يخرج، وقد يجوز أن يسأل في تلك الساعتين عن مسائل كثيرة، فإن كان صاحب الطالع هو دليل تلك المسائل كلها كانت تكون على أحد أمرين: إما مصلحة كلها وإما رديئة كلها، وليس الأمر كذلك.

وقد يكون القمر متصلًا يومه كله أو ساعات من النهار بكوكبٍ ما، والمسائل تختلف؛ منها ما يكون ومنها ما لا يكون بجودة النظر في الأصول.

(٢٣) فصل في ذكر أوتاد الفلك وأرباعه والبيوت الاثني عشر

واعلم أيها الأخ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن الفلك الأعلى يدير فلك البروج وسائر الأفلاك من المشرق إلى المغرب في اليوم والليلة دورة واحدة، وفي كل وقت من الأوقات يكون بعض درج فلك البروج في أفق المشرق، وبعضها في حقيقة درجة وسط السماء، وبعضها في أفق درجة الغارب، وبعضها في درجة الرابع، ومن كل موضع من هذه المواضع إلى الآخر يكون ربع الفلك، وكل ربع منه ينقسم إلى ثلاثة أقسام: منها ما يُسمَّى بيتًا فيكون الفلك في كل وقت أربعة أرباع على قدر فصول السنة، ويكون اثني عشر بيتًا على عدد البروج، والربعان اللذان من الطالع إلى وسط السماء، ومن الغارب إلى الرابع يسمَّيان منقلبين ذكرين شرقيين متيامنين، والربعان اللذان من العاشر إلى الغارب ومن الرابع إلى الطالع يسمَّيان ثابتين مؤنثين غربيين متياسرين.

وقد يقال أيضًا: إن فوق الأرض يَمْنَة وأسفل الأرض يَسْرَة، وفي قسمة أخرى بالربع الذي هو من الطالع إلى وسط السماء شرقي مقبل، والربع الذي من وسط السماء إلى درجة الغارب جنوبي زائل، والربع الذي هو من الغارب إلى درجة الربع غربي مقبل ذكر، والربع الذي من درجة الرابع إلى الطالع شمالي مؤنث زائل.

ويسمى الربعان المؤنثان والنصف الذي من وسط السماء إلى آخر الدرجة الثالثة الأخيرة منه يقال له الصاعد، والنصف المقابل يقال له الهابط.

وهذه الأربعة تنقسم على اثني عشر قسمًا على عدد البروج، ويقال لكل قسم منها بيت.

(٢٤) فصل في معرفة البيوت

فأول بيوت الفلك هو البيت الذي يطلع أوله من أفق المشرق، والذي بعده هو الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، ثم كذلك سائر البيوت يُسمَّى كل بيت منها باسم العدد الذي يليه إلى الثاني عشر، وكل بيت من هذه البيوت الاثني عشر يُسمَّى باسمٍ مخصوص ويُنْسَب إلى أشياء موجودة فيه.

(٢٥) فصل في البيت الأول

البيت الأول: يقال له الطالع، وهو يدل على الأبدان والحياة وعلى حالات كل ابتداء، وحركة المثلثة الأولى تدل على الحياة والعمر وطوله وقصره، والثانية تدل على القوة في الجسم، والثالثة تدل على الصورة.

والبيت الثاني: يقال له بيت المال، وهو يدل على جمع المال واكتنازه وأسباب المعاش وحالاتها والأخذ والإعطاء، والمثلثة الأولى تدل على المال، والثانية على الأعوان والمعاش، والثالثة تدل على المروءة واللطف.

والبيت الثالث: من الطالع يقال له بيت الإخوة والأخوات والأقرباء والأصهار، والعلم والرأي، والدين والفقه، والخصومات والأديان، والكتب والأخبار، والرسل والأسفار القريبة والنساء.

والأحلام القليلة المثلثة الأولى تدل على الإخوة والأخوات، الثانية تدل على القرابات، الثالثة تدل على الرعية.

البيت الرابع: من الطالع يقال له بيت الآباء، وهو يدل على حالات الآباء الأصل والجنس والأرضين والقرى والمدائن والبناء، وعلى كل شيء مستور مما كان تحت الأرض، وعلى الكنوز، وعلى العاقبة والموت وما بعده مما تصير إليه حالات الإنسان الميت من الدفن والنبش، أو الصَّلْب والحرق، أو الرمي به في بعض المواضع، أو أكل لحم الحيوان أو غير ذلك من حالاته، وما يختص بالنفس من الثواب والعقاب في المعاد، ولا يتهيأ لأحد النظر في هذا القسم المختص بالنفس إلا للعلماء من إخواننا الفضلاء، وقد ذكرنا كيفية ذلك في رسالتنا الجامعة عند ذكر شرح رسالة كيفية اللذات والآلام، والموت وما بعد الموت.

المثلثة الأولى تدل على الآباء والأمهات، الثانية تدل على العاقبة في الأمور، الثالثة تدل على الأرضين وبناء المدائن.

البيت الخامس: من الطالع يقال له بيت الولد، وهو يدل على الولد، والرسل والهدايا، والرجاء وطلب النساء، والمصادقة والأصدقاء، والمدن وحالات أهلها، وعلى غلَّات الضِّياع وكثرتها وقلتها.

والمثلثة الأولى تدل على الولد واللذة، والأكل والشرب، والثانية تدل على الأخبار والرسل، والثالثة تدل على المخاطبة والمصادقة.

البيت السادس: يقال له بيت المرض، وهو يدل على الأمراض وأسبابها والزمانة، والعبيد والإماء، والوضيعة والظلم والنقلة من مكان إلى مكان.

المثلثة الأولى تدل على المرض، والثانية تدل على العبيد، والثالثة تدل على الهمة والفكر.

البيت السابع: منه يقال له بيت النساء، وهو يدل على النساء والتزويج وأسبابه، والخصومات والأضداد، والسفر والسلف وأسبابه، والشركة. المثلثة الأولى تدل على النكاح، الثانية تدل على الأضداد، الثالثة على الشركة.

البيت الثامن: يقال له بيت الموت، وهو يدل على الموت والقتل والمواريث، وعلى السموم القاتلة والخوف، وعلى كل شيء هلك وضل، وعلى الودائع والبطالة والكسل. المثلثة الأولى تدل على الموت، الثانية تدل على الخوف، الثالثة تدل على المواريث.

البيت التاسع: يقال له بيت السفر، وهو يدل على الأسفار والطرق والغربة، وأمر الربوبية والنبوة والدين وبيوت العبادة كلها، والفلسفة وتقدمة المعرفة وعلم النجوم والكهانة، والكتب والرسل والأخبار والرؤيا.

المثلثة الأولى تدل على السفر وموافقته. الثانية تدل على الدين والعبادة والكتب والعلم والفلسفة. الثالثة تدل على الرؤيا والأحلام.

البيت العاشر: يقال له بيت السلطان، وهو يدل على الرفعة والملك والسلطان والوالي والقاضي والشرف والذكر والصناعات والأمهات.

والأعمال المثلثة الأولى تدل على السلطان والعز والولايات، الثانية تدل على المسألة الغامضة وعلى الملائكة والوحي ويقال: إنها السلطان والعز، والولايات الثلاثة تدل على الأمهات.

البيت الحادي عشر: يقال له بيت السعادة، وهو يدل على السعادة والرجاء، والأصدقاء والمحبة والثناء، والمواعيد والآمال، والولد والأعوان.

المثلثة الأولى تدل على الرجاء في الأمور، والثانية تدل على السعادة، الثالثة تدل على الأصدقاء والسخاء والكرم.

البيت الثاني عشر: يقال له بيت الأعداء وهو يدل على الأعداء والشقاء والحزن والغموم والحسد والنميمة والمكر والحيل والعناء والدءوب، ويدل على الجيوش. المثلثة الأولى تدل على الأعداء. الثانية على الشقاء والنميمة والغموم. الثالثة على الدءوب.

(٢٦) فصل في الاستدلال على المسائل والإخبار بها

إذا سُئِلت عن مسألة فانظر إذا أقمت الطالع بدرجاته ودقائقه وعرفتَ الدليل فانظر إلى القمر في أي البروج هو؟ وفي أي الحدود هو؟ وعمن ينصرف من الحدود؟ وبمن يتصل؟ وبأي الموضعين كان أقوى؟ فاقضِ عليه.

بيان ذلك أنَّا نظرنا فوجدنا الطالع الحمل حد بهرام، وكان بهرام ساقطًا، وكان زحل ساقطًا، وكان القمر في الثالث من الطالع في بيت عطارد، وكان عطارد في السابع من الطالع، وكانت الزُّهَرة في الدلو، فإذا الدليل هو القمر؛ لأن بهرام كان ساقطًا، وكان زحل ساقطًا أيضًا، وكان القمر في الثالث من الطالع في بيت عطارد؛ فلهذا قلنا: إن الدليل القمر؛ وذلك أنَّا لم نجد أقوى من القمر، وكان في الثالث من الطالع في بيت فرحه، وكان يتصل بعطارد من التثليث، وكان عطارد في السابع بيت الزُّهَرة، وكان نظرها إليه من تثليث، وعطارد أيضًا صاحب بيت المريض، يدل على أن السائل يسأل عن كتاب ورد عليه من أخ له يذكر فيه حال مرض امرأة من بعض أزواجه يئول حالها إلى البرء.

(٢٧) فصل إذا سألك سائل عن نفسه وحاله ...

إذا سألك سائل عن نفسه وحاله وما يصيبه فانظر إلى الطالع وصاحبه، ومَنْ ينظر إلى الطالع وإلى القمر أمسعودة أم منحوسة؟ فإن كانت مسعودة فحاله حسنة له، وإن كانت منحوسة فحاله سيئة، وإن كانت ممتزجة فحاله متوسطة.

وإن سألك عن دوام ما هو فيه؟ فانظر إلى صاحب الطالع والقمر، فإن كانا في برج ثابتة أو في الأوتاد فإنه يدل على دوام ما هو فيه، وإن كانا فيما يلي وتدًا فإنه يدل على زوال ما هو فيه، وإن كان النحس قبل الوتد فقل له: قد كنت في شر، وإن كان في وتد فقل له: أنت فيه اليوم، وإذا كان النحس بعد الوتد فقل: الخوف عليك فيما بعدُ، ولا سيما إذا كان في الثاني عشر، فإن كان صاحب الطالع منصرفًا من سعد إلى سعد فقل: من خير إلى خير، وإن كان من نحس إلى نحس فقل: من شر إلى شر، فإن نظر صاحب الطالع إلى صاحب بيت القمر فقل: تصيب سرورًا، وإن نظر إلى صاحب بيته وشرفه فإنه يرتفع من منزلة إلى منزلة، والكوكب الذي ينصرف عنه صاحب بيت القمر هو الأمر الذي يصير إليه فيما يستأنف، وإن سألك عن مال فانظر فإن كان صاحب الطالع يتصل بصاحب الثاني فإنه يصيب الذي طلب، وإن كان يدفع بينهما كوكب فإنه يحول بينهما في ذلك إنسان من جنس ذلك الكوكب، ومعرفة ذلك أن تعرف صاحب أي بيت هو من بيوت الفلك فتنسبه

إليه إذا نظر إلى بيته، فإن كان صاحب الثاني في الثاني فإنه يصيب من عمل يديه، وإن كان صاحب الثاني في الثالث فإنه يصيب من إخوانه وأخواته، وإن كان في الرابع فمن الآباء والأرضين، وإن كان في الخامس فمن الولد والتجارة، وإن كان في السادس فمن العبيد أو المرضى، وإن كان في السابع فمن النساء والخصومات والشركة، وإن كان في الثامن فمن المواريث، وإن كان في التاسع فمن الدين والأسفار، وإن كان في العاشر فمن السلاطين والآباء، وإن كان في الحادي عشر فمن الأصدقاء والإخوان والتجارات، وإن كان في الثاني عشر فمن الدواء وأمر فاسد، وإن كان في بيته فهو وسط وإن كان في هبوطه فهو رديء قليل.

وكذلك إن كان منحوسًا أو راجعًا فهو فاسد رديء، وإن كان مسعودًا فهو صالح، وإن اتصل صاحب الثاني بالمريخ فمن السرقة واللصوصية والآثام والخصومات، فإن اتصل بزحل فهو شيء من عسر وكد لا يوصل إليه إلا بعد تعب وشدة، فإن اتصل بالمشتري فمن الورع والدين والنسك والفقه، فإن اتصل بعطارد فمن الكتابة والحساب والتجارات والكلام، وإن اتصل بالزُّهَرة فمن قِبَل النساء، وإن اتصل بالشمس فمن قِبَل الملوك والسلاطين، وإن اتصل بالقمر فمن قِبَل الكلام والرسالة.

(٢٨) فصل في كلام حكماء الهند وغيرهم في الضمير

وإن كان الدليل الأول رب الطالع أو الكوكب القابل تدبيره فإن الضمير عن موضع رب الطالع من الفلك أو عن موضع قابل تدبيره من الفلك، وقد يخرج الضمير من درجة الطالع نفسها، وذلك أن تنظر أي كوكب يتصل به درجة الطالع، فإن الضمير من قبل موضع ذلك الكوكب من الطالع، ولا تغفل عن الكوكب الذي يكون في الطالع إذا لم يسقط عن درجة الطالع، فإن الضمير جوهر ذلك الكوكب.

وإن نظر إلى صاحب أي بيت هو فيه من الطالع فإن المسألة عن جوهر ذلك البيت الذي ينظر إليه.

والدليل الثاني: قول ويرونس وأنطليقوس وبطليوس ووأليس ورانبوس؛ وذلك أن تنظر صاحب أي بيت هو، وأن تنظر إلى البرج الذي فيه سهم السعادة، فإن المسألة عن جوهر ذلك البيت من الطالع، فإن كان في الطالع فإن المسألة عن نفسه، وإن كان في الثاني فمن المال، وكذلك بقية البروج الاثني عشر.

والدليل الثالث: قول علماء الهند، فإنهم قالوا إذا سُئلت عن شيء قد أُخْفِي عنك فانظر إلى رب حظ الدرجة، والطالع، ورب الحد، ورب الدرجة، أيها أقوى؟ وبماذا يتصل؟ فرب ذلك الموضع هو الدليل على الشيء الذي أُخْفِي عنك، وأقواها أن تنظر إلى درجة الطالع في أي برج هو؟ وفي أي برج يقع؟ فإن كان صاحب ذلك البرج هناك فإن وجدت هنالك كوكبًا فإن الضمير عن مثل ذلك البيت عن الفلك، فإن لم يكن هناك كوكب فانظر أين تجد حظ صاحب ذلك البيت، فإن الضمير على مثل موضع صاحب الحظ من الطالع وموضع صاحبه.

والمثال في ذلك أن الطالع كان اثنتي عشرة درجة من الحمل، فألقيت لكل برج درجتين ونصفًا، وبدأت بالطرح من الحمل الذي هو الطالع، فبهذا الحساب يكون في الأسد الذي هو بيت الولد، فلم يكن الشمس هناك ولا كوكب غريب، ونظرت إلى الشمس فوجدتها في السابع فقلت: إن المسألة عن ولد يريد أن يخطب امرأة، ولو كانت الشمس في السادس فقلت من مرض ولد، وكذلك بقية البروج الاثني عشر إن شاء الله.

(٢٩) فصل في استخراج الدليل من النوبهرات

وذلك أن تأخذ من الحمل إلى درجة نوبهرات الطالع لكل برج تسع، ولكل ثلث درج وثلث نوبهرًا واحدًا، فما اجتمع معك من النوبهرات فألقِها من اثني عشر.

فإن لم يتم اثنا عشر فألقها من الحمل وابدأ بحيث انتهى؛ ففي ذلك البرج نوبهر الطالع. فإذا عرفت ذلك أين وقع؟ فانظر ما يُسمَّى ذلك البرج من الطالع بيت مال أو بيت أخوة أو غير ذلك، فإن الضمير عن مثل جوهر ذلك البرج من الطالع.

مثال ذلك: إن سُئلت عن مسألة وكان الطالع من عشر درجات من الحمل، فكان ذلك ثلاث نوبهرات، وألقيت ذلك من الطالع فانتهى العدد إلى الثالث من الطالع، وفيه زحل وهو راجع، فقل المسألة عن غائب متى يرجع، وكان عطارد هو صاحب نوبهر الطالع في وسط السماء، والطالع مع الشمس، فقل هذا الغائب له سلطان عظيم وشرف كبير، ومعه جماعة جند وأجلَّاء من الناس كبراء؛ لأن الشمس هي صاحبة الشرف الطالع في الدلو، ونور العالم في الدلو مع عطارد في وسط السماء، وزحل صاحب بينهما في الجوزاء — بيت عطارد — يدل على أن هذا الغائب أمير المؤمنين، فإن استشهدت على ذلك أن زحل يكون صاحب سنة العالم وهو صاحب بيت الشمس وعطارد جميعًا وكانت المسألة هل

يرجع من سفره أم لا؟ فنظرت فعلمت أنه راجع إن شاء الله، وكذلك الحال في السائل بمثل ذلك الدليل يستدل على الحكم عليها والإخبار بها.

(٣٠) فصل فيما اجتمعت عليه الحكماء القدماء من العلماء الأوائل من الأدلة

فيما اجتمعت عليه الحكماء القدماء من العلماء الأوائل من الأدلة؛ وذلك أن في الطالع تسعة أدلة وفي غيره ثلاثة أدلة، فالذي في الطالع صاحب الطالع وبيت شرفه ومثلثه وحدِّه ووجهه ونوبهره واثنا عشريته، والكوكب الذي يسير إلى درجة الطالع، ومَنْ في الطالع وفي غير الطالع، وسهم السعادة وصاحبه، وصاحب بيت الشمس بالنهار والقمر بالليل.

فانظر إلى أكثرها شهادة وولاية فهو الدليل، فإذا أنت عرفتَ الدليل فانظر بمَنْ يتصل أو مَنْ يتصل به من بعد تسوية البيوت الاثني عشر، فإن البيوت قد تنقسم من برجين فيكون بعضه من وتد الأرض وبعضه من وسط السماء، فإذا كان ذلك كذلك فخُذ بأكثر درجات الطالع ودع الأقل وانسب الضمير إلى ذلك الذي في وسط الطالع، فإن كان لا يتصل بشيء ولا يتصل به شيء فالمسألة عن نفسه.

فإن كان الدليل قد زال عن الطالع إلى الثاني منه وخرج منه جزء فالمسألة عن شيء قد خرج من يد مَنْ سأله، وكذلك إلى تمام البروج الاثني عشر إلى جوهر البيت الذي فيه الدليل، وكذلك إذا لم يكن اتصال.

وإذا كان اتصال فالاتصال أَولى بالدليل، فاعرف عند ذلك الدليل ومَنْ يتصل به الدليل، واعمل بالبيت الذي ينظر إليه الدليل ودع الآخر، وانسب الضمير إلى ذلك البيت، فإن كان الدليل في هبوط فالمسألة عن سرقة أو شيء قد هبط أو اتضع أو المحبوس، وإن كان لم يتصل من برج إلى برج فمن نقلة أو سفر، وإن كان الدليل لصاحب الثامن أو الثاني عشر وهما بيت النحس فالمسألة عن موت أو خوف، وإن كان الدليل قد وقف للرجوع فإنه يسأل عن مسافر متى يرجع؟ وإن كان واقفًا يريد الاستقامة فإنه يسأل عن مسافر متى يستقيم؟ وإن كان الدليل متحيرًا فإنه يسأل عن تحيره، وإن كان الدليل مع الرأس في شرفه أو في وسط السماء فإنه يسأل عن ملك أو رئيس أو أمر الدين له، وإن كان مع الزُّهَرة والمريخ ينظر إليها أو مع المريخ والزُّهَرة تنظر إليه فإنه يسأل عن تهمة النساء، وإن كان مع الذنب فإنه يسأل عن كلام وخصومة، وكذلك إذا كان القمر في الطالع فإنه يسأل عن خصومة أو عن خبر، وإن كان الدليل في الرابع أو مع الرأس في السابع، والرابع أن المسألة عن مال مدفون مثل كنز أو مخبأة، وكذلك إذا كان صاحب

الثاني في الرابع وصاحب الرابع في الطالع والبرج ناري، فالمسألة عن كيمياء هل يصح له أم لا؟ وإن كان البرج من برج النار فالمسألة عن حرب، وإن كان الدليل مع الذنب فإنه يسأل عن سحر هل يصح أم لا؟

فإن شهد عطارد حقق ذلك، وكذلك إذا كان الدليل زحل وهو مع عطارد وعطارد ينظر إليه فإن المسألة عن سجن، وإذا كان الدليل تحت الشعاع فالمسألة عن محبوس، وإذا كان الطالع بيت عطارد أو شرفه وكانت الأدلة في مواضع عطارد وله بها اتصال فإن المسألة عن كتاب.

(٣١) فصل في معرفة المسائل وأجوبتها «البيوت وما يتفرَّع منها»

بيت الحياة: إذا سُئلت عن عمر إنسان فانظر إلى رب الطالع والقمر، فإن كان بيت الحياة قد انصرف عنه كوكب فإن الكوكب الذي يتصل به القمر يدل على ما بقي من عمره، وإن كان صاحب الطالع تحت الشعاع يدخل في الاحتراق والقمر منحوس أو ساقط من الطالع أو بعض النحوس في الطالع أو السابع فإنه يدل على موت السائل، ووقت ذلك يُعْرَف من رب الطالع.

فإن كان ساقطًا أو ينظر ما بينه وبين درجة الاحتراق مما وجد بينهما من الدرجة فذلك ما بقي من عمره، وإن كان في برج منقلب فأيام.

وإن كان في برج ذي جسدين فشهور، وإن كان في برج ثابت فسنون، وأشد ذلك أن يكون النحس في الطالع أو ينظر إلى الطالع أو إلى الرابع أو الثامن.

فأما إن كانت السعود تُسعد الطالع والقمر يرى من النحوس وصاحب الطالع كذلك، فإن ذلك يدل على طول العمر والبقاء، ثم عد ما بين القمر والنحس وما بين رب الطالع إلى أن يحترق، فما خرج من حساب القمر فهو وما خرج من الطالع عدد العمر.

بيت المال: إذا سألت عما يُرْجى أو سأل سائل: هل أُصيبُ مالًا أو لا؟ فانظر إلى رب الطالع والقمر، فإن اتصل برب بيت المال ووجد القمر ينقل من رب بيت ذلك المال إلى رب بيت الطالع فقل: نعم. تصيب المال، وكذلك إن كانت السعود في بيت المال أو يتصل القمر بها، أو رب الطالع أصاب مالًا كثيرًا ومنزلة رفيعة، فإن كان ذلك السعد متحيرًا ساقطًا فإنه لا يصيب من المال إلا قوت يوم بيوم، ولا يكون له منزلة ولا جاه، فإن اتصل القمر أو رب الطالع بنحس وكان النحس في الثاني من الطالع فإنه يدل على إدبار حال صاحبه، وإن كان القمر خالي السير فإن السائل لا يزال على تلك الحال التي هو عليها حتى يموت. وخير السعود في بيت المال المشتري؛ لأنه يدل على الدنانير والدراهم.

(٣٢) فصل إذا أردت أن تعرف كم مقدار ما تصيب من المال

إذا أردت أن تعرف كم مقدار ما تصيب من المال في الأمر الذي ترجوه أنت أو مَنْ سألك عن مثل ذلك فانظر إلى صاحب بيت المال، فإن كان الدليل عطارد وكان في هبوطه أو في موضع رديء فإنه يدل على أن يكون المال عشرين درهمًا، وإن كان في مثلثه كان مائتي درهم، وإن كان في بيته كان ألفي درهم، وإن كان في شرفه كان عشرين ألفًا، وكذلك جميع الكواكب على قدر سنيها الصغرى عشر مرات.

وإن كان الكوكب في هبوطه أو في موضع رديء أعطاه بعدد سنيه الصغرى، وإن كان في مثلثه أعطاه بقدر سنيه الصغرى عشر مرات، وإن كان في بيته أعطاه بعددها مائة مرة، وإن كان في شرفه أعطاه عددها ألف مرة، وإن كان الكوكب محترقًا فانقص على قدر احتراقه وبُعْده من الشمس، وإن كان مع الشمس درجة واحدة لم ينل شيئًا، وإن نظر إليه نحس نقص مما دل على قدر وعليه على قدر قوته في موضعه، على ما ثبت لك من الشرف والبيت والمثلثة والهبوط.

فإن نظر إلى الدليل المشتري من شرفه زاده اثني ألف درهم، وإن نظر من بيته زاده ألفًا ومائتي درهم، وإن نظر من مثلثه زاده مائة وعشرين درهمًا.

ومن موضع رديء غريب زاد اثني عشر درهمًا، وفي الاحتراق ينقص المشتري مما يعطي على قدر بُعْده من الشمس.

فإن كان في درجة الشمس لم يزد شيئًا، وكذلك ينقص النحس ويزيد السعد مثل ما تثبت لك من هذه المنازل، ومتى وجدت الدليل الذي منه استدللت على عدد الشيء الذي ينقص أو يزيد في برج ذي جسدين فأَضْعِف ذلك العدد، وربما كانت النحوس هي التي تعطي المال وهي الدليل على عدد الشيء.

(٣٣) فصل في معرفة سني الكواكب «وهي ثلاث مراتب: الكبرى والوسطى والصغرى»

فأما سنوها الكبرى فللشمس مائة وعشرون سنة، وهو العمر الطبيعي، ولا يكاد الإنسان يجاوزه إلا أن يشاء الله تعالى.

وللزُّهَرَة اثنتان وثمانون سنة، ولعطارد ست وتسعون سنة، وللقمر مائة وثمان سنين، ولزحل سبع وخمسون سنة، وللمشتري تسع وسبعون سنة، وللمريخ ست وستون سنة.

وأما سنوها الوسطى فللشمس تسعة وثلاثون سنة ونصف، وللزُّهَرَة خمس وأربعون سنة، ولعطارد اثنتان وأربعون سنة ونصف، وللقمر تسع وثلاثون سنة، ولزحل ثلاث وأربعون سنة ونصف، وللمريخ أربعون سنة.

وأما سنوها الصغرى فللشمس تسع عشرة سنة، وللزُّهَرَة ثمان سنين، ولعطارد عشرون سنة، وللقمر خمس وعشرون سنة، ولزحل ثلاثون سنة، وللمشتري اثنتا عشرة سنة، وللمريخ خمس عشرة سنة؛ فهذه معرفة أنواع سنيها.

(٣٤) فصل فيما نورده من العلوم في كتبنا ورسائلنا

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أننا نورد من العلوم في كتبنا ورسائلنا ما يكون تزكية للعقول وتنبيهًا للنفوس، فأخذنا من كل علم بقدر ما اتسع له الإمكان وأوجبه الزمان، وقد اجتهدنا أن يكون ذلك من أحسن ما قدرنا عليه ووصلنا إليه.

ولذلك وصفناه وأثبتناه وأوردناه لإخواننا، أيَّدهم الله، ورضينا لهم كما رضينا لأنفسنا؛ إذ كنا كلنا روحًا واحدة وترابًا واحدًا، وبني أب واحد، ولنا رب واحد، وهو الذي خلقنا من نفس واحدة.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: «لا يكمل للمؤمن إيمانه حتى يرضى لأخيه المؤمن ما يرضاه لنفسه.»

وقال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

ولما كان علم الحساب علمًا واسعًا عظيم الدائرة محيطًا بالأشياء غير محاط به ألقينا إليك منه مدخلًا ومقدمة؛ ليكون محرِّضًا لك على الدخول إليه والمعرفة بما يوفق له منه.

وكذلك علم النجوم أيضًا علم واسع، وهو علم العالم الأعلى السماوي الحاكم العالم الأرضي؛ وذلك عالم علوي كبير، وهذا عالم صغير سفلي.

ولذلك قلنا في رسالة أفعال الروحانيين: إن أفعال العالم الكبير تظهر في العالم الصغير، والعالم الصغير ليس له فعل يظهر في العالم الكبير، وإنما له البيان عما يودعه فيه ويرسله إليه.

وقد ألقينا إليك في هذه الرسالة من سر علم النجوم ومستحسنات مسائله وصادق براهينه ودلائله ما إن وقفت عليه تشوَّقت إلى تعلُّمه والتمهير فيه.

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنه بمعرفة علم النجوم يكون لك التهدي للطلوع إلى السماء والجواز إلى المحل الأعلى، فإن لم تعرف ذلك تعذَّر عليك السلوك في هذه الطريق.

ويوشك أن مَنْ سلك في طريق لا يعرفها ضلَّ فيها، كما قيل في المثل السائر والقول الغابر: «قتل أرضًا عالِمها»؛ يعني خبرًا ومعرفة، و«قتلت أرضٌ جاهلها» يعني حيرةً وهلكةً.

والدليل على ما ذكرناه وبيان ما وصفناه معرفة هذه المسألة.

(٣٥) فصل إذا أردت أن تشير إلى رجل في حاجة من أمور الدنيا

إذا أردت أن تشير إلى رجل في حاجة من أمور الدنيا والدين فالذي يجب عليك أن تعلم هل تجده في الموضع الذي هو معروف به أم لا؟ فانظر إلى صاحب الطالع فإن كان في الأوتاد فإن الرجل في موضعه، وإن كان فيما يلي الوتد فهو قريب من موضعه، وإن كان ساقطًا فليس هو في موضعه.

وإن كان الإنسان يعلم بهذا الدليل يسهل عليه ما يقصد إليه في حياة الدنيا، فإنه متى عدم هذه المعرفة كان جاهلًا بما يقصد إليه ويُقْدِم عليه هل يجد أم لا؟ فإن وجد ما يريده فبالاتفاق لا بالعلم، وقلَّما يتفق للجاهل الإصابة.

والعالم في راحة من نفسه؛ لأنه لا يُقدِم على العمل ولا يتوجَّه في الطلب إلا في الوقت الذي ينبغي والزمان الذي يستوي.

فلذلك أردنا لإخواننا، أيَّدهم الله وإيانا بروح منه، معرفة جميع العلوم وحثثناهم عليها وأرشدناهم إليها.

وإذا كان ذلك كذلك في المقاصد الدنيوية والمآرب الجسمانية لا يجب للمرء أن يتخلَّف عن معرفته، فكيف يجب له التخلُّف عن الأدلة الربانية وما يكون له به المعرفة بالطريق إلى الآخرة والقدوم على ربه ليجازيه بما كسبت يداه؟!

(٣٦) فصل في أن من أحسن ما وصل إليه الناس بعد هذه الصناعة …

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن من أحسن ما وصل الناس إليه من هذه الصناعة وأجلِّ معارفها، أن يعلموا كيفية أحوال الملوك والسلاطين وولاة الأمور والعهود والأمراء والقواد وولاة الحروب والوزراء والكتاب والعمال والقهارمة، وابتداءات الدول

وعواقبها، ومدة أعمال المواليد ومواليدها، وما يظهر منهم في الأزمنة ويعلمونه في الأمكنة، فإن ذلك من العلوم المخزونة والأسرار المكنونة والأخبار المدفونة مما استخرجتها الحكماء وعلِمها العلماء بما قد وقفوا عليه ووصلوا إليه من أخبار السماء بالوحي والإلهام وصدق التخيُّل والرؤيا.

وقد رأينا، وبالله التوفيق، أن نذكر في هذه الرسالة طرفًا من ذلك نرويه عن العلماء، ونخبر به عن الحكماء، من غير زيادة ولا نقصان، والله المستعان.

(٣٧) فصل في أول ما يجب أن يُعْرَفَ من ذلك

فأول ما يجب أن يُعْرَفَ من ذلك وأن يُعْمَلَ به عقد التاج وبيعة الملك وابتداء الولاية العظيمة والملك الكبير المتقرر في ذلك الملك النبوي، وهي بمنزلة الخلافة.

فأفضل ما يكون العمل بذلك والعلم به أن يكون القمر من الذي يطلب صحيحًا نقيًّا من النحوس، وقبل ذلك معرفة الجوهر والجنس والبلدة والإقليم والمدينة، والمكان الذي فيه ذلك الابتداء، والولاية ومعرفة الزمان والأرباب والشهادات الدرجيات، وهي للخاص والكداخده[٦] وصاحب القمر ومدبِّري التدبير، فتحمل ذلك وتجمع بعضه إلى بعض وتقيس الأول بالآخر، ثم تنظر إلى القمر خاصة أين هو في الابتداء؟ وكيف هو في صحته، وما يقارنه بجسده ومتصل به، ومسيره ومنزله والناظرين إليه، أمن حظه هم أم من غير حظه؟ ويكون عمل الابتداء للخلفاء في أحد البيعة أكثر حظًّا من الشمس، ولولاة العهود من المشتري، ولأصحاب الثغور من المريخ، وللقهارمة[٧] من زحل، وللوزراء والكتَّاب من عطارد، وللعمال من القمر، وللقواد من الزُّهَرة، والمريخ. وأفضل ما يكون عقد التاج وبيعة الملك وابتداء الولاية والظهور والرياسة والجلوس على سرير المملكة والنطق بالأمر والنهي أن يكون الطالع برجًا ثابتًا والقمر في موضع جيد.

فإن الملك يكون طويلًا، ولا تكون الرياسة ذات مدة، ولا سيما الأسد؛ لأن البروج الموافقة لأمر الملوك: الحمل والأسد والقوس. فمتى كان كذلك ووجدت في الطالع سعدًا فإنه يدل على حسن الخلق وصلاح جميع ذلك الابتداء والملك، وإن وجدت في الطالع نحسًا

[٦] الكداخداه: المقرَّب من الملك وكاتم سره وكاتبه الخاص، واللفظ غير عربي.

[٧] القهرمان: مدبِّر الملك ومستشار الملك.

كان غير ذلك من الفساد والرداءة، وإن كان المريخ في الطالع فإن المولى يكون فظًّا غليظًا خفيفًا شتَّامًا لا حياء له ولا دين، بذيئًا ضعيفًا فاحشًا في المنطق، يستقبل خدمه وأهل مملكته بالبذاءة والشتيمة، مبغضًا لأقرانه، محبًّا لسفك الدماء وخراب البلاد، قليل الثبات على ما يأمر به، سريع السقوط بمنزلته، مفتضحًا معيبًا كثير الأعداء، يكثر شكيته.

وإن كان زحل في الطالع فإنه يكون حقودًا لوَّامًا عسيرًا قليل النفاذ لما هو فيه، حسودًا بخيلًا جمَّاعًا خداعًا حريصًا مذمومًا، وإن كانت الشمس في الطالع يكون كثير الجماعات كثير الجنود والعدد منيع الغير، ويكون له سعادة عظيمة وعز.

وإن كان المشتري في الطالع فإنه يكون صدوقًا وفيًّا محبًّا للخير، عالمًا محبًّا لأهل الدين، كثير الأصدقاء والنصيحة، ذا عفة وزهادة في الدنيا.

وإن كان عطارد في الطالع فإنه يكون مفكرًا داهيةً أديبًا، محكمًا لأعماله بالحيل والعقل والخداع والمكر، فإن كانت الزُّهَرة في الطالع فإنه يكون كثير الأموال والمواريث من جهة النساء والخدم، وضعيف البدن قليل الثبات على الأمور، سهل الوطأة، محبًّا للهو واللعب والفرح والنزه وجودة اللباس والعطر وطيب المأكول والمشروب والخلوة مع النساء والحرم والتزيِّي بزيِّهم.

وإن كان القمر في الطالع فإنه يكون جريئًا مشهورًا بالقوة والمشي بالليل، وإن كان الرأس مع السعود في الطالع فإنه يكون قاهرًا لملوك الزمان ظاهرًا على أعدائه.

وأفضل ما يكون عن الملك وقهره وقوته وضبطه إذا أشرف المشتري على الشمس أو على القمر أو على الطالع، وهو من بعض بروج الملوك، وهو أيضًا في برج من بروج الملوك، وأعظم لذكره وأعلى أن يكون البرج الذي فيه المشتري متقلِّبًا؛ لأن المنقلبة أبدًا هي أشهر أمرأ وأعلى وأنصح، وذوات الجسدين فيها أكثر أجناسًا وتخليطًا، والثابتة أطول أمرًا وأثبت.

ومتى وجدت المشتري في ابتداء المملكة خاليَ النظر عن الشمس والقمر والطالع فاعلم أنه لا محمدة لذلك الملك ولا مذمَّة ولا صلاح، فإن وجدت المريخ في موضع حسن أو يكون المشتري في بيت المريخ والمريخ في بيت المشتري فإن الملك يكون جائرًا، نافذ الأمر، مظفرًا في القتال، قاهرًا لأعدائه، فتَّاحًا للبلاد وضابطًا للملك، بعيد الغور في أمر عدوه، ضعيف الأعداء، لا سيما إن كانت الشمس مع ذلك في الأسد الذي هو برج نهاري وصاحب بيت المال ينظر إليها من وتد أو من بعض الأماكن القوية ميمنة أو ميسرة.

وينبغي لك أيضًا أن تنظر إلى البيت العاشر من الطالع الذي هو بيت الملك، وتنظر أيضًا إلى العاشر من بيت الشمس الذي هو فيه، الذي هو بيت ملكها في ساعة المسألة أو

حين النظر والابتداء؛ لأن هذين المكانين متى ما وجدت فيهما السعود وكان أصحاب ذلك البرجين في بروج ثابتة جيدة الموضع فإن الملك ذو سعادة وخير وفضل.

وإن كانت الكواكب التي في ذلك المكان في شرفهما أو شرقيه، أو في حظ الابتداء، أو لها نصيب في ذلك الابتداء من الاجتماع والامتلاء وسهم السعادة أو نحو ذلك، فهو أفضل وأجود؛ وذلك أن تكون الكواكب في مواضعها مستقيمة في سيرها وسعودها في العرض والشمال، زائدة في جريها، ملائمة الابتداء إلى النهار بالنهار، والليل بالليل، فتكون أيضًا تنظر إلى أصحاب حظوظها وليست بالناقصة ولا بالبطيئة ولا في هبوطها ولا في ضدها، ولا في الدرجات التي هي آثار، ولا في الأماكن المظلمة، ولا تحت شعاع الشمس، فإن ذلك كله يدل على الكذب والغش والتخليط على قدر الموضع والمكان والمنحسة.

ولتكن أيضًا تنظر إلى برج وسط السماء فإنه موضع لا بد منه؛ لأنه برج الملك والسلطان، واعرف درجة الطالع والبيت والحد والوجه والشُّرَف من الكواكب ومَنْ فيها ومَنْ ينظر إليها، وهل فيها من الكواكب المضيئة شيء؟ وأين صاحب شرفه؟ إلا أن أجود ذلك يكون صاحب شرفه سعدًا أو يكون صاحب وسط السماء شرقيًّا مستقيم السير.

وأجود ذلك أن يكون في شرفه وموضع له فيه حظ، ويكون صاحب ذلك الشرف في شرف الشمس أو القمر أو المشتري، ويكون صاحب ذلك الشرف في أي مكان موضع جيد؛ فإنه يأتي بدلالته حيثما وقع بقدر قوته والكواكب المعينة له.

واعرف المكان الحادي عشر الذي يُسمَّى المكان المعين وما فيه من الكواكب، فإن وجدت فيه الشمس أو القمر أو المشتري أو الزُّهَرة أو عطارد أو الرأس وينظر إليه السعود، فإن ذلك الابتداء يكون من حسن المستقبل والثبات والقوة والبهاء والزيادة؛ لأن مثل ذلك يكون ملكه وأصلًا إلى ولده أو يبلغ فيه بهمَّته، ولا سيما إذا كان ذلك المكان من بروج السعود، ويكون فيه المشتري أو عطارد أيهما كان في ذلك الموضع ينظر إلى السعود، دلَّ على وصول الملك إلى ولده. وإن وجدت زحل بالنهار في شرفه أو ينظر إلى المشتري، وكان المريخ في شرفه بالليل أو في بيته، أو في بيت المشتري، أو ينظر إليه المريخ من عداوته، فإن الملك الذي كان الابتداء له يكون مخرِّبًا للبلدان غاصبًا قاهرًا، وكذلك يكون عزيزًا جريئًا لا يهاب أحدًا، يحبُّ سفك الدماء، راغبًا في الذكر، شجاعًا، ولا سيما إن كان مع المريخ سهم السعادة وسهم الجرأة؛ فإنه يكون منهمكًا في إراقة الدماء وقتال الأقران، محبًّا للفرسان والسلاح والأسفار، ويكون له أفعال تختص به لا يبديها لأحد حتى يفعلها فجأة.

واحفظ سهم السعادة وسهم الشرف وسهم الملك، وتحسب له من درجة الشمس التي هو فيها بالنهار إلى تسع عشرة درجة من الحمل، ثم تُلقي ذلك من الدرجة الطالعة، فحيث ينقد الحساب ففي تلك الدرجة سهم السعادة بالنهار، وبالليل تعد من الدرجة الثالثة من الثور، وتُلقي ذلك من الطالع أيضًا كما صنعت بالشمس، واحفظ سهم الملك الذي يعد من الشمس إلى القمر بالنهار، وبالليل تعد منه إليها ويُلقى من درجة وسط السماء؛ فإنك إذا وجدت هذه السهام في مواضع جيدة مع السعود فإنه أشهر للسعادة وأشهر للملكة.

واعرف الثاني عشر من الطالع الذي يُسمَّى بيت الشقاء، ومَنْ في كل بيت منها من السعود ومن النحوس؟ وأيها كان فيه نحس؟ فاعلم أن بليَّته وعداوته من تلك الناحية التي يكون ذلك النحس، وكذلك ما يهيج عليه من النواحي التي يكون فيها النحوس وقت الابتداء، فإن وجدت النحوس ساقطة ولا سيما تحت الأرض، فاعلم أن أعداءه إلى الضَّعف والوهن وقلة القدرة على ما أرادوا، وأفضل ذلك أن يكون الطالع وسط السماء في وتد.

واعرف الهيلاج ومَنْ ترى منه، وانظر المضيئين والشعاع ورب الطالع ورب وسط السماء وسهم السعادة؛ لأنك متى وجدت النحوس في أحد هذه الأماكن بالشعاع كانت المضرة والشر فيها كائنة، فإذا كان إلقاؤها لذلك الشعاع على الهيلاج تخوَّفت على نفسه، وإن كان إلقاؤها الشعاع على وسط السماء تخوفت على ملكه، وإن كان إلقاؤها الشعاع على الطالع تخوَّفت عليه في جميع أموره، فإن كانت السعود هي التي تلقي الشعاع على هذه المواضع التي ذكرت فاقضِ عليه بالفرح والسرور والاستقامة والخير، وليكن نظرك لبقاء الملك والسلطان من الشمس والطالع ولا سيما بالنهار فإنه متى وقع عليه الشعاع من النحوس دلَّ ذلك على الخوف، والله أعلم.

وإذا عرفت أمر الهيلاج فاطلب الكدخدا من بعد ما وصفت لك في المواليد؛ فإنه إن كان الكدخدا في الوتد أو مكان الشعاع أو في الخامس فإنه يدل على السنين، وإن كان فيما يلي وتدًا فإنه يدل على الشهور، وإن كان ساقطًا فإنه يدل على الأيام بعدد درجه، وكذلك فانظر إلى ما ينظر إليه النيران من السعود والنحوس، فإنها إن نظرت من التثليث أو التسديس من موضع حسن دلَّ على الزيادة في السنين والشهور، وإن يكن نظر عداوة دلَّ على النقصان والاجتماع والامتلاء، إذا وقع في وتد أو فيما يلي وتدًا أو صاحبه في موضع حسن دلَّ، بإذن الله، على الزيادة والقوة والنجح.

(٣٨) فصل في أنه لما كان بهذا العمل ...

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنه لما كان بهذا العمل ومعرفة هذا العلم وأحكام هذه الصناعة وتقويم الحساب يكون تمام العمل للملك الأرضي وسياسة العلم الفلسفي، وإن كان المتولي لذلك الأمر يحتاج إلى مَنْ يدبِّر له هذا العمل ويقوم هذا الحساب، وإذا كان ذلك كذلك فليس بملك ولا إمام، وإنما الخليفة من استخلفه الله تعالى بأمره وأيَّده بملائكته وكان هو المدبِّر له بالتدبير الذي يجمع له به السعادات الفلكية كلها، وإليه تصرف روحانياتها، كما أيَّد الله سبحانه سليمان بن داود بالملكية وسخَّر له الجن والإنس والطير والوحش، وكما أيَّد موسى عليه السلام، بكلامه وأمره حتى قهر فرعون وأهل مملكته ورجال دولته، واستجاب له سحرته وهم أصحاب النجامة والكهانة في زمانه، وهم الذين كانوا يدبِّرون له ملكه بما وقفوا عليه ووصلوا بعلمهم إليه، فلما رأوا من موسى، عليه السلام، ما بهرهم نوره، ولم يروا في علمهم أن عمله يبطل، ولا أن ما يأتي به يتعطَّل، وأن جميع ما هم فيه من أمر فرعون زائل مضمحل، ورأوا أن السعادات قد انصرفت مسخَّرة بأجمعها لموسى وهارون، عليهما السلام: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، وأن التأييد الكلي والأمر الإلهي هو مُصرِّف تلك السعادات إلى موسى وأخيه، استجابوا له وخضعوا عنده.

وكذلك حال نبينا محمد ﷺ لما صرف الله تعالى التأييد إليه وأنزل الوحي عليه خضعت له الملوك، واستجابت له الكهنة والمنجمون وهم الذين عندهم علم من الكتاب، وآمنوا به وصدَّقوا بمبعثه، وكان هو المدبِّر لهم والحاكم عليهم، ولم يحتج إلى تدبيرهم، وكان يأتيهم بما ليس عندهم وبما يخرج عن وُسْعِ طاقتهم، وآتاهم من علم الفلك وأخبار السماء بما لم يصلوا إليه ولا قدروا عليه.

فلما رأوا ذلك علموا وتحقَّقوا أن تأييده إلهيٌّ وحكمته ربانية، وأن الأمر الذي أُلْقِيَ إليه من فوق الأفلاك ومن أعلى السموات فإنه يلقى العرش المحيط والكرسي الواسع.

فهذه صفة الولاية العظيمة والخلافة الكبيرة التي هي خلافة الله تعالى، والمستخلف بها هو النبي ﷺ في زمانه، وبهذا العقد يكون من استخلفه النبي عليه السلام، من بعده إذا مضى إلى ربه عز اسمه.

وهذه الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة عليهم السلام، لا يحتاجون فيها إلى مدبِّرين غيرهم وإلى علماء سواهم، ولا يطلع الناس على أسرارهم ولا يعرفون أخبارهم،

ولا يطَّلعون على مواليدهم، ولا يعرفون سنيهم في موتاهم، ولهم علوم يتميزون بها وينفصلون عن العالم بمعرفتها، وأعمال يعملونها لا يُشركون فيها غيرهم.

ولذلك استحقوا الرياسة ووُسِموا بالخلافة، وإنهم لا يبدون عملًا من الأعمال ولا يُظْهِرون فعلًا من الأفعال إلا بمشيئة إلهية وإرادة ربانية، في الوقت الذي ينبغي به إظهار ذلك العلم فيه، وهم أطباء النفوس ومداوو الأرواح.

وإنما أردنا بما بيَّنَّاه لك من العلم والعمل والتدبير الذي يذكره أهل هذه الصناعة، ويصنعون في وقت ابتداء الخلافة ونصب سرير المملكة، واجتماعهم لذلك وادعائهم بما يعلمونه، وترؤسهم بما يصنعونه وطلب الجوائز والأموال والخلع؛ ليعلم أن الملك والخليفة الذي يُستخلف بهذا التدبير هو مملوك وليس بمالك، وإنما أُيِّدَ بتأييد أرضي وهو محبوس محجور عليه، وقد سُحِرَ بسحر لا ينفكُّ منه ولا يُسْتَخْرج عنه إلا بالموت.

وقبل ما يتفق في أول تلك المملكة مَنْ يكون عنده من هذه المعرفة وصحة الصناعة ما يتدبر به على الصلاح، وإن اتفق ذلك فإن الزمان لا يتهيأ له على ما يريده من العمل، وإن تهيَّأ له ذلك خالفه حكم المولد، وإن اتفق ذلك وقع الخلاف والمنازعة من أهل الصناعة، وإذا وقع الاختلاف فسد المختلَف فيه.

فقد بان لك بما ذكرنا كيف تكون خلافة الله عز وجل وخلافة خلقه.

فإن قال قائل: ذلك لا يكون إلا بأمر الله سبحانه، فقد صدق إذا اتُّبع فيه المستخلف الأمر الذي يُرضي الله عز اسمه، وهو الذي مَنْ أطاعه فقد أطاع الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾.

وإنْ عدل عنه إلى ضدِّه فقد خرج من أمر الله تعالى وارتكب نهيه، ونريد أن نبيِّن هذا القول ونوضح هذا المعنى.

واعلم يا أخي، أيَّدك الله، أن أول خليفة استخلفه الله تعالى في أرضه هو آدم، عليه السلام، فلما أمره الله تعالى بمخالفة إبليس الذي هو عدوه وضده ألَّا يقرب الشجرة التي نهاه عنها كان في الجنة بأمر الله.

فلما أطاع إبليس فقبل منه وأكل من الشجرة، خرج من أمر الله تعالى وصار في أمر إبليس، لعنه الله، ووقع في الخطيئة؛ لأن الله تعالى أمره فخالفه وأمره إبليس فأطاعه.

فلما علم ذلك بمناداة الله له في تذكاره بما استوجبه من نسيان وصيته استرجع وتاب وأناب ولم يستكبر كما استكبر إبليس.

وكذلك إبليس أمره الله تعالى أن يسجد لآدم، فلمَّا سوَّلت له نفسه أنه خيرٌ منه وامتنع من السجود، خرج من أمر الله سبحانه وصار في أمر نفسه.

وهكذا يجري أمر المستخلَفين من ذرية آدم في الأرض مَنْ كان منهم مستخلَفًا فيها بأمر الله تعالى الذي استخلف به آدم بعد التوبة، وهو الأمر الثاني والوصية الثانية التي لم يتعدَّها ولم ينسَها وجعلها كلمة باقية في عقبه، وهي خلافة النبوة ومملكة الرسالة والإمامة.

فمَنْ تعدَّى هذا الأمر وخالف هذه الوصية وطلب أن يكون خليفة الله تعالى ليدبِّر خلقه بسعيه وحرصه فإنه لا يتم له، وإن تمَّ وقدر عليه فإنما هو خليفة إبليس؛ لأنها حيلة ومكيدة وخديعة وتعدٍّ وغصب وظلم وعدوان وخذلان وطغيان وعصيان.

فإذا فعل ذلك ربطت به روحانية كوكب، فلا يزال محبوسًا فيها محصورًا في أحكامها حتى يموت.

وعلى هذا تجري أحوال الملوك والسلاطين والمتغلبين في الدنيا؛ ولذلك صاروا محتاجين إلى المنجِّمين وأصحاب المعارف، حتى إن بعضهم إذا وصل إلى حكيم عالم من أهل هذه الصناعة وبلغه ما يريده، وعلم أنه عارف بما يبدو منه ويظهر عنه ومن عاقبة أمره قتله أو حبسه أو منعه من الكلام، والأحب إليه قتله.

فلذلك صارت العلماء لا يُظْهِرون علومهم للملوك بأسْرِهم ويكتمونها عنهم ولا يَرْغَبون فيما يُرَغِّبونهم فيه من أمور الدنيا وأحوالها.

واعلم يا أخي أن هذه الصناعة حق ويقين، والعارف بها على حقيقة المعرفة قد وقف على الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وإنما أُلْقِي إلى العالم من علمها كالنقطة من البحر أو كالقطرة من القَطْر؛ إذ كانت الدنيا بأسرها والأرض بما عليها وفيها ببطنها وظهرها تشبه حبة خردل في أرض فلاة، لم يدرك العقل سعة أقطارها بالقياس إلى فلك القمر الذي هو أصغر الأفلاك كلها.

وإذا كان ذلك كذلك فقد صحَّ أن خلافة الله تعالى هي أمر خارج عن تدبير السياسة البشرية أن يعرفوه وعلم خفي عنهم أن يعلموه.

واعلم يا أخي أن البيت الذي فيه سِرُّ الخلافة وعلم النبوة هو البيت الذي وَسَمُوا أهله بالسحر العظيم في الجاهلية والإسلام؛ لما يظهر منهم من الآيات ويعلمونه من المعجزات، فلم يجد أعداؤهم حالًا يضعون بها من منازلهم — لما عجزوا عن العمل بمثل ما يعملونه وجهلوا العلم الذي يعلمونه — إلا أن قالوا إنهم سحرة وإن لهم أعوانًا من الجن يمدُّونهم بذلك.

وهيهات، حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون! وإن هو إلا علمٌ إلهيٌّ وتأييدٌ ربانيٌّ، تنزَّل به ملائكة كرام كاتبون وحَفَظَة حاسبون، يُلْقونه بأمر الله عز اسمه، على مَن اصطفاه من خلقه وارتضاه بخلافته في أرضه.

واعلم يا أخي أن حجة الله تعالى في خلقه وأمينه في أرضه من عالم الحيوان هو صورة الإنسان، وخليفته في أرضه على النبات والحيوان، وكذلك في المعادن، كما قلنا في رسالة أفعال الروحانيين: إن الدائرة الواسعة تظهر أبدًا أفعالها وتبين أفعالها فيما تحتها.

واعلم أن في الدائرة المعدنية جواهر فاضلة شريفة، وكذلك في النبات والأشجار وما يبدو عنها أو يتكوَّن منها، وكذلك في الحيوان ملوكًا ورؤساء، كما ذكرنا في رسالتنا الجامعة.

واعلم أن في الحيوان ملوكًا ورؤساء، بعضهم جائر معتدٍ يأخذ أموره بالقهر والغصب والظلم، كأنواع السباع والوحش؛ فهي في غاية الذم وقلة الانتفاع في القرب منها، بل الأولى الهرب منها والبُعْد عنها، ومنها ملوك ورؤساء يأخذون أمورهم بحسن الخلق وطيب النفس، مثل الفرَس الكريم والبقر والغنم، وكذلك في الطير، وهذا موجود في الخليقة بأسرها والدائرة الأرضية بأجمعها.

وإذا كان كذلك في المعادن والحيوان والنبات فكيف لا يكون منه في عالم الإنسان الذي هذا كله له ومن أجله؟ وبهذا البرهان أن كل جبار وسلطان ظهر فيه الجهل ولم يوجد فيه العلم فهو مثل السباع والوحوش، يأخذ من زمانه ما قدر عليه ومن وقته ما وصل إليه، والمجاورون له في تعب ونَصَبٍ وخوف منه ومشقَّة مما يُحمِّلهم من مؤنته وفي مذلَّته من مملكته.

والذين هم الخلفاء بغير هذه الصفة مثل الأنبياء والأئمة والتابعين لهم بإحسان، رضي الله عنهم ورضوا عنه، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، هم خلفاء الله تعالى التابعون لأمره، وبهم صلاح العالم، وربما كانوا ظاهرين بالعيان، موجودين في المكان، في دور الكشف، وبالضد من ذلك في دور الستر، غير أنهم في دور الستر لا يكونون مفقودي الوجه جملة من أعدائهم.

فأما أولياؤهم فيعرفون مواضعهم، ومَنْ أراد منهم قصدهم تمكَّن منه، ولو كان غير ذلك كان منه خلو الزمان من الإمام الذي هو حجة الله على خلقه، وهو تعالى لا يرفع حجة ولا يقطع الحبل الممدود بينه وبين عباده؛ فهم أوتاد الأرض، وهم الخلفاء بالحقيقة في الدورين جميعًا؛ ففي دور الكشف يظهر ملكهم في الأجسام والأرواح، وفي دور الستر يجري أمرهم في الأنفس والعقول، وأصحاب المملكة الأرضية والخلافة الجسمانية.

وإنما تظهر في الأجسام أفعالهم دون الأنفُس لم يملكوا الملك الروحاني ولا أيَّدوا بالتأييد السماوي؛ ولذلك صاروا مشاغيل بمثل ما يشتغل به البهائم، ليس لهم همة إلا البطن والفرج، وكذلك ليس لهم همة إلا جمع ذخائر الدنيا وجواهرها واغتنام لذاتها والحرص على نيل شهواتها، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ إلى قوله جل جلاله: ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ وهؤلاء الناس هم المغرورون بالملك الأرضي، كما قال الله مخاطبًا للإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾.

واعلم يا أخي أن المغرور المفتون بالدنيا هو الذي يقول لنفسه إذا رأت العذاب: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ ويقول: يا ليت لي رجعة، يا ليت لي كرَّة. هيهات حُقَّ القول ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾. فقد بان لك يا أخي بهذا البرهان الفرق بين خليفة الله وخليفة الشيطان، والملك الأرضي والملك السماوي.

واعلم يا أخي أنه بهذه الصناعة يكون لك معرفة الملوك والرؤساء والسلاطين والمديرين وأتباعهم، وما يكون من أمورهم وأحوالهم، وحال مَنْ يعاديهم ويخرج عليهم في زمانهم ويضايقهم في مكانهم، وإذا عرفت ذلك واطَّلعت عليه طابت نفسك بذلك وسكنت إلى ما علمته، ومِلْتَ نحو الخليفة الذي عنده الحق واليقين، واستخلفته على نفسك الزكيَّة وروحك المضيئة، وإن قدرت عليه ووصلت إليه فقد نجوتَ ووُقفت على الطريق الواضحة والمحجَّة اللائحة، وإن عدمت ذلك فاجعل الخليفة على نفسك عقلك، واقبل منه أوامره ونواهيه، واجتنب الهوى فإنه خليفة إبليس فيك، وإياك أن يجتمع عليك الخليفة والمستخلَف أعني إبليس بالقوة وخليفته فيك بالفعل، وذلك إذا استولت نفسك الحيوانية وقوتك الشهوانية على النفس الناطقة والقوة العاقلة فتهلك.

(٣٩) فصل في أن أقوى ما يكون فعل إبليس في دور الستر

واعلم يا أخي أن أقوى ما يكون فعل إبليس في دور الستر؛ وذلك لأن حجة الله عز اسمه، في أرضه وخليفته في عباده يكون مختفيًا مستورًا، وإن كانت أنواره تضيء في نفوس العارفين به والراجعين إليه الذين لا يغرهم ما يرونه من قوة ملوك الدنيا وخلفاء الشياطين؛ فإنها أمور زائلة مضمحلَّة فانية لا بقاء لها ولا دوام، ولا ينظروا من أمامهم

إلى ملكه وسلطانه في دور ستره، ولا يشككهم فيه دور الخفاء والاستتار، بل يكون الإمام عندهم في حال ستره وخفائه؛ لأن جميع ما يُجوِّزونه على النبي المرسل فقد يجوِّزون مثله على الوصي وعلى الإمام؛ إذ كان النبي أشرفهم وأعلاهم رتبة، فهم يجوِّزون على النبي الموت والقتل والهرب من الأعداء إذا لم يجد أنصارًا، والأكل والشرب والنكاح والفرح والغم، وإن الأمور الفلكية تطرأ على أجسامهم كما تطرأ على أجسامنا، غير أن نفوسهم الروحانية الشريفة النورانية هي من خارج الأفلاك، فلا يحكم الفلك على أنفسهم بل على أجسادهم، وإنهم بالأجساد مثلنا، غير أن بالأنفس فرقًا بيننا وبينهم، مثل ما بين الحيوان الغير الناطق وبيننا.

وهذا ميدان يطول، إن أردنا شرحه خرجنا عن غرض هذه الرسالة، فنعود إلى ما كنا فيه فنقول: وإذ قد ذكرنا كيفية ابتداء المملكة وعقد التاج ونصْب سرير الملك، فلنذكر من علم هذه الصناعة والعمل بها كيفية نصب لواء العز والولاية، وعقد التاج وعلامة الحروب؛ فهو أحسن أعمال هذه الصناعة بعد ما ذكرناه.

(٤٠) فصل قال بطليموس: انظر إلى القمر في عقد الولاية ...

قال بطليموس: انظر إلى القمر في عقد الولاية عند ذلك العمل وما يلي الجبايات له فلا تسقطه من المشتري، واجعل زحل متصلًا به القمر في بيت زحل من التثليث أو التسديس في أول الشهر، واجعل القمر في بيت زحل والقمر في التثليث أو التسديس، كما وصفت لك في أول الشهر، واجعل السعود تنظر إلى القمر بعض النظر، فإذا كان ذلك كذلك فإن تلك الولاية وذلك العقد تدوم ويطول على قدر ما يرى من قوة المريخ سنين ثم أشهرًا ثم أيامًا، فإن كان المريخ في الموضع الذي وصفت والقمر والسعود معه في أول الشهر فإن ذلك الوالي يفسد عليه أهل عمله ويشنعون عليه، ويخاف عليه الجيش ونهب ملكه في عمله ذلك، ويكون آخر أمره إلى السلامة لمكان السعود والقمر، وإن كان المريخ في آخر الشهر فإنه موافق جيد، وإن كان المريخ وزحل جميعًا ينظران إلى وسط السماء نظر عداوة فإن ذلك اللواء يُخاف عليه الهلاك ويُقتل صاحبه أو يُحبس في حبس يموت فيه أو يؤتى من بعض أهل عمله، وإن كان زحل في آخر الشهر فإنه مذموم إن كانت له حصة قوته، إلا أن يكون ضعيفًا لا حصة له ويكون السعود عليه قويًّا، وإذا كان القمر في زحل والعقد في نظير الطالع كان صاحبه هيوبًا ويخاف الناس منه.

وانظر عند ذلك إلى القمر فإن كان مقبولًا فهو يدل على أن رعيته يحمدونه، وإن لم يكن مقبولًا كان مذمومًا عندهم إلى أن يخرج عنهم، وإن كان منحوسًا زاد شرًّا ولقوا منه شدة.

وعلى هذا القياس يكون العمل بما يتفرَّع لك من ذلك به.

(٤١) فصل في أن اللواء الذي يُعْقَد للنبي والإمام …

واعلم أيها الأخ، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن اللواء الذي يُعْقَد للنبي والإمام، صلوات الله عليهم، هو يكون بعلم هو أعلى من هذا وأوضح؛ وذلك أنه عُقد بقصد التأييد وموافقة التسديد، ولا يعقده النبي والإمام إلا لمن يكونون بالمنزلة التي يستحق بها ميراث ذلك العلم، مثل عقد رسول الله ﷺ الراية، قال لأصحابه: «لأعطينَّ الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرَّار غير فرَّار، لا يرجع حتى يكون الفتح على يديه.» وكان ذلك كذلك.

ومثل الوقت الذي أخرجه فيه إلى شيطان الأحزاب وما أتبعه به من الدعاء المستجاب في الوقت الذي ينبغي ذلك فيه، وبمثل هذا العلم يكون لك المعرفة بأفعال الأنبياء والأئمة وما يعلمون من أعمالهم لأصحابهم ومن يتبعهم؛ فإنهم يعطون لكل واحد منهم من ذلك ما يستحقه من منزلته، ويصدر عنه من فضيلته عندهم وكرامته لديهم، ويزيد ذلك وينقص بحسب ما يرون له من الصلاح في ذلك.

ولما ذكرنا أنَّا نورد من مستحسَن هذه الصناعة وغرائب عجائبها ولطائف أسحارها، ذاكرناك بهذا الفصل، وهو علم غريب وسحر عجيب، إذا أردت المضي أنت أو مَنْ يتفق له ذلك من إخوانك أو مَنْ سألك عن حال دعوة أو وليمة قد دُعِيَ إليها ويريد المضي إليها كيف يكون حاله، وصفة المجلس ومَنْ يحضر وما يحضر فيه من الطعام والشراب والنُّدماء؟ وكيف صاحب الدعوة؟ وما صفة جميع ما هم فيه؟ فابدأ بالقول عليه والحكم بما نُبيِّن لك في هذا الفصل.

(٤٢) فصل إذا أردت ذلك فانظر إلى الطالع

إذا أردت ذلك فانظر إلى الطالع؛ فإنه يدل على ما يؤكل في المنزل:

ومن البرج الثاني من الطالع يُعْرف ماهية ما يؤكل.

ومن البرج الثالث يُعْرَف صفة الجلساء ونعت النُّدماء.

ومن البرج الرابع يُعْرَف الموضع الذي يجلس فيه أهو غربي أم شرقي، قبلي أو شمالي، أجيِّد أم رديء؟

واعلم أن من البرج الخامس يُعْرف الشراب ما هو؟ ومن البرج السادس يُعْرَف خدمهم، ومن البرج السابع يُعْرَف الموضع الذي يذهب إليه بكرم فيه أم لا؟

ومن البرج الثامن يُعْرَف هذا الخبز والطبخ، ومن البرج التاسع يُعْرَف قرينك في الموضع الذي تجلس إلى جانبه.

ومن البرج العاشر تعرف صاحب البيت الذي دعاك، ومن الحادي عشر يُعْرَف حال المغنِّين، ومن الثاني عشر يُعْرَف نساء البيت ورجالهم.

فإن كان القمر في الطالع فطعامهم يكون الغالب عليه الرطوبة وقلة الطعم الطيب وكثرة المرقة والمائية عليه غالبة.

وإن كان القمر مع المريخ في الطالع فإنه يقع في الدعوة شيء كثير.

وإن كان القمر والمريخ في وسط السماء يكون في الدعوة سفك الدماء بجرح أو قتل.

وإن كان القمر مع عطارد فإنه يحدث في المجلس شراء أو بيع.

وإن كان القمر مع الزُّهَرة كان في الدعوة طرب ولهو.

وإن كان واحدًا مما سمَّيناه في الطالع فهو بمنزلة القمر في ذلك.

وإن كان القمر ينظر إلى زحل من التثليث والقمر في برج من بروج الماء، فإن الذي يؤكل في الدعوة سمك أو مما يكون في الماء من الحيوان.

وإن كان القمر في الميزان فالمأكول حبوب.

وإن كان القمر في الجوزاء والدلو فالمأكول في الدعوة لحم طير.

وإن كان القمر ينظر إلى زحل من تربيع أو مقابلة فالمأكول في الدعوة لحم بارد.

وإن كان القمر مع المريخ أو ينظر إليه فالمأكول لحم حار.

وإن كان زحل في الخامس من الطالع فإن شرابهم مر.

وإن كان المريخ في الخامس فشرابهم حامض.

وإن كان المشتري وعطارد في الخامس فشرابهم شديد الحلاوة.

وإن كانت الزُّهَرة في الخامس فشرابهم بين الحلاوة والمرارة: عطر الرائحة طيب الطعم مليح اللون.

وإن كان القمر في العقرب مع ذَنَبٍ فاحذر أن تُسْقى السم في مجلسك.

وإن كان القمر في الأسد فاحذر اللحم، وإن كان في القوس فاحذر أن تأكل لحم الصيد.

وإن كان القمر في الميزان فاحذر أن تأكل الفجل والحبوب، وإن أكلت ضرَّك، والله أعلم بالصواب.

فانظر يا أخي إلى هذا العلم العجيب والصناعة المتقَنة، الحاوية لجميع ما يجري في الموجودات ويحدث من الكائنات، ما أحسنه وأحسن العمل به والحكم عليه! وبهذا العلم يكون الإخبار لمن صح له العمل بما يكون قبل أن يكون، وهو ضرب من علم الغيب الأرضي، وكذلك ما يكون بالزجر والفأل.

(٤٣) فصل في مستحسنات هذه الصناعة وعجائب أسرارها

ومن مستحسنات هذه الصناعة وعجائب أسرارها معرفة حال مَنْ يريد زيادة قوم، والمبين عندهم، وما يكون من أمره في ذلك الموضع، وما ينتهي إليه حاله.

إذا أردت ذلك فانظر إلى الزُّهَرة؛ فإنها الدليل على حال النساء، وإن كانت في بيت المريخ أو زحل فإنه يأتي تلك الليلة امرأة غير امرأته، وإن كانت الزُّهَرة في بيت عطارد أو الدلو أو الجَدْي أو السرطان والقمر معها فإنه يبيت في بيت مضيء مشرق عند امرأة عزباء، وإن نظر الزُّهَرة والقمر جميعًا في بيت المريخ فإنه يأتي امرأة عاتقًا، وكذلك إن نظرت من السابع إلى بيت المريخ على أي حال كان ونظر إليه ربه كان مثال ذلك.

وإن كان المريخ في السابع ونظر إلى درجات الطالع فإنه يأتي الرجال والنساء في أدبارهنَّ، وإن نظر عطارد من السابع كان مثل ذلك، وإن نظر المشتري إلى الزُّهَرة فإنه يأتي امرأته.

وإذا كان الطالع برجًا ذا جسدين وتنظر الزُّهَرة من السابع فإنه يقضي حاجته ويبيت وحده، وإذا نظر القمر من السابع إلى برج ذي أربع قوائم وكان بين زحل أو درجاته فإنه يأتي الدواب، وإذا نظر زحل من بيته من السابع إلى الطالع فإنه يأتي نساء أصحاب حرث ويبيت من الأرض في موضع مظلم قذر.

وإذا كان المشتري كذلك فإنه يبيت مع امرأة جميلة حسناء، وإن كان المريخ والزُّهَرة جميعًا فإنه يأتي نساءً في هول وخوف وهو من ذلك على خطر.

وباقي هذا الباب مذكور في كتب أحكام النجوم، وإنما أوردنا من ذلك المقدمات، فإذا وقفت عليها صح لك ما قلنا، إن جميع ما يحدث في العالم البشري والخلق الأرضي بتدبير فلكي وأمر سماوي إذا كان العالم السفلي مربوطًا بالعالم العلوي في جميع أموره وأحواله، وإنما أردنا بما ذكرنا من هذا العلم ليعلم إخواننا، أيَّدهم الله، أن فضيلة العلم

هي الموجِبة للإنسان اسم الإنسانية، التي يتهيأ له بها الوصول إلى الصورة الملكية والرتبة السماوية، والعلم بالأمور الغائبة عن العيان والمتقدِّمة بالزمان والمستقبلة الكيان هي من أشرف العلوم وأجلِّها، ومعرفة ذلك تكون بعد الحذق بالصنائع كلها والتمهُّر فيها، وطيبة النفوس وسلامة القلب والتسليم لما يكون، وقلة الجزع والخوف مما لا بد منه ومن كونه، استدفاعًا بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى والخوف منه وحده لا شريك له.

ولعل كثيرًا ممن يقف على رسائلنا هذه يظن أن مرادنا في وضعها هو تعليم علم النجوم، وَلَعَمْرِي إن ذلك من أحد أغراضنا فيها؛ لأننا نحب لإخواننا، أيَّدهم الله، أن يقفوا على جميع العلوم ويتعلموها ولا يجهلوها؛ إذ كان مذهبهم هو النظر في جميع العلوم واستقراؤها كلها والإحاطة بمعرفة ظواهرها وبواطنها، وأكثر أغراضنا فيما وضعنا من رسائلنا كلها توحيد الله عز اسمه، وتنزيهه عما نسبه إليه الجاهلون عن معرفته، الحائدون عن محجَّته والمعرفة بما خلق من خليقته وأبدع من صنعته، فإن الأشياء كلها مربوطة بعضها ببعض محتاجة بعضها إلى بعض. وقد ظن كثير من الناس ممن سمع ذكر السحر والسحرة، وأن من السحرة قومًا يحيلون الصور عما هي عليه مصوَّرة إلى صورة أخرى؛ وذلك لما رأوا صور درجات الكواكب ونوبهراتها في البيوت القديمة الباقية من عهد الحكماء الأولين المتقدمين من القرون الخالية والأمم الماضية.

فلما رأوا ذلك ظنوا بفساد ظنونهم أن تلك الصور المصورة والخطوط المسطورة هي مما كانوا يعملون به من السحر، وأنهم كانوا يُنزلون به الطير من الهواء، ويستخرجون به السمك من قعر المياه بالكلام والرقي والعزائم، وأنهم كانوا يسحرون الإنسان حتى يصير حيوانًا، ولهم أوهام كثيرة في مثل ذلك فاسدة. وليس الأمر كما ظنوا ولا الحال كما توهَّموا، لكنها بالحيل التي عملوها والفخاخ التي نصبوها والصنائع التي أحكموها، وهي السحر الموجود في العالم، ما دام العالم موجودًا إنما هو موجود به، وقد ذكرنا في صدر هذه الرسالة ماهية السحر وأقسامه وما يختص بكل قوم من الناس وأصحاب كل صناعة، ولولا خوف الإطالة لأتينا بذكر ما أسرَّه أصحاب علم النجوم، والذي به قدروا على ما قدروا من الإخبار بما كان ويكون، وقد أتينا على شيء منه، ونريد أن نزيد في الاستدلال على ما يُعْلَم به حال المولود من وقت مسقط النطفة، ونذكر في هذا الموضع العلم الذي يُعْرَف به الجنين في بطن أمه أذكر أم أنثى؟ وهل الحمل واحد أو اثنان؟ وعن الحمل متى كان؟ وغير ذلك.

(٤٤) فصل إذا أردت أن تعرف هل الحمل واحد أو اثنان

إذا أردت أن تعرف هل الحمل واحد أو اثنان، فانظر إلى الطالع، فإن كان برجًا ذا جسدين وكان فيه كوكب، ووجدت في بيت الولد مثل ذلك، فإنها حامل بتوأم، وإن لم يكن الطالع ولا بيت الولد برجًا ذا جسدين ولا فيه من النحوس شيء مما ذكرت ولا النيران في بروج ذوات الأجساد فإنها حبلى بواحد، وإذا أردت أن تعرف الحمل أذكر أم أنثى؟ فانظر إلى رب الطالع ورب بيت الولد، فإن كان في بروج إناث فهو أنثى، وإن كان في بروج ذكران فهو ذكر، وإن اختلفتا فاستشهد بالقمر فأيهما يشهد فاقضِ عليه به.

وأيضًا إذا أردت ذلك فخُذ من بيت القمر وهو السرطان إلى القمر بدرج السواء، وزد عليه درجات الطالع ثم ألقِ من الطالع، فإن وقع في برج ذكر فهو ذكر، وإن وقع في برج أنثى فهو أنثى.

(٤٥) فصل في معرفة متى كان الحمْل

إذا أردت ذلك فخُذ من درجة صاحب السابع إلى درجة وتد السابع وألقِه ثلثين ثلثين، فكل ثلثين بلغ فهو شهر، فإن كان أكثر من تسعة أشهر فألقِ منه تسعة، وما بقي بعد ذلك فهو وقت الحمل، ووجه آخر: انظر ما طلع مع الطالع فهو نوبهره، وليكن لكل نوبهر شهر، ولكل درجة وسبع دقائق وثلثين ثانية، فبذلك يُعْرَف وقت الحمْل.

(٤٦) فصل وإذا أردت أن تعرف متى تلد الحامل

وإذا أردت أن تعرف متى تلد الحامل ليلًا أم نهارًا فانظر إلى الطالع وصاحبه، فإن كان في بروج النهار ولدت بالنهار، وإن كان في بروج الليل ولدت بالليل، فإن اختلفا فاعمل بأكثرهما شهادة.

(٤٧) فصل في اختيار وقت الحمل

اعلم أن خير ذلك أن يكون القمر من الطالع في برج ذكر في مثلثة الشمس، واحذر أن يكون في الطريقة المحترقة، وليكن سليمًا من النحوس والاحتراقات، وكذلك الزُّهَرة؛ لأنها إن فسدت الزُّهَرة فسدت الأرض، وإن فسد طريق القمر فسد البدن ولم يُنتفع به.

(٤٨) فصل في موت الجنين في بطن أمه

إذا مات الجنين في بطن أمه وخُشِيَ عليها في إخراجه الموت وأرادوا إخراجه، فليُخْرجوه والقمر ناقص في الضوء، هابط في الجنوب، وينظر المريخ والزُّهَرة من التربيع والتثليث إلى الطالع أو إلى القمر. وأفضل ذلك أنه إذا كان القمر في برج مؤنث، ويكون الطالع وصاحبه ينظر إلى الزُّهَرة والمشتري ناظرًا إليهما، وخير البروج التي يكون فيها القمر أو الطالع البروج الإناث المستوية الطلوع.

(٤٩) فصل في حال المولود في بطن أمه

إذا وقعت النطفة في الرحم دبَّرها زحل في الشهر الأول بالبرد، ودبَّرها المشتري في الشهر الثاني ببعض الاعتدال، ودبَّرها المريخ في الشهر الثالث فصيَّرها دمًا، وفي الشهر الرابع تنفخ الشمس فيها الحياة بإذن الله عز اسمه، وفي الشهر الخامس تركب فيه الزُّهَرة التذكير والتأنيث، وفي الشهر السادس عطارد يصير فيها اللسان والأسنان، وفي الشهر السابع القمر يتمُّ فيها الصورة، وإن وُلِدَ في تدبير القمر عاش، وإن تأخَّر رجع في الشهر الثامن إلى تدبير زحل، فإن وُلِدَ في الشهر الثامن — وهو لزحل — مات، وإن وُلِدَ في التاسع حين يعود التدبير إلى المشتري نجا بإذن الله، وكان منه ما قُدِّرَ له أن يكون في مدة حياته وبحسب ما تولَّى مولده.

والوقوف على هذه الأسرار والإخبار بها والحكم عليها هو السحر للعقول؛ لما يكون فيه من البيان الذي به يتميز الإنسان من الحيوان ويُسْتَخرج بالزجر والكهانة مثل ذلك.

(٥٠) فصل إذا أردت أن تعرف ما يكون من رسول يُرسَل في حاجة …

إذا أردت أن تعرف ما يكون من رسول يُرسَل في حاجة يأتي بها أم لا؟ فانظر إلى القمر وإلى صاحب بيت الخامس، فإن انصرف القمر أو صاحب بيت الخامس عن كوكب يشبه طبع الحاجة التي بُعِثَ بها، فانظر إن كان مثل ذلك ثم اتصل بدرجة الطالع دلَّ على أنه يأتي بقضاء الحاجة وإلا فلا.

(٥١) فصل في قدوم الرسول

إذا أردت أن تعلم هذا الرسول يُسرع الرجوع أم لا، وما يكون منه في غيبته؟ فانظر إلى الشمس ورب الطالع: فإن كان في بيت السابع وواحد منهما قد اتصل الرسول، وإن كانا في الرابع فهو مريض أو محبوس، وإن كانا في الثامن فهو ميت، وإن كانا في التاسع فقد فُصِل، وإن كانا في العاشر ونظر إليه المريخ فهو في يد السلطان الظالم، وإن كانا في الحادي عشر فهو عند صديق، وإن كان القمر في رأس الجوزاء وكان في موضع حسن السعود، فيبشر عن خبر الغائب بكل خير.

(٥٢) فصل في معرفة ما في الكتاب قبل أن تفضَّ ختامه

إذا أردت ذلك فأَقِم الطالع وانظر أين عطارد؟ فإن كان هو في الطالع فإن في الكتاب ما يُبين عن خبر صاحبه وحاله في أمره في نفسه، وإن كان في الثاني فالكتاب فيه ذكر المال وأشباه ذلك، وإن كان في الثالث فالكتاب عن الإخوة الأقرباء.

وإن كان في الرابع ففيه ذكر الأملاك والأرضين والعقارات، وإن كان في الخامس فالكتاب فيه ذكر الأولاد والملبوس والأفراح، وإن كان في السادس فالكتاب فيه ذكر المماليك والدواب والمريض، وإن كان في السابع ففيه ذكر النساء والتزويج وأشباه ذلك، وإن كان في الثامن فالكتاب فيه ذكر الممات والمواريث وإن كان في التاسع فالكتاب فيه ذكر الحج أو سفر في وجوه البِر والدين، وإن كان في العاشر فالكتاب فيه ذكر السلطان أو عن سلطان، وإن كان في الحادي عشر فالكتاب فيه ذكر الأصدقاء والإخوان، وإن كان في الثاني عشر فالكتاب فيه ذكر الأعداء.

(٥٣) فصل في ختم الكتاب

إذا أردت أن تعرف كتابًا هل خُتم أو عليه خاتمه أم لا؟ فانظر في ذلك إلى عطارد والقمر، فإن اتصل القمر بعطارد فاعلم أنه لم يُخْتَم بعدُ، وإن وجدت القمر منصرفًا عن عطارد بقدر حد الكوكب فاعلم أنه قد خَتَمَ الكتاب، واجعل الكتاب لعطارد والطين للقمر.

(٥٤) فصل في إنما أخبرناك بهذا لكي تستدل به على غيره

واعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا، أنَّا إنما أخبرناك بهذا لكي تستدل به على غيره، ولتعلم أن جميع الأمور في عالم الكون والفساد صغيرها وكبيرها ودقيقها وجليلها بتقدير فلكي وأمر سماوي، وكلها مسطور في كتاب مبين، فمَنْ أحسن قراءته أحاط بمعرفتها كلها، وتشوقت نفسه الصعود إلى عالم الأفلاك وسعة السموات ودار الحيوان وفسحة الرضوان وروضة الجنان دار الروح والريحان.

(٥٥) فصل في صدق الأخبار وكذبها

فإن أردت معرفة ذلك فانظر إلى الدليل وهو القمر، فإن اتصل بكوكب في وتد فالخبر حق، وإن اتصل بكوكب ساقط فهو باطل وبالضد من ذلك.

(٥٦) فصل في أنك وجميع إخواننا محتاجون إلى المعرفة بهذه الأمور

واعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أنك وجميع إخواننا محتاجون إلى المعرفة بهذه الأمور لتكونوا أغنياء بما في أنفسكم من المعارف والعلوم عن الحاجة إلى مَنْ لا يعرف قدركم، فيكون له الفضل عليكم إذ قد جهلتم ما قد علمه واحتجتم فيه إليه، وليس هذا صفة إخواننا الفضلاء؛ لأنهم لا يرضون لأنفسهم الجهل، ولم يستقروا أو يطمئنوا إلا بعد الاجتهاد والسعي في الإحاطة بكلية العلوم بحسب الطاقة.

فلما بلغوا إلى ما احتاجوا إليه وإلى معرفته منها، حازوا الفضيلة الإنسانية؛ ولذلك سمَّيناهم إخواننا الفضلاء، وأرجو أن تكون منهم لسعيك واجتهادك في المعارف.

(٥٧) فصل في أنَّا نحبُّ لإخواننا، أيَّدهم الله، ما يكون به صلاح شأنهم

اعلم يا أخي، أيَّدك الله تعالى، أنَّا نحبُّ لإخواننا، أيَّدهم الله، ما يكون به صلاح شأنهم واستقامة أمورهم في دينهم ودنياهم.

ولما كان ذلك أكثر أغراضنا منهم بسطنا لهم هذا الكتاب، وأوردنا فيه معرفة مبادئ الأعمال والصنائع العلمية والعملية بحسب ما قدرنا عليه بتوفيق الله تعالى، والذي حَمَلَنَا

على ذلك هو أننا لم نقتصر على علم واحد وصناعة واحدة؛ لأنَّا علمنا اختلاف طبائع الناس وجواهرهم وما يشتاق كل واحد منهم إليه، بما يوافق طبيعته ويناسب جوهره من الصنائع وما أوجبه مولده له.

وذلك مثل اختلاف شهواتهم ومآكلهم ومشاربهم وجميع أحوالهم، فجعلنا في رسائلنا هذه من مبادئ الصنائع والمعارف والعلوم ما يكون معينًا للمبتدئ ورياضة للمتعلم، ولم ندَّعِ فيما قلناه، ولا تعدَّينا فيما وضعناه؛ لأن الواجب علينا والعلماء أن نَمْحَضَ النصيحة لإخواننا في المقدار الذي وصل إلينا من العلوم واستنباطها، ولا أنَّا قد أحطنا بكليات العلوم والصنائع بأسرها، ولأن هذه المقدمات التي أوردناها والعلوم التي ذكرناها — نحن والمستخرجين لها من ذواتنا — إنما أخذناها من كتب الحكماء والمتقدمين، ما كان منهم من الصنائع العلمية وما كان من العلوم الحقيقية والأسرار الناموسية، فمن خلفاء الأنبياء، صلوات الله عليهم، وأصحابهم والتابعين لهم بإحسان. وكثير من الصنائع لم نذكرها، وكثير من العلوم لم ننبِّه إليها ولم نصل إليها، ولا خطر بأوهامنا معرفة كُنْهها، وأن فوق كل ذي علم عليم، لكنَّا أرشَدنا إليها وأمرنا لإخواننا بالاجتهاد في الطلب والسعي في الاكتساب، لما به يكون فيه الصلاح في معيشة الدنيا والآخرة.

واعلم أن المراد من جميع الصنائع العلمية والمعارف العلمية ينقسم قسمين لا ثالث لهما: أحدهما ما يكون به صلاح الجسم وقوامه على الحالة الصالحة، والآخر ما يكون به صلاح النفس بعد مفارقتها الجسم والموت، وكونها في معادها على الحالة الصالحة لها، وإذا كان ذلك كذلك فالواجب عليك، أيها الأخ، أن تحرص وتجتهد فيما تُكمل به السعادتين وتنال به المنزلتين، والسبب في اختلاف الصنائع وكثرة أنواعها هو لأجل عمارة الدنيا وما هي مبنية عليه من التضاد والاختلاف في الأفعال والأعمال، وبهذا الاختلاف والتضاد يصير أمرها إلى الهلاك والاضمحلال.

واعلم يا أخي أنه من وُفِّقَ له أن ينال ما به قوام نفسه وجسمه من علم واحد ومعرفة واحدة فقد نال السعادة الكاملة والنعمة الشاملة، وهو أن يكون منزَّهًا عن الأفعال الدنيَّة والصنائع المتعِبة والأعمال الشاقَّة، وتكون صناعته منطقية لا يحتاج إلى آلة صناعية، ولا يستعين عليها بشيء من أعضاء جسده إلا باللسان والقوة المحرِّكة لليد بالكتابة لما يحتاج أن يكتبه، واستعمال الفكر والرويَّة وجودة الخاطر وذكاء النفس وجودة الحس. فلما طلبنا هذه المعرفة الجامعة لما ذكرنا لم نجد إلا المعرفة بحوادث الفلك وأحكامه

بعد معرفة علم الحساب وعلم العدد الذي به يقدر على ذلك مَنْ أراد، وبحسب معرفته بالحساب وعلم العدد يكون علمه ومعرفته بأمر النجوم، وإن كان علم الحساب والعدد هو المدخل إلى جميع العلوم.

واعلم يا أخي أن الصنائع كلها ظواهرها موضوعة لصلاح الأجسام وبواطنها لصلاح الأرواح مما كان منها معمولًا به على ما وصفته الحكماء وأخبرت به الأنبياء.

فأما ما وقع فيه التبديل والتغيير فقد خرج عن هذه الصفة وصار فتنةً في الدين والدنيا، فنظرنا إلى الصنائع الحكمية فرأينا أقسامها معتدلة ونسبتها مستوية؛ لأنها متقنة ونتائجها حسنة، وظواهرها مطابقة لبواطنها لا تخالفها، وظواهرها دالَّة على إتقان صنع الصانع الحكيم سبحانه وإحداثه الأشياء، وبواطنها تدل على تنزيهه، وتدعو إلى عبادته، وتدل على طاعته.

واعلم يا أخي بأن صناعة الحساب ومعرفته، وعلم الفلك وحكمته، كالملك ووزيره في الصنائع والأعمال، وما بعد ذلك حتى تنتهي إلى صنائع العامة والرعاع وأصحاب المهن الخسيسة والصنائع القبيحة المسترذلة؛ فعلم الحساب هو كالملك إذا كان هو المحتوي على سائر العلوم والصنائع، وبه يعرف مقاديرها وكمياتها وبداياتها ونهاياتها، وبعلم الفلك — الذي هو كالوزير للملك — تعرف أبنياتها وكيفياتها، وما يدوم فيها وما لا يدوم، والمسعود فيها والمنحوس فيها، والأسباب في كونها والأحكام الجارية عليها والأمور الواصلة إليها.

وبالمثال الروحاني والنسبة النفسانية قالوا: إن علم العدد كالعقل الأول الحاوي لجميع صور الموجودات العاقل لها.

والعلم بحوادث الفلك كالنفس الحادثة عن العقل، ولأن النفس الكلية مربوطة بالفلك المحيط وهي المحرِّكة له، وإذا كان ذلك كذلك فليس في العالم صناعة كاملة مِعينة لصاحبها على بلوغ المنزلة والدرجة السامية في الدين والدنيا إلا المعرفة بعلم العدد وصناعة النجوم، والمعرفة بأحكام الفلك وحوادثه، وهذه طريقة الحكماء؛ لأنهم لم يبدءوا بعلم من العلوم ولا بصنعة من الصنائع حتى أحكموا المعرفة بهذين الأصلين، فلما عرفوهما أبدَوا ما أبدَوه من الصنائع والأعمال، وكذلك الأنبياء، صلوات الله عليهم، لما أُيِّدوا بمواد النفس والعقل دعوا إلى الله جلَّت عظمته، على بصيرة، وكان من استجاب إليهم موفَّقًا للنجاة في دينه ودنياه والله أعلم.

(٥٨) فصل كان لنا صديق من فضلاء الناس ...

كان لنا صديق من فضلاء الناس وخيارهم من إخواننا، وكان يستعين في معيشته بصناعة النجوم فحضرته يومًا وقد جاءه رجل فجلس عنده وقال له: قد جئتك لتخبرني عما في نفسي، فأخذ الطالع وقوَّمه وجوَّد الحساب وأحسنَ العمل وصدق العلم وأصاب الحكم، فقال له: تسأل عن شيء سُرِقَ؟ قال: نعم. ما هو؟ فأخبره عن جنسه، فقال كم هو؟ فأخبره عن كميته، قال: فمَن أخذَه؟ وهل الآخذ له ذكر أم أنثى؟ حرٌّ أم عبد؟ فذكره، فقال: كم سنُّه؟ فذكره، فقال أين ذهب؟ فأخبره، فقال: كيف هو؟ فأعلَمه، فمضى في طلبه ثم عاد وقد أصاب، فدفع إليه شيئًا صالحًا، فاستحسنت هذا منه، رأيته سحرًا مليحًا، ورأيت منفعة عاجلة، والظفر به مليحًا، والحكم به مستحسنًا، فسألته أن يفيدني بذلك ففعل، فكان بهذا محرِّضًا على طلب هذا العلم والحرص في بلوغ غايته والوصول إلى نهايته، فبلغت من ذلك بحسب التوفيق.

وأريد أن أذكر لك هذا الباب؛ فإنه لا غنى لك ولا لأحد من إخواننا، أيَّدهم الله، عنه، وهو مذكور في كتب أحكام النجوم وجميع ما ذكرناه آنفًا. وكل ذلك فمن الحكماء أخذناه وعنهم رويناه، وكلٌّ منهم كذلك حتى يكون الأصل فيه المريدون بالوحي السماوي والتنزيل الرباني والأمر العلوي.

(٥٩) فصل في الحكم على السرقة والسارق

ذكر أصحاب هذه الصناعة أن في ذلك أربعة أوجه: أولها معرفة الشيء، والثاني معرفة وجود السرقة، والثالث ألَّا يوجد، والرابع اللص وموضعه.

أما معرفة الشيء الذي سُرِقَ فمن الحد الذي فيه القمر، ومن جوهر ذلك البرج، وامتزاج بعضها ببعض، ثم اجعل الطالع وصاحبه والكوكب المنصرف عنه القمر للص، والثاني وصاحبه والكوكب المتصل به لما يلي السائل، والثامن وصاحبه لما يلي اللص، والعاشر وصاحبه للمتاع، فإن كان العاشر برجًا من بروج الحيوان فاعلم أنه حيوان، وإن كان على صورة إنسان فاعلم أنه إنسان، وإن كان من بروج العبيد فهو عبد، والله أعلم.

فصل في معرفة السارق

انظر إلى البرج السابع، فإن كان أنثى فهو أنثى، وإن كان ذكرًا فهو ذكر، وإن كان ذا جسدين فالسارق نفسان مشتركان، وإن كان سعدًا فهو حر، وإن كان نحسًا فهو عبد.

فصل في معرفة سن السارق

انظر إلى الدليل فهو على سنِّه، والكواكب الشرقية تدل على الحداثة والشاب، والغربية تدل على المشايخ والكهول، وإن كان في وسط السماء فهو شاب، وفي وتد الأرض فهو شيخ، وإن كان تحت الشعاع فكهل لا شيخ ولا شاب، وإن كان في الطالع نجم غريب فهو دليل السارق، وإن كان زحل فهو آدم أسود صغير العينين غليظ الأنف طويل الأسنان غليظ الأظفار طويلها عراض مشقوق الرِّجْلَين، وإن كان المشتري فهو أسمر تعلوه حمرة، سمين، سبط الشعر، حسن العقل، وإن كان المريخ فهو ذو جراءة وإقدام في سعيه، شاب أزرق أحمر اللون، خفيف الشعر، أشقر أشهب، رَبْع غليظ، وإن كان الشمس فهو أشهل، حسن الجسم، وإن كانت الزُّهَرة فهو أشم جعد أسود حسن الحال والشباب، كثير الجماع، قبيح الصوت، كثير الأهل والولد، في جسده حرق نار، وإن كان عطارد فهو حسن الجسم، نظيف، بطَّال، وإن كان القمر فكبيرٌ آدم، سخي الأصدقاء.

فإن قيل لك: أمعروف أم غير معروف؟ فانظر إلى الشمس والقمر، فإن نظرا إلى الطالع فإن اللص من أهل البيت، وإن كان أحدها فهو مختلط بهم في الدخول والخروج، وإن كان الشمس والقمر ساقطين عن الطالع كان اللص غريبًا، إلا أن يكون صاحب الطالع في الطالع، أو يكون معه صاحب بيت القمر والشمس تنظر إلى صاحبه.

واعلم أنه إذا كان صاحب السابع في الطالع مع صاحب الطالع كان السائل هو اللص، وكذلك إذا كان الأوتاد، فإن كان صاحب السابع عن صاحب الطالع ساقطًا كان اللص غريبًا.

فصل في إصابة ما سرق

اعلم يا أخي أن في ذلك وجوهًا ودلالات؛ أولها: أن يكون صاحب السابع يتصل بصاحب الطالع، فإن ذلك يدل على أن الذي سرق المسروق يرده سريعًا. والثاني: أن يكون صاحب السابع تحت شعاع الشمس ويتصل بصاحب الطالع؛ فإنه يدل على أن الذي سرق يُظفر به

من قِبَلِ السلطان. وقس على ذلك الثالث والرابع، والخامس أن ينظر ما يكون في السلطان الذي ظفر به معه، انظر إلى وسط السماء، فإن ذلك يدل على السلطان والسارق. والسادس والسابع والثامن وباقي الباب على هذا المثال. وكذلك يخرج الحادي عشر إذا اتصل القمر بصاحب الطالع، وإذا اتصل القمر بالشمس فإن ذلك يدل على أنه يظفر بما سرق.

فصل في معرفة اللص

فإذا علمتَ أن اللص من أهل البيت فانظر إلى ذلك الكوكب الذي دلَّ عليه، إن كان المريخ فهو أخوه، وإن كانت الشمس فهو أبوه، فإن كانت الزُّهَرة فهو امرأته، وإن كان القمر فهو أمه، وإن كان زُحَل فهو عبده، وإن كان المشتري فهو ولده، وكذلك جواهر الكواكب، وإن كان الثاني في الطالع كانت السرقة في البيت مع السائل.

فصل في معرفة هل السارق مقيم في البلد أم سافر؟

إذا كان صاحب الثاني متصلًا بصاحب الثالث أو التاسع دل على هرب السارق.

وإن اتصل بصاحب العاشر دلَّ أن المتاع عند السلطان.

وصاحب السابع إذا كان في التاسع أو متصلًا بكوكب في التاسع أو الثالث أو بأصحابهما دلَّ على أن السارق خرج وسافر.

وصاحب السابع إذا كان في التاسع من السابع دلَّ على أن السارق ليس من أهل البلد.

وصاحب السابع إذا كان في شُرَفه دل على أن اللص غريب شريف.

وإن كان المريخ في السابع أو صاحبه كان السارق أعجميًّا والسرقة عمله، وكذلك فقل في جواهر الكواكب السبعة.

وإن كان صاحب السابع في موضع جيد دلَّ على قوة السارق.

وإن كان صاحب السابع زحل كان اللص أخذ الشيء بحيلة.

فصل في معرفة الموضع الذي فيه السرقة

إذا أردت أن تعلم أين المتاع؟ فانظر إلى البرج الرابع، فإن كان ذا أربع قوائم فإنه بحيث يكون شيء من الحيوان.

وإن كان برجًا على صورة الناس وفيه المريخ كان في موضع فيه حديد أو يستعمل فيه حديد ومخلوط به.

وإن كان المريخ ينظر إليه فهو في آلة النار التي تشتعل فيها أو في مكانها.

وإن كان فيه عطارد كان عند إنسان صناعته الكتابة أو عند كتب موضوعة.

وإن كان فيه الزُّهَرة فهو عند امرأة أو شيء من آلة النساء.

وإن كان ذلك البرج مائيًّا كان عند ماء أو في ماء.

وإن كان فيه زحل كان في موضع قذر كالكنيف وما شاكله. ثم انظر إلى القمر في أي الأوتاد هو، شرقي أم غربي؟ قبلي أو شمالي؟ فهو يدلك أن الموضع في تلك الناحية، إن شاء الله. وانظر أيضًا فإن كان الطالع الحمل والأسد ففي الجبال.

وإن كان في آخر القوس أو الثور فإنه في موضع الدواب والبقر.

وإن كان في آخر الجوزاء فإنه في بستان أو كرم أو موضع شجرة.

وإن كان في السرطان أو العقرب أو الحوت ففي الماء أو قريب من الماء.

وإن كان في السنبلة والميزان والدلو ففي بيوت الناس.

وإن كان في الجَدْي ففي الأرض أو تحت حجر أو تحت حائط.

وإن كان الطالع الجوزاء والشمس في الطالع أو تنظر إليه، فإن السارق في بيوت الملك والسلاطين أو حكيم أو تاجر.

وإن كان القمر في الحوت فإن السرقة في نهر أو ساقية أو عين.

وإن كان المريخ في الطالع كان في مواضع السلاح ودكاكين الحدادين أو مواضع النيران.

واعلم أنه إذا اتصل القمر بنجم نحس من التثليث أو التسديس فإنه يدل على أنه يؤخذ سريعًا؛ أعني السارق.

وإن كان من التربيع كان فيه مشقة.

فصل في معرفة جنس المسروق

انظر إلى القمر فإن كان في الحمل ومثلثه فإنه جوهر ناري مما يخرج من المعادن والجبال.

وإن كان عند ذلك في حد المريخ فإنه ذهب أو فضة.

وإن كان القمر في الثور ومثلثه فهو من جواهر الأرض ونباتها.

وإن كان القمر في الجوزاء ومثلثاتها فهو جوهر حيواني، فإن نظر إليه صاحبها فهو حيوان.

وإن كان القمر في السرطان ومثلثاته فهو حيوان الماء، فانظر إلى صاحب بيت القمر، فإن كان في الحمل ومثلثاته فإنه نبات يريد الكسر في نباته.

وإن كان في الجوزاء ومثلثاتها فإنه حيوان الماء، وعلى هذا القياس يكون معرفة كيفيته وكميته.

واعلم يا أخي أنَّ هذا الحكم والعلم بما ذكرناه ووصفناه وبيَّنَّا شيئًا منه هو من الأبواب الغامضة من علم النجوم التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بجودة الحساب ودقة النظر واستخراجها، وقد يكل كثيرٌ من أهل زماننا ممن يتعاطى معرفة علم النجوم عن استخراج ذلك والعمل به والحكم عليه، والذي نريد لإخواننا، أيَّدهم الله، ألَّا يدَّعوا أنهم يعرفون شيئًا من العلوم إلا بعد الإحكام له والمعرفة به والتمهر فيه والتجربة له؛ لما نتخوَّف عليهم من الخطأ والكذب الذي هو مجانب لصفاتهم؛ لأن كثيرًا من الجهَّال يدَّعون ما ليس لهم أن يدَّعوه، فإذا وقع به الامتحان افتضحوا وتزيَّفوا ونُسبوا إلى الكذب وسقطوا في أعين الممتحنين لهم، حتى إنه ربما يكون معهم حق ولا يُقْبَل منهم ولا يؤخذ عنهم، ويكون ذلك كسرًا لهم وحسرةً في قلوبهم وقاطعًا لهم عن العلم والعمل، والذي وجب علينا من النصيحة لإخواننا ما فعلناه وأبلغنا لديهم النصيحة وأدَّينا إليهم الأمانة، وأردنا لهم ما أردنا لأنفسنا، وأردنا بذلك أن تكمل لنا درجة الإيمان كما قال النبي ﷺ: لا يكمُل[8] للمؤمن إيمانه حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه.

وقد وشَّحنا رسائلنا هذه بلُمَع من العلوم والمعارف وما يجري مجرى السحر للمعقول من الإخبار بما يكون وكان؛ لأنه من أشرف المعارف وأحكم العلوم التي يختص الإنسان بها، وأوائلها مأخوذة عن الملائكة بالوحي والإلهام.

واعلم يا أخي أنه لا سبيل لأحد من البشر إلى الإحاطة بها جميعها بأسرها، وإنما منَّ الله على خلقه بشيء منها على لسان أقربهم إليه وأحبهم لديه وأكرمهم عليه، بوساطة الملائكة بينهم وبينه، كما قال، عز اسمه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، ومما يجب لإخواننا، أيَّدهم الله، أن يعلموه ويقفوا عليه من هذا العلم، ما يكون من الحروب في المواضع وبين

[8] حديث مأخوذ بالمعنى لا باللفظ. ا.هـ.

الملوك وفي أي وقت تكون؛ ليحترزوا فيها ويبعدوا عن مواضعها؛ إذ ليسوا هم أصحاب الشرور والفتنة، وإنما هم أصحاب خير وسلامة وعبادة وزهادة وعلم وحكمة.

(٦٠) فصل في معرفة الحروب وأوقاتها

إذا أردت أن تعلم هل في السنة التي أنت فيها أو المستقبلة إن كنت في آخر الماضية حرب؟ فانظر إلى المريخ في تلك السنة، فإن كان في الأوتاد فإنه يكون، وإن كان ساقطًا فلا يكون.

فصل في معرفة متى الحرب تكون؟

إذا أردت ذلك فخُذ من درجة المريخ إلى درجة المشتري، ثم ألقِه من الطالع، فحيث نفد الحساب ففي ذلك الحد تكون الحرب، ووجه آخر إذا أردت أن تعلم هل يكون ذلك أم لا أو متى يكون؟ فانظر إلى الأوتاد الأربعة فإن كان بهرام في أحد الأوتاد فإنه لا بد أن يكون قتال.

فإن نظر رب البيت إلى بهرام في أحد الأوتاد فإنه يكون عاجلًا قريبًا من وقت نظرك.

وإن كان بهرام في الطالع فإنه يكون بناحية المشرق وبخراسان.

وإن كان في وسط السماء فإنه يكون بناحية اليمن ونحو القبلة.

وإن كان في الغارب فإنه يكون نحو المغرب.

وإن كان في وتد الأرض فإنه يكون بناحية الشمال.

وإن كان بهرام في الوتد فإنه يكون قتال.

وإن أردت أن تعلم متى يكون هذا القتال فانظر إلى بهرام كم من درجة في برجه؟ فإن كان في العشرة الأُوَل فإنه يكون في أول السنة.

وإن كان في وسط البرج فإنه يكون في وسط السنة.

وإن كان في آخر البرج فإنه يكون في آخر السنة، والله أعلم.

ومما يحتاج إليه إخواننا، أيَّدهم الله، إذا غاب بعضهم عن بعض وأراد أحدهم أن يعرف حال صاحبه إذا غاب عنه هل هو حي أم ميت؟ لأنهم قد يُبتلون بفرقة الأحباب، ومصائب الأيام ونكبات الزمان، واستتار الرؤساء وغيبة الفضلاء، في وقت من الأوقات التي يخافون فيها على نفوسهم من الأعداء المتغلِّبين والرؤساء والظالمين.

(٦١) فصل في معرفة حياة الغائب ومرضه وموته

إذا أردت أن تعرف ذلك فاجعل نفسك السائل، واجعل الطالع لك أو لمن سألك عنه والسابع للغائب، ثم استدل على موت الغائب إذا كان صاحب الطالع ساقطًا عن الأوتاد، أو محترقًا، أو متصلًا بصاحب الثامن من الطالع في موضع رديء، ويكون القمر مع المنحوس في الهبوط في وقت المسألة أو يكون في الثاني أو الثامن عشر أو السادس، فإن ذلك يدل على أن الغائب ميت.

فصل في معرفة حياة قوة رب الطالع

وسقوطه عن رب الثامن واتصاله بكوكب سعد من تثليث أو تسديس، وسلامة القمر في وقت المسألة فوق الأرض.

وكذلك رب الطالع، ويكون القمر سالمًا خارجًا من السادس والثاني عشر والثاني والثامن في السابع، فهو حي بسلامة في نفسه.

فصل في معرفة مرضه

فإذا أردت أن تعرف أمريض هو أم صحيح؟ فانظر إلى رب الطالع والقمر، فإن كانا مع صاحب السادس أو في بيته فهو مريض.

وكذلك إن كانا في هبوطهما أو محترقين فهو مريض، وإن لم يكن القمر ولا صاحب الطالع معهما فليس بمريض.

فصل في معرفة كيفية الموت

المشتري إذا كان في الطالع وهو متصل بكوكب في الطالع مات ميتة سوء.

وإن كان في العقرب مات غريقًا، وإن اتصل ببهرام قُتِلَ أو غرق.

وإن كانا مع ذلك في برج الأسد أكلته السباع أو نكبته نكبة من قِبَل السباع فيموت.

وإن كان زحل: يُسْقَى من السموم القاتلة التي لا يطَّلع عليها أحد.

(٦٢) فصل في معرفة إذا كان أحد من إخواننا في مدينة وحلَّ بها حصار ...

إذا كان أحد من إخواننا في مدينة وحلَّ بها حصار من عدوِّه، وأراد أن يعرف كيف فتحها؟ فلينظر حال الطالع والقمر وحال رئيس المدينة وبرجها وجواهرها معها، ويستعين بشهادات النجوم المِعينة لها فيقوِّمها بمواضعها ومزاجها وجواهرها.

وإن كانت النجوم فيها وهي في أوائلها فهي تُفْتَح من قبلها.

وإن كان في أحد الأوتاد المريخ فهي تُفْتَح بالسيف.

وإن كان زحل فهي تُفْتَح بالخديعة والمكر، ويُعْرَف الأوتاد الأربعة فإنها تدل على الحصون، فإن كانت فيها النحوس فُتِحَت.

وإن كانت فيها السعود والنحوس معًا لم تُفْتَح إلا على صلح.

وإن كانت تلك النحوس أربابها كان الفتح من أهلها عن صلح.

فصل

اعلم يا أخي، أيَّدك الله وإيانا بروح منه، أن العلوم كثيرة، لا يحيط بجميعها إحاطةً إلا مَنْ له الخلق والأمر؛ ولهذا قال بعض العلماء بصناعة أحكام الفلك: إني وجدت فيما يُسْتَدل به على هذه الأمور ستة وثلاثون بابًا على عدد وجوه البروج، وهي ستة وثلاثون وجهًا إذا وُضِعَت مع قوى الكواكب وذُكر فيها كواكبها يخرج عن حدِّ رسائلنا هذه، ولو قدرنا على وصف كل دقيقة والإحاطة بمواضعها لكنا مقصرين عن كثرة ما يوجد في هذا العلم من الصفات المتشابهة والدلالات المختلفة، فإذا كان التقصير والعجز يلزمنا فيما يحدث في هذا العالم الأرضي والمركز السفلي فكيف لا يلزمنا التقصير والعجز في معرفة ما يحدث في العالم السماوي والمكان العالي بل أضعاف ما يلزمنا فيما دونه؟

والبرهان على ذلك أنَّا لا نجد الاتفاق في أكثر الأشياء، بل الاختلاف والتضاد أكثر من الاتفاق في الفروع، فأما الأصول فمتفقة غير مختلفة، ولكن القوى التي تصدر عنها والأجناس التي تظهر فيها وما يتركَّب من الأجناس من الأنواع، وما يتفرَّع من الأنواع إلى الأشخاص، وما يختص بالأشخاص من الصفات المتباينة والألوان المختلفة والهيئات المتفاوتة في الصغير والكبير، والطويل والقصير، والكون والفساد وغير ذلك مما هو موجود في الأجساد والأجسام.

وإذ قد ذكرنا من السحر ما يعمل به بواسطة العقل، وهو البيان والكشف عن حقائق الأشياء، وهو ما نطقت به الأنبياء بعلمه، وأتت به الحكماء من الكتب المنزَّلة

والآيات المفصَّلة، وما يظهر من السحر بواسطة النفس، وهو الاطلاع على ما كان وعلى ما يكون في ابتداء الأعمال، والمعرفة بما يحدث في العالم من الأحوال والأفعال والقول بها والحكم عليها وبما يكون فيها، ويختص بهذا العلم أصحاب الحكمة الفلكية والعلوم النجومية.

وقد ذكرنا في ذلك نُبَذًا ولمعًا؛ لتكون تنبيهًا للغافلين وموقظًا للساهين عن النظر في آيات الآفاق والأنفس؛ لأن أكثر أغراضنا في جميع ما ذكرناه وكل ما وصفناه: الحض على تعليم العلوم، والاطلاع على ما خفي من أسرار الخليقة؛ ليكون ذلك قائدًا لإخواننا، أيَّدهم الله، إلى أجلِّ السعادات وأرفع الدرجات، ويصير لهم بذلك رتبة في محلِّ السموات وفضاء الأفلاك الواسعات؛ لأنه لا يتهيأ له الصعود إلى هناك إلا أن يكون من العلماء العارفين والموقنين المستبصرين، ومحل الجنان ودار الحيوان أَولى بالأرواح الزكية والنفوس المضيئة من محل الهوان، ودار الأحزان والمصائب والأسقام أولى بالأرواح النجسة والنفوس الرجسة.

(٦٣) فصل في أن كل علم صدَر وكل فعل ظهَر …

اعلم يا أخي، أيَّدك الله تعالى، أن كل علم صدَر وكل فعل ظهَر عن الأنبياء والمرسلين ومَنْ خلفهم من بعدهم، ومن خلفائهم الراشدين وأهل بيوتهم الطاهرين ومن صحبهم من المؤمنين فهو سحر عقلي وأمر إلهي، يسحرون به عقول المؤمنين الذين صبوا لهم وسلَّموا لأمرهم فيما أتوا به، وتحققوا صدقهم، واثقين به مطمئنين لحقِّهم؛ فهو السحر الحلال المبين، والقول الصادق اليقين، وهي القوة الناموسية المؤيَّدة بقوى النفس الكلية، بما أُوحي إليها من القوة العقلية بالمشيئة الإلهية والعناية الربانية، وكلُّ ما ظهر من الحكماء أو الفلاسفة والعلماء، من الأعمال والصنائع والحرف والمهن، والعلوم الرياضية، والإخبار بأمر النجوم والحكم بها على ما كان ويكون؛ فهو سحر نفساني بواسطة الطبيعة؛ لأن ما يظهر من فعل النفس العقلية بواسطة الطبيعة، يكون لتركيبه في الهيولى بما يظهر للنظر، ويُدرَك بحاسة البصر، من الأصباغ والألوان والمقادير والأبعاد والأجناس والأنواع والأشخاص؛ لأن الباري، سبحانه، جعل العقل سابقًا والنفس لاحقة، والطبيعة سائقة والهيولى لاحقة.

فالعقل هو الخلق الأول والنور الأطول الذي قصَرت الأنوار كلها عن أن تطاوله؛ إذ هو مستمِد لأنواره الفاضلة وخيراته الكاملة من باريه، جلَّ جلاله وتقدست أسماؤه؛ فهو

يستكمل الفضائل والخيرات مبرَّءًا من الشوائب والتغييرات، من جهات النقص الواقع بمَنْ دونه من المخلوقات الروحانيات والجسمانيات؛ إذ كان هو التام المعطي لمن دونه صورة التمام، وهو المرتِّب لكل موجود منه وصادر عنه مرتبة الدوام وموفِّيه حظَّه اللائق به في لزوم النظام واعتدال الأقسام.

وكذلك جُعلت له القوة الحافظة على جميع الموجودات ذواتها، والقوة بموجود ذاتها، وبخاصته المختص بها، يعطي الموجودات خواصها الخاصة بواحد واحد منها، بحسب ما يستحقها ويليق بها، وهو الساحر الأعظم الذي سحر الأشياء كلها؛ إذ كان هو المبيِّن لها، وبه تكون المعرفة بها والاطلاع عليها، وبه انسحرت النفس الكلية؛ إذ هو المُظْهِر لها والمبيِّن لها وما يخفى عليها، والجاعل فيها ما ظهر منها وصدر عنها.

فلذلك صار العقل الخاص به يظهر بوساطتها، وبه يكون سكونها ووصولها إلى حد طمأنينتها التي بلغت إلى خيراته الدائمة، ووصلت إلى فيوضاته الشريفة وأنواره اللطيفة وأفعاله المختصة به، التي إذا ظهرت بوساطة النفس الكلية للنفوس الجزوية وانطبعت فيها أوصلتها إليه وقدِمت بها عليه، فبه يكون خلاصها ونجاتها من أَسْرِ الطبيعة وموت الخطية، وفساد الهيولى وذل العبودية.

وأما أفعال النفس الظاهرة بوساطة الطبيعة فهو ما يظهر من أفعال البشر من الصنائع والمهن، ونريد أن نذكر طرفًا منها إذا كان ما يُعْمَل منها هو السحر الطبيعي، وبه يكون التلوُّن والتشكُّل والصبغ والتصور، وقلب الأعيان وتتميم الكيان الطبيعي والامتزاج المعدني، وبه سحر العالم الناطق بعضه بعضًا، كلٌّ بحسب ما قدر عليه، ووصل بقوته المجعولة فيه إليه.

واعلم يا أخي، أيَّدك الله تعالى، أنه لما كان أعلى الصنائع العلمية، وما يعمل بالقوة العقلية والفكرة النفسانية خالصة، لا تشركه القوى الطبيعية، ولا تحتاج فيه إلى مثل ما تحتاج لغيره من الموضوعات الهيولانية، وهو علم صناعة العدد؛ لأنه صورة عقلية تنزل في قوة نفسانية؛ وعلم صناعة النجوم إنما هو مدرَك بقوة فكرية، موجودة بمادة نفسانية، موجودة من حركة دورية؛ وبقوة النفس يعلم ما يكون منها ويصدر عنها حتى تكون موجودة بالحس، والأصل في ذلك هو معرفة الزمان الذي هو عدد حركات الفلك المحيط، المحرِّك لما دونه، المرتب في أفق النفس الكلية.

وقد قلنا فيما تقدَّم أن علم العدد كالملك لسائر العلوم، وعلم صناعة النجوم كالوزير التابع لذلك، وكالعقل الذي هو سابق الموجودات بالبداية والموجود بعدها في النهاية، والنفس تالية له ومقبلة عليه وراجعة إليه.

وكذلك علم العدد هو السابق لجميع العلوم، وهو الموجود إذا عُدمت، ولا ترتفع بارتفاعها إذا ارتفعت ذاته ومراتبه في نظامها، موافقة له في تمثيلاته، ويتبعه علم النجوم وما يُعْرَف بموجبات دلالاته وخفاء إشاراته وما ينحطُّ إلى العالم السفلي والمركز الأرضي من قوى روحانياته وهي الملائكة الموكَّلة بحفظ البرية والقسمة فيهم بالسوية في الأصول الأولية، بالنشوء في البداية والفساد عند النهاية.

واعلم يا أخي، أيَّدك الله، أن القسمة جارية في جميع الموجودات، مستوية لا تفاوت فيها؛ ذلك أن وجودها كلها بالنشوء والنماء، وإنهاؤها بالفساد والفناء. فسبحان خالق الوجود والبقاء، وجاعل الظُّلْمة والضياء، على كل شيء كان بالنشوء في الابتداء، وكل فاسد فبالعدم عند الانتهاء. سبحان مَنْ لا بداية له بنشوء يُعْرَف ولا نهاية له بفناء يوصف، جلَّ عن الإشارة إليه بشيء جلالًا يفوت وصف الواصفين، من الروحانيين ومن الجسمانيين، إلا بما وصف به نفسه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. ولما كان هذان العِلمان هما الأصل للعلوم اللطيفة والمعارف الشريفة، وهي أجلُّ العلوم قدرًا وأكثرها فخرًا، وقد أشرنا إليها ونبَّهنا عليها إذ كانت هي القائدة إلى العلوم الإلهية، فنريد أن نذكر أشرف الصنائع الطبيعية والتركيبات الجسمانية، وأجلَّ ما ينتهي إليه من ذلك الإنسان، وبه يفضل على مَنْ دونه من جنسه ويصير إليه — مثل الحيوان — بالحاجة إليه والخضوع بين يديه؛ وهذا القسم أيضًا ضرب من السحر إذ كان العالم بأَسْره مربوطًا بمحبته وحريصًا على طاعته، وهو معرفة قلب الأعيان من كيان إلى كيان، وتحويل خاصة الشيء من مكان إلى مكان في الأوقات التي تنبغي له من الزمان، ثم ما دون ذلك من الصنائع فعليه نُصبت ومن أجله عُملت؛ لينال منه كلٌّ بحسب القدرة والاستطاعة.

وإنما سمَّينا رسالتنا هذه: «رسالة السحر والعزائم» وبيَّنَّا القول فيها: ماهيته وكمية أقسامه وكيفية أفعاله؛ ليستدل إخواننا الأبرار على الأسرار الخفية، إذا نظروا فيها بالنفس المضيئة والقرائح الزكية، وأدمنوا النظر في استقرائها بالفكر والرويَّة، وليكونوا إذا بلغوا إلى معالي العلوم وشرائف الصنائع ذوي غِنًى عن الحاجة إلى مَنْ سواهم في جميع ما يحتاجون إليه من أمر معيشة الدنيا، فإذا وصلوا إلى هذه المرتبة وحصَّلوا هذه المنزلة صحَّ لنا أن نسميهم بإخوان الصفاء.

واعلم يا أخي أن حقيقة هذا الاسم هي الخاصة الموجودة في المستحقين له بالحقيقة لأعلى طريق المجاز.

واعلم يا أخي، أيَّدك الله تعالى، أنه لا سبيل إلى صفاء النفس إلا بعد بلوغها إلى حد الطمأنينة في الدين والدنيا جميعًا، وهي أن يعرف الإنسان — بحسب قدرته وبلوغ استطاعته — توحيد الله جل جلاله، والمعرفة بحقائق الموجودات وغرائب المكونات بإذن الله تعالى باريه، الذي خلقه وأبدعه وَبَرَأَه، وعبادته وتنزيهه وتمجيده عما يجده في مخلوقاته ويشاهده في مصنوعاته، وبعد ذلك ما يكون به صلاح معيشة الدنيا والغناء عن الحاجة فيها إلى من عدم هذه الصناعة، ومَنْ لا يكون كذلك فليس هو من أهل الصفاء؛ لأنه لو كان من أهل الصفاء لكان له بصفاته عمن دونه الغني.

واعلم يا أخي أن حقيقة الصفاء أيضًا هو ألَّا يغيب عن النفس الصافية الزكية شيء من الأشياء التي بها الحاجة إليها؛ لما قد بُليت به من مداواة هذا الجسم من مُقاساته، وبالصفاء تتهيأ لها الراحة منه والبُعْد عنه، بحيث لا تكون نازلة عليه ولا مشتاقة إليه.

وقد ذكرنا أن بمعرفة العلوم اللطيفة والمعارف الشريفة يتهيَّأ للإنسان ما يكون به صلاح أمر جسمه في دنياه وصلاح أمر نفسه في عُقباه في دار الآخرة، ولكن ليس كل واحد يتهيَّأ له ذلك في أمر جسمه؛ إذ كانت الأجسام مربوطة بالأمور الفلكية؛ وذلك أن كثيرًا من الناس ينالون من معرفة علم الحساب والعمل به ما لا يقدر عليه غيرهم، فلا ينالون ما يكون به صلاح أجسامهم في أمور دنياهم ولا صلاح أنفسهم في أمر أديانهم، ولا يُحتاج إليهم فيه، فينال مَنْ هو دونهم في المعرفة بذلك الحظ في الدنيا، ويغيب عنه ما يكون به صلاح نفسه. وآخرون نالوا به السعادة في أديانهم، وكان مؤدِّيًا بهم إلى النجاة، ولم ينالوا به الحظ في الدنيا، وآخرون رُزِقُوا به النجاة في الدارين والحظ في المنزلتين، وآخرون رُزِقُوا الحظ في الدنيا بغير ذلك من العلوم الأدبية والمعارف الطبية، بصرفهم قواهم المختصة بهم من ذلك إلى النظر في الأفعال الطبيعية والصنائع التركيبية، ثم استدلوا بما قدروا عليه ووصلوا إليه، ومنهم من استعان به على ما يعود بصلاح جسمه بحسب الحاجة، وصرف باقي ذلك فيما يكون به نجاة نفسه في الآخرة، وآخرون حُرِموا ذلك ولم يوفَّقوا له.

واعلم يا أخي أن الناس في العلوم العقلية والمعارف الربانية والحِكَم النفسانية أعلاهم طبقة هم الأنبياء عليهم السلام، وأعلى الناس في الصنائع والمعارف الجسمية هم الحكماء، وغاية ما نال العالم بعلوم الأنبياء صلاح النفس في دار المعاد، وغاية ما نال العالم بعلوم الحكمة صلاح الأجسام في دار الأجساد وعالم الكون والفساد. ونريد أن نُبيِّن في هذه الرسالة من قسم الصنائع الطبيعية ما إن وصلت إليه وقدرت عليه نِلْتَ أعلى الحظوظ منها ورقيت أعلى درجاتها وأجلَّ طبقاتها. وقد أكثرت الحكماء من القول فيه والإشارة إليه والدلالة عليه في جميع اللغات، والناس جميعهم طالبون له وفيه راغبون، وليس بأحد

من العالم غِنًى عنه ولا إياس منه، وهو الطلسم المنصوب لعمارة الدنيا والجوهر المحبوب والمعدن المطلوب، وهو المغناطيس الأكبر والكبريت الأحمر، وبه يتفاخر أهل الدنيا وعليه يتحاربون، وعلى جمعه وادخاره يتكالبون، وعلمه مما دونه من المعادن يستخرجون، ويطلبون الوقوف على كيفية استخراجه من الأجسام المنطرقة وانفصام عنها وتخليصه منها، وتحويل كيانه إلى كيان غيره، وانتزاع لونه من لونه وإقلاب الأعيان في كونه، حتى يكون ما هو دونه في منزلته ولاحقًا بالتدبير الواقع به إلى درجته وواصلًا إلى مرتبته ومشاركًا له في فضيلته، إذا حصلت له صورته المضيئة ورؤيته البهية، إذا نقيَ وصفَا صفَا من شوائب التغيير بما ينبغي له من التدبير.

ونريد أن نأتي بفصل نذكر فيه شيئًا من ذلك مما رمزت به الحكماء وأشارت إليه العلماء، تتدبَّره بنفسك الطاهرة وأنوارك الظاهرة، وروحك المضيئة الصافية من نجاسة المعصية، لعلك تفوز بمعرفة سر الطبيعة فتزهد فيها بعد القدرة عليها والوصول إليها، فإن الزهادة فيها عند القدرة والاستطاعة والتمكُّن منها، هو أحسن وأزين من الزهادة فيها، والمرء مُحال بينه وبينها. وعند ذلك تكمل تلك الصورة الصافية فتصير كالمرآة الصقيلة التي تتراءى في جوهرها الصور المسامتة لها بما هي به، لا مضادة ولا متباينة ولا مختلفة، فيتحير الناظر فيها بما يراها منها غير شاكٍّ في صدقه ولا مرتاب بحقه. بلَّغك الله تعالى وإيانا إلى غاية الصفاء، وأنار نفوسنا بوضوح الهدى، وجعلنا وإياك من أهل الوفاء في الدين والدنيا بمَنِّه وكرمه، وهو الفاعل لما يشاء.

(٦٤) فصل قال فاردموس الحكيم: إن السماء مدورة …

قال فاردموس الحكيم: إن السماء مدورة، ذات أرجاء متفرقة، وإن الأرض مثل حبة خردل في وسطها، وعلى كل ناحية منها قوم يعيشون من رزق الله عز اسمه، وإن الشمس تعطي العالم حركة الحياة، وفوق الأرض تصعد وتحتها تنزل، وإن السماء تربِّي ما في وسطها، وإن الأرض كالجنين في بطن أمه، وإنها تربو فيها كما يربو الولد في الرحم ويعيش في البطن، وإن زحل والمريخ والمشتري والزُّهَرة وعطارد والقمر فاعلة ومدبرة، ذات قوًى وطبائع ومزاج، وإنها تنحط في الأرض وتظهر بقواها المنبثة منها، الصادرة عنها بامتزاجها وأخلاطها ما يبدو من هذه الأجساد، ويتكون في عالم الكون والفساد، بما ينزل من المطر، وما يتكون به من النبت والشجر، وما يستقر في معدته ويتكوَّن في مسكنه.

وقال جالينوس: كل شيء في الدنيا يتحرك في تدويره بالزيادة والنقصان كالحر والبرد، والصيف والشتاء بحوادث الجو، وكالمد والجزر، وبنقصان القمر ينقص وبزيادته يزيد،

والكواكب السبعة بها تدور المواليد، وفي العالم الصغير المرتان[٩] والبلغم والدم يزيد وينقص في تدبير الطبائع والقوى السبعة، وكل شيء تطلع عليه الشمس فهو يدور بدورانها، وكل ما في العالم فينشأ بتدبير السبعة والاثني عشر، وهي الأصل في جمع ذلك وتفريقه.

قال فيثاغورس: إن السبعة في الاثني عشر عملها، كذلك القوى في الجسد، والشمس هي النفس، والقمر هو الروح.

فالنفس حارة يابسة، والروح باردة رطبة، فامتزجت اليبوسة بالرطوبة، واعتدلت الحرارة بالبرودة، وقوة العقل في المخ المجعول في الدماغ مثل الملك في رأس العلية.

وقال جالينوس: إن الشمس لها أربعة أنصاب في الجسد لمواضعها ومجاريها فيه، تجري وتقوم وتدور، وهي الحافظة للجسد بأمر الله، فإن أصاب هذه الأنصاب شيء يؤذيها ويوجعها وخلص ذلك الوجع إلى شيء منهنَّ؛ فسد بعض أبوابها، وعطل مجاريها، وفسد الجسد، وكان به تعجيل الموت.

وأما الأولى فمكانها الذي في الوجه فينفتح عن خمسة أبواب تجري فيها قواها، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ومن هذه الأبواب يتصل بالنفس علم ما غاب عنها وبَعُدَ منها، والقوى فيها داخلة وخارجة، وصاعدة ونازلة، وعلى كل باب قوة موكَّلة تفتحه وتغلقه بأمر النفس، والثانية مكانها في الفؤاد، وينفتح منها خمسة أبواب يخرج منها خمسة رسل؛ وهي: التمييز والنطق والتوسُّم في السر والتوهُّم والتفكر، والثالثة موضعها الكبد، وينفتح فيها خمسة أبواب يخرج منها الدم إلى سائر أطراف الجسد فيسقيه ويُربيه، وبه تكون له القوة والجَلَد والنشاط، والرابعة مكانها الكليتان، ومنها ينفتح الباب الذي تكون منه النطفة جارية وخارجة، وبها يكون نبات السن، فهذه أمكنة الشمس في الجسد.

وأما القمر في الجسد فله فيه مكانان؛ وهما: الجلد والرأس، وللمشتري العظم الذي في الفقار، ولعطارد العروق والعصب، وللمريخ الدم والصفراء، ولزحل الشعر والظفر والسوداء، وللمشتري اعتدال المزاج وسلامة الحسد، وللزُّهَرَة النقش والصورة.

والبروج الاثنا عشر أيضًا فيها مواضع وطبائع، فللحَمَل شعر الرأس، وللثور الجبهة، وللجوزاء العينان، وللسرطان المنخران، وللأسد الفم واللسان، وللسنبلة اللحية، وللميزان

[٩] المرت: خلوُّ مجرى الطعام والشراب من المرض، والمرتان الخالي من المرض، والمرت أيضًا رأس المعدة، ولعله المراد هنا كما يقتضي السياق.

المَنْكِبان واليدان والذراعان، وللعقرب الصدر، وللقوس فقار الظهر كله، وللجَدْي البطن، وللدلو الخصيتان والذكر والكليتان، وللحوت الساقان والرِّجلان، وبهذه القسمة قيام الجسد وعليها بُنِيَ.

فإذا عرفت هذه الأصول عرفت ما يتفرَّع منها، فعند ذلك تعرف صناعة طب الأجسام الحيوانية وبها تكون لك المعرفة بطبائع الأجساد المعدنية.

فإن كنت جاهلًا بمعرفة الطبائع الحية الناطقة فأنت بمعرفة الطبائع المائية الصافية أجهل ومن تدبيرها أبعد؛ لأن منها ما ينبغي أن يفرق حتى يزول عن عينه الأولى ويخرج عن الطبيعة غير المعتدلة وينشأ نشوءًا آخر ويحيا بحياة أخرى.

ومنها ما يحوِّل طبيعته من الملوحة إلى الحلاوة، ومن الصلابة إلى الرخاوة.

ومنها ما يعمل به ضد ذلك، وينزل فيه عن الرطوبة إلى اليبوسة، ومن الحموضة والعفوصة[١٠] إلى الاعتدال.

ومنها ما لا يمازج بعضه بعضًا إلا بعد المصالحة بينهما وذهاب ما يُفسد حالهما، فإن فُصل أحدهما عن صاحبه أفسده وعن حدِّ الاعتدال أخرجه.

فإذا عرفت مداواة السوداء التي طبيعتها البرد واليُبْس حتى تردَّها إلى طبيعة البلغم وهي البرودة والرطوبة، فقد أصبت بعض ما يُحتاج إليه.

وإذا عرفت أن تحيل طبيعة الصفراء — التي هي الحرارة واليبس — إلى طبيعة الدم — وهي الحرارة والاعتدال — فقد أصبت أجلَّ منازل طب الأجساد.

وهاتان المنزلتان في التدبير المعدني أجلُّ منازل الواصلين إليها، وهما الأصلان الأولان والفرعان التابعان؛ أعني الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة.

(٦٥) فصل قال أرسطاطاليس: إن الدائرة الأولى …

قال أرسطاطاليس: إن الدائرة الأولى التي دون السماء دائرة النار، والثانية دائرة الهواء، والثالثة دائرة الماء، والرابعة دائرة الأرض.

ويخرج من دائرة الأرض لونان من الدخان: أحدهما لطيف خفيف يتصاعد إلى العلو، وإذا قرب من دائرة الهواء غلُظ وارتفع فيها، إلى أن يقرب من دائرة النار فيحمى،

---

[١٠] العفوصة: المرارة والقبض.

ولا يجد السبيل إلى النفوذ فينحطُّ راجعًا إلى معدنه فيكون منه المطر، واللون الآخر من الدخان يثور من قرارها ويدور إلى سطحها، وهو كثيف ثقيل فتكون منه الجبال، فإذا رجع الدخان الصاعد إلى البخار الثابت شربته الجبال، فصار فيها كالروح منه في الماء، فإذا نضب الماء ظهرت الجبال ورجع الدخان وانعقد منه في باطنها وخللها، ومنافذها أجناس المعادن، فإذا كملت له القوة واجتمعت طبائعه وقوى جسده وما حلَّت فيها ظهر منها بحسب بُعْدِها من الاعتدال فيه، والأربعة تدور إلى الاثني عشر؛ لأن الأربع الدوائر بإزاء ما في الأرض من الجزائر، فتكون أفعالها فيها موجودة كوجود أفعال الكواكب السبعة في الاثني عشر برجًا كدوران الشمس فيها.

وللحكماء في هذا القول إشارات خفيَّة وأسرار دقيقة لا يطَّلع عليها ولا يعرف العمل بها إلا إخوان الصفاء الذين صَفَتْ أذهانهم حتى بلغوا إلى تصفية ما احتاجوا إليه من هذه الطبائع، ومزجوا بعضها ببعض، فحصل التشبه بالإله، بحسب الطاقة الإنسانية؛ فنالوا سعادة البقاء في الدنيا بالطمأنينة، وجُعلت لهم في الآخرة خيرات الدار الحيوانية التي هي الحياة الحقيقية.

واعلم يا أخي أنه بمعرفة البخارين الخارجين من التراب: أحدهما لطيف والآخر كثيف، وثبات السفلي ورجوع العلوي إليه وقراراه فيه وثباته معه، يكون تمام العمل وإحكامه.

وقال الحكيم: جسد الشمس رأس كل جسد، وسُمِّي رأسًا لأنه رئيس الأجساد، ولا تستطيع الكواكب التي تحته أن تدنو منه ولا تبعد عنه، وهو يضيء بنوره الكواكب إذا نزل فيها وقرب منها، فمنه نبات ومنه جوهر، ومنه سهل ومنه جبل، ومنه ما يخرج من خلطين: أحمر وأصفر، وأرضه تبرق، وإن حفرت الأرض التي يكون فيها الذهب حتى تبالغ في حفرها رأيت أرضها مذهبة كأنها تشبه الزرنيخ الأصفر والكبريت الأحمر، وتكون ريح سخنة، وهي أرض واسعة، وطبيعتها حارَّة رطبة، والمياه التي تجري فيها حلوة، فهذه طبيعة أرض الذهب وقوته، وكونه في معدنه، وكونه في مكانه، وكونه في نباته في أوانه، وشكله في كيانه.

فلذلك قال فيثاغورث: إن الشمس ملك كل جوهر وطبيعته أعدل الطبائع، وإنه لا تفسده الأرض ولا تحرقه الأشياء المحرقة للأجساد؛ لأن مزاجه في الحرارة واليبوسة والبرودة والنداوة أجزاء متساوية، وليس في طبيعته شيء زائد على شيء ولا ناقص ولا فاسد؛ ولهذا عظَّموه وكرَّموه وسمَّوه شمسًا، وصاغت منه الملوك تيجانًا وأكاليل، ورصَّعوه

بالجواهر، وحملوه على رءوسهم؛ إعظامًا لقدره وتشريفًا لذكره ولفضله على الأجساد؛ ولأنه أجلُّ معدن موجود في عالم الكون والفساد وكرامة للشمس التي بها صلاح البلاد وحياة العباد.

وقال أفلاطون: إنَّا دخلنا في جبال، حيث يكون الشمال، وكانت جبالًا طوالًا لا نرى الشمس فيها، فلم نستطع المُكْث بها من شدة البرد، ولم نرَ هناك نباتًا إلا شيئًا قليلًا في زمان الصيف، وكان الصيف هناك كالشتاء في غير ذلك الموضع وأعظم ما يكون منه؛ فلذلك قلنا: إنه ليس للعالم أفضل من تدبير الشمس، ولا عمل أفضل من العمل الذي أخرجت، والجوهر الذي صنعت، والصبغ الذي صبغت، والسحر الذي سحرت به العقول، وجعلته طلسم الطلسمات ومغناطيس النفوس الجزئيات، والشهوات الجسمانيات، وجعلته أرفع المنازل في الطبائع المعدنية، وصيَّرت صناعته أكبر الصنائع المهنية الأرضية.

وقال أفلاطون: إني أرسلت نفرًا من أصحابي نحو الهند فذكروا أنهم سقطوا في بلاد خفيفة طيبة فأعجبهم ذلك، وذكروا أن أهل هذه الأرض طوال الأعمار، قليلو الأمراض، صحيحو الأجسام، وليس فيها حر شديد ولا برد شديد، معتدلة أقسامها، مستوٍ نظامها، وإن المزاج لا يفسد فيها سريعًا، فعلمنا أن ذلك المكان خط الاستواء ومعدن الذهب.

ومن هذا القول قال الحكماء لما ذكروا جنة الفردوس، وذكروا أنها مرتفعة من الأرض طول ثلث السماء، وأنه ليس بها حر ولا برد، ولا رطب ولا يبوسة، ولا ما يختلف ولا ما يختلط: إنها مستقيمة في كل شيء مقدرة لمسكن مَنْ أكرمه الله تعالى؛ ولذلك قال جالينوس وأصحابه: إن الجسم ما دام معتدل المزاج مستقيم الطالع يكون ذا مُكْث في الدنيا واستقرار فيها، والنفس الساكنة إذا كانت عارفة بباريها مقرَّة بتوحيده عادلة في حكوماتها، فهي ساكنة في جنة الفردوس بالقوة، فإذا فارقت الجسد وصلت إليها.

ولذلك استعمل هو وأصحابه صناعة الطب واستعجلوا صلاح أجسامهم، وقالوا: ما دام الإنسان مستقيم المزاج لا يزيد بعضه على بعض فهو صحيح لا يدخل السقم عليه، ولا يصل الألم إليه، وصلح أن يكون من ساكني الفردوس، وذو المرض والألم لا يكون ساكنها.

ونعود إلى ما كنا فيه ونقول: لا تشبَّه جنة الفردوس بالشمس؛ لأنها ليس لها من فعلها موت ولا مرض ولا فساد، وأنها حياة العالم؛ فهي الماسكة لكل جسد، ولونها إلى الحمرة، وطعمها إلى الحلاوة.

وقال: إنَّا تعلَّمنا منها عمل حمرة ثم حللنا منها لونين؛ يعني من الحجر المختص بها، وكتبنا به كتابًا وصنعنا منه خاتمًا للملوك وتاجًا لهم.

(٦٦) فصل في إن القمر هو يشاكلها ويريد التشبه بها

قال: إن القمر هو يشاكلها ويريد التشبه بها والمحاكاة لها، وهو في ذاته أسود، ومنها يأخذ لون البياض وما يتبع البياض من الصُّفْرة إذا طلع ليلة بدره في وقت مغيبها، فيعلو وجهه من شفقها صفرة، ثم تسلبها إياه وتنحط منه قوة، فيعمل في الأرض عملًا يحاكي لونه، وهي الفضة، وهي تفسد في الأرض وفي النداوة، طعمها الحموضة لأنه يُزنجَر كما يُزنجَر النحاس، والقمر إذا حصل تحت شعاع الشمس غاب فيها حتى لا يُرَى، وكذلك الفضة إذا مازجت الذهب خفيت في لونه ومازجته، ومع النحاس كذلك. وتقبل الصبغة وسلطان القمر في الجسد على المخ والدم والمرتين، وعلى عيون الماء، وعلى المد والجزر، وعلى كل شيء تكون فيه زيادة ونقصان.

وقال: إنَّا صنعنا من الذهب إكسيرًا وطرحنا منه على الفضة فصارت ذهبًا، وما أسرعه إليها؛ لأنه جَزوع رقيق، ليس له صبر على ما يؤذيه، والأرواح الصاعدة كلها عدو له، وكل جسد فيه روحانية صاعدة يؤذيه ولا يوافقه.

والماس جوهر حار يابس، أنثى، حامض، وهو قريب من الفضة، يختلط بالفضة والذهب إذا نُقِّي وصُفِّي.

والرصاص والحديد يكون منهما ما يصبغ ويختلط بالأرواح ويحبسها ولا يتركها، ولكن إذا صُبغ هو نفسه يفر صبغه منه ولا يثبُت فيه، وينبغي أن يُنقَّى ويُليَّن وهو يمسك لون الصبغة في غيره فيكونان يقبلان الصبغة، ويعلو منه العلو، ويعقر منه الكلب. وإذا قبل الصبغة لم تفارقه ويثبُت على التصفية ويخرج منه فضة.

ولزحل في الأرض أسرب أسود، وهو كيوان رصاص أسود، يقبل الصبغة ويعلق به مثل العلق، ويَعَض مثل الكلب العقور، وإذا قبِل الصبغة لم يفارقه من الحرارة إذا كانت فيه روحانية حارَّة صاعدة من بطن الشمس، وهو ذكر قليل الحلاوة، ويقبل الصبغة ويكون منه شمس، وشمسه كريم مرتفع، ويصبغ منه ضروب المياه، ويحبس عطارد وجميع الروحانيات، ويحول بينها وبين الحروب، وهو عدو الفضة من أجل كبريته، ويصبغ الحجارة.

والزئبق بارد، وهو فضة غلبت عليها النداوة فأفسدتها وحلَّلتها، ومَنْ عرف دواءه قدر أن يردَّه إلى كيانه، ويصير فضة، ويجمع به بين الأرواح ويزاوج بينها، وما أقل صبره على النار! ومَنْ قدر على إصلاح ما بينه وبينها وصل إلى ما يريد، وبه تكون حياة الموتى.

(٦٧) فصل في أن الحجارة ثلاثة ألوان …

وقال: إن الحجارة ثلاثة ألوان: منها ما يذوب، ومنها ما لا يذوب، ومنها ما يكون كلسًا[١١] ومنها ما لا يكون كلسًا، فالذي لا يذوب ولا يكون كلسًا فهو حجر كريم، وهو أشرف الجواهر، وهو الياقوت، له ضد يعاديه ومقدر عليه وهو حجر الألماس، والألماس حجر عظيم، وله ضد يعاديه وهو الأسرب.[١٢] ومن الحجارة ما يزداد في الأرض، ومنها ما ينقص ويتفتت، ومنها ما يقبل الصبغة من المطر والشمس، مثل الجزع والعقيق وغيره، ومنها ما يتحوَّل من لون إلى لون مثل الياقوت، يبتدئ في البياض ثم إلى الزُّرْقة ثم الصُّفْرة ثم الحُمْرة ويثبُت عليها.

واعلم يا أخي أن الحمرة هي أجلُّ الأصباغ، وهي الأصل لها كلها إذا كانت الشمس حمراء وروحانياتها كلها حمر وصفر، والبياض أول الألوان، وهو يحول إلى السواد، كالأرض التي إليها مالت الطبائع، وهو لون زحل، وهو الموت، ولا خير فيما غلب عليه.

والأرقشيثا: جسد، وهو كبريت مختلط بالفضة، وهي باردة قريبة من الحر من أجل الكبريت الذي فيها، فإذا غُسِلت ونُقِّيت وأُحْرِقت صارت باردة يابسة، ولها أعمال تدخل فيما يحتاج إليه أهل الصنعة.

والمغنيسا: وهو حجر كريم، كرَّمته الحكماء ومدحته الفلاسفة القدماء؛ لأنهم كانوا يعملون منه أعمالًا كبيرة، ويُحلُّون به كل طبيعة من الأجساد المعدنية، وهو يُلين الحديد والزجاج، ومنه ذكر وأنثى.

وسمَّوه ذا اليبس، فالذكر منه يابس، والأنثى هشة سوداء شديدة السواد، وزاوجوها مع الكبريت المسمى أفيرون، ثم طرحوه على القلعي[١٣] فحوَّله فضة، والشاذنة باردة يابسة لينة، يخرج منها المس، وصنعت منها الحكماء ما احتاجت إليه في التدبير، وهي تزاوج جميع الأجساد والحجارة الخضرة، ويكرمها الحكماء ويعظِّمها العظماء، وهي طلسمات

---

[١١] الكلس: الجير.

[١٢] الأسرب: دخان الفضة. يقال: سُرِب الرجل، بضم أول الفعل المبني للمجهول: دخل في خياشيمه دخان الفضة، فهو مسروب.

[١٣] القلع: معدن ينسب إليه الرصاص الجيد، فيقال: رصاص قلعي. وهو المراد في عبارة المؤلف كما يُفهم من عبارة: فحوَّله فضة.

جليلة، ويُعْمَل بها أسحار عجيبة، ومنها الفيروزوج، ويخرج منه جسد، ومنها الدهنج واللازورد.

وإن من الحجارة حجارة فيها طبيعة الكبريت والزئبق والطلق واللؤلؤ والصدف.

وقشر البيض كله بارد يابس، والخل يحلُّه كله حتى يجعله في المنظر كالماء، قال جالينوس: إنهن يابسات، والرطوبة تحلل؛ فإنهم يحبسون الزئبق، ويصنعون المياه ويصيِّرونها أجساد الطلسمات، ويقبلون بها الأعيان، ويعملون صورة السحر. وقشر البيض قد أكرمته الحكماء، وله أسماء كثيرة مكتوبة، والعظم بارد يابس، واللبن نديٌّ من أجل دسمه، فإذا فارقه دهنه فهو بارد يابس.

واعلم يا أخي أن الحكماء ذكروا أن في النبات من قوى هذه الروحانيات مثل ما في أجساد هذه المعادن الجامدات، وأنها تعمل في أجساد المعادن الذائبة مثل ما تعمل أرواحها المفارقة لها إذا رجعت إليه وأقيمت نشأة ثانية، وهي كثيرة لا يُحصر عددها، ولا يعلم الإحاطة بكلِّية معرفتها إلا الله عز اسمه، ولكن نذكر منها طرفًا ليكون دليلًا على الباقي إن شاء الله.

(٦٨) فصل شجرة ورقها مثل ورق الفول …

شجرة ورقها مثل ورق الفول، مدملج مستطيل، ينبُت صاعدًا مثل القضبان، لا يموت صيفًا ولا شتاءً، تنبُت في جبال الشام.

قيل: إنه إذا استُخرج ماؤها وأُلْقِيَ على الزئبق وطُبِخَ به مرارًا عقده فضة بيضاء، وقيل: إن أول شجرة طلعت على وجه الأرض شجرة أصلها كهيئة الإنسان، وهي مقدِّمة الكون الإنساني في الطلسم المُشاكل لصورة الإنسان في النبات، ويكون من ذكر وأنثى، وإذ كُسِرَ عودها وُجِدَ داخلها كالصليب! ولها أسماء كثيرة، وهي شجرة معروفة، وهي تنفع من داء الصرع إذا عُلِّقَت على مَنْ به الصرع، ومن المرة السوداء، وما دامت عليه معلَّقة لا يُصرع. وهي حارة، وهي تطرد الأرواح الفاسدة، ويُتَّخذ منها طلسم ويُنْصَب على البيوت المسكونة فلا يبقى بها روح فاسدة ولا دابة مؤذية إلا هربت، وقد صنَّف رجل من الحكماء في هذه الشجرة كتابًا ذكر منافعها.

والكسيينج[١٤] والسقمونيا[١٥] واللُّبَان[١٦] والزئبق والسِّندروس والأفيون تُلين الأجساد وتحسِّن الأرواح وتنفي الخَبَث، وتُمسك بعض قوى الروحانيات الصاعدة، ويحرق بعضها الكباريت الفاسدة.

وذوات الصموغ والألبان من الأشجار تفعل أفعالًا كثيرة وتعمل أعمالًا جليلة، وفيها قوًى فاضلة.

وقيل: إن شجرة يقال لها بالفارسية: «خوس»، واسمها بالرومية «حور سمون»، إذا أُخذ من ورقها مما يلي الأرض من أصلها مقشَّرة، ومن زبد البحر، وزرنيخ أحمر، أجزاء ودُقَّت جميعًا، ثم اطْلِ به ما شئت من الأجزاء الربيَّة وأحمِ بالنار؛ فإنه يخرج ذهبًا أحمر، ثم لا تصير إذا سبك بالنار، وأوراق هذه الشجرة مدوَّرة إذا طلعت عليها الشمس رأيت لورقها لمعًا وبصيصًا، ويكون عليها دود أصفر مثل الذهب، يتكوَّن منها ويدب عليها! روحانيات ما ينحط إليها مما وكل بها. وقيل: إن الدفلي[١٧] إذا أُخذ نوره الشديد الحمرة ومن ورقه وعوده ولحائه وعروقه، ودُقَّ دقًّا جيدًا وطُلِيَ به النحاس وهو ذائب، يخرج منه شبه الذهب، لكنه لا يصبر على النار مرة ثانية.

والخل المتَّخَذ من العنب وهو خل الخمر له فضل كثير، ويُلين الطبائع كلها في الأجسام والأجساد، ويحلل ويلين، وهو يبيِّض الأسود ويسوِّد الأبيض. وأكثر هذه الصفات وأسمائها لم نذكرها من النبات، فذلك في كتاب الحشائش وكتاب الخواص، وكذلك في كتاب الأحجار وما يشاكل ذلك من بدن الإنسان وأعضاء الحيوان، وإنما أردنا بما ذكرنا ليعلم الناظر في كتابنا أن جميع ما في العالم، قليله وكثيره، وكبيره وصغيره، ومعادنه ونباته، وحيوانه ومواته، لم يُخْلَق إلا بالحكمة، وأنه مربوط بعضه لبعض، لا يخلو من منفعة، وفي كونه حكمة تدل على الصانع الحكيم، جل اسمه وتعالى ذكره.

وإن الأشياء كلها محفوظة في أماكنها، وإنه جل اسمه، حافظها وموكِّل بها ملائكة تُنشئها وتُنميها وتُمسكها وتُربيها، ولكلٍّ منها مستقر ومستودَع، وكلها مبنية في كتاب كريم ولوح عظيم، منه بَدَت وإليه تعود، وإنها مثالات وعلامات لما كانت منه وَبَدَتْ عنه.

---

[١٤] الكسيينج: النحاس. والكلمة دخيلة.

[١٥] والسقمونيا: معدن رخو من فصيلة الرصاص، لا يعلوه الصدأ.

[١٦] واللبان، بضم الضاد وفتح الباء: الصنوبر. والسكندر أيضًا يقال له لبان. والسِّندروس، بكسر السين المشدودة: صمغ أو معدن شبيه بالكهرباء.

[١٧] الدفل والدفلي: نبت ذو زهر اعتيادي كالورد، وطرحه كالخزنوب.

واعلم يا أخي أن الجن والشياطين والمردة موجودون في الأمكنة اللائقة بهم التي ينبغي لهم أن يكونوا فيها، وكذلك الملائكة، ولكلٍّ منهم مقام معلوم. وإن من بعض أمكنة الجن والشياطين صدور المنافقين من الإنس، وإنها حالَّة فيهم للوسوسة والغواية، ولهم قرناء من الجن يوحي بعضهم إلى بعض. وإن أمكنة الملائكة صدور المؤمنين ومَنْ فوقهم من الأنبياء والمرسلين، كما قال، جل جلاله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وقد ذكرنا في رسالتنا الجامعة أن من النبات والحيوان والمعادن أجسادًا وأجسامًا وقوًى تختص بكل نوع من أنواعها وشكل من أشكالها من الأرواح.

فنريد أن نذكر في هذا الفصل كيفية استعمال الحكماء هذه القوى والأرواح في السحر الذي كانوا يعملونه ويعلِّمونه لتلامذتهم، وهو معرفة الخلط والمزاوجة في الوقت الذي ينبغي فيه ذلك، ومعرفة النسبة واستواء الأنصبة وإجراء الروحانيات في الجسمانيات، وتركيب الأجسام على الأجساد وإمكان الأرواح فيها بعد الممات.

واعلم يا أخي أنه مَن قدر على أن يُحْيي الجسم بعد موته مثل ما عمله المسيح فقد أتى بسحر عظيم، لا تكاد النفوس أن تصدِّقه ولا العقول أن تحققه، وهو حقٌّ يقينٍ وسحرٌ مبين، ولكنها أجساد غير ناطقة، وأرواح منها خرجت ثم عادت إليها، وهي أصباغ مُشرقة، وألوان مُونقة.

واعلم يا أخي أن هذا الصنف من السحر يُفسد العقول ويُتْلِف النفوس إذا عطفت إليه وأقبلت عليه، وينبغي لإخواننا، أيَّدهم الله، ألَّا يلتفتوا إلى هذا الفن من جهة القياس وقراءة الكتب والتجربة والاعتماد على مَنْ قال ووصف وقال رأيت، وإنما المراد من ذلك اتباع المعلم الواصل والحكيم الفاضل المانِّ على مَنْ يجب أن يمنَّ عليه بذلك، إذا كان ممن ينبغي أن يعلم له السحر الحلال ويعرف كيف يحيي الله الموتى، كما قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ — يعني بالصفة — ﴿قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ — بالنظر — ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ — يعني أربعة أزواج طائرة — ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ — يعني أجسادًا ثابتة جزءًا كما ينبغي أن يُجعل عليه — ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ — بالماء المحلل — ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ واعلمْ أن الله على كل شيء قدير. وهذا مقتضى هذه الآيات على ما تأوَّله أصحاب هذه الصناعة.

وبهذا السحر عمل قارون وصرفه في غير حلِّه، وخالف موسى في فعله، وتعدَّى ما رسمه له فحيل بينه وبينه، وخُسِفَ به وبداره، وابتلعته الأرض وما كان معه، وقلَّ مَنْ

يستحق تعليم هذا السحر في العالم، وإنما أردنا بما ذكرناه ونذكره تنقيح عقول إخواننا، أَيَّدهم الله، بالمعارف، وتحريضهم على النظر في كل العلوم، والمعرفة بمبادئ الصنائع وكيفياتها؛ ليكونوا علماء حكماء ويفارقوا عالم الجهل وصفاته، ويتخلَّصوا من أهله وآفاته، ويرتقوا إلى عالم العقل وخيراته، وينالوا درجة العلم وبركاته ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. والموفَّق لذلك قليل، وقليل ما هم.

واعلم يا أخي، أَيَّدك الله تعالى أنه لا ينبغي لأحد من إخواننا، أَيَّدهم الله، ولا لأحد من أي الناس كان أن يبتدئ بتدبير شيء من الأشياء، ولا صنعة من الصنائع، ولا عمل من الأعمال، يريد به الصلاح في أمر نفسه ومعيشته، إلا بعد معرفة أحوال القمر؛ لأنه اختص بتدبير عالم البشر.

واعلم يا أخي أن الإنسان هو الفرد، وجميع ما تحته فهو منسوب إليه، وهو ملك سماء الدنيا وخليفة الشمس على عالم الأرض، والشمس خليفة الله تعالى في السموات والأرض، وكل كوكب في فلكه فإنما هو ملك ذلك الفلك ومدبِّره وخليفة الشمس فيه، والشمس ملك الكواكب، وفلكها سيد الأفلاك، وبها تتصل الحياة من معدن الحياة، ومنها تتصل بكل حي ناطق وحساس متحرك، ولها صفات بها تختص وتفضُل على سائر الكواكب بما فضَّلها الله تعالى وجعل لها القوة الحافظة على جميع الموجودات.

واعلم أن القمر في جميع أموره كالإنسان؛ وذلك أنه يبتدئ بالنشور كما ينشأ الإنسان وله زمان يكون فيه، كالصبي وحاله من بعد الولادة، وله زمان الحداثة والشبيبة، وله زمان قوة واستكمال، وله زمان كهولة ونقص، ثم لا يزال كذلك حتى يعدم وجوده ويغيب حتى لا يرى ويستأنف نشأة أخرى، وكذلك حال مسيره في دقائقه ومنازله في البروج يشاكل مسير الإنسان في أمر معيشته وجميع متصرفاته.

فإذا كان ذلك كذلك فيجب على مَنْ يريد الابتداء بمثل ما ذكرناه أولًا من عمل السحر الحلال الزجر والفأل والرُّقى والعزائم وعمل الخواتيم، وربط الروحانيات، ونصب الطلسمات، ووضع العلامات، ودفن الذخائر واستخراجها، وجميع ما أحب عمله من حل وعقد وأعمال نيرنجات[١٨] وقَلْب الأعيان، وتحويل الكيان من كيان إلى كيان، فليبدأ بمعرفة مسير القمر ومعرفة طبائع منازله، ويعرفها منزلةً منزلةً، ويصحِّح مسير الشمس والكواكب من التقويم، فإن ذلك مُعين على ما يريد الابتداء به، وليكن نظره لذلك من

[١٨] النيرنجا: تغيير حقائق الأشياء في نظر الرائي فقط، ومرجعها السرعة وخفة اليد.

التقويم السماوي والحظ الإلهي، وينظر إلى القمر كل ليلة ويستدل به وبنزوله في البروج الاثني عشر، ونريد أن نُبيِّن ذلك، وهو مذكور في كتب الحكماء العلماء بصناعة النجوم، فإن عدم الناظر في ذلك معرفة المسير في الفلك بالنظر في الآفاق، فلينظر ذلك في التقويم الأرضي والخط الإنساني الوضعي والكتاب الجزئي، فإنه سيبلغ بذلك بعض ما يريد إن شاء الله.

(٦٩) فصل قال الحكيم: إن القمر ينزل كل يوم في منزلة ...

قال الحكيم: إن القمر ينزل كل يوم في منزلة، ومقدار مقامه في كلِّ منزلة ساعة غير سدس؛ لأن المنزلة لا تطلع حتى تمضي خمسة أسداس ساعة، ثم يطلع منزلة أخرى، والقمر إذا طلع أول ليلة من الشهر يقيم ستة أسباع ساعة ثم يطلع منزلة، ويزداد كل ليلة ستة أسباع ساعة، ثم يطلع في الليلة السابعة من الشهر فيقيم إلى نصف الليل ثم يغيب، ثم يزداد كل يوم ستة أسباع ساعة على هذا القياس.

فإذا كانت ليلة أربع عشرة يطلع فيقيم إلى وقت طلوع الشمس، ثم يغيب ويطلع حين تغرب، ويغرب حين تطلع، فيكون له بهذه الخلافة خلافة كاملة؛ لأنه يتسلَّم تدبير العالم عند غروبها، ويغيب عند طلوعها، محاكيًا لها في الاستدارة والتمام.

وإذا كانت ليلة خمس عشرة يتأخَّر طلوعه ستة أسباع ساعة مثل ما طلع في أول ليلة من استهلاله، ثم كذلك حتى يطلع ليلة سبع وعشرين مع غداة الفجر، ثم يستتر تحت شعاع الشمس يومين، وهي قيامته ورجوعه إلى مالكه فيوفيه حسابه، ثم يُنْشئه نشأة أخرى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، ثم يظهر فيطلع مثل ما قدَّمنا ذكره.

فإذا نزل القمر بأول الحمل وهو «السرطان» إلى اثنتي عشرة درجة منه وستة أسباع درجة، وهو ناري نحس يصلح فيه من الأعمال ما يختص بأمور النساء، ويُجْتنب فيه لبس الثياب الجدد وترك الأعمال كلها بالجملة. وفي هذا الحد تتحرَّك روحانية تتصل بأنفس الملوك والسلاطين، ويظهر فيهم الغضب والبطش بالقتل وسفك الدم والجور والظلم، ثم يعمُّ ذلك العالم كله، فيظهر من ذلك في كل واحد بحسب قوته وما جُعل له من قدرته، ولا يصلح إلا لما كان من أحوال النساء. ومَنْ تزوَّج في هذا اليوم حظيت المرأة عنده وحظي هو عندها. واشترِ فيه الرقيق والدواب والشاء والبقر، واغرس فيه وازرع وابنِ البناء؛ فإن عاقبة كل ذلك محمودة. ولا تُؤاخِ في هذا اليوم أخًا؛ فإن مودة المتحابين لا تلبث، ولا تشترِ فيه شيئًا للتجارة؛ فإن عاقبته غير محمودة، ولا تعالج فيه طلسمًا ولا دعوة بحال.

ومَنْ وُلِدَ في هذا اليوم إن كان ذكرًا كان فاجرًا شريرًا، لا تلبث الأموال معه، ولا يحمل في شيء من أموره، وإن كانت أنثى كانت فاجرة مشهورة الفجور، محببة حظيَّة عند الرجال حريصة عليهم.

البطين: سعد، حار يابس، وهو ألين جوهرًا.

فإذا نزل القمر بالحدِّ الثاني من الحمل، وهو اثنتي عشرة درجة وستة أسباع، فعند ذلك ينحطُّ إلى العالم روحانيات معتدلة تُصلح ما تقدَّم من الفساد في الأرض، وتُصلح ما كان بإفساد المقدم بها، وتُزيل غضب الملوك من نفوسهم، وهو يصلح لجميع الأعمال والأفعال. وما يختص به الرجال دون النساء، فاعمل فيه نيرنجات العطف والمحبة بالملوك والسوقة والإخوان، ومَنْ أحببت من الرجال دون النساء خاصة، واعمل فيه الطلسمات والنيرنجات الأربعة الموضوعة في كتاب أرسطماخس، ودبِّر فيه الصنعة، وعالِج فيه الروحانيات، وادخل فيه على الملوك، واسعَ في حوائجهم، واتصل فيه بهم، واستفتِح المودَّة بينك وبينهم، ولا تتزوَّج فيه، ولا تشترِ فيه رقيقًا ولا شيئًا من الحيوان الذي تريده للقنية، ولا تشترِ فيه شيئًا للتجارة، ولا تلبس فيه ثوبًا جديدًا؛ فإنه مَنْ لبس فيه ثوبًا جديدًا يُخْشى عليه من السُّلِّ! وازرع فيه، ولا تكتلْ غلتك؛ فإنه من اكتال في هذا اليوم غَلَّةً لم يبارَك له فيها.

ومَنْ وُلِدَ هذا اليوم إن كان ذكرًا كان صالحًا ناسكًا، كتومًا للأسرار، محمود السيرة، حسن المعيشة، كثير الأعداء، وإن كانت أنثى كانت فاجرة متهتكة، سيئة السيرة، مبغَضة في الناس.

الثريا: ممتزجة الحرارة والبرودة، سعدة، متوسطة، وهي من خمس وعشرين درجة وخمسة أسباع درجة من الحمل إلى ثمان درجات وأربعة أسباع من الثور.

وإذا نزل القمر الثريا فاعمل فيه نيرنجات المحبة وأفعالًا تختص بالنساء، وإطلاق المأخوذ عن النساء، واحلل عقد السموم، ودخِّن فيه بدخن المحبة، واعمل الطلسمات، ودبِّر فيه الصنعة، وسافِر فيه للدعوات، وادخل فيه على الملوك، واتصل بالأشراف، وتزوَّجْ، واشترِ فيه ما أحببت، وابنِ الأبنية، واختلط فيه بالإخوان، وازرع فيه واحصد زرعك، واكْتَلْ غَلَّاتك، والبس فيه ما أحببت من جدد ثيابك؛ فإن ذلك كله محمود العاقبة نافذ الروحانيات حَسَن الخاتمة.

ومَنْ وُلِدَ في هذا اليوم — ذكرًا كان أو أنثى — كان صالحًا سعيدًا، محمود السيرة، مستور الدخلة.

الدبران: نحس أرضي يابس، وهو من ثماني درجات وأربعة أسباع درجة من الثور إلى تمام إحدى وثلاثة أسباع منه. فإذا نزل القمر الدبران فاعمل فيه نيرنجات العداوة والبغضاء خاصة، ولا تدخل فيه على الملوك، ولا تسعَ في حوائجهم، ولا تتصل بهم، ولا تستفتح عملًا في تدبير الصنعة ولا في تدبير طلسم ولا دعوة ولا زرع ولا غرس، ولا تَكْتَلْ غَلَّة، ولا تعالج فيه أحدًا، ولا تتزوَّج فيه ولا تسافر؛ فإن ذلك كله غير محمود العاقبة.

ومَنْ وُلِدَ في هذا اليوم، إن كان ذكرًا كان محذورًا، خبيث الدخيلة والسيرة، شريرًا قَتَّالًا، وإن كانت أنثى كانت فاجرة متهتكة، لا يحبها أحد ولا تحظى عنده.

الهقعة: نحسة يابسة، ممتزجة بسعادة، تنحط فيه إلى العالم روحانية، ممزوجة، وهي من إحدى وعشرين درجة وثلاثة أسباع درجة إلى أربع درجات وسُبعي درجة من الجوزاء، فإذا نزل القمر بها فاعمل فيه نيرنجات السموم وأخلاطها، واعمل فيه الطلسم كله، وعالج فيه من الأرواح.

ولا تستفتح دعوة ولا تُدبِّر فيه صنعة ولا زرعًا ولا غرسًا ولا تزويجًا؛ فإن ذلك كله غير محمود العاقبة، وادخل على الملوك واسعَ في حوائجهم، واتصل بالأشراف والإخوان، واشترِ فيه الرقيق، والبس فيه ما أحببت من جدد ثيابك، وسافِر فيه؛ فإن ذلك كله محمود العاقبة نافذ الروحانية حسن الخاتمة.

ومن ولد فيه إن كان ذكرًا كان مذمومًا في الناس كثير الأذى لهم غير محمود، وخبيث الدخيلة والسيرة شريرًا قتالًا، وإن كانت أنثى كانت صالحة قليلة الكلام، حظيَّة عند الرجال مستورة الحال.

الهنعة: لينة، رياحية، سعدة، وهي من أربع درجات وسُبعين من الجوزاء إلى تمام سبع عشرة درجة وسُبع من الجوزاء. فإذا نزل القمر بها فاعمل فيه نيرنجات العطف والمحبة والمودة، ودخِّن فيه الدخن، واحلل السموم، واعمل الطلسمات، ودبِّر فيه الصنعة، وادعُ فيه الدعوة، وادخل فيه على الملوك، واسعَ في حوائجهم، واتصل بالإخوان، واستفتح فيه بالأعمال، وتزوَّجْ، واشترِ فيه الرقيق، وازرع واحصد واغرس، واكْتَلْ غَلَّتك، وسافِر؛ فإن ذلك محمود العاقبة، نافذ الروحانية، باقي الزكاء والبركة. قال: ومن وُلِدَ في هذا اليوم، إن كان ذكرًا كان حسن السيرة محمودًا في الناس، وإن كانت أنثى كانت حظيَّة عند الناس، حريصة عليهم، فاجرة، مستورًا عليها ذلك.

الذراع: رياحي، ليِّن، سعد، وهو من سبع عشرة درجة وسُبع درجة من الجوزاء إلى آخره. فإذا نزل القمر به فاعمل فيه نيرنجات الشهوات والمحبة، ودخِّن فيها بدخنها، واستفتح فيه أعمالك، وادعُ فيه بالدعوة، وعالج فيه من الروحانية كلها، ودبِّر فيه الصنعة، واعمل فيه الطلسم، وادخل فيه على الملوك، واسْعَ في حوائجهم، واتصل فيه بالأشراف والإخوان، وازرع فيه واحصد، واغرس فيه وتزوَّجْ، واشترِ الرقيق والدواب، والبس ما أحببت من جُدُد الثياب، وسافِر فيه؛ فإن ذلك محمود العاقبة، نافذ الروحانية، حسن الخاتمة في الزكاة والبركة. قال: ومن وُلِدَ في هذا اليوم — ذكرًا كان أو أنثى — كان سعيدًا صالحًا، محمود السيرة والتدبير، ومَنْ تختَّم بخاتم على فصِّه صورة هذا الكوكب رأى ما يحبه.

النثرة: سعدة، لينة، ممتزجة بالنحس، وهي من أول السرطان إلى اثنتي عشرة درجة وستة أسباع درجة منه. فإذا نزل القمر بها فاعمل فيه نيرنجات السموم والقطيعة والعداوة خاصة، واعمل فيه الطلسم، وادعُ فيه بالدعوات، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، ولا تعالج فيه الروحانية، ولا تلبس ثوبًا جديدًا؛ فإن مَنْ لبس يُخشى عليه من الحرق بالنار، وسافِر فيه، وادخل فيه على الملوك، واسْعَ في حوائجهم، واتصل بالأشراف والإخوان، وازرع واحصد، ولا تَكْتَلْ غلَّتك فيه، ولا تتزوج، ولا تشترِ رقيقًا ولا دابة ولا تجارة. قال: ومن وُلِدَ في هذا اليوم، إن كان ذكرًا كان محارفًا[١٩] مجدودًا في معيشته، وإن كانت أنثى كانت سيئة السيرة، حظيَّة عند الرجال، محببة في الناس.

الطرفة: وهي من اثنتي عشرة درجة وستة أسباع درجة من السرطان إلى خمس وعشرين درجة وخمسة أسباع درجة منه، مائية، نحس، لين.

فإذا نزل به القمر فاعمل فيه نيرنجات القطيعة والعداوة وعقد الشهوة خاصة، ولا تعمل فيه الطلسم، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، ولا تدعُ بدعوات روحانية، ولا تعالج فيه أحدًا البتة بشيء من العلاج، ومَنْ يلبس فيه ثوبًا جديدًا خُشِيَ عليه من جراحة تصيبه فيه، ولا تدخل فيه على الملوك، ولا تتصل بالأشراف والإخوان، ولا تتزوج، ولا تشترِ رقيقًا، ولا دابة؛ فإنه مَنْ فعل ذلك لم تُحْمَد عاقبة أمره وأعقبته حسرة وندامة، ولا تزرع فيه، ولا تحصد غَلَّتك ولا تَكْتَلْها؛ فإنه مَنْ زرع واكتال غَلَّة في هذا اليوم انتهبته الأعداء، ولا تسافر فيه، وحارِب في هذا اليوم؛ فإن من ابتدأ بمحاربة عدوه فيه وخالطه

[١٩] المحارف والمحترف: ذو الحرفة والمهنة والصناعة. كلها بمعنًى واحد.

ظفر به، ومن وُلِدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان منحوسًا شريرًا متهتكًا، غير محمود السيرة، مذمومًا في الناس.

الجبهة: مائية، ممتزجة بالحرارة، سعيدة مضروبة بنحس، وهي من خمس وعشرين درجة وخمسة أسباع درجة من السرطان إلى ثمان درجات وأربعة أسباع درجة من الأسد.

فإذا نزل القمر بها فاعمل فيه نيرنجات الإطلاق وحل عقد الشهوة والسموم خاصة، واعمل فيه الطلسمات، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، ولا تدعُ فيه بالروحانية، ولا تعالج من الأرواح وغيرها، وادخل فيه على الملوك واسْعَ في حوائجهم، واتصل فيه بالأشراف والإخوان، واحصد فيه وازرع ولا تَكْتَلْ غلَّتك؛ فإن من اكتال فيه غَلَّة سرقها منه اللصوص أو سرقوا ثمنها، وتزوَّجْ في هذا اليوم؛ فإنه يوم محمود العاقبة، واشترِ فيه الرقيق والدواب، وسافِر فيه، وافتتح فيه الحرب؛ فإن فيه الظفر والسلامة. قال: ومن وُلِدَ في هذا اليوم، إن كان ذكرًا كان داهية مكَّارًا ذا حيل وخدائع، وإن كانت أنثى كانت حظيَّة عند الرجال، غالبة الشهوة، شديدة الحرص عليهم، مستورة الحال.

الزبرة: نارية، يابسة، سعدة، هي ثمان درجات وأربعة أسباع درجة من الأسد إلى إحدى وعشرين درجة وثلاثة أسباع درجة منه. فإذا نزل بها القمر فاعمل فيه نيرنجات عطف قلوب الملوك والأشراف والإخوان خاصة، واعمل فيه الطلسمات، ودبِّر الصنعة، وادعُ فيه بالدعوات، وعالج فيه من الأرواح، وادخل فيه على الملوك، واسْعَ في أعمالهم، واتصل بالإخوان والأشراف، وازرع واحصد واكْتَلْ غلَّتك، وتزوَّجْ، واشترِ الرقيق والدواب، والبس ما أحببت من جديد الثياب، وسافِر ودبِّر تدبير الحرب، واستفتح الأعمال كلها؛ فإن ذلك كله محمود العاقبة، نافذ الروحانية، حسن الخاتمة، تام الزكاء والبركة، ومن وُلِدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان سعيد الجد، مستورًا، صالحًا، ميمونًا على والديه وأهل بيته، محمودًا في الناس.

الصرفة: ممتزج الجوهر من الناري والأرضي، نحس مضروب سعادة، وهي من إحدى وعشرين درجة وثلاثة أسباع درجة من الأسد إلى أربع درجات من السنبلة. فإذا نزل به القمر فاعمل نيرنجات العداوة والقطيعة والتفريق، ودخِّن فيه بدخنها، واعمل فيه الطلسمات، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، ولا تدعُ فيه بالدعوات، ولا تعالج فيه من الأرواح الروحانية، ولا تزرع فيه ولا تَكْتَلْ غلَّتك وتستفتح فيه الأعمال، ولا تدخل فيه على

الملوك، ولا تَسْعَ في حوائجهم ولا تتصل بهم ولا بالأشراف والإخوان، ولا تتزوج، ولا تشترِ الدواب والرقيق؛ فإن ذلك كله غير محمود العاقبة، ولا نافذ الروحانية، مخشي الخاتمة، ولا تلبس فيه ثوبًا؛ فإن مَنْ لبس فيه ثوبًا جديدًا ضربه السلطان، وخالِط فيه الأعداء، ودبِّر فيه الحرب، وسافِر فيه؛ فإن فيه الظفر والسلامة، ومن وُلِدَ في هذا اليوم، إن كان ذكرًا كان خبيث الدخيلة، داهي الفكر، مقبولًا عند العامة، وإن كانت أنثى كانت بذيئة سليطة، مذمومة عند الناس.

العواء: أرضية يابسة، سعدة مضروبة بنحس، وهي من أربع درجات من السنبلة إلى سبع عشرة درجة وسُبع درجة منها.

فإذا نزل القمر بها فاعمل فيه نيرنجات المحبة والمودة بالنساء، والقَ الأشراف والإخوان وغيرهم، واعمل فيه الطلسمات، وادعُ فيه الدعوة، وعالج من الروحانية، وازرع واحصد ولا تَكْتَلْ غلَّتك؛ فإنه من اكتال فيه غلَّته بَغَتَه السلطان بغُرم، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، ولا تحارب ولا تخالط الأعداء، وادخل فيه على الملوك واسْعَ في أعمالهم، والبس فيه الثياب واشترِ الرقيق وسافِر.

ومن وُلِدَ في هذا اليوم، إن كان ذكرًا كان مشئومًا على أهله ووالديه، محدودًا مجارفًا، مبغضًا في الناس، وإن كانت أنثى كانت محظيَّة محببة عند الرجال، ذات عفة وحسن حال.

السماك: أرضي يابس، نحس، وهو من سبع عشرة درجة وسُبع درجة من السنبلة إلى آخرها، وينحط فيه إلى العالم، روحاني، نحس. فإذا نزل القمر به فاعمل نيرنجات العداوة والتفريق بين الاثنين والسموم القاتلة، وكل شيء يؤدي إلى مضرة وأذى.

ولا تعمل فيه الطلسمات، ولا تُدبِّر الصنعة، ولا تستفتح فيه الأعمال، ولا تزرع ولا تحصد ولا تبنِ فيه الأبنية، ولا تَكْتَلْ غلَّتك، ولا تدخل فيه على الملوك، ولا تخالط فيه الإخوان والأشراف، ولا تُدبِّر فيه الحروب، ولا تتزوج، ولا تشترِ فيه الرقيق والدواب، واجتنب جميع الأعمال إلا الحلق والحمام وأخْذ الشعر فقط، ولا تسافر فيه.

ومن وَلَدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان مشئومًا محدودًا متهتكًا، سيئ السيرة، مذموم العمل.

الغفر: وهو من أول الميزان إلى اثنتي عشرة درجة وستة أسباع درجة، وهو رياحي، سعد، وإذا نزل القمر به فاعمل فيه نيرنجات المحبة والمودة والعطف، وأطْلِقْ فيه

الأخيذ، واحلل فيه عقود السموم القاتلة، واعمل فيه، وادعُ فيه بالدعوة، وعالج فيه الروحانية، وسافِر، وادخل على الملوك، واتصل بهم وبالإخوان والأشراف، وتزوَّجْ، واشترِ الرقيق، والدواب، وازرع فيه واحصد واكْتَلْ غلَّتك، والبس ما أحببت من جديد ثيابك، واستفتح فيه جميع أعمالك.

ومن وُلِدَ في هذا اليوم — ذكرًا كان أو أنثى — كان سعيدًا ميمونًا على والديه، محببًا مستورًا صالحًا.

الزباني: رياحي، سعد مضروب بنحس، وهو من اثنتي عشرة درجة وستة أسباع درجة من الميزان إلى خمس وعشرين درجة وخمسة أسباع درجة منه. فإذا نزل به القمر فاعمل فيه نيرنجات عقد الشهوة وحلها وحل السموم القاتلة، واعمل فيه الطلسمات، وادعُ فيه بالدعوات، ولا تعالج فيه من الروحانية، ولا تُدبِّر الصنعة، وازرع واحصد، ولا تَكْتَلْ غلَّتك، فإن مَن اكتال غَلَّته فيه تمحَّقت وذهبت في مدة، ولا تسافر فيه، وادخل على الملوك واتصل، ولا تلبس فيه ثوبًا جديدًا؛ فمَنْ لبسه أصابه فيه صرعة من دابة أو سقطة من سطح أو ضجرة، وتزوَّجْ، واشترِ الرقيق والدواب، ودبِّر فيه تدبير الحروب، وخالِط فيه الأعداء، وإن وُلِدَ فيه ذكرٌ كان سعيدًا محببًا ناسكًا ميمونًا، وإن كانت أنثى كانت مشئومة على والديها متهتكة فاجرة سيئة السيرة.

الإكليل: ممتزج بالنار، رياحي، وهو من خمس وعشرين درجة وخمسة أسباع درجة من الميزان إلى ثمان درجات وأربعة أسباع درجة من العقرب. فإذا نزل فيه القمر فاعمل فيه نيرنجات العداوة والقطيعة والتفريق بين الاثنين والسموم القاتلة، وكل ضرب منها يؤدي إلى قطيعة ومضرة، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، ولا تعمل فيه الطلسم، ولا تعالج فيه الروحانية، ولا تختلط بالملوك والإخوان والأشراف، ولا تزرع ولا تحصد غلَّتك ولا تَكْتَلْها، ولا تسافر، ولا تلبس ثوبًا جديدًا؛ فمَنْ لبسه خُشِيَ عليه من نهش السباع، ولا تتزوَّج، ولا تشترِ رقيقًا ولا دابة، ولا تستفتح فيه شيئًا من أعمال المعيشة ولا التجارة، ولا تحارب فيه.

ومن وُلِدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان مستورًا محارفًا مبغضًا، لا يولد له ولد، ويكون محرومًا.

القلب: مائي، سعد، وهو من ثمان درجات وأربعة أسباع درجة من العقرب إلى إحدى وعشرين درجة وثلاثة أسباع درجة.

فإذا نزل به القمر فاعمل فيه نيرنجات المحبة وتأليف القلوب بالمودة، وأطْلِق فيه الأَخِيذ،[٢٠] واحلل فيه عقد السموم القاتلة، ودبِّر الصنعة، واعمل الطلسمات، وادعُ بالدعوة، وازرع واحصد واكْتَلْ غلَّتك، واستفتح فيه أعمالك كلها، وتزوَّجْ، واشترِ الرقيق والدواب، والبس فيه الثياب الجدد؛ فإن ذلك كله محمود العاقبة، نافذ الروحانية، حسن الخاتمة، تام البركة والزكاة.

ومن وُلِدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان سعيدًا مباركًا ميمونًا محببًا، حسن التدبير والسيرة، مستور الحال.

الشولة: مائي، ممتزج بالنار، سعد مضروب بنحس، وهو من إحدى وعشرين درجة من أربعة أسباع درجة من العقرب إلى أربع درجات وسُبع درجة من القوس.

فإذا نزل القمر بها فاعمل فيه نيرنجات عقدة الشهوة والسموم القاتلة، واعمل فيه الطلسمات، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، وادعُ فيه الدعوة، ولا تعالج من الروحانية، ولا تسافر، وازرع ولا تَكْتَلْ غلَّتك؛ فمن اكتالها انتهبها الأعداء واللصوص، ولا تدخل فيه على الملوك ولا تَسْعَ في حوائجهم، وادخل على الإخوان والأشراف، ولا تتزوج، ولا تشترِ الرقيق، ولا تلبس ثوبًا جديدًا؛ فمَنْ لبسه أصابته الحمَّى المُنهِكة، ولا تستفتح شيئًا من الأعمال.

ومن وُلِدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان مشئومًا على والديه وأهله، مبغوضًا إليهم، مذمومًا في الناس، متهتكًا، سيئ السيرة.

النعائم: سعدة، نارية، وهي من أربع درجات وسُبعي درجة من القوس إلى سبع عشرة درجة وسُبع درجة منه.

وإذا نزلها القمر فاعمل فيها نيرنجات المحبة وتأليفات المودة، وأطلق فيه الأخيذة، واحلل عقد السموم القاتلة، واعمل الطلسمات، ودبِّر الصنعة، وادعُ فيه بالدعوة، وعالج فيه الروحانية، واستفتح فيه جميع أعمالك كلها، وخالِط الملوك والأشراف، وسافِر، وازرع، واكْتَلْ، وتزوَّجْ، واشترِ الرقيق والدواب، وحارِب فيه؛ فإن فيه الظفر والسلامة، والبس ثيابك الجدد؛ فإن ذلك محمود العاقبة، نافذ الروحانية، حسن الخاتمة، تام الزكاء والبركة.

[٢٠] الأَخِيذ: الذي أُخذ أسيرًا في الحرب.

ومن وُلِدَ في هذا اليوم — ذكرًا كان أم أنثى — كان سعيدًا ميمونًا محببًا، حسن السيرة، مستور الحال.

البلدة: نحسة، نارية، وهي من سبع عشرة درجة وسُبعي درجة من القوس.

فإذا نزل بها القمر فاعمل فيه نيرنجات القطيعة والعداوة والتفريق بين الاثنين والسموم القاتلة، وكل شيء يؤدي إلى مضرة وفساد، ولا تعمل فيه سوى ذلك من عمل طلسم، ولا تُدبِّر فيه صنعة ولا دعوة، ولا تعالج فيه روحانية ولا زرعًا ولا غرسًا ولا كيلًا ولا سفرًا ولا اختلاطًا بالملوك والأشراف والإخوان، ولا تتزوَّج، ولا تشترِ رقيقًا ولا دابة، ولا تلبس ثوبًا جديدًا؛ فمَنْ لبسه بَطَّ[٢١] عن قرحة دامية تخرج عليه، ومن وُلِدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان منحوسًا مشئومًا، يموت أحد والديه، وتكون تربيته بأسوأ حال، ويكون متهتكًا سيئ السيرة.

سعد الذابح: أرضي، نحس مضروب بسعادة، وهو من أول الجَدْي إلى اثنتي عشرة درجة وستة أسباع درجة منه. وإذا نزل به القمر فاعمل فيه الطلسمات ونيرنجات عقد الشهوة والسموم القاتلة، وكل علاج يؤدي إلى مضرة، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، ولا تدعُ فيه الدعوة، ولا تعالج فيه الروحانية، ولا تختلط فيه بالملوك والأشراف، وخالِط فيه الإخوان، وازرع فيه ولا تَكْتَلْ غلَّتك؛ فمن اكتال غَلَّته فيه تمحَّقت من يده، ولا تسافر فيه، ولا تلبس ثوبًا جديدًا؛ فإن لبسه لابس أصابته جراحة من عدوه، ومَنْ وُلِدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان الذكر ميمونًا محدثًا حسن السيرة محمود العمل، وإن كانت أنثى كانت حظيَّة عند الرجال، حريصة عليهم، مؤثرة لشهواتهم، متهتكة غير مستورة.

سعد بلع: أرضي، مضروب بنحس، وهو اثنتا عشرة درجة وستة أسباع درجة من الجَدْي إلى خمس وعشرين درجة وخمسة أسباع درجة منه. فإذا نزل به القمر فاعمل فيه نيرنجات القطيعة والعداوة والسموم القاتلة، واعقد فيه الشهوات وأطلقها أيضًا، واعمل فيه الطلسمات، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، ولا تدعُ بالروحانية، ولا تعالج من الأرواح، وسافِر، وادخل على الملوك والأشراف والإخوان، وازرع واكْتَلْ غلَّتك، ولا تتزوج فيه، ولا تشترِ الرقيق والدواب، والبس فيه ما أحببت من جدد ثيابك، ومن وُلِدَ في هذا اليوم، إن

[٢١] بطَّ، بتشديد الطاء المهملة قبلها باء مفتوحة أيضًا، شق الجرح أو القرحة.

كان ذكرًا كان محمودًا مشئومًا مجارفًا[٢٢] متهتكًا فاجرًا، سيئ العِشْرة والسيرة، وإن كانت أنثى كانت ميمونة ستيرة نجيبة عفيفة، محمودة السيرة، حظيَّة عند الرجال.

سعد السعود: ممتزج من الرياح والأرض، سعد، وهو من خمس وعشرين درجة وخمسة أسباع درجة من الجَدْي إلى ثمان درجات وأربعة أسباع من الدلو. فإذا نزل به القمر فاعمل فيه نيرنجات المحبة وعطف القلوب بالمودة وإطلاق الأخيذ، وحلها وحل السموم القاتلة، واعمل فيه الطلسمات، واستفتح فيه جميع أعمالك، وادعُ فيه بالدعوة، وعالج فيه من الروحانية، وخالِط الملوك والأشراف والإخوان، وازرع واكْتَلْ غلَّتك، والبس جدد ثيابك، وسافِر، وتزوَّجْ، واشترِ الرقيق والدواب، ومن وُلِدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان سعيدًا ميمونًا مستورًا محببًا، محمود العمل والسيرة.

سعد الأخبية: نحس، رياحي، وهو من ثمان درج وأربعة أسباع درجة من الدلو إلى إحدى وعشرين درجة وثلاثة أسباع درجة. فإذا نزل به القمر فاعمل فيه نيرنجات العداوة والقطيعة والتفريق بين الاثنين والسموم القاتلة، وكل علاج يؤدي إلى مضرة وفساد، ولا تزرع فيه ولا تَكْتَلْ غلَّتك، ولا تعمل فيه الطلسمات، ولا تدعُ فيه الدعوة، ولا تعالج، ولا تسافر، ولا تختلط فيه بالملوك والأشراف والإخوان، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، ولا تلبس ثوبًا جديدًا؛ فمَنْ لبسه سُرِقَ منه، ولا تتزوج، ولا تشترِ رقيقًا ولا دابة.

ومن وُلِدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان مشئومًا منحوسًا، يموت عنه والده، ويكون متهتكًا، ويربِّيه الأبعدون، ويكون فاجرًا خبيثًا سيئ السيرة.

مقدَّم الدلو: وهو من إحدى وعشرين درجة وثلاثة أسباع درجة من برج الدلو إلى أربع درجات وسُبعي درجة من برج الحوت، وهو سعد، رياحي. قال: فإذا نزل به القمر فاعمل فيه نيرنجات العداوة والقطيعة وعقد الشهوة والسموم القاتلة والطلسم، ولا تُدبِّر الصنعة، ولا تدعُ، واحلل فيه عقدة الشهوة، وعالج بالروحانية، وادخل على الملوك والأشراف، وعالج الروحانية، والبس ما أحببت من الثياب الجدد، وازرع ولا تَكْتَلْ غلَّتك؛ فمن اكتالها عاقبه السلطان بغُرم فتذهب غلَّته أو ثمنها.

ومَنْ وُلِدَ فيه، إن كان ذكرًا كان مشئومًا محدودًا مجارفًا متهتكًا، خبيث الدخيلة، سيئ السيرة، مذمومًا عند الناس، وإن كانت أنثى كانت ميمونة سعيدة محببة مستورة، حظيَّة عند الرجال.

[٢٢] المجارف بالجيم المعجمة: الفقير الذي ذهب الدهر بماله، أو حرمه هو بنفسه؛ أضاعه من غير تدبير.

مؤخَّر الدلو: مائي، سعد، مضروب بنحس، وهو من أربع درجات وسُبعي درجة من الحوت إلى سبع عشرة درجة وسُبع درجة منه. قال: فإذا نزل بمؤخَّر الدلو وهو الفرع الآخر فاعمل فيه نيرنجات العداوة والقطيعة وعقد الشهوة والسموم القاتلة، واعمل فيه الطلسم، ولا تُدبِّر فيه الصنعة، ولا تدعُ فيه الدعوة، وعالج فيه من الروحانيات، وادخل فيه على الملوك والأشراف، وحارِب فيه، وسافِر، وازرع فيه، ولا تَكْتَلْ غلَّتك فيه؛ فإن من اكتال غلَّته في هذا اليوم يعقبه من السلطان غُرم ويذهب ثمنها.

قال: ومَنْ وُلِدَ في هذا، إن كان ذكرًا كان مشئومًا محدودًا مجارفًا متهتكًا، خبيث الدخيلة، سيئ السيرة، مذمومًا عند الناس، وإن كانت أنثى كانت ميمونة سعيدة محببة، حظيَّة عند الرجال.

بطن الحوت: وهو من سبع عشرة درجة وسُبع درجة من الحوت إلى آخره، وهو مائي، سعد.

فإذا نزل القمر فاعمل فيه نيرنجات المحبة وعطف القلوب بالمودة وإطلاق الأخيذ، وحل عقد السموم القاتلة، واعمل فيه الطلسمات، ودبِّر فيه الصنعة، وادعُ فيه بالدعوة، وعالج فيه من الروحانية، وازرع واحصد واكْتَلْ غَلَّتك، وسافِر، واختلط بالملوك والإخوان، وتزوَّجْ، واشترِ الرقيق والدواب، واستفتح فيه الأعمال؛ فإن ذلك محمود العاقبة، نامي البركة، نافذ الروحانية، ومن وُلِدَ فيه — ذكرًا كان أو أنثى — كان سعيدًا ميمونًا زكيًّا محمودًا حسن السيرة.

فاعقد، أيها الأخ، هذه الأسرار الفلكية، والتدابير الهرمية، والأنباء الإدريسية، واعمل بها لنفسك ولإخوانك في مصالح دينك ودنياك، وامنح بها الصفوة من أصحابك، وتدبَّرها بلطيف فهمك ونافذ بصيرتك، تصل منها إلى منازل الأخيار.

قال هرمس: هذه الأوقات التي تدور عليها روحانيات القمر بهذه الأعمال التي وصفها الحكيم في الكتاب المخزون.

وسُئل أيضًا أي ساعات الليل والنهار أَحَبُّ أن تعمل فيها النيرنج والطلسم؟ فقال: أَحَبُّ الساعات إليَّ في عمل النيرنج من ساعات الليل بعد مغيب الشفق إلى طلوع الشمس؛ وذلك أن هذه الساعات هي ساعات ساكنة، تنبسط الروحانية في هذه؛ لأن الروحانية مستجنَّة كامنة خفية بالنهار لشروق الشمس وضوئها وانبثاث الروحانيات الأرضية وحركاتها. فإذا غربت الشمس وغاب ضوءُها وشروقها انبسطت الروحانيات بحركتها ونفذت في تدبيرها.

قال هرمس: وجدت في الكتاب المخزون في أسرار النيرنجات أن خير ما يعمل به العامل ما يخفيه عن عيون الناس ورؤيتهم وشروق الشمس وضوئها؛ وذلك أن عيون الناس جاذبة روحانياتها تمنع أرواح النيرنجات في نفاذها، وشروق الشمس يُبطل النيرنج ويدفع روحانية نفاذه وتمامه.

وقال: اعلم أن نيرنجات المحبة والمودة والقطيعة وعقد الشهوة وحلها كلها اعمل ليلًا من تلك الليالي والأيام المقسومة من منازل القمر، واعمل الطلسم والصنعة والدعوة وعلاج الروحانية، وخلِّط السموم وعقدها وحلها وعلاج الأزواج الروحانية ليلًا إن شئت أو نهارًا، واحترس في ذلك كله من العيون اللامعة والهموم المؤذية؛ فإنهما يفسدان روحانية العالم الأصغر والأكبر ويزيلانها عن حدودها ويغيِّران أعراضها.

قال: وجدت في الكتاب المخزون أنه ليس شيء من الأعمال الموصوفة في الأصغر والأكبر إلا والعيون إليه بأسرع بالفساد من هذه الثلاثة الأشياء: النيرنج، والصنعة، ودعوة الروحانية.

ولذلك أمر الحكماء بإخفاء هذه الثلاثة وأسرارها واكتنانها عن جميع الناس، إلا عن تلميذ مؤتلف الروحانية، صحيح العزم، تام الطبيعة، مأمون الصحبة، مُعِين على الازدياد من العلوم.

وقد أتينا على دائرة منازل القمر والبروج الاثني عشر في هذا الموضع من الصفحة؛ لتقف عليها وتقع تحت الحس السحري، وهذا موضع صورة الأشكال الثمانية وعشرين منزلة، وشهور الروم والقبط في كلِّ منزلة، ودخول الشمس، وطول الليل والنهار، وقصر الليل في دخول الشمس.

وأعيذك أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيَّدك الله تعالى وإيانا بروح منه، من العمل بما لا يوجبه ولا يقتضيه الشرع، إلا ما كان من دفن مال، أو حفر بئر أو نهر، أو بناء سفينة أو دار، أو تزويج، أو دخول على سلطان، أو سفر، أو زرع، أو غرس، أو شراء عقار، وما ينتهي بهذه الأمور.

فأما ما عداها فإن إخواننا، أيَّدهم الله، قد عصمهم الله عن أفعالها: أعني العطوف والشد والربط وما شاكل هذه الأشياء، وإنما شرحنا ذلك لإخواننا لتعرف كيفية عمل مَنْ يعمل ذلك؛ ليكون علمهم محيطًا به، وأيضًا لنُعلمهم أن الحكماء لم يَفُتهم شيء مما يحتاج الناس إليه من أمر الدين والدنيا إلا وقد تكلَّموا وعملوا عملًا، وأظهروا خواص الأشياء التي يتعجَّب منها عوام الناس، وليعلموا أن الله تعالى لم يوجِد شيئًا باطلًا، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

فإذا تأملت هذه الحكمة، وتدبَّرت هذه الصنعة، وعرفتَ هذا السر، واطَّلعت على حقيقة هذا السحر الذي يسحر العقول، وبانت لك الأشياء بحقائقها، وتعلمت كيف تسحر من هو من الناس، وتبيَّن لك ما خفي عن غيرك من الغافلين من الأمور الإلهية.

فانتبه، أيها الأخ، من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وأيقِظْ مَنْ قدرت عليه من الغافلين؛ ليحصل لك النفع العاجل والخير الواصل في الدين والدنيا، بلَّغك الله تعالى، أيها الأخ البارُّ الرحيم، منازل الأخيار المصطفَين، ورقَّاك إلى منازل الملائكة المقرَّبين، وأيَّدك الله وإيانا بروح منه وجميع المؤمنين، برحمته آمين.

هذه الدائرة، وعِدَّتها ثمانية وعشرون منزلة، التي ذكرها صاحب الإسطيطاس، ذكرناها في هذه الرسالة التي هي من جنسها.

ونريد أيضًا أن نذكر طرفًا من النيرنجات المُعِينة على ما يراد منها، فما وجدناها في كتاب هرمس المثلث بالحكمة؛ فإنه قال — بعد تقسيم القمر وسيره: إن النجوم السبع قد تقسَّمت للتدابير بروحانيتها ومسيرها في الطوالع الاثني عشر، وذكر أن القسمة الأولى لم تبطُل ولم تُنتقص، وأنه الأصل في القسمة الأولى، غير أن هذه الروحانيات اللاتي هي السبع قد ضربت الاثني عشر بقسمتها، وغلبت عليها روحانيتها، وقسمتها بالدقائق والثواني، والتسديس والتربيع والتثليث، والمقابلة والمقارنة، وألحقتها بتدبيرها في المواليد خاصة وثمار الأعمار، مما ينقص من هذه القسمة في منازل القمر ومسيره؛ وذلك أن القمر هو السعد الثاني، ومسيره أسرع النجوم مسيرًا في منازله، وأقدر أن يبلغ بروحانية جميع النجوم بسرعة حركته.

وذكر أيضًا في كتابه أنه ليس من حكيم إلا وهو محتاج إلى معرفة هذه القسمة؛ لأنها الأساس بتدابير الأعمال والصنعة.

قال: ووجدت أيضًا من أسرار العلوم الخفية في أخذ هذه الأعضاء الروحانية، من العالم الأصغر والحيوان المتحرك، أنه قال: يؤخذ الدم من العالم الأصغر في حجامته وفصده وجراحته وهو يجري، وسعد رأسًا وحاسة، وأما دم الحيوان المتحرك فلا يجوز، إلا دم الأوداج في الذبح؛ وذلك أن العالم الأصغر كامل الطباع في تركيب الجوهر، تام الروحانية في الأعضاء السبعة في الأجزاء الاثني عشر. وأما سائر الحيوان المتحرك فناقصة التركيب في الجوهر، فلا يجوز إلا دم الأوداج في مجاري النفس وعلاقة الحياة وروحانياتها. قال: وإذا أخذت الدم من العالم الأصغر فإن أردت استعمالها رطبًا فاجعلها في قارورة وعلِّقها في شمس حارة أو بيت توقد فيه النار في حائط بوتد، واشدد رأس القارورة بقطنة،

ثم دَعْها يومًا حتى يسكن جوهره ويرتفع ماؤه، ولينبت طبيعته فوقه بوهج الشمس أو مادة الحرارة في البيت الذي توقد فيه، فإذا تمَّ ذلك يومًا أو ليلة لتمام اثنتي عشرة ساعة فارفعه، وصُبَّ الماء المرتفع على رأسه، وخُذ ما سكن منه. فإذا أردت استعماله رطبًا استعملته، وإن أردت تجفيفه صُبَّه على جام[٢٣] وضعه في الشمس ومكِّنه بغطاء من غبار الهواء، واجعله بالليل في مكان لين سخن، ودبِّره أبدًا كذلك حتى يبرد وينعقد، وجفِّفْه وارفعه عند ذلك في قارورة لطيفة حتى يُحتاج إليه.

فأما دم الحيوانات المتحركة فإنك لا تحتاج إلى تدبيره كذلك؛ وذلك أن طبيعة الحيوان المتحركة ليست بتامة ولا كاملة، ولا يحتاج إلى تدبيره في الشمس وتصفية مائه المرتفع من فساد جوهر الطبيعة، فإن أردت استعماله رطبًا فخُذه في قدح وضعه ساعة حتى يسكن وجفِّفْه واستعمله، وإن أحببت استعماله يابسًا فجفِّفْه في الشمس على الصفة الأولى، ثم ارفعه في قوارير واستعمله، وليكن ما تأخذ من الدم — دم الأوداج — من أول قطرة تسيل منه إلى أن تأخذ حاجتك منه، وخُذ ذلك في قارورة وطشت، ولا يُصيبنَّ الأرض شيء منه.

الدماغ: قال: وخُذ الدماغ من العالم الأصغر والحيوان المتحرك وارمِ بسنطته، وهي الجلدة الرقيقة التي هي محيطة بالدماغ، وارمِ مضربه والعروق المتعلقة به، وارمِ بعضيضته، وهي الدودة المتخيَّلة فيه؛ فأذى نفسه من ذلك كله، وإن أردت استعماله رطبًا فاستعمله، وإن أردت تجفيفه فابسطه في جامٍ، وضعْهُ في الظل في مكان بارد مغطًّى حتى يجفَّ، وارفعه في قارورة نظيفة حتى يُحتاج إليه.

المخ: وأما المخ فتُبرزه من العظام في جام، فإن أردت استعماله رطبًا فاستعمِلْه، وإن أردت تجفيفه فابسطه على جامٍ، وضعْه في الظل في مكان بارد مغطًّى حتى يجفَّ واستعمله فيما تريد.

المرارة: إن أردت استعمالها رطبة فأرسِلها في قوارير واستعملها، وإن أردت تجفيفها فعلِّقها في الشمس حتى تجفَّ وارفعها، وإن أردت استعمالها فضعها وأخْرِج المرارة من جوفها وأخرج الجلد وارمِ به واستعملها فيما تريد.

---

[٢٣] الكأس من فضة، والجمع أجوام وأجؤم وجامات وجوم، بسكون الواو وقبلها جيم مفتوحة، فارسية معرَّبة.

الشحم: خذ شحم الكلية المسعة من العروق فأذِبْه في ضجير، ثم صَفِّ الذائب منه في شربة مملوءة ماء حتى يبرد وتذهب زهومته ونتنه، ثم ارفعه في قارورة واستعمله فيما تريد.

الأنفحة: خذ الأنفحة فعلِّقها في الظل حتى تجف، ولا تستعملها رطبة، وغير ذلك من اللحم والكبد والرئة، وغير ذلك من حيوان الماء، فخُذ ذلك وكُلِ العدد الذي وُصِفَ لك كله، ولا تُطْعِم منه أحدًا شيئًا؛ فإن أردت أخذ الخذفة فارمِ جلدتها عنها قبل أن تجفَّ واستعمل الباقي.

قال في كتابه: إذا أردت أن تُطْعِم شيئًا من هذه الأخلاط أحدًا في طعام فاعمل من الطعام ما يأكله الإنسان الواحد، واخلط ذلك به وامزجه فيه، وليكن ذلك الطعام حلواء تُعْمَل أو لحمًا تشويه بيدك أو أقراصًا محشوة، ثم اطلِ ذلك الخلط عليه حتى تذيبه بالنار سخنًا ذائبًا قبل أن يبرد إن كان لحمًا أو أقراصًا؛ فإن كانت حلوًا فاخلط بها قبل فراغك من صنعتها إذا قاربت الإدراك قبل أن ترفعها عن النار، ولا يأكلن أحد منه سوى مَنْ عملت له هذا في نيرنج المحبة والعداوة والسموم وعقد الشهوة والإطلاق وحل السموم وسائر العلاجات الموصوفة، دبِّر كذلك كله.

وقال في كتابه: إن عامل النيرنج وصانعه ينبغي له أن يجمع وهمه ويصحح عزمه ونيته فيما يعمله تصحيحًا لا يشوبه شيء؛ وذلك أن هذه الروحانية تنفذ وتقوى بصحة نيته وهمته، وإذا دخل في بابها شك أو ريب ضعفت الروحانيات فلم تعمل ولم تنفذ. وإذا أردت أن تخلط نيرنج المحبة والعطف والمودة فقل — وأنت تعالج ذلك بصحة من عزمك ووهمك: هذا تأليف المحبة في طبيعة فلان ابن فلان، بالمودة والعطف والمحبة، وقد حركت روحانيته الساكنة في قلب المحبة في طبيعة روحانية هذه الأخلاط وقوتها على فلان ابن فلانة، وهيَّجته بالمحبة والمودة تهيُّجًا قويًّا مثبتًا شديدًا كحركة النار وقوتها، وتهيُّج الريح وهبوبها، ولا تزال تقول ذلك حتى تفرغ منه. فإذا فرغت منه فأَخْفِه عن العيون الناظرة وشروق الشمس وشعاعها ومس أيدي البشر وشمِّهم، فإن أمكنك أن تُطعمه من يدك فافعل؛ فإنه أنفذ وأقوى، وإن لم يمكنك فادفعه إلى كتومٍ أمينٍ، وتقدَّم إليه ألَّا يشمَّه ولا ينظر إليه ولا يضعه في الشمس حتى يُطعمه إياه، وإن أردت أن تعمل لنفسك فسَمِّ نفسك فيما تريد أن تطعم أو تدخر، وإن أردت أن تتمسَّح بخلط من الأخلاط لتحظى عند الناس جميعًا أو تدخره بدخنه فتقول — حين ترفعه على كفِّك، أو حين تطرح الدخنة في النار: جذبت الروحانية المعقودة في أعين البشر المتصلة بقلوبهم إلى نفسي، بالهيبة

لي بقوة هذه الروحانية التي يمسك بها كجذب شعاع الشمس نور العالم الأكبر وقواه، وجعلت نفسي وروحانيتي مرتفعة على أنفسهم وروحانيتهم بالهيبة والإعظام، كارتفاع نور الشمس على نور العالم وقواه. وإذا أردت أن تعمله للعداوة والتفريق فقل: قطعت بين فلان ابن فلانة وفلانة بنت فلانة بقوة الأرواح الروحانية، وفرَّقت بينهما كافتراق النور والظُّلْمة، وألقيت بينهما العداوة والبغضاء كعداوة الماء والنار. وإذا أردت أن تحل العقد فقل: حللت وأطلقت القطيعة البائنة القائمة الروحانية بين فلان ابن فلانة وفلانة بنت فلانة بقوة هذه الأرواح الروحانية وقمعتها قمع النور للظُّلمة والحياة للموت.

وإذا أردت أن تعقد الشهوة وحركاتها فقل: عقدت روحانية شهوة فلان ابن فلانة عن فلان ابن فلانة بقوة هذه الأرواح الروحانية كعقد الجبال المعقودة وصخورها.

وإذا أردت أن تحل هذا العقد فقل: أطلقت عن فلان ابن فلانة عقد روحانية شهوة فلان ابن فلانة المعقودة بقوة هذه الأرواح الروحانية، كإطلاق الشمس النيرة ظلمة العالم وأرواحها وأذيبها كذوبان الموم[٢٤] بالنار والثلج من الشمس.

وإذا أردت أن تعمل شيئًا من هذه النيرنجات في صلاح الأرواح فقل: نفيت وقمعت الروحانية الكامنة في جسم فلان ابن فلانة بقوة هذه الأرواح الروحانية، كقمع الشمس الظُّلْمة والماء النار.

وإذا أردت أن تعمل شيئًا للهوام والسباع دخنة أو غيرها فقل: دفعت فطردت روحانية الهوامِّ والذباب والسباع القاتلة بقوة هذه الأرواح الروحانية، كدفع النور للظلمة وطرد السنانير للفار.

وكلما أردت أن تعالج شيئًا من هذه النيرنجات فصحح وهمك فيه، واستعمل في ذلك التحفظ والتحرز وحسن العمل والتثبُّت والرفق، ولا تعملنَّ شيئًا بخرَق ولا عجلة؛ فإن الخرَق والعجلة ضد الرفق والتثبُّت، فتكلَّم في ذلك كله بكلام في معنى ما يُعمل به؛ فإن الكلام في النيرنج يُقوِّي الروحانية الكامنة ويُنفذها.

وذكر في كتابه أن النيرنج أربعة أجزاء: جزء منه الأخلاط الصحيحة التي تؤخذ على الموازين المقدرة، وجزء منه صحة الهمة والعزم والنية، وجزء منه الكلام المقوِّي لروحانيته، وجزء منه حرزه وحفظه من العيون والأيدي اللامسة وإشراق الشمس وضوئها.

---

[٢٤] الموم: أداة الحائك يضع فيها الغزل وينسج به، والموم: الشمع، وهو المراد هنا؛ لأن من شأنه الذوبان كما يُفْهَم من تعبير المؤلف ... ا.هـ.

قال: وإذا أردت شيئًا تقطع ألسنة الناس عنك أو غيرك فقل: سترت على فلان ابن فلانة، أو على نفسي، بستر النور المضيء، وقطعت ألسنة الناس جميعًا عنه، أو عني، وأسبلت على أعينهم سترًا روحانيًّا دافعًا لمناظرهم الخبيثة، قاطعًا لألسنتهم المؤذية، قامعًا لهمَّتهم المؤذية.

وإذا أردت أن تهتك ستر إنسان أو تفضحه فقل: هتكت ستر فلان ابن فلانة بقوة هذا الروحاني، كهتك شعاع الشمس غلظ الضباب، وفضحته وجعلته غرضًا لروحانية الألسنة بالروح المذموم، كغرض السهام الذي يتعاوره الرماة.

وذكر في كتابه: أنه سأله فقال له: هل أن هذه الوحوش والسباع والطير والهوام كيف تشاء يصاد ذلك؟ والطير هل إليه وصول بحيلة ليست كحيلة العوام وصيدهم؟

قال: نعم. وجدت في الكتاب المخزون من أسرار العلوم الخفية.

فقال له: أنت أيضًا مجاذب بروحانيتك العامة المستعملة جميع أسرار العلوم الخفية ولطائفها، كجذب شعاع الشمس نور العالم وقواه، ولست تعقل عن شيء من العلوم الخفية والأسرار اللطيفة إلا جذبتها بروحانيتك. قال: وأنا مبينك عما سألت، ومبين لك الحق، ومفسِّر ذلك في الأسرار في أخذ هذه الوحوش والسباع والطيور بحيلة الحكمة، فاستر أمرك وسَلْ عما بدا لك أُجِبْك، وأَطِل الفكر والنظر في الأمور الغامضة المغلقة عليك، فإن بيدي مفاتيح الأعمال، وأسرار الأسرار، وعلل الأسرار، ولست أكتمك منها شيئًا. فإذا أردت أن تأخذ هذه السباع والوحوش والطيور، وتذل لك روحانياتها، وتشتاق إلى طبائعها، من غير أن يصيبك أذًى أو يتناولك مكروه، أو يستصعب عليك أخذها، فاعمل أربعة أخلاط تأخذ بها جميع الحيوان المستوحشة في قسمة النجوم السبعية: الخلط الأول يُسمَّى «بادميا»، تعمله لجميع السباع كلها. والثاني يقال له «سمومديا»، تعمله لجميع الوحوش كلها. والثالث يقال له «عموديا» لجميع الطيور الوحشية. والرابع يقال له «رعوديا» لجميع الهوام الدبابة كلها.

صفة بادميا للسباع كلها: تأخذ من دم الفرس أربع أواقٍ، ومن شحم الضبعة أوقية، ومن دماغ الضبعة أربع مثاقيل، ومن مرارة الطير مثقالين، ومن مرارة السنُّور الأسود مثقالًا، ومن شحم الخنازير ثلاثة مثاقيل، ومن دماغ الحمار أربعة مثاقيل، ومن مرارة الغراب ومرارة النسر ومرارة العُقَاب ومرارة الديك من كل واحد مثقالًا، ومن دم الثعلب أوقية، ومن شحم الأرنب ودماغه من كل واحد أربعة مثاقيل، ثم تجمع الدهنين في طنجير وترفعه على النار حتى يسخن. فإذا سخن طرحت عليه الدماغ حتى يذوب، ثم طرحت

عليه الشحم حتى يذوب، ثم اطرح عليه المرارات كلها رطبة حتى تختلط به. فإذا اختلطوا جميعًا أخذت من البروج المسحوق أربعة مثاقيل، ومن سد قوس المرضوض عشرة مثاقيل وهو البلار، ومن سلخ الحية المدقوق مثقالين، ومن الكبريت الأصفر والزرنيخ الأحمر من كل واحد خمسة مثاقيل. فإذا اختلط ذلك في النار جميعًا فارفعه عندك ودعْهُ حتى يبرد.

فإذا برد فاجعله في زجاجة محرزة وارفعها. فإذا أردت أخذ سبع من السباع كالكراسي والفيلة والرئبال والأسد والعربيان والرمان والعرمان وما دون ذلك من السباع القاتلة المقسومة في قسمة النجوم السبعية فخُذ رطلًا من شحم كلب أي الألوان كان فاطْلِهِ من هذا الخلط الذي عملت وهو البادميالون أربعة مثاقيل، فتجعله في مسقط وترفعه على النار حتى يذوب، ثم اطله عليه ثم تأخذ من البادميا مثقالًا ومجمرة فيها جمر وتمضي إلى مكان هذه السباع فتدخن بالمثقال والشحم في يدك فتقول: أخذت روحانية كذا أيتها السباع أردت باسمه بقوة هذه الأرواح الروحانية، وسقت بها إلى نفسي سوق الريح السحاب، أدعوكِ أيتها الروحانية الكامنة في جسم كذا وكذا تسميه بعينه بقوة هذه الأرواح الروحانية فأجيبيني طائعة ووافي ذليلة.

فإنك إذا دخلت بذلك وتكلَّمت بهذا الكلام لم يلبث ذلك السبع الذي تريد؛ فإنه لا يملك نفسه حتى يتكالب عليه فيأكله. فإذا أكله ذل وخضع وصار مثل الرجل السكران وانقمعت روحانيته.

فإن أحببت شدَّه بحبل فافعل وسُقْه صحيحًا حيث شئت.

فإن أحببت فاذبحه في المكان وخُذ من أعضائه الذي تريد.

(٧٠) صفة السموديا[٢٥] للوحوش

تأخذ من دم الكلب الأسود خمس أواقٍ، ومن دماغ الخنزير أربعة مثاقيل، ومن شحم الأرنب أوقية، ومن مرارة الأيل وشحمه من كل واحد مثقالين، ومن دماغ الغداف أربعة مثاقيل، يُجعل الدم في طنجير ثم يُطرح عليه الشحم حتى يذوب، ثم الدماغ ثم المرارة، فإذا ذاب واختلط فخُذ من قرن الأيل المسحوق وزن عشرة مثاقيل، ومن حافر حمار

[٢٥] لم أعثر في كتب اللغة على تفسير تلك الكلمة.

الوحش المسحوق مثقالًا، ومن حب السروج خمسة مثاقيل، ومن الكرفس الجبلي — وهو الفطر أساليون والسيساليون — من كل واحد أربعة مثاقيل، يُسْحَق ويُطْرَح فيه ويُخْلَط ثم يُرْفَع في إناء زجاج.

فإذا أردت أخذ وحش من الوحوش فخُذ قدر أوقية من دم الإنسان، اجعله في طنجير وسخِّنه على نار لينة، ثم اطرح عليه من هذه الخلط أربعة مثاقيل حتى يذوب، فإذا ذاب فخُذ حزمة كرفس جبلي رطب، فانقعه في ذلك الدم العذاف فيه السويداء، ثم ارفعه على شيء نظيف حتى يشرب ذلك، ثم خذه وخُذ مثقالًا من السموديا ومجمرة فيها نار، واذهب إلى مكان تلك الوحوش فاطرح الدخنة على النار، ثم تكلَّم بالكلام الأول الذي وصفت لك في باب السباع والوحش الذي تريده بعينه؛ فإنه لا يلبث أن يأتي إليك فألْقِ إليه الكرفس الذي معك حتى يعتلفه، فإذا اعتلفه تعبَّدت روحانيته وذلَّت لك طائعة خاضعة، فاذبحها إن شئت أو سُقْها بالحبل كيف شئت.

(٧١) صفة العموديا لطيور الطيارة

تأخذ من دم عقاب أوقية، ومن دماغ نسر ومن دماغ صقر ومن دماغ شاهين من كل واحد مثقالًا، ومن شحم الكُرْكِيِّ وشحم البط من كل واحد خمسة مثاقيل، ومن مرارة البومة والهامة ومرارة الغداف من كل واحد مثقالًا. يُسخن الدم في طنجير ويُطْرَح عليه الشحم، ثم الدماغ، ثم المرارة، حتى يختلط ذلك كله فيه، فإذا اختلط فخُذ من حَبِّ النيروج المسحوق وحَب الصنوبر المسحوق من كل واحد خمسة مثاقيل.

ومن السمسم والحنطة وحب الفرصاد من كل واحد مثقالًا، تسحق ذلك جميعًا وتطرحه على ذلك الدواء، واخلطه، فإذا خلطته به معًا فادفعه في زجاجة نظيفة.

فإذا أردت أخذ طير فخُذ كليحة سمسم، ومن العموديا أربعة مثاقيل، فأَذِبْه في ماء الهندباء قدر رطل، واطرح السمسم فيه حتى يختلط ثم ارفعه حتى يجفَّ، فإذا جفَّ فخُذه، وخُذ من العموديا مثقالًا، ومجمرة نار، واذهب إلى مكان الطير الذي تريد فبخِّر به، وتكلم بالكلام الأول، وتسمِّي الطير فإنه يأتيك، فإذا أتى فاطرح له السمسم، حتى إذا اعتلفه ذلَّت لك روحانيته، وإن كان من الطيور أُولي النهش فخُذ عصفورًا واذبحه وانتف الريشة، وخُذ مثقالًا من العموديا فأَذِبْه في مسقة، واطْلِ به ذلك العصفور، واحمله معك واطرحه إليه، فإذا أكله ذلَّت لك روحانيته وخضع، فاصنع به ما بدا لك.

(٧٢) صفة العموديا للهوام

تأخذ من دم الأيل أواقي، ومن دماغه وشحمه من كل واحد مثقالًا، ومن دماغ الأرنب مثقالين، ومن أنفحة الظِّبَاء وأنفحة الأعير الأهلية من كل واحد نصف مثقال، ومن قرن الأيل المسحوق وقرن العيريان مثقالًا، ومن شحم الأفعى مثقالًا. يُجعل ذلك الدم في طنجير ويُسخن ويُطْرَح عليه الشحم والأدمغة والأنفحة والقرون حتى يختلط ذلك عليه جميعًا، فإذا اختلط فارفعه في زجاجة نظيفة، فإذا أردت أَخْذ شيء من الهوام الدبَّابة فخُذ شيئًا من لبن امرأة في مشربة نحاس، وأَذِبْ فيه مثقالين من هذا الخلط، ثم خذ مثقالًا منه ومجمرة، فاذهب إلى مكان تلك الهوام من الأفاعي والقنفذ والورم وغير ذلك فدخِّن بذلك المثقال وتكلم بذلك الكلام الأول، وسمِّ ذلك الضرب باسمه؛ فإنه لا يلبث أن يخرج إليك، فتضع المشربة بين يديه حتى يشربه، فإذا شربه ذلَّت لك روحانيته، فإن لم يكن من الهوام التي تشرب اللبن مثل العقارب والعظايات فخُذها حتى تخرج إليك؛ فإن روحانيتها مقموعة لا تمتنع عليك.

فإنْ عارضَ مُعارض وقال: لا خلاف بين العلماء بخواص الأشياء أن الحيات تنفر من قرن الأيل أبعد نفار، وأحدنا إذا أحسَّ في داره بحية دخن بقرن الأيل حتى تهرب الحية إلى دُور كثيرة، فكيف جعلته أنت في الأدوية التي تُصاد بها الهوام؟! فقال: ألست تعلم أننا ننفر من رائحة البصل والثوم أبعد نفار، وإذا وقع مع التوابل في القدور استطبناه، وكذلك الخردل والفلفل، نكرهه على الانفراد، ونلتذُّ به إذا وقع في الطبخ.

قال: فسألت الحكيم، فقلت له: أنت ذكرت أن في بعض هذه السباع وأدوائها وأعضائها سمومًا مؤذية تقتل بالرائحة؟ قال: بلى. قلت: كيف يحترس الرجل من ذلك وقت أَخْذ هذه السباع؟ قال: حرزه في الأخلاط التي وصفت لك. قلت: كيف يصنع؟ قال: يأخذ من الخلط الذي يُسْتَعمل في أي الأنواع أراد، فيبدأ قبل كل شيء فيذيب شيئًا منه قدر نصف مثقال بقدر نصف أوقية دهن السمسم، ويمسح به يديه ومنخريه وفمه ووجهه ساعةً وقدميه مسحًا رقيقًا، ثم يعمل ما وصفت لك؛ فإن ذلك يكون حرزًا له من كل شيء يتخوَّفه من عادية السموم.

قال التلميذ: قلت للحكيم: وجدت في ذلك الكتاب مع قوة روحانية هذا الكلام الذي يتكلم به على الدخنة للبهيمة التي لا تعقل، وما معنى الكلام بحيوان لا عقل له ولا فهم؟ وإن الحكيم الأول قطع الكلام على نيرنجات العالم الأصغر لتركب عقله وفهمه، فما باله

وضع ذلك الحيوان الذي لا عقل له؟ فأجابه الحكيم: هذا الكلام لم يوضع لشيء مما ذكرت، ولم يقسم على العقل والفهم، وقد وجدت في الكتاب المخزون أن جواهر الكواكب التي وصفت لك مأخوذة من الروحانية الأولى المؤلَّفة في تركيبك الذي هو الإنسان؛ لأنه لا يتمُّ إلا بتحريك منك، فاجعل ذلك الكلام لك لا للغير، هذا من أسرار العلماء، فاحفظه ولا تُخرجه إلى الغير، فإنه يكون فسادًا عظيمًا وتحت ما أخبرت لك كنز عظيم، وإن وفقت لفهمه، وإنما هو لك لا للحيوان ولا للعالم الأصغر؛ لأنه لا يتمُّ إلا بتحريك منك، فاجعل ذلك الكلام لك لا للغير، وهذا من أسرار العلماء.

واعلم أيضًا أن جواهر الكلام وروحانيته أمران جُمِعَا جميعًا فانقادت لهما الروحانية المستجنَّة في الأجسام من العالم الأصغر، وتلك الروحانية في ذاته سامعة عاقلة. ومما يدلُّك على أن هذا الكلام لم يوضع في معنى ما قلت أن النيرنجات التي تعلمها للعالم الأصغر إنما يتكلم عليها من حيث لا يسمع الإنسان ولا يبصره، ومَنْ لم يسمع شيئًا ولم يبصره ولم يفهمه فإنما تصل إلى روحانيته الكامنة في جسمه أرواح تلك الأخلاط والكلام من حيث لا يعقله ولا يفهمه ولا يراه، ثم يتحرك ذلك في باطنه بالمعنى الذي عمل له من الحب والبغض والعقد والحل ونحو ذلك، وكذلك الحيوان المتحرِّك أيضًا إنما تصل تلك الأرواح إلى روحانيتها المستجنَّة فيها من حيث لا تفهم ولا تعقل ولا ترى، هذا إن صدقت روحانيتك ولم ترتب فيما تفعله فتسوقها إلى ذلك المكان دعت إليه طائعة لروحانيتها الخبيثة، وليس هذه النيرنجات المعمولة على الحيوان المتحركة بأعجب من النيرنجات المعمولة على العالم الأصغر، بل سائر العالم الأصغر في ذلك أعجب بما فيه من تركيب العقل والفهم وقوتهما، ولو أن العالم الأصغر أبطل هذه النيرنجات المعمولة وقطعها في فهمه لكان حريًّا بذلك لتمام تركيبه وكمال خلقه، كما أنه لو عملت نيرنج العالم الأصغر وأحس منك بذلك ولم يستشعر أنه عامل بطل فعلك، فاعرف هذا.

فقلت له: هل بقي في هذا الباب ما لم يأتِ عليه الشرح في هذا المعنى؟ فقال: وليس قدر ما ذكرنا إلا كقدر قطرة من بحر، وإن في علم روحانيات الكواكب ومعانيها ومعرفة أوقات العمل لها ولباسها ودخنها والكلام الذي يحتاج لكل واحد منها وما يظهر من أفعالها لمن وقف بمعرفة علمها عجبًا عجيبًا؛ فأقل ما في ذلك العلم أنه من التمكُّن أن يؤدي العالم الأصغر في منامه ما تدوم من جهته فينقاد إليه خاضعًا، طالبًا أن يرى

إقبالك عليه وقبولك ما يبذله لك سعادة عظيمة، وغير ذلك مما شاهدت من عجب هذا العالم أنِّي كنت بجزيرة أُوال.[٢٦]

وكان بها رجل من المتصلين بحبل الله، عالمًا بهذا العلم، فقصدته زائرًا، فرأيت قومًا من أهل البلد قد دخلوا عليه، وشكَوا إليه غمَّهم بمحبوس لهم قد حبسه أمير البلد في جناية جناها، قالوا: قد اطَّرحنا أنفسنا على الوزير والحاجب وخواص الأمير فلم ينفعنا ذلك، وقد بذلنا له من الرشوة بحسب طاقتنا فلم يقبل، وقد ذُكر لنا عنه أنه قال: لا بد لي من قتله. فأطرق ذلك الفاضل إطراقة ثم رفع رأسه وقال: الليلة في آخرها صاحبكم عندكم، فامضوا ولا تُشْعِروا أحدًا بما ألقيته إليكم، فخرج القوم من عنده.

فقلت له — على طريق الملاعبة: قد أُوحي إليك أن الأمير الليلة يُطلق هذا المحبوس! قال لي: سوف ترى! فقلت: ولا يجوز أن يطلقه غدًا! فقال: إن تأخر إطلاقه الليل لم يصح إطلاقه إلى ستة أشهر وكسر، وإنما قد اتفق سعادة لهذا المحبوس أنْ جاءني هؤلاء القوم في هذا اليوم.

واشتغل بحديث آخر، وخرجت من عنده، فلما كان من الغد أتيته مسلِّمًا فوجدت القوم الذين جاءوه بالأمس قد سبقوني إلى عنده وهم شاكرون له بما بشَّرهم به من تخلية المحبوس، ويسألونه عن علمه بذلك؟ فقال لهم: الطالع الذي دخلتم به شهد أن محبوسكم في هذه الليلة يُطْلَق. ولم يكشف لهم عن حقيقة الأمر.

ورأيت غلامًا شابًّا مصفرَّ اللون قد أنهكه الحبس والقيد، فأقبل الشيخ على الشاب فقال له: حدِّث هذا الرجل كيف خلَّاك الأمير البارحة! فالتفت إليَّ الشاب الذي كان محبوسًا فقال: إني كنت محبوسًا في المطمورة مطروحًا، وأنا مكبَّل بالحديد، وقد هدَّدني السجان في آخر يوم أمس، وقال بأن الأمير قد أنفذ بأن يُحْمَل إليه قوم قطعوا في البحر الطريق، وأنه ينظر أولئك، وأنه يصلبك في جملتهم. ذكر لي هذا عند اصفرار الشمس فبكيت طول ليلي ولم يحملني النوم أصلًا.

فبينا أنا كذلك وقد عبَر من الليل النصف الأول، إذ سمعت حركةً شديدةً وباب المطمورة يُفتح، ففزِعت وشِلْت رأسي إلى السماء مستعينًا بالله تعالى، وإذا الجماعة من الخدم قد نزلوا وحمَلَني أحدُهم بحديدي، فأُدْخِلت على الأمير، فإذا به قائم، فلما رآني

[٢٦] أوال بالضم ويُرْوَى بالفتح: جزيرة يُحيط بها البحر بناحية البحرين، فيها خل وليمون وبساتين ا.هـ. معجم ياقوت، جزء أول، صفحة ٣٦٥، طبع مصر.

قال: حُطُّوه برفقٍ. واستدعى مَنْ فكَّ الحديدَ عني، وسألني أن أجعله في حِلٍّ بما فعل بي، وأمر بأن أُجْعَل في جملة خدمه، وأثبتَ لي رزقًا جاريًا مع خاصَّته، وأفرج عني. وهذا حالي.

وقاموا فخرجوا من عنده، فجدَّدت السؤال للشيخ ورغبت إليه أن يُعْلِمَني السبب في تخليته إذا لم يقُل لهم إنه سيُخلى الليلة عن فائدة؟ فقال: لا يمكنني أن أخبرك في هذا اليوم، فإن صبرتَ ثمانيةً وعشرين يومًا أعلمتُك. فقلت له: إني من الصابرين.

فلما انقضت الأيام جدَّدت السؤال فقال: هؤلاء القوم الذين جاءوا حدَّثوني بحديث المحبوس، قوم أخيار يلتزمني أمرهم، ورأيتهم مغمومين بهذا المحبوس فقلت لهم ما قلت، ولمَّا كان في تلك الليلة على ساعتين من الليل تجرَّدْتُ وعملت نيرنج المريخ، وقصدت بالنيرنج الأمير والمحبوس، فأطلقَه كما رأيت.

فقلت للشيخ: أُحِبُّ أن تُعلِمني سبب إطلاقه له؟ فقال: سبب ذلك أن الأمير رأى فيما يرى النائم كأن قد دخل عليه رجل أشقر أزرق على رأسه شعر وهو مكشوف الرأس وبيده سيف مجرد يقول: إن لم تُخَلِّ في هذه الساعة فلان ابن فلان المحبوس عندك وجاءت الليلة قطعتُ رأسك بهذا السيف! فكان هذا سبب التخلية له، فاستطرفت ذلك واستعظمته.

فقال لي: إياك أن يَسْمَع منك هذا في هذه المدينة أحدٌ ما دمت أنت بها، فضمنت له ذلك، وقلت: وللمريخ نيرنج يُعمل؟ فقال: لزحل لباس سواد، وللمشتري بياض، وللمريخ حمُرة، وللشمس أصفر، وللزُّهَرَة أخضر، ولعطارد ملوَّن، وللقمر سمكون، ولهم مع ذلك دخن وبخورات وأشياء أُخَر يعرفها العلماء الواقفون على أسرار الخليقة؛ مثل أكاليل يحتاج في عمل بعضها، فإن لبسه يضعها العامل على رأسه ومخانق سلعة يتقلَّد بها، فإن كان العمل لزحل احتاج أن يكون الإكليل من شكوك والمخانق من عظام، وآلات أُخَر لكلِّ واحد منها لو شرحتها لك لكثُر تعجُّبك منهم، ولكلِّ واحد آلة لا تصلح للآخر يعرفها العلماء الواقفون على أسرار الخليقة وروحانيات الكواكب. فقلت له: قد عارضني في هذا الموضع سؤال، ولست سائلًا عنه لشكٍّ عَرَض بل لاستفهام حسب، فقال لي ذلك العالم الفاضل: هلمَّ سؤالك! فقلت له: الأنبياء عليهم السلام، ما وقفوا على هذا العلم؟ فتبسَّم وقال لي: يا مسكين، ثقالة عكس علم الأنبياء، عليهم السلام. فقلت له: ما سمعنا أنهم تعسَّفوا في دعاء الخلق أو تعبوا التعب العظيم وطُلِبوا وهربوا من أيدي أعدائهم سرًّا، ومنهم مَنْ تأدَّى أمره مع أعدائه إلى أن قُتِلَ، فيا ليت شعري مع قدرتهم على هذا العلم الشريف لِمَ لا يعلِّمون لأعدائهم من هذه النيرنجات ما كان يضطرونهم معها إلى إجابتهم؟

فقال لي: ما أحسن ما سألت! إلا أن الأنبياء عليهم السلام، أرسلهم الله تعالى لنجاة الخلق؛ ولأن يطبُّوا أنفسهم المريضة بالعلوم الإلهية التي تكون شفاءها وتستدعيهم إلى العلم الاختياري كما قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، ولعل كثيرًا من الناس لا يفرِّق بين الدين والشريعة.

فأما الدين فلا إكراه فيه، فإن أُكْرِه عليه لم ينفع الذي أكرهوا على قبوله؛ لأنه أمر إلهي، وأما شريعة الدين فهو الذي يقع الإكراه فيها؛ لأنها أمر وضعي سُنِّيٌّ دنيوي، به يكون ثبات الدين ودوامه؛ فلهذا أُكْرِه الناس عليه، وهو ظاهر الإسلام، وأما الدين الذي هو الإيمان فلم يُكرههم عليه؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فلهذا قال النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوها حقنوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله. فقيل: يا رسول الله، مَنْ قال لا إله إلا الله دخل الجنة؟ فقال: نعم، مَنْ قال مخلصًا دخل الجنة. قيل له: وما إخلاصها؟ قال: معرفة حدودها وأداء حقوقها. فقيل: يا رسول الله، ما معرفة حدودها وأداء حقوقها؟ فقال: نعم، أنا مدينة العلم وعلِيٌّ بابها، فمَنْ أراد ما في المدينة فليأتِ الباب.» فأرشدهم إلى مَنْ يشرح لهم ذلك الذي يؤدي إلى الدين الاختياري إلى محبي الثواب؛ لأن الإكراه عن الإسلام صورة معروفة في الشريعة، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فلم يستعمل الأنبياء عليهم السلام هذا العلم لأحوال: أحدها أنه ضرْبٌ من الحيلة والمكر فلم يُبْعَثوا بذلك، وثانيها أنهم لو فعلوا ذلك لكان إجابة الناس إلى الخديعة لا إلى العلم الذي به نجاة أنفسهم، وكان يفوتهم الغرض الذي جاءوا فيه الذي هو نجاة الأنفس؛ لأن الأنفس ما كانت تصفو بما يكون فيه خديعة ومكر إذا كانت تتخلَّص من عالم الكون والفساد؛ ولأن هذا العلم فوائده مختصَّة بالعلم الأرضي، والأنبياء عليهم السلام فهم دعاة إلى العالم العُلْوي الذي هو أعلى من عالم الأفلاك؛ فلذلك لم يستعملوه أيضًا.

وأيضًا فلم يجُزْ لهم إلى أن يضيفوا إلى تأييد الله ووحيه بوساطة الملائكة المقربين حيلة بشرية ولا نيرنجية فلكية، ويجوز لأمثالنا نحن استعمالها في مصالح دنيانا، ولا يجوز لهم؛ لأنهم في شرفهم وعلوِّ منازلهم مستغنون عما نحن مفتقرون إليه، ولشدة تحرُّزهم وتنزيههم أنفسهم عن أفعال البشر قد شهدوا أحوالهم الدنيوية مضيَّقة عليهم مع معرفتهم وعلمهم بصناعة الكيمياء، وهذه الخصلة يقال: حلالها حساب وحرامها عذاب، كذلك جماعة أصحاب الشرائع جرى أمرهم فلزموا التزهُّد والتقشف والجشب من

العيش، وألزموا أنفسهم ذلك وحرَّموا عليها الطيبات، كذلك ليفعل الناس كفعلهم ويقتدوا بهم.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلهذا لم يفعلوا؛ لأن هذه المحرمات كلها إنما تجري مجرى الحِمْيَة التي أمرنا الطبيب الحاذق المشفق باستعمالها لصحة أجسامنا؛ لتبقى في الدنيا المدة المقدَّرة لها؛ والأنبياء، عليهم السلام، هم أطباء النفوس المريضة بجهلها، التي لا تصلح للعالم العلوي إلا بعد تصفيتها من أدناس الطبيعة، فحمَوها من هذه الأشياء التي حرَّموها؛ ليكون شفاؤها من جهلها وصحةً لها لصورتها الباقية شفقة علينا ورحمة بنا، فاقتدى بهم في سُنَّتِهم في ذلك خلفاؤهم وذريتهم التي هي الحبل الممدود مع الكتاب الذي لا انفراد لهم عنه إلى الحوض، كما أخبر النبي، فلم يفعلوا أيضًا مع علمهم ومعرفتهم اقتداءً بالرسل واتباعًا لهم، فهذا جواب مختصَر.

فقال له السائل: لِمَ لا أفصحت بهذا العلم الشريف لينتفع به الخلق؟

فقال: لو فعلنا ذلك لعظُم ضرره وبطُل أيضًا؛ فإنَّا إنما نُفصح بعمل روحانيات العالم الأصغر في رسالتنا هذه، بل أشرنا إليه إشارة فحسب لا غير؛ حذرًا أن تقع الرسالة في يد غير مستحِقٍّ فيُهلك الحرث والنسل ويُفسد النساء ويهتك الحرم؛ فلذلك ألغزناه وأعجمناه.

وأنت أيها الأخ، إذا صفا جوهرك وأَمِنت خبيئتك انفتح عليك من هذا العلم ما يسرُّك؛ فلا تَبِعه إلا كما اشتريت، وابخل به على الولد والوالد، إلا أن يأخذا له كما أخذت أنت، ويصفو جوهرهما كما صفا جوهرك أنت، فيبلغا ما بلغت من غير أن تعطيهما أنت شيئًا.

واعلم يا أخي، أن الحكماء إنما وضعوا الحكم لإحكام أعمالهم وإتقانهم لها، وأنهم لم يضعوا شيئًا من أعمالهم في غير موضعه، ولا فعلوا فعلًا لا معنى له، ولا أحدثوا من ذواتهم شيئًا يكون الضرر فيه أعم من النفع، ولو فعلوا ذلك لم يكونوا حكماء؛ فكيف أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين، خالقهم ومُوجِدهم ومؤيِّدهم أن يفعل ما يؤدي إلى الضرر والفساد، ولغير معنًى، وما قصد فسادًا، وما خلقه لإضرارنا، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا؟ وهو يقول عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

وإذا تأملت هذه الحكمة وتدبَّرت هذه الصنعة وعرفت هذا السر ورأيت حقيقة هذا السحر الذي يسحر العقول، بانت لك الأشياء بحقائقها، وتعلمت كيف تسحر الناس وكيف تصير القلوب إليك وتَبيَّن لك ما خفي عنها لما عميت الأنبياء عن الضالين الغافلين.

فانتبه يا أخي من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وأيقِظْ مَنْ قدرت عليه من الغافلين؛ ليحصل لك النفع العاجل والخير المتواصل في الدنيا والدين، بلَّغك الله منازل الأخيار المصطفَين، ورقاك إلى منازل الملائكة المقربين، وفَّقك الله وإيانا وجمع إخواننا المؤمنين برحمته إنه أرحم الراحمين.

كلمة الختام

نُجِزَ — والحمد لله — طبع كتاب «رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء»، كانت النية منصرفة عند البدء به إلى أن أتولَّى خدمته تصحيحًا ومقابلة على بعض الأصول التي منها نسخة مخطوطة في دار الكتب الملكية بالقاهرة، ولكن شئونًا اعترضت في السبيل فحالت بين النية والعمل، فتداول ما كنت مزمعًا الانفراد به جماعة من أهل الفضل هم: أمين أفندي سعيد والشيخ أحمد مصطفى والشيخ أحمد يوسف، وها هي آثار عنايتهم بالكتاب بارزة بيِّنة في كل صفحة من صفحاته.

هكذا قُدِّر لرسائل إخوان الصفاء التي هي صورة صحيحة لأرقى ما بلغ إليه العلم الفلسفي في عصر وضعها، أن تظهر بهذه الحُلَّة النقية طبعًا وورقًا وتصحيحًا، ومن الله التوفيق في البدء والختام.

خير الدين الزِّرِكْلي

هنـــداوي